الدرة الفردة شرح قصيدة البردة

المجلد الأول

من إفادات

صاحب الفضيلة المفتي رضاء الحق حفظه الله تعالى

شيخ الحديث والمفتي بدار العلوم/زكريا ، جَنوب إفريقيا

ترتيب وتحقيق

المفتي أويس بن مولانا يعقوب البنجابي الكودهروي

خريج دارالعلوزكريا/جنوب إفريقيا،و أستاذ الجامعة الإسلامية دابيل/ كجرات، الهند

مراجعة وإكمال

مولانا محمد عثمان البستوي

خريج دارالعلوم/ديوبند، وأستاذ بدار العلوم زكريا /جَنوب إفريقيا

نقله إلى العربية

الأستاذ/ محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري

أستاذ بدارالعلوم/ديوبند، الهند/ مساعد تحرير مجلة «الداعي»

الناشر

دار العلوم زكريا، لينيشيا،جَنوب إفريقيا

اسم الكتاب : الدرة الفردة شرح قصيدة البردة

المجلد : الأول

من إفادات : صاحب الفضيلة المفتي رضاء الحق حفظه الله تعالى

ترتيب وتحقيق : أويس بن مولانا يعقوب البنجابي الكودهروي

مراجعة وإكمال : محمد عثمان البستوي

نقله إلى العربية : الأستاذ/ محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري

عدد الصفحات : ٧٠٨

عام الطباعة : ٢٠١٩م

الطبعة : الأولى

الناشر : دارالعلوم زكريا،لينيشيا،جَنوب إفريقيا

مقدمة «الدُّرة الفردة» المعرَّبة

بقلم: صاحب الإفادات: المفتي رضاء الحق حفظه الله

الأستاذ والمفتي بدارالعلوم زكريا، جنوب إفريقيا

الحمد لله الكريم الأكبر، الذي مدَح نبيَّه ورسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم، فقال: ﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ٣ ﴾، والصلاة والسلام على سيد الجن والبشر، المبعوثِ إلى الأسود والأحمر، المنعوتِ برفع الذِّكر وشقِّ الصدر، صاحب الوجه الأنور، والجبين الأزهر، راكب البراقِ وصاحبِ المعراج وشقِّ القمَر، وعلى آله وصحبه وأزواجه وذرياته المتأدبين بآدابه، المتحلين بأخلاقه، المقتفين بأفعاله في السفر والحضر، وعلى من تبعهم إلى يوم يُنبَؤ الإنسان فيه بما قدَّم وأخَّر، ويكون إلى ربه المستقَر، فيكون المؤمن فيه الأعز الأغرُّ، في مقعد صدق عند مليك مقتدِر، ويصير الكافر إلى سقر.

أما بعد: فإن قصيدة البردة التي نظمَها العلامة البوصيريُّ رحمه الله تعالى في مناقب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ذلك الشاعر البصيرُ، والحِبرُ الكبير، الذي لا يكدر بحره الدلاء، ويرتشف من زلاله الفضلاء، والذي له مكانة مرموقة بين الكملاء، نالت قبولاً وافرًا في أكناف العالم، وتميزت بشروح لا تعد ولا تحصى في كل لغة، وتطايرت إليها أكابر العلماء وأفاضل العظماء حفظًا وقراءةً وشرحًا وتدريسًا وتلذذًا بأشعارها الجاذبة للأسماع والأبصار والبصائر، وبذلوا مجهوداتهم القيمة في إيضاحها وتوجه الجم الغفير من الكاملين إلى شرح مكنوناتها وإيضاح مشمولاتها وإشاراتها.

درَّس العبدُ الضعيف طلابَ العلم هذه القصيدة، وألقى عليهم المحاضرات قبل سنوات كثيرة في دار العلوم زكريا إفريقا الجنوبية باللغة الأردية، لغة التدريس في دار العلوم زكريا، وضبط هذه المحاضرات بعض المشاركين في الدرس، وعلى رأسهم أخونا

ومحبنا في الله مولانا أويس الفنجابي الكودهروي الغجراتي الهندي، المتخرج من دار العلوم زكريا، المدرس في الجامعة الإسلامية «تعليم الدين» بدابيل، غجرات، الهند، فضبط المحاضرات وزيَّنها بذكر الحوالات، ورصَّعها ببعض الزيادات من المراجع والمصادر. وأعانه في تكميل الشرح أخونا ومحبنا الشيخ محمد عثمان البستوي، المتخرج من دار العلوم ديوبند، والمدرس بدار العلوم زكريا. وتطايرت مؤسسات الطباعة إلى طباعته في باكستان والهند، فطبع ثلاث مرات باللغة الأردية، وسمَّيناه «الدرة الفردة في شرح قصيدة البردة».

ثم التمس منا بعض الإخوان، وكذلك خطر ببالنا أن يعرب هذا الشرح النافع ليستفيد منه إخواننا الذي لا يفهمون اللغة الأردية في البلاد التي ليس لها صلة باللغة الأردية، فاستعد للترجمة أخونا في الله الشيخ محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري، أستاذ الأدب العربي بدار العلوم ديوبند الهند، ومساعد مجلة «الداعي»، فقام بها وترجم ترجمةً حسنةً سهلةً لا تعقيد فيها ولا غرابة بأسلوب رائع جميل، فجزاه الله تعالى خيرا، وسرحنا النظر فيها بعد تكميلها فوجدناها مناسبةً للطلاب الذين يفهمون اللغة العربية. واجتنب المترجم عن الألفاظ الصعبة. وها الآن نقدِّم «الدرة الفردة» المعربةَ إلى القراء الكرام في اللباس العربي القشيب، فإن استفاد من هذا الشرح أحد فليدع لنا بخير. ونسأل الله تعالى أن ينفع به ويجعله وسيلة النجاة في أصعب الساعات. ونشكر جميع من بذلوا أقصى مجهوداتهم في هذا التأليف. وصلى الله تعالى على خير خلقه محمد وآله وسلم.

رضاء الحق عفى الله عنه

٢٥/ صفر ١٤٤١هـ=٢٤/ أكتوبر عام ٢٠١٩م

مقدمة الطبعتين: الثانية والثالثة

بقلم: صاحب الإفادات: المفتي الشيخ رضاء الحق حفظه الله

شيخ الحديث والمفتي بدارالعلوم زكريا، جنوب إفريقيا

الحمد لله تعالى على نعمه السابغة الكاملة، والصلاة والسلام على سيدنا وحبيبنا محمد صاحب المعجزات الباهرة والرسالة الشاملة، وعلى آله وصحبه وأزواجه وذريته، ومن تبعهم إلى قيام الساعة الهائلة، أما بعد:

نحمد الله تعالى شكرًا كثيرًا على أن أضفى القبول على جهودنا المتواضعة، التي قدمناها إلى أهل العلم وطلبة علوم الدين متمثلة في شرح قصيدة البردة، وقد وصل مجلدان من هذا الشرح الموسع إلى أيدي القراء خلال مدة سنة ونصف، و لقي هذا الشرح قبولا من قبل كافة الفئات المعنية بالعلم، وكادت طبعتها تنفد من الأسواق، وعَلَّقت المجلات والرسائل الموقرة تعليقات قيمة يغتبط بها على «الدرة الفردة شرح قصيدة البردة»، منها:

(١) مجلة «بينات»، جمادى الأولى عام ١٤٣٨هـ، جامعة العلوم الإسلامية، علامة بنوري تاؤن، كراتشي، نشرت مجلة «بينات» في عددها الصادر في ربيع الأول عام ١٤٣٧هـ مقالة ضافية مفصلة حول تاريخ ولادة النبي صلى الله عليه وسلم بالإشارة إلى هذا الكتاب.

(٢) مجلة «القاسم» خالق آباد، مديرية وقضاء: نوشهره، باكستان،تصدر بإشراف الشيخ عبد القيوم حقاني.

(٣) مجلة «نقطهءنظر» أبريل عام ٢٠١٥م، إسلام آباد، باكستان.

ومن جراء الأشغال الباهظة الشاقة والأمراض المحدقة بنا لم نتمكن من إعادة النظر في هذا الشرح في المرة الأولى كما ينبغي، وتسربت بعض الأخطاء إلى الطبعة الأولى منه،

ثم طالب كل من مكتبة زمزم /باكستان، وبعض الأحبة في الهند بإعادة طباعته، ففرغت- أنا العبد الفقير رضاء الحق، وأصحابي الشيخ محمد عثمان البستوي، والمفتي أويس البنجابي- بعض الوقت في أخريات العام الدراسي لإعادة النظر في الشرح كاملا قبل الطبعتين الثانية والثالثة. وعدَّلنا كثيرا من الأخطاء، وحاولنا كشف الإغلاق بعض المواضع، وهذَّبنا بعض النصوص، كما قمنا بالحك و الشطب والزيادة في بعض الأماكن، ولكن العمل الإنساني مبتور وناقص يشبه ظل الشجرة التي يلوِّحها السموم في أرض فلاة غير ذات زرع، فإن عثر بعض المخلصين على شيء من العبارات والنصوص التي تتطلب الإصلاح والتعديل فما عليهم إلا أن يطلعونا عليه حتى نتمكن من تعديله في الطبعة القادمة بإذن الله تعالى. كما نأمل من القراء الكرام ألا ينسونا في صالح دعواتهم.

ندعو الله تعالى أن يستر زلاتنا برداء مغفرته، ويجعل عملنا هذا منجاةً في الآخرة. وعلى المكتبات التي ترغب في طبع هذا الكتاب أو غيره من كتبنا وأعمالنا فليراجع الشيخ محمد عثمان البستوي، ويستأذنه به.

رضاء الحق عفى الله عنه

١٢/ شعبان ١٤٣٨هـ= ٩/مايو عام ٢٠١٧م.

تقديم

بقلم: صاحب الإفادة: المفتي الشيخ رضاء الحق حفظه الله
شيخ الحديث والمفتي بدارالعلوم زكريا، جنوب إفريقيا

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، لاشريك له، و أشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأزواجه وصحبه ومن تبعهم أجمعين.

نحمد الله تعالى على أن الشرح الذي طال انتظاره أوشك على الظهور للعيان. وقبل ما يقارب خمس سنوات طلب مني طلاب التخصص في الفقه وبعض المدرسين في جامعة دارالعلوم زكريا أن أدرسهم قصيدة البردة، ورغم أن الدروس المنوطة بي وغيرها من الأعمال في دارالإفتاء التابعة للجامعة كانت تثقل كاهلي، إلا أني لم أستطع رد طلبهم، فبدأت تدريسهم، وأكب هؤلاء على ضبط أمالي على الكتاب وتسجيلها في المسجلات، وكان من بين هؤلاء الطلبة السامعين و الدارسين طالب ذكي اسمه المفتي أويس البنجابي الكودهروي من طلاب قسم التخصص في الفقه. فرغب في ترتيب هذه الأمالي وتوثيق ما جاء فيها بالمصادر والمراجع، فأذنت له بذلك، فبدأ يوثق الأمالي هذه بالكتب والشروح المختلفة بعد جهد جهيد، أمضى فيه شطرًا كبيرًا من بياض نهاره وسواد ليله، يقارن كل شعر من أشعاره بهذه الأمالي ويعرضها علي، فكنت أتناول بالزيادة والنقص والبيان والتوضيح فيما أرى، بالإضافة إلى الإشارة إلى المصادر الجديدة، ثم توقف العمل لأسباب مدةً من الزمان، إلا أن المفتي أويس لم يستكن للأسباب العارضة، وواصل عمله، حتى تم له النجاح في إكماله.

يقف الناس من قصيدة البردة أربعة مواقف:

١. فيعتبرها السلفيون شجرة ممنوعة لايجوز اقترابها، ويطعنون في عدد من أشعارها،

جاء ذكر هذه الأشعار في المقدمة مجملا، وفي الشرح مفصلا.

٢. البريليون، والغلاة من الصوفية، الذين يستقون عقيدتهم الباطلة من بعض أبيات قصيدة البردة، ويجعلون من ميزات هذه القصيدة: اعتبار الرسول صلى الله عليه وسلم حاضرًا ناظرًا في كل مكان، ومختارًا على الإطلاق، وإباحة الاستمداد منه صلى الله عليه وسلم ونحو ذلك. قد تناولنا هؤلاء بالنقد العلمي في شرحنا، راجين من الله تعالى أن يوفقهم للسير على الصراط المستقيم بعد قراءته.

٣. الفئة الثالثة: المولعون بالرقى والتعاويذ، الذين لايهمهم معاني قصيدة البردة، وإنما يستغلون أبياتها ويستعملونها لأغراض دنيوية، و يقضون الأربعينيات ليكونوا مختصين بالتأثير عن طريق بعض أبياته، ويبذلون له جهودًا جبارة. ثم منهم من يكسب مالا عظيما بذلك، وتنفق به سوق التظاهر بالصلاح والاستصلاح.

كان حضرة والدي الشيخ شمس الهادي رحمه الله (ت:٢٠٠٩م) يدرس بشكل دوري في شهر رمضان السراجية، والشريفية وقصيدة البردة، فيفد إليه الطلاب من الأماكن البعيدة ليستفيدوا منه. وكان يأذن بقراءتها ويوصيهم أن يقرؤوها على أنها وصفة ناجعة لحب الرسول صلى الله عليه وسلم، لا لغرض دنيوي أو عمل تسخيري ونحو ذلك.

وخَلَفْتُ والدي رحمه الله في تدريس قصيدة البردة في رمضان بعد وفاته، ويجري هذا الدرس في منطقة شاه منصور من قضاء «صوابي»/باكستان، ولكن لم أفكر في خصائص الأشعار في مجال الرقى والتعاويذ، و لم أتعرض لها خلال التدريس كما أوصاني به حضرة والدي رحمه الله، وأتجاوز المواضع التي تناول الشارحون بذكر مقاصدها، كما أني مطبوع على عدم المناسبة بأعمال الرقى والتعاويذ، ولا أرغب فيها ولا أجد فرصة لهذا العمل، وأما والدي وكذلك شيخي المفتي محمود حسن الكنكوهي (ت ١٩٩٦م) فكانا بارعَين في هذا المجال. وكان لتعاويذ ورقى كل واحد منهما مفعول كبير، تشهد به قصص كثيرة. وأما أنا فمحروم من ذلك. فلا أتعرض لخصائص الأبيات وتأثيراتها في مجال الرقى، فهذا الشرح بدوره يخلو من مثل هذه الأمور إلا ما شذ وندر.

٤. الفئة الرابعة هم علماء ديوبند، الذين يقرؤون قصيدة البردة هذه، ويدرسونها،

ويعملون لها شروحًا مما يأتي تفاصيله في المقدمة،غير أن بعض أبيات قصيدة البردة تعارض–بادئ الرأي– ما جاء في كتب علماء ديوبند من العقائد والمسائل، وشرحتُ في كتابي هذا أمثال هذه الأبيات شرحًا يتفق مع ما عليه علماء ديوبند، وتحدثت مقدمةُ الشرح حديثا ضافيا عن التأويل لكلام الأكابر والعظماء.

قد بذل المفتي أويس الكودهروي جهودًا مضنيةً في البحث والنقب، واستوعب الإحالات من مظانها وغير مظانها، و زاد كثيرًا من المصادر على ما ذكرته منها، فالمأمول من الله تعالى أن هذا العمل العلمي سيشكل في المستقبل سُلَّمًا إلى الرقي والازدهار له، ويشجعه على السير قدمًا في طريق الأعمال العلمية والتحقيقية أكثر فأكثر.

وكان عمل الشرح في مرحلته الأخيرة إذ عرض للمفتي أويس بعض العوارض التي دفعته إلى السفر إلى وطنه الهند، ثم واصل ما تبقى من عمل التحقيق والتنقيح والتصفيف بالكمبيوتر صاحب لي آخر في عمل التصنيف وهو الشيخ محمد عثمان البستوي– مسؤول مكتبة دارالعلوم زكريا– والشيخ البستوي وفقه الله تعالى لوصل الليل بالنهار في العمل العلمي وسليقة حسنة للترتيب والتحقيق، فجزاهما الله تعالى وجزى المفتي إلياس خيرًا في الدنيا والآخرة، فإن هؤلاء الثلاثة يجمعون إلى الكفاءة والقدرة: الجد والإخلاص في العمل، ولانزكي على الله أحدًا.

احترزنا في الشرح من الإطالة والإسهاب من غير حاجة، و رغم ذلك تضمن كثيرًا من المباحث الهامة، وفي نيتنا أن نضع لهذه المباحث فهرسًا مفردًا علاوة على الفهرس العام للمحتويات.

وربما تطرق الشرح إلى بعض ما يختلف فيه بعض أهل العلم، ولكن ليس غريبا الاختلافُ في المسائل العلمية والبحثية؛ بل هو نوع من الرحمة.

وبما أن الطلبة والأحباء كانوا يرغبون في نشر هذا الشرح وطباعته، فخطر ببالي أحيانا على سبيل الطرفة أن أسميه: «إنجاز الوعدة بإتمام شرح قصيدة البردة»، وأحيانًا خطر بالبال أن أسميه «عجوة الزبدة في شرح قصيدة البردة»، إلا أن صاحبي في سبيل التأليف والتصنيف أعجبه تسميته بـــ«الدرة الفردة في شرح قصيدة البردة»، وليس الخضوع

لرغبات الأحباء والأصحاب أمرا جديدًا، فاختير لهذا الشرح هذه التسمية.

ونظرًا إلى الأشغال الباهظة من التدريس والعمل في دارالإفتاء– علاوة على الزلات البشرية – ما صدر مني من الأخطاء في الشرح أو التقصير في الإحالات أو المواد آمل من القراء الكرام أن ينبهوني عليها، فإني أوكد قبول إشاراتهم – إذا كانت صادرة عن عدل وإنصاف – بصدر رحب، والعنايةَ بتعديل الأخطاء في الطبعة القادمة بإذن الله تعالى.

قرأنا قصيدة البردة على المفتي محمود حسن الكنكوهي– المفتي العام بدارالعلوم/ ديوبند، وجامعة مظاهر علوم /سهارن فور– وكان حضرة المفتي الكنكوهي- رحمه الله- يزور جنوب إفريقيا لمدة شهرين أو ثلاثة أشهر في كل عامٍ بدعوة من أحبائه ومسترشديه وخاصة الشيخ إبراهيم باندور. و ينير في فلاة إفريقيا شمع الهداية والإرشاد. وكان أحباؤه ينتظرون بفارغ الصبر مقدمه إلى جنوب إفريقيا نظرًا إلى الخصال التي كان يحملها المفتي الكنكوهي رحمه الله من السمعة العالمية، ورسوخ قدمه في مجال الإفتاء، والاستقامته في العمل، وتمكنه من علم الأدب وإصلاح النفس بصورة خاصة، وكنا على صلة بفضيلة المفتي الكنكوهي رحمه الله، نحضر مجلسه بعد العصر بقيادة الشيخ شبير الصالوجي، وطلبنا ذات مرة حين قدم إلى جنوب إفريقيا أن يدرسنا قصيدة البردة، فاستجاب الشيخ طلبنا وبدأ التدريس. وشارك في هذا الدرس الشيخ شبير الصالوجي والمفتي محمد علي البهوبالي ثم الإفريقي وآخرون علاوة على كاتب هذه السطور، فكان المفتي محمد علي يتلو قصيدة البردة والشيخ المفتي الكنكوهي يشرح مغلقاتها. وأما الأبيات السهلة فيتجاوزها بعد القراءة؛ فإن الطلاب والدارسين كانوا كلهم علماء، فقرأنا على الشيخ المفتي الكنكوهي قصيدة البردة كلها إلا بعض الأبيات منها. ولعل الشيخ المفتي الكنكوهي قرأ قصيدة البردة على الشيخ محمد زكريا، فإن الشيخ زكريا تعود مجلسه قراءةَ هذه القصيدة بشكل دائم، وكان المفتي الكنكوهي رحمه الله من مسترشديه وحضور مجلسه بشكل دوري.

وأجاز لكاتب هذه السطور– رضاء الحق– بقصيدة البردة هذه السيد محمود– صندل بابا جي–، وأجاز له بذلك شيخ الطريقة ولي أحمد – المعروف بـ*سنداکے باباجی*–، وأجاز له بذلك المجاهد في سبيل الله الشيخ نجم الدين هدي، وأجاز له بذلك شيخ الطريقة

الشهير الشيخ أخوند عبد الغفور السواتي رحمه الله.

وكان والدي الشيخ شمس الهادي- رحمه الله- على صلة قوية بقصيدة البردة، وكان يدرسها الطلاب كل سنة في رمضان بكل رغبة وشوق،في منقطة «شاه منصور» صوابي/ باكستان، ثم خلفتُه في إجراء هذا الدرس وحللت مكانه من بعده.

وأعتبر هذا الشرح من لفتات نظراتهما الحانية، وأدعيتهما، ونداءً من قلقهم الداخلي، ورحيقًا من ثمار أشجارهم المثمرة، وما تسرب إليه من الخطإ فمني وفي عنقي، اللهم اجعل هذا الشرح أجرًا وذخرًا لهذين الكاملين وللمشايخ كلهم وللناشر، واحشرنا مع مادحي الرسول صلى الله عليه وسلم. آمين، يقول الشاعر الأردي، ما معناه:

ثمة خمر، وزجاجة الخمر، والكأس، ولكن غاب الساقي. تحدثني نفسي بأن أحرق الخمارة.

كما نشكر مسؤولي دارالعلوم زكريا وخاصة الشيخ شبير السالوجي كثيرًا على أنه هيأ في الجامعة الأرضية الصالحة والبيئة المناسبة للعلم، ومهدها، و وفر كافة التسهيلات اللازمة.

رضاء الحق عفا الله عنه

١٩/شوال عام ١٤٣٥هـــ=١٥/أغسطس عام ٢٠١٤م

مقدمة

بقلم الشيخ شبير أحمد السالوجي حفظه الله

مدير دارالعلوم زكريا، جنوب إفريقية

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلي على رسوله الكريم

القصيدة الدرية في مدح خير البرية التي بين أيديكم وهي معروفة بـــ «قصيدة البردة» موضوعها شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو خير أصناف الشعر بعد الحمد والثناء على الله تعالى. وما يتمتع به أهل الإسلام من الحب والعشق والإخلاص والاعتقاد والولع والصلة بالرسول صلى الله عليه وسلم يعتبر أعظم الأحداث التاريخية عجبًا وأعزها نظيرًا.

ومن الصعوبة بمكان تحديد أول من خاض هذا الصنف من الشعر،؟ إلا أن المحققين ذهبوا إلى أن ذلك بدأ منذ عهد رضاعة الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد روى العلامة السهيلي أن جده: عبد المطلب أول من نسج كلامًا موزونًا في حقه صلى الله عليه وسلم، وفيما يلي نورد بيتين من كلامه:

الحمد لله الذي أعطاني ۞ هذا الغلام الطيب الأردان

قد ساد في المهد على الغلمان ۞ أعيذه بالبيت ذي الأركان

ثم قالت شيماء رضي الله عنها- أخت النبي صلى الله عليه وسلم من الرضاعة — و وورقة بن نوفل- وزوجته أم المؤمنين خديجة الكبرى رضي الله عنها-، وأبو طالب قصائد عدة. وأما الذين عملوا القصائد في مدح النبي صلى الله عليه وسلم في عهد الرسالة، فكثيرون جدا، وكان كعب بن زهير له ميزة خاصة في هذا الشأن، فقد قرأ قصيدته في

مدح النبي صلى الله عليه وسلم بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فمنحه صلى الله عليه وسلم بردته، وعليه سميت قصيدة قصيدة البردة أيضا، وهجا حسان رضي الله عنه في شعره شعراء قريش بعد الهجرة؛ بل اتخذ من مديح النبي صلى الله عليه وسلم موضوعًا لشعره، وقطبًا دار حوله رحاه.

واستمر مديح النبي صلى الله عليه وسلم في العهود التي تلت عهد الرسالة، حتى دخل القرن السابع الهجري، وظهر شاعر مديحٍ شهير، اسمه محمد بن سعيد البوصيري، وقصيدته الشهيرة المقبولة هذه بين أيدينا، و ديوان شعره كله عبارة عن مديح النبي صلى الله عليه وسلم في عموم الأحوال ويبدأ كل قصيدة بما اعتاده الشعراء من التشبيب، إلا أن هذه القصيدة أثقل قصائد ديوانه سموا وسمعة وقبولا وشعبية، تعودت مجالس العلماء والصوفية الكرام قراءة وسماع هذه القصيدة برغبة ونهم شديدين. ويعزُّ إتيان قصيدة تضاهيها في هذه المواصفات. وما أكثر مَن استظهر هذه القصيدة واتخذوها وردًا لهم قراءة وتدريسًا في كل عصر.

وما أكثر الشروحات على هذه القصيدة، ويشير كتاب الدكتور/زكي مبارك في «المدائح النبوية» إلى سبب تأليف هذه القصيدة، ومنحاها ومأخذها وعناصرها، ومحتوياتها ونماذج لكلام الشعراء الذين قاموا بتثليثها وتخميسها وتسبيعها وتشطيرها،كما سعد العلماء والمشايخ بدراستها وتدريسها في كل عصر. والكتاب الذي بين أيدينا الآن حلقة من هذه السلسلة المباركة، التي جاء بها حضرة الأستاذ شيخنا المفتي رضاء الحق –شيخ الحديث والمفتي بدارالعلوم زكريا- وشاركه في هذا العمل بعض الأساتذة بجانب طلبة دارالإفتاء. وشرح حضرة المفتي حفظه الله القصيدة شرحًا لا يجد العلماء من الدرجة الوسطى أيضا بإذن الله تعالى صعوبة في فهمها معه. وجاء هذا الشرح بعيدا عن التفريط والإفراط مما وقع فيه غلاة الصوفية أو السلفية المتطرفة.

ويحتوي الكتاب على حل الغريب من الكلمات، وإثارة النكات البلاغية، بجانب الإشارة إلى الإعراب النحوي اللازم. ومرتب الكتاب المفتي أويس البنجابي–أستاذ الجامعة

الإسلامية تعليم الدين/دابيل، وباحث في دارالإفتاء التابعة لدارالعلوم زكريا/جنوب إفريقيا، شارك الدروس، و هو من خريجي دارالعلوم زكريا الموفقين المختارين الناجحين الأذكياء. قام الأخ بترتيب وتحقيق وتوثيق هذه الدروس بعد جهود مضنية استمرت عدة سنوات وبإشراف ورعاية من حضرة المفتي رضاء الحق حفظه الله. وساعده في تهذيب وتنقيح هذه المباحث الشيخ محمد عثمان – مدير مكتبة جامعة زكريا– اللهم تقبل جهود هؤلاء جميعا، و وَفِّقْ أصحاب المدارس وخاصة الأساتذة والطلاب للاستفادة من الكتاب، واكتب لهذا العمل القبول كما كتبت لأصل القصيدة، واجعل تأليف هذا الشرح والمساعدةَ فيه منجاةً لكل من ساهم فيه، ومبعثًا لشفاعة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم.

شبير السالوجي عفا الله عنه

٢٢/ ذو القعدة عام ١٤٣٥هـ=١٧/أكتوبر عام ٢٠١٤م

كلمة المرتب

بقلم: المفتي أويس بن الشيخ مولانا يعقوب الكودهروي حفظهما
أستاذ الجامعة الإسلامية تعليم الدين، دابيل، الهند

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

كتب الله تعالى لقصيدة البردة من القبول والشعبية في العالم كله ما لم يكتبه لغيرها من القصائد. وربما لم يعمل على كتاب بشري آخر من الشروح والتعليقات ما عُمِل لهذه القصيدة. ويمكن معرفة مدى سعتها وإفادتها وقبوليتها في الأوساط العلمية بنظرة عابرة على الشروحات والمتعلقات بها، والحق أنها لقيت القبول في الأوساط الشعبية بجانب الأوساط العلمية، وعليه تُقرَأ هذه القصيدة بكثرة في المجالس الدينية، وتعودت المجالس والبرامج الدينية في جنوب إفريقيا قراءةَ هذه القصيدة بكثرة. كما يسود سماعها بالراديو والهاتف والكمبيوتر كذلك. وطلب بعض الناس من حضرة شيخنا الشيخ المفتي رضاء الحق- أدام الله بقاءه بكل خير وعافية - تدريس هذه القصيدة فاستجاب الشيخ لذلك.

وهذه القصيدة لقيت قبولا واسعا في بلاد حضرة الشيخ المفتي رضاء الحق في باكستان، ويقوم الناس بمدارستها في رمضان المبارك، وسبق أن قرأها ودرَّسها الشيخ المفتي رضاء الحق غير مرة بها، كما أن هذه القصيدة من المقررات الدراسية في دارالعلوم زكريا، وسبق أن درس الشيخ بها أيضا. أضف إلى ذلك أن الشيخ يتصف بقوة الذاكرة، والفهم المفرط، وسعة المطالعة المحيرة، وملكة التفهيم والعرض الموهوبة من الله تعالى، وتجارب الحياة العلمية الطويلة، والاستفادة الخاصة بالعلماء العظام، والصلة القوية بالعلم التي تبلغ درجة العشق بها، وأمثال ذلك من الصفات والميزات التي زادت هذه الدروس رونقا وبهاء. فلقي تدريسه للقصيدة قبولا عامًا شأن تدريسه للمواد الأخرى.

وهذه الدروس تتضمن مواد مختلفة كثيرة، فَرَغِبْتُ في عرضها في كتاب، لتكون هذه المواد القيمة بصيرةً للناس عامتهم وخاصتهم بعد ضَبْطِها وتحريرها.

وأنا على شعور تام بأنه عمل علمي عظيم، يتطلب سعة المطالعة والرسوخ في العلم، والاستحضار، وأنا صفر اليدين من هذه الصفات، وأن الذين سبقوني إلى شرح هذه القصيدة كانوا يحملون من الصفات والميزات من الصلاح والتقوى واتباع السنة النبوية ما لا أتصف به، فلست قادرًا على الكتابة (باللغة الأردية)، ولا أحمل تجربة لترتيب الدروس. فالتهيؤ -رغم هذه الهنات — لعمل علمي لا يعدو أن يكون توفيقًا من الله تعالى، وثمرةً من ثمار اللفتات الحانية من الشيخ حفظه الله، وثقته وتشجيعه، ودعواته الصالحة.

ويجدر بي أن أشير إلى بعض الأمور الخاصة بهذه الإفادات:

(١) وفقني الله تعالى لأن أقرأ عدة كتب على حضرة المفتي رضاء الحق حفظه الله تعالى، منها:

١- ترجمة معاني القرآن الكريم (من سورة البقرة إلى سورة هود)، ٢- الهداية (المجلد الثالث)، ٣- تفسير الجلالين (كاملا)، ٤- صحيح البخاري (الجزء الأول)،٥- صحيح مسلم (الجزء الثاني)، ٦-سنن ابن ماجه (كاملا)، ٧- سنن النسائي(المنتخبات) ٨-مختصر المقاصد الحسنة، ٩- شرح عقود رسم المفتي، ١٠- قصيدة بدء الأمالي، ١١- قواعد الفقه للمفتي عميم الإحسان، ١٢- شرح العقائد النسفية (من البداية إلى مبحث عذاب القبر)، ١٣- قصيدة البردة.

علاوة على ذلك قضيت سبع سنوات في دارالعلوم زكريا بعد تخرجي منها، وسمعت كثيرًا من أقواله في مجالسه وغيرها من البرامج.

تصديت لترتيب دروس قصيدة البردة فجعلت الدروس كلها نصب عيني، واستفدت منها كل الاستفادة، فكنت أستوعب هذه الأقوال كلها ولو كان مما لم يقله الشيخ في دروس قصيدة البردة حين إعداد المادة العلمية لهذا الكتاب؛ إذا عرض لي شيء من ذلك في بيت من أبيات القصيدة، فلا غرو أن يجد القارئ في هذا الكتاب ما لم يقله الشيخ في دروس قصيدة البردة، و إنما تعرض له في دروس أخرى.

وفي الكتاب مباحث لم يفصلها الشيخ؛ بل لخصها وأشار إلى المصادر الأخرى لمن يريد الاستزادة والتفصيل فيها، فقرأت هذه المصادر واستوعبت محتواها، وحاولت عرضها

في الكتاب على أحسن ما يرام.

(٢) دون شك لم أوفِ هذا العلم العظيم حقه من الجمع والترتيب والتهذيب والتنقيح و التحقيق والتخريج، وأما التوصل إلى الإحالات فلم أدخر جهدا فيه، وبذلت أحيانًا ساعاتٍ في التوصل إلى مصدر من المصادر، وقرأت أحيانًا عشرات الصفحات في العثور على مصدر من المصادر، ربما اشتريت الكتاب لتوثيق مادة من المواد.

(٣) وقرأ حضرة الشيخ المفتي رضاء الحق هذا الكتاب مرتين حرفا حرفا، و عدَّل وأصلح ما رأى ذلك فيه، وبعض المباحث مستجدة تمامًا، لم يرد ذكرها في الدروس، وإنما زادها الشيخ حين راجع الكتاب.

(٤) هذه المباحث – التي تم إعدادها في ضوء مزاج وتوجيهات علماء ديوبند- مأثرة علمية عظمية. ويحتوي الكتاب على مباحث لا تجدها مشفوعة بهذا البحث والتحقيق في موضع آخر.

(٥) استفدت في توجيه الأشعار من عدة شروح شهيرة عليها، وعليه لم أشر إلى المصدر في كثير من الأحوال، نعم ثمة توجيهات كثيرة من قريحة حضرة الشيخ مما لم أجده في مصدر من المصادر.

(٦) جاء العمل على هذا الكتاب في مراحل متعددة، فأسرعت حينا، وسرت الهوينا أحيانا، و ربما توقف العمل تمامًا، وبما أني حديث عهد بمجال التأليف والتصنيف، فلا عجب إذا لمس القارئ الكريم عدم التساوي والانسجام في الأسلوب من أول الكتاب إلى آخره، فعفوًا ومعذرة إليهم.

(٧) ما كان من خير في هذا الكتاب، فبتوفيق من الله تعالى، ومن اللفتات الحانية من الشيخ حفظه الله، وما كان من تقصير فمِن قلة بضاعتي في العلم، فإذا لمس القارئ في شيء من الكتاب ما لا يرقى إلى المستوى المطلوب من الصحة والتحقيق، فَلْيَنْسِب هذا النقص إلى مرتب الكتاب، ويدله عليَّ، فلن أتردد في قبول الحق إذا وضح، علاوةً على ذلك أنا مدين لكل من يسدي إلي مشورة ورأيا فيما حول الكتاب.

(٨) علاوةً على حرصي على الخدمة وفق المدرسة الديوبندية لقصيدة البردة، ونشر إفادات حضرة المفتي حفظه الله وإبرازه للعيان، آمل أملا قويًّا وأتمنى على الله تعالى أن

ينالني—هذا العبد العاصي في الصفوف الأخيرة – شيء من رذاذات أمطار الرحمة النازلة على الذين أدلوا دلاءهم في خدمة السيرة النبوية يوم المحشر، وأطلب من القارئ أن يدعو لي بذلك، يقول الشاعر:

وإني الدَّهْرَ أدعُو كُنهَ وُسْعي ۞ لِمَن بالخير يومًا قد دعا لي

أدعو الله تعالى الكريم — الذي وفقني لإتمام هذا العمل- أن يكتب لهذا الشرح من القبول ما كتبه لأصل القصيدة بمنه وكرمه، ويجعله نافعًا للمسلمين، ويجعله ذخرًا للمساهمين فيه في الآخرة ونجاة لهم. وما ذلك على الله بعزيز.

(٩) وأشكر حضرة المفتي رضاء الحق — عمت فيوضه- على أن هيأ لي فرصة العمل و الخدمة رغم خرقي الشنيع، وهناتي الكثيرة. كما أشكر شيخنا الشيخ شبير أحمد السالوجي حفظها الله – مدير جامعة دارالعلوم زكريا، وأحد خلفاء فقيه الأمة المفتي محمود حسن الكنكوهي- شكرًا جزيلا على أن رشحني للعمل من غير جدارة في فبراير عام ٢٠١٠م، كتب الله تعالى له ولكافة أساتذتي ومشايخي الخير في الدنيا والآخرة، وحفظهم من كل سوء ومكروه.

علاوةً على هذين الشيخين أشكر الشيخ محمد عثمان خريج دارالعلوم/ديوبند- الذي قام بتصفيف معظم الكتاب، ثم بذل جهدا مضنيا في ترتيب وتخريج ما تبقى من الكتاب مما زاده الشيخ رضاء الحق حفظه الله بعد عودتي إلى الهند، بالإضافة إلى تصفيف الكتاب الكامل وتصحيح مسودات الطبع، وذلك في وقت قصير جدا. فجزاه الله تعالى خير ما يجازي به عباده الصالحين، وكتب له خيرى الدنيا والآخرة، و وفقنا لإخراج إفادات شيخنا حفظه الله للناس أسرع ما يمكن.

كما أشكر كل من أحسن إلي وأعانني على هذا العمل بصورة أو أخرى. فجزى الله تعالى كافة الناصحين والمحسنين بغير حساب.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أويس بن الشيخ يعقوب الكودهروي

ليلة الجمعة ٢١/ذوالحجة عام ١٤٣٥هـ

ترجمة ناظم القصيدة العلامة البوصيري

اسمه ونسبه:

لقبه: شرف الدين، وكنيته: أبو عبد الله، واسمه: محمد بن سعيد بن حماد بن محسن بن عبد الله بن حياني بن صنهاج بن ملال الصُنهاجي. هكذا جاء نسبه في الوافي بالوفيات للعلامة الصفدي (ت:٧٦٤هـ)، يقول الصفدي: أملى عليَّ العلامة أبو حيان الأندلسي نسب البوصيري هكذا.(الوافي بالوفيات٣/٩٢).

وهو من بني حَبنون – فرع قبيلة صنهاجة–، انحدروا من المغرب، ووالده من «بوصير» وأمه من «دلاص».

فالإمام البوصيري يوصف بالصنهاجي — بالنظر إلى النسب العائلي–، وبالدلاصي بالنظر إلى المولد، وبالبوصيري بالنظر إلى السكنى. والمشهور في مكان ولادته أنه «دِلاص»، إلا أن تغرى بردي قال: ولد في بهشيم.

تاريخ ولادته:

المشهور: عام ٦٠٨هـ، وقال العلامة المقريزي: إما ٦٠٧، أو ٦٠٨ أو ٦١٠هـ، غير أنهم اتفقوا على أنه ولد يوم الثلاثاء غرة شوال.

فضله وكماله العلمي:

لم نطلع على كثير من أحواله في صباه، وتوصل محقق ديوان البصيري السيد الكيلاني — في ضوء أشعار العلامة البوصيري وما ورد في كتب تراجمه من أحواله المتفرقة إلى أنه تعلم العلوم الدينية على عادة عصره، وحفظ القرآن الكريم ثم غادر إلى القاهرة فمكث في مسجد عبد الظاهر وبدأ دراسته به فقرأ شيئا من علم الأدب واللغة والنحو والصرف وعلم العروض والتاريخ والسيرة النبوية. وقال الشيخ العلامة محمد بن سعد بن يوسف الآلاني — أحد شراح البردة — في مقدمة شرحه: «نظم العلامة البوصيري قصيدة

البردة عام ٦٢٨هـ»، وهذا الشرح موجود في مكتبة البلدية في مدينة الإسكندرية بمصر في فن الأدب، رقم ٨٣، فكأن البوصيري نظم القصيدة وهو ابن عشرين سنة.وهذا يدل على أن العلوم الخاصة بهذه القصيدة من علوم اللغة العربية والأدب والتاريخ والسيرة ونحو ذلك كان العلامة البوصيري تلقاها في سن مبكر جدًا.

ولكن لايطمئن البال لما قاله العلامة الآلاني من أن البوصيري نظم قصيدة البردة وهو ابن عشرين سنة. فقد ورد في تراجمه أنه قضى معظم حياته في البلاط، وتوظف لدى مختلف أصحاب السلطة والوظائف، ثم نظم قصيدة مدحية للرسول صلى الله عليه وسلم، فيقول:

خَدَمْتُهُ بِمَدِيْحٍ أَسْتَقِيْلُ بِهِ ۞ ذُنُوْبَ عُمْرٍ مَضَى فِي الشِّعْرِ وَالخِدَمِ

و لم يُشِرِ شيء من تراجمه إلى اكتساباته العلمية، إلا أن دراسة أشعاره يتجلى منها أنه تلقى العلوم التي كانت على صلة بأوضاع مصر – بكل جد واجتهاد. وأمعن في دراسة التوراة والإنجيل، واستدل بهذه الكتب لهداية النصارى إلى الحق والصواب أو لتنبيه المسلمين على مكايدهم وحيلهم، فدرس ظهور المسيحية دراسة واعية، والقصائدة التي نظمها في الرد على اليهود والنصارى يتجلى منها أنه كان على صلة قوية بالثقافة الدينية والتاريخية والأدبية.

برع في فن الخط، ورغب في نظم الشعر منذ باكورة عمره، طبع له ديوان باسم «ديوان البوصيري»، وهو في متداول في الناس، يدل على قدرته على الكلام. يقول العلامة ابن حجر الهيتمي: «كان من عجائب الله في النثر والنظم».(المقفى الكبير للمقريزي) وطبع ديوان البوصيري غير مرة، ونحتفظ بنسخة منه بتحيق محمد سيد الكيلاني.

مشايخه:

لم نطلع على تفاصيل مشايخه في العلوم الشرعية، وأما في التصوف فكان شيخه فيه الزاهد الشهير في ذلك العصر والمربي الكبير الشيخ أبو الحسن الشاذلي (علي بن عبد الله بن عبد الجبار، ت:٦٥٦هـ)، وفي أعقاب وفاة الشيخ الشاذلي عقد علاقته في الإصلاح

مع الزاهد الشهير أبي العباس أحمد المرسي (ت:٦٨٦هـ)، وهو من خلفاء أبي الحسن الشاذلي. فطريقته طريقة الشاذلية. نظم البوصيري قصائد في مدح كل من شيخه المرسي، والشيخ الشاذلي أيضًا.

أوضاعه وأحواله المتفرقة:

أسس مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم، وتوقفت المدرسة للأوضاع غير المواتية، وعرض عليه منصب الاحتساب، فأبى قبوله توقيًا عن نزاعات الناس. وكان منصب الاحتساب يوكل يومذاك إلى صاحب فقه، وكان يوكل إليه المسؤوليات التالية:

١- تعهد المستهلكين، ٢- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المدينة، ٣- وتنفيذ أحكام الوالي في المعاملات التجارية التي تشهدها، وما يخص الأسواق.

وبعد فترة قصيرة احترف مهنة الخط ليكسب عيشه بها، وتوظف عند كثير من أصحاب السلطة والأمراء، اختص من بين هؤلاء الأمراء أكثر بالوزير زين الدين يعقوب بن عبد الرفيع بن زبير؛ حيث توظف عنده عدة أعوام، ونظم قصائد في مدحه، وقضى معظم أوقاته في البلاط الملكي. يقول:

خَدَمْتُهُ بِمَدِيْحٍ أَسْتَقِيْلُ بِهِ ۞ ذُنُوْبَ عُمْرٍ مَضَى فِي الشِّعْرِ وَالخِدَمِ

هذا يدل على أن الدافع الحقيقي لعلاقته بالبلاط الملكي هو شعره، وهذه الميزة الخاصة في هذا الصدد هي التي جلبت له التقدير والاحترام عند الأمراء، ولكن لم يكن التردد إلى البلاط والعلاقة مع أصحاب السلطة مجديا كثيرا في الجو العصيب الذي كان يسود مصر والشام من ولادة البوصيري إلى وفاته، ولعل ذلك الأمر الذي كرَّه إلى البوصيري هذا العمل الكريه، وتبرم به، واعتزل الأمراء والوزراء.

علاوة على مدحه للنبي صلى الله عليه وسلم بقصيدة البردة قام البوصيري بعمل عبقري آخر وهو دعوته المستمرة لليهود والنصارى والمسلين الضالين عن الدين إلى الحق.

ومن أعماله الجديرة بالذكر والتنويه أن تقربه إلى مختلف الوزراء والأمراء أمثال الوزير زين الدين يعقوب، والوزير بهاء الدين بن حنا والأمير عز الدين أيبك، والوزير

شمس الدين عيسى ونيله الحظوة لديهم لم يصده عن قول الحق والصدع به، فقد نظم عدة قصائد ترمي إلى بسط العدل وإراحة الحقوق إلى أصحابها، وسد أبواب الرشوة، وتتناول أحوال الموظفين في الحكومة، وتسترعي انتباه الأمراء إلى ذلك، ليفكروا في إصلاح الأمر.

وذات مرة سمع الملك الظاهر(الظاهر بيبرس المتوفى عام ٦٧٦هـ) شيئا من شعر العلامة البوصيري، فقال: لو كنت ألقى الشعراء للقيته.

بنى الأمير علم الدين سنجر الشجاعي المدرسة المنصورية ومستشفى، فنظم شعراء ذلك العصر قصائد كثيرة فيهما، وبدأ البوصيري تلاوة قصيدته، وقرأ أول أبياته، وهو قوله :

عمرت مدرسة ومارستانا ۞ لتصحح الأديان والأبـدانا

فما أن سمع الأمير هذا الشعر حتى قال: حسبك، ولم يسمع بقية قصيدته وصب عليه الجوائز صبا، وكان الأمير سنجر يتمثل بهذا الشعر.(المقفى الكبير للمقريزي)

رغم علاقته مع البلاط كان أقام في بيته مدرسة، يعلم فيها الأطفال القرآن الكريم، وغيره من العلوم الدينية.

وكان البوصيري على غاية من المروءة، ضحوكا، دمث الأخلاق، نحيف الجسم مختصر الجرم، يقول أحد أصحابه وتلامذته العلامة أبو حيان الأندلسي: «كان شيخنا مختصر الجرم، وكان فيه كرم».(الوافي بالوفيات ٣٩/٣) وقال المؤرخ المستشرق الشهير(carl brockelmann المتوفى ١٣٧٥هـ) في كتابه تاريخ الأدب العربي (٨١/٥): «عاش عشر سنوات في القدس والمدينة، ثم أقام في مكة ثلاثة عشر عاما يقرئ القرآن، وأنشأ هناك قصيدة البردة، ثم عمل مباشرا في بلبيس». (بلبيس: مدينة مصرية قديمة في الشرق).

والجدير بالتأمل أن بروكلمان لم يوثق هذه المعلومات بمصدر من المصادر، كما أن تراجم البوصيري الأخرى كذلك لا تشير إلى شيء من ذلك، إلا أنه كان قضى مدة في بلبيس موظفًا.

الأوضاع السياسية:

كان أمير المؤمنين الناصر لدين الله العباسي يلي الخلافة في بغداد في فاتحة القرن السابع الهجري، وكان خوارزم شاهي حاكما في المشرق، وتوسعت فجوة الخلاف بين جلال الدين خوارزم شاه وبين الخليفة العباسي، وشهدت الأحوال تنذر بالخطر، ووصل الأمر إلى بعث البعوث والجنود، وكان خوارزم شاه بالمرصاد للتغلب على بغداد، فتوجه السيل العارم من المغول في المشرق، فجرف هذا السيل المدمر مناطق كثيرة من العالم الإسلامي، وانتزع — بقوة – الحكمُ من الخليفة العباسي في ٦٥٦هـ من بغداد، وتعرضت مصر والشام لهجمات المغول، وانصبت الجيوش التاتارية على حلب وحماة ودمشق كالجراد المنتشر، ومني المسلمون في هذه المناطق — الذين كانوا يذوقون الويلات على أيدي المحاربين في الحروب الصليبية — بآفة جديدة، ومما زاد الطين بلة أن المسلمين المظلومين والمنهوبين كانت قوافلهم متجهةً من العراق إلى الشام ومصر، وهذا أعظم ما دفع إلى إثارة الناس وبعث اليأس والقنوط فيهم.

وفاته:

توفي في الإسكندرية، واختلفوا في سنة وفاته، قال الصفدي (ت:٧٦٤هـ): الغالب على الظن أنه توفي عام ٦٩٦هـ، أو عام ٦٩٧هـ. وتبعه العلامة ابن تغري بردي (ت:٧٨٤هـ)، وقال العلامة المقريزي (٨٤٥هـ): توفي عام ٦٩٥هـ. وبه قال السيوطي(ت:٩١١). وقال حاجي خليفة (ت:١٠٦٨هـ): توفي عام ٦٩٤هـ. وقال بروكلمان: توفي عام ٦٩٤ أو ٦٩٥ أو ٦٩٦هـ.

ضريحه:

وضريحه بجوار مسجد البوصيري الشهير في الإسكندرية. وهو بقرب ضريح شيخه وأستاذه أبي العباس المرسي.

تلامذته:

من أبرز تلامذته:

١. أبو حيان الغرناطي (ت:٧٤٥هـ): محمد بن يوسف بن علي بن يوسف الغرناطي الأندلسي، إمام في العربية والتفسير والحديث والتراجم واللغات. له نحو عشرين كتابا، أشهرها كتاب «البحر المحيط في التفسير».

٢. ابن سيد الناس اليعمري (ت:٧٣٤هـ): محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن سيد الناس: مؤرخ، حافظ للحديث، على ذروة من الأدب العربي، أصله من «أشبيليه»، ومولده ووفاته في القاهرة. له عدة كتب، أشهرها: «عيون الأثر في فنون المغازي والسير».

٣. ابن جماعة (ت:٧٣٣هـ) محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكناني الحموي الشافعي، عالم الحديث وغيره من العلوم الدينية كلها، خطيب بيت المقدس وقيمه، ثم ولي القضاء في المصر، ثم في الشام، ثم في مصر. من أشهر كتبه: «المنهل الروي في الحديث النبوي»، وله أعمال دون ذلك.

العلامة البوصيري كما يراه أهل العلم:

قال محمدبن شاكر الكتبي في فوات الوفيات، وابن عماد الحنبلي في شذرات الذهب، والعلامة السيوطي في حسن المحاضرة، والعلامة ابن حجر الهيثمي في «شرح الهمزية»، و غيرهم من أهل العلم أقوالا قيمة في حقه:

فقال العلامة ابن حجر الهيثمي: «الشيخ الإمام، العارف الكامل الهمام، المتفنن، المحقق، البليغ الأديب، المدقق، إمام الشعراء، وأشعر العلماء، بليغ الفصحاء، أفصح الحكماء، الشيخ شرف الدين...». (شرح الهمزية لابن حجر الهيتمي، ص ٤)

للاستزادة من حياة البوصيري راجع: مقدمة «ديوان البوصيري» للشيخ محمد الكيلاني، و«المقفى الكبير» للمقريزي ج١، و«المنهل الصافي» لابن تغري بردي، ج٣، و«فوات الوفيات» لكتبي، ج٣، و«عقود الجمان» للزركشي، و«الوافي بالوفيات» للصفدي، ج٣، و«شذرات الذهب» لابن عماد الحنبلي، ج٥، و«حسن المحاضرة»

للسيوطي، و«تاريخ الأدب» العربي لبروكلمان، ج٥، و«تاريخ آداب اللغة العربية» لجرجي زيدان، و«الأعلام» للزركلي، و«معجم المؤلفين» لعمر بن رضا كحالة، ج١٠، و«جامع الكرامات» لإسماعيل النبهاني، و«كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» لحاجي خليفة.

شعبية قصيدة البردة:

بعيدا عن التفاصيل نورد بعض الأمور المتفرقة فيما يلي:

١. تمتاز قصيدة البردة عن غيرها من قصائد المديح بأنها لقيت عناية خاصة من علماء الأمة، فقام أهل العلم من كل فئة بتضمينها وتشطيرها وتخميسها وتسبيعها وتعشيرها وعمل المختصرات والشروح عليها في مختلف اللغات، تتجاوز مئتين. فإذا كان من خدم هذا الكتاب الصوفية الكرام في جانب، فإن غيرهم من المفسرين والمحدثين والفقهاء الأجلة خدموه في جانب آخر. وعناية علماء كل طبقة من أهل العلم بهذه القصيدة إن دل على شيء فإنما يدل على قبوليتها العامة الشاملة الواضحة. ومن الناس من اتخذ من خدمة قصيدة البردة في قرن من القرون موضوعًا له.

٢. يكثر الناس من قراءة هذه القصيدة وفي لهجات خاصة، حتى أصبحت لهجات منسوبة إلى بلاد معينة.

٣. من أهل العلم من اتخذ من قبول وشعبية قصيدة البردة موضوع دراستهم، منها: ميزات مغربية لقصيدة البردة، مقال للشيخ محمد المنوني، بمجلة دعوة الحق عام ١٤٠٧هـ، وخواص البردة للمراكشي، وبردة البوصيري بالمغرب والأندلس (خلال ق ٨ و ٩)، وآثارها العلمية وشروحها الأدبية للدكتور سعيد الأحرش.

٤. ومن الناس من تصدى لبيان النواحي الفنية لهذه القصيدة في كتاب بمفرده، أمثال بردة البوصيري بين عقود النظم وحلل التحليل للشيخ طارق أمين ساجر الرفاعي.

٥. ومنهم من صنف كتبا بمفردها في الرد على الانتقادات الموجهة إلى قصيدة البردة

مثل: نحت حديد الباطل وبرده في أدلة الحق الذابة عن صاحب البردة، للشيخ داود بن سليمان النقشبندي (ت:١٢٩٩هـ). وفك العقدة عن إشكالات قصيدة البردة: وهو مأخوذ من شرح الشيخ عبد الله بن أبي بكر بن سالم الشافعي لقصيدة البردة.

وعلاوة على ذلك اتخذ نواحي أخرى من هذه القصيدة موضوع الدراسة، مثل: المدائح النبوية في الأدب العربي للشيخ زكي مبارك، والبوصيري حياته وشعره للشيخ عبدالعليم القباني، والمدائح النبوية بين السرسري والبوصيري للدكتور مخيمر صالح، وبردة البوصيري: دراسة تاريخية، لمحمد خالد ثابت، والبوصيري مادح الرسول الأعظم لعبدالعال الحمامسي.

قصيدة البردة كما يراها علماء مختلف المدارس الفكرية:

١. يقول الشيخ حسين أحمد المدني رحمه الله: كان أكابرنا يوصون بقراءة قصيدة البردة ودلائل الخيرات، وأجاز الشيخ محمد قاسم النانوتوي والشيخ رشيد أحمد الكنكوهي لآلاف من الناس بهذه الكتب.

٢. عمل الشيخ ذو الفقار علي -والد شيخ الهند محمود حسن الديوبندي- شرحًا على البردة سماه «عطر الوردة» باللغة الأردية.

٣. استحسن حكيم الأمة الشيخ أشرف علي التهانوي رحمه الله هذه القصيدة. فيسرد أبيات القصيدة بكثرة في كتابه «نشر الطيب» ويبرز أهميتها.

٤. كان الشيخ محمد إلياس – مؤسس جماعة الدعوة والتبليغ – رحمه الله يقول: على العلماء أن يقرؤوا «قصيدة البردة» و«شيم الحبيب» بإكبار واحترام، فإن هذه القصيدة تورث حب النبي صلى الله عليه وسلم.

٥. ورد ذكر قصيدة البردة في المناهج الدراسية المتبع قديما في دارالعلوم/ديوبند، ومظاهر علوم/ سهارن فور بجانب نفحة اليمن.

٦. بعض أشعار الشاعر الشرقي العلامة إقبال رحمة الله عليه يوافق أشعار البوصيري في المعنى، فقصيدته المعروفة بـ«ذوق وشوق»من باب جبرئيل، مدينة لتلميحات البردة.

٧. ويعتبر الشيخ محمد ناظم قصيدة البردة من روائع المديح.

٨. ويقول الشيخ السيد مسعود عالم- وهو عالم سلفي- في كتابه «ديار عرب» في خصوص قصيدة البردة: «رغم أني وهابي أقرأ قصيدة البردة وأتمتع بها».

٩. وأشار مولانا أبو الكلام آزاد رحمه الله في كتابه «تذكره» إلى بيت من أبيات البردة وهو ينوه بمكانة الرسالة.

١٠. وأورد العالم الشيعي السيد أمير علي في كتابه «Sprit of Islam» أبياتا من قصيدة البردة.

١١. من الكتب التي قرأها الشيخ أحمد السرهندي مجدد الألف الثاني — شيخ الطريقة المجددية – على مشايخه قصيدة البردة التي قرأها على القاضي بهلول البدخشاني على وجه خاص.

١٢. وعمل الأستاذ السيد محمود علي الجالندهري —متخصص في السلسلة السهروردية- شرحًا على قصيدة البردة سماه: «الشوارد الفردة».

١٣. عمل الشيخ السيد أبو الحسنات محمد أحمد القادري –من علماء البريلوية- شرحًا على قصيدة البردة سماه: «طيب الوردة».

١٤. عمل الشيخ منور بن إسرائيل على عهد الملك المغولي "أكبر"شرحًا على قصيدة البردة، وتعلق العلماء والمشايخ بقصيدة البردة في ذلك العهد العصيب.

١٥. كان الملا عبد القادر البدايوني —صاحب منتخب التواريخ- عالما قوالا للحق وجريئا عليه، لم يبال بالجاه الملكي لأجل هذه القصيدة.

١٦. وقع بين الشيخ أبي المواهب الشاذلي و بين رجل مجادلة في فضل النبي صلى الله عليه وسلم، فقرأ الشيخ الشطر الأخير من البيت الواحد والخمسين من قصيدة البردة وهوقوله: «وأنه خير خلق الله كلهم»، فأيده النبي صلى الله عليه وسلم في المنام. (الطبقات الكبرى، للشعراني)

١٧. وعمل الشيخ علي بن محمد مصفنك البسطامي شرحًا باللغة العربية على قصيدة

البردة في ثلاث سنوات بأمر من النبي صلى الله عليه وسلم في المنام.(الفوائد البهية)

هذا المقال مقتبس من شرح قصيدة البردة للأستاذ حميد الله شاه الهاشمي بتصرف يسير.

خصائص وميزات قصيدة البردة:

١. تناثر خلق الصنائع البديعية في القصيدة بتصريف المادة، ورغم ذلك هي بمعزل عن الغرابة.
٢. موضوعها على غاية من النـــزاهة.
٣. ناظمها قادر على الكلام شاعر. يفيض كلامه بالفصاحة والبلاغة، وأصبحت غير واحد من أبياتها مضرب المثل.
٤. عدد أبيات القصيدة (١٦٠) بيتًا، و لم يتكرر قوافيه إلا في موضع واحد.
٥. أسلوبها عذب وعلى غاية من الأدب واللطف.
٦. الناظم رحمه الله على عقيدة أهل السنة والجماعة.
٧. تبذر هذه القصيدة حب النبي صلى الله عليه وسلم في قلوب الناس، لاتدع قارئها حتى يشغف بحب النبي صلى الله عليه وسلم. (عمدة النصيح لمحمد إبراهيم البتني رحمه الله)

أسانيد كبار العلماء لقصيدة البردة:

بلغ اهتمام الفقهاء والمحدثين بهذه القصيدة أنهم تلقوها بالإسناد.

رواة القصيدة عن الناظم رحمه الله:

١. أبو حيان الأندلسي.
٢. ابن سيد الناس اليعمري.
٣. عبد العزيز بن عبد السلام عز الدين، سلطان العلماء (ت:٦٦٠هـــ).

بعض مشاهير المحدثين الذين تلقوا قصيدة البردة بالإسناد:

١. يقول ابن حجر الهيتمي: لي إجازة برواية هذه القصيدة بعدة طرق، منها: أجاز لي بها شيخ الإسلام زكريا الأنصاري، وأجاز له بها أبو محمد بن الفرات، وأجاز له بها

عز بن جماعة، وأجاز له بها العلامة البوصيري.

الطريق الآخر:طريق الحافظ ابن حجر العسقلاني: أجاز له بها العلامة سراج البلقيني، والعلامة ابن الملقن، وزين الدين العراقي، وأجاز لهم جميعا بها العلامة البوصيري.

الطريق الثالث: طريق العلامة جلال الدين السيوطي.(المنح المكية في شرح الهمزية)

٢. ذكر العلامة ابن مرزوق التلمساني (محمد بن أحمد) في شرحه على قصيدة البردة أربعة من أسانيده إلى الناظم رحمه الله. (إظهار صد المودة في شرح البردة)

٣. رتب العلامة السخاوي أسانيد شيخ الإسلام زكريا الأنصاري، فسرد إسنادين له لقصيدة البردة. (ثبت شيخ الإسلام زكريا بن محمد الأنصاري، تخريج الحافظ شمس الدين السخاوي)

علاوة على هؤلاء المحدثين الكبار تعود من العلماء من لا يحصون عدًّا قراءة، وتدريس هذه القصيدة سندًا.

شراح قصيدة البردة:

لسنا بصدد استيعاب كافة الشروح على القصيدة، وإنما نتوخى عرضا موجزا عن عناية الأمة المسلمة بهذه القصيدة:

١. بدر الدين بن محمد الغزي، المتوفى عام٩٨٤هـــ، سماه: «الزبدة».

٢. بحر بن رئيس بن الهاروني المكي، سماه «ارتشاف الشهدة في شرح قصيدة البردة».

٣. شمس الدين، أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الزمردي، المعروف بابن الصائغ المتوفى عام ٧٧٦هـــ.

٤. زين الدين خالد بن عبد الله الأزهري، المتوفى عام ٩٠٥هـــ، سماه «الزبدة في شرح قصيدة البردة».

٥. جلال الدين محمد بن أحمد المحلي الشافعي-صاحب تفسير الجلالين-المتوفى عام ٨٦٤هـــ، سماه «الأنوار المضية في مدح خير البرية».

٦. أحمد بن محمد بن أبي بكر المرعشي، المتوفى ٨٠٩هـــ، سماه «نزهة الطالبين وتحفة

الراغبين».

٧. أبو عبد الله محمد بن أحمد مرزوق التلمساني، المتوفى عام٧٨١هـ، عمل شرحين على قصيدة البردة، أحدهما: «إظهار صدق المودة في شرح قصيدة البردة»، والثاني: «الاستيعاب لما في البردة من البيان والإعراب».

٨. ابن إدريس المراكشي، المتوفى عام ٦٦٠هـ، سماه «خواص البردة في برء الداء».

٩. زكريا بن محمد الأنصاري المعروف بشيخ الإسلام، المتوفى عام ٩٢٦هـ، سماه «الزبدة الرائقة في شرح البردة الفائقة».

١٠. محي الدين محمد بن مصطفى شيخ زاده، المتوفى٩٥١هـ، سماه «راحة الأرواح».

١١. علي بن محمد سلطان الهروي، المعروف بملا علي القاري، المتوفى عام١٠١٤هـ، سماه: «الزبدة العمدة في شرح البردة».

١٢. عبد الواحد بن أحمد الأنصاري المتوفى١٠٤٠هـ، سماه: «شفاء الجريح».

١٣. محمد بن أبي بكر الكردي الحنفي، المتوفى عام ١٠٦٦هـ، سماه «الدرة المضيئة في شرح الكواكب الدرية».

١٤. عبد الحق بن عبد الفتاح المتوفى ١١١٩هـ، سماه «الجوهرة اليتيمة الفردة».

١٥. أبو عبد الله محمد بن أحمد، سماه «لوامع أنوار الكواكب».

١٦. إبراهيم بن محمد الباجوري، المتوفى عام ١٢٧٦هـ، عرف شرحه بـ«حاشية الباجوري»، وأصله حاشية، إلا أنه أكثر تفصيلا من الشرح.

١٧. عمر بن أحمد الخريوتي، المتوفى عام ١٢٩٩هـ، سماه «عصيدة الشهدة».

١٨. كمال الدين حسين الخوارزمي، المتوفى عام ٨٤٠هـ.

١٩. جمال الدين عبد الله بن يوسف المعروف بابن هشام النحوي، المتوفى عام٧٦١هـ.

٢٠. خير الدين خضر بن عمر العطوفي، المتوفى عام ٩٤٨هـ.

٢١. محي الدين محمد بن مصطفى المعروف بشيخ زاده، المتوفى عام ٩٥١هـ.

٢٢. عبيد الله بن محمد يعقوب الفناري، المتوفى عام ٩٦٣هـ.

٢٣. شرف الدين بن علي اليزدي، المتوفى عام٨٢٨هـ.

٢٤. علي بن محمد البسطامي الشاهرودي، المتوفى عام ٨٧٥هـ.

٢٥. أبو شامة عبد الرحمن بن إسماعيل المقري، المتوفى عام٦٦٥هـ.

٢٦. علي بن جابر بن موسى اليمني، المتوفى عام ٧٢٥هـ.

٢٧. العلامة سعد الدين التفتازاني، المتوفى عام ٧٩١هـ.

٢٨. جلال الدين الخجندي، المتوفى عام ٨٠٢هـ.

٢٩. شرف الدين علي اليزدي، المتوفى عام ٨٢٨هـ.

٣٠. أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر القسطلاني، المتوفى عام٩٢٣هـ.

٣١. نور الدين علي القادري المتوفى عام ١٠١٤هـ.

٣٢. محمد بن يوسف القدسي الشافعي، المتوفى عام ١٠٢٨هـ.

٣٣. عبد الله بن محمود المعروف بـ كوجك محمود زاده، المتوفى عام ١٠٢٤هـ.

٣٤. الشيخ نجب علي الجهجري، عمل شرحًا على البردة في اللغات الثلاث: العربية والفارسية والأردية.

٣٥. الشيخ ذو الفقار علي الديوبندي، سماه «عطر الوردة».

٣٦. الشيخ أبو الحسنات محمد أحمد القادري، سماه «طيب الوردة».

٣٧. محمد مكي آفندي، سماه «التوسل»، وهو في اللغة التركية.

٣٨. المولوي فضل أحمد عارف، سماه «انوارِ برده».

٣٩. الشيخ إبراهيم الفتني، سماه «عمدة النصيح».

٤٠. الأستاذ علي محسن الصديقي، سماه «بردة المديح».

علاوة على الشروح المذكورة أعلاه ثمة شروح عدة على قصيدة البردة، للاستزادة

منها راجع: كشف الظنون، وإيضاح المكنون، وجهود العلماء في تصنيف السيرة النبوية، وهدية العارفين، واكتفاء القنوع بما هو مطبوع.

ذكر كشف الظنون (٤٤) شرحا على قصيدة البردة، وأوصلها بروكلمان في تاريخ الأدب العربي إلى (٧٩) شرحا، منه (٢٦)شرحا مما ذكره كشف الظنون، وثمة (٥٣) شرحا علاوة على ذلك.

وتشير مكتبة بغداد الشهيرة: المركز الوطني للمخطوطات في فهرسها إلى (١٨) شرحا على القصيدة، عد منها حاجي خليفة وبروكلمان تسعة، وتسعة أخرى منه علاوة على ذلك.

علاوة على ذلك تتضمن مقدمات الشروح والسيرة النبوية وكتب الأدب العربي، فهارس مخطوطات المكتبات شروحا أخرى كثيرة، مما لم تتناوله المصادر السابقة.

تخميس قصيدة البردة:

التخميس: زيادة ثلاثة مصاريع توافق المصراع الأول في الوزن والقافية قبل أصل القصيدة وشعر القطعة أو الغزل. قام غير واحد من أهل العلم بتخميس قصيدة البردة، وفيما يلي ذكر أسامي بعضهم:

١. سليمان بن علي القراماني، المتوفى سنة ٩٢٤هـ.
٢. محمد نبادكاني بن صافي، المتوفى سنة ٩٠٠هـ.
٣. أبو الفضل أحمد بن أبي بكر المرعشي، المتوفى سنة ٨٧٢هـ.
٤. يوسف بن موسى الجذامي، المتوفى سنة ٧٦٧هـ.
٥. أسعد بن سعد الدين المفتي، من آل حسن جان، المتوفى سنة ١٠٣٤هـ.
٦. شمس الدين محمد بن خليل المقري المعروف بابن القباقبي، المتوفى سنة ٨٤٩هـ.
٧. شهاب الدين أحمد بن محمد الحجازي، المتوفى سنة ٨٧٥هـ.
٨. محمد بن عبد الرحمن المراكشي، المتوفى سنة ٧٣٩هـ.
٩. أحمد بن محمد الصاحب الحموي، المتوفى سنة ٧٨٥هـ.

١٠. إسماعيل بن إبراهيم الحنفي المتوفى سنة ٧٨٧هـ.

١١. أبو سعيد شعبان بن محمد المصري الشافعي المتوفى سنة ٨٢٨هـ.

١٢. أبو المحاسن تقي الدين أبو بكر الحموي المتوفى سنة ٨٣٧هـ.

١٣. خليفة بن أحمد البسطامي المتوفى سنة ٩٦٠هـ.

١٤. محمد بن أحمد الرومي الانكشاري، المتوفى سنة ٩٨٧هـ.

١٥. صدقة الله القاهري، المتوفى سنة ١١٠٥هـ.

١٦. نجم الدين محمد بن أحمد بن عبد الله القلقشندي الشافعي، المتوفى سنة ٨٧٦هـ.

١٧. زين الدين أبو العز طاهر بن حسن المعروف بابن حبيب الحلبي المتوفى ٨٠٨هـ.

١٨. ناصر الدين عبد الصمد معيد المدرسة المالكية.

١٩. محمد بن عبد الصمد الفيومي.

٢٠. جمال الدين حسن بن أحمد الصوفي.

سرد في كشف الظنون (١٤) تخميسا، وسرد بروكلمان في تاريخ الأدبي العربي (٤٠) تخميسا، أربعة منها مما ذكره صاحب كشف الظنون، و(٣٦) منها علاوة على ذلك.

وتضمن فهرس المركز الوطني للمخطوطات-المكتبة الشهيرة في بغداد- (١٠) تخميسات، عدَّد واحدا منها بروكلمان، و(٩) زائدة.

علاوة على ذلك ثمة تخميسات أخرى ذكرها مقدمات الشروح على قصيدة البردة، والسيرة النبوية، وكتب الأدب العربي، وفهارس مخطوطات المكتبات، مما لم يرد ذكرها في السابق، يبلغ إجمالي عددها (٧٠) تخميسًا.

تسبيع قصيدة البردة:

التسبيع: زيادة خمسة مصاريع توافق المصراع الأول في الوزن والقافية قبل أصل القصيدة وشعر القطعة أو الغزل. وفيما يلي ذكر أسامي بعض من قام بتسبيع قصيدة البردة:

١. عبد الله بن عمر القاضي البيضاوي، المتوفى عام ٦٩٦هـ.
٢. أحمد بن محمد الرفاعي، المتوفى عام ١٢٨٠هـ.
٣. محمد بن علي الملاطي الملقب بنيازي المصري، المتوفى عام ١١٠٥هـ.
٤. محمد بن عبد الله المكي المالكي.
٥. جمال الدين محمد بن الوفاء.

ذكر صاحب كشف الظنون تسبيعا واحدا، وأورد بروكلمان في تاريخ الأدب العربي (١٠) تسبيعات. وذكر فهرس «المركز الوطني للمخطوطات» -المكتبة الشهيرة في بغداد- تسبيعين. وذكر الشيخ زكي مبارك في كتاب «المدائح النبوية» تسبيعين، ذكر واحدا منهما بروكلمان، و واحد علاوة على ذلك.

كما قام غير واحد من الناس بتسديس قصيدة البردة وتتسيعها.

تشطير قصيدة البردة:

التشطير: زيادة مصراعين بين كل بيتين، أي زيادة مصراعين قبل المصراع الأول من أصل الشعر، وقبل المصراع الثاني، يطلق عليه التشطير، وفيما يلي أسماء بعض من قام بتشطير قصيدة البردة:

١. أحمد بن داود بن سليمان النقشبندي البغدادي، المتوفى عام ١٣٦٧هـ.
٢. داود بن سليمان النقشبندي البغدادي المعروف بابن جرجيس، المتوفى ١٢٩٩ه.
٣. أحمد بن شرقاوي الخليفي المالكي المصري المتوفى عام ١٣١٦هـ.
٤. جميل بن مصطفى بن محمد حافظ الدمشقي، المتوفى عام ١٣٥٢هـ.
٥. عبد الحميد بن محمد علي، المتوفى عام ١٣٣٥هـ.
٦. عبد القادر بن عبد اللطيف بن عمر البيساري الرافعي، المتوفى عام ١٢٣٠هـ.
٧. أحمد بن أحمد بن عبد الواحد الأذرعي، المتوفى عام ٧٠٨هـ.
٨. أحمد بن عبد الخالق الحفظي الزمري اليمني، المتوفى عام ١٢٩٣هـ.

٩. أحمد بن عبد الوهاب بن أحمد الجرجاوي المالكي، المتوفى عام ١٢٥٤هــ.

١٠. رمضان البهشتي الرومي، المتوفى عام ٩٧٩هــ.

ذكر بروكلمان في تاريخ الأدب العربي (١٧) تشطيرا.

وأورد فهرس المركز الوطني للمخطوطات –المكتبة الشهيرة في بغداد- تشطيرين.

وذكر الشيخ زكي مبارك في كتاب «المدائح النبوية» (١٠) تشطيرات، ذكره بروكلمان ثمانية منها، واثنان منها زائدة.

وذكر المحقق محمد علي حسن في مقدمته على شرح قصيدة البردة للشيخ زين الدين خالد بن عبد الله الأزهري، المتوفى ٩٠٥هــ (٥) تشيطرات. ذكر اثنين منهما بروكلمان، و(٣) منها زائدة.

بديعيات قصيدة البردة:

القصيدة البديعية: هي القصيدة التي يشير كل بيت من أبياتها إلى فن من فنون البديعة.

وورد (١٧) بديعية في كتاب «المدائح النبوية» للشيخ زكي مبارك، و(٢٠) بديعية في كتاب «بحوث بلاغية» للدكتور أحمد مطلوب، ذكر (١١) منها الشيخ زكي مبارك في كتابه، و(٩) منها زائدة.

وذكر الشيخ عثمان آفندي العمري في كتابه «الروض النضر في تراجم أدباء العصر» بديعية واحدة.

وذكر جرجي زيدان في كتابه «تاريخ آداب اللغة العربية» بديعيتين.

معارضات قصيدة البردة:

١. عمل الشاعر المصري الشهير أحمد شوقي (المتوفى:١٣٥١هــ) قصيدته المدحية الشهيرة «نهج البردة» على وزن قصيدة البردة وقافيتها ورديفها. وهي (١٩٠)بيتًا.

٢. وعمل محمود سامي البارودي قصيدة تشمل (٤٤٧) بيتا في رديف قصيدة البردة،

وسماها «كشف الغمة في مدح سيد الأمة». وهاتان القصيدتان مطبوعتان ملحقتان بشرح الباجوري طبعة منابع النور/دمشق.

٣. وعمل الشيخ علي سيد عاشور الأزهري قصيدة تضم (٤٦)بيتا في رديف قصيدة البردة سماها «بردة الصبا في مدح الرسول المصطفى».

٤. عمل الشيخ أحمد الحملاوي قصيدة في رديف قصيدة البردة سماها «منهاج البردة».

علاوة على ذلك عمل كل من الشيخ عقل (ت:١٩٤٨م)، سيد عبد الحميد الخطيب، و علي بن حسن بن إبراهيم الأنكوري المصري (ت:١٢٧٠هـ)، وهلال بن سعيد العماني قصائد على رديف قصيدة البردة.

وظهر في هذا الصدد كتاب مفرد مطبوع اسمه «قصيدة البردة ومعارضاتها» من منشورات محمد بوزينه.

وعلاوة على ما مر من الشروح والتخميس والتسبيع والتشطير قام العلماء بخدمة هذه القصيدة على مستويات أخرى. وأما نقله إلى اللغات الأخرى، فلا تكاد تجد لغة يستخدمها المسلمون قراءة وكتابة إلا ونقلت إليها، منها: الأردية، والفارسية، والبشتو، والبنجابية، والتركية، والإنكليزية، والألمانية، والفرنسية، واللاطينية، والجاوي (إندونيسيا)، والبنغالية، وغيرها من اللغات، وتفاصيله مذكورة في الكتب التالية:

كشف الظنون، وإيضاح المكنون، وجهود العلماء في تصنيف السيرة النبوية، وهدية العارفين، واكتفاء القنوع بما هو مطبوع، والأعلام للزركلي، ومعجم المؤلفين.

سماع النبيﷺقصيدة مدحية في حقه ومنحه رجلين بردته:

سمع النبي صلى الله عليه وسلم قصيدة مدحية في حقه وأعطى رجلين بردته وهو يقظان أو نائم، أحدهما: كعب بن زهير رضي الله عنه، الذي سمع النبي صلى الله عليه وسلم قصيدته المدحية في حقه وهو يقظان، وأعطاه بردته. وثانيها: العلامة البوصيري، الذي سمع النبي صلى الله عليه وسلم قصيدته وألقى عليه بردته، وذلك في رؤيا رآها

البوصيري. فبرئ البوصيري من المرض. وهذه القصيدة الأخيرة القصيدة التي اشتهرت على ألسنة العامة والخاصة باسم «قصيدة البردة»، وتناولها كثير من اللغات بالشرح والترجمة.

واشتهرت قصيدة كعب بن زهير رضي الله عنه المدحية باسم «قصيدة بانت سعاد»، وذكر عدد من المؤرخين هذه القصيدة وأن النبي صلى الله عليه وسلم سمعها فأعطى صاحبها بردته. يقول ابن الأثير: أنشد قصيدته بحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستحسنه وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد أعطاه بردة له، وهي التي عند الخلفاء إلى الآن. (أسد الغابة ١٧٧/٤، ط: دار الفكر)

يقول العلامة الكشميري: وتبركاته كثيرة، منها: البردة العباسية، وهذه البردة أعطى النبي صلى الله عليه وسلم كعب بن زهير حين قرأ قصيدة بانت سعاد في حضرته، واشتراها العباسيون. (العرف الشذي شرح سنن الترمذي ٢٣٥/٢، وللاستزادة منه راجع: معجم الصحابة لابن قانع ١٨٣/٢، والإصابة ٤٤٤/٥، والأعلام للزركلي ٢٢٦/٥).

يقول الحافظ ابن كثير: وهذا من الأمور المشهورة جدا، ولكن لم أرَ ذلك في شيء من هذه الكتب المشهورة بإسناد أرتضيه، فالله أعلم. (البداية والنهاية ٣٧٣/٤)

من أعظم ما يفتخر به كعب رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم أعطاه بردته، فكات أعز عليه من نفسه، وكان معاوية رضي الله عنه مولعا بجمع تبركات النبي صلى الله عليه وسلم، فلما كان زمن معاوية رضي الله عنه كتب إلى كعب: بِعنا بردة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بعشرة آلاف درهم. فأبى عليه، فلما مات كعب بعث معاوية إلى ولده: عقبة بعشرين ألف درهم، و أخذ منه البردة. (تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص٢١)

وقد كانت هذه البردة — بعد معاوية رضي الله عنه — هي التي يلبسيها خلفاء بني أمية وبني العباس في الأعياد، وفي المواكب. (الإصابة ٤٤٤/٥)

وقال السيوطي: إنها فقدت في فتنة التتار فإنا لله وإنا إليه راجعون. (تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص٢١).

ويرى بعض المستشرقين أن الخليفة المتوكل- آخر خلفاء بني العباس- أهدى هذه

البردة إلى سليم الأول –السلطان العثماني– عام ١٥١٧م، فقام بدوره بحفظه في المتحف الملكي بقسطنطنية، وتم نقلها إلى مسجد في«آستانه»/إستانبول عام ١٨٤٩م على عهد السلطان عبد المجيد خان الأول، وقد بني هذا المسجد خصيصا لذلك، وسمي المسجد بـــ«مسجد الخرقة الشريفة»نسبة إلى هذه البردة التذكارية. وتم حفظ هذه البردة اليوم داخل صندوق ذهبي في غرفة رقم ١٢ من متحف«توب كابي» الذي بناه السلطان محمد فاتح. (شرح قصيدة بانت سعاد للعلامة فضل أحمد عارف، ص٥٤)

سبب تسمية قصيدة البردة:

١. يحكى في سبب تسمية القصيدة بقصيدة البردة عن صاحب القصيدة قوله: «أصابني الفالج فشل نصف جسدي، فلما يئست من العلاج نظمت هذه القصيدة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم، فاستشفعت بها إلى الله، إذ غفوت فرأيت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم – فيما يرى النائم في منامه–، فمسح بيده المباركة، وألقى بردته علي، فاستيقظت و وجدت الجزء المشلول من جسدي قد سرت فيه الحركة، فقمت دفعة واحدة، وبدأت أمشي، وخرجت من البيت.

هذه القصة ذكرها شارحو قصيدة البردة باختصار أو تفصيل، وشفي البوصيري ببركة هذه القصيدة فسميت القصيدة «البراءة»، وبما أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن نظم هذه القصيدة — أنه ألقى عليه بردته، فسميت القصيدة بقصيدة البردة، وهذه التسمية هي المشهورة أكثر.

٢. أو لأن البردة هي الرداء ذو الخطوط المختلفة، وكما أن البردة ذات خطوط، كذلك هذه القصيدة تتضمن معاني مختلفة جميلة من حب الرسول صلى الله عليه وسلم، ومعجزاته، وغزواته، وجماله، ومكايد النفس الإنسانية، وغيرها من المعاني المختلفة.

٣. أو لأن البردة هي الحديدة المصفاة بالمبراد، كما أن الحديد يسوي بالمبراد، ويسوى الخشب بالمسحال ويلمع بها، وسميت القصيدة بها لأنها مسواة وملمعة.

٤. أو هي مأخوذة من البرد، وسميت به القصيدة لأنها تبعث البرد والسرور في قلب

الشاعر والقارئ والسامع جميعًا.

وأورد حاجي خليفة وجوهًا أخرى في تسميتها بها، فراجع: كشف الظنون ١٣٣١/٢.

عدد أبيات قصيدة البردة:

عدد أبيات قصيدة البردة (١٦٠)بيتا، وزيدت إلى هذه القصيدة في أولها ووسطها وآخرها بعض الأبيات، فمن الأبيات الملحقة بأول القصيدة هذان البيتان:

الحَمْدُ لِلَّهِ مُنْشِئَ الخَلْقِ مِنْ عَدَمِ ۞ ثُمَّ الصَّلاةُ عَلَى المُخْتَارِ فِي القِدَمِ

مَولاَيَ صَلِّ وَسَلِّمْ دَائِمًا أَبَـــدًا ۞ عَلَى حَبِيْبِكَ خَيْرِ الخَلْقِ كُلِّهِـــمِ

كما ألحق البيت التالي بعد البيت الخامس من الفصل الأول:

وَلا أَعَارَتْكَ لَــوْنَيْ عَبْــرَةٍ وَضَــنًى ۞ ذِكْرَى الْخِيَامِ وَذِكْرَى سَاكِنِي الْخِيَمِ

كما ألحق البيت التالي بنهاية البيت (١٣٠) من الفصل الثامن:

إِنْ قَامَ فِي جَامِعِ الْهَيْجَاءِ خَاطِبُهُمْ ۞ تَصَامَمَتْ عَنْهُ أُذْنَا صِمَّةِ الصَّـــمَمِ

كما أن البيتين التاليين من الأبيات الملحقة أيضا:

بعد البيت رقم ٥٣:

حَتَّى إِذَا طَلَعَتْ فِي الْكَوْنِ عَمَّ هُدَا ۞ هَا الْعَالَمِيْنَ وَأَحْيَتْ سَائِرَ الأُمَـــمِ

بعد البيت رقم ٨٤:

آيَاتُهُ الغُرُّ لا تَخفَى عَلَى أَحَــدٍ ۞ بِدُوْنِهَا الْعَدْلُ بَيْنَ النَّاسِ لَمْ يَقُمِ

كما ألحقت الأبيات التالية بنهاية القصيدة:

ثُمَّ الرِّضَا عَن أبي بَكْرٍ وعَن عُمَرٍ ۞ وعَن عَلِيٍّ وعَن عُثْمَانَ ذِي الكَرَمِ

والآلِ والصَّحْبِ ثُمَّ التَّابِعِيْنَ لَهُمْ ۞ أَهْلُ التُّقَى والنُّقَى وَالْحِلْمِ وَالكَرَمِ

فَاغْفِرْ لِنَاشِدِهَا وَاغْفِــرْ لِقَارِئِهَــا ۞ سَأَلْتُكَ الْخَيْرَ يَا ذَا الْجُوْدِ وَالْكَرَمِ

كما ألحقت الأبيات التالية أيضًا، يدعى بها على نهاية القصيدة:

يَا رَبِّ بِالْمُصْطَفَى بَلِّــغْ مَقَاصِــدَنَا ۞ وَاغْفِرْ لَنَا مَا مَضَى يَا وَاسِعَ الْكَــرَمِ
وَاغْفِرْ إِلَهِي لِكُلِّ الْمُسْــلِمِيْنَ بِمَــا ۞ يَتْلُوْهُ فِي الْمَسْجِدِ الأَقْصَى وَفِي الْحَرَمِ
بِجَاهِ مَنْ بَيْتُــهُ فِــي طَيْبَــة حَــرَمٌ ۞ وَاسْمُهُ قَسَمٌ مِــنْ أَعْظَــمِ الْقَسَــمِ
وَهَذِهِ بُرْدَةُ الْمُخْتَــارِ قَــدْ خُتِمَــتْ ۞ وَالْحَمْدُ للهِ فِي بَــدْءٍ وَفِــي خَــتَمِ

وإذا ضممنا هذه الأبيات إلى القصيدة ارتفعت أعدادها إلى (١٧٣)بيتا، والصحيح أن عدد أبياته هو (١٦٠) بيتا فقط، وما عداها فملحقة بها، ولايصح عزوها إلى العلامة البوصيري.

ويؤيد ذلك بيت ملحق آخر بالقصيدة، ذكره الباجوري وغيره من الشراح من الأبيات الملحقة بالقصيدة:

أَبْيَاتُهَا قَدْ أَتَتْ سِتِّيْنَ مَعْ مِئَــةٍ ۞ فَرِّجْ بِهَا كُرْبَنَا يَا وَاسِعَ الْكَرَمِ

هذا البيت وإن كان ملحقا بالقصيدة، مشكوك نسبته إلى البوصيري، إلا أنه يدل على أن أبيات قصيدة البرده عددها (١٦٠)بيتا.

شرح موجز لأول الأبيات الملحقة بالقصيدة:

وينشد الناس عامة بيتا ملحقًا بها، ورغم أنه ليس من القصيدة في الواقع، إلا أن عامة الناس ينشدونه، فنشرحه شرحًا موجزًا فيما يلي:

الحَمْدُ لِلَّهِ مُنْشِئِ الخَلْقِ مِنْ عَدَمِ ۞ ثُمَّ الصَّلاةُ عَلَى الُمخْتَارِ فِي القِدَمِ

الحمد: اللام للجنس، أو الاستغراق، وقيل: للعهد الخارجي أو العهد الذهني، واللام الداخلة على اسم الفاعل أو اسم المفعول الدالة على الحال أو الاستقبال هي اللام الاسمية، نحو: الكاتب، فاللام فيه لام اسمية، وما عداه حرفية، ثم الحرفية تكون زائدة وغير زائدة.

اللام الحرفية غير الزائدة على أربعة أنواع:

١. لام الجنس، هي ما تشير إلى حقيقة من الحقائق من الجنس أو النوع أو الصنف الواحد، من غير ملاحظة الأفراد، نحو: الرجل خير من المرأة. فنوع الرجل خير من نوع المرأة، فإن الرجل يتولى إمامة الصلوات وإمامة الأمة دون المرأة.

٢. لام الاستغراق: ما تشير إلى الأفراد كلهم، نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ (العصر) فأفراد الإنسان كلهم في خسران، إلا من ذُكِر بعد قوله: ﴿إِلَّا﴾.

٣. لام العهد الخارجي: ما تشير إلى فرد معين أو أفراد بأعيانهم، نحو قوله تعالى: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ (المزمل: ١٦) أي عصى فرعون رسولا بعينه، وهو موسى عليه السلام.

٤. لام العهد الذهني، ما يشير إلى فرد أو أفراد غير معينين في الخارج، وإنما افترضه المتكلم في ذهنه، نحو قوله تعالى: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ (يوسف: ١٣) (راجع: دستور العلماء ٣/١١٤)

فإن حملنا اللام على الاستغراق—كما يقول الجمهور- كان معنى (الحمد لله): جميع أفراد الحمد لله تعالى. وإن حملناها على الجنس، كان المعنى: حقيقة الحمد ونوعه لله تعالى. وهذا قول الزمخشري. ورجح الزمخشري حمله على الجنس، فإنه يكون دعوى مع الدليل، أي حقيقة الحمد ونوعه لله تعالى؛ فإن كافة أفراد الحمد لله تعالى، ورجح الجمهور الاستغراق؛ لأن الإشارة إلى الحقيقة من غير أفرادها قليلة في الشرع.(رد المحتار ١/٨١)

قال في التفسير البديع: إن كانت (أل) للاستغراق تجلت فائدتها في المبتدإ، أي أن جميع أفراد الحمد (لا بعضها) لله تعالى، وإن كانت (أل) للجنس تجلت فائدتها في الخبر، أي أن حقيقة الحمد لله تعالى لا لغيره. ويحتمل أن تكون (أل) للعهد الخارجي، أي الحمد لله تعالى على الصفات التي تختص به، مثل: الله تعالى عالم الغيب، وحاضر بعلمه، ومختار مطلق، وقادر على كل شيء ومتصرف فيه. هذا ما قاله الشيخ حسين علي تلميذ الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي رحمه الله. (جواهر القرآن للشيخ غلام الله خان ١/٤)

ويحتمل أن تكون للعهد الذهني، تشير إلى بعض أفراد الحمد غير المعلوة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اللهم لا أحصي ثناء عليك، أنتَ كما أثنيت على نفسك». (صحيح مسلم، رقم ٢٢٢، باب ما يقال في الركوع والسجود)

تعريف الحمد والشكرِ:

الحمد: هو الثناء على الجميل الاختياري سواء كان في مقابلة النعمة أم لا.

ويُعَرَّف الحمد أيضا بـــ: «الثناء على صفة أو عطاء»، وقيل: الثناء على الله تعالى بجميل صفاته». (معجم الفقهاء للدكتور حامد ومحمد الرواس، ص ١٨٦)

تعريفات الشكر:

١. فعل ينبئ عن تعظيم المنعم بسبب إنعامه.(رد المحتار ٧/١) وهذا التعريف عرفي.
٢. الثناء على المحسن بما أعطاك من النعمة باللسان أو الجنان أو الأركان. كذا في الصحاح للجوهري بتغير.
٣. وقيل: استعمال كل نعمة في محلها. فاستعمال العين والأذن وفق الشريعة هو الشكر. وهذا خلاصة تعريف الشكر.

المدح: هو الثناء الحسن، وما الفرق بين المدح والشكر؟ راجع تفصيله في البيت رقم ٣٤ من الفصل الثالث: (محمدٌ سيدُ الكونين...).

(**لله**): اللام للتخصيص أو الاستحقاق.

اعتراض: إذا كان كافة أفراد الحمد مختصة بالله تعالى، فكيف يصح حمد زيد وعمرو مثلا؟

الجواب: (١) حمد زيد وعمرو من الناس يرجع إلى حمد الله تعالى؛ فإن الصفات والأفعال التي يحمد عليها زيد وعمرو إنما هي من الله تعالى.

(٢) أن حمد غير الله تعالى بإزاء حمد الله تعالى كالمعدوم، فكانت أفراد الحمد كلها لله تعالى.

(٣) المراد هنا صفات الله تعالى وأفعاله الخاصة، والحمد عليها مختص بالله تعالى.

حكم الحمد:

قراءة الحمد لله قد تكون فريضة وقد تكون واجبة، فمثلا: يرى الشافعية أنها فريضة في الصلاة، ويرى الأحناف وجوبها فيها؛ وقد تكون سنة، كما في بداية الخطبة، أو قبل الدعاء وبعد الطعام؛ وقد تكون مكروهة، كما في الأماكن القذرة؛ وقد تكون حرامًا،

كالحمد بعد الطعام الحرام؛ وقد تكون مباحة كما في عموم الأحوال.

الحمد لله: جملة خبرية، والقصد منها إنشاء الثناء على الله تعالى.

وتحقيق لفظ الجلالة(الله) وبيان خصائصها يتطلب مجلدا بكامله، وقد عمل أحد كبارنا وهو الشيخ موسى خان الروحاني (ت:١٩٩٨م) كتابا في مجلدين ضخمين حول لفظ الجلالة، سماه «فتح الله بخصائص الاسم الله». وأحرى بطالب التحقيق أن يرجع إليه.

منشئ: نشأ على وزن (فتح)، ونشُؤ، على وزن (كرم): الحياة والظهور.

والإنشاء على زنة (إفعال): التربية والخلق، يقال: أنشأ الكلام: شرع فيه.

المنشي: أبدلت الهمزة ياء، وسقطت الياء لالتقاء الساكنين.

الخلق: بمعنى المخلوق، وخلقَ على وزن (نصر): الإيجاد، وخَلِقَ: (س)خلقا، وخَلُقَ: (ك) خلوقة: اللين، وخلق الثوب خُلُوقة وخَلَقًا: بلي.

عَدِم: (س) عُدْمًا، وعَدَما: ضيعه وأفناه، وعدُمَ (ك) عَدامَةً: السفه.

والعدم: هو الفناء.

ثم الصلاة: صلَى يَصْلِيْ (ض): وضع الحطب في النار، وعرضه على النار، وصَلِيَ يَصْلَى(س): الاحتراق في النار، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾ (الليل: ١٥)

صلَّى يُصَلي صلاةً وتصليةً: صلاة مصدر من التفعيل، ويقل مصدره على (تصلية).

والصلاة لها معانٍ كثيرة، من المعاني المناسبة هنا: ١- التعظيم، ٢-الدعاء،٣ - الثناء الكامل، ٤- الرحمة الخاصة، والعطف.

فإن حملناها على التعظيم، كان المعنى: اللهم عظِّم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم و ارفع شأنه، وارفع ذكره، ونفِّذ شريعته، وضاعف أجره وثوابه، وزد من شفاعته للأمة.

يقول الشيخ عبد الله سراج الدين رحمه الله (ت:١٤٢٢هـ): لاتنافي بين تلك الأقوال كلها؛ فإن كلا منهم عبر عن جانب من معاني صلاة الله على حبيبه صلى الله عليه وسلم، وذلك لأن صلاة رب العالمين تتضمن معنى الثناء والتعظيم والتكريم والعطف الخاص، والرحمة الخاصة، والمغفرة الخاصة. الخ. (الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم: أحكامها،

فضائلها، وفوائدها للشيخ عبد الله سراج، ص٣٧، معاني الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم)

ويرد على الأحناف أنه عموم مشترك فيما إذا حملنا المشترك على كافة معانيه، وأجاب عنه الأحناف بأن المراد به عموم المجاز، أي يراد به المعنى الخاص وهو الاعتناء والاهتمام الخاص، وهذا المعنى عام شامل لجميع المعاني.

اعتراض: يأمرنا الله تعالى فقال: صلوا. ونحن لا نصلي عليه، وإنما نطلب من الله تعالى أن ينـــزل عليه الرحمة، وهذا لايليق فيما يبدو.

الجواب: لا نستطيع أن ندعو له صلى الله عليه وسلم بالرحمة بما يليق بشأنه، فنفوض إلى الله تعالى، ونقول: اللهم أنزل عليه من الرحمة ما يليق بشأنك العظيم.

إفراد الصلاة والسلام بعضهما عن بعض:

اعتراض: أورد الشاعر المجهول الصلاة غير مقرونة بالسلام، في حين يأمرنا الله تعالى في كتابه بالصلاة والسلام معا حيث يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ (الأحزاب: ٥٦)

الجواب عنه: يجوز عند الأحناف إفراد الصلاة عن السلام، والعكس من غير كراهة. وقال العلامة ابن عابدين الشامي: في الأصح من الأقوال يرد أحدهما بدون الآخر، ولم ينـــزل الصلاة والسلام في التشهد في وقت واحد، بل نزلا في أوقات مختلفة، فنزل السلام أولا، وتبعه الصلاة بعد مدة، كما وردت أحاديث كثيرة بالصلاة دون السلام، وبالعكس، قال الشامي: «قال الحموي وجمع بينهما[أي: بين الصلاة والسلام] خروجًا من خلاف من كره إفراد أحدهما عن الآخر وإن كان عندنا لا يكره كما صرح به في منية المفتي. وهذا الخلاف في حق نبينا –صلى الله عليه وسلم– وأما غيره من الأنبياء فلا خلاف فيه». (رد المحتار١/١٣، نقلا عن شرح العلامة ميرك على الشمائل).

ثم قال: «وجزم العلامة ابن أمير حاج في شرحه على التحرير بعدم صحة القول بكراهة الإفراد، واستدل عليه في شرحه المسمى «حلية المجلي في شرح منية المصلي» بما في سنن النسائي بسند صحيح في حديث القنوت «وصلى الله على النبي» ثم قال: مع أن في

قوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ (الصافات: ١٨١) ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾(النمل: ٥٩) إلى غير ذلك أسوة حسنة. اهــ. وممن رد القول بالكراهة العلامة منلا علي القاري في شرح الجزرية فراجعه».(رد المحتار ١/١٣)

وأما الأمر في قوله: ﴿وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ فيمكن حمله على الاتباع والانقياد، قال الطحطاوي على الدر المختار: «وإنما ترك حكم السلام؛ لأنه مفسر بالانقياد، ولذا لايكره إفراده في المشهور».(١/٢٢٧)

زيادة «سيدنا» في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم:

وزيادة «سيدنا» قبل «محمد» في الصلاة والسلام حيث لم يرد في الألفاظ المأثورة قال عنها ابن حجر الهيتمي في الدر المنضود، والحافظ السخاوي في القول البديع: هو الأفضل ومن حسن الأدب. وقال الحافظ ابن تيمية: لايليق، وقال عز الدين بن عبد السلام: الزيادة حسن الأدب، والترك حسن الاتباع. (البركات المكية في الصلوات النبوية، ص٢٩٩٣١، للشيخ مولانا محمد موسى الروحاني البازي رحمه الله تعالى)

ويمنع عنه بعض السلفيين اليوم منعا باتا، في حين يوجبه بعض الناس إيجابا. ويرى كاتب هذه السطور أنه يجب التوسط في الأمر، فله أن يزيدها حينا، ولكن لايتعودها، وأما وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيرِ الله تعالى بالسيد فقد وردت أحاديث عديدة به، منها قوله صلى الله عليه وسلم: «أنا سيد ولد آدم ولافخر»، وهو حديث مشهور جدا، وقال صلى الله عليه وسلم: «إن ابني هذا سيد، ولعل الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين».(صحيح البخاري، رقم:٢٧٠٤) والله أعلم.

حكم الصلاة والسلام:

تجب الصلاة – عند الإمام الطحاوي- حين يسمع اسمه صلى الله عليه وسلم، فإن تكرر سماعه في المجلس كرره، وقال صاحب الكافي: يكفيه مرة في المجلس، وقال: هو المفتى به. (كذا في حاشية الطحطاوي على الدر المختار ١/٢٢٨)

وقال الملا علي القاري في «شرح النقاية»: فإن سمع في المجلس أول مرة، وصلى عليه، كفاه، وقال الطحاوي: يجب عند سماع اسمه في كل مرة، هو الصحيح، كذا في المحيط. ويتداخل في المسجد والمجلس.(شرح النقاية ١/٢٦٨)

وهذا القول أيسر، وصححه في فتح القدير، قال: ولو تكرر في مجلس قيل: يكفي مرة، وصحح.(فتح القدير١/٢٧٦)

وهي فرض في العمر مرة واحدة، ولو صلى التاجر عليه صلى الله عليه وسلم عند فتحه متاعه لتنفق تجارته حرم، ويسن الصلاة في التشهد الأخير، ويكره في التشهد الأول. (كذا في حاشية الطحطاوي على الدر المختار١/٢٢٨، والهندية ٥/٣١٥)

وقال في الكمالين حاشية على الجلالين: وهي واجبة (أي فرض) في العمر مرة عند الكرخي، وكلما ذكر اسمه عند الطحاوي، وفي الصلاة بعد التشهد عند الشافعي. انتهى.
ثم الصحيح أنه لا تصح الصلاة والسلام لغير الأنبياء استقلالا، وتصح تبعا لهم، كما لايصح: محمد عز وجل، مع أنه صلى الله عليه وسلم كان عزيزا وجليلا، وذلك لأن الصلاة والسلام خصصهما العرف بالأنبياء، كما أن «عز وجل» خصص بالله سبحانه وتعالى. وتوضيحه الكامل في تفسير قوله تَعَالَىٰ:﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ (التوبة:١٠٣) (راجع: التفسير المظهري ٩/٤٢٦)

ويطلق على الصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم في الأردية: «دُرُود»، بضم الدال والراء. قرأت في بعض كتب منكري الحديث: هذه الكلمة (درود) مأخوذة من (دريدن) ومعناها الشق والخرق، والقائلون بحجية الحديث ينقطعون من الله تعالى بسبب صلاتهم (يقابلها في الأردية درود بمعنى القطع) فإنها تتضمن الدعاء لآل إبراهيم وهم اليهود. (نعوذ بالله من هذه الخرافات).

والجواب عنه أن كلمة (درود) معناها: حصاد أو قطع الشجر.(غياث اللغات)

فالفلاح أو صاحب الأرض أو البستاني حين يحصد زرعه أو يقطف ثمرته يكاد يطير فرحا، وينتفع انتفاعا لا يحصى ولا يعد، كذلك الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم تجلب السرور والفرح والخير الكثير والفائدة العظيمة. والمراد بآل إبراهيم أزواجه وأولاده،

وهم أنبياء وصلحاء، فكيف يقال: إنهم مغضوب عليهم؟!

إضافة الصلاة:

جاء في غياث اللغات- معجم فارسي-: الصلاة إذا أضيفت إلى الله تعالى أريد بها نزول الرحمة، وإن أضيفت إلى الملائكة أريد بها الاستغفار، وإن أضيفت إلى البشر أريد بها الدعاء، وهي من البهائم والطيور بمعنى التسبيح.(ص ٢٠٦)

دلالات السلام:

والسلام -المضموم إلى الصلاة- له ثلاثة معانٍ:

الأول: السلامة من العيوب والنقص والآفات.

الثاني: السلام اسم من أسماء الله تعالى، فمعناه: كان الله -الذي اسمه السلام- حافظا لك ومعينا، وحاميا وناصرا لدينك.

الثالث: معنى السلام: الخضوع والانقياد، والمعنى: اللهم اجعل العباد خاضعين ومنقادين لدينك، وشريعتك، ومطيعين لأمرك. هذه خلاصة ما قاله الشيخ محمد علي السايس في تفسير آيات الأحكام. (٤٧/٤)

المختار في القدم:

خار يخير: كان ذا خير، وإذا كان مصدره: خِيْرَة، أو خِيَرَة كان معناه تفضيل أحد على غيره. والمختار هو المصطفى والمحبوب.

قَدَم (ن) قَدْمًا: سبق. قَدِم (س) قُدومًا: جاء. وقَدَمًا وقَدامةً: ضد الحديث.

أي أعلنت نبوة النبي صلى الله عليه وسلم وانتهاء النبوية به قبل خلق الخلائق كلهم، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «كنت نبيا وآدم وبين الروح والجسد»، وفي رواية: «إني عبد الله لمكتوب خاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينه». (ولمزيد من التأكد من هذا الحديث وتحقيقه راجع : فتاوى دارالعلوم زكريا ٤١٩/١).

وأُلِفَت كتب كثيرة في تحقيق الصلاة والسلام، من أشهرها: القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع للعلامة السخاوي.

أبيات قصيدة البردة، المطعون فيها:

أبيات قصيدة البردة التي طعن فيها ما يلي:

١ لو ناسَبَتْ قَــدْرَهُ آياتُــهُ عِظَمَــا ۞ أحيا اسْمُهُ حين يُدعَى دارِسَ الرِّمَمِ (الفصل الثالث)

٢ أقسَمْت بِــالقَمَرِ الْمُنْشَــقِّ إنَّ لَــهُ ۞ مِنْ قَلْبِهِ نِسْبَةً مَبْــرُوْرَةَ القَسَــمِ (الفصل الخامس)

٣ ما سامَنِي الدَّهرُ ضيمًا واستَجَرتُ بِهِ ۞ إلا ونلتُ جِوَارًا منــه لم يُضَــمِ (الفصل الخامس)

٤ ولا التَمستُ غِنَى الدَّارَيْنِ مِن يَــدِهِ ۞ إلا استَلَمتُ النَّدَى مِن خيرِ مُستَلَمِ (الفصل الخامس)

٥ وذاكَ حــينَ بُلُــوغٍ مِــن نُبُوَّتِــهِ ۞ فليسَ يُنكَرُ فيهِ حــالُ مُحتَلِمِ (الفصل الخامس)

٦ يا خيرَ مَن يَمَّمَ العــافُونَ ســاحَتَهُ ۞ سعيًا و فَوقَ مُتُونِ الأَيْنُقِ الرُّسُمِ (الفصل السابع)

٧ حاشاهُ أنْ يَحْرِمَ الرَّاجِي مَكَارِمَــهُ ۞ أو يَرجِعَ الجارُ منه غيرَ مُحتَرَمِ (الفصل التاسع)

٨ يا أكرَمَ الخلقِ ما لي مَن ألــوذُ بــه ۞ سِوَاكَ عِندَ حُلــولِ الحادِثِ العَمِمِ (الفصل العاشر)

٩ فَإنَّ مِنْ جــوْدِكَ الــدُّنيا وَضَــرَّتَها ۞ وَ مِنْ عُلُوْمِكَ عِلْمُ اللَّوْحِ و القَلَــمِ (الفصل العاشر)

ثمة أبيات أخرى هي عرضة للطعن والاعتراض، حاول الشرح كشف هذه الإشكالات والاعتراضات، وإنما هدفنا هنا سرد الأبيات التي هي عرضة للطعن والنقد، ولمعرفة الإشكالات والأجوبة عنها يرجع إلى الكتاب نفسه.

حمل كلام العلماء والصلحاء على المعنى الصحيح:

يكادون يتفقون على أن صالحي الأمة إذا صدر منهم كلام ظاهره غير صواب، حمل على معنى صحيح، وخاصة إذا كان القائل من أهل العلم في الدين، وجب حمله على معنى صحيح، ويدخل في ذلك كافة التفاصيل التي ذكرها الفقهاء لصون المسلم من الكفر، وفيما يلي نص واحد من نصوصهم، يقول العلامة ابن نجيم: «والذي تحرر أنه لا يفتى بتكفير مسلم أمكن حمل كلامه على محمل صحيح».(البحر الرائق ١٣٥/٥)

وقبل أن نضرب على ذلك مثلا، نسرد بعض النصوص الخاصة بهذه القاعدة:

(١) قال العلامة ابن تيمية: «فإنه يجب أن يفسر كلام المتكلم بعضه ببعض، ويؤخذ

كلامه ههنا وههنا، وتعرف ما عادته بعينه ويريده بذلك اللفظ، إذا تكلم به، وتعرف المعاني التي عرف أنه أرادها في موضع آخر، فإذا عرف عُرفه وعادته في معانيه وألفاظه كان هذا مما يستعان به على معرفة مراده».(مجموع الفتاوى٢/٣٧٤)

(٢) ويقول الشيخ أفضل خان رحمه الله —من مشايخ وأكابر جماعة إشاعة التوحيد- في كتابه المشهور: «نثر المرجان من مشكلات القرآن»-الذي قرظ له الشيخ محمد طاهر البنج بيري شيخ مشايخ إشاعة التوحيد — بعد شرح بيت من أبيات العلامة الرومي (محمد بن محمد بن حسين البلخي الرومي المتوفى:٦٧٢هــ-: «فهذا تأويل لكلام الرومي لكونه معروفًا بصحة العقيدة واتباع السنة، حيث قال في آخر المثنوي: «أنت حسبي، أنت كافي ليس غير»، ثم التأويل إنما يعتبر في كلام من يكون معروفا بالاعتقاد الصحيح، لا في كلام من ليس كذلك، وقوله: «أنبت الربيع البقل» إذا صدر عن الجاهل المنكر لا يتأول فيه، وإذا صدر عن مسلم فيتأول فيه بأنه هذا من قبيل الإسناد إلى الزمان، فهو مجاز».(نثر المرجان، ص ١٢٧)

(٣) ويقول الشيخ محمد زكريا رحمه الله: حتى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله-ذلك المتشدد- ومثله مشى على تأويل كلام أولياء الله، وتتضمن فتاواه تأويل كلام أكابر الصوفية بكثرة في عشرات الأمكنة، وخاصة يكثر في فتاواه تأويل كلام الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله. (*اکابر علمائے دیوبند اتباع شریعت کی روشنی میں*،ص 14).

الأمثلة:

والأمثلة على هذا النوع متعدد، نسوق بعضها على سبيل التمثيل لا الحصر:

وفيما يلي نسرد الأمثلة التي ساقها الشيخ محمد زكريا رحمه الله مشفوعة بمصادرها الأصلية:

١- قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وفي كلام بعض الشيوخ: المحبة نار تحرق في القلب ما سوى مراد المحبوب...، قصد بمراد الله تعالى الإرادة الدينية الشرعية التي هي بمعنى محبته ورضاه فكأنه قال تحرق من القلب ما سوى المحبوب لله وهذا معنى صحيح. فإن من تمام الحب أن لا

يحب إلا ما يحبه الله فإذا أحببت ما لا يحب كانت المحبة ناقصة».(مجموع الفتاوى١٠/٢١٠-٢١١، ومثله في ١٠/٦٨٤).

٢- وقال: «والمشايخ المستقيمون إذا قال أحدهم: ما أرى غير الله، أو: لا أنظر إلى غير الله ونحو ذلك، فمرادهم بذلك ما أرى ربا غيره ولا خالقا غيره ولا مدبرا غيره ولا إلها غيره، ولا أنظر إلى غيره محبة له أو خوفا منه أو رجاء له؛ فإن العين تنظر إلى ما يتعلق به القلب».(مجموع الفتاوى ١٠/٢٢٢)

٣- وقال شيخ الإسلام أيضا: «قال الشيخ عبد القادر -قدس الله روحه-: «افن عن الخلق بحكم الله، وعن هواك بأمره، وعن إرادتك بفعله فحينئذ يصلح أن تكون وعاء لعلم الله». قلت: فحكمه يتناول خلقه وأمره أي: افن عن عبادة الخلق والتوكل عليهم بعبادة الله والتوكل عليه فلا تطعهم في معصية الله تعالى ولا تتعلق بهم في جلب منفعة ولا دفع مضرة. وأما الفناء عن الهوى بالأمر، وعن الإرادة بالفعل بأن يكون فعله موافقًا للأمر الشرعي لا لهواه، وأن تكون إرادته لما يخلق تابعة لفعل الله لا لإرادة نفسه. فالإرادة تارة تتعلق بفعل نفسه وتارة بالمخلوقات. فالأول يكون بالأمر، والثاني لا تكون له إرادة. ولا بد في هذا أن يقيد بأن لا تكون له إرادة لم يؤمر بها وإلا فإذا أمر بأن يريد من المقدورات شيئا دون شيء فليرد ما أمر بإرادته سواء كان موافقا للقدر أم لا». (مجموع الفتاوى ١٠/٤٩٠).

٤- وأوّل الحافظ ابن القيم في «مدار السالكين شرح منازل السائرين» كلام شيخ الإسلام الهروي الصوفي (عبد الله بن محمد المتوفى عام:٤٨١هـ)صاحب «منازل السائرين» كثيرًا، حتى قال في موضع منه: فرحمة الله على أبي إسماعيل، فتح للزنادقة باب الكفر والإلحاد، فدخلوا منه وأقسموا بالله جهد أيمانهم: إنه لمنهم، وما هو منهم. ثم ساق أشعاره وصححها.

قال ابن القيم:

«مَا وَحَّدَ الْوَاحِدَ مِنْ وَاحِدٍ ۞ إِذْ كُلُّ مَنْ وَحَّدَهُ جَاحِـــدُ

تَوْحِيدُ مَنْ يَنْطِقُ عَنْ نَعْتِـــهِ ۞ عَارِيَّـــةٌ أَبْطَلَهَـــا الْوَاحِـــدُ

تَوْحِيـــدُهُ إِيَّـــاهُ تَوْحِيـــدُهُ ۞ وَنَعْتُ مَنْ يَنْعَتُـــهُ لاحِـــدُ

ومعنى أبياته: ما وحَّد الله عز وجل أحد حق توحيده الخاص، الذي تنفى فيه الرسوم، و يضمحل فيه كل حادث، ويتلاشى فيه كل مكون، فإنه لايتصور منه التوحيد إلا ببقاء الرسم، وهو الموحِّد، وتوحيده القائم به، فإذا وحده شهد فعله الحادث ورسمه الحادث، وذلك جحود لحقيقة التوحيد، الذي تنفى فيه الرسوم، وتتلاشى فيه الأكوان، فلذلك قال: إذ كل من وحده جاحد، هذا أحسن ما يحمل عليه كلامه،... فرحمة الله على أبي إسماعيل، فتح للزنادقة باب الكفر والإلحاد، فدخلوا منه وأقسموا بالله جهد أيمانهم: إنه لمنهم». (مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/١٤٧-١٤٨)

وحاصل ما ذكره ابن القيم في معناه: إن توحيد الله، الذي يفنى فيه الرسوم والمعالم، لايذكره الموحد، فإن الموحد وتوصيفه ينافي التوحيد الحقيقي،أي أن أصل التوحيد هو أن يتعلق نظره بالله وحده لاشريك له، ويعود ما سواه معدوما وغير مستحق للعناية. يقول الشاعر الأردي ما معناه:

توحید یہی ہے کہ خدا حشر میں کہہ دے ۞ یہ بندہ دوعالم سے خفا میرے لیے ہے

إن التوحيد هو الذي يقول الله في المحشر: إن هذا العبد غضب على العالمين من أجلي.

وبهذا تمت الأمثلة التي ضربها الشيخ رحمه الله. وفيما يلي أمثلة أخرى من غير ترتيب خاص:

٥- قال فقيه النفس الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي في شعر الشاعر الشهير «أمير خسرو» رحمه الله التالي:

خلق می گوید کہ خسرو بت پرستی می کند ۞ آرے آرے میکند با خلق عالم کار نیست

إن معناه الصحيح هو أن المراد بعبادة الوثن في مصطلح الشعراء الطاعة والخضوع، فكأنه أراد به طاعة شيخه المحبوب نظام الدين قدس سره، وطاعة الشيخ طاعة الله، في حين أن معنى الشعر الظاهر غير صواب.(فتاوى رشيدية، ص ٤٨)

ويؤيد ذلك أنهم يقولون في الأردية في الكلام العادي: (*فلاں اس مدرسہ کا سرپرست ہے*)

فليس معناه: أنه يُعبدُ رأسُه؛ بل المراد أنه مطاع، ومتبوع.

٦- يقول الشيخ الشاه محمد إسماعيل الشهيد رحمه الله: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنا أصل إلى التراب بعد الموت»، فأثار البريليون عليه ضجة كبيرة. وذكر فقيه النفس الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي رحمه الله فقال: معناه الصحيح: ملاقاة التراب والاتصال به، وحيث إن الميت يحيط به التراب من كل جانب، فصح القول بأنه يصل إلى التراب، فلا إشكال عليه.(عبارات أكابر، ص ٧٤-٧٨)

٧- ما ورد من أبيات الشيخ محمد قاسم النانوتوي في «قصائد قاسمي»، منها:

مدد کر اے کرم احمدی کہ تیرے سوا ❁ نہیں ہے قاسم بے بس کا کوئی حامی کار

المعنى: يا أيها السخاء المحمدي،- يعني به الشفاعة في الآخرة-، فلا ينفعني شيء عدا شفاعتك.

فليس في البيت استنصار من أحمد صلى الله عليه وسلم واستمداد منه ما فوق الأسباب؛ بل لاذ الشاعر إلى الكرم المحمدي، ومن سخاء محمد صلى الله عليه وسلم شفاعته للناس.

فأمثال هذه الأشعار محمولة على الاستشفاع، وقد وردت هذه الأشعار في «فتاوى محمودية» ١/٣٧٠ مع شرح مختصر أيضًا.

٨- وقال شيخ الهند محمود حسن الديوبندي في شعر:

مردوں کو زندہ کیا زندوں کو مرنے نہ دیا ❁ اس مسیحائی کو دیکھیں ذری ابن مریم

طعنت القاديانية والبريليون في هذا البيت طعنا شديدا، فشرح الشيخ محمد أنورشاه الكشميري معناه الصحيح فقال: أراد شيخنا شيخ الهند رحمه الله: أن مشايخ الطريقة والشريعة أحيوا القلوب الميتة، ولم يتركوا القلوب الحية تموت. فحذف في هذا المصراع

كلمة «قلب»، فحسب.(ملفوظات محدث كشمري، ص٥٢)

٩- يصف بعض الناس عليا رضي الله عنه بـــ «حلال المشكلات»، وله محملان، فإن قاله رجل صحيح العقيدة كان معناه صحيحا، والمعنى: إن عليا رضي الله عنه كان يحل كثيرا من القضايا العويصة والأمور الشائكة، فأطلقوا عليه «حلال المشكلات». ومعناه في الفارسية (مشكل كشا)، ولكن الناس غلوا فيه.(فتاوى محمودية ٣٦٤/١).

١٠- قال العلامة ابن حبان رحمه الله: «النبوة: العلم والعمل»، فكفره أهل زمانه به، وأول الذهبي كلامه، وأبطل الاعتراضات الموجهة إليه.(سير أعلام النبلاء ٩٦/١٦)

١١- وأوَّل الشيخ محمد أفضل خان- وسبق ذكره- أبيات العلامة جلال الدين الرومي رحمه الله، وساق نصوص الشيخ أشرف علي التهانوي، فتجلى المعنى الصحيح لها، يقول الشيخ:

قال المولى الرومي في المثنوي:

نام احمد چوں چنیں یاری کند ❁ تا کہ نورش چوں مددگاری کند

وقال الشيخ أشرف علي التهانوي في «كليد مثنوي» في شرح هذا البيت: «كم من الفوائد والمنافع في اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم».

وأيضا قال الرومي:

نام احمد چوں حصاری شد حصین ❁ تا چہ باشد ذات آں روح الامین

فقال الشيخ التهانوي رحمه الله في شرحه: «إنما عبر عن الرسول صلى الله عليه وسلم بالروح؛ لكون اتباعه داعيا وباعثا على الحياة الروحانية».(كليد مثنوي). انتهى.(نثر المرجان من مشكلات القرآن، ص ١٢٦-١٢٧).

واعلم أن الشيخ محمد أفضل خان من كبار مؤسسة «إشاعة التوحيد».

١٢- يقول الشيخ أفضل خان رحمه الله وهو يؤول كلام الرومي نقلا عن الشيخ غلام الله خان: «تنبيه: عاصم رضي الله عنه لم يدفع عن نفسه نبل العدوحتى شرب كأس

الشهادة، فما قال الرومي:

اولياءراهست قدرت از اله ❁ تير جسته باز آرندش زراه

لايصح إلا بعد أن يؤول بأن يقال: إن باتباع تعليمات الأولياء تدفع سهام المعاصي والبدعات». (نثر المرجان في مشكلات القرآن، ص٤١١)

والحاصل أن بيت مولانا الرومي السابق لا يعني أن الله تعالى أفاض على الأولياء القدرة على استعادة السهم المرمي، وإنما المعنى: أن توجيهات الأولياء يدفع بها سهام المعاصي والبدعات.

١٣- ساق شيخ المشايخ الشيخ حسين علي رحمه الله –تلميذ الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي والشيخ محمد مظهر النانوتوي رحمهما الله- في كتابه الشهير «بلغة الحيران في ربط آيات القرآن»- الذي استحسنه كل من شيخ الحديث محمد طاهر البنج بيري، وشيخ الحديث الشيخ القاضي شمس الدين، وشيخ القرآن الشيخ غلام الله خان، وشيخ الحديث الشيخ سرفراز صفدر- نصا طويلا منسوبًا إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني، حاصله أن من ناداني في الضراء و الشدة أفرج عنه كربته.

قال الشيخ وهو يشرح معناه: فإن كان معناه: ادع بوسيلتي وحرمتي، فصحيح، وهذا معنى (نادى بي) بالباء، وفي النسخة المطبوعة (ناداني)، بالنون، فهو من عمل الرواية بالمعنى.

وفيما يلي نص الشيخ:

«فإن كان المراد، أي مراد الشيخ: اذكرني أي يقول: بحرمة الشيخ، ويكون مراد الشيخ من قوله: ناداني، أي نادى الله تعالى بوسيلتي. وهذا المعنى بحسب (نادى بي) بالباء الجارة، وأما في النسخة المطبوعة من لفظ «ناداني» فلعله من الراوي بحسب الرواية بالمعنى، أو يؤول النداء بمعنى النداء بنصب العين، ولا بد من التأويل أي تأويل».(بلغة الحيران، ص٣٤٢)

و ورد هذا المعنى في «جواهر التوحيد» للشيخ غلام الله خان رحمه الله، ص٣٥٠.

كشف شبهة ناشئة عن نص الشيخ ولي الله الدهلوي فيما يخص شق القمر:

١٤- يعترض الناس على بعض نصوص «التفهيمات الإلهية» للشاه ولي الله الدهلوي بأنها تستلزم إنكار معجزة شق القمر، مع أنها ثبتت بالأحاديث الصحيحة، وظهرت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذهبي، يقول الشاه الدهلوي في «التفهيمات الإلهية»: «أما شق القمر فعندنا ليس من المعجزات، إنما هو من آيات القيامة، كما قال الله تعالى: ﴿ اِقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ۝ ﴾.(القمر)؛ لكنه أخبر عنه قبل وجوده، فكان معجزة من هذا السبيل». (٥٧/٢، ط:مطبعة برقي، بجنور).

الجواب: أول أهل العلم نص الشاه ولي الله الدهلوي هذا؛ لأن معجزة شق القمر ثبتت بالأحاديث الصحيحة المتواترة، قال الحافظ ابن كثير في تفسير سورة القمر: ثبتت هذه المعجزة بالروايات المتواترة الصحيحة. (تفسير ابن كثير ٤٧٦/٤)

وقال الشيخ المفتي بسم الله — مفتي جامعة تعليم الدين/دابيل سابقًا- في هذا النص: المراد بقوله: «فعندنا ليس من المعجزات» أنها ليست معجزة عادية؛ بل معجزة تمتاز عن غيرها من المعجزات، ومن ميزتها أنها آية من آيات القيامة علاوة على أنها معجزة.(فتاوى بسم الله ٣٥٦/١).

وهذه الفتوى وقع عليها الشيخ محمد يوسف البنوري رحمه الله تأييدا لها، وأضاف: المعنى الواضح لكلام الشاه ولي الله الدهلوي رحمه الله أنه يعتبر شق القمر واقعة جزئية مخصوصة، ويقول: «أما شق القمر...»، وسبق أن أشار إلى المعجزات الجزئية، فليقرأ النص بكامله، وحيث إن الله تعالى جعلها في القرآن الكريم دليلا على اقتراب الساعة، فهي في الأصل دالة على آيات الساعة، والله أعلم.(محمد يوسف البنوري عفا الله عنه،٣٥٦/١)

وأرى أن أيسر تأويل لهذا الكلام أن نقول: وأما شق القمر، أي المذكور في القرآن، فعندنا ليس من المعجزات، أي: المعجزات الواقعة في الماضي، ولكنه أخبر عنه قبل وجوده. الخ.

فشق القمر المذكور في القرآن يتحقق قبل قيام الساعة علامةً لها، وأما شق القمر

المذكور في الحديث فقد مضى ووقع.

الشاه ولي الله يقول بشق القمر:

قد اعترف الشاه ولي الله في تفسير «فتح الرحمن» بمعجزة شق القمر، يقول الشاه فيه: (انشق القمر) فيه إشارة إلى أن الكفار طلبوا منه صلى الله عليه وسلم المعجزة، فشق الله تعالى القمر شقين، شق على جبل أبي قبيس، وشق آخر على جبل قيقعان.(فتح الرحمن على هامش جواهر القرآن ١١٩٤/٣)

١٥- وأول العلامة السبكي رحمه الله في «الإبهاج في شرح المنهاج»، و«رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب» كلام الإمام الشافعي وغيره من أئمة الشافعية الكثيرين في غير موضع.

ولك أن تطلع على أمثلة أخرى على ذلك في كتاب «عبارات أكابر» ومثله من الكتب والمصادر.

وحاصل ما قلنا أن البوصيري رحمه الله -ناظم قصيدة البردة- حيث كان رجلا صحيح العقيدة، أثنى عليه غير واحد من المؤرخين ثناء عاطرا، واعتبر أهل العلم في كل زمان ومشايخ المذاهب الأربعة قصيدته منقطعة النظير، وعملوا لها شروحا كثيرة حتى قيل: لم يُعمَل شروح أكثر منه على كتاب من الكتب عدا القرآن الكريم وصحيح البخاري.

كل ذلك آية صارخة على أن هذه القصيدة تلقاها الناس عامة وخاصة بالقبول والاعتبار، وكان ناظمه صحيح العقيدة، فإذا أشكل بيت من بيوتها فيما يبدو وجب إزالة الإشكال وبيان المعنى الصحيح له، لا أن يعتبر كل ذلك فاسدا من غير مبرر. والله ولي التوفيق.

حاولنا في شرحنا هذا حمل عدد من أبيات المؤلف على المعنى الصحيح، وتأويلَه بما يوافق مذهب أهل السنة والجماعة.

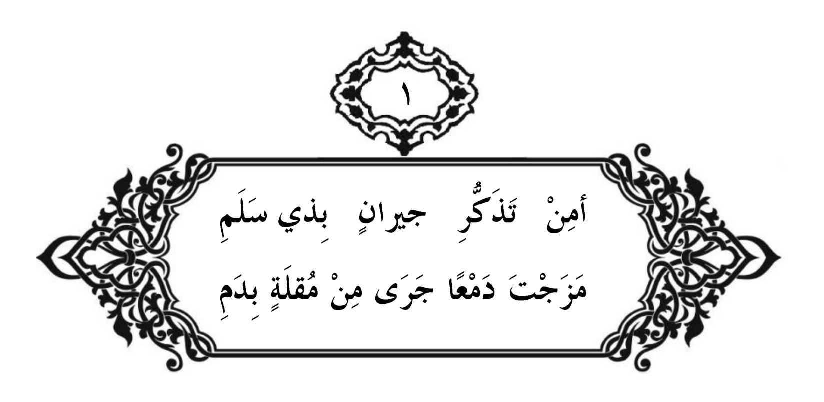
الفصل الأول

في ذكر

عشق رسول الله ﷺ[1]

(١) ورد في بعض الكتب عنوانه: «بيان العشق وشكوى الغرام»، وفي بعضها: «الغزل وشكوى الغرام»، وفي بعضها: «التغزل وبيان داء النفس».





اللغة:

أ: استفهامية.

تذكر: مصدر تذكرَ، ذكر الشيء بعد نسيانه.

ذكر(ن) ذِكرًا وذُكرًا: التذكر، والذِّكر (بالكسر)حفظ الشيء باللسان. والذُّكر (بالضم): حفظ الشيء بالقلب، والمعنى الآخر هو الأنسب في هذا المقام.

جيران: جارٌ: صاحب الجوار، والجيران أصله: جِوْران: قلبت الواو ياء، فصار جيرانًا.

جار عن الشيء: اعتزله، وجار عليه: ظلمه، وجار به: لجأ إليه.

سمي الجار جارا: لأن المرء يلوذ بجاره ويلجأ إليه.

سَلَمٌ: شجر يشبه الأراك، يصبغ بقشوره الإهاب. يطلق عليه «سلمة».

ذي سلم: (١) مكان يكثر فيه هذه الشجرة، (٢) مكان بعينه في العرب، يقال له: «ذو سلم» بين البصرة ومكة المكرمة.(معجم البلدان ٢٤٠/٣) وهو المراد في البيت.

ذو: تضاف للظاهر.

الفرق بين ذو وصاحب:

ذو بمعنى الصاحب، إلا أن الفرق بين «ذو» و«صاحب» أن ما أضيف إلى «ذو» هو أفضل، نحو: الله ذو العرش، فالله تعالى أفضل من العرش. وأما «صاحب» فالمضاف إليه هو الأفضل، نحو صاحب النبي صلى الله عليه وسلم، فالنبي أعلى درجة من صاحبه.

الفرق بين المزج والخلط:

قيل: هما واحد.

قيل: المزج هو أن يصير الشيئان بعد الخلط حقيقة واحدة، نحو خلط الماء بالحليب، وأما الخلط فهو مزج شيئين أعم من أن يكونا حقيقة واحدة أو لا، مثل خلط الرز بالحنطة.

قاعدة فيما يخص المزج:

المزوج به أكثر من الممزوج مثل: مزجت الماء باللبن، فاللبن أكثر من الماء، أو نقول: مزجت الملح بالدقيق، ولانقول: مزجت الدقيق بالملح.

دمع: جمعه: دموع: ماء مالح يسيل من العين، ساخن عند الحزن، بارد عند السرور.

جرى(ض): السيل باندفاع.

مقلة: كرة العين. ويراد به في العرف العين، أي البياض والسواد كلاهما.

بدم: دمِيَ يدمَى (س): خرج الدم.

الإعراب:

أمن تذكر: دخلت الهمزة على «مِن تذكر» لا على «مزجت»، لأسباب:

(١) رعاية لوزن الشعر.

(٢) فيه تفاؤل، إذ أصبحت الجملة هكذا: أمنتَ أيها القاري من الآفات بسبب قراءة هذه القصيدة المدحية.

(٣) من حق همزة الاستفهام أن تدخل على الفعل المسؤول عنه، وهو «مزجتَ دمعًا جرى». لكن سيلان الدمع معلوم لا يحتاج إلى السؤال، وسبب سيلان الدمع مخفي يحتاج إلى الاستفهام، هل هو تذكُّر الجيران، أو لمعان البرق؟ فلذلك دخلت الهمزة على قوله «مِن تذكُّر جيران».

من تذكر: مضاف ومضاف إليه، متعلق بـــ(مزجت)، وتذكر جيران: أصله: تذكرك جيرانًا، فحذف الفاعل، وأقيم المفعول به مقامه، فصار: تذكر جيران.

بذي: مضاف ومضاف إليه، متعلق بمحذوف صفة لـــ (جيران)، والتقدير: أمن تذكرك جيرانا كائنين بذي سلم، بدم: الجار والمجرو متعلق بـــ (مزجت).

جيرانٍ: التنوين للتعظيم، والتنوين في (دمعًا) للتنويع.

شرح البيت:

اعتراض على عدم بدء القصيدة بالحمد والثناء وجوابه:

الاعتراض: نظم الإمام البوصيري قصيدة رائعة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم و لم يبدأها بالحمد والثناء،وأما الشعر الوارد في بعض النسخ في بداية القصيدة وهو قوله:

الحَمْدُ للهِ مُنْشِي الخَلْقِ مِنْ عَدَمِ ۞ ثُمَّ الصَّلاةُ عَلَى المُخْتَارِ فِي القِدَمِ

فملحق بها وليس منها، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كل أمر ذي بال لا يُبدأ فيه بحمد الله فهو أقطع».(صحيح ابن حبان برقم: ١)

الجواب: بدأ الناظم القصيدة -على ما جرى عليه الشعراء- بالتشبيب، وهو ذكر صفات المحبوب وأحوال العشق والحب، وقد يطلق التشبيب على ذكر محاسن المرأة ومكارمها ومفاخرها فحسب، جاء في صحيح البخاري: «وعندها [أي: عائشة] حسان بن ثابت ينشدها شعرا ويشبب بأبيات له».(كتاب المغازي برقم: ٤١٤٦)، فلم يبدأ الناظم قصيدته بالحمد والثناء.

ويذكر أهل العلم عدة توجيهات له، نقدم للقارئ الكريم بعضها:

١- اكتفى بالنطق بالحمد، كما كان الإمام أحمد رحمه الله كان يكتفي بالنطق بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم عند ذكره، كذا في إرشاد القارئ لمولانا المفتي رشيد أحمد (ص٥٤-٥٥)، وهذا الجواب محمول على إحسان الظن بصاحبه.

٢- الحديث الوارد في الحمد ضعيف ومضطرب، وسبب الضعف هو قرة بن عبد الرحمن، والاضطراب تطرق إلى السند و المتن كليهما. أما الاضطراب في المتن، فقد ورد: «لايبدأ فيه بحمد الله»، أو «ببسم الله»، أو «بذكر الله»، ونحو ذلك. وأما الاضطراب في السند فهو أن الحديث موصول أو مرسل، فإن كان موصولا فهل رواه كعب بن مالك أو أبو هريرة، وأما السند ففيه قرة بن عبد الرحمن، وهو ضعيف. وكذا ورد الاختلاف في اللفظ: أقطع، وأبتر، وأجزم.

وهذا الجواب غير صحيح، فإن الحديث قد صححه ابن حبان وابن الصلاح وأبو

عوانة وتاج الدين السبكي وغيرهم. وأما قرة بن عبد الرحمن فقد روى النسائي متابعا له في السنن الكبرى وهو سعيد بن عبد العزيز. وأما الاضطراب في السند فلا يضر فإنه يحتمل أن يكون رواه كل من كعب بن مالك، وأبي هريرة رضي الله عنهما، وروي موصولا ومرسلا، ولا يضر الاضطراب في المتن أيضا، فإنه إذا نطق بالخطبة المسنونة تضمنت البسملة والحمدلة والتشهد كلها. ولو سلمنا فرضًا أن الحديث ضعيف، فلا ضير، فإن المحدثين يأخذون بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال، يقول الحافظ ابن حجر في الحديث الذي رواه البخاري: «كن في الدنيا كأنك غريب» (برقم:٧١٤٦): تفرد به الطفاوي، وهو من غرائب الصحيح، وكأن البخاري لم يشدد فيه؛ لكونه من أحاديث الترغيب والترهيب، والله أعلم. (هدي الساري لابن حجر، ص ٤٤١)

وثمة رواة آخرون في صحيح البخاري متكلم فيهم، وأورد البخاري أحاديثهم في صحيحه في الفضائل.

٣- لم يذكر الحمد هضما لذاته، أي أنه رأى أن كتابه لا يستحق أن يوصف بأنه كتاب، حتى يبدأه بالحمد. وهذا الرد غير معقول؛ لأن التواضع في العمل بالدين، لا في ترك العمل به، ثم هلا ترك التسمية أيضًا هضما لذاته!!

٤- ترك الحمد اقتداءً بالقرآن الكريم حيث بدئ بـــ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴾)العلق:١)، وليس حمدًا.

٥- حديث الحمد والتسمية واحد، فروي: «لا يبدأ فيه بذكر الله»، وروي: «لايبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم، فهو أجزم»، وحاصل هذه الروايات أنه يجب البدء بذكر الله، والبسملة تتضمن الذكر.

ولا يعقل توحد الحديث، فإنه روي «بذكر الله» مقرونا بـــ «ببسم الله»، فعلم منه أن التسمية هي المقصودة. وروِي «لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم» وهو ينبئ بأن التسمية المعروفة هي المقصودة. فمن كبَّر أو سبَّح في البدء ولم يذكر التسمية والحمد، أو حمِد الله ولم يقل بسم الله، فإنه لا يعتبر عاملا بالحديث.

٦- الجواب السادس: هذا الجواب هو الذي يرتاح إليه القلب، وهو أن الرسول صلى الله عليه وسلم سلك طريقين في الدعوة والتبليغ والوعظ والنصح:

(١) الخطبات: أي باللسان، (٢) الكتب والرسائل.

فبياناته اللسانية أي الخطبات كانت تتضمن الحمد والثناء بجانب البسملة، مثل: خطبة النكاح وخطبة الجمع والأعياد.

وأورد البخاري في صحيحه (١/١٢٦- ١٢٧) الحمد والثناء في خطبات النبي صلى الله عليه وسلم، وأما الكتب نحو: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم: سلام على من اتبع الهدى، أما بعد ...». فلم يذكر فيها الحمد. وكذلك حين كتب العهد في صلح الحديبية جاء فيه البسملة دون الحمد والثناء، روى البخاري: «فدعا النبي صلى الله عليه وسلم الكاتب فقال – صلى الله عليه وسلم-:«بسم الله الرحمن الرحيم»، قال سهيل: أما الرحمن، فوالله ما أدري ما هو؟ ولكن اكتب: باسمك اللهم...، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «اكتب باسمك اللهم»، ثم قال: «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله». (صحيح البخاري، باب الشروط في الجهاد، رقم ٢٧٣١) وجاء في القرآن الكريم: ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ۝٣١ ﴾ (النمل) ولم يذكر فيه الحمد، وذهب كبار العلماء كلهم إلى إتيان البسملة مع الحمد في الخطبات، وأما المكتوبات فإن كانت مقدمة أي تمهيدا مقدما على صلب المقال أتوا فيه بالحمد والثناء؛ فإن التمهيد للكتاب يشبه الوعظ والنصح، كما لا يخفى ذلك على القارئ في صحيح مسلم ومشكاة المصابيح ونحوهما، وأما إذا لم يتقدم التمهيد على الكتاب فإنه يخلو من الحمد والثناء في معظم الأحوال، مثل صحيح البخاري، والكافية، ونحوهما.

تناولت عدة كتب حديث «كل أمر ذي بال» بالبحث والتحقيق بين التحسين والتضعيف، ومنهم من نزله من الضعيف أيضًا، وقد درس هذا الحديث المناويُّ في «فيض القدير شرح الجامع الصغير» (١٣/٥)، وأحمد محمد صديق الغماري في «المداوي لعلل الجامع الصغير وشرحي المناوي» (٤٣/٥)، والشيخ ناصر الدين الألباني في «إرواء الغليل» (٢٩/١)، والشيخ شبير أحمد العثماني في مقدمة «فتح الملهم شرح صحيح مسلم»، والشيخ محمد يوسف البنوري رحمه الله في «معارف السنن». ونلخص هنا ما قاله البنوري في كتابه «معارف السنن»:

وأعدل الأقوال ما حكاه الشيخ تاج الدين السبكي في «طبقات الشافعية الكبرى» عن الحافظ أبي عمرو بن الصلاح: أن الحديث حسن دون الصحيح وفوق الضعيف، وفي سنده قرة بن عبد الرحمن، وقد تابعه سعيد بن عبد العزيز عند النسائي، وقد اختلفوا في توثيقه. (معارف السنن ٢/١).

تحقيق بسم الله الرحمن الرحيم:

بدء كل أمر ذي بال بالبسملة عبارة عن الاعتراف بعجز المرء واستسلامه، فإذا قال بسم الله الرحمن الرحيم حين يركب المركب، فإنه يعترف بأن هذا المركب من مظاهر قدرة الله تعالى من أوله إلى آخره، ويرفع اللقمة إلى فيه ويقول بسم الله الرحمن الرحيم فإنه يقر بعجزه وقدرة الله تعالى الكاملة من بدئه إلى نهايته.

الباء في بسم الله إما للمصاحبة أو للتبرك أو للاستعانة، و(الاسم) عند البصريين مشتق من (السمو)، وهو العلو، والدليل عليه أنه يجمع على (أسماء)، والاسم يجلب على مسماه السمعة والرفعة، فسمي به، وأما عند الكوفيين فهو مشتق من (الوسم) عندهم، وهو بمعنى العلامة، فإن الاسم دال وعلامة على مسماه، وما ذهب إليه البصريون قوي لفظا، وما ذهب إليه الكوفيون راجح معنًى.

إله: (ف) العبادة، والله معبود، أو من أَلِه يألَه (س): السكون إلى أحد، أو أصله (ولاه) بمعنى التحير، والعقول متحيرة في ذات الله تعالى وصفاته، أو من (لاه) بمعنى احتجب، لأن الله تعالى محجوب من العيون.

تعريف الله: الذات الواجب الوجود المتصف بالصفات الكمالية، المنـــزه عن التغير والزوال والنقصان.

الفرق بين الرحمن والرحيم:

١- الرحمن: عام الرحمة، والرحيم: كامل الرحمة، لأن رحمة الرحمن تعم المؤمن والكافر، ورحمة الرحيم: تخص المؤمنين في الآخرة؛ ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ (الأحزاب: ٤٣)

٢- رحمن بجلائل النعم، ورحيم بدقائق النعم.

٣- الرحمن معطي النعم، والرحيم دافع النقم.

٤- وزن الرحمن يفيد الكثرة والتكرار وسرعة الزوال، مثل: سكران وغضبان، فإن السكر والغضب يزولان بعد قليل، والرحيم يفيد الدوام، فالرحمن متعلق بالدنيا، وهي سريعة الزوال، والرحمن يتعلق بالآخرة وهي دائمة.

٥- الرحمن أبلغ من الرحيم؛ لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، فالرحمن يتركب من خمسة حروف، والرحيم يتركب من أربعة.

٦- بما أن الرحمن يفيد الكثرة والتكرار والشمول، فاختص (الرحمن) بالله تعالى، ولا يطلق على أحد سواه، والرحيم يطلق على غيره، وأما إطلاق بني حنيفة على مسيلمة الكذاب «رحمن» فتهكم منهم وعناد، فقد قالوا:

سَمَوتَ بِالَمجْدِ يَا ابنَ الأَكْرَمِيْنَ أَبًا ۞ وَأَنْتَ غَيْثُ الوَرَى لازِلْتَ رَحْمَانَا

٧- قال بعض أهل العلم: الرحمن بالألف واللام مختص بالله تعالى، وبدونها يطلق على غيره، وأطلق على مسيلمة بدونها، هذا ما قاله العلامة تاج الدين السبكي وابن جماعة، وقال الملا علي القاري في «ضوء المعالي شرح بدء الأمالي» في شرح البيت الآتي:

وما التَّشْبِيْهُ لِلرَّحْمنِ وَجْهًا ۞ فَصُنْ عَنْ ذَاكَ أَصْنَافِ الأَهَالِيْ

«وذكر ابن جماعة أن الرحمن اسم مختص بالله لا يستعمل في غيره، ثم قال: فإن قلت: قد أطلق في قول بني حنيفة على مسيلمة «رحمن» باليمامة، وقول شاعرهم:

أنت غيث الورى لازلت رحمانا

قلت: المختص المعرف بالألف واللام، دون غيره، وأما جواب الزمخشري بأنه من باب تعنتهم، فغير مستقيم».(ص ٣٦).

قال الشامي: «وذهب الأعلم إلى أنه (أي: الرحمن) علَم كالجلالة لاختصاصه به تعالى، وعدم إطلاقه على غيره تعالى معرفا ومنكرا».

ثم قال: «قال السبكي: والحق أن المنع شرعي لا لغوي، وأن المخصوص به تعالى المعرف». (رد المحتار ١/٧).

لزيادة التفصيل في هذا الصدد راجع: «بدر الليالي شرح بدء الأمالي» (١/٢٥٢).

والشاعر الشهير في لغة البشتو: عبد الرحمن بابا الذي كان وليا من أولياء الله تعالى

وشاعرا قديرا، توفي قبل ثلاث مئة سنة، وأرادت الحكومة بناء ضريحه، فحفروا حوله، فظهر جسده صحيحا سالمًا، في كفن من الكتان، وقد رأى الشيخ محمد أمير بجلي كهر رحمه الله ذلك بأم عينيه- كان يتلقب في شعره بـــ (رحمن)، وربما ذهب في ذلك إلى قول من قال: إن المعرف مخصوص بالله تعالى دون المنكر:

دریا خرقه ئے رب نه که په غاړه ۞ رحمن کوگ دستار تړلے قلندر دے

حاصل الشعر: يسأل رحمنُ اللهَ عز وجلَّ أن لا يلبسه جبة الرياء المخروقة، ولذلك لفّ رحمنُ على رأسه عمامة عوجاء التي تدل على نوع من العجب والكبر، ولكن لست متكبرا.

وقال في مكان آخر:

زه رحمن ئے تاج کنړم دیار دلاسه ۞ که م پنډ په سرد جور ودستم کړی

حاصله: لو وضَع الحبيبُ على رأس رحمن حِملا من الجور والظلم لظنَّه رحمنُ تاجًا من التيجان.

«القيوم» خاص بالله تعالى اختصاص «الرحمن» به:

القيوم صفة من صفات الله تعالى خاصة به، كما أن الرحمن صفة من صفاته خاصة به، وإن كان بعض الصوفية يذهبون إلى عدم اختصاصه بالله سبحانه وتعالى، ويقولون بجواز إطلاقه على الصلحاء الصوفية الذين يسهرون الليالي وينشغلون بالأعمال الصالحة، يقول الشيخ محي الدين ابن العربي —المشهور بـــ «الشيخ الأكبر» في كتابه «الفتوحات المكية»: ...كان معتزلي المذهب، فرأيتُه يمنع من التخلق بالقيومية، فرددته عن ذلك، فقلت له: يقول الله تَعَالَىٰ:﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾، فتبيَّن اتصاف غير الله بالقيومية، وكان يقول: إن العبد خالق أفعاله، ثم بعد زيارات عدة رجع عن مذهبه ...ولافرق عندنا بينها وبين سائر الأسماء الإلهية في التخلق بها.(١٨٢/٢، الباب الثامن والتسعون في معرفة مقام السهر، ط: دارالفكر)

وقال الشيخ عبد الوهاب الشعراني في «اليواقيت والجواهر»: «فهل يصح لأحد التخلق بالقيومية الذي هو السهر الدائم ليلا ونهارا؟ فالجواب كما قال الشيخ في الباب

الثامن والتسعين: إنه يصح التخلق به كباقي الأسماء الإلهية». ثم قال: «وليس ذلك من خصائص الحق».(اليواقيت والجواهر ١/٧١).

وأما الفقهاء والمحدثون فيخصون اسم القيوم بالله تعالى، وهو الصحيح.

قال في مجمع الأنهر: «إذا أطلق على المخلوق من الأسماء المختصة بالخالق نحو القدوس والقيوم والرحمن يكفر».(مجمع الأنهر شرح ملتقى الأبحر ١/٦٩٠)

جعل القدوس والقيوم والرحمن من صفات الله الخاصة به، وإطلاقها على غير الله تعالى كفرا، ولكن إنما يكفر إذا حمل على أنه قيوم على كل شيء ومنـــزه من كل عيب وإلا فلا.

ويقول الملا علي القاري في شرح الفقه الأكبر: «ومن قال لمخلوق: يا قدوس، أو القيوم، أو الرحمن أو قال اسما من أسماء الخالق كفر، وهو يفيد أنه من قال لمخلوق: ياعزيز، ونحوه يكفر أيضا، إلا إن أراد بهما المعنى اللغوي لا الخصوص الاسمي، والأحوط أن يقول: يا عبد العزيز، يا عبد الرحمن». (شرح الملاعلي القاري على الفقه الأكبر، ص ١٩٣).

فمن قال لمخلوق: يا قدوس أو يا قيوم، كفر، إلا أن يريد المعنى اللغوي، فلا يكفر؛ لأن معناه: كثير المراقبة والحفظ.

وجه تقديم الرحمن على الرحيم في البسملة:

١- أن الرحمن لفظة مختصة بذات الله تعالى، مثل اختصاص لفظ «الله»،ولذا ذكر''الرحمن''بعد ''الله''.

٢- موافقة لما في القرآن الكريم: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ (الإسراء: ١١٠)

٣- رحمن أبلغ لفظا ومعنى، ورحمة الله في الكون شامل كل واحد، فقدم الرحمن على الرحيم، ومثله ورد في الأمم السابقة: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ (النمل: ٣٠)

٤- معنى الرحمن: معطي النعم العظيمة، و(الرحيم) تكملة له، فالنعم العظيمة في مكانها، والنعم الصغيرة في مكانها من الله تعالى، فالرحيم تكملة لما قبله.

٥- الرحمن يتعلق بالدنيا، والرحيم يتعلق بالآخرة، والدنيا مقدمة على الأخرة.

أحكام بسم الله الرحمن الرحيم:

يجب البسملة عند الذبح، وقبل قراءة سورة الفاتحة سنة مؤكدة، ويستحب إتيانها قبل كل أمر ذي بال، وهذا القول هو الراجح. وأما البسملة قبل الحرام مثل السرقة والزنا فحرام، وأما في فاتحة سورة البراءة ومحل النجاسة فمكروهة. (راجع:حاشية الطحطاوي على مراقي الفلاح، ورد المحتار على الدر المختار)

وفصل الشراح الكلام على البسملة والحمدلة، ويراجع لبقية المباحث تفاسير القرآن الكريم، وشروح كتب الحديث، وحاشية تفسير البيضاوي، ونكتفي بقول الشاعر الفارسي ما معناه:

اندکے با تو بگفتیم وبدل ترسیدیم ❁ کہ دل آزردہ شوی ورنہ سخن بسیار

تحدثت إليك كثيرا، والقلب خائف، من أنك تسأم من السماع وإلا فالكلام كثير.

من المراد بالجيران؟

١- هو النبي صلى الله عليه وسلم، والجمع للتعظيم، كما في قوله تَعَالَىٰ:﴿ فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴾ (الذاريات: ٤٨)، وقوله تَعَالَىٰ:﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ ﴾ (الحجر: ٩) وغيرهما.

٢- النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه.

ما السبب وراء إطلاق الجمع على الله تعالى؟

وردت صيغة الجمع لله تعالى في كلام الله تعالى، وله ثلاثة وجوه:

١- تعظيما له.

٢- لكثرة صفات الله تعالى.

٣- على ما جرى عليه الملوك من الخطاب بمثل: فعلنا كذا، والملك عادة يخاطب بصيغة الجمع، ولايقول: فعلت أنا. ولا يقول: فعل الفقير الحقير.

المراد بذي سلم؟:

١- مكان بين مكة والمدينة، حيث مر النبي صلى الله عليه وسلم في الهجرة، جاء في كتب السير في ذكر الهجرة: «فلما خرج بهما دليلهما عبد الله بن أريقط،...ثم سلك بهما ذا سلم من بطن أعداء مدلج تِعْهِن». (السيرة النبوية لابن هشام ٣/١٧-١٩)

ويلاحظ هنا أن النبي صلى الله عليه وسلم سلك في الهجرة طريقا غير معروف، وذوسلم موضع قبل قباء بمراحل، وأما الطريق الذي يستخدمه الناس فلا يمرون بذي سلم فيه، ويقرب إلى الفهم ذلك بالنظر إلى خارطة الطريقين. وطريق الهجرة مذكورة في «أطلس السيرة النبوية»، ص ٧٦، وثمة كتب أخرى كثيرة أمثالها متوفرة اليوم.

٢- المراد بذي سلم: دارالسلام، أي جيرانه الذين في الجنة.

٣- أريد بــ مكان ذي سلم، أي أعلى العليين، مستقر أرواح الأنبياء والصلحاء.

ورد في الشعر (مقلة) بالإفراد، والمراد بها العينان كلتاهما، وكثيرا ما يطلق الشعراء المفرد ويريدون به الجمع، كما في رثاء كعب بن مالك (ت:٥٠هــ) لحمزة رضي الله عنهما:

بَكَتْ عَيْنِي وحُقَّ لها بُكاها ۞ وما يُغْنِي البُكاءُ ولا العَويلُ[1]

(ديوان كعب بن مالك رضي الله عنه، ص ٨١.)

ما سبب إيراد ذي سلم؟:

عقد الناظم الباب الأول في عشق النبي صلى الله عليه وسلم، والناس يذكرون بقاع المحبوب وما يتعلق بها حبا، قال مجنون (ت:٦٨هــ):

أمرُّ عَلَى الدّيارِ دِيارِ لَيلَى ۞ أُقبّلُ ذَا الجدارَ وَذَا الْجدَارَا

وَمَا حُبُّ الدّيارِ شَغَفْنَ قَلْبِيْ ۞ وَلكِنْ حُبُّ مَنْ سَكَنَ الدِّيارَا

(ديوان مجنون ليلى، ص ١٢٧؛ شرح عدنان ذكي درويش، ط: دارصادر، بيروت؛ تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق، ص:٢١ للشيخ داود بن عمر الأنطاكي (م:١٠٠٨هــ) فصل فيما ذكرت له من العلامات)

وقال أبو فراس:

عَلَيَّ لِرَبْعِ العَامِرِيَّة وَقْفَةٌ ۞ لِيُمْلِي عَلَيَّ الشَّوْقُ وَالدَّمْعُ كَاتِبُ

وَمِنْ مَذْهَبِيْ حُبُّ الدِّيَارِ لأهْلِهَا ۞ وَلِلنَّاسِ فِيْمَا يَعْشَقُونَ مَذَاهِبُ

حاصل المعنى أني أحب المكان الذي اسمه ذوسلم أو أعلى العليين؛ فإن محبوبنا (محمد صلى الله عليه وسلم) على صلة به.

---

(١) نسب البعض الشعر المذكور إلى عبد الله بن رواحة رضي الله عنه (ت:٨هــ)، ديوان عبد الله بن رواحة، ص ٩٨. وعزاه البعض إلى حسان بن ثابت رضي الله عنه (ت: ٥٤هــ)، (جمهرة اللغة ٧٦/٢، المادة: ب ك ر).

معنى الشعر:

بكى على ذكرى جيران له، في مكان اسمه ذوسلم بين الحرمين، أو أعلى العليين.

البلاغة:

١- في الشعر براعة الاستهلال، (وهو ذكر شيء في أول الكلام ما يدل على لاحقه)، فذكر الناظم في البيت الأول ذا سلم، فدل على أنه قصد مدح النبي صلى الله عليه وسلم.

٢- تجريد أو التفات في (مزجت).

تعريف التجريد:

هو أن ينتزع من أمر ذي صفة أمر آخر مثله فيها، لإفادة المبالغة بادعاء كمال الصفة في ذلك الأمر حتى كأنه بلغ من الاتصاف بتلك الصفة مبلغا يصح أن ينتزع منه موصوف آخر متصف بتلك الصفة. وهنا جرد الشاعر من نفسه شخصا وخاطبه بأنك بكيت على ذكر الجيران.

تعريف الالتفات:

وهو عند الجمهور: التعبير عن معنى بطريق بعد التعبيرعنه بطريق آخر.

قال السكاكي صاحب مفتاح العلوم (ت:٦٢٥): الالتفات أعم من أن يكون قد عبر عنه بطريق من الطرق ثم بطريق آخر، أو يكون مقتضى الظاهر أن يعبر عنه بطريق منها فترك وعدل إلى طريق آخر.

قال في مختصر المعاني: «والمشهور عند الجمهور أن الالتفات هو التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة (التكلم، والخطاب، والغيبة) بعد التعبير عن ذلك المعنى بطريق آخر. وهذا الالتفات أخص منه بتفسير السكاكي؛ لأن النقل عنده أعم من أن يكون قد عبر عنه بطريق من الطرق ثم بطريق آخر، أو يكون مقتضى الظاهر أن يعبر عنه بطريق منها فترك وعدل إلى طريق آخر، فيتحقق الالتفات بتعبير واحد».(مختصر المعاني، ص ١٠٤)

فإن كانت بسم الله الرحمن الرحيم (أقرأ) جزءًا من الكتاب،كان (مزجتَ) التفاتا على رأي الجمهور، وإن لم تكن التسمية جزءا من الكتاب، كان التفاتا على رأي

السكاكي، والظاهر أن البسملة جزء من الكتاب.

٣- مجاز عقلي في (مزجتَ) أيضا.

تعريف المجاز العقلي:

هو إسناد الفعل إلى غير ما هو له في الحقيقة مع قرينة صارفة، مثلا: بنى الأمير البلد، فإن الحاكم لم يتولَّ بناء البلد، وإنما أمر ببنائه، فنسب البناء إليه على السببية، ومثله: (مزجتَ)، حيث لم يحصل المزج حقيقة من المخاطب، وإنما حصل سبب المزج، وهو البكاء.

٤- مزجتَ دمعا: كناية عن كثرة البكاء.

٥- جناس ناقص في (دمع) و(دم).

تعريف الجناس وأقسامه:

هو تشابه كلمتين في اللفظ مع اختلاف في المعنى. وهو على قسمين:

١- تام، وهو ما اتفق فيه اللفظان في النوع (الاسم، والفعل والحرف) وهيئة الحروف (حركاهما وسكناهما) وعددها وترتيبها، مثل قوله تَعَالَى:﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ﴾ (الروم: ٥٥)

٢- ناقص: ما اختلف فيه اللفظان في شيء من الأمور الأربعة، مثل قوله تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠﴾ (الضحى)، ففي (الدمع) و (الدم) جناس ناقص.

أقسام البكاء:

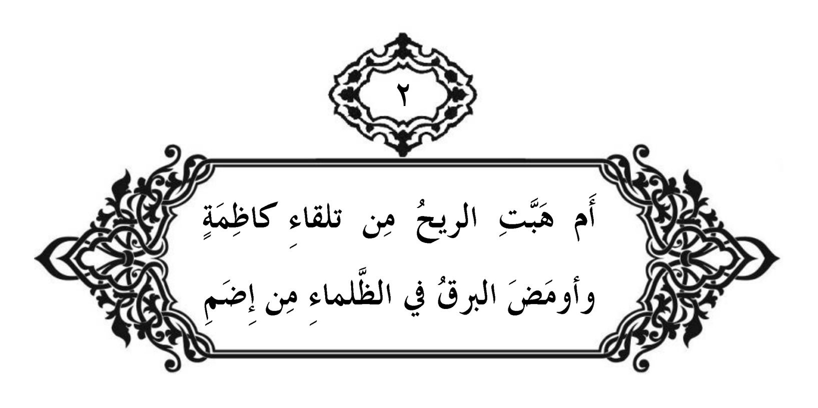
ذكر العلامة ابن القيم (ت:٧٥١هـــ) في زاد المعاد عشرة أقسام للبكاء، جمعتها في كلمة (فارحمني)، وهي:

١. ف: بكاء الفرح.
٢. ف: بكاء الخوف.
٣. أ: البكاء على الأجر.
٤. ر: البكاء رحمة ورقة من القلب.

٥. ح: الحزن: البكاء على فراق أو موت أحد.
٦. م: المرض (البكاء لمرض).
٧. م: البكاء لنفاق أو كذبا، مثل بكاء إخوة يوسف.
٨. م: البكاء لموافقة أحد.
٩. م: البكاء في الحب.
١٠.ن: البكاء جبنا.(راجع: زاد المعاد١/١٨٥، فصل في هديه صلى الله عليه وسلم وكلامه وسكوته وضحكه وبكائه)

أورد الناظم في بداية هذه القصيدة كلمات تتركب منها جملة (أمنتَ)، فإن قراء هذه القصيدة يأمون الآفات والبلايا بإذن الله تعالى. انتهى.

****



اللغة:

أم: حرف عطف، يفيد معنى (أ) في الاستفهام.

هب (ن) هبت الريح هبوبا: هاجت.

ريح: جمعه: رياح، راح يروح روحا: هو المسير عشيًا. قال الشاعر:

تَرُوْحُ إِلى العَطَّارِ تَبْغِيْ شَبَابَهَا ۞ وَهَلْ يُصْلِحُ الْعَطَّارُ مَا أَفْسَدَه الدَّهْرُ

(بلغة السالك لأقرب المسالك في الفقه المالكي ٢/٢٧٣)

سميت الريح ريحا لأنها تسير.

رَوِحَ (س) رَوحًا: توسع، راح اليوم: تحسنت الريح اليوم.

تلقاء: طرف، ومنه قوله تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾ (القصص: ٢٢)

لقاء وتلقاء:

تلقاء: طرف وجهة، واللقاء يكون على طرف، فسمي لقاء، أو لأنه يقدم الوسادة ونحوها حين الملاقاة ففيه معنى الإلقاء.

ولا يأتي على تِفعال (بكسر التاء) إلا مصدران هما: تِلقَاء، وتِبْيَان.

جاء في لسان العرب: «لأَن الْمَصادِرَ إِنَّما تَجِيءُ على التَّفْعال، بِفَتحِ التَّاءِ، مثال التَّذْكار والتَّكْرار والتَّوْكاف، وَلَمْ يجئ بِالكَسْرِ إِلا حَرفانِ، وَهُما التِّبْيان والتِّلقاء. (لسان العرب ١/٥٦٣، مادة: بين، وتاج العروس ١/١٧٤٧، مادة: مسح).

كاظمة: اسم من أسماء المدينة المنورة، أو مكان قرب المدينة.

كظم (ض) السقاء: سد فم السقاء.

كظم غيظَه، وعلى غيظه: أمسك على مَا فِي نَفسه مِن الغيظ.

أومض: ومض (ض) ومضا و وميضا: لمع البرق خفيفا.

البرق: ضوء يلمع في السماء. بَرَق (ن) بَرْقًا وبريقا: لمع، برِقَ (س) بَرَقًا: لم يطرف دهشًا.

في الظلماء: ظلماء: مؤنث (أظلم)، ظلِمَ (س) الليل: اسود الليل.

إضم: اسم جبل أو وادٍ قرب المدينة المنورة.

الإعراب:

(أم هبت الريح) أصله: أم من أن هبت الريح. وأومض البرق، أصله: أو من أن أومض البرق. والفعل بمعنى المصدر، أي: أم من هبوب الريح أو من إيماض البرق. تدخل (أن) وغيرها على الفعل في معظم الأحوال، فيكون المصدر بمعنى الفعل، نحو: أحبني أن تقوم معناه: أحبني قيامك. وكثيرا ما يكون الفعل بمعنى المصدر من غير حرف مصدري، نحو المثل العربي الشهير: «تسمع بالمعيدي خير من أن تراه» أي سماعك بالمعيدي.

خلفية قولهم: «تسمع بالمعيدي»:

أول من قال هذا المثل النعمان بن المنذر (ت: ٦٠٨م)، وهو ملك من ملوك اليمن المشهورين، وذلك أن رجلا من معد اسمه ضمرة بن ضمرة كان يغير على النعمان بن المنذر، فكتب النعمان إلى ضمرة أن ادخل في طاعتي، ولك مئة من الإبل، فقبلها، وأتاه فلما نظر إليه ازدراه وكان ضمرة دميما، فقال النعمان: تسمع بالمعيدي خير من أن تراه. فقال ضمرة: مهلا يا أيها الملك، إن الرجال لا يكالون بالصيعان، وإنما المرء بأصغريه: قلبه ولسانه. فأعجب النعمان حسن كلامه وحضور جوابه، فأحسن جائزته واحتبسه قبله. والمعيدي: تصغير المعدي (نسبة إلى قبيلة معد). (كتاب جمهرة الأمثال للعسكري ٢٦٦/١؛ البيان والتبيين للجاحظ ص ١٣٢؛ مجمع الأمثال للميداني ١٢٩/١).

وجاء في جمهرة اللغة اسم الرجل: شق بن ضمرة. فسماه النعمان بدلا منه «ضمرة بن ضمرة». (جمهرة اللغة ١٤٠/٢، المادة: د ع و)

وفي النحو الوافي: «وقيل: إن الجملة تسبك هنا بمصدر بغير سابك؛ كما سبكوه في

المثل العربي: «تسمعُ بالمعيدي خير من أن تراه»؛ برفع المضارع «تسمع» في إحدى الروايات؛ فقالوا في سبكه: سماعك بالمعيدى ... من غير تقدير «أنْ» قبل السبك، وكما يقدرون في كل ظرف زمان أضيف إلى جملة بعده، كالذي في قوله تَعَالَىٰ:﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ (الكهف: ٤٧)، فقد قالوا: التقدير: «ويوم تسيير الجبال»، من غير وجود حرفَ سابك». (النحو الوافي ١/٤١٤)

من تلقاء: الجار والمجرور متعلقان بـــ (هبت).

كاظمة: عَلَم، لاينصرف، وإنماصُرِفَ لأجل ضرورة الشعر.

في الظلماء: أي في الليلة الظلماء.

و(في الظلماء) حال من البرق بتقدير المتعلق، أي واقعًا في الليلة الظلماء.

المعنى:

أم: منقطعة أو متصلة ؟

المتصلة: ما يتعلق بما قبله، نحو قوله تَعَالَىٰ:﴿ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ ﴾ (البقرة: ٦)، والمنقطعة: هي التي لا تتعلق بما قبلها، بل هي جملة مستأنفة، و أم تكون بمعنى بل، نحو قوله تَعَالَىٰ:﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ (الشورى: ٩)

ذهب الأكثرون إلى أن (أم) هنا متصلة، وهو الصحيح، والمعنى حينئذ: (تذكرت فدمعت، أم هبت الريح من تلقاء كاظمة فتذكرت)، فأم متصلة بهذا التقدير.

وإن حملناها على الانقطاع، كان بمعنى (بل)، بل هبت الريح...، ليس سبب بكائك التذكر، بل هبوب الريح.

الريح مذكر أو مؤنث:

تعريف الريح: جسم لطيف شفاف غير مرئي يهب بمقدار مخصوص في وقت مخصوص.

الريح: مذكر ومونث. ومن أمثلة المؤنث، ما استعمل في القرآن مؤنثا في معظم الأحوال نحو قوله تَعَالَىٰ:﴿ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ (الأنفال: ٤٦)، وقوله تَعَالَىٰ:﴿ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ

طَيِّبَةٍ﴾ (يونس: ٢٢)

وعد جمال الدين بن الحاجب في رسالته في المؤنثات السماعية — الملحقة بكتاب الكافية- لفظة الريح من المؤنثات التي تستعمل مؤنثا دائما.(ص ١٢٧؛ مقدمة مصباح اللغات، ص١٠)

ويرد عليه أن القرآن الكريم أطلق الريح مذكرا في موضع، وهو قوله تَعَالَى:﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ (يونس: ٢٢)

أجاب عنه العلامة الآلوسي بثلاثة وجوه:

١. اسم الفاعل للنسبة، أي ذات عصف وهبوب، نحو: لابن: ذات لبن.
٢. العصف صفة خاصة للريح، فلا حاجة إلى علامة التانيث، مثل: حائض وطالق.
٣. قد يستعمل مذكرا. (روح المعاني ٩٧/١١)

الريح مذكر في الأمثلة التالية أيضا:

لَو نلتَ يا رِيحَ الصَّبَا يَومًا إلَى أرْضِ الْحَرَم
بَلِّغ سَلاَمِيْ روضَةً فِيهَا النَّبِيُّ الْمُحْتَرَم

كتب هذا الشعر على روضة موسى عليه السلام حينا من الدهر.

كما ورد الريح مذكرا في الحديث التالي:

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنما مثل القلب كمثل ريشة معلقة في أصل شجرة، يقلبها الريح ظهرا لبطن». (مسند الإمام أحمد برقم : ١٩٦٦١؛ شعب الإيمان للبيهقي برقم : ٧٣٧؛ قال شعيب الأرنؤوط في تعليقاته على مسند الإمام أحمد : حديث صحيح، وهذا إسناد ضعيف)

لكن يمكن أن يكون التذكير لأجل الفصل بين الفعل والفاعل.

الفرق بين الريح والرياح:

إذا ورد لفظ الريح مفردا أريد به ريح العذاب، وإذا ورد جمعا (الرياح) أريد به ريح الرحمة، قَالَ تَعَالَى:﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ (القمر: ١٩)، وقوله تَعَالَى:﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴾ (الذاريات: ٤١)، وقوله قَالَ تَعَالَى:﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ (الأعراف: ٥٧)

وذلك لأن رياح الرحمة تهب من جوانب مختلفة وأما الريح المهلكة فتهب من جانب واحدٍ بشدةٍ. ولذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم إذا هبت الريح قال: «اللهم، اجعلها رياحا، ولاتجعلها ريحا». (المعجم الكبير للطبراني عن ابن عباس رضي الله عنه ٢١٣/١١ برقم: ١١٥٣٣؛ مجمع الزوائد ١٣٥/١٠).

المراد بكاظمة؟:

١- هي من أسماء المدينة المنورة. وسميت المدينة بها؛ لأن أهلها كاظمون صابرون. ويغلب الجمال على المدينة المنورة.

٢- مكان قريب من المدينة المنورة. (وفاء الوفاء بأخبار دارالمصطفى ١٢٩٣/٤)

٣- ماء قرب المدينة المنورة. (معجم ما استعجم ١١٠٩/٤؛ الكاف والألف)

يجمع بين هذا الأقوال أنه مكان بجوار مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، وربما كان هذا المكان خارج المدينة، ثم ضم إليها.

وأومض البرق، أو: أو أومض:

في الشطر الثاني من البيت هكذا: (وأومض البرق) في معظم النسخ، يقول الشراح: هذا الواو بمعنى (أو)، فهي للترديد في البيتين، أي أن سبب البكاء إما التذكر أو هبوب الريح أو لمعان البرق. وهو مانع الخلو، (أي لابد أن يتوفر واحد من الأسباب الثلاثة، نعم يمكن اجتماعها معا).

البرق: ضوء يلمع في السماء.

حقيقة البرق:

١- الضوء الخارج من رفع سوط الملك الموكل بالسحاب (الرعد).

روى الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أقبلت يهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقالوا: يا أبا القاسم، أخبرنا عن الرعد ما هو؟ قال: «ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله». الحديث. (سنن الترمذي، برقم: ٣١١٧؛ ومن سورة الرعد، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب)

وقال عبد الله الغماري (ت:١٤١٣هــ) بعد تخريج الحديث المذكور: «قال

الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح غريب». وليس كذلك، في سنده بكير بن شهاب، ليس من شرط الصحيح والحسن».(الإحسان في تعقيب الإتقان لعبد الله الغمار، ص ٥١)

قلت: هو بكير بن شهاب الكوفي، مقبول من السادسة، كذا في تقريب التهذيب.

ويؤيده ما رواه الطبراني: «وأما الرعد فإنه ملك بيده مخراق يدني القاصية ويؤخر الدانية، وإذا رفع برقت، وإذا زجر رعدت». (المعجم الأوسط للطبراني ٣٦٠/٧، ط: دارالحرمين، القاهرة)

وأورد الحافظ ابن كثير (ت:٧٧٤هــ) رواية الطبراني هذا و لم يتكلم عليه.

قال الشيخ الألباني: «وقد ذكر له الحافظ شاهدا في «تخريج الكشاف» (ص٩١) من رواية الطبراني في «الأوسط»... أن خزيمة بن ثابت — وليس بالأنصاري – سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الرعد؟ فقال: «هو ملك بيده مخراق، إذا رفع برقت، وإذا زجر رعدت، وإذا ضرب صعقت». قلت: و لم يتكلم عليه الحافظ بشيء». (سلسلة الأحاديث الصحيحة ٣٧١/٤ برقم: ١٨٧٢)

ويقول العلامة الهيثمي: «وفيه يوسف بن يعقوب أبو عمران، ذكر الذهبي هذا الحديث في ترجمته، و لم ينقل تضعيفه عن أحد». (مجمع الزوائد ١٣٣/٨).

٢– ينشأ البرق عن ضحك السحاب.

روى الإمام أحمد في مسنده وحكاه ابن كثير في تفسيره: ثنا يزيد، أنا إبراهيم بن سعد، قال: أخبرني أبي، قال: كنت جالسا إلى جنب حميد بن عبد الرحمن في المسجد، فمر شيخ جميل من بني غفار، وفي أذنيه صمم، أو قال: وقر، أرسل إليه حميد، فلما أقبل قال: يا ابن أخي، أوسع له فيما بيني وبينك، فإنه قد صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء حتى جلس فيما بيني وبينه، فقال له حميد:حدثني بالحديث الذي حدثتني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الشيخ: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الله ينشئ السحاب، فينطق أحسن المنطق، ويضحك أحسن الضحك». (مسند أحمد برقم : ٢٣٦٨٦. مجمع الزوائد ٢١٦/٢. قال الشيخ شعيب الأرنؤوط في تعليقاته على مسند الإمام أحمد: إسناده صحيح، رجاله رجال الشيخين غير صحابيه الغفاري، وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح)

قال الحافظ ابن كثير بعد سرد هذه الرواية: «والمراد–والله أعلم– أن نطقها رعد،

وضحكها برد». (تفسير ابن كثير ٢/٥٥٤).

(كأن رعدها نطق، وتطلقها ضحك).

ولمزيد التفاصيل فيما يخص البرق يرجع إلى تفسير قوله تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾ (الرعد: ١٢)، وقوله تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ (الروم: ٢٤)

الرعد عند أهل الهيئة:

يرى اليونانيون القدماء من أرسطو وغيره أن الأجزاء النارية المتصاعدة من الأرض تنحبس في السحاب، وتمزق أجزاء الدخان –حسب طبيعتها– طبقات السحاب القوية تمزيقا عنيفا، وينشأ عن هذا التمزيق لمعان ورعدة شديدة، وهذا هو الرعد والبرق.

ويقول علماء الطبيعة: أن اصطدام القوى النافية والمثبتة في السحاب يؤدي إلى سقوط الرعد والبرق والكهرباء. وتنشأ الكهرباء في عموم الأحوال عن عمل الرياح الأسطوانية، وأما الريح الأفقي فلا يولد الكهرباء وإن كان شديدا. (فلكيات جديدة للشيخ موسى الروحاني البازي، ص ١٠٢-١٠٦).

ولا منافاة بين علم الطبيعة والحديث النبوي الشريف، فإن السحاب يحمل القوى النافية والمثبتة، إلا أن البرق لا ينشأ إلا عن ضرب الملك إياها بسوطه.

الظلمة وجودية أم عدمية:

(١) عند الأكثر: الظلمة عدمية، أي أنها عبارة عن عدم الضوء.

(٢) قيل: الظلمة وجودية، قائمة بالهواء.

المراد بـــ في الظلماء؟

(١) الليلة الظلماء: الليلة الحالكة الظلام.

(٢) أراد بها بداية العشق، فإن المرء يتحير في بداية العشق، ولا يدري ماذا يفعل؟ وإنما قال الناظم: الليلة الظلماء، لأن الضوء يتجلى كثيرا في الظلام.

المراد بإضم؟:

(١) جبل قرب المدينة.

(٢) واد بقربها. وهو الأحسن فيما يبدو، فقد صرحت به الروايات.

(٣) اسم موضع.

قال في النهاية في غريب الحديث: «إضم: هو بكسر الهمزة وفتح الضاد: اسم جبل، وقيل: موضع». (النهاية ١/٥٣)

ذكر وادي إضم في الأحاديث:

١- يروي المفسرون في سبب نزول قول الله تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ ﴾ (النساء: ٩٤) عن عبد الله بن أبي حدرد عن أبيه رضي الله عنه قال: بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى إضم... فخرجنا حتى إذا كنا ببطن إضم مر بنا عامر بن الأضبط على بعير له، فلما مر علينا سلم علينا بتحية الإسلام، فأمسكنا عنه، وحمل عليه محلم بن جثامة فقتله وأخذ بعيره وما معه، فقدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبرناه الخبر، فنـــزل فينا القرآن».(السنن الكبرى للبيهقي ٩/١١٥؛ ومسند أحمد رقم: ٢٣٨٨١؛ تفسير ابن كثير ١/٥٩٢؛ روح المعاني ٥/١٢٠)

٢- وورد في حديث موقوف أن بطن الكافر يوم القيام مثل بطن إضم.

في المستدرك للحاكم عن أبي سعيد المقبري أنه سمع أبا هريرة يقول: إن ضرس الكافر يوم القيامة مثل أحد...، قال أبو هريرة: وكان يقال: بطنه مثل بطن إضم. (المستدرك للحاكم ٤/٧١٦ برقم:٨٧٦١، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين. ووافقه الذهبي)

٣- و واقعة صرع النبي صلى الله عليه وسلم ركانة أشد أهل زمانه حين دعاه إلى الإسلام مذكور في دلائل النبوة للبيهقي. وكانت مصارعة الرسول صلى الله عليه وسلم ركانة في وادي إضم، فغلبه ثلاث مرات.

جاء في دلائل النبوة: عن أبي أمامة قال: كان رجل يقال له ركانة...، وكان يرعى غنما له في واد يقال له إضم، فخرج نبي الله صلى الله عليه وسلم من بيت عائشة... (لتفصيل الواقعة راجع: دلائل النبوة للبيهقي٦/٢٥٠ في استنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم بأسماء الله على ركانة؛ ودلائل النبوة للأصفهاني، ص ٣٣٧، ذكر خبر ركانة؛ والخصائص الكبرى للسيوطي ١/٢١٣، باب الآية في مصارعته ركانة).

فالراجح أن إضم اسم وادٍ.

المراد بــ أم هبت الريح؟

١- هبت ريح من المدينة المنورة.

٢- أم هبت الريح، الرائحة الطيبة من تلقاء كاظمة، أي هل هبت رائحة طيبة من المدينة المنورة؟ فالريح بمعنى الرائحة،كما في قوله تَعَالَىٰ:﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ (يوسف: ٩٤)

كانت تربة المدينة وريحها طيبة في عهد من العهود، وكانت سككها تنبعث فيها الروائح.

وقال في وفاء الوفاء: «قال ابن بطال: من سكنها يجد من تربتها وحيطانها رائحة حسنة. وقال الإشبيلي: لتربة المدينة نفحة ليس طيبها كما عهد من الطيب؛ بل هو عجب من الأعاجيب. وقال ياقوت الحموي: من خصائصها طيب ريحها، فيها رائحة لا توجد في غيرها، وما أحسن قول أبي عبد الله العطار:

بطيب رسول الله طاب نسيمها

فما المسك، ما الكافور، ما المندل الرطب

(وفاء الوفاء بأخبار المصطفى ١/١٧)

٣- أم هبت الريح من تلقاء كاظمة:

أي هل هبت ريح الصبا وهي النسيم من قبل المدينة المنورة. كانت العرب تمدح النسيم كثيرا، ويكثر الشعراء من ذكره في أشعارهم؛ لأن الصبا تهب من الشرق، وتجمع السحاب، فينـــزل المطر، والمطر عند العرب له أهمية وقيمة كبيرة.

٤- هبوب الرياح كناية عن وصول أخبار المحبوب: لأن من خواص الريح نقل الأشياء، يقال: هبت ريح طيبة من فلان: أي بلغ خبر سار.

كذا في (أو أومض):

١- المراد به لمعان البرق حقيقة.

٢- المراد به وصول خبر المحبوب.

والحاصل أن المصنف ذكر إضم وكاظمة بيانا لحبه وعشقه المدينة المنورة؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب المدينة المنورة حبا عظيما.

عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قدم من سفر فنظر إلى جدران المدينة أوضع راحته، وإن كان على دابة حركها من حبها. (صحيح البخاري، رقم: ١٨٨٦، باب المدينة تنفي الخبث)

وكان يدعو أن يلقي الله تعالى حبَّ المدينة في قلبه.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد». (صحيح البخاري، رقم:١٨٨٩، باب كراهية النبي صلى الله عليه وسلم أن تعرى المدينة؛ صحيح مسلم، رقم ١٣٦٧، باب الترغيب في سكن المدينة).

وروي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «اللهم اجعل بالمدينة ضعفي ماجعلت بمكة من البركة». (صحيح البخاري، رقم ١٨٨٥، باب المدينة تنفي الخبث؛ صحيح مسلم، رقم:١٣٦٩، باب فضل المدينة).

وكان عمر رضي الله عنه يدعو: «اللهم ارزقني شهادة في سبيلك، واجعل موتي في بلد رسولك صلى الله عليه وسلم». (صحيح البخاري، رقم:١٨٩٠، باب كراهية النبي صلى الله عليه وسلم أن تعرى المدينة).

ثلاثة دوافع لتذكر المحبوب:

ذكر المؤلف ثلاثة دوافع إلى البكاء، كل واحد منهما يدعو إلى تذكر الحبيب والبكاء:

١- التذكر: تذكر الحبيب، أوذكره يدعو إلى تجديد الحب، كما أن مصاحبة الحبيب في الماضي تدعو إلى أن يتحسر المرء عليه.

يذكر أن أمر مجنون ليلى لما تجاوز الحد، قالوا لأبيه: خذه إلى الكعبة وادع الله تعالى، فأخذه والده إلى الكعبة، وقال للمجنون: أمسك غلاف الكعبة وادع الله تعالى: اللهم أرحني من ليلى وحبها. فقال: اللهم مُنَّ علي بليلى وقربها. فضربه والده على ذلك، فأنشد:

يا رَبّ! إنَّكَ ذُو مَنٍّ وَمَغْفِرةٍ ۞ بيِّتْ بعافيةٍ ليلَ المُحِبِّيْنَا
الذَّاكِرِيْنَ الهَوَى مِنْ بَعْدِ مَا رقَدُوا ۞ السَّاهِرِينَ عَلَى الأَيْدِي مُكِبِّينَا
يا ربِّ لاَ تَسْلُبْني حُبَّهَا أبدا ۞ وَ يَرحَمُ اللهُ عَبْدًا قَالَ آمِينَا

(ديون قيس الملوح، مجنون ليلى، ص ٣١؛ دواوين الشعر العربي على مر العصور ٢١٢/٩)

وقال الشاعر:

تَذكَّرتُ أَيَّامًا لَنَا وَ لَيَالِيَا ۞ مَضَتْ فَجَرَتْ مِنْ ذِكْرِهِنَّ دُمُوْع

أَلا هَل لَنَا يَومًا مِنَ الدَّهْرِ أَوْبَةٌ ۞ وَهَل لِي إِلى أَرْضِ الْحَبِيْبِ رُجُوْع

(بصائر ذوي التمييز، للفيروزآبادي، المتوفى ٨١٧هـ، ص ٧٩٦؛ نفحة الريحانة ٩/٥)

١- هبوب الريح: المحب يفكر في حبيبه دائما، فإذا هبت الريح من قبل قرية المحبوب ظن أنه ريح الحب.

يقول امرؤ القيس في حبيباته:

إِذَا قَامَتَا تَضَوَّعَ المِسْكُ مِنْهُمَا ۞ نَسِيْمَ الصَّبَا جَاءَت بِرَيَّ القَرَنْفَلِ

(ديوان امرئ القيس، ص ٣١٠؛ لعمرك، ط: دارالجميل، بيروت؛ لسان العرب ٥٥٦/١١)

٣- إيماض البرق: حين يبرق البرق من ديار الحبيب يظن المحب أنه يرى ديار حبيبه. كما يظن أنه أصبح على صلة بحبيبه بوساطة من البرق. فكان هناك تواصل.

ذات مرة كان مجنون ليلى يقبل كلبا من الكلاب، فسأله سائل عنه، فقال: إنه يمر بسكة ليلى أحيانا.

ويقول الشاعر الفارسي:

پائے سگ بوسیده مجنون ۞ خلق گفت چیست ایں؟
گفت گاہے گاہے ۞ ایں در کوه لیلی رفته بود

(قبل المجنون رجل الكلب، فقالوا: ما له؟ فقال: إنه يمر أحيانا بسكة ليلى).

وقال الشاعر:

حَمَامَةَ جَرعَى حَومَةَ الجَندَلِ اسْجَعِي ۞ فَأَنت بِمَرأَى مِنْ سُعَادَ وَمَسْمَعِيْ

(تزين الأسواق بأخبار العشاق، ص ٤٤؛ مختصر المعاني، ص ٤٤).

لِم ذكِر هذه الأمكنة في فاتحة القصيدة:

يبدأ الشعراء قصائدهم في معظم الأحوال بذكر الأماكن المختلفة تشبيبا، وبما أن المؤلف من الصوفية، فذكر هذه الأمكنة لأنها على صلة بالرسول صلى الله عليه وسلم.

يقول الصوفي أبو عباس أحمد بن فرح:

أوري بِسُعْدَى وَالرَّبَاب وَ زَيْنَب ۞ وَأَنت الَّذِي تُعْنَى وَأَنت المُؤَمَّلُ

(طبقات الشافعية الكبرى ٢٩/٨؛ روح المعاني ٧٧/١)

البلاغة:

كاظمة: إن أراد به المدينة المنورة فهو مجاز مرسل.

والمجاز المرسل له علاقات كثيرة منها المحلية، أي إطلاق المحل وإرادة الحال فيه، نحو قوله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ﴾ (العلق: ١٧) أي أهل مجلسه، وقوله تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ (القارعة: ٧) أي: راضٍ أهلها.

فمعنى كاظمة: كاظم أهلها. أي سكان المدينة الصابرون.

من معاني (أم هبت الريح) وصول أخبار المحبوب، فهو مجاز مرسل مركب.

المجاز المرسل المركب: كل جملة (أكثر من كلمة) استعملت في غير المعنى الموضوع لها، وليس بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي علاقة التشبيه، مثلا: الجملة الخبرية المراد بها الإنشاء، نحو قول جعفر بن علبة الحارثي:

هَوَايَ مَعَ الرَّكبِ اليَمَانِيْنَ مُصْعِدُ ۞ جَنِيْبٌ وَجُثْمَانِيْ بِمَكَّةَ مُوَثَّقُ

(ديوان الحماسة ١/١٧)

الغرض من هذا الشعر ليس الإخبار، وإنما القصد التحسر.

وقس عليه أن (هبت الريح) ليس الغرض منه بيان هبوب الريح، بل ما يصحب الريح من الخبر القادم.

أسماء المدينة المنورة:

للمدينة المنورة أسماء كثيرة، سرد العلامة السمهودي في وفاء الوفاء (٩٤) اسما، منها:

(١) أرض الهجرة، (٢) بيت الرسول صلى الله عليه وسلم، (٣)الحبيبة، (٤)المحبوبة، (٥)حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم، (٦)الإيمان، (٧)طابة: بخفيف الوحدة، (٨)طيبة: بسكون المثناة التحتية، (٩) طيِّبة: بتشديدها، (١٠)المطيَّبة، (١١)العاصمة، (١٢) قبة الإسلام، (١٣)المباركة. (للاستزادة راجع: وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى ١/٧-٨)

انتهى ولله الحمد أولا وآخرا.



اللغة:

فما لعينيك: ف (١) الفاء فصيحة عند الأكثر.

فاء الفصيحة:

قال صاحب الكشاف (ت:٥٣٨هـ): الفاء التي تدل على حذف الشرط.

قال السكاكي (ت:٥٢٦هـ): الفاء التي تدل على السبب الذي ليس شرطا.

الجمهور: الفاء التي تدل على السبب المحذوف، سواء كان المحذوف شرطا أو معطوفا عليه أو غيرهما.

يقول العلامة أبو البقاء الكفوي (ت:١٠٩٤هـ) في كتاب الكليات: « الفاء: هي إمَّا فصيحة، وهي التي يحذف فيها المعطوف عليه مع كونه سببا للمعطوف من غير تَقْدِير حرف الشَّرْط. قال بعضهم: هي داخلة على جملَة مسببة عن جملَة غير مذكورة نحو الفاء في قوله تَعَالَىٰ:﴿فَٱنفَجَرَتۡ﴾ وَظَاهر كلام صَاحب «المِفتاح» تسمية هذه الفاء فصيحة على تقدير (فضرب فانفجرت)، وظاهر كلام صاحب «الكَشَّاف» على تقدير (فإن ضربت فقد انفجرت)، والقول الأكثر على التَّقْدِيرَين...، ولا تسمى فصيحة إن لم يحذف المعطوف عليه...، وإن كان المعطوف عليه محذوفا و لم يكن سَببا لا تسمى فصيحة أيضا، بل تسمى تفريعية، والأصح أن لا فرق بين الفصيحة والتفريعية». (كتاب الكليات لأبي البقاء الكفوي، ص٦٧٦، ط: مؤسسة الرسالة، بيروت؛ مفتاح العلوم للسكاكي، ص١٢٣؛ الكشاف ١/١٧٣، ط: إحياء التراث العربي).

وعلى كل قُدِّر قبل الفاء في الشعر (إن لم يكن كذلك)، فما لعينيك. أو: (إن لم يكن مزجك بالدمع من العشق) فما لعينيك؟

(٢) قيل: الفاء عاطفة، وهذا غير ظاهر.

ما: للاستفهام في الشعر في الموضعين.

عينيك: واحدها: عين.

العين: مؤنث سماعا، بمعنى الباصرة. وجمع القلة: الأعين، والأعيان، وجمع الكثرة (عيون).

يطلق لفظ العين –علاوة على الباصرة– على معاني كثيرة، منها: العين النابعة من الأرض، والجاسوس، وذات الشيء، وسوء النظر، ونحوها.

إن: (١) شرطية.

(٢) إن بمعنى إذا، وهو أحسن.

و(إن) قد تكون بمعنى (إذا) نحو قوله تَعَالَىٰ:﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٩)، وقوله تَعَالَىٰ:﴿لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ (الفتح: ٢٧)، و قوله تَعَالَىٰ:﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٧٥)

قلت: قال (ن) النطق.

معاني القول:

قال برأسه: أومأ به، قال له: خاطبه، قال عليه: افترى عليه، طعن فيه، قال عنه: أخبر، قال فيه: اجتهد، رآه رأيًا واعتقده.

وقد يطلق القول على الظن، إلا أنه خاص بالاستفهام، نحو: أتقول المسافر قادما اليوم.

أو نحو ما جاء في حديث رواه البخاري رحمه الله: عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي صلى الله عليه وسلم أراد أن يعتكف، فلما انصرف إلى المكان الذي أراد أن يعتكف إذا أخبية: خباء عائشة، وخباء حفصة، وخباء زينب، فقال: «آلبر تقولون بهن». ثم انصرف، فلم يعتكف حتى اعتكف عشرا من شوال. (صحيح البخاري، رقم:٢٠٣٤، باب الأخبية في المسجد)

فقوله: تقولون بهن: أي: تظنون بهن.

اكففا: أمر من: كف يكف.

خير الناس من كف فكّه وفَكَّ كَفَّه، وشر الناس مَن كفَّ كفَّه وفَك فَكَّه.

كُفَّ بصرُه: عمي، وكفَّ فلانا عن العمل: منعه منه.

تحقيق اُكفُفَا:

الأمر من (كف) على أربعة أوزان: (كُفَّ) و(كُفِّ) و(كُفُّ) و(اكفُفْ). كالأمر من (مد) على زنة:(مُدَّ، مُدِّ، مُدُّ، اُمدُدْ). وهذا في المفرد، ولا يجوز فك الإدغام في المثنى والجمع، بل يجب الإدغام. قال المفتي عنايت أحمد في أبواب المضاعفة من كتابه علم الصيغة: يجب أن يكون الثاني محل الجزم أي السقوط عند الإدغام. والدال الثانية في المثنى والجمع ليست محلا للسقوط، وإنما محل الجزم والسقوط هو النون الإعرابية. وقد سقطت.

واعترض عليه: كيف قال الناظم: اكففا، مع أنه وجب الإدغام، أي (كُفَّا)؟

الجواب:

١- قال (اكففا) لضرورة الشعر. وهذا خير الوجوه في الجواب.

قال الشاعر وهو يذكر ضرورات الشعر:

وإشباع تحريك وفك بمدغم ۞ وتذكيرُ تأنيثٍ وعكس بنُدرة

٢- العين (الباصرة) اثنتان فيما يبدو، وفي الواقع هما واحدة، (فوظيفتهما واحدة)، وعليه لا يُرى شيء اثنين. ونظرا إلى ذلك أصبح (اكففا) مثل المفرد، ويجوز فك الإدغام في المفرد.

وهذا الجواب يقوم على التكلف، فإنه لم يذهب إلا جماعة من الصوفية وهم الوجودية إلى أن العينين في الواقع واحدة.

٣- نظم المؤلف هذا البيت عند تبلبل البال واضطراب الحال والقلق والاضطراب، فربما لم يستحضر هذه القاعدة، فانطلق لسانه بهذا الكلام، فلا كلفة على الناظم حينئذ.

هذا الجواب غير حسن، فهبك أنه أخطأ آنئذٍ فلم يعجز عن تعديله فيما بعد.

٤- أحسن الأجوبة أن العاشق طالب بكف الدموع على خلاف قانون العشق، فسلك ما يخالف القانون في التلفظ والكلام.

همتا: همَى يَهمي: (ض) هَمْيًا وهَمَيانا: سال، هَمَت العين: ذرفت العين دموعا.

لقلبك: القلب: الفؤاد، يجمع على (قلوب)، ويطلق على الدماغ والروح أيضا.

استفِقْ: من الاستفعال، للوجدان، معنى استفق: أعِد العقل الغائب إلى الرشد والوعي.

يَهيم: هام يهيم هَيما وهَيمانا: تحير ودهش.

هام في الأمر: تردد فيه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ (الشعراء: ٢٢٥)

هام بفلانة: جُنَّ في حب أحد وعشقه.

الهيام: جنون العشق، أشد العطش.

الإعراب:

فما لعينيك: الفاء فصيحة (ما) بمعنى أي شيء، مبتدأ، (لعينيك) جار ومجرور متعلقا بــ (وقع) خبر. أي: فأي آفة عرضت لعينيك.

إن قلت: (إن) الشرطية بمعنى (إذا)، و(قلت) فعل وفاعل، (اكففا) فعل وفاعل مقولة القول، والقول مع مقولته شرط، (همتا) فعل وفاعل جزاء الشرط، قام مقام جواب الأمر.

كذلك (وما لقلبك) مبتدأ وخبر، (إن) الشرطية بمعنى (إذا)، و(قلت، واستفق) معا فعل الشرط، (يهم) جواب الشرط.

(يهم) أصله (يهيم)، سكنت الميم للجزم، وسقطت الياء لالتقاء الساكنين.

شرح وتوضيح:

مَن المخاطب بــ (ما لعينيك)؟

١- خاطب العين والقلب في الواقع، كثيرا ما يخاطب الشعراء العين والقلب.

قال مجنون ليلى (ت:٦٨هــ):

أَلاَ أَيُّهَا القَلْبُ اللَّجُوْجُ المُعَذَّلُ ۞ أَفِقْ عَن طلاَبِ البِيْضِ إنْ كُنْتَ تَعْقِلُ

(ديوان قيس بن الملوح، مجنون ليلى، ص ٧٥؛ (أيها القلب)، ط: دارالكتب العلمية، بيروت)

ويقول قيس بن ذريح (ت:٦٩هــ) المعروف بــ (قيس لبنى) مخاطبا قلبه:

أَلا أَيهَا الْقلب الَّذِي قَادَهُ الْهوى ۞ أفق لا أقرّ الله عَيْنك من قلب

(ديوان قيس – قيس بن ذريح– ص ٢٨، قافية الباء:٥، ط: دارصادر، بيروت)

وقال المتنبئ(ت:٣٥٤هــ):

أقِلّ اشتياقًا أيهَا الْقلب رُبمَا ۞ رَأَيْتُك تصفِي الوُدَّ مَن لَيْسَ صَافِيًا

(ديوان المتنبئ، ص ١٤٥)

وقال الأرجاني وهو يخاطب العيون:

تَمَتَّعْتُمَا يَا مُقْلَتَيَّ بنَظرةٍ ۞ فَأوْرَدْتُمَا قَلْبِي أَمَرّ المَوَارِدِ

أَعيْنَايَ كُفَّا عَن فُؤَادِي فَإنَّه ۞ مِنَ البَغْي سَعَى اثْنَيْنِ فِي قَتْلِ وَاحِدِ

(تزيين الأسواق بأخبار العشاق، ص ١٨٣)

وقال ابن المعتز (ت:٢٩٦هـ):

ألا يَا مقلتيَّ دَهَمتُماني ۞ بِلَحظِكما فَذوقا ثُمَّ ذُوْقَا

(ديوان ابن المعتز، ص ٦٧٩)

٢- ليس هذه حقيقة، بل تمثيل، أي أن الناظم شبه نفسه برجل يمنع نفسه من البكاء والقلق، وهذا المعنى أحسن فيما يبدو.

تحقيق لفظ القلب:

القلب: لحم صنوبري الشكل، مركوز في الجانب الأيسر من البدن.

ويطلق على القلب: الفؤاد والصدر، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ (الشرح: ١)

وقال الأخطل (ت: ٩٠هـ):

إنَّ الْكَلامَ لَفِي الفُؤادِ وَإنَّمَا ۞ جُعِلَ اللِّسانُ عَلى الفُؤادِ دَلِيْلاً

(الفروق للقرافي ٣/١٩٩)

وقد يطلق القلب على العقل، نحو قوله قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ (ق: ٣٧)

ويطلق القلب على معانٍ عدة: نحو:

١- اللب: وفي الحديث: عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله وسلم: «إن لكل شيء قلبا وقلب القرآن يس». (سنن الترمذي، رقم: ٢٨٨٧، باب ما جاء في فضل يس).

٢- الفؤاد. (٣) العقل، فلك أن تقول: ما لك قلب، ما قلبك معك.

٤- الخالص، نحو: كان علي قرشيا قلبا.

٥- قلب الشيء: داخله، الجوف الوسط.

لِم سمي القلب قلبا؟:

١- لأنه مقلوب، فأعلاه ضيق، وأسلفه واسع.

٢- قلب (ض) من معانيه: التصرف، والقلب يتصرف بالعقل.

٣- لأنه يقلب الدم إلى الأعضاء.

٤- القلب سر أودعه الله تعالى في اللحم الصنوبري، سمي به لأنه نازل فيه.

٥- لأن حالة القلب تتغير وتتبدل، جاء في الحديث: عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنما سمي القلب من تقلبه، إنما مثل القلب كمثل ريشة معلقة في أصل شجرة يقلبها الريح ظهرا لبطن». (مسند أحمد، رقم:١٩٦٦١؛ شعب الإيمان للبيهقي، رقم:٧٣٧، قال الشيخ شعيب الأرنؤوط في تعليقاته على مسند الإمام أحمد: حديث صحيح، وهذا إسناد ضعيف)

الفرق بين القلب والفؤاد:

١- الفؤاد: غشاء القلب، وداخله، في الحديث: «أتاكم أهل اليمن، هم أرق أفئدة وألين قلوبا». (صحيح البخاري، رقم:٤٣٨٨، باب قدوم الأشعريين..؛ صحيح مسلم، رقم:٥٢، باب تفاضل أهل الإيمان).

قال الحافظ ابن حجر في شرح الحديث:«لأن الفؤاد غشاء القلب».(فتح الباري ٨/١٠٠)

٢- الفؤاد هو القلب البصير، والقلب أعم منه.

جاء في تاج العروس: «وقيل: إنما يقال للقلب الفؤاد إذا اعتبر فيه معنى التفود، أي التوقد: مذكر لا غير، صرَّح به اللِّحياني».(تاج العروس، مادة: ف-أ-د).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ (هود: ١٢٠)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ (النجم: ١١)

مكانة القلب في الجسد الإنساني:

العقل على صلة بالقلب والدماغ كليهما، والدماغ بمنْزلة رئيس الوزراء في الجسد الإنساني، ويتصرف القلب بمنْزلة الرئيس. ويمد القلب كل شيء بالدم، فإن أمسك القلب عن الإمداد بالدم عجز الدماغ عن العمل، فالقلب بمنْزلة الرئيس، والدماغ مدبر.

والعين كالجاسوس، والسمع بمنْزلة وزير الإعلام، واليد والرجل بمنْزلة العامل.

يقول الأطباء: يموت القلب، فيموت الدماغ بعده بثلاث دقائق، فإن الدماغ يعجز عن العمل حين يمسك القلب عن الإمداد بالدم.

قرأت في بعض المجلات أن الدكتور الباحث في مؤسسة التحقيق في كيلوفورنيا أمريكا حقَّق أن القلب ذو إحساس وشعور، وأوجد مستر ايندرآرمر اصطلاحًا جديدًا، اسمه برين هارت (Brain heart).

والمشهور أن العقل محله الدماغ، إلا أن المحققين يرون أن العقل على صلة بهما جميعا: بالقلب على أنه يمد بالروح (الدم) في الأصل، وبالدماغ على أنه يدبر الأمر ظاهرا.

مكانة القلب في الشريعة:

بما أن القلب هو الأصل، نسبت الشريعة الأعمال كلها إليه:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ (النحل: ١٠٦)، وقَالَ تَعَالَى: ﴿ فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ﴾ (البقرة: ٢٨٣)، وقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا ﴾ (الكهف: ٢٨)، وقَالَ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (الشعراء: ٨٩)، وقَالَ تَعَالَى: ﴿ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا ﴾ (القصص: ١٠)، وقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ (التغابن: ١١)، وقَالَ تَعَالَى: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ (غافر: ٣٥)، وقَالَ تَعَالَى: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ (الرعد: ٢٨)، وقَالَ تَعَالَى: ﴿ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ (محمد: ٢٤)، وقَالَ تَعَالَى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (الحجرات: ٣)، وقَالَ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ (الحديد: ١٦)، وقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ (الأحزاب: ٥)، وقَالَ تَعَالَى: ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ﴾ (آل عمران: ٧)، وقَالَ تَعَالَى: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ (الأعراف: ١٧٩)، وقَالَ تَعَالَى: ﴿ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ (الحج: ٣٢)، وقَالَ تَعَالَى: ﴿ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ ﴾ (الحج: ٤٦)، وقَالَ تَعَالَى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ ﴾ (المجادلة: ٢٢)

أعضاء الجسد كلها تابعة في الخير والشر للقلب، وورد عن النبي صلى الله عليه وسلم: «إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب». (صحيح البخاري، رقم:٥٢، باب من استبرأ لدينه)

والقلب هو الأصل في بدن الإنسان، وعليه يركز الصوفية جهودهم عملا وتوجيها، فيأمرون بالضرب على القلب، وبتنــزيهه، فإن القلب إذا تنــزه وصفا، فالدم الذي يسري منه كان له مفعول على الأعضاء كلها. فلا يفكر الدماغ تفكيرا خاطئا، لأنه يتغذى بالدم الصافي.

كما أن استقامة إيمان المرء تستوجب استقامة القلب، ورد في الحديث عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولايستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه».(مسند أحمد، رقم: ١٣٠٤٨).

ورد الوعيد للقلب الغافل، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ (الزمر: ٢٢)

فعلى المرء أن يفكر في إصلاح قلبه ويدعو الله تعالى به، وحذار أن يغفل عن ذلك.

ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يكثر من الدعاء بقوله: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك».(سنن الترمذي، رقم:٢١٤)

وكان أكثر أيمانه بقوله: «لا، ومقلب القلوب».

عن عبد الله بن عمر قال: أكثر ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يحلف: «لا ومقلب القلوب».(صحيح البخاري، رقم:٧٣٩١)

وعن عمرو بن العاص رضي الله أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: «إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن، كقلب واحد، يصرفه حيث يشاء» ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك». (صحيح مسلم، رقم:٢٦٥٤)

وورد عنه صلى الله عليه وسلم الدعاء بقوله: «وأسألك قلبا سليما».(سنن النسائي، رقم: ١٣٠٤. سنن الترمذي، رقم :٣٤٠٧)

ما يرقق به القلب:

١- أهم أسباب إحياء القلب امتثال أوامر الله تعالى وأوامر رسوله صلى لله عليه وسلم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ (الأنفال: ٢٤)

٢- ذكر الله تعالى، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ (الرعد: ٢٨)

٣- الرحمة بالمساكين والإحسان إليهم، ورد في الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلا شكا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قسوة قلبه، فقال له: «إن أردت تليين قلبك، فأطعم المسكين وامسح رأس اليتيم». (مسند أحمد، رقم:٧٥٧٦)

٤- زيارة القبور، ورد في الحديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نهيتكم عن زيارة القبور، ثم بدا لي أنه ترقق القلب، وتدمع العين، وتذكر الآخرة، فزوروها ولا تقولوا هجرا». (مسند أحمد، رقم:١٣٤٨٧، قال الشيخ شعيب الأرنؤوط: صحيح بطرقه وشواهده)

أقوال السلف في القلب:

- قال الحسن البصري (ت:١١٠هـ) لرجل: «داوِ قلبك؛ فإن حاجة الله إلى العباد صلاح قلوبهم».(حلية الأولياء ١٥٤/٢، الحسن البصري؛ إحياء علوم الدين٣٣٠/٣، بيان ذم الاحتيال)
- يقول الفضيل بن عياض (ت:١٨٧هـ): «خصلتان تقسيان القلب: كثرة النوم، وكثرة الأكل». (شعب الإيمان، للبيهقي، رقم:٥٣١٥؛ شرح صحيح البخاري لابن بطال ٤٨٣/٩، باب ماكان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يأكلون)
- عن الأزدي قال: سمعت إبراهيم الخواص (ت:٢٩١هـ) وهو من أكابر الصوفية، يقول: «دواء القلب خمسة أشياء: قراءة القرآن بالتدبر، وخلاء البطن، وقيام الليل، والتضرع عند السحر، ومجالسة الصالحين». وقال: «عقوبة القلب أشد العقوبات، ومقامها أعلى المقامات».(حلية الأولياء٣٧٢/١)

معنى الشعر:

تقول لعينيك: كفيا عن البكاء فتزدادان دمعا، وتقول لقلبك: أفق، فيزداد هياما، ما السبب وراء ذلك؟ إنه العشق والحب.

فعلم أنه يجب أن تبكى العيون حبا لله ورسوله، لأن الله تعالى خلق العيون لتذرف الدموع على ذكر المحبوب، وأودع القلب البدنَ ليقلق ويضطرب في ذكر المحبوب، واعتبر القرآن الكريم وجل القلب وفزعه من آيات الإيمان الحقيقي، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ

إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ (الأنفال: ٢)

ويستحيل أن يمسك قلب العاشق عن الخفقان إذا اشتعلت نار الحب في الجنان، وذرفت عينه دموعا، وهذه قطرات الدمع، التي تستقطب الاستحسان والتثمين من المحبوب.

فضل البكاء في ذكر الله تعالى أو خوفا منه:

وردت أحاديث كثيرة في فضل البكاء في ذكر الله تعالى وفيما يلي غيض من فيضها:

١- عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله...، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه». (صحيح البخاري، رقم: ١٤٢٣، باب الصدقة باليمين، و٦٤٧٩، باب البكاء من خشية الله)

٢- عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من ذكر الله ففاضت عيناه من خشية الله حتى يصيب الأرض من دموعه لم يعذبه الله تعالى يوم القيامة». (المستدرك للحاكم ٣١٤/٤، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي)

٣- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « لا يلج النار رجلٌ بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع».(سنن الترمذي، رقم: ٢٣١١، باب ما في فضل البكاء من خشية الله)

٤- عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله». (سنن الترمذي، رقم:١٦٣٩،باب فضل الحرس في سبيل الله)

٥- عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من عبد مؤمن يخرج من عينيه دموع-وإن كان مثل رأس الذباب- من خشية الله، ثم تصيب شيئا من حر وجهه، إلا حرمه الله على النار».(سنن ابن ماجه، رقم:٤١٩٧، باب الحزن والبكاء)

٦- عن أبي أمامة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ليس شيء أحب إلى الله من قطرتين أو أثرين: قطرة من دموع في خشية الله، وقطرة دم تهراق في

سبيل الله». (سنن الترمذي، رقم :١٦٦٩، باب فضل المرابط)

٧- عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «...فإن الله عزو جل يقول: «وعزتي وجلالي، وارتفاعي فوق عرشي، لاتبكي عين عبد في الدنيا من مخافتي إلا أكثرت ضحكه معي في الجنة».(شعب الإيمان للبيهقي، رقم:٧٧٨)

٨- عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قلت: يارسول الله، ما النجاة؟ قال: «أملك عليك لسانك، وَلْيسَعك بيتك، وابك على خطيئتك».(سنن الترمذي، رقم:٢٤٠٦، باب ماجاء في حفظ السلام)

٩- عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «اقرأ علي»، قلت: يارسول الله، أقرأ عليك، وعليك أنزل؟ قال: «نعم». فقرأت سورة النساء، حتى أتيت إلى هذه الآية: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ (النساء: ٤١) قال: «حسبك الآن». فالتفتُّ إليه، فإذا عيناه تذرفان.(صحيح البخاري، رقم:٥٠٥٠، باب: قول المقرئ للقارئ: حسبك).

١٠- عن أنس رضي الله عنه قال: خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة ما سمعت مثلها قط، قال: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا، ولبكيتم كثيرا»، قال: فغطى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجوههم، لهم حنين».(صحيح البخاري، رقم:٦٤٢١، قوله: لا تسألوا عن أشياء... ؛ صحيح مسلم، رقم: ٢٣٥٩، باب توقيره صلى الله عليه وسلم)

علاوة على ذلك وردت أحاديث كثيرة في فضل البكاء في ذكر الله ومن خشيته، وقصص بكائه صلى الله عليه وسلم وبكاء أصحابه رضي الله عنهم، وورد الأمر بالبكاء من خشية الله تعالى.

كيف كان قوله: «إن قلت: اكففا» سببًا؟:

إيراد: قلتَ: قوله: (إن قلتَ: اكففا) شرط، جوابه: (همتا)، مع أن القاعدة تقول: إن وجود الشرط يكون سببا للجزاء، نحو: إن أتيتَني أكرمتك. فالإتيان سبب للإكرام، فأمر العين بالكف كان سببا للبكاء، والصحيح عكسه، (أي: أن البكاء سبب لقوله: اكففا).

الجواب عنه: السبب على أقسام، منها: العقلي، والعادي، والعرفي، والمراد هنا

السبب العرفي، أن العاشق يخالف ما يؤمر به في عرف العشاق، فكأن حجز العيون من البكاء، سبب للبكاء، وبما أن كون الأمر بالكف سببا للبكاء على خلاف القانون، فاعتبر ذلك باعثا على العجب في قوله: «فما لعينيك».

وهذا الإيراد والجواب يتأتى في قوله: (إن قلتَ: استفق يهم) أيضًا.

ذكر الجزاء في الشرط الأول (إن قلتَ: اكففا) بصيغة الماضي، وهو (همتا)، في حين أورد الجزاء بصيغة المضارع في الشرط الثاني – وهو (إن قلتَ: استفق)– وذلك لأن بكاء العين في الأمر الأول محقق ومشاهد، والاطلاع على حال القلب في الأمر الثاني صعب.

كيف يعرف العشق؟:

يعرف اضطراب القلب وابتلاء القلب بجنون العشق بالقرائن:

منها: (١) السكوت الطويل، (٢) عدم استحضار ذهن المرء، (٣) إجابة السؤال على الطريق المعتاد ونحو ذلك.

البلاغة:

وفي هذا البيت: الاستعارة المكنية والتخييلية والترشيحية. وإليكم أقسام الاستعارة أولا:

الاستعارة على أربعة أقسام: ١-المكنية، ٢-التخييلية، ٣- الترشيحية، ٤- المصرحة أو التصريحية.

وفيما يلي تعريفاها الموجزة:

١. ذكر المشبه وإرادة المشبه به، وهو الاستعارة المكنية.
٢. إثبات لوازم المشبه به للمشبه، وهو الاستعارة التخييلية.
٣. إثبات مناسبات المشبه به للمشبه، وهو الاستعارة الترشيحية.
٤. ذكر المشبه به وإرادة المشبه، وهو الاستعارة التصريحية.

وأمثلة الثلاثة الأول في هذا الشعر:

وإِذَا المَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظفارَها ۞ أَلْفَيْتَ كلَّ تَمِيمةٍ لا تَنْفَعُ

(الحماسة البصرية، ص٩٥)

فتشبيه الموت بالأسد استعارة مكنية، وإثبات المخالب للموت استعارة تخييلية،

وإثبات الإنشاب له ترشيحية.

مثال الاستعارة التصريحية: رأيت أسدا يرمي. فالمراد بالأسد–وهو المشبه به–الرجل الشجاع، بقرينة (يرمي).

وتشبيه العين في هذا الشعر بالمطر استعارة مكنية، ويلزم المطر شيء من السيل، وهو استعارة تخييلية، والسيلان بكثرة استعارة ترشيحية.

وفي الشطر الثاني من البيت: شبه العاشق بالسكران، لغرقه في الحب والعشق، وهو استعارة مكنية، ومحاولة إعادته إلى الإفاقة استعارة تخييلية.

في الشعر طباق الإيجاب.

تعريف الطباق وأقسامه:

الطباق: هو الجمع بين الشيء وضده، وهو على قسمين:

١- طباق الإيجاب: ما لا يختلف فيه المعنيان المتقابلان في الإيجاب، نحو قوله تَعَالَىٰ: ﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞ﴾ (الكهف: ١٨)

٢- طباق السلب: ما يختلف فيه المعنيان المتقابلان إيجابا وسلبا، نحو قوله قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ (النساء: ١٠٨)

في البيت طباق الإيجاب في (اكففا) و(همتا)، وكذا في (استفق) و(يهم).

- في (همتا) مجاز مرسل، أي همي دمعهما. نحو: جرى النهر أي جرى ماء النهر.

- (ما لعينيك) فيه تجريد.

- مصدر (همتا) هو الهميان، ومصدر (يهم) هو الهيمان. ففيهما جناس ناقص. نحو قوله تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلۡقَالِينَ﴾ (الشعراء: ١٦٨)

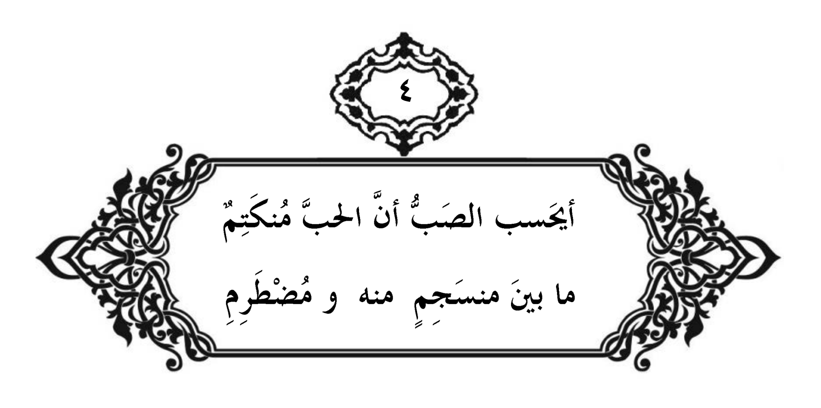
فالأول (قال) من القول، والثاني (القالين) من القلي.

- في البيت إفحام.

الإفحام: إسكات الخصم بالحجة.

ذكر الناظم دليلين– وهما البكاء واضطراب القلب– على الحب، فيستحيل إنكاره معهما، وهو الإفحام. انتهى.

وصلى الله تعالى على خير خلقه محمد وعلى آله.



اللغة:

أ: ١- للتعجب، فقد تأتي الهمزة للتعجب. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ (المجادلة: ١٤)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ (مريم: ٧٧)

٢- استفهام توبيخ وإنكار، (لاينبغي أن يكون كذلك).

وكثيرا ما وردت همزة الإنكار في القرآن الكريم، نحو قوله تَعَالَىٰ: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ﴾ (الصافات: ١٥٣)

وحيث إن المخاطب في البيت الأول لم يُجِب بشيء فأبطل إنكاره، وقال: أيحسب الصب أن الحب...

يحسب: حَسِبَ يحسَب حِسبَانًا: ظن وتخيل.

حَسِبَ : من أفعال القلوب، ويقتضي مفعولين.

حسِبَ (س) حَسَبًا: ابيضت جلدته من داء.

حَسُبَ (ك) حَسَبًا: الإنسان: كَانَ لَهُ ولآبائه شرف ثَابت.

حَسَبَ حِسَابا: عده وأحصاه.

الصب: صبَّ (ن) الماء صبًا: سكب، صب عليه العذاب: عرضه لعذاب ومشقة شديدة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ (الفجر: ١٣)

صَبَّ (س) صَبابَة: اشتاق، وتعلق قلبه.

الصب في البيت؟

١- مصدر، الفاعل منه (صاب)، وإنما سمي العاشق صبا؛ لأنه يصب الدموع كثيرا،

ويتعلق قلبه بحبيبه.

وكثيرا ما يحذف الموصوف بالصب، وتقديره: العاشق المشتاق)، فحذف الموصوفُ (العاشق)، فحلت الصفة محله، وسمي المحب (صبًا).

٢- مبالغة من (صب يصب)، أي كثير العشق.

الحب: حب (ن)، (س) صار محبوبا، وأحبه: وده.

حابه محابة: أحبه، حبب الشيء إليه: جعله يحبه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ ﴾ (الحجرات: ٧)

الحَبُّ: البذر، يجمع على (حبوب)، والحِبُّ: المحبوب.

أيسر تعريف الحب: ميل القلب إلى ما يستلذه.

منكتم: متستر.

كتَمَ (ن) أخفى، وكتَّم: أكثر من الإخفاء وأسره كثيرا، وانكتَمَ: اختفى.

ما: زائد. وبَيْنَ: ظرف مكان. وهو الوسط، يضاف لاسمَين فأكثر.

البَين: الفراق، والبِيْنُ: مد البصر.

منسجم: سَجَم (ن) الماء سجوما، انسجم الماء: سيلانه، سجمت العين الدمع: ذرفته.

مضطرم: ضَرِمَ (س) اشتد حرارته ،ضرَمَت النار: اشتعلت. أضْرَم النار: أشعلها.

مضطرم: أصله (مضترم)، قلبت التاء طاءً؛ لقرب مخرجهما.

الإعراب:

(أن الحب منكتم): أن: حرف مشبه بالفعل، (الحب) اسمه، و(منكتم) خبره.

والجملة سدت مسد المفعولين. وكثيرا ما تقوم الجملة مسد المفعولين، نحو قوله قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ۝٤٨﴾ (فصلت: ٤٨)فجملة (ما لهم من محيص) سدت مسد المفعولين.

ما بين:

١- (ما): زائدة، و(بين) ظرف لـــ (منكتم).

٢- (ما) موصولة، بمعنى الذي، و(الذي) بدل من (الحب) أو نعت له، والتقدير: الحب

الذي هو بين منسجم ومضطرم.

(منسجم) و(مضطرم) صفتان حذف موصوفهما، أي: دمع منسجم، وقلب مضطرم. والتنوين في (منسجم) للتكثير، وفي (مضطرم) للتعظيم.

منه:

١- من العاشق. أي: ينسبك دمع العاشق.

٢- من الحب: أي ينهب الدمع بسبب الحب.

منه: يتعلق بكل من (منسجم ومضطرم) وبما أنه ذكر (منه) مع (منسجم) فحذف مع (مضطرم) لدلالة الأول عليه، والتقدير: ما بين منسجم منه ومضطرم منه.

وتقدير الشعر بالنظر إلى التفاصيل السابقة:

لا يظن العاشق أن الحب الذي هو بين دمع سائل وقلب مشتعل مستتر عن الناس.

شرح:

الهمزة الإنكارية في (أيحسب) إشارة إلى أن هذا الظن من الظن القبيح، فلا يظن هذا الظن.

أقسام الظن:

١- ظن حسن، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ (البقرة: ٤٦)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ (الحاقة: ٢٠)، فهذا الظن بمعنى اليقين.

٢- ظن قبيح، الظن القبيح الذي لا يقوم على دليل، وعليه ذمه القرآن الكريم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ (النجم: ٢٨)،و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ (الحجرات: ١٢)

أمثلة على هذا الظن:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ (الفتح: ٦)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ (فصلت: ٥٠)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ (غافر: ٣٧)

تعريف المحبة وأقسامها:

الحب: ميل القلب إلى ما يستلذه، فإذا أفرط فهو عشق.

وقيل: صفاء الحال بين المحب والمحبوب.

عرفه الحكماء بقولهم: امتزاج النفس بالنفس كالماء بمثله. (للاستزادة من تعريفات المحبة يراجع: المواهب اللدنية ٢٦٨-٢٧٢، المقصد السابع في وجوب محبته؛ كشكول المفتي محمد شفيع، ١١٢-١١٦).

تقسيمات مختلفة للمحبة:

للمحبة أقسام كثيرة باعتبارات مختلفة:

التقسيم الأول:

١- المحبة الطبيعية: ميلان الطبع إلى ما يستلذه.

٢- المحبة العقلية: حب ما ينفع الإنسان أو يدفع عنه الأذى. مثل محبة الدواء، فإنه ينفع الإنسان.

٣- المحبة الإيمانية: الامتثال لمقتضيات الإيمان، أي يعمل بأمر من آمن به، سواء رأى فيه نفعا له أو لم يرَ ذلك.

فمثلا: المحبة الطبيعية تقتضي مصاحبة المحبوب، إلا أن عليا ومعاذا وأبا موسى الأشعري رضي الله عنهم حين أرسلهم النبي صلى الله عليه وسلم للدعوة إلى الإسلام آثروا المحبة الإيمانية على المحبة الطبيعية. (صحيح البخاري، باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن، وباب بعث علي إلى اليمن؛ صحيح مسلم، بيان أن كل مسكر خمر).

۞ قال النبي صلى الله عليه وسلم لوحشي: «فهل تستطيع أن تغيِّب وجهك عني؟». (صحيح البخاري، رقم : ٤٠٧٢)

واعلم أن قول النبي صلى الله عليه وسلم لوحشي: «فهل تستطيع أن تغيب وجهك عني» كان لصالحه، فإن مثوله بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم كان من شأنه أن يولمه صلى الله عليه ويحزنه، فينتقص فيضه الروحاني له.

۞ قال النبي صلى الله عليه وسلم لبعض الصحابة: اشتر بدرهم قَدُومًا، فأتني به، ففعل، فأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فشد فيه عودا بيده، وقال: «اذهب فاحتطب ولا أراك خمسة عشر يوما»، فجعل يحتطب ويبيع، فجاء وقد أصاب عشرة دراهم. فتحمل البعد عن النبي صلى الله عليه وسلم بأمر منه. وتفصيل القصة رواه ابن ماجه في سننه رقم:٢١٩٨، باب بيع المزايدة، وفي إسناده كلام.

قال ابن المنجم الواعظ المعري (ت:٥٥٧هـ):

أريدُ وِصالَه ويريدُ هَجري ۞ فأتركُ ما أريد لِما يريدُ

(فوات الوفيات٢/٣٠١، ط: دارصادر؛ روح المعاني٧/٣٧)

٤- محبة العشق: بأن لا يرى إلا حبيبه.

قال المتنبئ:

ما الخِلّ إلا منْ أودّ بقَلبِه ۞ وأرى بطرْفٍ لا يرى بسوائِهِ

(ديوان المتنبئ، ص ٣)

ويقول الشاعر الفارسي:

من تو شدم تو من شدی ۞ من تن شدم تو جاں شدی

تا کس نہ گوید بعد ازیں ۞ من دیگرم تو دیگری

(أصبحتُ أنا إياك، وأصبحت أنتَ إياي...أصبحتُ أنا جسدا، وأصبحتَ أنت روحا، كي لا يقول أحد بعد ذلك: أنا وأنت مختلفان)

قال الخواجه مجذوب:

ساری دنیا ہی سے نفرت ہوگئی ۞ اب تو آجا اب تو خلوت ہوگئی

(اشمئزت نفسي من العالم كله، هيا الآن، لقد خلوتُ.)

۞ رأى رجل المجنون يكتب بأنامله على السراب، فسأله: ماذا تكتب؟ فقال:أتمرن على كتابة اسم ليلى، وأسلي نفسي:

گفت مشق نام لیلی من کنم ۞ خاطر خود را تسلی من دہم

(قال: أتمرن على كتابة اسم ليلى، وأسلي نفسي بذلك.)

جميع أسباب المحبة يوجد في ذاته الشريفة صلى الله عليه وسلم:

۞ على المسلم أن يحب النبي صلى الله عليه وسلم الحب بأنواعه كله، فإنه يجمع بين كافة أسباب الحب: (١) الكمال، (٢) الجمال، (٣) المال، (٤) النوال، (٥) الجلال والعظمة، (٦)كوننا له كالعيال.

(١) الكمال: أما كمالاته فحدث ولاحرج.

لايمكن الثناء كما كان حقه ۞ *بعد از خدا بزرگ توئی قصہ مختصر*

(لا يمكن الثناء كما كان حقه، فهو أعظم بعد الله تعالى.)

أجمعت الأمة على أن الجزء المتصل به صلى الله عليه وسلم من الأرض أفضل من الكعبة المشرفة، بل ذهب كثير من المحققين إلى تفضيله على العرش والكرسي.

قال العلامة القسطلاني: «واستثنى القاضي عياض البقعة التي دفن فيه النبي صلى الله عليه وسلم، فحكى الاتفاق على أنها أفضل بقاع الأرض، بل قال ابن عقيل الحنبلي: إنها أفضل من العرش». (إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري ٢/٢٤٥)

وقال الشيخ محمد قاسم النانوتوي: جمع النبي صلى الله عليه وسلم كمالات الدنيا كلها، قال:

جہاں کے سارے کمالات ایک آپ میں ہیں ❁ ترے کمال کسی میں نہیں مگر دو چار

(لقد جمعت بين الكمالات كلها، ولايوجد من كمالاتك في غيرك إلا ما يعد على أصابع اليد.)

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مشفع».(صحيح مسلم، رقم:٢٢٧٨)

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون».(صحيح مسلم رقم:٥٢٣)

ويتحدث حسان بن ثابت رضي الله عنه عن مكانة الرسول صلى الله عليه وسلم العالية، ويقول: لايضره من مدحه ومن لم يمدحه:

فَمَن يَهجُو رسولَ الله منكم ❁ و يمدحه و ينصره سواءُ

(صحيح مسلم، رقم :٢٤٩٠)

(٢) الجمال: اشتهر يوسف عليه السلام بحسنه، والحق أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان أحسن من يوسف.

إيراد: كان حسن يوسف-عليه السلام- فتن النساء، و لم ينقل ذلك عن حسن

محمد الرسول صلى الله عليه وسلم؟

والجواب عنه:

١- يقول الشاه ولي الله الدهلوي رحمه الله: «أخبرني سيدي الوالد قال: بلغني أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: أنا أملح وأخي يوسف أصبح، فتحيرت في معناه؛ لأن الملاحة توجب قلق العشاق، أكثر من الصباحة، وقد روي في قصة سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام أن النساء قطعن أيديهن حين رأينه، ...ثم قال: «رأيت الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يرى النائم، فسألته، فقال: «جمال مستور، لوظهر لفعلوا أكثر مما فعلوا بيوسف عليه السلام». (الدر الثمين في مبشرات النبي الأمين صلى الله عليه وسلم، ص:١٦١، للشاه ولي الله الدهلوي، بتحقيق مولانا عاشق إلهي البرني، رحمهما الله)

لم أعثر على إسناد لهذا الحديث، وإنما هو حال المنام.

٢- الحسن على نوعين: أحدهما: أن يفتتن الرائي أول ما يراه، ثم يتضاءل تأثير الحسن مع الأيام بعد المخالطة والمجالسة والمكالمة. وكان حسن يوسف عليه السلام من هذا القبيل. فقطعت النسوة التي رأينه فجأة — أيديهن، وأما زليخا فلم تقطع يدها لأنها تحملت لأجل المخالطة.

النوع الثاني من الحسن: لم يظهر أثره على الرائي أول مرة لعارض من العوارض، ولكن يزداد الحسن ظهورًا مع المجالسة و المخالطة.

يَزِيْدُكَ وَجهُه حُسْنًا ۞ إذَا مَا زِدْتَه نَظرًا

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يجمع بين المهابة والحسن، فلا يكاد أحد يملأ عينه بالنظر إلى وجهه؛ لأن حسنه لم يظهر ولم يتجلَّ، ثم خفت مهابته صلى الله عليه وسلم مع الاختلاف إليه ومجالسته ومكالمته، فتجلى حسنه. كان يقول علي رضي الله عنه: «من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه، يقول ناعته: لم أرَ قبله ولا بعده مثله». (شمائل الترمذي، ص ١)

ولله در شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم: حسان بن ثابت رضي الله عنه حيث قال:

وَأَحْسَنَ مِنْكَ لَمْ تَرَ قَطُّ عَيْنِيْ ۞ وَأَجْمَلَ مِنْكَ لَمْ تَلِدِ النِّسَاءُ

خُلِقْتَ مُبَرَّأً مِنْ كُلِّ عَيْبٍ ۞ كَأَنَّكَ قَدْ خُلِقْتَ كَمَا تَشَاءُ

(ديوان حسان بن ثابت رضي الله عنه، ص ١٠، ط: دارصادر، بيروت)

ويورد عليه البعض بأن هذه الأبيات ليست لحسان بن ثابت رضي الله عنه، ويوردون أيضا بأن الله تعالى خلق كما يشاء هو الرسولَ صلى الله عليه وسلم، لا كما شاء الرسول صلى الله عليه وسلم.

الرد على الإيراد الأول: أن هذه الأبيات تتضمنها غير واحد من نسخ ديوان حسان بن ثابت، منها: ديوان حسان بن ثابت، ص٢١، ط: دارالكتب العلمية، بيروت؛ و ص ١٩، ط: مكتبة السعادة، مصر؛ وص ٤٤١، ط: مطبعة التذكارية، لندن؛ وص ١٠، ط: المطبعة الرحمانية؛ وص١٠، ط: دار صادر، بيروت.

الرد على الإيراد الثاني: أنه على سبيل المبالغة، لأن الإنسان يحب لنفسه أحسن ما يكون من الأشياء، أي أن الله تعالى خلقه أحسن الخلق، وأراد النبي صلى الله عليه وسلم ما أراده الله تعالى.

يَا صاحِبَ الجَمالِ ويَا سَيدَ البَشَر ۞ من وَجْهِكَ الُمنِيرِ لقَد نَوَّر القَمَر

لا يمكن الثناء كما كان حقه ۞ *بعد از خدا بزرگ توئی قصه مختصر*

(لا يمكن الثناء كما كان حقه، فهو أعظم بعد الله تعالى.)

عن جابر بن سمرة، قال: «رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في ليلة إضحيان، فجعلت أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى القمر وعليه حلة حمراء، فإذا هو عندي أحسن من القمر».(سنن الترمذي، رقم:٢٨١١)

ويقول الشاعر الأردي:

چاند سے تشبیہ دینا یہ بھی کیا انصاف ہے
اس کے منہ پر داغ ہیں حضرت کا چہرہ صاف ہے

(هل من العدل أن نشبهه بالقمر؛ فإن وجه القمر به كلف، وأما وجه سيدنا فلا يشينه شيء.)

يقول كعب بن مالك رضي الله عنه: «حين قبلت توبتي دخلت المسجد، فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو يبرق وجهه من السرور، وكان رسول

الله صلى الله عليه وسلم إذا سُر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه». (صحيح البخاري، رقم:٣٥٥٦، ورقم:٤٤١٨، صحيح مسلم، رقم: ٢٧٦٩)

وروى مسلم في صحيحه: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أزهر اللون كأن عرقه اللؤلو». (صحيح مسلم رقم: ٣٢٣٠)

قال عروة بن الزبير: لم أر أحدًا أعلم بمعاني القرآن والفرائض والحلال والحرام، وأشعار العرب، والأنساب من عائشة رضي الله عنها، ومن شعرها في مدح النبي صلى الله عليه وسلم:

فَلَوسَمِعُوا فِي مِصرَ أَوْصَافَ خَدِهِ ۞ لَمَا بَذلُوا فِي سَوْمِ يُوْسُفَ مِنْ نَقْدِ

لُوَامَى زُلَيْخَا لَوْ رَأَيْنَ جَبِيْنَهُ ۞ لآثَرْنَ بِالقَطْعِ القُلُوبَ عَلَى الأَيْدِيْ

حكى حسين بن محمد الديار بكري عن عروة أبيات عائشة رضي الله عنها في تاريخ الخميس.(تاريخ الخميس ١/٣٨٥)

إيراد: قد يُورد على هذه الأبيات أنه لم يقطع أحد يده فضلا عن قلبه بعد ما رآى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

والجواب عنه: إنما يورد ذلك من لم يكن على علمٍ بما قام به فدائيو رسول الله صلى الله عليه وسلم من المآثر والبطولات، فقصصها تبلغ من الكثرة ما لا يأتيه حصر ولا عد. وليس غريبا أن تعشق امرأة شابة جميلة رجلا شابا جميلا، فإن العالم يشهد بأمثال ذلك، والذي يفوق العادة أنه ضحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم بنفوسهم الصبيانُ والشيوخ، والنساء والرجال، وفوق ذلك ضحت بنفسها الحيوانات. وتظاهرت النباتات والجمادات بعشقها وحبها له صلى الله عليه وسلم، وقائمة قصص تضحيات النساء والصبيان طويلة.

ضحى رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع بمئة بدنة، فنحر ثلاثا وستين بيده، وأعطى عليا ما غبر.(صحيح مسلم، رقم:١٢١٨، باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم)

شُدَّت أيدي وأرجل هذه البدن، وصُفَّت صفا واحدًا، وكان بيده العنـــزة للنحر، فتسابقت البدن كلها إليه ليبدأ بها. يقول الشاعر الفارسي:

نشود نصیب دشمن که شود ہلاک تیغت ۞ سر دوستاں سلامت که تو خنجر آزمائی

(ليس من حظ العدو أن يهلك بسيفك، و رؤوس الأحباء سالمة، إذ جربت الخنجر)

وقال الشاعر الأردي:

داغ جاتے تو ہیں مقتل میں پر اول سب سے ❁ دیکھیے وار کرے وہ ستم آرا کس پر

(داغ –لقب الشاعر– يتسابق الكل إلى المقتل، ولكن لننظر بأيهم يبدأ ذلك الظالم هجومه)

عن عبد الله بن قرط رضي الله عنه: «... وقرب لرسول الله صلى الله عليه وسلم بدنات خمس أو ست، فطفقن يزدلفن إليه بأيتهن يبدأ». (سنن أبي داود، رقم: ١٧٦٥، باب في الهدي إذا عطب قبل أن يبلغ؛ الخصائص الكبرى ٦١/٢، باب ما وقع في حجة الوداع من الآيات والمعجزات)

وقصة أسطوانة الحنانة شهيرة، رواها البخاري في صحيحه: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وسلم: كان يقوم يوم الجمعة إلى شجرة أو نخلة، فقالت امرأة من الأنصار– أو رجل–: يا رسول الله، ألا نجعل لك منبرا؟ قال: «إن شئتم»، فجعلوا له منبرا، فلما كان يوم الجمعة دفع إلى المنبر، فصاحت النخلة صياح الصبي، ثم نزل النبي صلى الله عليه وسلم فضمه إليه، تئن أنين الصبي الذي يُسكن. قال: «كانت تبكي على ما كانت تسمع من الذكر عندها». (صحيح البخاري، رقم:٣٥٨٤، باب علامات النبوة في الإسلام)

يقول أهل العلم: بلغت روايات حنين الجذع حد التواتر، للاستزادة منه راجع: المواهب اللدنية ٥٤٢/٣–٥٤٨.

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إني لأعرف حجرا بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن». (صحيح مسلم، رقم:٢٢٧٧، باب فضل النبي صلى الله عليه وسلم)

ولا تزال سكة في مكة تعرف بزقاق الحجر.(السيرة الحلبية٣٦١/١، باب سلام الحجر)

٣– السبب الثالث للحب هو المال.

فالمال من أسباب الحب، قال الشاعر:

رَأَيْتُ النَّاسَ قَد مَالُوا ❁ إِلَى مَنْ عِنْدَهُ مَال

وَمَن لاَ عِنْدَه مَالُ ❁ فَعَنْه النَّاسُ قَد مَالُوا

رَأَيْتُ النَّاسَ قَد ذَهَبُوا ۞ إلى مَنْ عِنْدَهُ ذَهَبُ
وَمَن لاَ عِنْدَهُ ذَهَبُ ۞ فَعَنْهُ النَّاسُ قَد ذَهَبوا
رَأَيْتُ النَّاسَ مُنْفَضَّة ۞ إلَى مَن عِنْدَه فِضَّة
وَمَن لاَ عِنْدَه فِضَّة ۞ فَعَنْه النَّاسُ مُنْفَضَّة

قال البوصيري رحمه الله:

وراوَدَتْهُ الجبالُ الشُّمُّ مِن ذَهَبٍ ۞ عن نفسه فأراها أيَّمَا شَمَمِ
وأكَّدَت زُهدَهُ فيها ضرورَتُهُ ۞ إنَّ الضرورةَ لا تعدُو على العِصَمِ

(قصيدة البردة، الفصل الثالث في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم)

شهد العهد النبوي كثيرا من الفتوحات، وجاءته الأموال من شتى الجوانب، ففي غزوة حنين وحدها غنم ستة آلاف أسير، وأربعة وعشرين ألف إبل، وأربعة آلاف أوقية من فضة، وأربعين ألف شاة. (زاد المعاد٤٧٣/٣، ط: مؤسسة الرسالة؛ والطبقات الكبرى لابن سعد١٥٢/٢، ط: دارصادر)

وانتصر المسلمون في خيبر، وحصلت لهم أراضيها ونخلاتها كلها، إلا أنه صلى الله عليه وسلم أبقى عليها أهلها، وتفاصيله في كتب السيرة. (السيرة النبوية لابن هشام٣٥٦/٢)

٤- السبب الرابع للحب هو النوال، أي المن والعطاء.

والنوال على قسمين: ١-ظاهري، ٢-روحاني. وقد جمع الرسول صلى الله عليه وسلم بين القسمين.

أمثلة على النوال الظاهري:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم... لما فتح الله الفتوح، قال: «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن توفي من المؤمنين فترك دينا فعلي قضاؤه، ومن ترك مالا فلورثته». (صحيح البخاري، رقم:٥٣٧١)

وفي حديث آخر: «من ترك مالا فلورثته، ومن ترك كلا فإلينا». (صحيح البخاري، رقم:٢٣٩٨)

ولم يرُدَّ النبي صلى الله عليه وسلم آملا منه أو سائلا صفر اليدين.

عن جابر رضي الله عنه، قال: «ما سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن شيء قط،

فقال: لا». (صحيح البخاري رقم:٦٠٣٤)

وعن أنس رضي الله عنه أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم غنما بين جبلين، فأعطاه إياه، فأتى قومه، فقال: أي قوم أسلموا، فو الله، إن محمدا ليعطي عطاء لا يخاف الفقر». (صحيح مسلم، رقم:٢٣١٢)

أنفق النبي صلى الله عليه وسلم على الناس كل شيء، و لم يخلف وراءه شيئا من مال الدنيا ومتاعها، حتى بلغ به الأمر أن اقترض (٣٠) صاعا من شعير من يهودي؛ إذ لم يجد ما يقتات به في عموم الأحوال، ورهنه درعه، وتوفي على ذلك.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعا من شعير». (صحيح البخاري، رقم:٢٩١٦)

من أشعار فرزدق الشهيرة:

مَا قالَ لا قَطُّ إلاَّ فِى تَشَهُّدِهِ ۞ لَوْلا التَّشَهُّدُ كانتْ لاؤُهُ نَعَمُ

(ديوان الفرزدق)

اقترض بلال من رجل من المشركين، فهدد بلالا وقال: إنما بيني وبينك أربع، فآخذك بالذي عليك، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم مال من رئيس فدك، فقضى عن بلال ما عليه من الدين. ثم أتى بلال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: اقسمه حتى تريحني منه. فمضى اليوم كله، ثم سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد العشاء: هل قسمت المال المتبقى أو لا؟ قال بلال: بقي شيء، فبات رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد. ثم سأل بلالا في الغد بعد صلاة العشاء: هل بقي شيء؟ فقال بلال: قسمته. فحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم الله تعالى، ثم دخل بيته. (وتفصيل القصة في سنن أبي داود، رقم ٣٠٥٥)

عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم من حنين، فتبعه الأعراب يسألونه المال، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لست بخيلا به، وسأقسم ما عندي من المال.

عن جبير بن مطعم: «بينما هو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه الناس مقبلا من حنين، علقت رسول الله صلى الله عليه وسلم الأعراب، حتى اضطروه إلى سمرة، فخطفت رداؤه، فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: «أعطوني ردائي، فلو كان

لي عدد هذه العضاه نعما لقسمته بينكم، ثم لا تجدوني بخيلا، ولا كذوبا، ولا جبانا)).(صحيح البخاري، رقم:٣١٤٨)

والحاصل أن قصص الجود والسخاء من رسول الله صلى الله عليه وسلم مذكورة في كتب السير والتاريخ مما يصعب إحصاؤه وعده.

النوال الروحاني:

قد استفادت جماعة الأنبياء السابقين عليهم السلام كلهم من النبي صلى الله عليه وسلم، وأناروا العالم.

قال البوصيري رحمه الله تعالى:

وكُلُّ آيٍ أَتَى الرُّسْلُ الكِرَامُ بِهَا ۞ فإنما اتصَلَتْ مِن نورِهِ بِهِمِ

فإِنَّهُ شمسُ فَضْلٍ هُم كواكِبُهَا ۞ يُظهِرْنَ أنوارَهَا للناسِ في الظُّلَمِ

(قصيدة البردة، الفصل الثالث في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم)

ولك أن تدرك استفادة الأنبياء كلهم من النبي صلى الله عليه وسلم بأن المصباح الواحد يضاء به الآلاف من المصابيح، فكل واحد منها منوَّر بنفسه، ومنوِّر لغيره، ولذا شبه القرآن الكريم النبي صلى الله عليه وسلم بالسراج.

أضف إلى ذلك أنه ما من نبي إلا وقد أخذ منه أن يتبع محمدا صلى الله عليه وسلم وينصره إذا جاء في عهده، وأن يعلم ذلك أمته. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ (آل عمران: ٨١)

ورفعت عن الأمة المحمدية ما كان على الأمم السابقة من الأحكام الشاقة، مثلا: عدم الصلاة في غير المسجد، وحرمة الغنائم، وحرمة الإبل والشحم، وعدم الطهارة إلا بقرض الثوب الذي أصابه النجاسة، ونحو ذلك.

وتفاصيل ذلك في كتب التفاسير، والأحاديث. راجع: صحيح البخاري، باب البول عند سباطة قوم، وصحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، سورة الأنعام، باب المسح على الخفين.

ورفعت عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم ما كانت على الأمم السالفة من العقوبات الشاقة، مثلا: عدم قبول التوبة من غير قتل. وكان العاصي في ظلمة الليل مستترا يصبح وعلى بيته مكتوب ذلك. ومسخ الأمة برمتها وخسفها، ونحو ذلك.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ (الأعراف: ١٥٧)، و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ (البقرة: ٥٤)

وفي الحديث: «في بني إسرائيل إذا أذنب أصبح على بابه مكتوبا».(شعب الإيمان، للبيهقي، رقم:١٣٤١، الباب:٤٧)

وقال عليه الصلاة والسلام: «سألت الله ألا يهلك أمتي بالسنة، فأعطانيها...، وألا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها».(صحيح مسلم، رقم:٢٨٩٠، كتاب الفتن، باب: هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض)

إن مننَ النبي صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين- الدنيوية كما تشمل الكفار، كذلك لايُحرَم الكفار مننه في الآخرة، فقد ثبتت بالأحاديث الشفاعةُ الكبرى، والتخفيف عن أبي طالب وأبي لهب في العذاب.

روى البخاري رحمه الله: عن العباس بن عبد المطلب أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم: ما أغنيت عن عمك، فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال: «هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار». (صحيح البخاري، رقم:٣٨٨٣، باب: قصة أبي طالب)

وعن أبي سعيد الخدري أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم وذكر عنده عمه فقال: «لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة». (صحيح البخاري، رقم:٣٨٨٥، باب: قصة أبي طالب)

وفي الصحيح لمسلم: «وجدته في غمرات من النار، فأخرجته إلى الضحضاح». (صحيح مسلم، رقم:٢٠٩، باب شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لأبي طالب)

وفي صحيح البخاري: «وثويبةُ-مولاة لأبي لهب- وكان أبو لهب أعتقها، فأرضعت النبي صلى الله عليه وسلم، فلما مات أبو لهب أريه بعض أهله بشر حيبة (أي بشر حالة) قال له: ماذا لقيت؟ قال أبولهب: لم ألق بعدكم غير أني سقيت في هذه بعتاقتي ثويبة». (صحيح البخاري، رقم:٥١٠١).

وفي المواهب اللدنية: «وقد رؤى أبو لهب بعد موته فى النوم فقيل له: ما حالك؟ فقال: فى النار، إلا أنه خفف عني كل ليلة اثنين، وأمص من بين أصبعى هاتين ماء، وأشار برأس أصبعيه، وأن ذلك بإعتاقي لثويبة عندما بشرتني بولادة النبي صلى الله عليه وسلم و بإرضاعها له».(المواهب اللدنية ١٤٨/١، ط: المكتب الإسلامي؛ السيرة النبوية لابن كثير ٢٢٤/١)

٥- السبب الخامس للمحبة: الجلال والعظمة. وتحصل المحبة للشخصيات الجليلة لأجل مكانتها وعظمتها، وسبق ذكر جلال النبي صلى الله عليه وسلم وعظمته في حديث علي رضي الله عنه: «من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه».(شمائل الترمذي، ص١)

ومن دواعي فضله صلى الله عليه وسلم نصرته بالرعب، أي كانت ملوك العصر يهابون جلاله وعظمته. وذات مرة أتى النبي صلى الله عليه وسلم رجل، فكلمه، فجعل ترعد فرائصه، فقال له: «هون عليك، فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة تأكل القديد».(سنن ابن ماجه، رقم: ٣٣١٢، باب القديد)

وكان الصحابة رضي الله عنهم ينتظرون مقدم أعرابي ذكي، ليسأل النبي صلى الله عليه وسلم، فيزدادوا علما، وكانوا يحترزون من سؤاله. (صحيح مسلم، رقم:١٢)

وذات مرة صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع ركعات مكان ركعتين،فهاب الناس سؤاله،حتى سأله ذو اليدين.(صحيح البخاري، رقم ٤٨٢)

وذات مرة كان صلى الله عليه وسلم يستظل بشجرة، فإذا أعرابي اخترط سيفه وقام على رأسه وقال له: من يمنعك مني؟ قال صلى الله عليه وسلم: الله، فشامه. (صحيح البخاري، رقم:٤١٣٩)

٦- السبب السادس للمحبة: كونه كالوالد ونحن كالعيال:

لقد علمنا الرسول صلى الله عليه وسلم مصالح الدنيا والآخرة تعليمَ الوالد ولده صغار الأمور وكبارها.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إنما أنا لكم بمنْزلة الوالد لولده، أعلمكم، إذا أتيتم الغائط فلا تستقبلوا القبلة ولا تستدبروها».
(سنن ابن ماجه، رقم: ٣١٣)

تقسيم آخر للمحبة:

(١) محبة إجلال: محبة الكبير مع إجلاله، مثل محبة الوالد أو الشيخ.

(٢) محبة الإشفاق: محبة الكبير للصغير شفقة عليه.

(٣) محبة الاستحسان: محبة عامة الناس.

تقسيم ثالث للمحبة:

(١) حب الله ورسوله. ومن علامته: القيام بالفرائض، والاحتراز من المعاصي، واتباع السنة.

عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما».(مسند أحمد، رقم:١٣١٥١، قال الشيخ شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين)

وعنه صلى الله عليه وسلم: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يلقى في النار».(صحيح البخاري، رقم:٦)

(٢) حب المسلم في الله تعالى:

من آية الحب في الله تعالى ألا يتضاءل حبه للمسلم، ولو أصابه منه ما يكره، وهذا الحب محمود.

ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم: «سبعة يظلهم الله...، ورجلان تحابا في الله، اجتمعا عليه وتفرقا عليه».(صحيح البخاري، رقم ١٤٢٣)

(٣) أن يعشق أحدا، ويعف، يكره النظر إليه. وقد ورد الحديث بفضل هذا العشق.

عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من عشق فعف وكتم فمات فهو شهيد».(كنز العمال٤/٤٢٠،رقم:٦٩٩٩، فيض القدير٦/٢٣٣).

تحقيق حديث: «من عشق فعف» بإيجاز:

اعلم أن أهل العلم تكلموا في هذا الحديث كلاما مبدئيا، واختلفت أقوالهم في

درجته. و باختصار عمل الشيخ أحمد بن صديق الغماري رسالة سماها: «درء الضعف عن حديث: من عشق فعف»، وفصل الكلام فيه وصححه، و ردَّ جميع الاعتراضات ردًّا مفصلا. وقال: «فقد ظهر بما ذكرنا أن الحديث صحيح من جهة الرواية، ومن جهة المعنى...، لم يبق مع وجود السندين شك في أن الحديث صحيح في أعلى درجات الصحة؛ لأنه أصح من أحاديث كثيرة صححها الحفاظ، وليس لها مثل هذين السندين». (درء الضعف، ص ١٣٥).

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم: «من عشق وكتم وعف وصبر غفر الله له، وأدخله الجنة». (الطيوريات لأبي طاهر السلفي الأصبهاني، رقم: ١١٢؛ ذم الهوى لابن الجوزي، ص ١٢١، ورجاله ثقات كما في البدر المنير ٥/٣٧١)

(٤) المحبة المذمومة شرعا وعقلا: أي المحبة التي يتبع المرء فيها هوى نفسه، ولا يراعي الحدود التي وضعها الشرع.

درجات المحبة:

(١)الهوى، (٢)العلاقة: الحب اللازم، (٣)الكلف: شدة الحب، (٤)العشق، (٥)اللوعة/اللاعج: إحراق الحب القلب مع لذة يجدها المحب، (٦)الشغف: أن يبلغ الحب شغف القلب، وهي جلدة القلب، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ (يوسف: ٣٠) (٧)الجوى: وهو الهوى بالباطن، (٨)التتيم: وهو أن يستعبد الحب صاحبه، ومنه تيم الله، أي: عبد الله، (٩)التبل: فناء المحب بالهوى، ومنه: رجل متبول، قال كعب بن زهير رضي الله عنه (ت: ٢٤هـ):

بَانَتْ سُعَادُ، فَقَلْبي اليَوْمَ مَتْبُولُ ۞ مُتَيَّمٌ إثرَها، لَمْ يُفْدَ، مَكْبولُ

(ديوان كعب بن زهير)

(١٠) التدلية: ذهاب العقل من الهوى، ومنه: رجل مُدَلَّة.

(١١) الهيام: الحيرة وذهاب العقل، فيلحق صاحبه بالمجانين.(فقه اللغة وسر العربية، للثعالبي، ص١٢٩)

معنى الشعر:

المعنى: لا يكاد ينكتم حب العاشق، فإنه في جانب يذرف الدموع، وفي جانب آخر

قلبه مضطرب.

ويقال في العربية: ما يليق للمحب أن يظن أن حبه مخفي على الناس في حال كمال ظهوره بسبب سيلان دمعه واضطراب قلبه، فإنهما بمنـــزلة شاهدين على إثبات حبه.

وفي معنى بيت الناظم هذا ما قالته ليلى مخاطبة مجنونها:

وَأَسْرَارُ الملاحِظِ لَيْسَ تَخْفَى ۞ إِذَا نَطَقَتْ بِمَا تُخْفِي العُيُونُ

(الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ١٦/٢، ط: دارالفكر)

وعبر عنه شاعر أردي تعبيرا رشيقا، فقال:

ہم نے چھپائی لاکھ، محبت نہ چھپ سکی ۞ آنکھوں نے رو کے یار سے اظہار کردیا

(بالغنا في كتم الحب،ولم ينكتم، ذرفت العيون فأبدته للحبيب)

وقال شاعر أردي آخر:

عاشق پر اس نے جب مانگی صداقت کی دلیل ۞ آنسوؤں اور گرم آہوں کی شہادت آگئی

(حين طلب الدليل على صدق العشق، تجلت شهادة الدموع والزفرات الحامية.)

قرار قاضي محكمة العشق:

يدعي المرء دعوى فيحتاج إلى شاهدين، وادعى المؤلف الحب، وأنكر الشخص الذي جرده من نفسه، فتحاكموا إلى قاضي محكمة العشق والحب، فطلب القاضي من المدعي شاهدين؛ فإن البينة على المدعي واليمين على من أنكر، فتقدم المدعي بهما: دمع منسجم وقلب مضطرم.

فقال المدعي: لقد جمعت بين شاهدين لايجتمعان أبدا: النار والماء.

فإن قيل: حالة القلب خافية فكيف يستشهد بها على الدعوى؟

فالجواب عنه: أن الشاهد الأول (الدموع) يؤيد الشاهد الثاني (حالة القلب)، لأن الدموع تدل على حالة القلب، وعليه تذرف العيون الدموع حين الصدمة العنيفة.

والعاشق يستمر في البكاء، قال الشاعر:

وَمَا فِي الخَلقِ أَشْقَى مِن مُحِب ۞ وَإِن وَجَد الهَوَى حُلْوَ المَذَاق

تَراه بَاكيًا في كُلِّ حَالٍ ۞ مَخَافَة فُرْقَة أو لاشتِيَاقَ

فَيَبْكِيْ إِن نَأوا شَوْقًا إِلَيه ۞ وَيَبْكَيْ إِنْ دَنَوا خَوْفَ الفِرَاقِ

فـ (مضطرم) استدلال بالسبب على المسبب (أي: أسباب خفقان القلب: اصفرار الوجه، وتبدله، وضعف البدن ونحوها) استدل بها على المحبة.

البلاغة:

(أيحسب الصب) هل فيه التفات أم لا؟ (وسبق تعريف الالتفات في البيت رقم:١)

قيل: ليس فيه التفات، أي ليس المراد بـ (أيحسب) المخاطب نفسه، ثم عبر عنه بالغائب؛ بل المراد به العاشق.

وذهب الأكثرون إلى أن فيه التفاتا من الخطاب إلى الغيبة؛ لأنه سيق: مزجتَ، لعينيكَ: بصيغة الخطاب، فوجب أن يساق هنا أيضا بصيغة الخطاب: أ تحسب أن الحب منكتم. فعدل من الخطاب إلى الغيبة، والمراد بصيغة الخطاب والغيبة شخص واحد.

ثم إن هذا التفات على رأي الجمهور، وكذلك على رأي السكاكي أيضا.

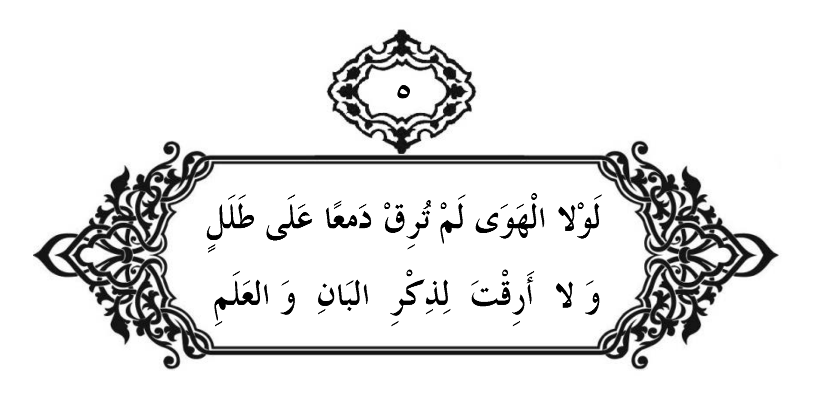
في (مضطرم) استعارة تصريحية تبعية.

التصريحية: ما ذكر فيه المشبه به. والتبعية: ما كان المستعار فيه اسما مشتقا أو فعلا.

شبه خفقان القلب بـ (مضطرم) في البيت، والمشبه به وهو (مضطرم) مذكور. ثم (مضطرم) مشتق وليس مصدرا، فكانت الاستعارة تبعية.

والحمد لله على التمام، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

****



اللغة:

لولا: شرطية، والمعنى: لولا الهوى (موجود) لم ترق دمعا.

أقسام «لولا»:

١- شرطية: إذا دخلت على المبتدإ في الجملة الاسمية، والمعنى: امتناع الثاني لوجود الأول. أي أن الجزء الأول (الشرط) موجود، فانتفى الجزاء، ويحذف الخبر حينئذ، كما حذف (موجود) في البيت.

ومعنى البيت: الهوى (موجود) فانتفى عدم إراقة الدمع، أي: أرقت الدمع لأجل الحب.

وكذلك ما اخترعه الناس من المقولة المنسوبة إلى عمر رضي الله عنه: «لولا علي لهلك عمر». ومعناها: كان علي موجودا فلم يهلك عمر. ففيه انتفاء الثاني (هلاك عمر) لوجود الأول (وجود علي).

وما أكثر الأمثلة على هذا المعنى في القرآن الكريم:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (البقرة: ٦٤)، و قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ (البقرة: ٢٥١)، و قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ﴾ (هود: ٩١)، و قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾ (الصافات: ٥٧)

فامتناع الثاني لوجود الأول ظاهر في هذه الأمثلة.

٢- تحضيضية: مطالبة الشيء بشدة ترغيبا فيه.

وذلك حين تدخل على المضارع، نحو: لولا تأتيني، و وردت بهذا المعنى في غير موضع من القرآن الكريم:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ﴾ (النمل: ٤٦)، و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ (القلم: ٢٨)، و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ (الواقعة: ٧٠)، و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (الواقعة: ٦٢)

٣- للتوبيخ والتنديم: ولاتدخل إلا على الماضي، وتدل على أن الفعل لم يحصل، نحو: لولا أتيتني، أو لولا قرأت الكتاب.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾ (يونس: ٩٨)، و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟﴾ (الأنعام: ٤٣)، و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ (الكهف: ٣٩)، و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ (المائدة: ٦٣)

٤ – للاستفهام:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ (فصلت: ٤٤)، و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ (طه: ١٣٤)، و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ (الفرقان: ٢١)، و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ (يونس: ٢٠)، و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ (المجادلة: ٨)

وعلى كل فلولا هنا شرطية، والمعنى: لولا الحب ما بكيت، وإنك تبكي؛ لأنك تحب.

الهوى: العشق والحب.

هَوِيَ يهْوَى هَوًى: أحب، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ﴾ (البقرة: ٨٧)

هَوَى يَهْوِي هُوِيًّا، وهَوَيانا: سقط: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ (النجم: ١)

يقول الشيخ جمال الدين بن عبد الله: «اتقوا المكسور؛ فإنه يؤدي إلى المفتوح». أي لا تبالغوا في حب المخلوق، فإنه يسوق المرء إلى الهلاك.

الهوى له معانٍ وأقسام عدة:

الهوى له معانٍ مختلفة:

١- الحب (في الخير والشر).

٢- هوى النفس، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ (الجاثية: ٢٣)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (ص: ٢٦)

٣- المحبوب، قال جعفر بن علبة:

هَوايَ مَعَ الرَّكْبِ اليَمانِيْنَ مُصْعِد ۞ جَنِيْبُ وَجُثْمَانِي بِمَكَّة مُوْثَقِ

هوى: يجمع على (أهواء)، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ﴾ (المائدة: ٧٧)

والهوى في البيت: بمعنى الحب أو المحبوب.

والهوى على قسمين:

١- هوى مذموم (اتباع هوى النفس)، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ (الجاثية:٢٣)

٢- هوى ممدوح: حب الله ورسوله.

(**لم ترق**): أراق يريق الإراقة: السكب، والإراقة بمعنى (الصب)، قال ابن حاجب:

أراق دمي، أرى قدمي ۞ وهان دمي، وها ندمي

راق يروق (ن) روقا: حسن الشيء، وراقه الشيء: أعجبه.

(**طلل**): أثر الدار الخربة، ج: أطلال، وطلول: الأنقاض، وبقايا العمارة. وهو المراد في البيت.

طلَّ يطِلّ (ض) طلا وطُلولا: بطل وسقط، و(أطل) بمعناه.

وفي الحديث: أن رجلا من بني تميم قاتل رجلا فعض يده، فانتزعها فألقى ثنيته، فاختصما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم... فأطلها أي أبطلها.(سنن النسائي، رقم:٤٧٦٤، باب الرجل يدفع عن نفسه).

وفي صحيح البخاري: «فقال ولي المرأة التي غرِمت: كيف أغرم- يارسول الله- مَن لا شرب، ولا أكل، ولانطق، ولا استهل، فمثل ذلك يطلّ».(صحيح البخاري، رقم:٥٧٥٨، باب: الكهانة)

الطَلّ: المطر الخفيف، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ (البقرة: ٢٦٥)

أرِقت: أرِق (س) أَرَقا: سهر، غاب عنه النوم.

وفي الحديث: شكا خالد بن الوليد المخزومي إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: «يا رسول الله، ما أنام الليل من الأرَق».(سنن الترمذي، رقم:٣٥٢٣).

البان: شجرة يخرج منها دهن طيب الرائحة، يطلق عليه: دهن البان، وتُشبه قامة الإنسان الطويلة بالبان، يكثر الشعراء بذكره في أشعارهم. تتضمن دواوين العربية وكتبها الآلاف من الأشعار التي ذكر فيها البان.

وقال مالك في الموطأ وهو يضرب الأمثلة على الغرر: لايجوز بيع بذر البان بزيته.

قال مالك: «ومن ذلك أيضا: شراء حب البان بالسليخة فذلك غرر؛ لأن الذي يخرج من حب البان هو السليخة».(موطأ الإمام مالك، باب بيع الغرر)

قال الشيخ محمد زكريا في أوجزه: يقال له في الهندية «بكائن». (أوجز المسالك ١٢/٤٩٠)

العلَم: الجبل، ج: أعلام، وهو المراد في البيت.

والعَلَم له معانٍ كثيرة: منها:

١- الجبل: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ (الشورى: ٣٢)

وفي صحيح البخاري: «لينْزلن أقوام إلى جنب علم، يروح عليهم بسارحة لهم، يأتيهم يعني الفقير لحاجة فيقولون: ارجع إلينا غدا، فيبيتهم الله، ويضع العلم». (صحيح البخاري، رقم:٥٥٩٠، باب ماجاء فيمن يستحل الخمر)

قالت الخنساء في رثاء أخيها:

وإن صخرًا لتأتَمُّ الهداةُ به ۞ كأنه عَلَمٌ في رأسِه نارُ

(ديوان الخنساء، ص: ٤٩، ط: دارصادر، بيروت)

٢- الراية. ٣-العلامة. ٤- معالم الطريق. ٥- الأثر. وفي صحيح البخاري: «إن النبي صلى الله عليه وسلم صلى في خميصة لها أعلام». (صحيح البخاري، رقم:٣٧٣، باب إذا صلى في ثوب له أعلام).

٦- شخصية بارزة، وجه القوم، وكثيرا ما يرد في كتب التاريخ والسير قولهم: «كان من أعلام الأئمة».

٧- السنان.

العلَم: اللام فيه للعهد، أي الجبل الذي في ديار المحبوب.

الفرق بين الطلل والرسم:

الطلل: ما بقي من آثار الديار مرتفعا. والرسم: ما كان على الأرض من آثار الدار، أي: ملتصقا بالأرض. أي القائم على الأرض هو الطلل، والخاوي عليها هو الرسم.

الإعراب:

لولا الهوى: (الهوى) مبتدأ، (موجود) خبره محذوف، وجواب لولا (لم ترق دمعًا)، وهو دليل على الخبر المحذوف. (على طلل): جار ومجرور متعلق بـــ (لم ترق).

ولا أرقت: (١) لا زائدة، و(لا أرقت) معطوف على (لم ترق)، وحيث لا تدخل (لم) على الماضي، فقوله في الشطر التالي (ولا أرقت) بمعنى: لم ترق. (٢) لا نافية.

لذكر البان: لأجل ذكر البان، كما في القرآن الكريم: ﴿سَمَّـٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ (المائدة: ٤١)

أي: لأجل قوم آخرين، وقَالَ تَعَالَى: ﴿هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٤)

شرح البيت:

خطأ الناظم المخاطبَ في إنكار الهوى في البيت السابق (أيحسب الصب)، ويستدل في هذا البيت على بطلان الإنكار.

الهوى: ١- اللام فيه للعهد الخارجي، والمعنى: لولا هواك. ٢- للجنس، والمعنى: لولا حقيقة الحب.

دمعا: التنوين فيه للتعظيم، و(طلل) للتحقير. قال ابن أبي السمط:

لَه حاجبٌ عن كُل أمْرٍ يَشِينه ۞ وَلَيسَ لَه عَن طَالِب العُرفِ حَاجِب

(الإيضاح في علوم البلاغة، ص ٤٩؛ روح المعاني ١٧٢/٢)

فالتنوين في (حاجب) للتعظيم في الشطر الأول، وللتحقير في الشطر الثاني.

ما لهم يبكون على الأطلال؟:

من وجوه الحب السائدة في العرب أنهم كانوا قومًا متنقلين من بلد إلى آخر، فإذا نزلوا بلدا أحبوا أهله، ثم نقلوا خيامهم إلى بلد آخر بعد مدة، فلايبقى إلا الأطلال، فيتوجه إليها العشاق ويبكون عليها، والغرض في البيت:

لم يبق النبي صلى الله عليه وسلم في الأمكنة التي سار إليها، فهي أطلاق وأنقاض، فالأمكنة وإن كانت قائمة إلا أنها بعد مغادرة الحبيب منها عادت خرابا وأطلالا، نحو: بدر وأحد، والحديبية وغيرها من الأمكنة.

المراد بـــ (على طلل)؟:

(١) بيوت مكة التي هاجر منها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة؛ فإن مكة كانت عامرة ما بقي النبي صلى الله عليه وسلم فيها، وعليه أقسم القرآن الكريم به: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝٢﴾ (البلد) ثم صارت خرابا بعد خروجه صلى الله عليه وسلم منها.

(٢) الأماكن التي نزل بها النبي صلى الله عليه وسلم، ثم غادرها، سواء في مكة أو المدينة المنورة، وسواء كان أماكن الحرب أو غيرها.

(٣) أنهك الحبُّ جسد المحبوب الضعيف، فهو أشبه شيء بالأطلال والخراب.

أحب البقاع؟:

قال الشاعر الفارسي:

گفت معشوقے بعاشقے کہ اے فتیٰ ❁ تو بہ غربت دیدہ ای بس شہرہا
پس کدامین شہر ز آنہا خوشتر است ❁ گفت آن شہرے کہ دروے دلبر است
ہر کجا تو بامنی خوش دلم ❁ گرچہ باشد قعرِ گور منزلم
بے تو جنت دوزخ است اے دل ربا ❁ با تو دوزخ جنت است اے جان فزا

(مثنوی مولاناروم، دفتر سوم، ص۷۲۳، پرسیدن معشوقے از عاشق)

(قال محبوب لمحبه: يا فتى، لقد طوفت الآفاق وتجولت في البلاد، ما أحب البلاد إليك؟ قال العاشق: البلد الذي فيه حبيبي، هو الأحب إلي. وحيث أنت معي لا أبالي حيث كنت، وإن كنت تحت الأرض).

على طلل: ١- (على) للتعليل، والمعنى: لأجل طلل، وهذا المعنى هو المتبادر.

٢- (على) بمعنى (في) أي نسكب الدموع في أطلالك، وذلك إذا سار المؤلف إليه وبكى.

لذكر البان: ١- أي لأجل ذكرك البان. ٢- لوقت ذكرك البان. فاللام بمعنى

الوقت حينا، نحو قوله قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ﴾ (الإسراء: ٧٨)

ما المراد بالبان؟:

١- شجرة من أشجار البان.

٢- شجرة بان بعينها قرب مكة المكرمة، كان النبي صلى الله عليه وسلم ينــزل تحتها، ويتحدث إلى أصحابه.

فهو مجاز، أي أطلق المحل (البان) وأريد به الحال (النازل تحتها).

٣- كل شجرة طويلة ذات رائحة طيبة (أي: أعم من أن تكون بانا، أو غيره).

المراد بالعلَم ؟:

١- جبل من جبال مكة المكرمة، وقيل: هو جبل أبي قبيس، وقيل: جبل إضم، الذي سبق ذكره في البيت رقم ٢، وقيل: الجبل الذي كان فيه غار النبي صلى الله عليه وسلم. وعلى كل (العلم) مجاز مرسل، أطلق المحل وأريد به الحالّ.

٢- قيل: البان والعلم ليسا على حقيقتهما، وإنما المقصود التشبيه.

أي شبه المحبوب بالبان والعلم، و وجه الشبه: الحسن، والجمال وطول القامة.

لِم حصل الأرق؟:

وحصل الأرق بذكر البان والعلم؛ لأن النوم سببه الرطوبات في الغالب، والرطوبات تنشأ عن الطعام والشراب عامة، والعاشق لايجد فرصة للطعام والشراب، فلا رطوبات ولا نوم. ففي بدنه حرارة، وخاصة إذا تذكر عهد المحبوب، أو تذكر المحبوب برؤية ما يشبه المحبوب، فإن الحرارة تزداد وترتفع.

وعلى كل ذكر المؤلف في هذا البيت الدلائل التي نشأت عنها المحبة:

١- إراقة الدمع على طلل. ٢- السهر في الليالي لذكر البان.

معنى البيت:

تذرف الدموع بذكر أماكن النبي صلى الله عليه وسلم، ولا تستطيع النوم لأجل البان والجبل الذي أوى إليه الرسول صلى الله عليه وسلم، وهما من أدلة المحبة، ولو لا المحبة لما فعلتَ ما فعلتَ.

وذهب بعض أهل العلم إلى أن هذا البيت يؤمي إلى شعر مجنون ليلى:

أمرُّ عَلَى الدّيارِ دِيارِ لَيلَى ۞ أُقبّلُ ذَا الجدارَ وَذَا الْجدَارَا

وَمَا حُبُّ الدّيارِ شَغَفْنَ قَلْبِيْ ۞ وَلكِنْ حُبُّ مَنْ سَكَنَ الدِّيارَا

(ديوان مجنون ليلى، ص ١٢٧؛ شرح عدنان ذكي درويش، ط: دارصادر، بيروت؛ تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق، ص٢١ للشيخ داود بن عمر الأنطاكي (م:١٠٠٨هـ) فصل فيما ذكرت له من العلامات)

يبكي العلامة البوصيري لذكر هذه الأمكنة، والمقصود المنشود هو الشخص الذي يسكن في هذه الأماكن.

يقول الشاعر الأردي:

نیند بھی فرقت میں کھا بیٹھی ہے آنے کی قسم

خواب میں بھی دیکھنے کا آسرا جاتا رہا

(لقد أقسم النوم أن يأتيني في الفرقة، فقدت الأمل في زيارته في المنام.)

ويقول:

نیند بھی موت بن گئی ہے عدمؔ ۞ بے وفا رات بھر نہیں آتی

(أصبح النوم موتا، لا يأتيني ذلك الفاقد الوفاء طوال الليل.)

ويقول:

اے محوِ انتظار! سحر کی دعا نہ مانگ ۞ کچھ اور درد مانگ خدا سے دوا نہ مانگ

(يا أيها الغارق في الانتظار، حذارِ أن تدعو بالسحر، اطلب مزيدا من القلق، وحذارِ أن تدعو الله بالدواء.)

ويقول:

پھر وہی شام وہی صبح وہی تنہائی ہے ۞ دل کے بہلانے تیری یاد چلی آئی ہے

(هو المساء، وهو الصبح وهي الفرقة، جاءت ذكراك تسلية لنفسي.)

ويقول:

دردِ دل درد آشنا جانے ۞ درد! بے درد درد کیا جانے

(لايدرك وجع القلب إلا من ذاق مرارته، يا وجع، كيف يدرك الوجع من لم يُبتَلَ به)

ويقول:

گو میں رہا رہینِ ستمہائے روزگار ۞ لیکن تیرے خیال سے غافل نہیں رہا

(وإن أحدثت بي أحداث الدهر، ولكن لم أغفل عن تصورك.)

ويقول الشاعر الفارسي:

دوا مخر عبث از بہرِ من طبیب برو ۞ کہ دردِ یار خرد ہر کہ دردیارِ من است

(لا تتناول الدواء من غير حاجة إليه، وخذني إلى الطبيب؛ لأن من في دياري يشتري الأوجاع والأمراض اللاحقة لحب الحبيب)

البلاغة:

١- في (لم ترق) التفات من الغائب إلى الحاضر، فالبيت السابق (أيحسب الصب) غائب، وفي هذا البيت (لم ترق) حاضر.

٢- أطلق (العلم) وأراد به (مَن على العلم)، فهو مجاز مرسل، حيث أطلق المحل وأريد به الحال.

ملحوظة:

ذكر المؤلف في تدريسه لهذا البيت كثيرا من الأمثلة على محبة الصحابة للنبي صلى الله عليه وسلم، سيأتي تفصيله لاحقا، منها: تقبيل أحد التابعين يد الصحابي سلمة بن الأكوع رضي الله عنه، وإعادة عمر رضي الله عنه الميزاب، وحفظ أم سلمة رضي الله عنه مكان السقاء، ومنح الماء الذي فيه شعر رسول الله صلى الله عليه وسلم للمرضى، ونحو ذلك.

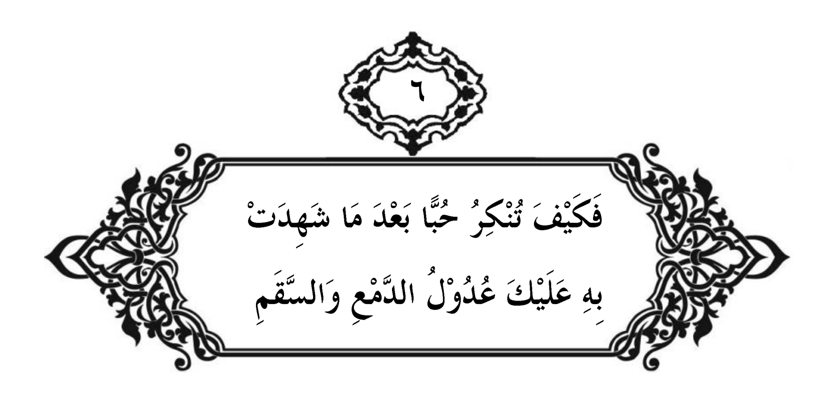
بيت ملحق:

البيت الآتي لا يوجد في معظم نسخ قصيدة البردة، ذكره العلامة ابن علان الصديقي (ت:١٠٥٧هـــ) في شرحه: «الذخر والعدة في شرح البردة»، وهذا البيت هو:

وَلاَ أَعارتْك لَونَي عَبرَة وضَنًى ۞ ذِكرَ الخِيامِ وذِكرَى ساكِني الخِيَمِ

هذا البيت يذكر أدلة أخرى على وجود الحب، وهو استمرار الدموع في السيلان، وضعف الجسد، وهما من أدلة الحب.

****



اللغة:

فكيف: الفاء فصيحة، والتقدير: (إذا قامت عليك الأدلة) فكيف تنكر حبا؟

أو: (إذا دلت الأدلة على الحب) فيكف تنكر؟

معاني «كيف» وقواعدها:

١- للتعجب: أي ما أعجب أن تنكر الحب رغم قيام الأدلة الواضحة عليه!

٢- للإنكار التوبيخي: أي ليس لك أن تنكر الحب، ما أقبح ذلك!

إطلاقات «كيف»:

١- إذا تقدمت (كيف) على اسم، كانت خبرا مقدما في محل الرفع، نحو: كيف زيد؟

٢- إذا كانت شرطا، وقع بعدها فعلان، متفق معنى ولفظا، نحو: كيف تصنع أصنع، فلا يصح: كيف تجلس أذهب.

٣- فإن تقدمت على جملة فعلية، كانت حالا أو مفعولا مطلقا، منصوبة محلا، نحو:كيف جاء زيد؟

و(كيف) تأتي لمعان كثيرة:

١- للاستفهام: وهو أصل معناها، نحو: كيف حالك؟

٢- للتعجب: نحو: كيف حمل هذا الصبيُّ الحجرَ! وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ (البقرة: ٢٨)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ (البقرة: ٢٥٩)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ

لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ ﴾ (المائدة: ٧٥)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ (القمر: ١٦)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ﴾ (المائدة: ٤٣)

٣- للاستبعاد: نحو قول الكفار:

يُحَدِّثنَا الرَّسُولُ بِأنْ سَنُحْيَى ۞ وَكَيْفَ حَيَاةُ أصْدَاءٍ وَهَام

(صحيح البخاري، رقم:٣٩٢١، باب هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه)

٤- للتوبيخ، نحو قوله تَعَالَىٰ: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (الصافات: ١٥٤)

٥- للاستعظام، أي: عد الأمر عظيما جدا.

تُنْكِر: أنكر (إفعال): عدم التسليم، وهو هنا بمعنى (تجحد)، أي الرفض عن قصد وعمد. ومنه قوله تَعَالَىٰ: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ (النحل: ٨٣)، وقوله تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ (الرعد: ٣٦)

نَكِرَ الشيء (س): لم يعرفه، واستغربه. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ (هود: ٧٠)

نَكَّرَ الشيء: تبديل الشيء بحيث لا يعرف، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا ﴾ (النمل:٤١)

المنكر والنكير: ملكان يسألان الميت في القبر، سميا بذلك؛ لأن الميت لا يعرفهما.

حبًا: التنوين للتعظيم، (بعد) ظرف، و(ما) مصدرية.

شَهِدت: شَهِد (س) بالشيء/ على الشيء شهادةً: الإخبار الجازم بالشيء. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ﴾ (النساء: ١٦٦)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران: ٥٢)

وقد تستعمل بغير صلة، نحو قوله تَعَالَىٰ: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ (يوسف: ٢٦)

أيسر تعريف للشهادة: خبر صادق للغير على الغير.

شَهِدَ الشيءَ: رآه، حضره، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ (البقرة: ١٨٥)

عليك: ضدك.

عدول: ١- مفرده عادل، ٢- مفرده: عدل.

إيراد: العدل مصدر، والمصدر لا يثنى ولا يجمع، فكيف جمع العدل على العدول؟

الجواب: هذا الضابط خاص بما إذا كان المصدر على حقيقته، وهنا تغيرت حقيقة العدل، إذ نقل من الوصف إلى الذات، فصح جمعه على العدول.

والرجل المنصف يطلق عليه العدل؛ لأنه ذو عدل، فـ (ذو) محذوفة. أو العدل مبالغة في العدل، أي أنه عدل كله.

عَدَلَ (ض) في حكمه: أنصف في الحكم، قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (المائدة: ٨)

عَدِلَ (س) ظلم، عدَلَ بالله: أشرك معه، قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (الأنعام: ١)

عَدَلَ فلانا بفلانٍ: سواه بغيره.

في الحديث: عن أبي الدرداء رضي الله عنه: «قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن». (صحيح مسلم، رقم: ٨١١. صحيح مسلم، رقم: ٥٠١٣)

وفي حديث آخر: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من صلى بعد المغرب ست ركعات لم يتكلم فيما بينهن بسوء عدلن بعبادة ثنتي عشرة سنة». (سنن الترمذي، رقم: ٤٣٥. سنن ابن ماجه، رقم: ١١٦٧)

عَدُلَ (ك): أنصف.

عادل الشيء: سوى، واعتدل: توسط بين حالين.

شرح موجز لست خصال في الآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ...﴾:

العدل: له معانٍ كثيرة:

(١) الإنصاف: قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٩٠)

هذه الآية جامعة، جمع الله فيها خير الكون كله في ست خصال، ولك أن تسمي الخصال الثلاث الأول «منجيات» والثلاث الأخرى «مهلكات». والمنجيات له ثلاثة مبادئ، يؤدي بالمرء –إذا عمل بها– إلى الجنة، و المهلكات تقوم على ثلاثة مبادئ يعرض

ارتكابها المرء للنار.

المنجيات الثلاث:

مبادئ المنجيات الثلاث التي تكمن فيها النجاة هي: ١- العبادة، ٢- المعاملات، ٣- المعاشرة، و تضم الأخلاق أيضا، أي المعاشرة والأخلاق. فالمطلوب إصلاح العبادات والمعاملات والمعاشرة جميعا؛ غير أن عامة الناس وخاصتهم قد ابتلوا بفساد المعاملات أكثر، فقدم إصلاح المعاملات على غيرها في الذكر. وإصلاح العبادات يكمن في الإحسان، وإصلاح المعاشرة يكمن في إيتاء ذوي القربى. وإصلاح المعاملات يكمن في العدل، أي أنصفوا في المعاملات.

والعمل بالعبادات يشير إليه «الإحسان»، والعبادة على أربعة أقسام: ١- عبادة القلب، ٢- عبادة اللسان، ٣- عبادة البدن، ٤- عبادة المال. ولك أن تقول - بعبارة مختصرة-: العبادة القلبية، والعبادة القولية، والعبادة البدنية، والعبادة المالية. ومعنى العبادة الإحسانية أن تؤدي العبادة على أحسن وجه، وفسر حديث جبرئيل الإحسان بـــ (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك).

فإذا نسبنا الإحسان إلى الخلق -بدلا من العبادة - شمل الإحسان إلى الخلق كلهم، بما فيهم المسلم وغيره، والإنسان والحيوان كلهم.

الخصلة الثانية: المعاملات. وإصلاح المعاملات كامن في العمل بالقانون، فعامل رسول الله صلى الله عليه وسلم العباسَ معاملته غيره من الأسرى في وقعة بدر؛ بل أخذ منه مئة أوقية ذهبا: عشرين أوقية عنه، وعشرين أوقية عن نوفل، وعشرين أوقية عن عقيل، وعشرين أوقية عن مولى للعباس، وعشرين أوقية عن ذبحه الإبل للكفار. فلو كان أحد مكانه صلى الله عليه وسلم لسن قانونا استثنائيا يخص عمه، ولكنه عدل بينهم، فعاملهم معاملته عمه العباس. وهو العدل.

والقانون الإسلامي يقول: ليعط المرء فضل شرابه مَن هو على يمينه، وذات مرة كان على يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم أعرابي، وعلى يساره أبو بكر رضي الله عنه، فاستأذن النبي صلى الله عليه وسلم الأعرابيَ بأن يعطي أبا بكر فضله، فأبى، فأعطى الأعرابي القعب.

خاصم عليٌّ رجلا إلى شريح، فشهد لعلي الحسنُ بن علي ومولاه قنبر، فرد شريح شهادة الحسن بن علي، وقبل شهادة مولاه قنبر، ولم يقبل شهادة الحسن بن علي- وهو من أهل الجنة-؛ لأن شهادة الولد لوالده لا تُقبل.

أعتقت بريرة، فكان لها الخيار في البقاء مع زوجها مغيث، ومفارقتها له، وكان مغيث قلقا على فراقها، وطلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يشفع له إلى بريرة، فقالت: يا رسول الله تأمرني أو تشفع؟ قال: «إنما أنا أشفع»، قالت: لا حاجة لي فيه، ولي الخيار في مخالفته. بما أن الشفاعة لايلزم قبولها شرعا، لم يغضب عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإطلاق. وهذا هو العدل.

أسلم ملك غسان على عهد عمر رضي الله عنه، فطاف بالبيت فوطئ رجل من الأعراب إزاراه عن خطإ، فغضب غضبا شديدا، فلطم الأعرابي لطمة، فأقبل الأعرابي إلى عمر مستعيا على ملك غسان، فأمر عمر باحضاره وقال: فإما أن يعفو عنك وإما أن آخذ له منك القصاص. فاشتاط ملك غسان غضبا، على أن يقتص منه لأعرابي، فارتد ثم ندم وقال:

تنصرت بعد الحق عارا للطمة ۞ ولم يك فيها لو صبرت لها ضرر
فأدركني فيها لجاج حمية ۞ فبعت لها العين الصحيحة بالعور
فيا ليت أمي لم تلدني وليتني ۞ صبرت على القول الذي قاله عمر

وشفع إلى النبي صلى الله عليه وسلم في التخفيف عن حد السرقة، فغضب النبي صلى الله عليه وسلم حتى احمر وجهه، وقال: «أتشفع في حد من حدود الله، ولو أن فاطمة بنت محمد سرقت- أعاذها الله منها- لقطعتها». أي أنه يجب المساواة في الشؤون القانونية بين الناس.

الخصلة الثالثة من المنجيات: المعاشرة والأخلاق، التي أشار إليه (ذي القربى) — قرابة من نسب أوجوار- والمعاشرة وهي سليقة عيش الحياة والتمسك بالأخلاق فيها، وهو ما يسميه علم الفلسفة أو مصطلح الطبيعيات بالحكمة العملية. وهي على ثلاثة أقسام:

١-تهذيب الأخلاق، ٢-تدبير المنـــزل، ٣- السياسة المدنية. فتهذيب الأخلاق عبارة عن تصفية الأخلاق، كيلا يتأذى الأقارب بصفة خاصة، ومن يخالطهم بصفة عامة.

وهو يعم الصبر والشكر ونحوهما. وتدبير المنــزل هو إحسان السلوك مع من يعايشهم. والسياسة المدنية هي إحسان المحكوم سلوكه مع الحاكم، وإحسان الحاكم سلوكه مع المحكوم. والتفصيل في ذلك يتطلب كتابا بمفرده.

المهلكات الثلاث:

المنهيات والمهلكات كذلك على ثلاثة أقسام: ١- العادات الشهوانية، ٢- العادات النفسانية، ٣- العادات الغضبية السبعية. وقد يطلق على هذه الثلاث «العادات الشيطانية»؛ لأن الشيطان يقوم عليها. والفحشاء إشارة إلى الصفات الشهوانية- القبيح من الأعمال، ومقدماته-. ولنا أن نطلق على العادات النفسانية «كسل النفس». وهذا الكسل يفوِّت كثيرا من الأحكام الشرعية. ويغفل كثير من الناس عما يجب عليهم من الوظائف. وأما العادات الغضبية السبعية فيحمل كثيرا من الناس — بل أصحاب السلطات- على ممارسة الظلم والاعتداء والولوغ فيهما من غير مبرر.

(٢) المعنى الآخر للعدل هو والنظير والمماثل، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦ﴾ (المائدة: ٩٥)

(٣) الفدية: ومنه قوله تَعَالَى: ﴿وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ﴾ (البقرة: ٤٨)

(٤) العدل: رجل عدل أو امرأة عدل.

(٥) اسم من أسماء الله تعالى.(سنن الترمذي، رقم:٣٥٠٧، بعد باب عقد التسبيح باليد بعشرة أبواب).

العادل: من اجتنب الكبائر، و لم يصر على الصغائر.

الدمع: مر تحقيقه في البيت رقم : ١.

السَّقَم: مرض القلب، المرض الطويل، سَقِمَ (س) سَقَمًا: مرض، أصيب بمرض طويل.

السقيم: المريض. كلام سقيم: كلام لغو.

الإعراب:

كيف: حال من الفاعل. (بعد): ظرف متعلق بـــ (تنكر).

ما شهدت به عليك:

(١) ما: مصدرية، (به) أي بالحب، تقديره: بعد شهادة الدمع والسقم.

(٢) ما: موصولة، بمعنى (الذي)، الضمير في (به) يعود إلى (ما)، وجملة (شهدت به عليك) صلة، وتقديرها: بعد الذي شهدت به عليك.

تعلق (به) و(عليك) بـــ(شهدت).

السقم: اللام عوض عن المضاف إليه، يعني: سقم القلب.

شرح البيت:

استمر المخاطب على إنكار الحب رغم قيام الأدلة عليه، فشدد الناظم النكير عليه، وقال: كيف تنكر حبا.

سؤال: ما سبب جمع العدول في قوله: عدول الدمع والسقم، مع أن الشهود اثنان: الدمع والسقم؟

الجواب: ١- جمعها تعظيمًا. وقد يطلق الجمع على المفرد. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر: ٩)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴾ (الذاريات: ٤٨)

٢- أقل الجمع اثنان.

وفي الحديث: عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اثنان فما فوقهما جماعة».(سنن ابن ماجه، رقم:٩٧٢، باب الاثنان جماعة)

أطلقت عائشة رضي الله عنها للنبي صلى الله عليه وسلم صيغة الجمع تعظيما له. روى مسلم في صحيحه: «فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عائشة، قال: هل عندكم من شيء؟ قالت: لا إلا نسيبة، بعثت إلينا من الشاة التي بعثتم بها إلينا».(صحيح مسلم، رقم:١٠٧٦،باب إباحة الهدية للنبي صلى الله عليه وسلم)

٣- باعتبار أفراد الجمع، أي كثرت الدموع والأسقام.

عدول الدمع:

(١) عدول: مضاف، والدمع: مضاف إليه، والإضافة بيانية، نحو: قول الزور، وريب المنون، وحبل الوريد، وجزاء الحسنى.

المعنى: الشهود العدول، وهما: الدمع والسقم.

(٢) أو الإضافة من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي: الدموع والأسقام العادلة.

معنى البيت:

أبيت الحب، أني لست عاشقا للرسول، فتم تقديمك إلى محكمة الحب، وشهد عليك أمام القاضي الدمع والسقم، فكيف تنكر الحب؟

إيراد: كيف وصف عشق الرسول صلى الله عليه وسلم بالمرض؟ فإنه على ذروة الكمال والصحة؟

الجواب: ١- ليس المرض الروحاني، وإنما يشبه الضعف الجسدي والضنى المرضَ.

٢-المراد بالمرض: القلق على وصال المحبوب، فمريض العشق قلق على لقاء المحبوب.

قال العلامة الخربوتي رحمه الله-: إن ستة عشر من أبيات قصيدة البردة، اهتز لها النبي صلى الله عليه وسلم حين سمعها، أولها هذا البيت.

(على) للضرر، قال الشاعر:

قد أصبحت أم الخيار تدعي ۞ علي ذنبا كله لم أصنع

إيراد: كيف تضر علامة الحب؟

الجواب: إن العاشق يكره إظهار عشقه، بل ينكره بشدة، فظهور العشق يشبه سببا لإضراره.

البلاغة:

شهدت: فيه استعارة تصريحية تبعية ترشيحية.

الاستعارة التصريحية: ما صُرِّح فيه بالمشبه به.

التبعية: ماكان المستعار فيه اسما مشتقا أو فعلا.

المرشحة: ما ذكر فيها مناسب من مناسبات المشبه به.

دلالة الدمع والسقم: مشبه، والشهادة بشيء: مشبه به.

وجه الشبه: كلاهما واضح في الإظهار والبيان، والمشبه به مذكور، فالاستعارة تصريحية.

شهدت: فعل، غير جامد، فكانت الاستعارة تبعية، والعدول: مناسب للمشبه به، فكانت مرشحة.

(٢) وقيل: شهدت: استعارة مكنية.

الاستعارة المكنية: ما حذف فيه المشبه به.

الدمع والسقم: شاهدان أمام القاضي: مشبه به، ووجه الشبه: إظهار الحق وبيانه.

ثم حذف المشبه به، وذكر ما يناسبه وهو (شهدت)، فكانت الاستعارة مكنية.

(٣) الإنكار والشهادة والعدل فيها: مراعاة النظير في البيت.

تعريف مراعاة النظير:

هي أن يجمع في الكلام بين أمرين، أو أمور متناسبة، لا بالتضاد، فالجمع بين أمرين كقوله تَعَالَىٰ: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ (الرحمن: ٥)

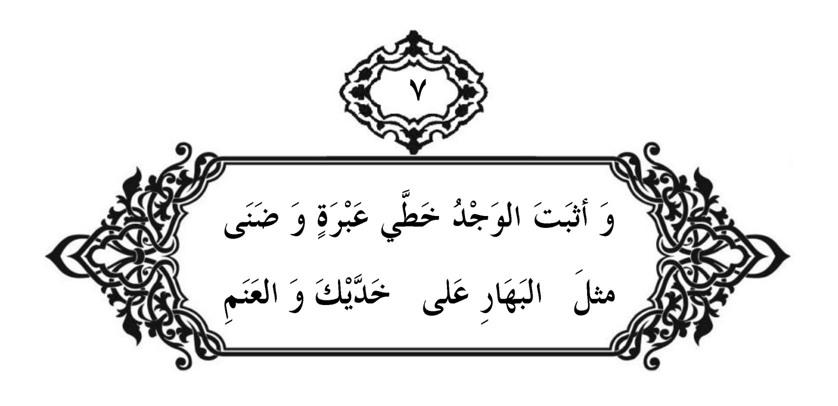
ومثال الجمع بين أكثر من اثنين، قوله تَعَالَىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ (البقرة: ١٦)

(٤) من أقسام الفصاحة والبلاغة أن يعقب الشيء بدليله، نحو قوله تَعَالَىٰ: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا﴾ (البقرة: ٢٨)

أبطل المصنف الإنكار، ثم ذكر دليله: شهدت به عليك...الخ.

انتهى، وصلى الله عليه وعلى آله وأصحابه.

****



اللغة:

أثبتَ الأمر: كتبه، وأوضحه، وهو المراد هنا.

أثبت الشيء: أقره، قال تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ (الرعد: ٣٩)

ثَبَتَ (ن) ثَبَاتًا وثُبوتا: استقر، وظهر.

ثَبَّتَ: أثبت وأوضح، رسخ قدمه، وفي التَّنزيل العزيز: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ (إبراهيم: ٢٧)

ثَبتُ المحدث: الدفتر الذي يجمع فيه المحدث أسماء شيوخ ومروياته.

الوجد: ١- الحب المفرط، ٢- غم العشق، وهو المراد في البيت: الأحزان القلبية والحالات العشقية.

قال عمرو بن كلثوم:

فَمَا وَجَدَت كَوَجدي أُمُّ سَقبٍ ۞ أَضَلَّتهُ فَرَجَّعَتِ الْحَنينا

وَلا شَمْطاءُ لَم يَترُك شَقاها ۞ لَها مِن تِسعَةٍ إَلاَّ جَنينًا

(السبع المعلقات، ديوان عمرو بن كلثوم)

(وجد) له معانٍ مختلفة: وهو مستعمل في هذه المعاني كلها.

وَجَدَ (ض) وِجدانا: أدركه، في الحديث: «أيها الناشد غيرُك الواجد».(مصنف عبد الرزاق، رقم:١٧٢٢، باب إنشاد الضالة في المسجد)

وَجَدَ (ض) وَجْدًا: حزن.

قال عمر رضي الله عنه: «كنت أوجد عليه مني على عثمان». أي: أهمني موقف أبي

بكر أكثر مما أهمني موقف عثمان، حيث لم يرد –أبوبكر– علي. (صحيح البخاري، رقم:٥١٢٢)

وَجَدَ به (ض) وَجْدًا: عشق.

وَجَدَ (ض) جِدَةً: غني، وفي الحديث: «لَيُّ الواجِد يُحِلُّ عِرضَه وعُقوبتَه».(سنن أبي داود، رقم:٣٦٢٨)

وجد (ض) علي مَوجِدةً: غضب.

قدم ضمام بن ثعلبة على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: «إني سائلك فمشدد عليك في المسألة، فلا تجد علي».(صحيح البخاري، رقم:٦٣).

قال جابر رضي الله عنه: «فقلت في نفسي: لعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وجد علي أني أبطأت عليه».(صحيح البخاري، رقم:١٢١٧، باب لا يرد السلام في الصلاة)

وَجَدَ (ض) وِجَادةً: أخذ صحيفَة شيخ بإذنه.

أوجدَ: أحدثه، وأغناه، يقول العرب: «الحمد لله الذي أوجدني بعد فقر».

الواجد: اسم من أسماء الله تعالى، أي الغني الذي لا يفلس أبدا.

الوجد: سعة في المال، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾ (الطلاق: ٦)

خطي: مثنى خط.

خَطَّ (ن): تركيب الألفاظ بحروف الهجاء، عمل الخط.

الخط: ١– الرسم، ٢– الكتابة، ٣– عند الحكماء: ماله طول فقط، أو: ما ينتهي بالنقطة، أو: ما يقبل الانقسام طولا لا عرضا ولا عمقا.

وفي الحديث: «خط النبي صلى الله عليه وسلم خطوطا، فقال: هذا الأمل، وهذا الأجل». (صحيح البخاري، رقم:٦٤١٨)

عَبَرَة: التنوين للتكثير، والعبرة: الماء الجاري من العين.

عَبرَ (س) عبرًا: جريان الدموع.

وفي حديث أم زرع: «عبر جارتها» بدلا من «غيظ جارتها».(فتح الباري ٩/٢٧٠)

معنى الحديث: تبكي جارة ابنة أبي زرع لرؤية حسنها وجماله غبطةً بها: إذا كان من العَبرَة. أو: تعتبر جارة ابنة أبي زرع بعفتها ونزاهتها: إذا كان من (العِبرة).

عَبَرَ (ن) عَبرًا: ١- مضى، وفي الحديث: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابري سبيل». (صحيح البخاري، رقم:٦٤١٦)

سمي الدم عبرة؛ لأنها لا تستقر في العين، بل تعبرها، كأنها عابرة سبيل.

٢- تأويل الرؤيا، وفي التنْزيل العزيز: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ (يوسف: ٤٣)

عبَّر عما في نفسه: أعرب عما في نفسه.

اعتبربه: اتعظ به. وفي القرآن الكريم: ﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ (الحشر: ٢)، أي قيسوا حالتكم بأحوالهم، فإنها قد تعبره إليكم.

اعتبر فلانا عالما: عده عالما.

ضني: الضعف اللاحق لأجل المحبة مع صفرة الوجه.

ضَنِيَ يَضنى ضَنًى(س) أنحفه المرض.

ضنًى، وضَنٍ: صفة، أضنى الرجل: نحف كثيرا، صار لا عيال له، مَن ضُرِبَ الحد بشمراخ فيه مئة غصن، ومنه في الحديث: «اشتكى رجل منهم حتى أُضْنِي».(سنن أبي داود، رقم:٤٤٧٢)

وفي الطبراني: عن أبي عنبة الخولاني رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا أراد الله بعبد خيرا ابتلاه، وإذا ابتلاه أضناه». قال: يارسول الله، ما أضناه؟ قال: «لا يترك له أهلا ولا مالا».(مجمع الزوائد٣/١١)

مثل: الشبيه، والنظير، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ (الشورى: ١١)

البَهار: ١-الحسن والجمال، ٢- زهرة ذات رائحة طيبة، طلعها أصفر، تخرج في الربيع. و يقال لها: عرارة، وعين البقر. ٣- قيل: البهار هو النرجس.

البُهار (بالضم): له معانٍ كثيرة، أشهرها: وزن يعدل ثلاث مئة رطل، قال عمرو بن العاص رضي الله عنه: «حُدثت أن طلحة بن عبيد الله ترك مئة بُهار، في كل بُهار ثلاث قناطر ذهب».(الطبقات الكبرى ٣/٢٢، طلحة بن عبيد الله، ط: دار صادر، بيروت)

بَهَرَ (ف) بَهْرًا: ١- ملأ الإناء، ٢- شخص البصر. وبهذا المعنى ورد في الحديث.

روى أبو داود وابن ماجه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا أبا ذر...كيف

أنت...، فإن خشيت أن يبهرك شعاع السيف فألق ثوبك على وجهك». (سنن أبي داود، رقم:٤٢٦١. سنن ابن ماجه، رقم: ٣٩٥٨)

على خديك: مثنى: خد، سقطت النون للإضافة.

خد: جَانب الْوَجْه، يجمع على(خدود) و(خداد).

خَدَّ: (ن): حفر الأرض، والأخدود: المكان المخدود، أي الخندق.

العنم: له معانٍ عدة: والمعنى الشهير الذي لا خلاف فيه: شجر أحمر لين الأغصان، ضرب من شجر الأراك، يستخرج منه الصبغ، يُشَبَّه به بنان الجواري. واحده: عنمة، ويجمع على: عنم.

وذكروا له معاني أخرى لم يتفق عليها علماء اللغة، منها:

١- ضرب من الوزغ، ٢- شوك الطلح: قال الأزهري: تفسير العنم بهذين المعنيين غير صحيح. ٣- ثوب أحمر، ٤- شجرة لها ثمرة حمراء.

والمعنى الذي لا غبار عليه هو المعنى الأول. وكثيرا من أطلقه شعراء العرب بهذا المعنى، ويشبهون أنامل المرأة به عامة، قال الشاعر:

وَإذا ما صَافحتْني صَافَحَت ۞ بِبَنانات كأطراف العَنَم

وقال الشيخ رفاء بن أحمد السري وهو يذكر أهل العراق:

تَخضِبُ بِالرَّاحِ شَيْبَه عَبَثًا ۞ أنامل مثل حمرة العنم

وقيل:هو الزيتون، ويؤيده حديث أبي نعيم:

عن أبي زيد الغافقي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الأسوكة ثلاثة: أراك، فإن لم يكن أراك فعنم، أو بطم». قال أبو وهب: العنم: الزيتون. (معرفة الصحابة لأبي نعيم، رقم:٦٨١١، ترجمة أبي زيد الغافقي رضي الله عنه)

الإعراب:

وأثبت الوجد: عطف على قوله في البيت السابق: (بعد ما شهدت)، والتقدير: بعد ما شهدت وبعد ما أثبت الوجد...

أثبت الوجد خطي عبرة: أثبت: فعل، والوجدُ: فاعل، وخطي عبرة وضنى: مفعول به.

مثلَ البهار: ١- نعت لـــ (خطي عبرة وضنى)، أو حال منه. ٢- أثبت بمعنى (جعل)، فقوله (خطي عبرة وضنى) مفعول أول، ومثلَ البهار: مفعول ثانٍ.

(على خديك) جار ومجرور، متعلق بـــ (أثبت)، أي حال كون هذين الخطين على خدك.

وضنى: عطف على (عبرة)، والمعنى: خط الغم خطي عبرة وأثبت ضنى. وحينئذ الخطان ناشئان عن البكاء. والمعنى: إن البكاء خطَّ خطي بكاء على خديك، وأظهر الضعف والضنى.

شرح البيت:

بين هذا البيت والبيت السابق مناسبة تامة، كأنه يريد أن يقول: تأييدا وإكمالا لشهادة الدمع والسقم سجل قاضي الوجد قراره ضدك، وخطَّ خطًّا يثبت أنك عاشق. كما أن القاضي يسجل الشهادة حين يقبلها.

وجه التشبيه بالبهار والعنم:

يصفر الوجه لأجل المرض والضنى، لأن الدم يقل في الجسد، فشبه الناظم صفرة الوجه بلون الزهر، وهذا التشبيه يقتصر على اللون الأصفر، وليس القصد التشبيه في الحجم. كما أنه شبه الخد بحمرة الشجرة،كأن البكاء المتواصل جرح الخد، وحمَّره، أو أنه احمر لاختلاط الدم والدمع.

ما المراد بالخطين؟:

١- أثبت الوجد خطي عبرة وأثبت ضنى على خديك: فالمعنى: الخطان نشآ عن البكاء. ومعنى الضنى أنه كما أثبت خطين، كذلك أثبت الضعف وأظهره.

٢- أثبت الوجد خط عبرة وخط ضنى: أي أن الخط الأول لأجل البكاء، والخط الثاني لأجل الضعف.

قال الملا علي القاري: الوجه الأول أحسن، لأن الخطين إذًا ناشئان عن البكاء.

وقوله: (مثل البهار والعنم) و(خطي عبرة وضنى) صفة للمعطوف والمعطوف عليه.

نسب الناظم اصفرار الوجه، وحدوث الخط الأحمر إلى الغم، فإنه-الغم- هو السبب القريب. والقلق والمرض والبكاء؛ كل أولئك ناشئ عن الحزن. والحب سبب هذه

الأشياء البعيدة؛ لأن الحب ينشأ عنه الحزن، والحزن ينشأ عنه هذه العوارض والكيفيات.

معنى البيت:

معنى البيت: تبدو معالم البكاء -الناشئ عن حزن الحب- والضعف جليا على وجهك. و تجلت عدالة شاهدين عدلين بالحب. فرسخت معالمها على وجهك.

فكيف تنكر رغم هذه الكيفية؟ فكأنك صدر في حقك قرار المحكمة العالية، وقرار المحكمة العليا. فيكف يسعك إنكاره؟

البلاغة:

أثبت الوجد: مجاز عقلي، والخطوط ناشئة عن البكاء، والحزن سبب البكاء، فنسب خط الخطوط إلى الحزن.

خطي عبرة وضنى مثل البهار: فيه تشبيه مرسل مجمل.

التشبيه المرسل: ما ذكر فيه أداة التشبيه.

المجمل: ما حذف منه وجه الشبه.

وفي البيت: (عبرة) مشبه، و(عنم) مشبه به، و(مثل) أداة تشبيه، و لم يذكر وجه الشبه وهو الحمرة.

وقس عليه (ضنى)، فهو مشبه، و(بهار) مشبه به، و(مثل) أداة تشبيه، وحذف وجه الشبه وهو الصفرة. وفي البيت لف ونشر مشوش.

اللف والنشر وأقسامه:

اللف والنشر: أن يذكر عدة أشياء مجملة أولا، ثم يذكر لكل واحد منها ما يناسبه، وهو على قسمين:

١- مرتب: أن يفصل على الترتيب في الإجمال.

٢- غير مرتب (مشوش): أن يقدم في التفصيل ما أخره في الإجمال، وأن يؤخر في التفصيل ما قدمه في الإجمال.

وقال بعض أهل العلم: اللف والنشر المرتب أحسن؛ لبقاء الترتيب، وقال آخرون: المشوش أحسن؛ لأنه اتصل إجمال بتفصيل على أقل تقدير.

أمثلة على اللف والنشر المرتب:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ۝١٠٥ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۝١٠٦ ... وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ (هود: ١٠٥ – ١٠٨)، وقَالَ تَعَالَى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ ﴾ (الحاقة)

اللف والنشر المشوش: قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۝١٠٦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١٠٧ ﴾ (آل عمران: ١٠٦ – ١٠٧)

وفي البيت: لف ونشر مشوش.

مثل البهار: متعلق بـــ (ضنى)، و(مثل العنم) متعلق بـــ (عبرة).

انتهى، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

****



اللغة:

نعم: لتصديق الإثبات والنفي.

فإن سبقها إثبات صدَّقَت (نعم) بالإثبات، وإن سبقه نفي، صدَّقَت (نعم) النفي.

نعم: لها معانٍ عدة:

١- تصديق الخبر، نحو لو قال: قام زيد؟ فقال الآخر: نعم.

٢- للإخبار في الجواب عن استفهام السائل، نحو: هل صليت؟ فقال في جوابه: نعم، أي: صليت.

٣- للوعد بعد الأمر أو النهي، نحو: ائت بالماء، فقال في جوابه: نعم.

و(نعم) في البيت من النوع الثاني.

الفرق بين نعم وبلى:

بلى: تجعل المنفي مثبتا، ولا تأتي إلا في جواب النفي.

بلى: ليست لتصديق ما قبلها؛ بل تحول النفي مثبتًا إذا سبقها.

نحو قوله تَعَالَىٰ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ (الأعراف: ١٧٢)، وقوله تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ﴾ (البقرة: ٢٦٠)، وقوله تَعَالَىٰ: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ (الأحقاف: ٣٤)،

نعم: لتصديق ما قبلها نفيا كان أو إثباتا. فلا يصح الجواب بـــ (نعم) لقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾، لأن (نعم) يصدق ما قبله من النفي.

فلو قال-مثلا-: ليس لي عليك شيء، فإن قال المخاطب في جوابه: نعم، كان المعنى: ليس لك عليَّ حق. ولو قال: بلى، كان المعنى: لك علي حق.

سرى: سرى يسري (ض) السير ليلا، والمرور، نحو قوله تعالى: ﴿وَ الَّيْلِ إِذَا

يَسۡرِ ۞﴾.(الفجر:٤)

أسرى: سار به ليلا، نحو قوله تَعَالَىٰ:﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا﴾ (الإسراء:١)

وقوله: لَيۡلٗا للتاكيد على أنه هذه الرحلة تمت في جزء من الليل.

سرى (ض) الشيء في كذا: تسرب فيه، وسُرِّي عنه: أزال عنه الهم والغم.

السُّرى: السير والقدوم ليلا، روى البخاري عن جابر رضي الله عنه: «خرجت مع النبي صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره، فجئت ليلة لبعض أمري، فوجدته يصلي...، فلما انصرف قال: «ما السُّرَى يا جابر؟»».(صحيح البخاري، رقم:٣٦١، إذا كان الثوب ضيقا).

المعنى: كيف قدمت ليلا؟

الطيف: الخيال، وهو المراد هنا، وأصله (طَيِّفٌ)، فخفف.

طيف: له معانٍ أخرى، نحو: الجنون، والغضب، ونحوهما.

وقرئ قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ (الأعراف:٢٠١) «طيف من الشيطان».

المعنى: إذا وسوس لهم الشيطان تذكروا عقاب الله وثوابه، فتنبهوا. وطاف: حلَّق، والوسوسة تحول حول المرء.

وقيل: معناه: إذا أغضبهم العدو تذكروا عقاب الله تعالى. (تفسير الخازن٢/٣٢٩).

وذكر بعض الناس فروقا كثيرة بين الطيف والطائف.(راجع: تفسير الطبري ٩/١٠٦-١٠٧)

أهوَى: هَوِيَ يَهوَى: صيغة التكلم المفردة.

هَوِيَ يَهوَى هَوًى: أحب، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ﴾ (البقرة:٨٧)

أرقني: أطار النوم، أَرِقَ (س) طار نومه.

قال الشاعر في مدح بغداد:

طِيبُ الهواءِ ببَغدادٍ يؤرِّقُني ۞ شَوقًا إليها وإن عَاقَت مَقادِيرُ

فَكَيفَ أصبرُ عنها الآن إذ جَمَعت ۞ طيبَ الهوائين: ممدود ومقصورُ

يعترض: عَرَضَ (ض) عَرَضًا: ظهر، وأبرز.

وفي الحديث: «عرض علي ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهبًا».(سنن الترمذي، رقم:٢٣٤٧)

وفي رواية: «تُعرض الأعمال في كل يوم خميس واثنين».(صحيح مسلم ،رقم:٢٥٦٥)

أعرض له الشيءُ: تمكن منه. أعرض عنه: صرف وجهه عنه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾ (طه: ١٢٤)

اعترض: حال، وعاق، وبرز. واتسع عرضه، عن عائشة رضي الله عنها: «أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي من الليل وأنا معترضة بينه وبين القبلة كاعتراض الجنازة».(صحيح مسلم، رقم:٥١٢، باب الاعتراض بين يدي المصلي)

اعترض عليه: طعن فيه، وأنكر عليه.

اعترض له بِشَيْء: أقبل نَحوه فَرَمَاهُ بِهِ فَقتل.

اللذات: جمع لذة: طيب طعم الشَّيْء، الراحة والسرور. وفي التنْزيل: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ (محمد: ١٥)

الأَلَم: الوجع، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾(النساء:١٠٤)

الإعراب:

سَرى: أي: سرى إلي. مَن أهوى: أي: من أهواه.

فأرقني: ١-الفاء عاطفة. ٢-الفاء فصيحة. وقبله محذوف (لما جاء خيال المحبوب فرحتُ) فأرقني.

الحُب يعترض:

١- الواو للحال، وهو الأحسن فيما يبدو. ٢-الجملة مستأنفة. ٣-الواو عاطفة، عطف العلة على المعلول. قال أولا: أرقني، ثم ذكر علته (لأن الحب يعترض).

سَرى: فعل، وطيف: فاعل، مَن: موصولة، أهوى (أهواه) الجملة صلة الموصول. والموصول مع صلته مفعول به. بالألم: جار ومجرور، متعلق بـــ (يعترض).

شرح البيت:

أنكر الحب في الماضي، فبرهن عليه المدعي بشاهدين، ثم قضى الحاكم وفق ذلك. وسجله، وبعد ذلك كله من العبث إنكار الحب، فاضطر إلى الاعتراف بالحب.

سَرى طيف من أهوى: فيه التفات.

انكشف سر الحب، وثبت أن المخاطب محب، فالتفت من الخطاب إلى التكلم. وأقر بالحب.

والدافع إلى الطيف أن النفس إذا أحبت شيئا حبا حقيقيا، تسرب الشيء إلى القوة الخيالية للإنسان، فيراه فيما يرى النائم.

فأرقني:

١- محمول على حقيقة الأرق، فإن النوم يطير إذا ملك تصور المحبوب على المرء قلبه.

٢- مجاز، أي أن تصور المحبوب ألهاني عن الدنيا ولذاتها، وهو ما يناسب فيما يأتي: «والحب يعترض اللذات بالألم».

والحب يعترض اللذات بالألم:

١- اعترض دون الأمر: حال دونه، فالمعنى: عاق الحب دون اللذات، وحال بينه وبين اللذات.

٢- اعترضه بالسهم: أي دفعه بالسهم، المعنى: أن الحب يدفع اللذات بالمشقات والآلام.

٣- اعترض الشيء: صار بالشيء عارضا، أي أن الحب يعرض الآلام بين اللذات.

اللذة وجودية أم عدمية:

١- اللذة وجودية، وهو إدراك الملائم. واللذة عبارة عن حصول المناسب.

٢- اللذة عدمية: دفع الألم، كما أن الجوع يزول بالطعام.

ويرد على هذا التعريف أن «دفع الألم» سبب من أسباب اللذة، ولايستلزم حصول اللذة دفع الألم، فمثلا: يحصل شيء جميل فجأة فتحصل اللذة، دون أن يسبقه ألم.

إذاً: وفق التعريف الأول: معنى اللذة في البيت: كنت أنام قبل أن يأتيني طيف المحبوب، فألتذ، وأما بعد ما أتاني طيفه فقد زالت اللذة.

ومعنى البيت وفق التعريف الثاني: أن ألم فراق المحبوب كان يزول بالنوم، وكنت أتسلى، وأما الآن فلا يأتيني النوم.

المراد باللذة: النوم والتسلية، والمراد بالألم: شدة الوجد.

جمع الناظم اللذات، وأفرد الألم:

١- للدلالة على أن الألم الواحد يقضي على كافة اللذات في سبيل الحب.

٢- أنها ما من لذة إلا تكون مشوبة بالألم في سبيل الحب،ولاتخلو لذة من الألم.

خلاصة محتويات البيت:

١- اعترف الناظم رحمه الله بأنه عاشق.

٢- ذكر سبب ذكر المحبوب، وهو تصوره وزيارة طيفه ليلا.

٣- تلاشى النوم لذكره.

٤- ثم زاده تأكيدا فقال: الحب يزيل اللذات في عامة الأحوال.

وقال غيره من الشعراء أبياتا في هذا المعنى، منها قول الشاعر:

وزارني طيفُ من أهوى على حذرٍ ۞ منَ الوُشاة ودَاعي الصبح قد هتفا

فكدتُّ أُوقِظُ مَن حَولِي به فَرَحًا ۞ وكان يَهتِك سِتر الحُبّ بي شَغَفَا

(ديوان الصبابة، ص ٤٣)

معنى البيت بتعبير آخر:

قال الملا علي القاري: طيف: خيال المحبوب، ألم: خيال ما سواه.

المعنى: زارني طيفه ليلة القدر، فمنعني طيفه من النوم، فبدأت أفكر فيه، فما أكثر بركة هذا الخيال، والمصنف رحمه الله من الصوفية، فهذا المعنى هو المناسب.

ولك أن تقول بتعبير آخر: يزورني طيف محبوبي ليلا، فأقلق قلقا شديدا، ثم أرتاح بالأوراد والأذكار والصلوات على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

لذة في غم:

الحب شيء تحصل اللذة في غمه، فكأن الوجع هو الدواء، وإن تصور الحبيب يقضي على لذة الدنيا وما فيها كلها.

وهذا الحب الصادق كان قد تسرب إلى قلوب الصحابة، وأثنى عليه القرآن الكريم فقال: ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨ ﴾ (الذاريات: ١٧ – ١٨) تهجر جنوبهم المضاجع، في حين أنها محبوبة، رزقنا الله تعالى عشقا حقيقيا.

لِمَ ذكر الليل؟:

بما أن طيف الحب يزور كثيرًا في الليل، فذكر الناظم الليل.

قال الشاعر:

لَيْلِى ولَيْلَى نَفى نوْمى اختلافُهُما ۞ بالطَّول والطولُ يا طوبى لو اعتدلا

يَجُودُ بالطَّولِ ليْلِى كلما بَخِلَتْ ۞ بالطوْل ليْلَى وَإن جَادَتْ بِهِ بخلاَ

(روح المعاني٩/١٦٢، ط: دارالكتب العلمية، بيروت)

يزور طيف المحبوب العاشق، فيكون كما قال الشاعر الأردي:

آیا تیرا خیال تو آتا چلا گیا ۞ ہر نقش ماسوی کو مٹاتا چلا گیا

(زارنا طيفك، فاستمر... وطمس كل معلم سواك.)

وقال الشاعر الأردي:

اس قدر تیرا تصور کبھی بڑھ جاتا ہے ۞ آئینہ دیکھوں تو منہ تیرا نظر آتا ہے

(ربما يتأكد تصورك تأكدا أرى وجهك في المرآة حين أنظر فيها)

مراتب الحب:

الهوى، ثم العِلاقة، ثم الكلف، ثم العشق. وسبق تفصيله في البيت، رقم:٤.

البلاغة:

والحب يعترض اللذات: فيه استعارة مصرحة تبعية.

شبه الاعتراض بالقتل. ووجه الشبه: شدة التأثير. والمشبه به مذكور. ويعترض: مشتق. فكانت استعارة تبعية.

سرى طيف: فيه استعارة مكنية تبعية.

شبه الخيال بالضيف الطارق ليلا، والمشبه به محذوف، وسرى مشتق.

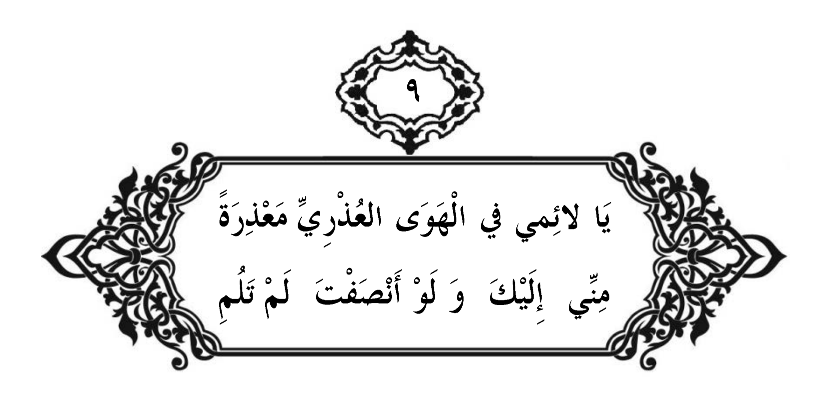
التقابل بين اللذة والألم. والتقابل: هو الجمع بين المتضادين.

أجمع شعر للمتضادين في تاريخ الشعر العربي هو بيت واحد من أبيات المتنبئ:

أزورهم وسواد الليل يشفع لي ۞ وأنثني وبياض الصبح يُغري بي

لا نظير له في كلام العرب،كل كلمة منه تقابل كلمة أخرى.

انتهى. وصلى الله على خير خلقه سيدنا محمد وآله وصحبه.



اللغة:

يا: حرف نداء للبعيد، حقيقة كان أوحكما، وأكثر حروف النداء استعمالا هو (يا). وعليه يقدر حرف النداء (يا) عند حذفه، نحو (يا ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ (يوسف: ٢٩)

لام (ن) لَومًا وملامة، ولومَةً: عذله. وفي التنْزيل: ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ (المائدة: ٥٤)، وقَالَ تعَالَى: ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾ (إبراهيم: ٢٢)

وفي الحديث: «ومن وجد غير ذلك، فلا يلومن إلا نفسه».(صحيح مسلم، رقم:٢٥٧٧)

وقال آدم عليه السلام لموسى عليه السلام: «ثم تلومني على أمر قُدّر علي قبل أن أخلَقَ». (صحيح البخاري، رقم:٣٤٠٩).

لائم: عاذل. والنسخة المطبوعة من ديوان المتنبئ تبدأ بقوله:

يَا لائِمِي كُفّ المَلامَ عَنِ الذِيْ ۞ أضْنَاهُ طُولُ سَقَائه وشَقَائِه

وأنشد عروة بن الزبير في مدح عائشة رضي الله عنها شعرها:

لُوامَى زُلَيْخَا لَوْ رَأَيْنَ جَبِيْنَهُ ۞ لآثَرْنَ بِالقَطْعِ القُلُوبَ عَلَى الأيْدِيْ

(تاريخ الخميس ١/٣٨٥، وسبقت تفاصيل المصادر لهذا البيت والاعتراض والجواب عنه في البيت، رقم:٤)

ألام: أتى ما يلام عليه. وفي التنْزيل: ﴿فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ (الذاريات: ٤٠)

العُذريُّ: منسوب إلى قبيلة بني عذرة، وكانت شهيرة بعفتها ونزاهتها.

عَذَرَ (ض) معذِرَةً: قبل عذره، وعفى عنه.

وفي الحديث: «آخر من يدخل الجنة يسأل ربه سبحانه كل واحدا بعد واحد، وربه يعذره، لأنه يرى ما لا صبر له عليه».(صحيح مسلم، رقم:١٨٧)

أعذر: أزال عذره، والهمزة للسلب، وورد بهذا المعنى في الحديث.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «أعذر الله إلى امرئ أخر أجله حتى بلَّغه ستين سنة». (صحيح البخاري، رقم :٦٤١٩)

الإعذار: إزالة العذر. (فتح الباري١١/٢٤٠)

اعتَذَر: قدم عذره إليه، وفي التنْزيل: ﴿يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ﴾ (التوبة: ٩٤)

وفي الحديث: «من اعتذر إلى أخيه فلم يعذره أو قال: يقبل عذرَه...». (شعب الإيمان رقم:٧٩٨٥)

أي: قد اعتدى من لم يقبل من مسلم عذره الحق.

تعذر عليه الأمر: صعب.

استعذر: طلب من أحد أن يعده معذورا، أي إذا عاقب فلانا فليعدَّه محقا في معاقبته، أو يطلب منه العذر.

وفي حديث الإفك: «فاستعذر من عبد الله بن أبي وهو على المنبر، فقال: يا معشر المسلمين، من يعذرني من رجل قد بلغني عنه أذاه في أهلي؟».(صحيح البخاري، رقم:٤١٤١)

العُذرة: وجع الحلقوم.

وفي الحديث: «أن أم قيس بنت محصن... أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم بابن لها قد أعلقت عليه من العذرة».(صحيح البخاري، رقم :٥٧١٥)

إليك: ابتعد مني.

لو: انتفاء الثاني لاجل انتفاء الأول.

أي: تلوم لأنه لا عدل، ولوكان العدل لما لُمتَ.

نَصَفَ (ن ض) نَصْفًا، وانتصف: بلغ النصف. نَصَفتُ الكتاب: بلغت نصفه.

ورد في قصة الإسرائيلي الذي قتل مئة نفس: «حتى إذا انتصف الطريق أتاه الموت». (صحيح مسلم، رقم:٢٧٦٦)

في حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «فنام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا انتصف الليل...استيقظ».(صحيح البخاري، رقم:١٨٣)

نَصَف (ن) الشيءَ نَصافَة: أخذ نصفه، فإذا أخذ أحد الشريكين النصف وأعطى

شريكه النصف الباقي كان عدلا وإنصافًا.

ناصَفَ، نَصَّفَ: قسمه على نصفين. تنَصَّف فلانا: طلب منه أن ينصف.

الإعراب:

(في الهوى) متعلق بـــ(لائمي). (الهوى) موصوف، (العذري) صفة.

معذرةً: ١- منصوب، وفعله محذوف. أقبل معذرة/ خذ معذرة/ اعتذر معذرة، اعذرني معذرة.

٢- معذرة: مرفوع. هذه: مبتدأ، معذرة: خبره. ويحتمل أن يكون (معذرة) مبتدأ، و(مني إليك) خيره.

معذرة مني إليك:

١- معذرة: مبتدأ، و(إليك) خبره. (مني) متعلق بـــ (معذرة) أو حال.

٢- (مني) و(إليك) صفتان لمحذوف. (مني) متعلق بـــ (صادرة)، و(إليك) متعلق بـــ (واصلة)، والتقدير: هذه معذرة صادرة مني واصلة إليك.

٣- هذه: مبتدأ، معذرة: خبره. (مني) و(إليك) صفتان. وهما يتعلقان بـــ (معذرة).

٤- هذه: مبتدأ، معذرة: خبره. (مني): حال. و(إليك) كلام مستقل. و(إليك) بمعنى: ابتعد عني.

و لو أنصفت:

١- (و) ابتدائية، أي كلام مستأنف. ٢-حالية، أي: والحال أنك لو أنصفت لما بلغ الأمر ما بلغ. لو: حرف شرط. أنصفت: فعل شرط. لم تلُم: جواب الشرط.

شرح البيت:

حيث إن الناظم أقر بالحب، فلامه السائل، فقال الناظم: لم تلومني، وهلا أنصفت في أمري؟

المراد بالهوى العذري:

١- حب بني العذرة الصافي الخالص، الذي لايشوبه الخيالات الشهوانية.

بنو عذرة: نسبة إلى: عذرة بن سعد بن هذيم بن زيد بن ليث بن سود بن أسلم بن الحافي بن قضاعة.(الأنساب للسمعاني٤/٢٤)

بنو عذراء وحبهم:

اشتهرت بنو عذرة في عالم الحب والعشق اشتهارا ضرب بهم المثل في اللغة العربية: أعشق من بني عذراء؛ إذ لم يسبقهم أحد في سباق الحب والعشق.

وكانت نساؤهم –على جمالهن وحسنهن– على غاية من العفة والنـــزاهة. وشبابهم أرق قلوبا. و أسرعهم وقوعًا في الحب الخالص. سأل سائل رجلا من بني عذرة: ما بال شبابكم أسرع موتا؟ فقال: في قلوبنا رقة، وفي نسائنا جمال وعفة.

يقال: لا يتجاوز أحدهم ثلاثين، وكان سبب موهم الحب في عامة الأحوال. وأصبح الموت في سبيل الحب شعارًا لهم. يقول الشاعر:

إذا خَلَصَ العُذرِي من ميتة الهوى ۞ فذاك ورب العاشقين دخيل

واشتهر أنه قيل لرجل منهم ممن أنت؟ قال: من قوم إذا أحبوا ماتوا. فقال: أنت عذري؟.

حكاية الأصمعي الشهيرة:

يقول الأصمعي: وددت أزور قبيلة من قبائل العرب مشهورة بفصاحتها وبلاغتها، لأتعلم منهم اللغة العربية، فالتمست، فقيل: هم قبيلة بني عذرة في اليمن، ضرب بها المثل في الفصاحة والبلاغة. فسار إليها الأصمعي، وعاشهم طويلا، وكان له قصص كثيرة معهم. يقول الأصمعي: بينما كنت أسير في البادية، إذ مررت بحجر كتب عليه هذا البيت:

أيا معشر العُشَّاق بالله أخبِروا ۞ إذا اشتدَّ عشق بالفتى كيف يصنع

قال الأصمعي: فكتبت تحت ذلك:

يُداوي هواه ثم يَكتُم سِرَّه ۞ ويصبر في كل الأمور ويخضع

ثم عدت في اليوم التالي إلى المكان نفسه فوجدت تحت الذي كتبته هذا البيت:

وكيف يُداوي والهوى قاتل الفتى ۞ وفي كل يوم روحُه يتقطَّع

قال: فكتبت تحت ذلك:

إذا لم يطق صبرا وكتما لسره ۞ فليس له شيء سوى الموت أنفع

قال الأصمعي: فعدت في اليوم الثالث إلى الصخرة، فوجدت شابا ملقى على ذلك، وقد كتب هذين البيتين:

سمعنا، أطعنا ثم متنا فبلغوا ❁ سلامي إلى من كان للوصل يمنع

هنيئا لأصحاب النعيم نعيمهم ❁ وللعاشق المسكين ما يتجرع

وعلى كل، المراد بالهوى العذري في الشعر هو الحب الصادق.

٢- العذري: ما يعذر صاحبه فيه لإفراط المحبة. وبما أن بني عذرة تجاوز حبهم الحد، فهم معذورون.

حوَّله بعضم إلى الشكل الأول في المنطق:

هواي

هوى عذري: هذه صغرى، والهوى العذري يقبل، هذه كبري، فهواي يقبل: هذه نتيجة.

٣- الهوى بمعنى المهوي، أي: لا تلمني على حب المحبوب الذي يشبه بني عذرة (حسنا وجمالا).

قال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

وَأَحْسَنَ مِنْكَ لَمْ تَرَ قَطُّ عَيْنِيْ ❁ وَأَجْمَلَ مِنْكَ لَمْ تَلِدِ النِّسَاءُ

خُلِقْتَ مُبَرَّءًا مِنْ كُلِّ عَيْبٍ ❁ كَأَنَّكَ قَدْ خُلِقْتَ كَمَا تَشَاءُ

(ديوان حسان بن ثابت رضي الله عنه، ص ١٠، ط: دارصادر ، بيروت)

معذرة: ما يدفع به الإنسان عن نفسه.

المراد بالمعذرة؟:

١- المعذرة هو البيت الآتي:

عَدَتْكَ حالي لا سِرِّي بمُستَتِرٍ ❁ عن الوُشاةِ ولا دائي بمُنحَسِمِ

٢- لم يرد في القصيدة كلمات المعذرة، لعله خارجها.

لو أنصفت لم تلم:

١- لأن اللوم على الفعل الاختياري، والحب ليس فعلا اختياريا، قال الشاعر:

وَ عيبُ الفَتَى فِيمَا أَتَى بِاختِيارِهِ ❁ وَ لاَ عَيْبَ فِيْمَا كَانَ خُلقًا مُرَكَّبًا

٢- لا ينبغي أن يلوم على الحب مَن لم يذقه.

يقول الصوفية: لا ينبغي للشخص أن يتكلم على حال إلا إذا ذاقها.

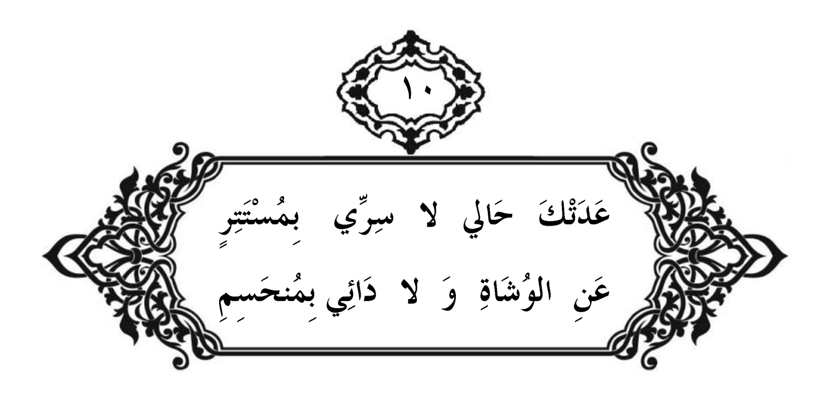
قال ابن فارض:

دَعْ عَنكَ تعنيفي وذُق طَعمَ الهوى ۞ فإذا عَشقتَ فَبعد ذلك عنِّف

أشار الناظم رحمه الله –بوصفه الحب بالعذري– إلى أن حبه لاينقضي كما لا ينقضي حب بني عذرة. فاللوم عبث.

كما أشار إلى أن الذي يحب الله ورسوله يلزمه النشاط في أعمال الدين دائما، ويجب أن يبذل كل لحظة من حياته في هذه السبيل، ولايتعب.

****



اللغة:

عَدا (ن) عَدوا: تسرب، و وصل إليه. عدا (ن) عليه: ظلمه، وطغى عليه.

اعتدى عليه: ظلمه. عدَّى الشيء: نقل الشيء من مكان إلى آخر.

حالي: الحال: عند اللغويين: أواخر الماضي وأوائل المستقبل: أي الزمن الحاضر.

وعند النحاة: ما بين حال الفاعل أو المفعول. أي: الكلمة التي تدل على حالة الفاعل أو المفعول به عند وقوع الفعل.

وعند الحكماء والفلاسفة: كيفية غير راسخة. فإن رسخت سميت ملكة. والفرق بين الملكة والحال يتجلى في المثال التالي: طالب يدرس المواريث هذه السنة، فإذا سألته عن مسألة من مسائل المواريث قال لك: أكتب أسماء الورثة، ثم أفتح الكتاب وأحدد أنصباء كل ورثة، ثم أوزع المال عليهم. فإن عرضت مسألة المواريث هذه على عالم من العلماء، قضى أعواما في ذلك، فإنه يردُّ سريعا ويبين لك أنصباء كل وارث، وهو في غنى عن كتابة أسماء الورقة، والنظر في الكتاب والتأمل في ذلك. فإن مسألة المواريث أصبحت ملكة له، ورسخت في ذهنه، على العكس من الطالب فإن هذا العلم حال من أحواله وليس ملكة راسخة.

وعند الصوفية: السرور والغم والانقباض والانبساط والخشية وغيرها من الكيفات التي تطرأ على القلب من غير تعمد ثم تزول يطلق عليها الحال. فإن استمرت بصورة دائمة أطلق عليها «المقام». يقول الصوفية: الأحوال مواهب، والمقامات مكاسب.

سِرِّي: السر: ١- مَا تكتمه وتخفيه، ٢- حقيقة الشيء، ولبه، ٣- أعلى الشيء

وأفضله. يجمع على (أسرار).

سَرَّ (س) سَرَرا: اشتكى سرته. سَرّ (ن) سُرورا: فرح.

مستتر: استَتَر: اختفى. سَتَرَ (ن): أخفاه وغطاه.

الوِشاةُ: وَشَى يَشي وَشْيًا (ض) نمَّ، فهو واشٍ. وَشِيَ الثوبَ: نقشه، وزخرفه. واشٍ: النمام، ج: وُشاةٌ.

سمي النمام واشيا؛ لأنه يحسن الباطل، ويزخرفه كثيرا.

النميمة: نقل الحديث بقصد خبيث.

الغيبة: ذكر العيب في حالة الغيب.

دائي: الداء: مرض ظاهر أو باطن، ج: أدواء. داء (ف) الرجل دوءًا ودواءً: مرض.

منحسم: حَسَمَ: (ض) حَسْمًا قطعه، وأبعده. حَسَمَ: كوى. والحسم يزول به الجرح أو ينقطع الدم فأطلق على الإزالة. وانحسم: انقطع وزال.

الإعراب:

عدَتك حالي:

عدَت: فعل، حالي: فاعل، ك: مفعول، والجملة فعلية خبرية.

لاسري بمستتر عن الوشاة:

لا: مشبهة بليس، سري: مرفوع محلا اسم لا. بمستتر: الباء زائدة، مستتر:خبر لا.

إيراد: اسم (لا) المشبهة بليس نكرة، كما في قولهم: لاشيء عندي، وقوله تَعَالَىٰ: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾ (النساء: ١١٤)، فإن كان معرفة وجب تكرارها، نحو: لا زيد عندي ولا عمرو، وقوله تَعَالَىٰ: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ (يس: ٤٠)، فلِمَ لم تتكرر لا هنا في قوله: لا سري بمستتر؟

والجواب عنه: أنه على رأي الجمهور، وأما الأخفش فيسوغ عنده كون اسمها نكرة و معرفة. فهذا البيت جاء على رأي الأخفش.

ولا دائي بمنحسم: إعرابه مثل ما سبق. وهذه الجملة معطوفة على قوله: ولا سري بمستتر.

شرح البيت:

عدتك حالي:

(١) جملة خبرية. معناه: ١-تعدت إليك حالي: أي اطلعت على حالي. ٢- تعدت منك حالي إلى الناس: تجاوزتك حالي إلى من سواك، أي أطلع الناس على حالي. ٣- تعدت عنك مصيبتي: أي لم تُصَبْ بما أصِبتُ، ولو أنك أصبت بما أصِبتُ به لأدركت مرضي، واطلعت على واقع أحوالي، ولما أقدمت على لومي.

(٢) جملة دعائية، والمعنى: ١- قدر الله لك ما قدر لي، ورُزقتَ من حب النبي صلى الله عليه وسلم ما رزقتُ. ٢- أدعو الله تعالى أن يجعل حالي تتعداك إلى الناس، أي تخبر الناس بما أنا عليه. ٣- يدعو عليه، أي: قدر الله لك ما أصابني من المرض، حتى تكف عن لومي.

دائي منسجم:

يقول الشاعر الأردي:

مریض عشق پر رحمت خدا کی ❁ مرض بڑھتا گیا جوں جوں دوا کی

(رحم الله على مريض العشق، ازداد مرضه كلما عالج وداوى.)

آخر طبیب نے بھی انہی سے کیا رجوع ❁ وہ آئے مسکرائے شفا دے گئے

(حتى رجع الطبيب إليه، فجاء باسما، فشفاني وزال ما بي من مرض.)

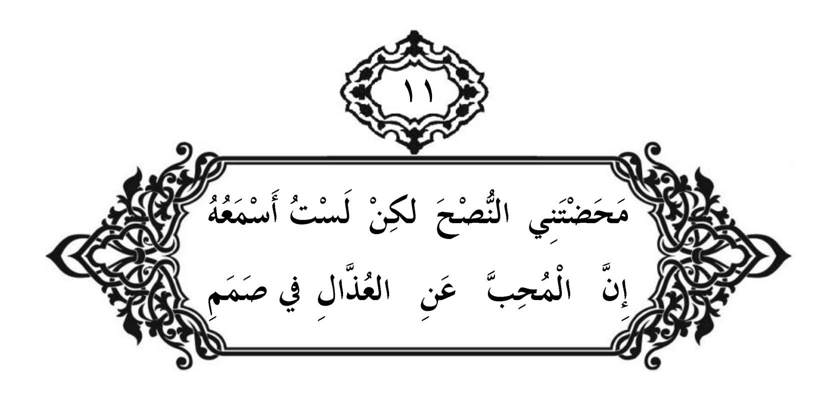
وقال الشاعر:

قال الطبيب لقومي حين حَسَّ يدي ❁ هذا فتاكم ورب البيت مسحور

فقلت ويحك قد قاربت في صفتي ❁ وجه الصواب فهلا قلت: مهجور

(نفحة اليمن، ص ٢٣٦، ط: دار الإشاعة، ديوبند، سهارن فور)

****



اللغة:

مَحَضَ (ف) مَحْضًا: أخلص. مَحِضَ (س) مَحَضًا: سقَاهُ لَبَنًا خَالِصًا لا مَاء فِيهِ.

مَحُضَ (ك) مُحُوضَة: كان خالص النسب.

وفي الحديث المشهور: سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الوسوسة، قال: «تلك محض الإيمان».(صحيح مسلم، رقم:١٣٣)

النُصحُ: نَصَحَ (ف): خلص. نَصَح فلانًا: أخلص النصح له.

النصيحة: إرادة الخير للغير.

مأخذ «النصيحة»؟ :

١- نصَحَ العسلَ: صفى النصيحة من الرياء والمصلحة والإشارة الباطلة.

٢- نصحَ الثوبَ: خاطه، وضم ثوبين ،ضم المخلوق إلى الخالق بالنصح.

مِنْصحة: الإبرة.

قال أهل العلم: ما في النصيحة من المعاني والدلالات لا يعبر عنه كلمة عربية أخرى، كما يقال في كلمة (الفلاح). (فتح الباري١/١٣٨. وشرح النووي على مسلم١/٥٤)

وفي الحديث: «الدين النصيحة».(صحيح مسلم، رقم:٥٥)

لكن: حرف استدراك؛ فإن قوله: محضتني، يوهم أنه قبل النصح، فدفعه بقوله: لكن لستُ أسمعه.

أسمعه: أقبله. نحو: سمع الله لمن حمده. أو: أعوذ بك من دعاء لايسمع. (سنن أبي داود، رقم:١٥٤٨)، أو كما في قوله تَعَالَى:﴿ إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴾ (النمل: ٨٠)

المحب: اللام للاستغراق.

سؤال: اللام الداخلة على اسم الفاعل واسم المفعول بمعنى (الذي) فكيف كانت هنا للاستغراق؟

الجواب: إنما ذلك إذا دل اسم الفاعل أو المفعول على معنى حدثي، نحو: الضارب والمضروب. وأما إذا دلاً على معنى الثبوت، فلا يكون بمعنى (الذي)، بل بمعنى الصفة المشبهة، المحب في البيت بهذا المعنى، فالمراد به الدائم العشق.

مواقع فتح همزة «إن» وكسرها:

تكسر الهمزة في مواضع كثيرة منها:

١- في صدر الكلام، نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ (البقرة: ٢٠)

٢- بعد القول، نحو قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ﴾ (البقرة: ٦٨)

٣- بعد القسم، نحو قوله تعالى: ﴿لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ (الحجر: ٧٢)

٤-إذا دخل اللام على خبرها، نحو قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ (الشعراء:١٩٢)

وتفتح الهمزة في خمسة مواضع:

١- بعد العلم، نحو قوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ١٩٤)

٢- بعد الظن، نحو قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ﴾ (البقرة: ٤٦)

٣- وسط الكلام، نحو قوله تعالى: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾ (الجن: ١)

٤- بعد لو، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ﴾ (البقرة: ١٠٣)

٥- بعد لولا، نحو قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ﴾ (الصافات: ١٤٣)

وينفع في ضبط هذا القانون قول الشاعر الآتي، الذي ذكره في «الشمة شرح مئة عامل»:

اِن را درچار جا مکسور خواں ❁ ابتدا وبعد قول وقسم داں
چوں در آید در خبر اولام نیز ❁ دائما مکسور خوانی اے عزیز
اَن را در پنج جا مفتوح داں ❁ بعد علم وبعد ظن ودرمیاں
بعد لولا بعد لو مفتوح خواں ❁ تانیفتی ہیچ جا در شک آں

(اقرأ إن مكسورة في أربعة مواضع: في الابتداء، وبعد القول، والقسم، وحين يدخل على خبره اللام، اقرأها مكسورة بصورة دائمة يا عزيزي.

واعلم «أن» مفتوحة في خمسة مواضع: بعد العلم، وبعد الظن، ووسط الكلام، وبعد لولا، وبعد لو، اقرأها مفتوحة، كيلا يعتريك الشك في موضع).

العُذَّالُ: مفرده: عاذل: اللائم.

عَذَل (ن، ض) عَذلا: لامه. واعتذل: قبِل اللوم.

صَمَم: صَمَّ (س) سُدت أذنه.

وذكر الثعالبي للصمم درجات كثيرة: «يقال: في أذنه وقر، فإن زاد فهو طرش، فإن زاد فهو صمم، فإن زاد حتى لا يسمع الرعد فهو صلخ».(فقه اللغة، ص١٣٠)

ويطلق على شهر رجب: الأصم؛ لأن الحرب تتوقف فيه، ولا يسمع صوت الحديد.

وفي شعب الإيمان: «إن رجب شهر الله، ويدعى الأصم، وكان أهل الجاهلية إذا دخل رجب يعطلون أسلحتهم ويضعونها». (شعب الإيمان، رقم:٣٥٢٣)

الإعراب:

مَحَضْتَ: فعل وفاعل،(ني) نون الوقاية، و(ي) مفعول أول، و(النصح) مفعول ثانٍ.

لستُ: فعل وفاعل. (أسمعه): خبر.

عن العذال: أي عن لوم العذال/ عن نصح العذال.

عن العذال: جار ومجرور متعلق بـــ (صمم).

شرح البيت:

حاول فيما سبق إقناع اللائم بالكف عن اللوم، ولم يرعوِ، فقال على سبيل الجدل له: هبك ناصحا لي، وتنصحني بما فيه خير لي، ولكني لا أقبل نصحك.

(في صمم) فيه مبالغة.

أي لم يقل (إن المحب أصم)؛ بل قال: (في صمم)، فيه إشارة إلى أن الصمم محدق بالعاشق، فكأن الصمم قلعة، أوى إليه العاشق صونا لنفسه عن لوم اللائمين.

معنى البيت:

يا لائمي، هبك ناصحًا لي، إلا أني لا أقبل النصح؛ لأن المعتاد أن العاشق لا يصغي بسمعه إلى أقوال الناصحين.

وحوَّل بعض الناس معنى البيت إلى «الشكل الأول» في المنطق: فقال:

الصغرى: أنا محب. والكبرى: والمحب في صمم عن العذال. والنتيجة: فأنا في صمم عن العذال.

قال الشاعر الأردي:

ناصحا! مت کر نصیحت دل مرا گھبرائے ہے
میں اسے سمجھوں گا دشمن جو مجھے سمجھائے ہے

(يا ناصحي! أمسك عن النصح؛ فإن قلبي فزع، أنا أعتبر عدوًّا لي كلَّ من حاول إقناعي)

من دروس هذا البيت:

نستفيد من هذا البيت أن عشاق الدين حقًّا يجب عليهم أن يستمروا على رسالتهم ووظيفتهم، ولا يبالوا على الإطلاق بمن يصد عن نشاطات الدين، مهما ارتدوا من اللباس، ولو استخدموا سلاح اللوم والاستهزاء، أو برزوا في صورة الناصح والمشفق.

البلاغة:

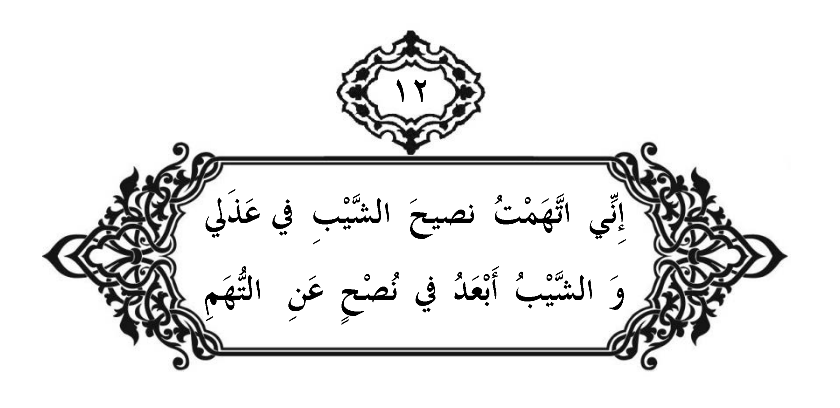
١- لست أسمعه: فيه استعارة تصريحية ترشيحية.

عدم القبول: مشبه. عدم السماع: مشبه به. وجه الشبه: عدم الاتباع. فكانت الاستعارة تصريحية. ثم ذكر المشتق من المشبه به، وهو (أسمع)، ثم أكد المشبه به بـــ (في صمم) فكانت الاستعارة ترشيحية.

٢- قيل: إن المحب عن العذال: فيه التفات من التكلم إلى الغيبة. وبدأ البيت بـــ (إني) صيغة التكلم، ثم التفت إلى الغيبة (إن المحب).

وذهب الأكثرون إلى عدم الالتفات في (إن المحب)، وإنما قصد بيان القاعدة العامة. وهو الظاهر.

****



اللغة:

اتَّهَمْتُ: أصله: اِوتَهمتُ: استبدلت الواو ياء؛ لأنها مسبوقة بساكن. ثم أدغمت بعد تبديلها بالتاء في التاء.

وَهَمَ: (ض) وَهمًا: ذهب همه إلى شيء. وَهِمَ (س) أخطأ في الحساب.

اتَّهمَ: أدخل عليه التهمة.

التهمة: نسبة الإنسان إلى شيء يوجب العار، ويجمع على: تُهَم.

و(التهمة) أصلها: (وُهمة)، استبدلت الواو تاء، مثل: تخمة (سوء الهضم)، أصلها (وَخَمَ) (ض).

نصيح: نَصَح (ف) نَصْحًا: خلص. نصحَ له: واساه.

الشيب: شابَ (ض) شَيبًا وشَيبَةً: ابيض شعره.

عَذَلِي: عَذَلَ: (ض، ن) عذلا: مصدر. فيجب بسكون الذال، لكن فتحت لضرورة الشعر.

الإعراب:

(إني) أصله: (لأني) فالبيت متعلق بما قبله، ذكر سببا من أسباب عدم قبول النصح.

نصيح الشيب:

١- إضافة الصفة إلى الموصوف: اتهمت الشيب الناصح.

٢- إضافة المشبه به إلى المشبه: اتهمت الشيب الذي هو كالناصح.

الشيب: مشبه. والنصيحة: مشبه به.

٣- الإضافة للبيان: نصيحًا هو الشيب.

٤- نصيح: أصله: مصدره: نصيحة. سقطت التاء للترخيم، فصار: (نصيح).

في (عذَلي) إضافة المصدر إلى المفعول، وتقديره: في عذلك إياي.

١- الجار والمجرور متعلق بـــ (اتهمتُ).

٢- في نسخة (عدْلي: أي في عدولي عن السيئات.

فالجار والمجرور متعلق بـــ (نصيح الشيب)، أي: اتهمت الشيب في صرفي عن السيئات.

والشيب: الواو حالية.

أبعد: متعلقه محذوف تقديره: أبعد من كل شيء، أبعد النصحاء عن التهمة. ويجوز حذف المفضل عليه. نحو: يعلم السر وأخفى.

عن التهم: جار ومجرور متعلق بـــ (أبعد).

في نصح: جار ومجرور متعلق بـــ (أبعد).

وقيل: لا يصح تعليق الجارين والمجرورين بكلمة واحدة، والصحيح أنه جائز، وفي كلام العرب أمثلة كثيرة على ذلك.

شرح البيت:

ذكر الناظم سببا آخر لعدم قبول النصح، و هو أن الشيب ناصح ومشفق مخلص للإنسان، ويحمله على ترك المعاصي إلى هم الآخرة. وهو غير متهم. ورغم ذلك لم أقبل نصحه. فحيث رددت نصح خير الناصحين، كيف أقبل نصحك؟

وفي الشطر الثاني وضع الظاهر (والشيب) موضع الضمير، لزيادة التأكيد.

وحوَّله البعض إلى «الشكل الأول» في المنطق، فقال:

الصغرى: إني اتهمت النصيح الأبعد عن التهمة.

الكبرى: وكل من اتهم النصيح الأبعد عن التهمة لا يقبل نصحك.

النتيجة: فأنا لا أقبل نصحك.

أهمية الشيب:

وخص الشيب بالذكر؛ لأنه يحتل أهمية كبرى في حياة الإنسان، فهو يشعر بقرب

إلى الأجل، ذهب عدد من العلماء إلى أن المراد في قول الله تعالى: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ (فاطر: ٣٧): الشيب.

قال الله تعالى: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾: روي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وعكرمة، وأبي جعفر الباقر، وقتادة، وسفيان بن عيينة، قالوا: يعني الشيب. (تفسير ابن كثير ٣/٦١٥)

وعلقه البخاري رحمه الله. (صحيح البخاري، باب من بلغ ستين سنة)

إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما كان خليفة نبَّه أعرابيا أن يناديه في كل صباح ومساء وراء داره: يا عمر! لا تنس موتك، واعمل في الدنيا بقدر مقامك فيها.

فلما وجد عمر رضي الله عنه في لحيته بياضا قال للأعرابي: أترك النداء، لأن مخبري ومذكري حصل في نصب عيني، فلم يبق لندائك حاجة. (العصيدة الشهدة شرح قصيدة البردة للخربوتي، ص٣١)

وعن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «خير شبابكم من تشبه بكهولكم، وشر كهولكم من تشبه بشبابكم». (مسند أبي يعلى، رقم:٧٤٨٣)

قال يحيى بن خالد البرمكي:

الشيب إحدى الميتتين تقدمت ۞ أولاهما و تأخرت أخراهما

(معجم الشعراء ١/١٥٢، من اسمه: يحيى)

فضل الشيب:

عن كعب بن مالك قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من شاب شيبة في الإسلام كانت له نورا يوم القيامة». (سنن الترمذي، رقم:١٦٣٤)

ووردت أحاديث كثيرة تدل على أن الله تعالى يستحيي من تعذيب الشائب:

عن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يقول الله تبارك وتعالى: إني لأستحيي من عبدي وأمتي يشيبان في الإسلام... أعذبهما في النار بعد ذلك». (مسند أبي يعلى، رقم:٢٧٦٤، وإسناده ضعيف، راجع أيضا: كنـز العمال ١٥/٦٧٣-٦٧٥).

وعن أبي موسى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن من إجلال الله تعالى إكرام ذي الشيبة المسلم». (سنن أبي داود، رقم:٤٨٤٣)

البلاغة:

نصيح الشيب: استعارة مكنية.

الشيب: مشبه. الإنسان الناصح: مشبه به. وجه الشبه: الإنذار.

المشبه به محذوف، وذكر من لوازمه: نصح.

انتهى، وصلى الله تعالى على خير خلقه سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

انتهى الفصل الأول بعون الله تعالى وتوفيقه.

****

الفصل الثاني

في منع هوى النفس



تمهيد موجز قبل الأبيات

النفس أعدى الأعداء:

النفس عدو باطن للإنسان، والشيطان عدو ظاهر له، والنفس تحض على الأهواء، ويثير الشيطان الخيالات الشيطانية. ولذا ورد الشرع بالتاكيد الشديد على التغلب على النفس.

وردت آيات وأحاديث عديدة تدل على أن من تغلب على نفسه فقد فاز. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾ (النازعات: ٤٠– ٤١) ، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٦٩﴾ (العنكبوت: ٦٩)

وفي الحديث مرفوعًا: «أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك». (الزهد للبيهقي، رقم :٣٤٣، عن ابن عباس)

إسناد هذا الحديث ضعيف لأجل محمد بن عبد الرحمن بن غزوان، وله شاهد من حديث أنس رضي الله عنه. (كشف الخفاء١/١٤٣؛ تخريج أحاديث الإحياء٣/٤٧٣)

وعن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه».(صحيح البخاري، رقم:١٠، باب المسلم من سلم المسلمون...)

معظم الذنوب من أجل النفس:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ (البقرة: ٢٦٠)

والطيور الأربعة التي أمِر إبراهيمُ بقتله هن –كما في رواية– :

يقول الشاعر الأردي:

مور و مرغ کوا کبوتر چار ہیں ۞ ماردو اُڑنے کو سب تیار ہیں

(الطاؤوس، والديك، والغراب، والحمامة، اقتلهن، فإنهن مستعدات للطيران)

قال أهل العلم: الآية تشير إلى أنه لا تحصل الحياة الدائمة إلا بعد إفناء الصفات

الخاصة بهذه الطيور. وإن بلوغ الكمال يتطلب إفناء هذه الصفات.

فالطاؤوس: فيه حب الزينة، وفي الديك حب الشهوة، وفي الحمامة الغفلة والترفع، وفي الغراب الحرص وطول الأمل. والآية تشير إلى هذه الصفات القبيحة في النفس. (التفسير البيضاوي١/٥٧٥)

إن النفس هي التي تحرض الإنسان على المعاصي، فكان –مثلا– نفس أبي جهل تقول: لا تتبع النبي صلى الله عليه وسلم، وإلا فقد استيقن أنه نبي صادق.

وقِس عليه نفس أبي طالب، التي منعته من الإيمان، وقد تجلى له صدق النبي صلى الله عليه وسلم، وعرض عليه النبي صلى الله عليه وسلم الإيمان حين موته فقال: «لولا أنْ تعيِّرني قريش تقول: ما حمله عليه إلا فزعُ الموت لأقررتُ بها عينك». ثم قال:

ودعوتني وعلمت أنك صادق ۞ ولقد صدقت وكنت ثم أمينا

لو لا الملامة أو حذارُ مسبة ۞ لوجدتني سمحا بذاك مبينًا

ولا يخفى أنه كان أفلح لو آمن، إلا أن مخافة اللوم حالت دون إسلامه.

وكذلك عبد الله بن أبي بن سلول حرضته نفسه على مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك أن أهل المدينة كادوا يتوجونه، إلا أن مقدم النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة حال دون ذلك.

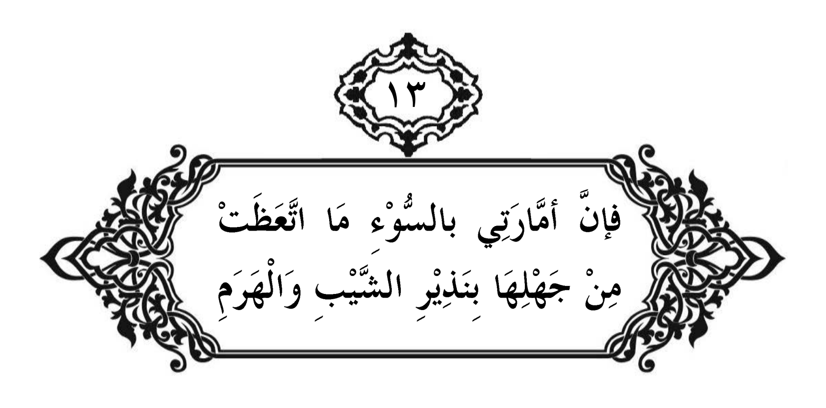
قال سعد بن عبادة رضي الله عنه: «لقد اصطلح أهل هذه البحيرة على أن يتوجوه فيعصبوه بالعصابة، فلما أبى الله ذلك بالحق الذي أعطاك الله شرق بذلك، فذلك فعل به ما رأيت». (صحيح البخاري، رقم:٤٥٦٦. صحيح مسلم، رقم:١٧٩٨)

يقول بعض أهل العلم: ولذا قدمت سورة الفاتحة في القرآن الكريم على غيرها من السور، وهي خلاصة القرآن الكريم، ثم وضعت ﴿الٓمٓ﴾، فيه إشارة إلى أنه لا محيص من اعتراف المرء بجهله قبل كل شيء.

الاعتناء بإصلاح النفس:

وأسلوب العلامة البوصيري يشير إشارة لطيفة إلى أنه كفى أعداء الخارج (الظالم،

واللائم، والناصح المشفق، والطبيب)، وقد عجزوا جميعا، وأما العدو الداخل الأعدى الذي يهدد صباح ومساء، فهو النفس الأمارة. لقد وقع أكابر الزهاد والصلحاء فريسة له. ومكايده الخفية على غاية من الخطر. وأكبر عميل للشيطان هي النفس. وهي علم بكافة الحيل والمكايد التي يُصاد بها الإنسان. فالحذر كل الحذر منه، وسيتعرض الإمام البوصيري لشيء من مكايده وحيله في الأبيات اللاحقة. إن شاء الله.



اللغة:

أمَّارتي: أمَرَ (ن) كلفه. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ (النحل: ٩٠)

أَمَّارة: مبالغة في (أَمَرَ) كثير الأمر.

أمَرَ عليهم (ن، س) أمرا وإمارة: صار أميرا عليهم.

قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي ذر: «إني أحب لك ما أحب لنفسي؛ لا تأمرَنَّ على اثنين». (صحيح مسلم، رقم:٣٤٠٥، كراهية الإمارة بغير ضرورة)

أَمِرَ الشيءُ أَمَرًا: نما وكثر، وفي حديث هرقل: «قال أبو سفيان: لقد أَمِرَ أمر ابن أبي كبشة». (صحيح البخاري، رقم:٧، باب كيف كان بدء الوحي)

أَمَّرَ: نصب علامة، جعله أميرا.

ذو أمر: اسم مكان. وبه سميت غزوة ذي أمر. وقعت في فاتحة سنة ٣ هـــ. ويقال لها: غزوة غطفان، وغزوة نجد. ولم يقع فيها قتال. (للاستزادة راجع: البداية والنهاية٣/٤، ط: دار المؤيد؛ عيون الأثر لابن سيد الناس١/٣٩٩).

سُوء: ١- كل قبيح. ٢- المعصية؛ لأن المعصية تضر الإنسان.

قال الشاعر:

لئِن سَاءَني ذِكراك لي بمسَاءة ۞ فقد سَرَّني أني خطَرت ببالك

(الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين، ص ٧٢)

سَاء الشيءُ (ن) سَوءا: قبح. ويستعمل ساءَ فعل ذم مثل (بئس). قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (المنافقون: ٢)

سَاء فلانا سُوءا وسَوءا: آلمه.

الفرق بين سَوء وسُوء:

سَوء: مصدر يستعمل صفة. ويقع مضافا إليه في الجملة، ويضاف إليه موصوفه.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ﴾ (النحل: ٦٠) وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ﴾ (مريم: ٢٨)

وفي الحديث: «لو كان البَذاء رجلا لكان رجلَ سَوءٍ». (المعجم الوسيط للطبراني، رقم:٤٧١٨، قال الهيثمي في مجمع الزوائد٢٧/٨: فيه ابن لهيعة ،وهولين، وبقية رجاله رجال الصحيح)

سُوء: كل ما يحزن المرء ويؤلمه. ومن أدعية السفر: «نعوذ بك ... وسُوء المنظر في الأهل والمال». (صحيح مسلم، رقم: ٤٢٦، باب ما استحباب الذكر إذا ركب دابته)

في القواميس اللغوية: يصح: رجلُ سَوءٍ و رجلُ السّوء.

ولا يصح: الرجل السوء؛ لأن (سَوءا) و(رجل) ليسا واحدا.

كما لا يصح: رجلُ السُّوء (بضم السين): بالإضافة؛ لأن السُّوء بمعنى الضرر.

ويصح: الرجلُ السُّوء مبالغة. (للاستزادة راجع: تاج العروس٢٧٣/١ مادة: سوء)

اتَّعظت: أي ما قبلت الوعظ.

وَعَظَ (ض) وَعْظًا: وعِظةً: نصح. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ (الأعراف:١٦٤)

ويستفاد من الحديث أن الوعظ: هو الزجر عما لا ينبغي، «وهو يعظ أخاه في الحياء». (صحيح البخاري، رقم:٢٣)، أي يمنعه عن الحياء. والنصيحة هي الدعوة الخالصة؛ لأن النصح هو الخالص.

اتَّعظ: قبل النصيحة. (على زنة افتعل: قبول النصح).

من جهلها: جَهِل (س) لم يعرف، عدم العلم بالعاقبة. وهو المراد.

بنذير: نَذَرَ (ن، ض) أوجبه على نفسه. نَذِرَ بالشيء (س): علمه فحذره.

أنذَر: هدد به.

نذير: ١- بمعنى الإنذار: الوعيد وهو المراد في البيت، مثل نكير بمعنى الإنكار.

٢- بمعنى المنذر، مثل بديع بمعنى المبدع.

وبالمعنيين ورد القرآن الكريم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾ (الملك: ١٧)

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ (الملك: ٢٦)

وفي حديث البخاري في قصة قتل أبي رافع، روي عن عبد الله بن عتيك قال: «إن القوم نذِروا بي لم يخلصوا إلي حتى أقتله». (صحيح البخاري، رقم ٤٠٣٩)

الشيب: شَابَ (ض) شيبا وشَيبةً: ابيض الشعر.

عن كعب بن مرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من شاب شيبة في الإسلام كانت له نورا». (سنن الترمذي، رقم:١٦٣٤)

أشاب وشَيَّبَ: هرمه.

في الحديث المشهور: «شَيَّبَتْنِي هود والواقعة».(سنن الترمذي، رقم: ٣٢٩٧)

الهَرم: نهاية الشيب.

هَرِم (س) الرجلُ هرَمًا: بلغ نهاية الشيب، هَرَّم: بلَّغه نهاية الشيب.

هرم بن سنان: ملك من ملوك العرب، عرف بالسخاء. وسيأتي ذكره مفصلا في الفصل التاسع بإذن الله تعالى.

وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم: «وأعوذ بك من الهرم». (صحيح البخاري، رقم: ٦٣٧١)

الإعراب:

بالسوء: متعلق بـــ (أمارتي).

إن: حرف مشبه بالفعل. أمارتي: اسم، و(ما اتعظت) خبر.

من جهلها: أي من أجل جهلها. جار ومجرور متعلق بـــ (ما اتعظت).

بنذير: جار ومجرور: ١- متعلق بـــ (اتعظ)، أي: لم يقبل نصح الشيب المنذر.

٢- متعلق بـــ (من جهلها)، أي لم تقبل نفسه النصح؛ لأنها في غفلة عن النذير، و لا تعلم عاقبة عصيانه.

نذير الشيب:

١- إضافة الصفة إلى الموصوف: فالمعنى: بالشيب المنذر.

٢- الإضافة للبيان، فالمعنى: ما اتعظت بنذير هو الشيب.

٣- إضافة المصدر إلى الفاعل، فالمعنى: بإنذار الشيب.

سؤال: المفروض أن يكون (نذيري الشيب والهرم) لوجوب المطابقة بين المضاف والمضاف إليه. وقد أفرد هنا؟

الجواب: ١- (النذير) جنس، يصدق على أفراد عدة. فيعم التثنية، نحو قوله تَعَالَىٰ: ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (الشعراء: ١٦)

٢- التقدير: بنذير الشيب ونذير الهرم. حذف من الثاني لدلالة الأول عليه.

والهرم: (نذير الهرم). ١- الهرم النذير. ٢- إنذار الهرَم.

الشرح:

هذا البيت تعليل لما قبله، قال في البيت السابق: لم أقبل قول النذير المخلص والمشفق، واتهمته.

ثم ذكر علته في هذا البيت، وهو أنه بسبب النفس الأمارة. والشيب ينذر نفسي بضرورة العودة إلى الصراط المستقيم، وعمل الصالح من الأعمال، غير أن نفسي أبت، في حين أن الشيب له حرمة.

إيراد: الآمر والمأمور في (أمارتي) واحد، فإن النفس هي الآمرة وهي العاصية؟

الجواب: ١- النفس تأمر بالذنوب، فهي آمرة بهذا الاعتبار. والشرع يأمره بعمل الصالح، فهي مأمورة بهذا الاعتبار. فهي آمرة ومأمورة باعتبارين مختلفين.

٢- النفس مسلطة على البدن، وهي التي تأمر الجسد بالسيئات. فالنفس آمرة والجسد مأمور.

أقسام النفس:

١- الأمارة: تأمر بالمعاصي.

وفي القرآن الكريم: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ (يوسف: ٥٣) للاستزادة من النفس الأمارة يرجع إلى كتب التفاسير، في هذه الآية. وهذه النفس هي نفس الكفار والشياطين

والفاسقين.

٢- اللوامة: تعصي ثم تلوم نفسها. وفي القرآن الكريم: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ (القيامة: ٢)

٣- المطمئنة: تحلت بالأخلاق الحميدة والعقائد الصالحة.

هذه النفس تنشئ الأخلاق الحميدة بعد تخليها عن الصفات الذميمة. وتطيع الله تعالى كل الطاعة. وعليه بشرها القرآن الكريم: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ (الفجر: ٢٧)

ومن دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: «اللهم إني أسألك نفسا بك مطمئنة، تؤمن بلقائك، وترضى بقضائك، وتقنع بعطائك». (المعجم الكبير للطبراني ٩٩/٨، رقم: ٧٩٤، عن أبي أمامة)

٤- الملهمة: تُلْهَم الخير: يلقى إليها الخير ولا تحتاج إلى كثير من التعليم.

٥- الراضية: ترضى على كل حال.

٦- المرضية: رضي الله تعالى بها. وهي مقبولة عنده سبحانه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ (المجادلة: ٢٢)

وبعضهم عكس التعريف فقال: راضية: رضي الله عنها. مرضية: رضيت عن الله تعالى.

التعريف الأول ظاهر؛ فقد ورد في الحديث أن الملائكة الموكلين بقبض روح المؤمن، يقولون لها: «اخرجي راضية مرضيا عنك إلى روح الله». (سنن النسائي، رقم: ١٨٣٣)

٧- الكاملة: إذا صارت العبادة عادة لها. وفي الحديث: «جعلت قرة عيني في الصلاة». (سنن النسائي، رقم: ٣٩٤٠)

وفصَّل ابن القيم رحمه الله الكلام على أقسام النفس، ومادة اشتقاقها، ووجوه تسميتها، ونحو ذلك، وسرد كثيرا من أقوال السلف. (راجع: إغاثة اللهفان ٧٤/١-٧٩، الباب الحادي عشر، ط: دار المعرفة، بيروت؛ الروح، ص ٢٢٦).

أقسام النفس الثلاثة المشهورة:

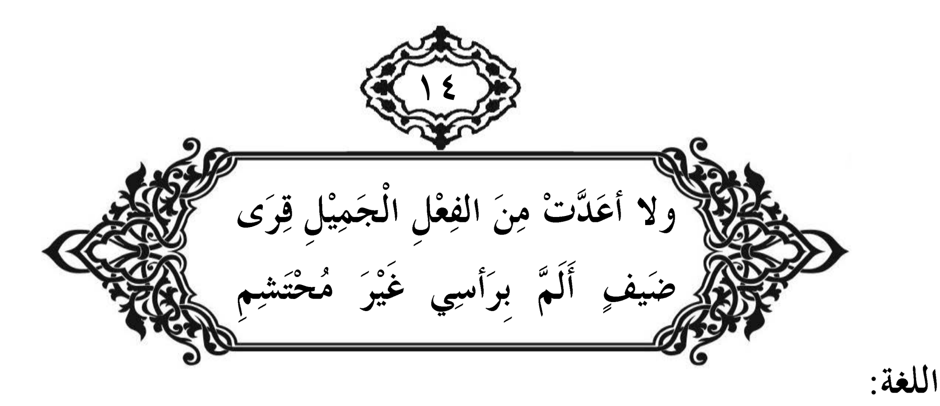
قال الملا علي القاري: «الأخصر أن يقال: الأمارة هي العاصية، والمطمئنة هي المطيعة، واللوامة هي المقتصدة». (الزبدة العمدة في شرح البردة، ص ٤٠)

البلاغة:

نذير الشيب والهرم: فيه إضافة المشبه به إلى المشبه. الشيب والهرم: مشبه. والمنذر: مشبه به. وجه الشبه: التحذير.

وصلى الله وسلم على أكرم الخلق وأحبهم لديه سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

****



اللغة:

أَعَدَّت: أَعَدَّ: جهز، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ (الأنفال: ٦٠)

أتى صحابي النبي صلى الله عليه وسلم يسأله عن الوقت المحتوم للقيامة، فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: «ماذا أعددت لها»؟ فقال: لاشيء إلا أني أحب الله ورسوله.(صحيح البخاري، رقم ٣٦٨٨)

عَدَّ: أحصاه. وفي الحديث: «ما تعدون الشهيد فيكم».(صحيح مسلم، رقم:١٩١٥)

اعتدَّ: صار معدودا. وشيء لا يعتد بها: لا يأتيه الحصر والعد، ولايقام له وزن.

استعد: تجهز، وتهيأ.

الفعل: فعَلَ (ف) عمل، أتى. افتعل: زوره. انفعل بالشيء: تأثر به.

الجميل: جَمُلَ (ك) جَمالا: حسن. في الحديث: «إن الله جميل يحب الجمال».(صحيح مسلم، رقم:١٤٧)

جَمَلٌ: يطلقه العرب على البعير؛ لأنهم كانوا يحبونه، فكانوا يستحسنونه.

كان محشي الجلالين صاحب «الفتوحات الإلهية» من كبار علماء الشافعية، وكان على غاية من الجمال، فسموه جملا. توفي عام ١٢٠٤هـ. (للاستزادة من ترجمته راجع: العلماء العزاب الذين آثروا العلم على الزوج للشيخ عبد الفتاح أبو غدة، ص١٩٤-١٩٦، نقلا عن عجائب الآثار في التراجم والأخبار٢/٨٨ للمؤرخ الجبرتي المصري؛ وفهرس الفهارس والأثبات، للعلامة عبد الحي ١/٣٠٠)

جَمَلَ (ن) جَمْلا: جمعه. جَمَلَ الشحم: أذابه.

في الحديث: «قاتل الله اليهود، حرمت عليهم الشحوم فجملوها فباعوها».(صحيح البخاري، رقم: ٢٢٢٣. صحيح مسلم، رقم ١٥٨٢)

أجْمَلَ الكلامَ: اختصره.

أجمل في الطلب: اعتدل فيه. «أجملوا في الطلب».(سنن ابن ماجه، رقم ٢١٣٣)

جَمّلَ: حسنه و أصلحه. تقول العرب: جَمَّلك الله.

وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا لعمرو بن أخطب، فقال: «اللهم جَمِّله». فبلغ أربعًا وتسعين سنة ليس في رأسه ولحيته شعرة بيضاء.(مسند أحمد رقم:٢٢٨٨١)

قِرَى: قَرَى (ض) الضيفَ قَرْيًا، وقَرًى.

وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها وهي تتحدث عن أوصاف رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وعن ابن الدغنة —وهو يتحدث عن صفات أبي بكر رضي الله عنه: «تقري الضيف».(صحيح البخاري، رقم:٣)

قَرَى الشيء: جمعه. وفي الروايات عن هاجرة: «فَقَرَت في السقاء».(أخبار مكة للفاكهي ٥/٢، ذكر إخراج جبريل زمزم)، أي: جمعت ماء زمزم في السقاء.

أقَرَى: ١- لزم القرى، ٢- طلب القرى. اقترى: طلب القرى.

قِرَى: ١-مصدر: قَرَى يقري، ضافه. ٢- ما يقدم إلى الضيف من الطعام. وهو المراد. ٣-الماء المجموع في الحوض.

وعمل العلامة ابن أبي الدنيا رسالة سماها: «قرى الضيف». وهي في (٦٧) صفحة. تحدث فيها عن فضائل القرى وآدابها في ضوء الأحاديث وآثار الصحابة وبعض القصص، بأسلوب رائع.

وعمل الحافظ محب الدين الطبري (ت:٦٩٤هـ) كتابا ضخما سماه «القِرى لقاصد أم القرى». وطبع مرات.

القرية: معمورة توفرت فيها مرافق الحياة كلها، يجمع على (قُرَى).

ضَيف: مصدر. فيطلق على الواحد والمثنى والجمع، والمذكر والمؤنث. يجمع على: أضياف، وضيوف. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ۝٦٨﴾ (الحجر: ٦٨)

ضاف إليه (ض) ضَيفا وضِيافة: مال إليه، والضيف يميل إلى المرء، فسمي به.

في الحديث: «ثلاث ساعات كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهانا أن نصلي

فيهن...، وحين تضيفت الشمس للغروب». (المسند المستخرج على صحيح الإمام مسلم لأبي نعيم، رقم: ١٨٧٦، باب الساعة التي تكره فيها الصلاة)

ضاف عنه: مال عنه.

قال لأبي بكر الصديق رضي الله عنه ابنُه: «ضفت عنك يوم بدر».(غريب الحديث لابن الجوزي ١٣/٢، ط: دار الكتب العلمية)

ضاف فلانا: صار ضيفا عليه. أضاف فلانا: قراه، وأضافه وضمه.

ضَيَّف: قراه. «كان إبراهيم عليه السلام أول الناس ضيَّف الضيفَ».(موطأ مالك، برقم:٣٤٠٨)

أَلَمَّ : النـــزول لوقت قليل، ألَمَّ بالقوم: نزل عندهم قليلا.

قال الشاعر:

أَلَمَّت فحيّت ثم قامت فوَدَّعَتْ ۞ فلما تولتْ كادتِ النفس تزهق

(ديوان الحماسة، ص١١، ينسب إلى جعفر بن علية الحارثي).

أطلق (ألم) على الشيب؛ لأنه ينـــزل لمدة قليلة، ثم يأتيه الموت.

قال الشاعر:

فو اللهِ لا أدري أأحلامُ نائمٍ ۞ أَلَمَّت بنا أم كان في الرَّكبِ يُوشعُ

(خزانة الأدب وغاية الأرب، لابن حجة الحموي (م:٨٣٧) ٤١٤/١)

تحقيق: لَمَم:

اللّمَم: ١- صغار الذنوب، ٢- الجنون.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾ (النجم: ٣٢)

ويؤخذ من الحديث النبوي أن النظر إلى الأجنبية واللمس والقبلة؛ كلها من صغار الذنوب؛ لأن الآية تضمنت كلة (اللمم)، أي لمدة قليلة وبصدفة. ثم تاب فهو من الصغائر. وإن استمر عليه فلا شك أنه من الكبائر.

وفي صحيح البخاري: عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: لم أر شيئا أشبه باللمم من قول أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم: «إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا، أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النظر، وزنا اللسان المنطق، والنفس تمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك كله ويكذبه».(صحيح البخاري، رقم:٦٦١٢، و٦٢٤٣؛ صحيح مسلم، رقم:٢٦٥٧)

وفي سنن الترمذي في تفسير هذه الآية عن ابن عباس رضي الله عنهما: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن تغفر اللهم تغفر جَمًّا، وأي عبد لك لا ألَمَّا».(سنن الترمذي، رقم:٣٢٨٤)

وفي قصة الإفك قال النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة: «إن كنت ألممتِ بذنبٍ فاستغفري الله».(صحيح البخاري، رقم :٤١٤١)

لَمَّ: (ن) لَمًّا: جمع. «اللهم إني أسألك رحمة من عندك...وتلُمُّ بها شعثي». أي: تجمع بها ما تفرق من أمري.(سنن الترمذي، رقم:٣٤١٩)

الإلمام بالشيء: تمكن منه.

اللامَّة: كل مَا يخَاف من فزع أَو شَرّ أَو مس وَالْعين الْمُصِيبَة بِسوء. وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعوذ الحسنين بهذه الكلمات: «أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة». (صحيح البخاري، رقم :٣٣٧١)

لِمَّة: شعر الرَّأْس المجاوز شحمة الأذن. عن البراء بن عازب رضي الله عنه: «ما رأيت من ذي لمة أحسن في حلة حمراء من رسول الله صلى الله عليه وسلم».(صحيح مسلم، رقم:٢٣٣٧)

برأسي: رأَسَ (ف) رِياسة، ورئاسة: ارتأس عليهم، وتصدر. رَئِسَ (س) رأسا: عظم رأسه.

رأَّس الكتاب: وضع له العناوين. رَأَّس الاجتماع: تصدره.

الرأس: ١- أعلى الجسد، ٢- أعلى الشيء، رأس الجبل، ٣- رئيس القوم، ٤- الطرف، والناحية، ٥- فرد، عنده رأس من الغنم.

غيرَ محتشم: حَشَمَ (ض) حُشُومًا: استحيى، حَشِمَ (س) ١- ندم. ٢-غضب.

احتَشَم: ندم. وكان علي رضي الله عنه لا يقطع إلا اليد الوحدة، فإن سرق بعد ذلك قطع الرجل الواحدة، وإن سرق بعد ذلك سجن، فسئل عن ذلك فقال: «إني لأستحيي الله، ألا أدع له يدا».(مصنف عبد الرزاق، رقم:١٨٧٦٤، باب قطع السارق)

وفي رواية أخرى: «إني لأحتشم أن لا أدع له يدا». والمعنى واحد.

احتشم: اتصف بالوقار.

الحِشمة: ١- الحياء، ٢- الندم، ٣- الوقار.

يقال: خدم وحشم: أي من يغضبون له أو من يغضب لهم، نحو الخادم والغلام ونحوهما.

قال شاعر:

سألت عن الأطبا ذات يوم ۞ ليخبر مِمَّ شيي؟ قال: بلغم

فقلتُ له على غير احتشام: ۞ لقد أخطأت فيما قلتَ، بل غم

الإعراب:

ولا أعدت: ع طف على (اتعظت).

ويحتمل العطف نوعين: ١- ورد في البيت الأول الاتعاظ (الاجتناب عن القبائح)، وفي البيت الثاني ورد إعداد (الإتيان بالحسنات)، فعطف (إعداد) على (اتعاظ).

٢- عطف الخاص على العام.

الإعداد: الاجتناب عن القبائح والإتيان بالحسنات، والاتعاظ: الإتيان بالحسنات.

من الفعل الجميل: جار ومجرور متعلق بـــ (أعدت). قرى: مضاف ومضاف إليه.

الفعل الجميل: مبدل منه. قرى ضيف: بدل، برأسي: جار ومجرور متعلق بــــ(ألم).

غيرَ محتشم: حال من (ألم)، أو من (ضيف). أو غير محتشم: صفة (ضيف).

الشرح:

لا أَعَدَّت...: يزيد الناظم من ذكر قبح النفس، ويقول: إن الإعراض عن الضيف، وعدم الاحتفاء به قبيح للغاية.

وفي الحديث: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليكرم ضيفه».(صحيح البخاري، رقم:٦١٢٥)

وخاصة إذا كان الضيف شيبا. فالشرع أمر عامة الناس بأن يكرموا ذا الشيب. فما بالك بمن نزل عليه الضيف؟ أي يجب أن يشتغل في عبادة الله تعالى كل حين، ويكون شرحًا لقوله تَعَالَىٰ:﴿وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾ (المزمل:٨) أي: يقري الضيف المحترم هذا.

عن أبي موسى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن من إجلال الله تعالى

إكرام ذي الشيبة المسلم». (سنن أبي داود، رقم:٤٨٤٣)

يقول الصالحون: يجب اغتنام الشيب، ولا يجوز التقصير في قراه، فإنه آخر تنبيه من الله تعالى لإتمام الحجة. ولا تنبيه على التوبة والإنابة بعدها.

والمراد بالفعل الجميل: الإتيان بالحسنات والإتيان بالتوبة.

الفرق بين العمل والفعل:

١- العمل: ما فيه مشقة، والفعل أعم من ذلك. مثلا تقول: يعملُ الخَشَبَ طاولةً، ولاتقول: يفعل الخشبة طاولة.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ﴾ (سبأ: ١٣) و قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (الزخرف: ٧٢) وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ (الأنبياء: ٨٢) أي: كانت الجن تعمل أعمالا شاقة. وقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (التحريم: ٦)

وعليه أطلقت كلمة «الفعل» لله سبحانه وتعالى، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ (البقرة: ٢٥٣)وقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ (إبراهيم: ٢٧) وقَالَ تَعَالَى: ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾ (الأنبياء: ٢٣) فإن أطلق «العمل» على الله تعالى كان مجازًا، أو لسبب آخر.

٢- العمل: ما أحسنَ وزُيِّن. والفعل: أعم منه. قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ ﴾ (سبأ: ١٣) وقَالَ تَعَالَى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ﴾ (النحل: ٩٧) وقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ (الأنفال: ٤٨) وقَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (السجدة: ١٩) وقَالَ تَعَالَى: ﴿ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ﴾ (سبأ:١١) وقال في ذبح بني إسرائيل البقرة: ﴿ وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ (البقرة: ٧١)

٣- العمل: فعل اختياري. والفعل: أعم من أن يكون اختياريا أو غير اختياري.

ولذا لا يطلق للحيوانات إلا الفعل في معظم الأحوال، ولا يطلق لها العمل إلا قولهم: البقر العوامل.

وقال في جزاء المؤمنين على أعمالهم الصالحة: ﴿ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (السجدة: ١٧)

وقال في قتل القبطي: ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ١٩ ﴾ (الشعراء: ١٩) لأن قتل القبطي كان غير اختياري.

وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ٤١ ﴾ (النور: ٤١)

٤- والعمل: ما فيه دوام، وأما الفعل فلا يتضمن الدوام عادة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ (البقرة: ٢٧٧) عبَّر القرآن الكريم عن الأعمال الصالحة حيث ذكرها- بالعمل الصالح، دون «الفعل». وفيه إشارة إلى أن الدوام مطلوب وممدوح في العمل الصالح.

وأما الفعل فليس فيه الدوام، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ٤ ﴾ (المؤمنون: ٤) ؛ لأن الزكاة مرة واحدة في السنة.

و قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ (آل عمران: ١٣٥)؛لأن المتقين لا يأتون الذنب إلا أحيانا. ولذا أعقبه بقوله: ﴿ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (آل عمران: ١٣٥)

٥- العمل: يشمل القول أيضا، والفعل يقابل القول.قال تعالى: ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ (الصف: ٢) فقابل القول بالفعل، دون العمل.

وفي صحيح البخاري: « باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: «بني الإسلام على خمس» وهو قول وفعل». (صحيح البخاري١/١٠)

وفي تفسير الشعراوي: «إذن فالعمل يشمَل القول، ويشمل الفعل».(ص٣٠٣٢، سورة الصحف، ومثله في التحبير وشرح التحرير في أصول الفقه للمرداوي الحنبلي ٥/٢١٤٤، ط: مكتبة الرشد)

٦- أما ما فرق به علماء اللغة فهو فيما يلي:

العمل: إيجاد الأثر في الشيء. فيقال: يعمَل الأديمَ سِقاءً، ولا يقال: يفعل. (الفروق اللغوية للعسكري ١/٣٧٧؛ الفرق بين العمل والفعل؛ عمدة القاري١/٥٠ بدء الوحي).

ملحوظة: تتجلى هذه الفروق بين العمل والفعل بالنظر في سياقات كثيرة من مواضع القرآن الكريم. كما يتجلى اثنين أو ثلاثة من الفروق في آية واحدة.

وأشار الناظم بقوله في البيت: «من الفعل الجميل»إلى أن نفسه بلغت من القبح أنها لا تتهيأ لإتيان الأعمال حتى التي تتم من غير مشقة.

أَلَمَّ برأسي: ويبدو الشيب أولا في اللحية إلا أن الناظم خص بالرأس، للحمل على التفكير في أن الرأس فيه الدماغ، فهلا ينظر في عاقبة الشيب.

غير محتشم: ١- احتشم: احترم، ومنه: احتشام الحق. فالمعنى: غيرُ محترم عند الناس. يقول الناظم: إن الناس لا يحترمونه، مع أنه ضيف يستحق الاحترام.

٢- الحِشمة: الغضب. يقال: أحشمتهُ: أي: أغضبته. فالمعنى: غير غضبان.

٣- الحشم: حشم الرجل: قرابته ومن حوله من الخدم والغلمان والعيال.

المعنى: غير محتشم: أي مقترنٍ بالعسكر. أي أن هذا الضيف نزل لينفعك، و لم ينـــزل بجيش.

٤- حشمت الرجل وأحشمته: إذا آذيته، فالمعنى: غير محتشم: غير مؤذيك؛ بل نافع لك.

٥- احتشم: استحيى، ومنه قول علي رضي الله عنه في السارق: «إني لأحتشم أن لا أدع له يدا». (النهاية في غريب الحديث١/٢٩١)

فالمعنى: غير محتشم: غير مستحيٍ، أي ضيف إذا حان موعد نزوله لايستحيي، بأن قلبه شاب فلا يحسن بي أن أنزل عليه.

البلاغة:

١- ضيف أَلَمَّ برأسي: فيه استعارة تصريحية تخييلية ترشيحية.

الشيب: مشبه. والضيف: مشبه به. وجه الشبه: الإتيان فجأة.

ذكر المشبه به فالاستعارة تصريحية. وأثبت (الإعداد) وهو من لوازم المشبه به، فكانت تخييلية.

والمناسب للإعداد أن يحسنه. (الفعل الجميل): أثبته للمشبه به، فكانت ترشيحية.

وتتضمن الاستعارة قرينة، والقرينة على إرادة الشيب بالضيف هنا: ألمَّ برأسي؛ لأن الشعر الأبيض ينـــزل بالرأس لا الضيف.

نحو: رأيت أسدا في الفصل: أريد به الرجل الشجاع؛ لأن (في الفصل) قرينة عليه.

٢- في البيت استعارة تمثيلية.

التمثيلية: تشبيه هيئة منتزعة من عدة أشياء بهيئة أخرى.

فإن ذكر المشبه به كانت تصريحية.

في البيت شُبه إتيان الشيب (فجأة) بإتيان الضيف (فجأة)، فهذا تشبيه هيئة بهيئة. وذُكِرَ المشبه به (ضيف أَلَمَّ)، فكانت مصرحة.

٣- فيه تضمين.

التضمين: أَن يَأْخُذ الشَّاعِر أَو الناثر آيَة أَو حَدِيثا أَو شطرا أَو بَيْتا من شعر فيجعله جزءا من كلامه.

والشطر الثاني من البيت: «ضيف ألم برأسي غير محتشم» مأخوذ من بيت المتنبئ:

ضيف أَلَم برأسي غير محتشم ۞ والسيف أحسن فعلا منه باللمم

٤- أو نقول: ليس تضمينا، فكلاهما شاعران، توارد ذلك إلى خواطرهما وهو ما يطلق عليه « توارد الخواطر».

****



اللغة:

لو: لها معانٍ مختلفة:

١- بمعنى أن المصدرية، نحو قوله تَعَالَىٰ: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ٩﴾ (القلم: ٩) وقوله تَعَالَىٰ: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ (البقرة: ٩٦)

٢- بمعنى التمني: نحو قوله تَعَالَىٰ: ﴿لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ﴾ (البقرة: ١٦٧) وقوله تَعَالَىٰ: ﴿فَلَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠٢﴾ (الشعراء: ١٠٢)

٣- بمعنى العرض: نحو: لوتنـــزل بها فتصيب خيرا.

٤- للتقليل، نحو: «اتقوا النار ولو بشق تمرة». (صحيح البخاري، رقم:١٤١٧)

أو قوله صلى الله عليه وسلم لعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: « أولم لو بشاة».(صحيح البخاري، رقم: ٥١٦٧)

٥- شرطية، وهو المراد في البيت.

لو الشرطية: تجعل المنفي مثبتا، والمثبت منفيا. وبيانه أن لو الشرطية تتبعها جملتان: شرط وجزاء. والقاعدة تقول:

١-إن كانت الجملتان المسبوقتان بلو مثبتتين، انتفتا، نحو: لوجاءني لأكرمته. أي لم يأتني فلم أكرمه. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ﴾ (آل عمران: ١٥٩) وقوله تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ (الأنعام: ٨٨)

٢- فإن كانت الجملتان المسبوقتان بلو منفيتين، صارتا مثبتتين. نحو: لو لم يستدِن لم يطالَب. وحيث إنه استدان فطولب.

«لو لم تغرف من الماء لكان عينا معينا».(صحيح البخاري، رقم:٢٣٦٨)

٣- فإن كانت الجملتان المسبوقتان بلو إحداهما منفية والأخرى مثبتة، أثبتت المنفي ونفت المثبتة. نحو: لو لم يؤمن أهريق دمُه. أي: آمن فلم يرق دمه.

زيادة تفصيل لـــ (لو) الشرطية:

ثم اختلف النحاة في سبب النفي هذا؟

١- عند الجمهور: لو لامتناع الثاني لأجل امتناع الأول. أي انتفت الأولى فانتفت الثانية، أي لم يوجد الشرط فلم يوجد الجزاء.

٢- واستحسنه المتأخرون من النحاة وصححوه، وأيسر مثال على ذلك: قوله تَعَالَى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ (الأنبياء: ٢٢) فالمعنى على رأي الجمهور: لو كان فيهما إلها أكثر من واحد لفسدتا، وحيث لم يوجد آلهة أكثر من واحد، فنرى نظام العالم مستمر ولم يفسد.

والمعنى على الرأي الثاني: نرى العالم ليس فيه فساد، (فالقمر والشمس وغيرهما من المخلوقات مستمرة في أعمالها و وظائفها) فعُلِم أن الإله واحد، وليس أكثر منه. وهذا المعنى أرجح وأكثر تأثيرًا في إثبات وحدانية الله تعالى علاوة على وضوحه.

والمراد في هذا البيت على رأي الجمهور: امتناع الثاني لأجل امتناع الأول. أي لو علمت أني لن أقدر على تعظيم الشيب، لخضبت؛ ولكن لم أعلم فلم أكتم، ولو علمت لكتمت.

اقرأ ما قاله صاحب مختصر المعاني في (لو): « ولو: للشرط، أي لتعليق حصول مضمون الجزاء بحصول مضمون الشرط فرضا في الماضي مع القطع، بانتفاء الشرط، فيلزم انتفاء الجزاء، كما قلتَ: لو جئتني لأكرمتك، معلقا الإكرامَ بالمجيء، مع القطع بانتفائه، فيلزم انتفاء الإكرام، فهي لامتناع الثاني، أعني: الجزاء، لامتناع الأول، أعني: الشرطَ. يعني أن الجزاء منتفٍ بسبب انتفاء الشرط، وهذا هو المشهور بين الجمهور. واعترض عليه ابن الحاجب: بأن الأول سبب والثاني مسبب، وانتفاء السبب لا يدل على انتفاء المسبب، لجواز أن يكون للشيء أسباب متعددة؛ بل الأمر بالعكس، لأن انتفاء المسبب يدل على انتفاء جميع أسبابه. فهي لامتناع الأول لامتناع الثاني. ألا ترى أن قوله تَعَالَى: ﴿لَوۡ كَانَ

فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ (الأنبياء: ٢٢) إنما سيق ليُستدل بامتناع الفساد على عدم تعدد الآلهة. دون العلكس. واستحسن المتأخرون رأي ابن الحاجب، حتى كادوا يجمعون على أنها لامتناع الأول لامتناع الثاني». (مختصر المعاني، ص ١٧٩)

وفي شرح الكافية: والصحيح أن يقال كما قال المصنف: هي موضوعة لامتناع الأول لامتناع الثاني. (شرح الكافية لرضي الدين الأسترابادي ٤/٤٨٧)

وخير تطبيق لمعنى (لو) هذا في ضوء الأحاديث النبوية والفوائد المستفادة منها اقرأه في «فتاوى دارالعلوم زكريا» ١/٣٧٠-٣٧١، حديث: «لو عاش إبراهيم لكان صديقا نبيا»).

أعلَمُ: عَلِمَ (س) عِلْمًا: عرف، وقَف عليه. قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ﴾ (البقرة: ٢٥٥)

ويطلق (عَلِمَ) على معانٍ أخرى في بعض المواضع لقرائن تدل عليها، مثل ما روى البخاري: «فقال له (أي لعمر بن عبد العزيز) عروة: أما إن جبرئيل قد نزل فصلى أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال عمر: اعلَم ما تقول».(صحيح البخاري، رقم: ٣٢٢١)

فـــ أعلم إما معناه: أفهَم أو أخبر أو أسند.

أُوَقِّرُهُ: وقُر (ك) وقارا: رزن وَثَبت. وقَرَ (ض) وَقْرًا: أذنه ثقلت. وَقَرَ في البيت: جلس.

وَقَرَ في قلبه: رسخ فيه. قال جبير بن مطعم: «سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب بالطور، وذلك أول ما وقَرَ الإيمان في قلبي». (صحيح البخاري، رقم:٤٠٢٣)

أوقَرَ: ثقل. في حديث البخاري: «قال حرملة: فذهبت إلى حسن وحسين وجعفر فأوقر لي راحلتي». (صحيح البخاري، رقم ،٧١١٠)

وَقَّرَ: جعله وقورا، عظَّمه، وهو المراد هنا.

في الحديث: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا».(سنن الترمذي، رقم:١٩١٩)

وعند الطبراني: عن عائشة مرفوعا: «من وقَّرَ صاحبَ بدعة، فقد أعان على هدم

الإسلام». (المعجم الأوسط، رقم:٦٧٧٢، ط: دار الحرمين).

في الحديث كلام طويل، فقيل: موضوع، وقيل: إنه من كلام فضيل بن عياض. (راجع: المقاصد الحسنة للسخاوي١/٦٤٦. اللآلي المصنوعة ١/٢٣١).

الوقار: ١-التعظيم، ٢-الرزانة. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣﴾ (نوح: ١٣) ومعنى الوقار في الآية: التعظيم. (تفسير القرطبي ١٨/٣٠٣).

وورد في الشهيد: «ويوضع على رأسه تاج الوقار».(سنن الترمذي، رقم: ١٥٨٦، في ثواب الشهيد، ولا يوجد هذا الحديث في النسخ الهندية)

كتمت: (كتم) الشَّيْء (ن) كَتمًا وكِتمَانًا: أخفاه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ﴾ (البقرة: ٢٨٣)

في الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من سئل عن علم علمه، ثم كتمه، أُلْجِمَ يوم القيامة بلجام من نار». (سنن الترمذي، رقم:٢٦٤٩)

وقد يتعدى إلى مفعولين: نحو: كتمت فلانا الحديث، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ (النساء: ٤٢)

(كَتَّمَ) بالغ في كتمانه، لم يطلع عليه أحد. تكاتم: كتم بعضه من بعض.

الكتم: نبت يخلط بالحناء ويخضب به الشعر.

سِرًّا: (سرَّ) سَرَرًا: وسَرًّا: اشتكى سرته.

سَرَّ: (ن) سُرُورًا ومسرة. أفرحه. وفي صحيح البخاري: «من سَرَّه ان يُبسط له رزقه...، فليصل رحمه».(صحيح البخاري، رقم:٢٩٦٧)

(أسرَّ) كتمه، ومنه قوله تَعَالَىٰ: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ﴾ (يوسف: ٧٧)

أسَرَّ الحديث: أوصله سرا، ومنه في التَّنْزيل العزيز: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ﴾ (التحريم: ٣)

(ساره) مسارة وسرارا ناجاه. وروى البخاري في عدة مواضع: «دعا النبي صلى الله عليه وسلم فاطمة ابنته في شكواه التي قُبِضَ فيها، فسارها بشيء...».(صحيح البخاري، رقم:٣٧١٥)

(السِّرّ) ١- مَا تكتمه وتخفيه، وهو المراد هنا. ٢- من كل شيء حقيقته. ٣-أعلى الشيء وأفضله. ٤- ما قرره في نفسه. (ج) أسرار.

و(السر) من الأضداد. سَرَرتُه :كتمته، وأعلنته.(تاج العروس ٥/١٢).

«ما يوم حليمة بسر»: يضرب مثلاً في كل أمر مُتَعَالم مشهور. والمعنى: لا تخفى مناقب حليمة على أحد.

يوم نشبت الحرب بين الحارث بن أبي شمر –ملك الشام– و المنذر بن المنذر–ملك العراق– طيبت حليمة جيش أبيها طيبا كثيرا، فنشطوا في الحرب عن شوق ورغبة. ويعتبره المؤرخون أشهر أيام العرب. فنسب هذا اليوم إلى حليمة، ثم ضرب به المثل في كل أمر مشهور معروف.(راجع: مجمع الأمثال ٢/٥٣-٣٣٢، مثل:٢٦٠٦، ٣٨١٤؛ تاريخ ابن خلدون٢/٢٨١، ط: إحياء التراث العربي، بيروت).

سريرة: عمل السر. ومن الأدعية المأثورة: «اللهم اجعل سريرتي خيرا من علانيتي». (سن الترمذي، رقم:٣٥٨٦)

السراء: النعمة والرخاء. قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ ﴾ (آل عمران: ١٣٤)

قال عبد الرحمن بن عوف: «ابتلينا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالضراء فصبرنا ثم ابتلينا بالسراء بعده فلم نصبر».(سنن الترمذي، رقم: ٢٤٦٤)

السرية: عند علماء السير: الجهاد الذي لم يشارك فيه النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه.

اختلفوا في عدد السرايا. ذكر ابن سعد عن موسى بن عقبة (٤٧) سرية. وقال ابن إسحاق (٣٨)، وقال ابن الجوزي(٥٦). (الطبقات الكبرى٢/١٠، ذكر عدد مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ شرح الزرقاني على المواهب اللدنية ١/٣٨٨، ط: دار المعرفة).

وتذكر كتب الفقه كثيرا السراري بمعنى الإماء، واحدها: سُرِّية، وأصله هذه الكلمة:

(١) السِرّ بمعنى الوطء. وكان الناس يقتنون السراري لهذا الغرض. ٢- السِرُّ: بمعنى الإخفاء، فإن كثيرا من الناس كانوا يكتمون على زوجاتهم الحرائر سراريهم. ٣- السُرور: لأن المرء يفرح بهن. (راجع: تبيين الحقائق٣/١٤٥، اليمين في الطلاق؛ رد المحتار ٣/٤٨)

سُرَّ من رأى: مدينة عراقية في الدرجة الثانية، عمرت بعد بغداد، وكان يسكنها

الخلفاء العباسيون.

يقول الشيعة: إن إمامهم الثاني عشر سيخرج من غار سر من رآه.

بدَا: بدَا (ن) بُدُوًا، وبَدَاءً: ظهر. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن﴾ (الأنعام: ٢٨)

بَدا له في الأمر: خطر بباله. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُاْ ٱلْأَيَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ٣٥﴾ (يوسف: ٣٥)

وفي حديث ضمام بن ثعلبه الأنصاري: «سَل ما بدا لك». (صحيح البخاري، رقم :٦٣)

بدَا بَدْوًا وبداوة: خرج إلى البادية. أبدى: ١- أظهره، ٢-أخرجه إلى البادية.

بادى فلانا: باراه وبارزه. البداء: ظُهُور الرَّأْي بعد أَن لم يكن.

البدائية: جوز الشيعة البداء على الله تعالى، ويعدونه عبادة عظيمة. البداء: أي ظهر لله تعالى ما لم يكن يعلمه سبحانه وتعالى. وبتعبير آخر: كان الله تعالى جاهلا بشيء ثم عَلِمَه. (العياذ بالله منه)، فهم يقولون–مثلا– نص الله تعالى على إمامة إسماعيل عن جهل، ثم صدرت منه أعمال قبيحة فنص على إمامة موسى الكاظم، واعتذورا بأن الله تعالى– العياذ بالله منه– قد بدا له في النص الأول. وعد الشاطبي القائلين بهذا الرأي من غلاة الشيعة.

تحدثت عدة كتب شيعية– مثل الكافي– عن عقيدة الشيعة هذه. (للاستزادة راجع: هدايات الشيعة ٣٧٨-٣٨٠ للشيخ خليل أحمد السهارن فوري؛ إرشاد الشيعة للشيخ سرفراز خان ص ١٦٩-١٧٥)

الإعراب:

لو: حرف شرط، كنت أعلم أني ما أوقره: جملة فعل الشرط،. كتمت سرا: جزاؤه.

أعلم: يتعدى إلى مفعولين فجملة (ما أوقره) سدت مسد المفعولين. والتقدير: لو كنت أعلم عدم تعظيمي الشيبَ.

بدا لي: لي متعلقة بـــ بدا.

منه: ١- متعلق بـــ بدا. ٢- متعلق بـــ الشيب. أي بدا لي السر من طرف الشيب.

سِرًّا: موصوف، صفته: بدا لي منه. بالكتم: متعلق بـــ كتمتُ.

الشرح:

المراد بالسر؟

١- الشيب (الشعر الأبيض)، كان خافيا قبل البدو والظهور.

٢- إنذار الشعر الأبيض، أي كما أن السر لا يتطرق إليه الخيال. كذلك لا يتطرق الخيال إلى إنذار الأشعار البيضاء.

ذكر الناظم إلى هنا (السر) مرتين: ١- في البيت رقم (١٠): «لا سري بمستتر». والمراد فيه بالسر: شاهد الحب. ٢- في هذا البيت: المراد به إنذار الشعر الأبيض.

بدا لي: ظهر لي؛ لأن المرء هو الذي يطلع على شعره الأبيض قبل غيره، إذ يرى نفسه.

فضل الشعر الأبيض:

هذا البيت يرغب في توقي الشيب واحترام الأشعار البيضاء.

ورد في الأحاديث: أول من شاب: إبراهيم عليه السلام. ففي موطإ مالك رحمه الله: عن سيعد بن المسيب أنه قال: «كان إبراهيم... أول الناس رأى الشيب، فقال: يا رب، ما هذا؟ فقال الله تعالى تبارك وتعالى: وقار يا إبراهيم. فقال: يا رب، زدني وقارا». (موطأ الإمام مالك، رقم ٣٤٠٨).

عن كعب بن مالك قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من شاب شيبة في الإسلام كانت له نورا يوم القيامة».(سنن الترمذي، رقم: ١٦٣٤)

ووردت أحاديث كثيرة تدل على أن الله تعالى يستحيي من تعذيب الشائب. وفي رواية: إن إكرام الشيب من تعظيم الله تعالى:

عن أبي موسى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن من إجلال الله تعالى إكرام ذي الشيبة المسلم». (سنن أبي داود، رقم: ٤٨٤٣)

الخضاب، وتفصيل الأحكام المتعلقة به:

ذكر الناظم الخضاب، وفيما يلي بعض الجوانب الخاصة به:

حكم الخضاب:

يستحب للمرء أن يخضب شعره الأبيض بالحناء وغيره من الألوان (سيأتي بيان الألوان لاحقا) إلا السواد. وليس ذلك لازما وواجبا. فقد وردت أحاديث كثيرة بترك الشيب.

سؤال: هل الأفضل خضاب الشعر الأبيض أو عدم خضابه؟

الجواب: استحب الفقهاء الخضاب، ننظر أولا في الأحاديث الواردة في هذا الشأن:

وردت أحاديث تدل على الأمرين: أي بعضها تدل على ترك الشيب، فقد ورد فضل الشيب في أحاديث، منها:

١- عن كعب بن مالك قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من شاب شيبة في الإسلام كانت له نورا يوم القيامة».(سنن الترمذي، رقم: ١٦٣٤)

٢- عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الشيب نور، من شاب شيبة في الإسلام كتب الله له بها حسنة. وكفَّر عنه بها خطيئة، ورفعه بها درجة».(مسند الإمام أحمد، رقم:٦٢٦٩، قال الشيخ شعيب الأرنؤوط: صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن)

و ورد الأمر بالخضاب في بعض الأحاديث، منها:

١- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن اليهود والنصارى لايصبغون، فخالفوهم».(صحيح البخاري، رقم:٥٨٩٩)

٢- وفي مسند الإمام أحمد عن أبي أمامة رضي الله عنه: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في مشيخة من الأنصار بيض لحاهم، فقال: يامعشر الأنصار، حمِّروا وصَفِّروا وخالفوا أهل الكتاب». (المسند للإمامم أحمد، رقم:٢٢٢٨٣، قال الشيخ شعيب الأرنؤوط: صحيح)

٣- وفي صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه قال: أتِيَ بأبي قحافة يوم الفتح ورأسه ولحيته كالثغامة بياضا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «غيروا هذا بشيء واجتنبوا السواد».(صحيح مسلم، رقم:٢١٢٠)

وفق أهل العلم بين هذه الأحاديث بوجوه، منها:

١- من كانت لحيته شديدة البياض مثل لحية أبي قحافة، فعليه أن يخضبها، وأما من

لم تكن لحيته على مثل هذا البياض، وتبدو جميلة من غير خضاب، فعليه الحذر من الخضاب.

٢ - الخضاب أفضل لمن كان في موضع عادة أهله الصبغ، وحيث كان في موضع لا يخضبون، ويستميل الخاضب لحيته أنظار الناس إليه فليحذر.

قال النووي رحمه الله: « قال القاضي: وقال غيره — أي الطبراني-: هو على حالين: فمن كان في موضع عادة أهله الصبغُ أو تركه فخروجه عن العادة شهرة ومكروه. والثاني: أنه يختلف ذلك باختلاف نظافة الشيب، فمن كان شيبه نقية أحسن منها مصبوغة فالترك أولى، ومن كان شيبه يستشنع فالصبغ أولى». (حاشية النووي على صحيح مسلم ١٩٩/١؛ ومثله في فتح الباري١٠/٣٥٥؛ وأوجز المسالك ٤٨/١٧؛ وشرح الزرقاني ٣٣٩/٤).

عمل الصحابة رضي الله عنهم:

اختلف عمل الصحابة في هذا الصدد، فكان أبو بكر، وعمر، وعبد الله بن عمر، وجرير بن عبد الله، وجابر بن سمرة، وغيرهم يخضبون.

وكان أبي بن كعب، وعلي، وسلمة بن الأكوع، والسائب بن يزيد رضي الله عنهم، ومجاهد، وطاؤوس رحمهما الله، وغيرهم يتركون الشيب.

وفي صحيح مسلم: عن أنس رضي الله عنه: «وقد خضب أبو بكر وعمر بالحناء والكتم».(صحيح مسلم، رقم:٢٣٤١. وللاستزادة من الآثار راجع: المصنف لابن أبي شيبة ٥٥٧/١٢-٥٦٢)

وتخلصُ دراسة الأحاديث والشروح إلى أنه يجوز ترك الشيب، ويجوز خضبه. ويستحب الخضاب؛ لأن الأمر بالخضاب ورد به الحديث.

قال الإمام محمد في الموطإ: «لا نرى بالخضاب بالوسمة والحناء والصفرة بأسا، وإن تركه أبيض فلا بأس بذلك، كل حسن».(الموطأ للإمام محمد، ص٣٣٠)

وقال النووي رحمه الله: «ومذهبنا استحباب خضاب الشيب للرجل والمرأة بصفرة أو حمرة...، و الأصح الأوفق للسنة ما قدمناه».(حاشية النووي على صحيح مسلم ١٩٩/٢)

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «ولكن الخضاب مطلقا أولى؛ لأنه فيه امتثال الأمر في مخالفة أهل الكتاب، وفيه صيانة الشعر عن تعلق الغبار وغيره، إلا إذا كان من عادة أهله ترك الصبغ. وأن الذي ينفرد بذلك يصير في مقام الشهرة فالترك في حقه أولى». (فتح

الباري١٠/٣٥٥)

وفي الدر المختار: «يستحب للرجل خضاب شعره ولحيته ولو في غير حرب على الأصح». (الدر المختار٦/٤٢٢).

وفي الفتاوى الهندية ٥/٣٥٩: «اتفق المشايخ رحمهم الله تعالى أن الخضاب في حق الرجال بالحمرة سنة، وأنه من سيماء المسلمين... وعن الإمام أن الخضاب حسن؛ لكن بالحناء والكتم والوسمة».

سؤال: فإن قيل: حيث ورد الحديث بالأمر بالخضاب كان- الخضاب- واجبا؟

الجواب: ١- إذا أمر المسلم بمخالفة أهل الكتاب في حكم من الأحكام، ونقل عن الصحابة العمل وتركه، فالمراد به المخالفة في العقيدة، أي أن اليهود والنصارى يرون عدم جواز الخضاب، فاعلموا واعتقدوا بأن هذا العمل جائز، ولا يلزم المخالفة في العمل، أو أن مخالفتهم أولى. وإنما حملنا على ذلك لأن الصحابة رضي الله عنهم أول من خوطبوا بتوجيهات الرسول صلى الله عليه وسلم، وفهموا من هذا الحديث على السعة في الخضاب وعدمه، كما تقدم.

٢- أن الحديث محمول على الاستحباب حيث علم جواز الخضاب وتركه في الحديث.

لون الخضاب:

لم يرد تحديد لون من الألوان إلا الأسود، وقد روي في الحديث أربعة ألوان الخضاب:

١- خضاب الحناء.

٢- خضاب الكتم الذي ذكره الناظم.

والكتم شجرة سوداء، مائلة إلى الحمرة، وكان من الصحابة رضي الله عنهم من يجمع بينهم في الخضاب. فكان سوادا مائلا إلى الحمرة. واعلم أنه الخضاب بالسواد عن عمد ممنوع. كما سيأتي.

ورد الحديث باستحباب هذين النوعين من الخضاب.

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن أحسن ما

غيرتم به الشيب: الحناء والكتم». (سنن ابن ماجه، رقم:٣٦٢٢؛ سنن النسائي، رقم: ٥٠٧٧)

٣- الخضاب بالصفرة.كان عبد الله بن عمر يخضب بالصفرة. ويروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يحب هذا اللون، وكان أحب الألوان إليه.

في سنن النسائي عن زيد بن أسلم قال: «رأيت ابن عمر يصفر لحيته بالخلوق، فقلت: يا أبا عبد الرحمن ، إنك تصفر لحيتك بالخلوق؟ قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصفر بها لحيته. ولم يكن شيء من الصبغ أحب إليه منها. ولقد كان يصبغ بها ثيابه حتى عمامته». (سنن النسائي، رقم: ٥٠٨٥؛ سنن أبي داود، رقم:٥٠٦٤).

وفي الصحيح للبخاري: «وأما الصفرة فإني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصبغ به؛ فأنا أحب أن أصبغ بها». (صحيح البخاري، رقم:١٦٦)

وروي عن عثمان بن عفان، وأبي هريرة، وزيد بن وهب، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، والمغيرة بن شعبة، وغيرهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم كانوا يصبغون بالصفرة. (راجع: المصنف لابن أبي شيبة ١٢/٥٥٧-٥٦٠)

٤- الخضاب بالزعفران: وفي شرح مسلم للنووي: «وخضب بعضهم بالزعفران». (١٩٩/٢)

وفي سنن أبي داود عن ابن عمر: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يلبس النعال السبتية، ويصفر لحيته بالورس والزعفران.(سنن أبي داود، رقم:٤٢١٠)

واعلم أن الخضاب بالزعفران لا يجوز للرجل عند الأحناف؛ لورود الأحاديث الصحيحة بمنع الرجل عنه.

عن أنس رضي الله عنه قال: « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتزعفر الرجل». (صحيح البخاري، رقم:٥٨٤٦؛ صحيح مسلم، رقم:٢١٠١)

قال العيني رحمه الله: «وكره أبو حنيفة والشافعي وأصحابهما أن يصبغ الرجل ثيابه أو لحيته بالزعفران». (عمدة القاري ١٤/١١١؛ مرقاة المفاتيح ٢٩٧/٨).

وأما ما روي عن الصحابة من الخضب بالزعفران فمحمول على ما قبل النهي عنه، أو لم يعلموا النسخ، أو نقول: صبغ الوجه تشبه بالنساء، و في صبغ اللحية به سعة.

الصبغ بالسواد:

لا يجوز الصبغ بالسواد، فقد ورد الحديث النبوي بالمنع الشديد عنه، روي أن هؤلاء لا يجدون ريح الجنة.

ورخص الفقهاء للرجال الصبغ بالحناء السوداء عند الجهاد، فلا يجوز الخضب بالسواد في غير ذلك. قال النووي رحمه الله: اتفق الفقهاء على أن الصبغ بالسواد لايجوز. وهو ظاهر الرواية عند الأحناف، وإليه مال أكثر المشايخ. وقال الفقهاء: إذا اختلفت الروايتان في أمر صِيرَ إلى ما كان أوفق للحديث، ويجب الفتوى به. وروي عن أكثر المشايخ في هذا الباب المنع عن الصبغ بالسود. وهو الأوفق بالأحاديث. فعليه الفتوى.

أخرج مسلم بسنده عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: أتيَ بأبي قحافة يوم الفتح ورأسه ولحيته كالثغامة بياضا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « غيروا هذا بشيء واجتنبوا السواد».(صحيح مسلم، رقم ٢١٢٠)

وروى أبو داود بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يكون قوم يخضبون في آخر الزمان بالسواد، كحواصل الحمام لا يريحون رائحة الجنة». (سنن أبي داود، رقم:٤٢١٢)

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من خضب بالسواد سوده الله وجهه يوم القيامة».(مجمع الزوائده/١٦٣)، قال الحافظ في الفتح: «وسنده لين». (فتح الباري١٠/٣٥٥).

وقال مجاهد: «أول من خضب بالسواد فرعون». (المصنف لابن أبي شيبة، رقم:٣٦٩٦٨)

قال الإمام النووي: «ومذهبنا استحباب خضاب الشيب للرجل والمرأة بصفرة أو حمرة. ويحرم خضابه بالسواد على الأصح. وقيل: يكره كراهة تنــزيه. والمختار التحريم، لقوله صلى الله عليه وسلم: «اجتنبوا السواد...، والأصح الأوفق للسنة ما قدمناه عن مذهبنا».(شرح النوو على صحيح مسلم٢/١٩٩)

وفي الفتاوى الهندية: «وأما الخضاب بالسواد فيمن فعل ذلك من الغزاة ليكون أهيب في عين العدو، فهو محمود منه، واتفق عليه المشايخ رحمه الله تعالى، ومن فعل ذلك ليزين

نفسه للنساء ويحبب نفسه إليهن فذلك مكروه، وعليه عامة المشايخ».(الفتاوى الهندية ٣٥٩/٥، ومثله في الشامية ٤٢٢/٦-٤٦٤).

وفي الشامية: « ولا ينبغي أن يعدل عن الدراية إذا وافقتها رواية على ما تقدم عن فتاوى قاضي خان».

علم من هذه الآثار أنه يجب الحذر من الخضب بالسواد،كما أن الخضاب بالسواد لا يروق بعد ابيضاض الشعر، ويبدو المرء معه غريبا. (وينظر: المجموع شرح المهذب٢٩٤/١، خضاب اليدين والرجلين؛ فتح الباري٣٥٤/١٠-٣٥٥، كتاب اللباس، باب الخضاب)

معنى البيت:

أعرب الناظم في هذا البيت عن ندمه على عصيان نفسه فقال: لم أقبل نصح الشيب بسبب النفس الأمارة، ولو استقبلت من عدم قدرتي على احترام الشيب (أي الإعراض عن المعاصي إلى الطاعات) لم أدع الشيب يبدو لي، بل سارعت إلى كتمه بالحناء، فأتقي بذلك لوم الناس وتشنيعهم -على أقل تقدير- بأن هذا الرجل قد استوى شيبه وشبابه، ولكن لم أدر ذلك مسبقا، فلم أخضب شعري.

والبوصيري رحمه الله تعالى على غاية من حب الرسول صلى الله عليه وسلم وعشقه، ويحاول احترام الشيب كل المحاولة إلا أنه يحز في نفسه دائما أنه قصر في احترام هذا الضيف حق الاحترام.

البلاغة:

١- في (كتم) و(كتمت) جناس ناقص.

٢- في (كتمت سرا) استعارة تصريحية تبعية.

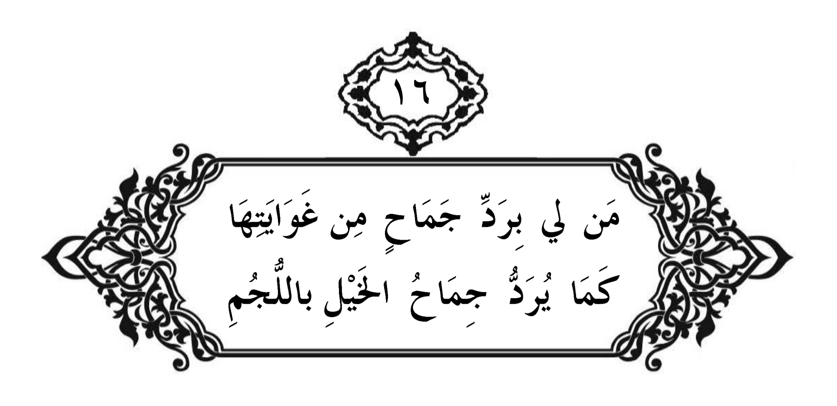
إخفاء الشيب: مشبه، وكتان السر: مشبه به، أطلق المشبه به وأرد المشبه، فكانت استعارة تصريحية. ثم ذكر المشتق من المشبه به وهو (كتمت) فكانت تبعية.

٣- سرا: فيه استعارة تصريحية ترشيحية.

إنذار الشيب: مشبه، وسر: مشبه به، أطلق المشبه به وأراد المشبه، فكانت تصريحية.

كتمت: أثبت بعض مناسبات المشبه به للمشبه، فكانت ترشيحية (لأن الكتمان يناسب السر). انتهى.

وصلى الله النبي الكريم. ولله الحمد أولا وآخرا.



اللغة:

مَن: أقسامها ومعانيها:

مَن: تُطلق على المفرد والجمع والمذكر والمؤنث، ولها معانٍ كثيرة، منها:

١- شرطية، فإن كان جزاؤها مضارعا جزمتها: نحو: من يجتهد يفُزْ. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ (النساء: ١٢٣) وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧﴾ (الزلزلة: ٧)

وفي الحديث: «من يستعفف يُعِفَّه الله، ومن يستغنِ يُغنه الله». (صحيح البخاري، رقم:١٤٦٩؛ صحيح مسلم، رقم:١٠٥٣)

٢- استفهامية (حقيقة)، نحو: مَن أستاذك؟ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ (العنكبوت: ٦١) وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ (يس: ٥٢)

٣- للاستفهام الإنكاري، ففيه نفي في أسلوب الإنكار، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ (آل عمران: ١٣٥) وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ (البقرة: ٢٥٥) وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ (البقرة: ١٣٠)

وجاء في شفاعة المرأة المخزومية –الذي رواه البخاري-: «ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حِب رسول الله صلى الله عليه وسلم».(صحيح البخاري، رقم:٣٤٧٥)

٤- موصولة: نحو قوله تَعَالَىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ (النحل: ٩٧)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ (الأنعام: ١٦٠)

وفي صحيح البخاري: «من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة». (صحيح البخاري، رقم:٦٨٠٧)

٥- نكرة موصوفة، أي: مَن: نكرة وما بعدها صفتها. نحو: رب من أكرمته آذاك.

وقال الشاعر:

ألا ربَّ مَن تدعو صديقًا ولو ترى ۞ مقالتَه في الغيب ساءَك ما يَفري

يطلق «من لي» في المعتاد للسؤال عمن يتحمل الشيء ويضمن له، كما في قصة موسى والخضر: «أي رب، ومن لي به»؟.(صحيح البخاري، رقم:٣٤٠١، حديث الخضر مع موسى عليهما السلام)

بِرَدٍّ: رد: مصدر. رَدَّ (ن) رَدًّا ورِدَّةً: رجعه، **قَالَ تَعَالَى**:﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ (الأحزاب: ٢٥)

رَدَّ إليه: أرجعه. وفي التنـــزيل: ﴿فَرَدَدۡنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ﴾ (القصص: ١٣)

رَدَّ كيده في نحره: قابله بِمثل كَيده. ردَّ عليه القول: لم يقبله.

ردَّ عليه: أجابه، وفي الحديث: «فسألوه عن الروح...، فلم يرد عليهم شيئا». (صحيح البخاري، رقم:٤٧٢١)

ردَّ عليه السلام: رجعه.

ردّ إليه الأمر: سلمه إليه. وفي صحيح البخاري عن موسى عليه السلام: «فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه». (صحيح البخاري، رقم:١٢٢)

ردَّ الشيء: غير حاله. **قَالَ تَعَالَىٰ**:﴿ مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ ﴾ (النساء: ٤٧)

وفي أهل الجنة: «يُردُّون بني ثلاثين».(سنن الترمذي، رقم:٢٥٦٢)

رد الباب: أغلقه.

رده على عقبه: أعاده إلى حالته الأولى (يطلق في الخير والشر).

في الحديث: «اللهم أمض لأصحابي هجرتهم ولا تردهم على أعقابهم».(صحيح البخاري، رقم:١٢٩٥)

قد يفيد التكرار، نحو قول البراء بن عازب: «فرددتها على النبي صلى الله عليه وسلم».(صحيح البخاري، رقم:٢٤٧)

جَماح: جمحَ الْفرس (ف) جَمحًا وجُموحا وجَماحا: عتا عَن أمر صَاحبه.

جَمُوح: صفة بمعنى العاتي، يجمع على: جِماح.

جَمَح إلى...: أسْرع. وفي التنــزِيل العزيز: ﴿ لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ (التوبة:٥٧)

جَمَحتِ المرأة إلى أهلها: خرجت من بيتها من غير إذن.

غوايتها: غوَى (ض) غيًّ وغَوَايَةً: لَجَّ في الغواية، وفي التنــزيل: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ (النجم: ٢) وقَالَ تَعَالَى: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ (مريم: ٥٩) وقَالَ تَعَالَى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ (البقرة: ٢٥٦)

أغوى: غَوَّى: أضله. في التنــزيل: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ﴾ (القصص: ٦٣)

غَوِيٌّ: ضال. في التنــزيل: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ (القصص: ١٨)

جِماح الخيل: جِماح: بكسر الجيم هنا مفرده: جَموح. وصفة، بمعنى: الفرس العاتي.

الخيل: ١-اسم جمع، لا مفرد له. جمعه: خيول وأخيال. ٢- قيل: جمع خائل، مثل ركب: جمع الراكب.

خَالَ يَخَالُ خَيلا وخَيَلانًا: ظنه، وربما سميت الخيل به؛ لأن راكبها يظن نفسه عظيما.

خَيَّلَ فلان على فلان: وجه التُّهمة إليه، خَيَّل الشيءَ: خطر الشيء بباله.

خَيَّلَ إليه كذا: ظنه الشيء على غير ما هو عليه بالوهم وفي التنــزيل العزيز: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ۝٦٦﴾ (طه: ٦٦)

وورد في قصة سحر النبي صلى الله عليه وسلم: «يُخَيَّلُ إليه أنه يفعل الشيء ولا يفعله». (صحيح البخاري، رقم:٥٧٦٣)

اختال: تكبر، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝١٨﴾ (لقمان: ١٨)

الخِيل: بكسر الخاء: الحلتيت،(صمغ شجرة كريهة الرائحة، يستخدم في الأمراض في الأكثر).

باللُّجم: «لُجُمٌ» جمع لجام، نحو: كتب، جمع كتاب: حديد يوضع في فم الفرس، وهو معرب «لگام» الفارسية.

لَجَمَ (ن) الثوبَ: خاطه. ألْجَمَ الدابة: وضع اللجام في فيه.

وفي الحديث: «من سئل عن علم علمه ثم كتمه ألجِمَ يوم القيامة بلجام من نار».(سنن الترمذي، رقم:٢٦٤٩، باب ما جاء في كتمان العلم)

الإعراب:

مَن لي: مَن: مبتدأ، و(لي) خبره.

(برد) و(لي) متعلقان بـــ (يتكفل) .والمعنى: من يتكفل/ يضمن لي برد.

كما: أي مثل رد جِماح الخيل.

من غوايتها: جار ومجرور متعلق بـــ (برد)، أو صفة لـــ (جماح) أي جماح ناشئ عن غوايتها.

برد جماح: جَماح: بفتح الجيم: مصدر بمعنى العتو، والتقدير: من يضمن لي بمنع نفسي عن جماح من غوايتها.

وهذا المعنى واضح لا غبار عليه.

كما يُردّ جماح الخيل:

١- الجماح: بكسر الجيم هنا، جمع: جموح. فهو من إضافة الصفة إل الموصوف، والتقدير: الخيل الجماح.

والمعنى: كما يتغلب على الفرس الجموح بوضع اللجام في فيه. وهذا المعنى أنسب.

٢- قيل: الجَماح هنا بفتح الجيم: مصدر، فالإضافة في قوله (جماح الخيل) من أضافة المصدر إلى الفاعل.

والمعنى: كما يتغلب على جماح الفرس ويمنع بوضع اللجام في فيه.

باللجم: جار ومجرور متعلق بـــ (يرد).

الشرح:

تلمس المرشد:

إن الناظم رحمه الله يتلمس مرشدا يصلح حاله، ويقول: ليت لي رجلا يلجمني لجام

النصح والإصلاح، لأتغلب على نفسي، وهذا البيت إشارة إلى أن عبور مراحل السلوك يتطلب مجالسة شيخ كامل، فكثيرا ما يعجز المرء عن تمييز ما فيه نفعه عما فيه خسارته.

ذكر الشيخ أشرف علي التهانوي-المعروف بحكيم الأمة- صفات المرشد، فقال: «الصحبة الصالحة هي صحبة من كان على علم بأمور الدين وفق حاجته، وكان صحيح العقيدة، وصالح الأعمال، ومواظبا على الصلاة والصوم والعبادات اللازمة، حسن المعاملة، ورعا في الحلال والحرام، وحسن الأخلاق الظاهرة، في طبعه تواضع، لايؤذي أحدا من غير مبرر، ولا يحتقر الفقراء وذوي الحاجات، يكن في قلبه حب الله وخوفه، صبور على كل حال، فمن جمع هذه الصفات فصحبته مؤثرة للغاية».(حياة المسلمين، ص:٤٧، ملخصا)

من لي برد جماح:

١- الاستفهام للإنكار، أي أرى أن أحدًا لن يتولى إصلاح نفسي. وفيه إشارة إلى أنه من الصعوبة بمكان أخذ النفس على الصراط المستقيم إذا لم يحالف المرء توفيق من الله تعالى.

٢- للتمني: أي ليت رجلا صالحا يخلص نفسي من الضلال والغواية.

٣- للاستغاثة: أي أستغيث أحدا من المرشدين يترفق بنفسي، ويصلحها ما تحت الأسباب.

يشير أسلوب الناظم رحمه الله إلى أنه بارع في التصوف، وعلى دراية تامة بأمراض النفس وعلاجها.

يُرد جِماح الخيل باللجم: كناية عن شدة القوة. أي كما أن الفرس الجموح لا يدع صاحبه يركبها إلا بشق النفس، كذلك نفسي لا تطاوع على الرشد والهدى أصلا.

ويدل البيت على أن التغلب على النفس الأمارة متعذر جدا، وسبق هذا المعنى مختصرا من قبل.

النفس عدو خطير:

من الحقائق التي لا تُجحد أنه لا شيء أعتى من النفس، فلا ترى أحدًا إلا وقد خضع لنفسه الأمارة وتعبده. وأحكمت النفس سيطرتها الخادعة على كل فرد ومجتمع وحكومة، فملئت أرض الله تعالى فتنة وفسادا، ويحق لنا أن نقول: إن النفس الأمارة

بالسوء أشد خطرا من الحرب النووية الثالثة الشاملة التي تسود سحبها العالم كله؛ فإن الأسلحة النووية التي يعدونها أزرارها بأيدي الذين هم عبدة النفس الأمارة. فهيهات وقاية العالم من الدمار المادي والأخلاقي ما لم يتم التغلب على النفس الأمارة.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «رأس الحكمة مخافة الله».(شعب الإيمان، رقم:٧٣٠)

والحكمة في اللغة العربية تعني ما يعنيه كلمة (اللجام) في الأردية. فحكمة الدابة في العربية يراد بها الحديد الذي يوضع في في الفرس، يقال: هي حديدة من اللجام تكون في الفم.

روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال حين رجع من بعض الغزوات: «قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر». فقالوا: ما الجهاد الأكبر قال: «مخالفة العبد هواه».(كنز العمال، رقم:١١٢٦٠)

روي هذا الحديث عن جابر رضي الله عنه بإسنادين:

١- حدثنا خلف بن محمد بن إسماعيل الخيام...عن يحي بن العلاء، حدثنا الليث، عن عطاء، عن جابر، قال: قدم النبي صلى الله عليه وسلم من غزاة له، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم:...فذكره.

رواه بهذا الإسناد الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (٥٢٣/١٣)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٣٨/١٠)، وابن الجوزي في ذم الهوى (٣٩/١).

وفي إسناده خلف بن محمد، والليث بن سليم: يضعَّفان. وقال الإمام أحمد: يحيى بن العلا: متهم بالكذب والوضع. والغالب على الظن أنه يحيى بن يعلى،كما في الإسناد الآخر الآتي؛ فإن الراوي عن الليث هو يحيى بن يعلى لا يحيى بن العلا.

٢- حدثنا عيسى بن إبراهيم عن يحيى بن يعلى عن الليث به:

في هذا الإسناد الثاني: عيسى بن إبراهيم، ويحيى بن يعلى والليث، وكلهم ضعفاء. ولكن قال الذهبي في عيسى بن إبراهيم في ميزان الاعتدال (٣١٠/٣): صدوق له أوهام. ووثق ابن معين يحيى بن يعلى،كما في التكميل في الجرح والتعديل، وعده ابن حبان في الثقات. وأما الليث بن أبي سليم فصالح وصدوق، واختلط في آخر عمره لكبر سنه، وروى له أصحاب الستة عدا البخاري رحمه الله، ويستند إليه أصحاب الصحاح الخمسة.

ويستشهد به البخاري.

وحديث «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» مشهور، ولكن لم يرد بهذا اللفظ في المرفوع. (للاستزادة منه راجع: فتاوى دارالعلوم زكريا١/٣٧٨)

كما وُصِف أخذُ النفس بما يرضي الله تعالى بأفضل الجهاد، ووردت عدة أحاديث في هذا المعنى بألفاظ مختلفة. منها:

حديث: «أفضل الجهاد من جاهد نفسه في ذات الله عزوجل». (المعجم الكبير للطبراني ٥٩٦/١٣، رقم:١٤٥١٢، عن ابن عمرو)

وفي رواية: «أفضل الجهاد أن يجاهد الرجل نفسه وهواه». (ابن النجار عن أبي ذر، كنـز العمال، رقم/١١٧٨٠).

يقول أهل العلم: جهاد النفس أفضل الجهاد على الإطلاق؛ لأنه فرض عين. (فيض القدير ٢/٤٠).

وفي رواية: قال النبي صلى الله عليه وسلم لأم سليم: «وحافظي على الفرائض؛ فإنها أفضل الجهاد». (المعجم الأوسط للطبراني٧/٢١/٦٧٣٥)

وقال أبو العتاهية:

أشد الجهاد جهاد الهوى ۞ وما كرَّم المرءَ إلا التُّقَى

وأخلاق ذي الفضل معروفة ۞ ببذل الجميل وكف الأذى

(ديوان أبي العتاهية، ص٣)

وقال:

إذا ما دعتْك دواعي الهوَى ۞ لِما عنه سبحانُه قد نَهى

فأيقِن بأن الردَى فاجئٌ ۞ وأن إلى ربك المنتهَى

البلاغة:

١- برد جماح عن ...: فيه تشبيه مجمل مرسل.

رد النفس من الغواية: مشبه، ورد الخيل: مشبه به، وكما: أداة تشبيه.

ذكرت أداة التشبيه وحذِف وجه الشبه، فهو تشبيه مرسل مجمل.

٢- في البيت جناس في موضعين: مَن، مِن. جَماح، جِماح، برِدٍّ ، يُردُّ.

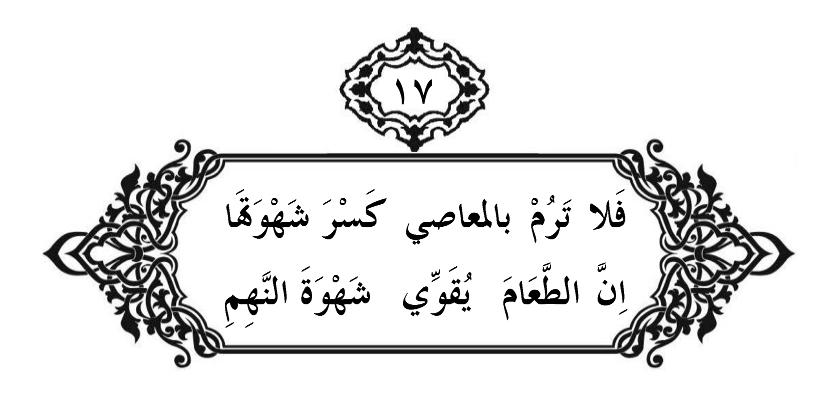
٣- من لي برد جماح:

النفس: مشبه، وفرس جموح: مشبه به، وذكرت النفس وأريد بها الفرس، فكانت استعارة مكنية.

ثم أثبت جموح الفرس للنفس، فكانت تخييلية.

ويناسبه منع الجموح، فـ (رد) ترشيحية.

انتهى، والله تعالى أعلم.



اللغة:

لا ترم: (رام) نهي.

رامَ (ن) رَوما ومَراما: قصد، ورغب.

في دعاء الحفظ: «اللهم ... ذا الجلال والإكرام والعزة التي لا يرامُ».(سنن الترمذي، رقم :٣٥٧٠)

من الأشعار الشهيرة:

بِقَدرِ الكَدِّ تُكْتَسَبُ المَعَالِيْ ۞ وَمَنْ طَلَبَ العُلَى سِهِرَ اللَّيَالَي

تَرُوْمُ العِزَّ ثُمَ تَنَامُ لَيْلاً ۞ يَغُوْصُ البَحْرَ مَنْ طَلَبَ اللَّآلِي

وَمَنْ طَلَبَ العُلَى مِنْ غَيْرِ كَدٍ ۞ أَضَاعَ العُمْرَ فِيْ طَلَبِ المُحَالِ

رامَ (ض) عليه رَيما: فاقه.

رام (ض) فلانا/ مكانه: برحه، أي زال عنه. وفي نهاية حديث الإفك: «فو الله ما رامَ رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه».(صحيح البخاري، رقم:٤١٤١)

روَّم فلانا بكذا: رغبه في الشيء.

الرَّوم: (١) شحمة الأذن، (٢) في اصطلاح القراء: الإسراع في أداء الحرف الأخير من الكلمة التي وقف عليها القارئ، بحيث يسمع القريب صوته.

الروم: سكان شمال البحر الأبيض. وهم المراد بقوله تَعَالَى:﴿ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴾ (الروم:٢)

بير رومة: بئر في المدينة اشتراها عثمان رضي الله عنه ثم وقفها على المسلمين.

(للاستزادة راجع: وفاء الوفاء ٣/٩٦٧-٩٧١ الباب السادس في آبارها)

بالمعاصي: الباء للاستعانة: نحو كتبت بالقلم.

بالمعاصي: محاولة القضاء على الشهوة بالمعاصي، أو بالاستعانة بالمعاصي.

عصى (ض) معصية وعِصيانًا: خرج من طاعته وخالف أمره. وفي التنـــزيل: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ (المزمل: ١٦)

في حديث البخاري: «ومن عصاني فقد عصى الله».(صحيح البخاري، رقم:٧١٣٧)

معصية: الذنب، والزلة، يجمع على: معاصي. يقول الشيخ أنور شاه الكشميري: الإثم والذنب والخطيئة تطلق على الصغيرة، والمعصية تطلق على الكبيرة.

عَصِيَ (س) عَصًا: لعب بالعصي. واعتصى الشيء : اتخذه عصا.

كسر: كَسَر (ض) الشيء كسرا: نقض الشيء الشديد.

ورد عن عيسى عليه السلام: «فيكسر الصليب».(صحيح البخاري، رقم:٢٤٧٦)

كسر الكتاب على فصول: رتبه على الفصول والأبواب.

كسر متاعه:باعه تجزئة، كسر القوم: هزمهم. كسر الحرف: خفضه.

كسَّر: بالغ في كسره، وورد في الحديث عن زمن الفتنة: «كسِّروا فيها قسيكم». (سنن الترمذي، رقم:٢٢٠٤)

وفي صحيح البخاري: مر النبي صلى الله عليه وسلم يوم خيبر على قدور تفور بلحوم الحمر الأهلية، فقال: «كَسِّرُوها»، ثم أذن لهم باستعمالها بعد غسلها.(صحيح البخاري، رقم:٦٣٣١)

كسَّرَ الاسم: جمعه جمع التكسير.

انكسر: تفكك. و في صحيح البخاري: «إن قدح النبي صلى الله عليه وسلم انكسر...».(صيحح البخاري، رقم: ٣١٠٩)

انكسر الجيش: انهزم وانتشر. فالعسكر مكسور، ولا يقال: منكسر.

تكسَّرَ: تفكك، مطاوع (كسَّر).

الكَسْرُ: (١) الجزء، (٢) جزء ناقص من عدد، يجمع على: كسور.

الكِسْرُ: (١) طرف الشيء، ج: أكسار.

ورد في نزول النبي صلى الله عليه وسلم في الهجرة بخيمة أم معبد: «فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى شاة في كسر الخيمة».(المستدرك للحاكم، كتاب الهجرة ٤٢٧٤/١٣/٣)

الكِسرة: القطعة، في صحيح البخاري: «ثم دعا بجريدة فكسرها كسرتين». (صحيح البخاري، رقم:٢١٦)

شهوة: شَهِيَ: (س) شهوة، شها (ن) رغب في الشيء. شهُوَ (ك) الطعام شهوة: كان لذيذًا. أشهَى: (١) جعله شهيا، (٢) أعطاه ما يشتهي.

اشتهى: الشهوة/ بالغ في الشهوة. قَالَ تَعَالَى:﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ﴾ (الزخرف:٧١)

سمع النبي صلى الله عليه وسلم القرآن الكريم من ابن مسعود فقال: «إني أشتهي أن أسمعه من غيري».(صحيح البخاري، رقم:٥٠٥٥)

الشهوة: (١) اللذة الشديدة، (٢) هوى النفس. وفي التنـــزيل: ﴿ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ (مريم: ٥٩) (٣) ما يرغب فيه، ومنه قوله تَعَالَى:﴿ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ (آل عمران: ١٤)، (٤) العاطفة، يجمع على: شهوات، وأشهية.

وفي الحديث: «حجبت النار بالشهوات». (صحيح البخاري، رقم:٦٤٨٧)

الطعام: طَعِمَ (س) طَعْمًا وطَعَامًا: ذاق، أكل، قَالَ تَعَالَى:﴿وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ﴾ (البقرة: ٢٤٩)وقَالَ تَعَالَى:﴿لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ﴾(محمد: ١٥)،وقَالَ تَعَالَى:﴿فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ﴾ (الأحزاب: ٥٣)

ذكرت بعض الأحاديث أعظم الذنب بعد الشرك فقالت:«أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك».(صحيح البخاري، رقم:٤٧٦١)

ويطلق على الإعطاء مطلقا كثيرا، كما ورد في سنن الترمذي: «أول جدة أطعمه رسول الله صلى الله عليه وسلم سدسا».(سنن الترمذي، رقم:٢١٠٢)

أطعم الله فلانا: رزقه.

أطعمت النخل: أثمرت، في حديث الجساسة عن تميم الداري: «قال: أخبروني عن نخل بيسان... هل أطعم»؟ (سنن الترمذي، رقم:٢٢٥٣)

طاعَمَ: طعم مع أحد، وطَعَّمَ بكذا: أمده به.

استطعم: (١) طلب منه الطعام، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا﴾ (الكهف: ٧٧)

(٢) استطعمه الحديث: طلب مِنْهُ أَن يحدثه فيذيقه طعم حَدِيثه. وفي صحيح البخاري، قال أبوحازم: «فاستطعمت الحديث سهلا». أي طلبت من سهل بن سعد أن يحدث عن سبب تسمية أبي تراب. (صحيح البخاري، رقم:٣٧٠٣)

طاعم: (١) الآكِل، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾ (الأنعام: ١٤٥)

(٢) وَالْحسن الْحَال فِي الْمطعم، رجل ناعم الحال.

طَعْمٌ: مذاق، فلان ذو طعم: أي رجل له مذاق طيب.

المطعم: (١) الطعام، وفي الحديث: «يا سعد، أطِب مطعمك تكن مستجاب الدعوة».(المعجم الأوسط للطبراني ٦٤٩١/٢٥٦/٧)

وفي خطبة عثمان رضي الله عنه: «عليكم من المطاعم ما طاب منها». أي من الأطعمة.(موطأ مالك، رقم:٣٥٩٥) (٢) محل الأطعمة. (Restaurants)

مُطعَم:ما حصل له شيء.

طِعمَة: سليقة الأكل، وفي حديث أبي سلمة رضي الله عنه قال: علمني رسول الله صلى الله عليه وسلم سليقة الأكل، فما زالت طعمتي بعده. فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا غلام، سمِّ الله، وكُل بيمينك، وكُل مما يليك»، فما زالت تلك طِعمتي».(صحيح البخاري، رقم: ٥٣٧٦)

يقوِّي: قويَ (س) قُوَّةً: أطاقه. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ (البقرة: ١٦٥)

قَوِيَ على الأمر: قدر عليه.

أقوى الرجل: افتقر، يقول أهل العلم: هو من الأضداد. (روح المعاني ١٥٠/٢٨)

قال النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك: «لا يخرج معنا إلا رجل مقوٍ». (مصنف عبد الرزاق، رقم:٩٢٩٤)

قَوَّى: (١) شدَّه. (٢) أيده. اقتوى: قوي.

النهم: نَهَمَ (ض) نَهْمًا: الأسد والفيل صَوَّتَ، نَهِمَ: (س) نَهَمًا ونَهامَةً: أفرط

الشهوة أو الرغبة فيه، نُهِمَ بالشيء: أولع به، فهو منهوم.

نَهْمَة: شهوة ورغبة. وفي الحديث الشريف: «السفر قطعة من العذاب... فإذا قضى أحدكم نهمته فليُعجِّل إلى أهله».(صحيح البخاري، رقم:١٨٠٤؛ وصحيح مسلم، رقم ١٩٢٧)

نَهِمٌ: صفة مشبهة، مثل: حَذِر. وقيل: هو مصدر في البيت إلا أنه لا يخلو من تكلف.

نَهِمٌ، نهيم، منهوم: ثلاثتها من الصفات.

والنهِمُ: الذي يأكل كثيرا ولايشبع. وهو مرض يدعى: جوع البقر. يكثر المرء من الأكل ثم لا يشبع، ومعدته تسع ما ألقي فيها من الطعام.

كما يصاب البعض بكثرة الشرب، فيكثرون منه، دون أن يشبعوا، فهو مستسقٍ.

الإعراب:

فلا ترم: الفاء فصيحة. ويقدر قبله: (إذا لم تجد مرشدا،كاملا) فلاترم بالمعاصي.

أو يقدر قبله: (إذا أردت رد جماح نفسك) فلا ترم.

بالمعاصي: الجار والمجرور متعلق بـــ (كسر).

إن الطعام يقوي: (١) جملة مستأنفة. وهو الأولى. (٢) لأن الطعام، فاللام مقدرة.

الشرح:

لا يمكن مدواة الذنب بالذنب:

التمس الناظم رحمه الله مرشدا فقيل له: ما الذي يدعوك إلى الاستصلاح من المرشدين، فإن النفس تضعف قوتها إذا أعطيتها ما تطلبه، وتشبع بالذنب، فرده الناظم وقال: لاترم. حذار أن تظن أن نفسك تشبع بالذنوب والمعاصي وتتعب منها إذا أكثرت منها؛ فإن هذا من المستحيل، فإن النفس لا تشبع من الذنوب.

(١) المعاصي تزيد من قوة الذنوب، وتشتد رغبة النفس فيها.

(٢) لأن بعض الشر يقود إلى بعض. فمثلا: ذنب النظر الحرام يورث رغبة اللمس، فإن أطاعها طلبت التقبيل، ويقودك إلى الزنا مع مرور الأيام.

ثم ضرب له مثلا واضحا فقال: إن الطعام... أي أن الذي يكثر من الطعام لاتشبع نفسه به؛ بل تزداد رغبة فيه، فلو تناول رغيفين –مثلا- في وجبة من الوجبات، فإنه

يتناول ثلاثة أو أربعة أرغفة في الوجبة التالية.

والحاصل أن المصاب بكثرة الأكل لا يصير صابرا وشاكرا بالإكثار منه، بل يزداد رغبة فيه، وقِس عليه الذنوب والمعاصي.

ويؤيد هذا المعنى الأحاديث النبوية،ومن الأمثلة الشهيرة ما رواه الشيخان عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكون صديقا. وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا».(صحيح البخاري، رقم:٦٠٩٤؛ صحيح مسلم، رقم:٢٦٠٧)

وقرأت في هذا المعنى في مواعظ حكيم الأمة الشيخ أشرف علي التهانوي، ألخصه فيما يلي:

(١) اللذة في المعصية تقتصر على حينها، ثم يعاني المصيبة والشدة، فمثلا: مرت امرأة ذات جمال، وطلبت النفس النظر إليها بشدة، ولكنه أغمض عينيه، وعانى مشقة شديدة في حبس النظر عنها وقتئذ، فإذا فارقها رأى أن الله تعالى أورثه راحة ونعيما، ويمضي ليله ونهاره في طمانينة، وأما إذا ملأ عينه بالنظر إليها، ثم غابت عنه فإن حياته تصبح جحيما لا تطاق.

(٢) لقد أخطأ بعض الناس أن بعض المعاصي إذا ركبها المرء عن صدر رحب شبعت نفسه بها. وهذا باطل، فإنه لا يزيدها إلا رسوخا في القلب وتأصلا فيه، وإن حصلت له بعض اللذة وقتئذ. كتعود التبغ مثلا، فإنه لا يزيد إلا تعودا وحرصا عليه، فإن منع نفسه إذا رغبت فيه، فإنها –الرغبة– تموت مع مرور الأيام، فاقتلوا أنفسكم بذلك. (خطبات حكيم الأمة ٢٣/٢٥٥، ذكر وفكر).

يقول الشاعر:

خَف الله واحذَر من عواقب شهوة ❁ مسرتها تفنى ويبقى لك الوزر
ولاتحقرن ذَنبا صغيرا تُضِيفُه ❁ إلى مثله فالسيل أوله قطر

كيف تقضي على السيئات:

القضاء على السيئات له وجهان: وجه طبيعي، ووجه غير طبيعي. فالوجه الطبيعي

أن يدفع السيئات بالحسنات، واتبع الإسلام هذا المبدأ الطبيعي في القضاء على الشر والفساد. فأقم الصلاة ووثق صلتك بالله تعالى إن رغبت عن السيئات. وأقم نظام الزكاة إذا أردت الحذر من البخل و الحرص والاستغلال والاحتكار. وصُم إذا أردت أن تهيئ جو الصبر والثبات والمواساة والإخاء. وهيئ منظر الحج الروحاني إذا رغبت في بسط الجو العالمي للسعي والجهد، والإيثار، والتضحية، والمساواة.

و لم تفنَ السيئات من الأرض إلا بسلوك المبدإ الطبيعي الإسلامي هذا. وأما الوجوه الأخرى غير الطبيعية فلم يزد سلوكُها السيئات إلا فشوا وكثرة، لا أن تكبح جماحها.

وما قام به الإمام البوصيري من نقد فلسفة التربية التي يتبناها علماء النفس، بأسلوب حكيم بحق، لايشاركه فيه أحد.

واعجبا لعقول عبدة النفس القاصرة، إنهم يصرون على هذه الفلسفة الباطلة–رغم ادعائهم العقل والعلم– ويدعون إلى تربية الأولاد في ضوئها، ويقولون: إذا أردت الامتناع من سيئة فبالغ في الولوغ فيها، فإنها تزول تلقائيا. وإن أردت الامتناع عن السرقة فأكثر من السرقة حتى تشبع النفس منها. وإذا تعذر عليك التوقي من شرب الخمر، فأكثر من تناولها حتى تشبع النفس منها، فكان من جراء ذلك أنه يتم ارتكاب سيئة مماثلة أو سيئة أخرى للتوقي من السيئة. فلا يزيد ذلك السيئة إلا ارتفاعا وكثرة.

يقول الشاعر الأردي:

کون کہتا ہے کہ پی کر دور ہو جاتے ہیں غم ✿ اور پھر آتی ہیں یادیں اور بڑھ جاتے ہیں غم

(من ذا الذي يقول: إن الهموم تزول بشربها، فإنه يجدد الذكريات، ويزيد الهموم والغموم)

ما أضَلَّ هذه الفلسفة للامتناع عن المعاصيّ!! فإن السيئة لا تلد الحسنة، والشر لايجلب إلا الشر. والنار لاتُطفأ إلا بالماء. لا أن تزيد الحطب والنار، وتقول: إن النار قد انطفأت. ما أبعد ذلك عن المنطقية؟ هبك هيأت مائدة دسمة من أنواع المأكولات والمشروبات لتمنع شهوة الطعام، فهل يزيل الجوع، أو يثيره أكثر فأكثر؟

فكبح جماح النفس الأمارة بالسوء يتطلب أولا سد كافة الوسائل والطرق المؤدية إلى تغذيتها، والمعصية تشكل له مشروبا مقويا لها، فأمسك عن سقيها المشروب المقوي،

فإنه يطرأ عليها مع مرور الأيام الاضمحلال والذهول. ثم يأتي عليك زمان تضعف فيها قوتها البهيمية، وتعود شبه ميت.

دراسة كلمة «المعصية»:

معنى المعصية الحقيقي:

المعصية في الحقيقة: المخالفة التي تصدر عن عمد وقصد، لا على وجه النسيان والسهو. ولذا تقول معتذرا: نسيت ذلك، أو لم أفهمه. فلو صح إطلاق المعصية على النسيان والخطإ لكان إطلاق (نسيت) معتذرا لاغيا.

فعلم أن المخالفة الصادرة سهوا أو نسيانا، أو عن دافع التعظيم والحب، لا تعَدُّ معصية وذنبا، بل توصف بالزلة.

قال النبي صلى الله عليه وسلم لعلي رضي الله عنه في صلح الحديبية: «امح، رسولَ الله»، فأبى ذلك عليٌّ، ففيه مخالفة فيما يبدو، وليست معصية. يوخذ منه أن مخالفة الأمر لا تعد معصية دائما، وكان علي رضي الله عنه يحمل أمر النبي صلى الله عليه وسلم على المشورة والإباحة مع رعاية الأدب البالغ. في صحيح البخاري: «ثم قال لعلي: «امح، رسولَ الله»، قال: لا، والله لا أمحوك أبدا». (صحيح البخاري، رقم:٢٦٩٩)

سبب إطلاق المعصية على آدم عليه السلام؟:

(٢) فإن قيل: لا يطلق المعصية على ما يصدر عن خطإ، فكيف أطلقت المعصية على فعل آدم عليه السلام، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ (طه: ١٢١)

الجواب عنه: أن ما صدر عن آدم من الخطإ كان معصية صورةً، لا في الواقع، ولكن كثيرا من يطلق المعصية على المخالفة الظاهرة.

روى ابن أبي شيبة في مصنفه: ثنا وكيع، ثنا الأعمش، قال: قال لي أبو وائل: «يا سليمان، والله لو أطعنا الله ما عصانا».(مصنف ابن أبي شيبة، رقم:٣٦٠٥٥) فقد أطلقت هذه الرواية «المعصية» على الله تعالى، ولا يخفى أنه ليس على الحقيقة، بل المعنى: لو أطعنا الله تعالى حق الطاعة، لقبل دعاءنا وحقق لنا ما نريده. فأطلق المعصية فيها على عدم قبول الدعاء، وعدم إعطاء المطلوب.

وما أكثر الأمثلة في كلام العرب على إطلاق الكلمة على غير معناها للمشاكلة، وإلا فإن المعنى المراد لا يحمله الكلمة. ولا يخفى ذلك على ملم بالعربية. وورد القرآن الكريم في غير موضع بإطلاق اللفظ على سبيل المشاكلة. وإليكم بعض الأمثلة:

(١) قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ ﴾ (الشورى: ٤٠) فأطلقت السيئة مشاكلة على المعاقبة، و إلا فليس في الواقع سيئة. ومثل ذلك في قول تَعَالَىٰ: ﴿فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ (البقرة: ١٩٤) وقوله تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم ﴾ (النحل:١٢٦)

(٢) وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾ (البقرة: ١٥) أي يجزيهم على استهزائهم.

(٣) قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ ﴾ (البقرة: ١٥٢) (٤) قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ﴾ (آل عمران: ٥٤) (٥) قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ١٦﴾ (سبأ: ١٦) فإعطاء أهل سبإ جنتين عوضا عن جنتهم على سبيل المشاكلة. (٦) قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ﴾ (البقرة: ١٣٨)

وما أكثر الأمثلة على ذلك في الحديث النبوي، وإليكم بعضها :

(١) روى البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم في الثلاثة الذين دخلوا مجلسه متأخرين: «وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله عنه، وأما الآخر فأعرض، فأعرض الله عنه». (صحيح البخاري، رقم :٦٦)

(٢) «مثل المهجِّر كمثل الذي يهدي بدنة... ثم دجاجة ثم بيضة».(صحيح البخاري، رقم:٩٢٩)

(٣) «ما من يوم يصبح العباد فيه... ويقول الآخر: «اللهم أتِ ممسكا تلَفًا».(صحيح البخاري، رقم: ١٤٤٢) أطلق الإيتاء على إهلاك المال مشاكلة.

(٤) في عدة مواضع من صحيح البخاري: «طاف بين الصفا والمروة».(صحيح البخاري، رقم:١٦٤٤، باب ما جاء في السعي بين الصفا والمروة)

(٥) «فو الله، لا يمل الله حتى تملوا». (صحيح البخاري، رقم: ٤٣)

(٦) وفي حديث معاذ رضي الله عنه: «أتدري ما حق العباد على الله؟».(صحيح البخاري، رقم: ٢٨٥٦)

هذه بعض الأمثلة تيسر جمعها، وإلا فإن نصوص الكتاب والسنة ملآنة بصنعة المشاكلة.

والحاصل أن فعل آدم لم يكن معصية، نعم كان ظاهره معصية وذنبًا، فوصف بالمعصية بناء عليه.

توجيهات أربعة لأكل الشجرة:

وما صدر من آدم من أكل الشجرة أقول فيه كلمة تشتمل على أربعة توجيهات: هذا إما نهي إشفاقي، أو نهي تنزيهي، أو خطأ اجتهادي، أو نسيان إنساني.

(١) نهي إشفاقي لا تشريعي: ظن آدم أن النهي عن أكل الشجرة كان مختصًّا بأول الخلق، كما يقدم للأطفال الصغار الأطعمة الخفيفة، ثم تقدم لهم كافة أنواع الأطعمة بعد أن يقووا. فظن آدم أنه قد قوي، فزال المنع عن ذلك. ومثال ذلك أن الطبيب إذا أمر المريض بالحذر من تناول بعض الأشياء، لأجل عدم التقوي على ذلك، وأنه يضره، لا لأنه حرام عليه. وليس هذا النهي نهي تشريع؛ لأن الجنة ليست محل التشريع، ولا يحرم ثمة شيء. وعلى كل لا يوصف مخالفة النهي الإشفاقي أو الإرشادي بالمعصية.

(٢) نهي تنْزيهي: أي أن فعله خلاف الأولى في حقه. لا أنه حرام عليه. كما أن الثمر النَّيّ الغير الناضج لا يحرم، ولكنه خلاف الأولى، ولا يمكن أن يوصف بالحرام؛ لأنه لا حرام أو غير الحرام في الجنة، نعم قد يكون الشيء أولى وغير أولى.

خطأ اجتهادي: كان النهي عن نوع الشجرة، فحسبه عن شخص الشجرة. أي منع آدم عن قرب شجرة مشار إليها في حينه، ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ (البقرة: ٣٥)، والمراد نوع هذه الشجرة كلها لا الشجرة بعينها.

كما ورد في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ ذات مرة قطعة من حرير وقطعة من ذهب، وقال: «هذا حرام على ذكور أمتي».(المعجم الأوسط للطبراني، ٣٦٠٤/٥٩/٤). ولا يخفى أن التحريم لم يكن مختصا بهذه القطعة من الحرير أو الذهب، التي كانت بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل يشمل ثياب الحرير كلها، والذهب كله. وقد يتوهم هنا البعض أن التحريم هنا مختص بالقطعة من الحرير أو الذهب، التي كانت بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم، كذلك توهم آدم عليه السلام أن المنع خاص بالشجرة المشار إليها،

وهذا ما زين له الشيطان وألقاه في قلبه، فلم يأكل من الشجرة المشار إليها، بل من شجرة أخرى من نوعها.

(٣) نسيان إنساني: أي أن آدم نسي المنع الذي تعلق بهذه الشجرة أول الخلق، حين شرح الشيطان له فوائد الأكل من الشجرة، أنه يحصل له نعم الجنة للأبد. و وسوسة الشيطان هذه أورثته حب الشجرة، وحين يتمكن حب الشيء من أحد غَلَّب عليه النسيان، فحب الماء مثلا في الصيف يغلب لأجل غلبة العطش، وقد يشرب المرء الماء — كالمعتاد- حتى في الصوم بناء على النسيان الطارئ عليه، وأما الشتاء فلا يرغب في شرب الماء، فلايشرب إلا ما شذ وندر.

ويؤيد هذا الاحتمال قوله تَعَالَىٰ:﴿ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾ (طه: ١١٥) فهذا خير التوجيهات فيما يبدو.

والحاصل أنه يحتمل أشياء تتلخص في أن آدم عليه السلام لم يصدر منه المعصية عن عمد وقصد، وإنما نسي أو هو زلة اجتهادية، و لم يكن معصية، إلا أنه استُعظمت نظرا إلى شأن النبوة والمقام السامي الذي كان يحتله آدم عند الله تعالى، فعبر عنها بالمعصية. وعفي عن آدم عليه السلام بعد أن تاب واستغفر ربه. وهو من باب «حسنات الأبرار سيئات المقربين». ومؤاخذة المقربين على النسيان والخطإ تدخل ضمن ترك الحذر والحيطة؛ لأن شدة الحذر والحيطة تعوق دون صدور الخطإ وغيره. (للاستزادة منه راجع: معارف القرآن للشيخ المفتي محمد شفيع العثماني ١/١٩٦-١٩٧، ٦/١٥٨-١٥٩؛ معارف القرآن للشيخ محمد إدريس الكاندهلوي رحمه الله ١٣٨-١٣٩، ٥/١٦٨-١٦٩)

الفرق بين «عصى» و«عاصٍ»:

يستفاد من التفاصيل المذكورة سابقا أنه لا يجوز إطلاق «العاصي» أو«الغاوي» على آدم عليه السلام؛ لأن العاصي والغاوي في العرف لا يطلق إلا على من تعود المعصية، فمن عرف مسألة من المسائل الشرعية لايوصف بأنه عالم، أو من يقرأ آية من الآيات يوصف بأنه «قرأ الآية»، ولكن لا يوصف بأنه «قارئ». أو من خاط ثوبه مرة واحدة صح أن نقول: خاط فلان ثوبه، ولكن لا يسعنا وصفه بأنه خياط، مالم يحترف خياطة الثوب.

ولا يخفى أن آدم عليه السلام لم يصدر منه في حياته كلها هذا الفعل إلا مرة

واحدة، و خاصة أنه صدر منه عن نسيانٍ لا عن قصد وإرادة.

قال ابن قتيبة: «ولا يجوز أن يقال: آدم عاصٍ؛ لأنه إنما يقال: عاصٍ لمن اعتاد فعل المعصية، كالرجل يخيط ثوبه يقال: خاط ثوبه، ولا يقال: «هو خياط»، حتى يعاود ذلك ويعتاده». (تفسير البغوي ٢٩٩/٥).

وفي الحديث النبوي عن النساء: «يكفرن العشير»، فلا يقال: إنهن كافرات. (صحيح البخاري، رقم: ٢٩)

أقسام الطعام:

للطعام أنواع كثيرة جمعتُها في هذه الجملة: (أنعموا مُخّا).

أ -الإعذار: أي وليمة الختان، ويطلق عليه «العذيرة».

ن- النقيعة: ما يعد من الطعام عند الرجوع من السفر. وهو مأخوذ من (نقع)، بمعنى الغبار.

ع- العقيقة.

ع- العتيرة: كانت تذبح لغير الله تعالى قبل الإسلام. ثم صار لله تعالى، ثم نسخ الذبح لله أيضًا.

م- مائدة /مأدبة: دعوة الأحباء والأصدقاء إلى الطعام دون سبب ظاهر له.

و- الوليمة. و: وكيرة: عند بناء البيت الجديد. و: الوضيمة: إطعام الفقراء عند المصيبة.

م- ملاك: عند النكاح.

خ- الخرص: ما يعد من الطعام عند الولادة.

شرح موجز لأقسام الطعام:

۞ **النقيعة**: فيها قولان: يصنعها القادم من سفر أو يُصنع له.

وفرق البعض بينهما أن النقيعة ما يصنع المسافر، والتحفة ما يصنعه الناس له. (فتح الباري ٢٤١/٩)

۞ **العتيرة**: ورد في الحديث: عن مخنف بن سليم قال: نحن وقوف مع رسول الله

صلى الله عليه وسلم بعرفات، قال: «أيها الناس، إن على أهل كل بيت في كل عام أضحية وعتيرة. أتدرون ما العتيرة؟ هذه التي يقول «الرجبية»». قال أبو داود: العتيرة منسوخة، هذا خبر منسوخ. (سنن أبي داود، رقم: ٢٧٨٨)

والنسخ ثبت بما رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا فرع و لا عتيرة».(صحيح البخاري، رقم: ٥٤٧٤؛ صحيح مسلم، رقم: ١٩٧٦)

۞ **المأدبة**: فصلها العلماء فقالوا:

نقرى: إن كانت لقوم مخصوصين، وجفلى: إن كانت عامة.

يقول طرفة بن عبد في الثناء على قومه:

نحن في المشتاة ندعو الجفلى ۞ لا ترى الآدب فينا ينتقر

(فتح الباري ٢٤١/٩-٢٤٢؛ وديوان طرفة بن عبد، ص٢٩)

الدليل على دعوة الأحباء والأصدقاء إلى الطعام:

مأدبة: جمع الأحبة والأصدقاء من غير سبب ظاهر. وهو مستحب، دلت عليه مختلف الروايات والقصص، إليكم بعضها على سبيل النموذج:

(١) روى البخاري عن جابر رضي الله عنه: «جاءت ملائكة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وهو نائم، فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان. فقالوا: إن لصاحبكم هذا مثلا، فاضربوا له مثلا... فقالوا: مثله كمثل رجل بنى دارا وجعل فيها مأدبة، وبعث داعيا فمن أجاب الداعي دخل الدار، وأكل من المأدبة، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار، و لم يأكل من المأدبة».(صحيح البخاري، رقم: ٧٢٨١)

يفيد الحديث بعث رجل يدعو الناس عامة إلى الطعام، وليس له سبب ظاهر.

(٢) روى مسلم في صحيحه: قال (عبد الله بن رباح): «وفدت وفودا إلى معاوية، وذلك في رمضان، فكان يصنع بعضنا لبعض الطعام، وكان أبو هريرة مما يكثر أن يدعونا إلى رحله، فقلت: ألا أصنع طعاما فأدعوهم إلى رحلي، فأمرت بطعام يصنع، ثم لقيت أبا هريرة من العشي، فقلت: الدعوة عندي الليلة، فقال: سبقتني؟ قلت: نعم. فدعوتهم، فقال أبو هريرة: ألا أعلمكم بحديث من حديثكم، يا معشر الأنصار، ثم ذكر فتح مكة». (صحيح مسلم، رقم:١٧٨٠، باب فتح مكة)

دل الحديث على أن أبا هريرة كان يكثر من دعوة أصدقائه، وذات يوم دعا عبد الله بن رباح الوفد، وشاركهم أبو هريرة في الطعام، ثم قص عليهم حديث فتح مكة.

(٣) وفي الصحيحين أن أبا شعيب دعا النبي صلى الله عليه وسلم وأربعة من أصحابه إلى الطعام.

عن أبي مسعود الأنصاري، قال: كان من الأنصار رجل يقال له أبو شعيب، وكان له غلام لحام، فقال: اصنع لي طعاما، أدعو رسول الله صلى الله عليه وسلم خامس خمسة، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم خامس خمسة، فتبعهم رجل. (صحيح البخاري، رقم:٥٤٣٤. صحيح مسلم، رقم:٢٠٣٦)

(٤) روى مسلم في صحيحه عن أنس رضي الله عنه أن جارا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فارسيًّا كان طيب المرق، فصنع لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثم جاء يدعوه، فقال: هذه –لعائشة–؟ فقال: لا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:لا. فعاد يدعوه... قال: نعم في الثالثة.(صحيح مسلم، رقم:٢٠٣٧)

(٥) وتعددت الروايات عن النبي صلى الله عليه وسلم بأن الرجل إذا دعا أخاه فليقبل، فإنه لا يخلو من فائدة. كما ورد بأنه يجب عليه أن يجيبه وإن كان صائمًا.

يدل الحديث –دلالة النص– على أنهم كانوا تعودوا دعوة الإخوان والأصدقاء في ذلك الزمان.

(٦) عن أبي وائل قال: «ما شهد عبد الله مجمعا ولا مأدبة، فيقوم حتى يحمد ويصلي على النبي صلى الله عليه وسلم».(مصنف ابن أبي شيبة، رقم:٣٠٤٢٩)

وأفرد البخاري رحمه الله في الأدب المفرد بابًا يخص المأدبة.

يستحب للجيران صنع الطعام لأهل الميت:

في سنن الترمذي: عن عبد الله بن جعفر رضي الله عنه قال: «لما جاء نعي جعفر قال النبي صلى الله عليه وسلم: «اصنعوا لأهل جفعر طعاما، فإنه قد جاءهم ما يشغلهم».(سنن الترمذي، رقم:٩٩٨)

في سنن ابن ماجه: قال: «لما أصيب جفعر رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى

أهله، فقال: آل جعفر قد شغلوا بشأن ميتهم، فاصنعوا لهم الطعام، قال عبد الله —أحد الرواة-: فما زال سُنةً حتى كان حديثًا فتُرِك». (سنن ابن ماجه، رقم:١٦١١)

وفي رد المحتار: «قال في الفتح: ويستحب لجيران أهل الميت والأقرباء الأباعد تهيئة الطعام لهم، ويشبعهم يومهم وليلهم لقوله صلى الله عليه وسلم: «اصنعوا لآل جفعر طعاما...». حسنه الترمذي، وصححه الحاكم». (رد المحتار ٢٤٠/٢، وينظر: رد المحتار ٦٦٥/٦، والفتاوى الهندية ١٦٧/١، و٣٤٤/٥؛ وفتح القدير١٤٢/٢).

كما يباح لأهل الميت أن يصنعوا طعامًا لعيالهم ولمن شاركهم في الجنازة من الأقارب وغيرهم الذين سافروا أو جاءوا من الأماكن البعيدة، شريطة ألا تكون الدعوة عامة. والطعام من المستوى الأوسط، ودون تخصيص يوم. (للاستزادة من الفتوى المفصلة والمدللة راجع: فتاوى دارالعلوم زكريا، ٥٨/٣-٦١)

۞ **ملاك**: ويطلق عليه البعض «الشندخية».

ويباح ما يصنع أهل الزوجة من الطعام للقادمين من الأماكن البعيدة بمناسبة النكاح، شريطة ألا يتخذ ذلك عادة. كما يصح صنع الطعام للأقارب القادمين للمشاركة في أفراح الزواج، ولكنه غير مسنون. نعم الوليمة مسنونة. (للاستزادة منه راجع: فتاوى دارالعلوم زكريا ٦٣٦/٣-٦٣٨)

علاوة على الأقسام المذكورة أعلاه ثمة أنواع أخرى من الطعام، منها:

۞ **الحَذاق/ الحذاقة**: الطعام الذي يصنع عند حفظ القرآن.

فالحذاق: صنع الطعام عند ختم القرآن الكريم، وقيل: ما يصنع من الطعام عند بدء الصبي التكلم، يطلق عليه «الحذاق/ الحذاقة».

(١) روى القرطبي عن عمر رضي الله عنه فعله: «ذكر أبو بكر بن علي بن ثابت الحافظ في كتابه المسمى (أسماء من روى عن مالك)، عن مرداس بن محمد بن أبي بلال الأشعري، قال:حدثنا مالك عن نافع عن ابن عمر قال: تعلم عمر البقرة، في اثنتي عشرة سنة. فلما ختمها نحر جزورا». (تفسير القرطبي ٣٠/١، مقدمة، كيفية التعلم والفقه لكتاب الله)

وروى البيهقي بسنده عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: تعلم عمر بن

الخطاب البقرة في اثنتي عشرة سنة، فلما أتمها نحر جزورا».(شعب الإيمان للبيهقي، رقم:١٨٠٥)

(٢) عقد العلامة ابن طولون في كتابه «فص الخواتم في ما قيل في الولائم» فصلا خاصا بصنع الطعام وجمع الناس عليه عند حفظ القرآن، فقال:

«الاحتفال بحذاق الصبي: وروى الدوري في جزئه عن أبي بكر الهذلي قال: سألت الحسن يعني البصري وعكرمة عن الصبي نبتت أسنانه فينثر عليه الجوز، فقالا: حلال.

وعن يونس بن عبيد قال: طرق أي تكلم، ابن لعبد الله بن الحسن، فقال عبد الله: إن فلانا قد حذق، والمعلم يطلب. قال: ماذا يريد؟ أعطه درهما. قال: سبحان الله. قال: فأعطه درهمين. قال: إنه لا يرضى. فقال الحسن رضي الله عنه: كانوا إذا حذق الغلام قبل اليوم، نحروا جزورا واتخذوا طعاما».

وعن ابن سلمة عن حميد قال: كانوا يستحبون إذا جمع الصبي القرآن أن يذبح الرجل الشاة، ويدعو أصحابه».(فص الخواتم فيما قيل في الولائم، ص٩).

۞ **قِرى**: ما يصنع للضيف.

۞ **السلفة واللهنة**: قَلِيل من الطَّعَام يتَنَاوَلهُ الجائع قبل الْغَدَاء، أو ما يتناوله من الطعام القليل قبل تهيئ أصل الطعام.

وقد جمع بعض أهل العلم أقسام الطعام هذه في الأشعار.(راجع: رد المحتار ١٦/٦، نقلا عن حاشية الطحطاوي على الدر المختار١٠/٤).

وجمع العلامة ابن طولون في نهاية كتاب «فص الخواتم فيما قيل في الولائم» ثمانية منظومات لمختلف العلماء، تشتمل على أقسام الطعام. (للاستزادة راجع: شرح النووي على مسلم ٤٥٨/١، باب صداق المرأة؛ فتح الباري ٢٤١/٩-٢٤٢؛ عمدة القاري ١١١/١٤؛ رد المحتار ١٦/٦؛ الموسوعة الفقهية الكويتية: مادة: دعوة؛ فقه اللغة للثعالبي ص٢٦٤، الباب الرابع والعشرون)

البلاغة:

(١) في البيت تشبيه ضمني، أي تشبيه إشارةً من غير تصريح، والقصد من إيراد هذا النوع من التشبيه الإفادة بأن الحكم قد يتعلق بالمشبه أيضا.

شبه في البيت ازدياد قوة النفس بقضاء الشهوات برجل يزداد حبه وشوقه إلى

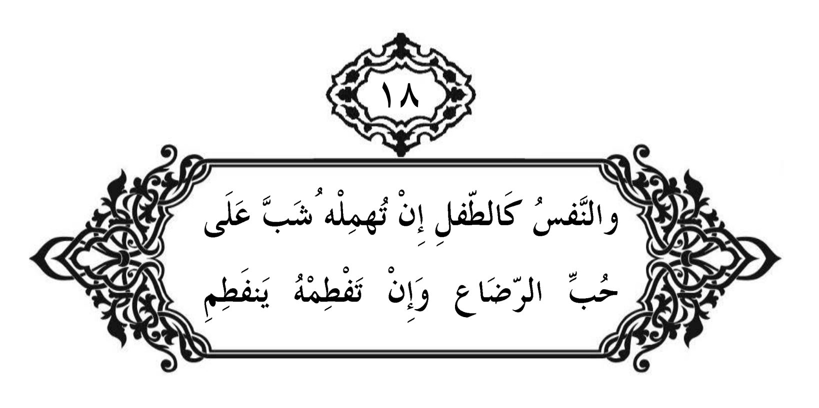
الطعام بعد تناوله إياه.

(٢) «لا ترم»: فيه التفات من التكلم إلى الخطاب.

في الأبيات السابقة في قوله: «لو كنتُ...»، «مَن لي...» ونحوهما جاء على التكلم، وهنا على الخطاب.

إنما التفت؛ لأنه يذكرعلاج النفس الأمارة فيما يأتي، وفيه النصح. والخطاب أكثر نفوذا وتأثيرا في النصح والتذكير. والله تعالى أعلم.

****



اللغة:

والنفس: اللام للعهد الخارجي، والمراد النفس الأمارة؛ لأن النفس الكاملة والمطمئنة يطلق عليها الروح في قول.

نَفِسَ (س): بخل به. نَفِسَ الشيءَ/ به على فلان نَفاسةً: حسده عليه و لم يره أهلا له.

قال ربيعة بن الحارث لعلي رضي الله عنه: «والله ما تصنع هذا إلا نفاسة منك علينا، فو الله، لقد نِلت صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما نفسناه عليك». (صحيح مسلم، رقم:١٠٧٢)

نَفِست المرأة نِفاسا: ولدت الصبي. وفي صحيح البخاري: «...أن سبيعة الأسلمية نُفِسَت بعد وفاة زوجها بليالٍ...».(صحيح البخاري، رقم:٥٣٢٠)

نَفُس الشيءُ (ك) نَفاسةً، ونُفوسا، فهو نفيس: كان عظيم القيمة. وفي الحديث عن عمر رضي الله عنه قوله: «إني أصبتُ أرضا بخيبر، لم أصِب مالا قط أنفس عندي منه». (صحيح البخاري، رقم:٢٧٣٧؛ صحيح مسلم، رقم:١٦٣٢)

(نافس) فلانا: سابقه وباراه فِيهِ من غير أَن يلْحق الضَّرَر بِهِ. نَافَس في الشيء: بالغ فيه.

(تنافس) الْقَوْم فِي كَذَا تسابقوا فِيهِ، وفي صحيح البخاري: «ولكن أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها».(صحيح البخاري، رقم:٦٤٢٥)

نفَّسَ عنه: سلاه، وأبعد عنه الهم، في صحيح مسلم: «من نَفَّسَ عن مؤمن كربة من

كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة». (صحيح مسلم، رقم:٢٦٩٩)

وفي رواية: «إذا دخلتم على المريض، فنَفِّسوا له في الأجل».(سنن ابن ماجه، رقم:١٤٣٨)

(تنفس) أَدخل النَّفس إِلى رئتيه وَأخرجه مِنْهُمَا. في حديث البخاري: «إذا شرب أحدكم فلا يتنفس في الإناء». (صحيح البخاري، رقم:٥٦٣٠)

النَّفْسُ: (١) الروح، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧﴾ (الفجر: ٢٧)

وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في المرأة الغامدية مخاطبًا لعمر رضي الله عنه: «وهل وجدتَ توبةً أفضل من هذه أن جادت بنفسها لله تعالى». (صحيح مسلم، رقم:١٦٩٦)

(٢) ذات الشيء، يقال: جاء بنفسه، ورأيت نفس الشيء.

(٣) القلب، والظرف، هو وسيع النفس.

(٤) الفرد، والشخص، ج: أنفس.

(٥) الرغبة والإرادة. يقال: في نفسي أن أعمل كذا.

(٦) الدم، عن إبراهيم أنه كان يقول: «كل نفس سائلة لا يتوضأ منها».(السنن الكبرى للبيهقي ٢٥٣/١)

النفَس: (١) الرّيح تدخل وَتخرج من أنف الْحَيّ ذِي الرئة وفمه حَال التنفس. جاء في أهل الجنة: «يُلهَمون التسبيح والتحميد كما تلهمون النَّفَسَ».(صحيح مسلم، رقم:٢٨٣٥)

وجاء في جهنم: «فأذن لها بنفَسَين: نفَسٍ في الشتاء ونفس في الصيف». (صحيح البخاري، رقم:٥٣٧)

(٢) نسيم الهواء.

كالطفل: طَفَلت (ن) الشمس طَفْلا وطُفولا: مالت للغروب.

في مصنف ابن أبي شيبة: «كان ابن عمر يكره الصلاة على الجنازة إذا طَفَلت الشمس وحين تغيب».(مصنف ابن أبي شيبة، رقم:١١٤٤١)

طَفَل (ن) فُلان: دخل وَصَارَ فِي الطِّفْل.

طَفِلَ (س) طَفَلا النبات: أَصَابَهُ التُّرَاب فأفسده وَلم يطلْ. طَفُلَ (ك) طُفُولةً وطَفالة: نعم و رقَّ.

(طفَّلَتْ) الناقة وَلدها: رَبَّتْه. الطِّفل: الرُّخص الناعم الرَّقِيق، ج: طفول، طِفال.

الطِّفلُ: (١) الرخص الناعم الرضيع من ولد الإنسان وغيره. ج: أطفال.

وقد يراد به الغلام قبل أن يبلغ الحلم، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟﴾ (النور: ٥٩)

ويطلق الطفل على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث، قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ (الحج: ٥)

وقَالَ تَعَالَى: ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ (النور: ٣١)

(٢) الجزء الحسي أو المعنوي للشيء.

الطُّفَيلي: (١) الَّذِي يغشى الولائم والأعراس والمجالس وَنَحْوهَا من غير أَن يدعى إليها وهو مَنْسُوب إِلَى (طفيل) وَهُوَ رجل من أهل الْكُوفَة من بني عبد الله بن غطفان كان يأتي الأعراس والولائم ونَحْوها ولا يقْعد عن وَلِيمة ولا يَتَخَلَّف عن عرس.

(٢) (في علم الأحياء) كَائِن حَيّ يعِيش متطفلا على كائِن حَيّ آخر.

الطَّفيل: اسم جبل جنوب غرب مكة المكرمة، ورد ذكره في الأشعار التي كان ينشدها بلال في مرضه في المدينة المنورة، وشطر منها:

«وهل يبدوَنْ لي شامة وطَفيل». (صحيح البخاري، رقم:٣٩٢٦)

أبو الطفيل: كنية عامر بن واثلة، من قبيلة دوس، استشهد يوم اليمامة، آخر الصحابة موتا على وجه الأرض. (الإصابة في تمييز الصحابة ١٩٣/٧، باب الكنى؛ وفي التقريب: مات سنة عشر ومئة على الصحيح. تقريب التهذيب، ص٣٤٤).

ومرَّ تحقيق كلمة (الحب) في البيت رقم (٥).

تُهمِلْه: هَمَلَ (ن،ض) الإبلُ هَمْلا: رعَت من غير راعٍ.

هَمَلت العينُ: ذرفت الدمع. قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «فقرأت عليه حتى إذا انتهيت إلى قوله تَعَالَى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾ (النساء: ٤١) الآية، فرفعت رأسي فإذا عيناه تَهملان». (سنن أبي داود، رقم:٣٦٦٨)

أهمَل أمره: أعرض عنه. أهمل فلانا: خلى بينه وبين نفسه.

المُهملُ: المتروك، غير صالح للاستعمال.

شَبَّ: شَبَّ الغلام (ض) صار الغلام يافعا. و ورد في معايشة قبيلة جرهم لإسماعيل عليه السلام: «و شَبَّ الغلام... وأعجبهم حين شبَّ».(صحيح البخاري، رقم:٣٣٦٤)

ورد الحديث بأنه يعلن لأهل الجنة يوم القيامة: «وإن لكم أن تشبوا فلا تهرَموا أبدا». (صحيح مسلم، رقم: ٢٨٣٧)

الشاب: اليافع، ج: شَباب، شَبَبة، شُبَّان. قال مالك بن الحويرث: «أتينا النبي صلى الله عليه وسلم ونحن شببة متقاربون».(صحيح البخاري، رقم:٦٣١)

شَبَّت النار (ن) شَبًّا وشُبُوبًا :اشتعلت النار.

شَبَّ الشيءَ: زَيَّنَه، قال الرسول صلى الله عليه وسلم في استعمال أم سلمة الصبر: «إنه يشُبُّ الوجه فلا تجعليه إلا بالليل». (سنن أبي داود، رقم: ٢٣٠٥)

شَبَّبَ قصيدتَه: زين قصيدته بذكر النساء. كان التشبيب سائدة في بداية القصائد. ثم أطلق التشبيب على كل بداية.

أشَبَّ: أدرك طول الشباب. الشَبوب: المحسِّنُ.

الرَّضاع: رَضِعَ (س، ف، ن) رَضْعًا، ورضاعة، ورِضاعا: امتص ثدي أمه، في حديث البخاري: «إنما الرضاعة من المجاعة».(صحيح البخاري، رقم:٥١٠٢)

رضيع: الطفل الذي يرضع. ج: رُضَّعٌ.

قال سلمة بن الأكوع وهو يحارب بني غطفان: «أنا ابن الأكوع، واليومَ يوم الرضع». (صحيح البخاري، رقم:٤١٩٤)

أرضعت الولدَ: جعلته يرضع.

مُرضِع: ج: مراضع. قَالَ تَعَالَىٰ:﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ (القصص: ١٢)

المرضعة: المرأة التي تحترف الإرضاع. وفرق بعضهم: فقال: مرضعة: بالفعل، ومرضع: بالقوة.

قال النبي صلى الله عليه وسلم في ابنه إبراهيم: «إن له مرضعًا في الجنة».(صحيح البخاري ١٨٤/١)

(استرضع) الْوَلَد: طلب لَهُ مُرْضِعَة وفي التَّنْزيل الْعَزيز﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ

أَوۡلَٰدَكُمۡ﴾ (البقرة: ٢٣٣)

تفطِمه: فَطَمَ (ض) الحبلَ: قطعه، وفطمَ فلانا عن عادته: قطعه عنها. فَطَمَ الرضيعَ: قطعه عن الحليب.

أفطَمَ الرضيعُ: حان موعد فطامه. انفطم: انقطع رضاعه.

الفطيم: المفطوم، ج: فُطُمٌ. نحو: بريد، وبُرُدٌ.

الفاطمة: مقطوعة من القبائح والرذائل، أو المنقطعة عن اختلاط الرجال.

والأصل أن الفاطمة هي المرأة التي تفطم، ويتفاءل بها أن يكتب لها الله تعالى طول العمر، وأن تترك عادتها.

قال بعض قصاصنا: ورد الحديث بأن فاطمة رضي الله عنها سميت بذلك؛ لأن الله تعالى يحفظها ويحفظ كل من يحبها من النار. واعلم أن هذا الحديث لم يثبت. قال العلامة السيوطي: «(الخطيب) عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «...إنما سماها فاطمة؛ لأن الله تعالى فطمها ومُحِبِّيها عن النار». قال الخطيب: ليس بثابت، وفيه مجاهيل». (اللآلي المصنوعة١/٣٦٥)

فاطمة: تجمع على (فواطم)، أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا رضي الله عنه ثوبا من حرير، وقال: «شققه خمرا بين الفواطم». (صحيح مسلم، رقم:٢٠٧١)

الإعراب:

والنفس: الواو عاطفة أو للاستئناف.

النفس: وضع الظاهر (النفس) موضع ضميرها لبيان أهميتها.

والنفس: مبتدأ، وكالطفل: خبره. إن تهمله: شرط، وشب: جزاؤه.

إن تفطمه: شرط، ينفطم: جزاؤه. والميم مجزومة في الأصل وإنما كسرت لضرورة الشعر.

على حب الرضاع: متعلق بـــ (شب).

على حب الرضاع: (١) إلى حب الرضاع، أي وصلت في حب الرضاع إلى الشباب. (٢) إلى أي مع حب الرضاع، كقوله تعالى: ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾(الإنسان:٨)

أي مع حبه. (٣) حريصًا على حب الرضاع. وحاصل المعاني الثلاثة واحد.

إن تهمل: (١) عطف بيان، كالطفل: بيان له. (٢) جملة مستأنفة، تبين وجهَ التشبيه.

الشرح:

سرد الناظم في هذا البيت دليلا –على سبيل المثال– على ما ذكره في البيت السابق، ويتجلى منه براعته في التفنن وتمكنه من الشعر، حيث ذكر معنى من المعاني و أتبعه بدليل مجمل له، وكان التشبيه غير صريح، وفي هذا البيت أورد تشبيهًا صريحًا.

معنى البيت:

يتعود الطفل الرضاع بعد حولين من الرضاعة، ويولع بحليب الأم، فلا يتهيأ لأن يُفطَم عنه حتى بعد الحولين، فإن لم يُوبه بذلك، و لم يتم فطمه عن الرضاع فإنه يشتاق إلى الرضاع وإن كبر. كما تقرضع بعض النساء غير المسلمات أولادهن حتى ثمانية أعوام.

أما إذا اتخذت بعض الحيل، و تم فطمه عن الرضاع بصورة تدريجية، فإنه ييأس من الرضاع، ثم يمسك عنه حين يرى أنه لا يتوفر له الحليب.

والنفس الأمارة تشبه الطفل، فيجب محاولة إصلاحها بالتعليم والتربية من البداية. وحذارِ أن يترك حبله على غاربه، بل يجب الحظر على ما ترغب فيه وتشتهيه. فإن العادة إذا استحكمت، وشب على ذلك، تعذرت السيطرة عليه، ثم يهوي هذا الفرس الجامح براكبه في هوة من الهلاك، يصعب الخروج منها.

قال أهل العلم سبق أبو دلف بمعنى هذا الشعر، فقال:

والنفسُ راغبة إذا رَغَّبْتَها ۞ وإذا تُردُّ إلى قليل تَقْنَعُ

شرح الناظم هذا المعنى في أسلوب التشبيه، أضف إلى ذلك أنه ذكر التشبيه مجملا في البيت الأول، ثم وضحه في هذا البيت.

والتشبيه الموجود في الشعر يشير إلى أن تخلية النفس من الرذائل وتطهيرها منها يحتاج إلى مشقة ومعاناة كما أن فطم الطفل عن الرضاع يحتاج إلى مثل ذلك.

وسبق بيان الأقسام السبعة للنفس وتعريفاتها في البيت رقم (١٣) عرضًا.

مراحل الحياة الإنسانية المختلفة:

ثمة أسماء مختلفة للمراحل التي يمر بها الإنسان في حياته.

(١)جنين، (٢)الوليد، (٣)رضيع، (٤)فطيم، (٥)دارج، (٦)خماسي، (٧)مثغور، (٨)مثغَّر: إذا سقطت أسنانه، (٩)مترعرع، (١٠)مراهق، (١١)حَذَوَّر، (١٢)فتى، (١٣)مجتمع، (١٤)شاب، (١٥)كهول، (١٦)شيب، (١٧)شمِط، (١٨)شيخ، (١٩)كبير، من باب كبِرَ، (٢٠) هرِم، (٢١)دلِف، (٢٢)خرِف، (٢٣)اهتزَّ، (٢٤)محا ظله.

وتذكر كتب اللغة مراتب أخرى، وتفرق بين مراتب الصبا والشباب والشيب. (للاستزادة منه راجع: فقه اللغة للثعالبي، ص١١٠-١١٣، الباب الرابع عشر في أسنان الناس).

النفس والروح بمعنى واحد أم مختلفتان؟:

فصَّل أهل العلم هذا البحث في أساليب مختلفة، وإليكم بعض الإشارات باختصار:

القول الأول: الروح والنفس هما شيء واحد، وهو رأي الجمهور.

الدليل: (١): ورد في بعض الأحاديث عن الإنسان: «خرجت نفسه»، و«خرجت روحه».

أخرج البزار بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه رفعه: «إن المؤمن ينـــزل به الموت، ويعاين ما يعاين، فيود لو خرجت نفسه، والله يحب لقاءه، وإن المؤمن يصعد بروحه إلى السماء....». (مسند البزار، رقم:٩٧٦٠؛ شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور، ص٩٧، باب ملاقاة الأرواح)

الدليل(٢) ورد هذا المعنى (حال موت المؤمن والكافر) في أحاديث أخرى، تفيد أن النفس و الروح بمعنى،كما في مسند الإمام أحمد: «إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا...، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة، اخرجي إلى مغفرة من الله...، فلا يمرون يعني بها على ملإ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟...[وفيه ذكر الكافر على عكس حال المؤمن]: أيتها النفس الخبيثة...، ما هذا الروح الخبيث». (مسند أحمد، رقم:١٨٥٣٤؛ مصنف ابن أبي شيبة، رقم:١٢١٨٥)

ورد في الحديث إطلاق النفس والروح كليهما على الميت.

الدليل(٣) في صحيح مسلم: «ألم تروا الإنسانَ إذا مات شخص بصره؟ قالوا: بلى.

قال: فذلك حين يتبع بصره نفسَه».(صحيح مسلم، رقم:٩٢١) قال الإمام النووي: المراد بالنفس هنا الروح...، وفيه حجة لمن يقول: إن الروح والنفس بمعنى.

الدليل(٤) في قصة ليلة التعريس: «إن الله قبض أرواحكم حين شاء».(صحيح البخاري، رقم:٥٩٥)، وفي رواية أخرى ورد من قول بلال رضي الله عنه: «أخذ بنفسي الذي أخذ بنفسك». (موطأ مالك، رقم:١٠)

وعلى هذا القول تعريف النفس والروح واحد، وهو:

(١) جوهر مجرد عن المادة متعلق بالبدن.

(٢) جوهر نوراني يسري في البدن سَرَيان الماء في الورد أو النار في الفحم.

(٣) مبدأ الحياة في البدن: تكون الحياة بوجوده، والموت بمفارقته.

(٤) جوهر مجرد يدرك الكليات والجزئيات المجردة، ويدرك الجزئيات المادية بواسطة الحواس.

(٥) البخار اللطيف المتولد في القلب. أي شيء يشبه الغاز(GAS) ولايُرى. وينشأ عن حركة القلب. فإذا توقف القلب عن الحركة توقفت الروح والنفس أيضًا.

القول الثاني: الروح والنفس مختلفتان، إلا أن الفرق بينهما اعتباري، وليس حقيقيا، والفرق كما يلي:

الفرق الأول: الروح: ما به الحياة. والنفس: ما به الشعور والإحساس. أي ما يسري في بدن الإنسان هو الروح، وبالنظر إلى أنه فيه الشعور، يسمى نفسا. **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ (الزمر: ٤٢)

ويتمتع الإنسان في اليقظة بروح الحياة ونفس الشعور، وفي النوم يبقى معه روح الحياة دون نفس الشعور. والمراد في الآية الكريمة إنهاء نفس الشعور هذا في حق النائم.

الفرق الثاني: النفس المزكاة روح، وغير المزكاة نفس.

الفرق الثالث: ورد في الحديث أن الله تعالى خلق آدم، ثم خلق فيه النفس والروح، فعفافه وفهمه وحلمه وسخاؤه مردها إلى روحه، وسفاهته وغضبه وشهوته ترجع إلى نفسه.

في التمهيد: «وذكر عبد المنعم بن إدريس عن وهب بن منبه أنه حكى عن التوراة في خلق آدم عليه السلام: قال الله عزوجل: حين خلقت آدم...، ثم جعلت فيه نفسا وروحا...، ومن النفس حدته وشهوته ولهوه ولعبه وضحكه وسفهه وخداعه وعنفه، ومن الروح: حلمه ووقاره وعفافه وحياؤه وتكرمه وصدقه وصبره».(التمهيد لابن عبد البره/٢٤٣)

فعلم منه أن الروح الذي يتعلق به العقل والقلب والدماغ، مبدأ الخير فيه الروح، ومبدأ الشر يطلق عليه النفس.

الدليل(٢) حكى الحكيم الترمذي في «المنهيات» عن وهب بن منبه قوله: «والروح يأمر بالخير، و النفس تأمر بالشر».(المنهيات، ص٣٣، النفخ في الطعام والشراب)

الفرق الثالث: ما كان قبل الدخول إلى البدن أو بعد الخروج منه فهو الروح. وما كان في البدن هو النفس. فقبل ولادة الإنسان وبعد وفاته: روح، لا نفس.

الدليل(١) ورد في الأحاديث أن الله تعالى خلق الروح (و لم يكن في البدن حينئذ). وروى العلامة ابن القيم والعلامة السيوطي حديثا. وسرد ابن القيم إسناده أيضا:

«احتجوا أيضًا بما رواه عبد الله بن مندة....عن عمرو بن عبسة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: «إن الله خلق أرواح العباد قبل العباد بألفي عام...»». (الروح، ص:١٩٧، المسألة:١٨؛ وشرح الصدور، ص:٣١٥، خاتمة في فوائد تتعلق بالروح).

وأفرد ابن القيم رحمه الله هذا المعنى بالذكر، فقال: «إن الله تعالى خلق الأرواح قبل الأجساد». وهذا البحث ممتد على عشرين صفحة فصاعدا. (راجع: الروح، المسألة الثامنة عشرة، ص:١٩٢-٢١٥)

الدليل(٢) روى الحاكم «عن أبي بن كعب في قوله عزوجل:﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾(الأعراف: ١٧٢)، قال: جمعهم له يومئذ جميعا ما هو كائن إلى يوم القيامة، فجعلهم أرواحا، ثم صوركم». (المستدرك٢/٤٠٩/٣٢٥٥).

الدليل(٣) ورد في الحديث أن روحه –بعد موته –يصير إلى عليين أو إلى سجين. أي لا يبقى في الجسد. روى عبد الرزاق في مصنفه حديثا طويلا: «إذا وضع الميت في قبره...، تجعل روحه في النسيم الطيب، في أجواف طير....، قال: وإن الكافر.... تجعل

روحه في سجين». (مصنف عبد الرزاق، رقم:٦٧٠٣).

أورد العلامة ابن القيم في كتابه «الروح» تعريفات مختلفة للروح والنفس، وشرح الأحوال والمسائل المتعلقة بها، وفصَّل الفرق بين الروح والنفس مشفوعة بالأدلة، نقتبس منها جملة واحدة فقط، قال: «فالفرق بين النفس والروح فرق بالصفات لا بالذات».

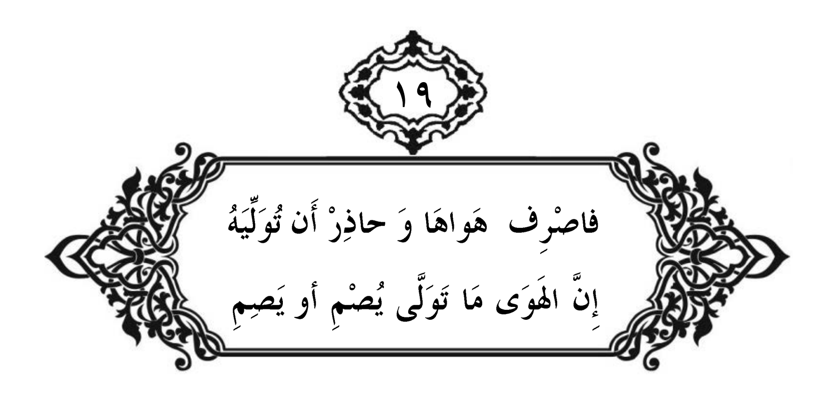
(الروح، ص٢٦٥، ط: دار الفكر. وعقد في الكتاب عنوانا مستقلا لذلك. للاستزادة منه راجع: الروح، ص٢٦٤، المسألة العشرون، وهي: هل النفس والروح شيء واحد أم شيئان متغايران؟ للاستزاد منه راجع: عمدة القاري ٢/٢٨٤، باب قول الله: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ فتح الباري ٨/٤٠٣؛ فيض القدير٢/٥٣٦؛ مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام العلامة ابن تيمية ٤/٢٦٦؛ الفروق اللغوية للعسكري، ص٣٥٤-٣٥٦؛ كتاب الكليات لأبي البقاء، ص ٤٦٩-٤٧٠)

وقيل: الروح لاهوتي والنفس ناسوتية.

البلاغة:

في البيت تشبيه مرسل. نفس: مشبه. طفل: مشبه به. الكاف: أدة التشبيه. ينشأ كل واحد منهما على تعوده، أي كما تعود الطفل يتعوده، وقس عليه النفس.

****



اللغة:

فاصرِف: صَرَف(ض) فلانًا: حبسه وأمسكه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ (يوسف: ٣٤) وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا﴾ (الفرقان: ١٩) و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ۝٥٣﴾ (الكهف: ٥٣)

وورد في آخر من يدخل الجنة: «فيصرف الله وجهه عن النار».(صحيح البخاري، رقم:٨٠٦)

صرف الباب أو القلم: صوت. في حديث المعراج: «حتى ظهرتُ لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام».(صحيح البخاري، رقم:٣٤٩) أي كنت أسمع صوت القلم يكتب.

صرَفَ المال: أنفقه. صرَف النقدَ بمثله: بدَّله. صرَف النظر عن كذا: أعرض عنه، وتغاضى عنه.

صَرَف الفعل: اشتق منه صيغا مختلفة. صرفَ الاسم: جعله ينصرف.

صرَّف الأمرَ: (١)دبره، (٢)بيَّنه. وفي التنْزيل: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ (الإسراء: ٨٩) وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ (الأنعام: ٤٦)

صرَّف الشيء: بدله، وقلبه. ورد في الشفعة: «فإذا وقعت الحدود وصُرِّفت الطرق فلا شفعة». (صحيح البخاري، رقم:٢٢٥٧)

و ورد في الحديث أن الله يصرف القلوب كيف يشاء: «إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه كيف يشاء، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اللهم مصرِّف القلوب، صرِّف قلوبنا على طاعتك».(صحيح البخاري، رقم: ٢٦٥٤)

تَصَرَّف: احتال. انصرف: تحول عنه، اعتزله.

وكثيرا ما يطلق «انصرف» على إكمال الشيء وإنهائه. وحاصله التحول والاعتزال.

ورد في كثير من الأحاديث «فلما انصرف» على إنهاء الصلاة.

استصرفه: سأله أن يصرفه. الشيء الصِّرف: الخالص منه.

بيع الصرف: مبادلة الثمن بالثمن.

علم الصرف: علم يعرف به اشتقاق صيغ مختلفة من صيغة واحدة.

هواها: «هوى»، مر تحقيقه في البيت رقم (٥).

حَاذِر: حذِر (س) حَذَرًا: تيقظ، خافه. حَذِرَ الشيء ومنه: خافه واحترز منه. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ (المنافقون: ٤)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ (النساء: ٧١)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ (البقرة: ٢٤٣)

في صحيح البخاري: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سماهم الله تعالى فاحذرهم».(صحيح البخاري، رقم:٤٥٤٧)

وفي قصة أصحاب الأخدود: «فأتى الملكُ فقيل له:... قد والله نزل بك حذرُك». (صحيح مسلم، رقم:٣٠٠٥)

حَذَّره: نبهه وخوَّفه. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ (آل عمران: ٢٨)

وقال عمر رضي الله عنه لحفصة رضي الله عنها عندما آلى النبي صلى الله عليه وسلم: «إني أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله صلى الله عليه وسلم».(صحيح البخاري، رقم:٤٩١٣)

حاذَرَ: حذر كل واحد منهما الآخر،(٢) بالغ في الحذر. فالمفاعلة قد تأتي للمبالغة.

وفي دعاء مأثور: «أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر».(صحيح مسلم، رقم: ٢٢٠٢)

حَذَارِ: اسم فعل بمعنى الأمر. احذر احذر. الحذُر: كثير الحذر. الحذير: النذير.

أن توليه: ولَى يلي (ض) وَلْيًا، وليَ يلي (س) وَلَيًا: دنا منه، واتصل به. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ (التوبة: ١٢٣)

وفي الحديث: «ليليني منكم أولو الأحلام والنهى». (صحيح مسلم، رقم:٤٣٢)

وفي صحيح البخاري: «وخير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم».(صحيح البخاري، رقم :٣٦٥)

وَلِيَ الشيءَ وِلايةً: دبره. ولِيَ البلدَ: حكمه. ولِيَ فلانا الأمرَ: جعله مدبرا وحاكما.

أولى فلانا الأمرَ: فوضه إليه. في صحيح البخاري: «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة».(صحيح البخاري، رقم:٤٤٣٥)

والى الشيء: واصله.

والى فلانا: أحبه، وفي الحديث: «الدنيا ملعونة...إلا ذكر الله وما والاه».(سنن الترمذي، رقم:٢٣٢٢)

ولّى فلانا: أدبر عنه، وأعرض عنه. وفي التنـــزيل: ﴿ وَلَّىٰ مُدۡبِرًا وَلَمۡ يُعَقِّبۡ﴾ (القصص: ٣١)

ولاه عن كذا: صرفه عنه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ﴾ (البقرة: ١٤٢)

تولى عن كذا: أعرض عنه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ﴾ (النجم: ٢٩)

في صحيح البخاري: «إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه...أتاه ملكان».(صحيح البخاري، رقم:١٣٧٤)

تولى الشيءَ: ولي الأمر، وتقلده، تولى فلانا: أحبه. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (الأعراف: ١٩٦)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ﴾ (الحج: ٤)

المتولي: القيم، والمشرف.

يُصْمِ: صمَى الصيدُ (ض) صَمْيًا وصَمَيَانا: أُصِيب الصيد وَمَات بَين يَدي صائده.

أَصمى الصيدَ: أصابه فوقع بين يديه. قال عبد الله بن عباس وقد سأله رجل: «كُلْ ما أصْمَيتَ، ودَعْ ما أنميت». (السنن الكبرى للبيهقي ٤٠٤/٩)

المعنى: ما ما ت من الصيد بين يديك، فَكُلْه، فإنك على يقين بأنه مات بجرح سهمك، وأما الحيوان الذي غاب أثناء الصيد، ثم وجده ميتا، فلايأكله، فلعله لم يمت بسبب الصيد، بل بسبب آخر.

الصيمان: الشجاع، ج: صِمَانٌ.

يَصِمُ: وَصَمَ (ض) وَصْمًا وَصِمَةً: عابه.

وَصَّمَ: (١) آذاه، (٢) كَسَّله، في حديث مشهور عن تارك الفجر في بعض ألفاظه: «وإن نام كهيئته حتى يصبح أتاه الشيطان، فبال في أذنه، فيصبح ثقيلا موَصَّمًا».(كنز العمال، رقم:٢٣٤١٤)

الوَصْمُ: (١) الهناة، (٢) العيب، (٣) الشين، (٤) العلامة.

في حديث صحيح البخاري: «قال لنا عمر بن عبد العزيز: «خمس إذا أخطأ القاضي منهن خصلة كانت فيه وصمة: أن يكون فهيما، حليما، عفيفا، صليبا، عالما سؤولا عن **العلم**».(صحيح البخاري، ٦٧/٩، باب متى يستوجب الرجل القضاء).

الإعراب:

فاصرف:

الفاء فصيحة، ويقدر قبله: إذا علمت ذلك/ إذا كان حالها ما ذكرنا/ إذا كانت النفس تمتنع بالمنع: فاصرف هواها.

أن توليه: أن: مصدرية، والمعنى: واحذر توليته على نفسك.

أن توليه:

سؤال: المفروض: تَوَلِّيَها: لأن الضمير يعود على الهوى.

الجواب: (هوى) مصدر، ويجوز في المصدر التذكير والتانيث.

في الشطر الثاني: إن الهوى: وضع الظاهر موضع الضمير للإشارة إلى خطورة أهواء النفس.

إن الهوى: (١)كلام مستأنف. (٢) بمعنى: لأن الهوى.

إن الهوى: حرف واسم، ما تولى: الجملة سدت مسد الخبر.

ما تولى: (١) ما شرطية زمانية، والمعنى: كلما ولَّيته. (٢) بمعنى: إن الشرطية. (٣)موصولة.

يُصْمِ: أصله: يُصْميْ: فالياء محذوفة، (١) لضرورة الشعر، (٢) ما تولى: بمعنى (إن تولى) الشرطية، فالجواب (يُصْمِ)مجزوم.

الشرح:

فعلم أن الفلاح في حرمان النفس ما تشتهيه. ولذا قال: ابتعد عن أهواء النفس، ولا

تسلطها على نفسك. وإلا فإن عاقبته الهلاك.

فاصرف: أي: غَيِّرْ. والمقصود أن العادات تتجه إلى القبائح، فاصرفها إلى الحسنات؛ لأن إزالة العادات صعبة، وإمالتها يسيرة، فمثلا: رجل فيه غضب، فيجب أن يستخدم في وجه صحيح دون غيره.

مثل عمر بن الخطاب رضي الله عنه كانت شدته في الجاهلية ضد الإسلام، ثم كانت للإسلام بعد أن اعتنقه. وأصبح شديدا على الكفر. وقس عليه خالد بن الوليد كانت قوته ودهاؤه ضد الإسلام، ثم أصبحت للإسلام. وله أمثلة عديدة.

المراد بهواها في البيت ؟

(١) بمعنى المصدر من (هَوى يهوي). الهوى: ميلان النفس إلى ما تستلذه. فالمعنى: امنع هوى النفس. وإنما حملناه على ذلك لأن معنى غلبة الهوى لا يصدق إلا عليه.

(٢) هَوَى: مهوي، أي المحبوب، فالمعنى: غيَّر ما تهواه.

حاذر:

المفاعلة للمبالغة إذا لم تكن للمقابلة. وإنما أورد في البيت هذه الصيغة:

(١) للمبالغة: أي احذَر في كل زمان وعلى كل حال.

(٢) من باب المفاعلة حقيقة؛ لأن المحاذرة من الجانبين.

أي تترقب النفس المرء فإذا ألفته غافلا، ابتلته بالهوى. فعلى المرء أن يتخذ حذره.

أن تولِّيه (أي تجعله واليا وحاكما).

وفي البيت: أن توليه: أي (من) أن توليه. من (ولَّى) بمعنى جعله يلي.

وفي نسخة:(تواليه) فهو من (والى موالاة) بمعنى الحب والصداقة.

وحاصل المعنى واحد. والأول أوضح.

ما تولى: فعل مبني للمعلوم، وقرِئَ: (تُوُلِّيَ) بالمبني للمجهول، والحاصل واحد.

ما المراد بـــ (يُصْمِ أو يَصِمْ)؟

(١) تفيد (أو) الشك في الأكثر، نحو: عمره ثلاثون أو أربعون. وفي القرآن الكريم قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ (الذاريات: ٥٢) ﴿قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ (المؤمنون: ١١٣)

المعنى: يهلك أو يُشوه سمعته؛ فإن المرء قد يُهلكه الهوى أو يشوه سمعتَه.

(٢) وقد تكون للتخيير، ومعنى التخيير: يجب وجود أحد الأمرين. نحو: من تخرج في المدرسة فليدخل كلية الفقه أو الحديث.

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ (البقرة: ١٩٦)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ (الإسراء: ١١٠)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ (المائدة: ٩٥)

والمعنى حينئذ: لابد من أحد الأمرين: الهلاك أو تشوه السمعة إذا تغلب الهوى.

(٣) وقد تكون للجمع بين ما قبلها وما بعدها: نحو: جالس الفقهاء أو المحدثين: أي والمحدثين. والمعنى حينئذ: يهلكك ويعيبك.

ويطلق عليه الإباحة. والفرق بين التخيير والإباحة: (١) يمنع الجمع بين الأمرين في التخيير، و يجوز في الإباحة. (٢)يلزم الإتيان بأحد الأمرين في التخيير، دون الإباحة. والمقام لا يسع مزيدا من التفصيل، فتأمل في الأمثلة، أو راجع: دستور العلماء ١٨/١، و مختصر المعاني.

(٤) (أو) تكون بمعنى (بل)، كما في قوله قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ (البقرة: ٧٤). والمعنى: يهلكك؛ بل يعيبك.

(٥) (أو) قد تكون بمعنى (حتى)، كما في قوله تَعَالَىٰ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ (آل عمران: ١٢٨) أي: حتى يتوب عليهم، أو نحو: لا أفارقك أو تعطيني حقي، أي:حتى تعطيني حقي.

المعنى :يهلكك حتى تسوء سمعتك.

(٦) (أو) للتقسيم، نحوقوله قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ (البقرة: ١٣٥)، أي قالت اليهود: كونوا هودا، وقالت النصارى: كونوا نصارى.

فالأهواء تهلك البعض، وتعيب البعض الآخر.

وبحث بعض الشراح هل المراد المعنى الحقيقي للهلاك والعيب، أو المجازي؟ والحاصل:

(١) المراد الحقيقة. فالمراد بقوله: (يُصْمِ) قتل المرء في الحدود نحو الرجم وغيره، والمراد بقوله: (يَصِمُ) أن من اتبع هواه ساءت سمعته بين الناس.

(٢) المراد المجاز: فالمراد بـــ (يُصْم) الخلود في النار، والمراد بـــ(يَصِم) عذاب أخف منه.

وحوّل البعض البيت إلى الشكل الأول المنطقي، فقال:

صغرى: الهوى الغالب مهلك. كبرى: وكلما كان مهلكا يُحذَر منه. والنتيجة: الهوى يُحذَر منه.

ذم الشرع اتباع أهواء النفس:

في ضوء الآيات القرآنية:

عن ابن عباس رضي الله عنهما: «ما ذكر الله عزو جل الهوى في موضع من كتابه إلا ذمَّه». (ذم الهوى، لابن الجوزي، ص ١٢؛ روح المعاني ١٥٢/٢٥)

وإليكم بعض الآيات في هذا الصدد:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ﴾ (الأعراف: ١٧٦)، وقَالَ تَعَالَى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ (الروم: ٢٩)، وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ (القصص: ٥٠)، و قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (ص: ٢٦)، وقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ﴾ (الجاثية: ٢٣)، و قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ﴾ (طه: ١٦)، و قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ﴾ (النازعات: ٤٠)، و قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ (المؤمنون: ٧١)، و قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم﴾ (محمد: ١٤)، و قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ﴾ (النساء: ١٣٥)، و قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ﴾ (المائدة: ٤٩)، و قَالَ تَعَالَى: ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهۡوَآءَكُمۡ﴾ (الأنعام: ٥٦)

قال الشعبي: «إنما سمي الهوى هوى؛ لأنه يهوي بصاحبه في النار». (تفسير القرطبي ١١١/١٦).

في ضوء الأحاديث النبوية:

عن شداد بن أوس، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله».(سنن الترمذي، رقم٢٤٥٩)

وعن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ثلاث مهلكات: شح مطاع وهوى متبع و إعجاب المرء برأيه».(شعب الإيمان للبيهقي، رقم٧٣١)

وعن عمرو بن عوف المزني قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إني أخاف على أمتي من ثلاث: من زلة عالم، ومن هوى متبع، ومن حكم جائر».(مسند البزار، رقم :٣٣٨٤).

وعن أبي الدرداء، قال: «لولا ثلاث خصال لصلح أمر الناس: شح مطاع، وهوى متبع، و إعجاب المرء بنفسه».(تاريخ مدينة دمشق، لابن عساكر ٢٧١/٤٧؛ كنـز العمال، رقم:٤٤٣٧٠)

وعن أبي ثعلبة الخشني مرفوعا: «حتى إذا رأيت شحًّا مطاعا وهوى متبعا... فعليك بخاصة نفسك، ودَع العوام».(سنن الترمذي، رقم:٣٠٥٨)

ورد في عدة أحاديث بألفاظ مختلفة أن هوى النفس مهلك. (راجع: كنـز العمال ٤٥/١٦)

وفي بعض الآثار: «ما عُبِد إله في الأرض أبغض على الله من الهوى».(روح المعاني ٢٣١/٢٣)

رواه القرطبي عن أبي الدرداء مرفوعًا، و لم نعثر له على إسناد.

يُذكر أن رجلا من الناس لزم شيخه مدة من الزمان، وحصل له منه إجازة. وطلب من شيخه —حين مغادرته — أن يسدي له بعض النصائح، فقال له الشيخ: إياك أن تكون إلها، وإياك أن تكون رسولا. فقال الرجل لشيخه: كيف خفت عليَّ أن أزعم لنفسي الألوهية أو الرسالة وقد قضيت عندك ما قضيت من الزمان؟ فقال الشيخ: إذا رأيت أن كل ما تقوم به صواب وحق، فهو الألوهية، وإذا رأيت أن كل ما تقوله حق وصواب فهو الرسالة.

رأى بعض الناس رجلا يطير في الهواء، فسأله: كيف وصلت إلى هذه المكانة؟ فقال: تركت الهوى، فسخر لي الهواء. (الرسالة القشيرية، ج٢، باب مخالفة النفس)

أبيات في ذم الهوى:

يُذكر أن هشام بن عبد الملك لم يقل طوال حياته إلا بيتا واحدا:

إذا أنتَ لم تعصِ الهوى قادك الهوى ۞ إلى بعض ما فيه عليك مقال

(سيرأعلام النبلاء٥/٣٢)

قال ابن عبد البر: لوقال: «إلى كل ما فيه عليك مقال» لكان خيرا.

قال الشاعر:

نون الهوانِ من الهوى مسروقة ۞ فإذا هويتَ فقد لقيت هوانا

وقال عبد الله بن المبارك:

ومن البلايا للبلاءِ علامة ۞ أن لا يُرى لك عن هواك نزوع

(سير أعلام النبلاء٨/٤١٧؛ تفسير القرطبي ١٦/١٦٨)

معنى البيت يؤيده القرآن الكريم والسنة النبوية.

في (يُصْم) و(يَصِم) مانعة الخلو، أي لابد أن يتعرض متبع شهوته لأحد الأمرين. وقد يجتمعان.

تشهد صفحات التاريخ بأنه لم يُمَلِّك أحد أمرَه نفسه إلا هلك، ووقع في الهاوية. وهذا إبليس اللعين –ألد أعدائنا– لُعِن وطرد من رحمة الله تعالى حين غرته نفسه.

وليس ثمة إبليس سبق إبليس، فمن ذا أضله وأغواه؟ وعليه قالوا: النفس شيخ إبليس وأستاذه، فإنه قرر إضلال عباد الله تعالى، فلم يجد صديقا وعينا وعميلا خيرا من النفس في ضوء تجاربه. وهو ما دفع العلامة البوصيري إلى التحذير الشديد من اتخاذ النفس الأمارة بالسوء وليا، فإنه لا يؤمن معه الهلاك والردى. قال الشاعر:

إذا كان الغراب رئيس قوم ۞ سيهديهم إلى دار البوار

يقول بشر الحافي: قد يفسد صديق سوء في لحظة ما لا يفسده ستون شيطانا، وتفسد النفس السيئة ما يفسده ستون صديق سوء.

كُتُبٌ حول موضوع الهوى:

عمل العلامة ابن الجوزي كتابا سماه «ذم الهوى»، تم نشرُه في أكثر من (٦٠٠) صفحة قبل سنوات. يحتوي الكتاب على (٥٠) بابا، يشرح تفاصيل اتباع الهوى في كل

عمل، وذمه ونحو ذلك.

وعمل الحكيم الترمذي رسالة قصيرة سماها «العقل والهوى»، تحتوي على ١٥-٢٠ صفحة، تحدث الرسالة عن اتباع العقل ونتائجه النافعة، واتباع الهوى ونتائجه الضارة.

كما تحدث المفسرون في تفسير الآيات الخاصة بالهوى، في ضوء الكتاب والسنة والآثار والقصص حديثا مفصلا.

إزالة العادات أو إمالتها:

عمل الشيخ مناظر أحسن الكيلاني بحثا في هذا الصدد، وفيما يلي مخلصه:

«إن الفضائل أو الرذائل -كما أثبتت التجارب- جبلية، فمن الناس من يطبع على البخل والحسد والكبر والنخوة ونحوها من الصفات، وهذا في الرذائل، وقس عليه الفضائل من الشجاعة والسخاء والمواساة ونحوها من الميزات والخصائل الحميدة .والضابط في ذلك أن إزالة الصفات الجبلية متعذرة كما يتعذر تبديل الصورة والأشكال...، وعليه سلك الإسلام في سبيل إزالة هذه الصفات الجبلية مسلك توجيه الصفات التي تكون رذائل ويُحوَّل مسارُها إلى الوجه الصحيح. فقوله تَعَالَىٰ:﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ (الفتح:٢٩)، وقوله قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ (المائدة: ٥٤)، و ذلك يشير إلى هذا المبدإ. فلا يخفى أن الصفات الإنسانية التي تحتوي على الشدة تتحول أغلى شيء. فكأن الله تعالى خلق في الإنسان هذه الصفات لإزالة الغثاء. والحاصل أن استعمال الرذائل في وجهها الصحيح وتدبيرها يسمى «الإمالة». فالعداوة مثلا من أقبح الرذائل، ولكن القرآن الكريم صرف هذه الغزيرة الإنسانية إلى الشيطان، فقال:﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ﴾ (فاطر:٦)، فحول هذه العداوة إلى مفتاح للجنة. وقس على ذلك ما سواه. وكذلك إذا خلا بعض الناس من الفضائل لم يبطله الإسلام؛ بل يتلمس الوجوه التي يمكن استخدام أمثال هؤلاء فيها، فهذا حسان بن ثابت لم يخلق على الخوض في الحرب، فلم يتصف بصفة الشجاعة، وكان يعترف بذلك. [وتفيد بعض الروايات أنه حُرِمَ الشجاعةَ لجرح أصابه، كما في الأعلام للزركلي١٧٥/٢]. وكان يسمح له باللجوء إلى الأماكن الحصينة مع النساء إبان الحرب. و لم يتركه النبي صلى الله عليه وسلم سدى نظرا إلى النقص

الطبيعي؛ بل استغل ما فيه من النبوغ في الشعر واستخدمه في مواجهة الكفر. فكان يقول له: «اهج قريشا؛ إنه أشد عليهم من رشق بالنبل». وكان ينصب له كرسي في المسجد النبوي، فينشد عليه الأشعار، و يتخلله دعاء من النبي صلى الله عليه وسلم: «اللهم أيده بروح القدس». والحاصل أنه يستحيل أن يخلو من خُلِق من الوجود الكمالي، فإن كان يعجز عن استعمال عقله ودماغه فلا أقل من أنه يقدر على استخدام يده وأنامله، فالأمر راجع إلى من يستعمله ويستخدمه وسليقته. فما عليك إلا أن تضع كل قطعة من قطع الماكينة في موضعها اللائق فتجلب نفعا وتحقق مصلحة».(مقالات إحساني، ص ١٣٤)

ولا ننكر ما قاله الشيخ مناظر أحسن الكيلاني وغيره من العظماء والمشايخ، إلا أنه لا يصح إلا في فطرة بعض الناس الجبلية. فمثلا يتصف البعض بالاستعجال، أو الغضب أوالشجاعة المفرطة. ولكن يجب تعديل العادات السيئة العامة وإزالتها، بأن يتحول سوء الخلق إلى حسنه، ويتحول الغضب إلى الرفق. وأما الحديث الذي أخرجه صاحب المشكاة والإمام أحمد في المسند: «إذا سمعتم بجبل زال عن مكانه فصدقوا، وإذا سمعتم برجل تغير عن خلقه فلا تصدقوا به».(مسند أحمد، رقم:٢٧٤٩٩) ففيه انقطاع بين الزهري وأبي الدرداء، أو يحمل على بعض الفطر الجبلية الخاصة.

البلاغة:

(١) في (يُصم) و(يَصم) جناس ناقص.

(٢) إن الهوى: مجاز عقلي، حيث نسب الإهلاك والعيب إلى الهوى.

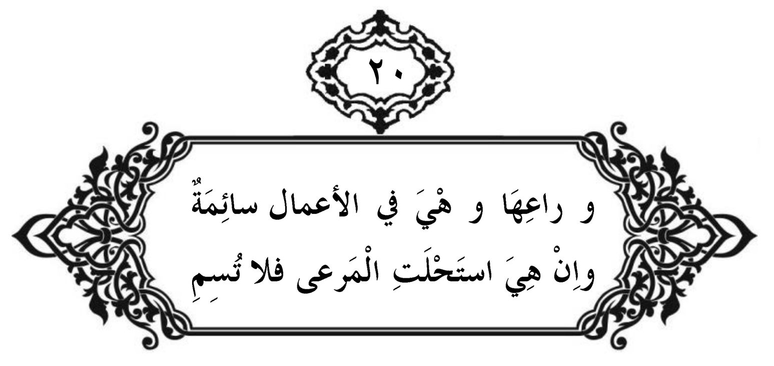
(٣) في البيت استعارة مكنية تخييلية ترشيحية.

النفس: مشبه به، طالب الإمارة: مشبه به، وحذِف المشبه به، فالاستعارة مكنية.

ويناسبه المنع من الإمارة، فكانت الاستعارة ترشيحية.

انتهى، والله الموفق لكل خير.

****



اللغة:

راعها: رَعى الماشية (ق) رَعْيًا ومَرعى: جعلها ترعى. قَالَ تَعَالَى: ﴿ كُلُواْ وَٱرْعَوْاْ أَنْعَٰمَكُمْۚ ﴾ (طه: ٥٤)، وقَالَ تَعَالَى: ﴿ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا ﴾ (البقرة: ١٠٤)

وفي الحديث: «ما بعث الله نبيا إلا رعى الغنم...كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة». (صحيح البخاري، رقم:٢٢٦٢)

رعى الحيوانُ: تناول المرعى.

رعى الشيءَ رَعيًا ورِعايَةً: حفظه، قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ ﴾ (الحديد: ٢٧)، و قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾ (المؤمنون: ٨)

وورد في عدة مواضع من صحيح البخاري: «كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته».(صحيح البخاري، رقم:٥٣٦٥، و٥٢٠٠)

وفي الحديث عن نساء قريش: «وأرعاه على زوج في ذات يديه».(صحيح البخاري، رقم:٥٣٦٥)

أرعى إليه: أصغى إليه، واستمع لكلامه. راعى مراعاة: لاحظه وراقبه.

استرعى: طلب منه أن يحفظه. ورد عن الخلفاء: «فإن الله سائلهم عما استرعاهم».(صحيح البخاري، رقم:٣٤٥٥)

استرعى الالتفات: جلبه إليه، ومنه: هذا مما يسترعي النظر.

ارعوى: أمسك، في سنن النسائي: «وإن من شر الناس رجلا فاجرا يقرأ كتاب الله

لا يرعوي إلى شيء منه». (سنن النسائي، رقم:٣١٠٦)

الراعي: (١) راعي الغنم، (٢) المراقب، (٣) الحاكم، ج: رعاةٌ، رِعاءٌ، ورُعاءٌ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ (القصص: ٢٣)

وفي حديث جبرئيل: «وأن ترى الحفاة... رعاء الشاه يتطاولون في البينان». (صحيح مسلم، رقم:٨)

وفي رواية: «إذا تطاول رعاة الإبل البهم في البينان». (صحيح البخاري، رقم:٥)

المرعى: (١) الرَّعْي، وَفي التَّنْزِيل الْعَزِيز: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾ (الأعلى: ٤)، (٢)موضع الرعي، ج: مراعٍ.

سائمة: (ساومه) مساومة وسواما: فاوضه فِي البيع والابتياع. سَامَ (ن) سَوْمًا/ استام: فاوضه في البيع. وفي الحديث: «نهى... وأن يستام الرجل على سَومِ أخيه». (صحيح البخاري، رقم:٢٧٢٧)

وفي سنن ابن ماجه: «نهى عن السوم قبل طلوع الشمس». (سنن ابن ماجه، رقم ٢٢٠٦)

وفي إسناده كلام، وقيل: المراد به رعي الحيوانات لا البيع.

سام (ن) الماشيةَ/ أسام الماشيةَ: أطلقها للرعي، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ (النحل: ١٠)

السائمة: الأنعام التي ترعى، ج: سوائم.

ورد في غير حديث أنه لا زكاة في السوائم حتى تبلغ النصاب. في صحيح البخاري: «فإذا كانت سائمة الرجل ناقصة من أربعين شاة واحدة فليس فيها صدقة». (صحيح البخاري، رقم :١٤٥٤)

سام (ن) فلانا: أذاقه العذاب، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ (البقرة: ٤٩)

ومنه في الفصل الخامس: ما سامني الدهر يوما واستجرت به.

سوَّمَ الشيء: أعلمه، في التنزيل: ﴿وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾ (آل عمران: ١٤)، وقوله: قَالَ تَعَالَى: ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ (آل عمران: ١٢٥)

استحلت: حلا الشيء (ن) حلاوةً: عذب. وفي الحديث: «ثلاث من كنَّ فيه وجد

حلاوة الإيمان». (صحيح البخاري، رقم:١٦)

حلا الشيء في عينه: راقه.

حَلِيَ (س)حَلًى (١) عذب، (٢)استعذبه. أحلى: (١) جعله حلوا، (٢) وجده حلوا.

حلَّي الشيءَ في عينه: جعل الشيء يحلو في عينه. استحلى الشيءَ: عدّه حلوا.

تُسِمْ: نهي من أسامَ يُسِيمُ: أي لا تَرْعَ.

الإعراب:

وَهْي في الأعمال: الواو للحال، والجار والمجرور (في الأعمال) متعلق بقوله: سائمة.

وهْيَ في الأعمال:

(١) وَهْيَ: أصله بكسر الهاء: وهِيَ، وتسكينها لرعاية الوزن الشعري.

(٢) وَهْيَ: أصله بكسر الهاء: وهِيَ، وتسكينها على الأصل، وهو أنه يجوز تسكين الأوسط في (فَعِلَ): فَعْل. مثل: ولِيَضْرِبْ، ولْيَضْرِب.

وإن هي استحلت المرعى:

(١) كلام مستأنف، جواب عن سؤال. فقال فيما سبق: اشغل نفسك في الأعمال الصالحة، فقيل: هل يشغله كل وقت في العمل الصالح؟ فرد عليه: إذا استحسنت النفس عملا من الأعمال فلا تشغلها فيه دائمًا.

(٢) عطف على المصراع الأول، ويرد عليه أن المعطوف عليه (راعها...) إنشاء، والمعطوف (إن هي) خبر، ولا يصح عطف الخبر على الإنشاء؟

والجواب عنه أن المعطوف (إن هي) وإن كان خبرا إلا أن جزاءه وهو (لا تسم) إنشاء، والضابط يقول: إن (إن) الشرطية تتبع لجزائها في الإنشائية والخبرية. فكأن قوله (إن هي...) جملة إنشائية أيضا، ويصح عطف الإنشاء على الإنشاء.

وإن هي...

إذا دخلت (إن) على الإسم قُدِّر قبله فعل، وهو ما يطلق عليه في النحو: «ما أضمر عامله على شريطة التفسير»، كما في قوله قَالَ تَعَالَى:﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ ﴾ (التوبة:٦)، أي: وإن (استجارك) أحد...

وبالتأمل في الحديث النبوي تجد أمثلة عدة على ذلك، منها ما رواه البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل معاذا إلى اليمن، فقال له: «إن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم خمس صلوات...».(صحيح البخاري، رقم ١٣٩٥)

وورد في قصة صلح الحديبية: «فإن هم أبوا لذلك فو الذي نفسي بيده لأقاتلنهم...».(صحيح البخاري، رقم:٢٧٣١)

وتقدير العبارة في البيت: وإن (استحلت) هي...

الشرح:

لابد من مراقبة النفس:

ينبِّه الناظم رحمه الله في البيت على أمر هام، وأنه يجب مراقبة النفس وإن كانت دائبة في العمل الصالح، حتى تقوم به في نطاق الشريعة الإسلامية، فكثيرا ما تشوب المفاسد الأعمال الصالحة، فتكون ضررا على صاحبها لا نفعا له.

أمثلة على المفاسد:

(١) قد يشوب الأعمال الصالحةَ عدم مراعاة حقوقها، فتضيع الحقوق الأخرى. ومن الأمثلة على ذلك أن المرء يصوم التطوع، فلا ينبغي له أن يواصل الصوم، وإن جاز له ذلك، فإن مواصلة الصيام تورث الضعف، فيخشى التقصير في القيام بالواجب والفرائض وحقوق الله وحقوق العباد. ورد في الحديث الشريف: «لا صام من صام الأبد، لا صام من صام الأبد، لا صام من صامَ الأبد». (صحيح مسلم، رقم:١١٥٩؛ صحيح البخاري، رقم:١٩٧٧)

وحاصل الحديث أن النفع المرجو من الصوم لا يحصل له، فإن الصيام أصبح عادة له.

وعليه وردت عدة أحاديث فيمن يريد الإكثار من الصيام وهو يطيقه أن الأفضل له أن يصوم يوما ويفطر يوما. ففي صحيح البخاري: قال: «صم أفضل الصوم: صومَ داود: صيام يوم وإفطار يوم».(صحيح البخاري، رقم:٥٠٥٢)

وينشأ ذلك عن الإكثار من الصيام في معظم الأيام، وعليه قال النبي صلى الله عليه

وسلم لعبد الله بن عمرو رضي الله عنه: «صُم في كل شهر ثلاثة، واقرإ القرآن في كل شهر». قال: قلت: أطيق أكثر من ذلك، قال: «صم ثلاثة أيام في الجمعة»، قلت: أطيق أكثر من ذلك، قال: «أفطر يوما وصم يوما، وهو أفضل». فلما كبر وضعف ندم على ذلك وكان يقول: ليتني قبلت رخصة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصمت ثلاثة أيام في الشهر. (صحيح البخاري، رقم:٥٠٥٢)

وكان النبي صلى الله عليه وسلم قال له: «فإنك إذا فعلت ذلك هجمت العين ونفِهت النفس».(صحيح البخاري، رقم:٣٤١٩)

فتأمل: كم يبلغ الصوم من الفضل، ولكن يجب مراعاة الحدود فيه أيضًا، وقس عليه سائر الأعمال الصالحة. وحذار أن يترك المرء الحبل على غارب النفس، تفعل ما تشاء.

(٢) ويتسرب إلى الأعمال الصالحة فساد آخر وهو أن العمل كثيرا ما يكون أصلح، ثم يطرأ عليه الرياء والإعجاب بالنفس، وحب المال والجاه.

وهذا البيت يلقي الضوء على نشاطاتنا الدينية كلها، وتؤكد النفس للناس فيها أنه مخلص ومحتسب في حين أن المصالح الشخصية والرياء والكبر لها عمل من ورائها. فمثلا يغضب قارئ القرآن الكريم في صلاة التراويح إذا فتح عليه أحد، ويبرر لغضبه أن كتب الفقه تحذر من التسرع إلى الفتح على الإمام، وقلبه ملأن علوا وكبرا، يربأ بنفسه عن الأخذ بقوله. وعمل الناس في منطقتنا ولاية سرحد/باكستان لجان رؤية الهلال، بإزاء اللجان الحكومية، ترصد هذه اللجان الهلال في كل مديرية وقضاء، ويتظاهر أعضاء اللجنة أنهم يتلقون الشهادة الصحيحة من الناس، ويحددون مواعيد العيد ورمضان الصحيحة الواقعة. في حين يرى بعض أهل العلم الواعون أن أعضاء هذه اللجان يوفرون ما يثلج فؤادهم حيث ينصبون أنفسهم قضاة يومين في السنة. فينبِّه الناظم رحمه الله أمثال هؤلاء على أنه يجب مراقبة النفس، وحذارِ أن يتظاهر بصلاحه وولايته عند الله بتقبل تأويلات النفس الباطلة. وقِس عليه أن بعض أشباه العلماء يطلع على حكم شرعي في كتاب من الكتب الفقهية، ثم يتبين له أنه مرجوح غير راجح، ولكن أنانيته وعنجهيته لا تدعه يرجع عن موقفه، فمثلا أفتى بكراهية العقيقة ثم تبين له استحبابها، ولكنه يصر على فتواه السابقة. ومثلا اطلع على جزئية من الجزئيات القائلة بكراهية صيام ست من شوال،

ثم تبين له القول المختار والمفتى به وهو الاستحباب، ولكنه يُحرم الرجوعَ إليه.

وحاصل القول أنه يجب مراقبة الأعمال للحفاظ عليها، ورغبت الشريعة الإسلامية كثيرا على صون الأعمال والحفاظ عليها. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾(الكهف:١١٠)

وفي الحديث: «إذا جمع الله الناس يوم القيامة ليوم لا ريب فيه، نادى منادٍ: مَن كان أشرك في عمل عمله لله أحدا، فليطلب ثوابه من عند غير الله، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك».(سنن الترمذي، رقم ٣١٥٤؛ سنن ابن ماجه، رقم: ٤٢٠٣)

و ورد الحديث بأن المرائين من العلماء والأسخياء والمجاهدين يؤمر بهم بالدخول إلى النار، وخرَّ أبو هريرة مغشيا عليه أربع مرات وهو يحدث بهذا الحديث.

قال: «فأول من يدعو به: رجل جمع القرآن، ورجل يقتتل في سبيل الله ورجل كثير المال،... فقال: يا أبا هريرة، أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة».(سنن ابن ماجه، رقم:٤٢٠٥)

وفي الحديث أيضا: «إن أخوف ما أتخوف على أمتي: الإشراك بالله، أما إني لست أقول: يعبدون شمسا ولا قمرا، ولا وثنا، ولكن أعمالا لغير الله وشهوة خفية».(سنن ابن ماجه، رقم:٤٢٠٥)

ورد تفسير الشهوة الخفية في حديث آخر: «يصبح أحدكم صائما فتعرض له شهوة من شهوات الدنيا فيفطر». (المستدرك للحاكم ٤/٤٦٠/٧٩٤٠)

ويؤيد هذا المعنى قول الصوفية: «الناس كلهم هلكى إلا العالمون، والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم».

ويرد على مَن يجعله مرفوعًا إلى النبي صلى الله عليه وسلم من وجهين:

(١) ليس حديثا. (٢) قوله: «العالمون» ليس مرفوعا، فالمفروض نصبه: العالمين، لأن المستثنى من كلام موجب يُنصَب، كقوله تَعَالَىٰ: ﴿تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ (البقرة: ٢٤٦)

وذهب البعض إلى أنه من باب الإبدال على لغة بعض العرب، وليس على المشهور من اللغات.

جاء في الموضوعات للصغاني: «هذا الحديث مفترى وملحون».(الموضوعات للصغاني، ص٣٩)

ثم رُوِيَت هذه الجملة بألفاظ مختلفة: (١) في كل جملة: «كلهم هلكى». (٢) في كل جملة: «كلهم موتى». (٣) في الجملة الأولى: «موتى»، وفي الجملة الثانية: «هلكى»، وفي الجملة الثالثة: «غرقى». (للاستزادة منه راجع: كشف الخفاء ٣١٢/٢؛ تذكرة الموضوعات للفتني، ص:٢٠٠؛ أسنى المطالب في أحاديث مختلفة المراتب ٣٠٩/١)

فإذا خاف المرء الرياء في عمل مستحب-كالحج كل سنة مثلا- تركه أحيانا، وقس عليه سائر الأعمال.

لاتُسِم: إذا أعجبت النفس بعبادة من العبادات فليتركها، فإن هذا العمل لن يؤدى على أنه عبادة، و إما يشوبه غرض النفس، واعلم أن ترك العمل لأجل الرياء يخص المستحبات، وأما الفرائض و الواجبات فلا يجوز تركها خوفًا من الرياء، بل عليه أن يزيل هذه المفسدة، ويصون العبادة ويحافظ عليها.

وجه تشبيه النفس بالسائمة:

شبَّه الناظم رحمه الله إتيان النفس الأعمال الصالحة برعي السائمة، فإن النفس حين تأتي العمل الصالح وتنتقل من عمل صالح إلى مثله، فربما تأتي عملا لا ينفعه،كما أن السائمة من الحيوان لا تدري الأوراق التي تنفعها، وما يضرها منها؟ وإنما يهمها التلذذ والتمتع، فيرعى ما يجد بين يديه من الزروع والمراعي، ومن واجب الراعي الأمين والحَذِرِ أن يتغلب عليها، ويبعدها عن المرعى المحظور، ولا يدعها تقرب منه.

كيف تتم مراقبة النفس؟

قال الملا علي القاري: يشير البيت إلى معنيين لمراقبة النفس:

(١) تجب مراقبة النفس حين تأتي الأعمال الصالحة، فإذا رأيتها تأتي العبادة على أنها عادة فامنعها منها.

(٢) تجب مراقبتها أثناء العمل أيضا، فلا تدعها تقصر في الآداب والأركان، أو يتسرب إلى العمل فساد داخلي أو خارجي، كالرياء والغرور وطلب الدنيا بالعمل ونحو ذلك.

إن هي استَحلَت:

(إن) تشير إلى أنه لا ينبغي أن يفعل هذا الرعى فإن صدر منه فالعلاج ما مضى.

البلاغة:

(١) في البيت استعارة مصرحة تخييلية. الأعمال الصالحة: مشبه. والمرعى: مشبه به. أطلق المشبه به (المرعى) وأريد به المشبه (الأعمال الصالحة). وإثبات (السوم) للنفس تخييل.

(٢) فيه استعارة مكنية ترشيحية. النفس: مشبه. والسائمة: مشبه به، وجه الشبه: عدم التمييز بين الضار والنافع.

حذف المشبه به و أشير إليه بـــ (إسامة) والمرعى مناسب للمشبه به. وهو ترشيح.

****



اللغة:

كم: للاستعلام أو بيان العدد أو المقدار المبهمين، فتحتاج إلى مميز بعدها.

وهي على قسمين: (١) خبرية: للإخبار بالعدد الكثير، ومميزها مجرور مفرد أو جمع. نحو: كم كتابٍ قرأتُ. أي كثيرا من الكتب قرأتها.

وقد يجرّ مميِّزها بمن نحو قوله تَعَالَىٰ: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ٢٤٩)

وفي الحديث: «كم من كاسية في الدنيا عارية يوم القيامة». (صحيح البخاري، رقم:٥٨٤٤)

(٢) استفهامية: للسؤال عن العدد. و مميزها مفرد منصوب، نحو: كم كتابا قرأتَ؟

الفرق بين «كم» الاستفهامية والخبرية:

(١) قائل كم الخبرية يخبر، وقائل كم الاستفهامية يستفهم.

(٢) كم الخبرية تعقبها جملة خبرية، وكم الاستفهامية تعقبها جملة إنشائية.

(٣) يخفض مميز كم الخبرية في الأكثر، وينصب مميز كم الاستفهامية، أي كم مرةً.

حسَّنَتْ: أي: زيَّنَت.

حَسُنَ (ك): جمل، راق. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ (النساء: ٦٩)

وفي صحيح البخاري: «إذا أسلم العبد فحسن إسلامه، يكفر الله عنه كل سيئة كان زلفها». (صحيح البخاري، رقم:٤١)

أحسَنَ: فعل ما هو حسن،وفي التنْزيل: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ (الإسراء:٧)

أحسنَ الشيءَ: (١) أتقنه. (٢) قام بالشيء على أحسن وجه. في التنْزيل: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ (السجدة: ٧)

وفي الحديث: «وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحَ». (صحيح مسلم، رقم: ١٩٥٥)

أحسن إليه/به: تكرم عليه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ﴾ (القصص: ٧٧)، و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ﴾ (يوسف: ١٠٠)

وفي صحيح البخاري: «من كانت له جارية فعَالَها، فأحسن إليها...كان له أجران». (صحيح البخاري، رقم:٢٥٤٤)

حَسَّنَ: (١) جعله حسنًا، وهو المراد، وفي الحديث: «حَسِّنوا أصواتكم بالقرآن». (مصنف ابن أبي شيبة، رقم:٣٠٥٦١) (٢) رقاه.

تَحَسَّن: تجمل.

استحسن: عده حسنا، وفي الحديث: «زوجت ابنتي فتمرق شعر رأسها وزوجها يستحسنها أفأصل يا رسول الله، فنهاها». (صحيح مسلم، رقم:٢١٢٢)

الاستحسان: يقابل القياس الجلي، ويستحسن الأخذ به.

وله تعريفات عدة، أيسرها: هو ترك القانون العام أو ترك القياس الجلي إلى القياس الخفي لمصلحة أو قوة دليل. فكأنه (Golden proof) ثم له أقسام:

الاستحسان بالنص، بالإجماع للضرورة وغيرذلك.

الأحسن: الأفضل، وفي التنْزيل: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ (الزمر: ٢٣)

وفي الحديث: «كان النبي صلى الله عليه وسلم أحسن الناس...».(صحيح البخاري، رقم:٦٠٣٣)

في صحيح البخاري: «إن خياركم أحاسنكم أخلاقا».(صحيح البخاري، رقم ٦٠٣٥)

(الْحسنى) مؤنث الأَحسن، وفي التَنْزيل العَزِيز: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾ (الأعراف: ١٨٠)

(٢) الْعَاقبَة الْحَسَنَة (الجنة)، وفي التّنْزيل العزيز: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ﴾ (يونس: ٢٦)

لَذَّةً: لَذَّ (س) لَذاذًا ولَذاذةً: صار شهيا.

لَذَّ الشَّيْءَ وبه: تمتع به. **قَالَ تَعَالَىٰ**:﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ﴾ (الزخرف: ٧١)

وفي الحديث أن أدنى أهل الجنة يقول الله تعالى له: «ولك ما اشتهت نفسك، ولذت عينك». (صحيح مسلم، رقم:١٨٩)

(لذذه) جعله لذيذا، واستلذ الشيءَ وبه/ التذ به/ تلذذ به: تمتع به.

وفي الحديث: «لو تعلمون ما أعلم... ما تلذذتم بالنساء على الفرش». (سنن الترمذي، رقم:٢٣١٢)

(اللَّذَّة) (١) طيب طعم الشيء، **قَالَ تَعَالَىٰ**:﴿ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ (الصافات: ٤٦)

(٢) النشاط والسرور، وفي دعاء مأثور: «أسألك لذة النظر إلى وجهك». (سنن النسائي، رقم :١٣٠٥)

الملذُّ: مكان اللذة. ج: ملاذ، الملذة: الشَّهْوَة (ج) ملاذ، وملذات.

للمرء: المرء: الإنسان مطلقا، ذكرا كان أو أنثى. وقيل: الرجل.

لا جمع له من لفظه، ويجمع على (رجال)،

المرأة: صنو الرجل. ويستعمل على صورتين: المرء، امرء. **قَالَ تَعَالَىٰ**:﴿ يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ (النبأ: ٤٠)

وفي صحيح البخاري: «وأن يحب المرء لايحبه إلا لله». (صحيح البخاري، رقم: ١٦)

و**قَالَ تَعَالَىٰ**:﴿ إِنِ ٱمْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ ﴾ (النساء: ١٧٦)

وفي الحديث: «فليقل: إني امرؤ صائم».(صحيح البخاري، رقم:١٩٠٤)

المريء: مجرى الطعام والشراب. وهو من العروق التي يجب قطعها في الذبح.

قاتلة: اقتتَل القوم: تحاربوا. وفي التنـــزيل: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ ﴾ (الحجرات: ٩)

قتلَ: (ن) قَتْلاً: أهلكه. **قَالَ تَعَالَىٰ**:﴿ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ ﴾ (البقرة: ٢٥١)

وورد في حديث الكبائر: «أن تقتل ولدَك خشيَة أن يطعم معك».(صحيح البخاري، رقم:٦٠٠١)

قاتَلَ (١) حارب. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ (آل عمران: ١٤٦)

وفي الحديث: «أمرت أن أقاتل الناس حتى...».(صحيح البخاري، رقم:٢٩٤٦)

(٢) الدفع على أحسن وجه، والمواجهة. جاء في الذي يمر بين يدي المصلي: «فإن أبى فليقاتله». (صحيح البخاري، رقم:٥٠٩)

قَتَّلَ: بالغ في القتل، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا﴾ (الأحزاب: ٦١)

قلب مقتل: برح بِهِ الْعِشْق وقطعه.

حيث: ظرف مكان، تضاف إلى الجمل، (فالأصح رفع ما بعدها، هذا ما أشار إليه شراح البخاري). المعنى: في أي مكان. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾(الطلاق:٣)

وقد يلحق بها (ما) الكافة، فتفيد معنى الشرط، نحو: حيثما تذهَبْ أذهَبْ. و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ﴾ (البقرة: ١٥٠)

وفي الحديث: «حيثما أدركتك الصلاة فصل».(صحيح البخاري، رقم: ٣٤٢٥)

حيثُ: إذا وردت لبيان حيثية الشيء احتملت ثلاثة معانٍ:

(١) الحيثية المطلقة، أي حقيقة الشيء وأصله، هذا الشيء من حيث هو هو لا يفيد شيئا.

(٢) الحيثية المقيدة: أي جزء من الشيء، مثل موضوع علم الطب: بدن الإنسان من حيث الصحة والمرض. أي يبحث هذا العلم ببدن الإنسان من حيث الصحة والمرض، لا من جميع الحيثيات.

(٣) للتعليل: نحو: الماء يبَرِّد من حيث إنه بارد.

لم يدر: درَى (ض) الشيء دريا ودراية: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ (لقمان: ٣٤)

وفي الحديث: «فإن أحدكم لا يدري أين باتت يده».(صحيح البخاري، رقم: ١٦٢)

درَى فلانًا: خدعه، درى الرأس: مشط. دارى: ترفق به ولاطفه.

في الحديث: «بعثت بمداراة الناس». (شعب الإيمان للبيهقي، رقم:٨١١٧).

ويعقد المحدثون باب المداراة، ويسوقون فيه قوله صلى الله عليه وسلم لرجل استأذن

عليه: «ائذنوا له، بئس أخو العشيرة، أو ابن العشيرة»، فلما دخل ألان له الكلام.

يقول أهل العلم: جواز المداراة مع الكفار يعني التظاهر بحسن الخلق لهم والترفق بهم؛ ليميلوا إلى الدين، ويقابله المداهنة، التي لا تجوز، وبينهما فرق:

(١) المداراة: بذل الدنيا لأجل الدين، والمداهنة بذل الدين لأجل الدنيا.

(٢) المداراة: الرفق بالفاسق، والمداهنة: الرفق بما عليه الفاسق.

(٣) المداراة: الرفق لإخراجه من الفسق، والمداهنة الرفق لإحكامه على الفسق.

(خلاصة ما كتبه الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله تعالى في تعليقات رسالة المسترشدين، ص ٢٠١، وانظر أيضا: كتاب الروح ٢٨١-٢٨٢، ط: دارالفكر).

علم الدراية: علم معاني الحديث، ويقابله علم الرواية.

أدرى الرجلَ: أخبره، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ﴾ (يونس: ١٦)

ما أدراك: ما علمك به؟ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ (الانفطار: ١٨)

يُذكر أن هذا الأسلوب لم يستخدمه العرب قبل القرآن الكريم. فجاء به القرآن الكريم.

السَّم: مادة سامة. وفي الحديث: «من تصبح كل يوم سبع تمرات عجوة لم يضره في ذلك اليوم سم ولا سحر».(صحيح البخاري، رقم:٥٤٤٥)

سَمَّ فُلانًا (ن) سقَاهُ السم. سمَّت الريح: هبت السموم. سمَّمَ: جعله ساما، تسمَّمَ: صار ساما. السامة: الحيوان السام. في الدعاء المأثور: «أعوذ بك اللهم من شر السامة والهامة».(مصنف عبد الرزاق، رقم: ١٩٨٣٥)

في الدسم: دَسِمَ (س) الشيء دَسمًا ودُسومة: (١) صار ذا دهن. (٢) مال إلى السواد، اغبر، ورد في خروج النبي صلى الله عليه وسلم في مرض موته إلى آخر مجالسه: «خرج....فقد عصَّبَ بعصابة دسماء». (صحيح البخاري، رقم:٣٦٢٨)

أدسم القارورة: سدَّها. (من خصائص باب الإفعال سلب المادة، فأفادت الدسم: الاغبرار، ومعنى: أدسم: سد وقطع الطريق للغبار إليه.

دسم الطَّعَام جعل فِيهِ الدسم (تدسم) أكل الدسم. (الدسام) مَا يسد بِهِ رَأس

القارورة وَنَحْوهَا.

(الدَّسم) (١) دهن اللَّحْم والشحم، وورد في الحليب: «إن له دسمًا». (صحيح البخاري، رقم ٢١١). (٢) الوسخ.

الإعراب:

كم حسَّنَت: حذف تمييز (كم)، والتقدير: كم مرةٍ حسَّنَت/ كم مرةً حَسَّنَت.

لذة: (١) مفعول (حسنت)، والتقدير: كم مرةٍ حسَّنت لذة قاتلةً. وهو واضح.

(٢) لَذَّةً: مميز (كم)، وحذف مفعول (حسنت)، والتقدير: كم لذة حسنتها للإنسان.

قاعدة: يجب جر مميز (كم) الخبرية بـــ(من) إذا فصل بينهما بالمفعول به، لئلا يلتبس المميز بالمفعول به. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ (الدخان: ٢٥)

ونصب الناظم (لذةً) لضرورة الشعر. أو نقول: كم: استفهامية، فلم تُخفَض بـــ (من).

للمرء: الظرف متعلق بـــ (قاتلة)، وقدم لضرورة الشعر.

أن السم في الدسم: الجملة سدت مسد مفعولي (لم يدر)، وجملة (لم يدر) أضيف إليها (حيث)، وتعلق (من حيث) بـــ(حسنت).

في الدسم: (١) في الطعام ذي الدسم. (٢) في الدسِم، على زنة: فعِل، صفة للطعام، والمعنى: الطمعام المدسوم.

وكم (خبرية كانت أو استفهامية) مع مميزها مبتدأ، خبره (حسنت)، والجملة من المبتدإ والخبر إما جملة خبرية أو إنشائية.

الشرح:

لماذا تجب مراقبة النفس؟:

أشار الناظم فيما مضى إلى ضرورة مراقبة النفس في الأعمال الصالحة، ثم ذكر هنا علته، و قال: إنما وجب ذلك لأن كثيرا ما يكون الشيء ضارا للمرء، مهلكا له، إلا أن النفس تزينها و تزخرفها.

وله أمثلة كثيرة منها:

(١) يعمل المرء عملا صالحا، وتقول له نفسه: يجب أن تتظاهر به، ليراك الناس ويتأسوا بك في ذلك، مع أن قلبه يكن شيئا آخر، فلا يجوز المراءاة لأجل ذلك أيضا.

أرأيت كم يهلك الرياء الإنسان، إلا أن النفس تزين وتسول له فلا يدرك السم الكامن فيه.

(٢) تقول النفس للمرء: يجب أن نعلم الفتيات –وإن كن سافرات– الدين، لأننا نريد تعليم الدين، ونشره. تشهد بعض البلاد اليوم تعليم الدين للفتيات سافرات، وهذه فكرة باطلة. هلا تقول النفس: نحن ضعفاء، فيجب الحذر من مثل هذه الأعمال. وزينت النفس ارتكاب الحرام لتحقيق عمل مستحب. وهو غير جائز.

(٣) تسول النفس لبعض الناس التفرج على الأفلام، بهدف معرفة ما فيها ثم يتمكنوا من الرد عليها، أو عليهم أن يشاهدوا أفلاما علمية، ليكونوا علماء الطبيعة، ولكنهم لا يفكرون أن مشاهدة الأفلام تحمل كثيرا من المحظورات شرعًا.

(٤) تسول النفس للمرء أن يزور فلانة أو يعزيها على مصابها، فينال الأجر على ذلك. مع أن النفس تهدف إلى تحقيق اللذة بالحديث معها.

(٥) من طلبة العلم من يكثر من مطالعة الكتب، ويتخلف عن السنن المؤكدة، فتسول له النفس أن المطالعة أجرها أكبر منها.

(٦) أو كما ورد في الحديث أن المجاهد والعالم والسخي عملوا ما عملوا ليقال لهم: شجاع، وعالم وسخي، ثم كان مصيرهم إلى النار.

والحاصل أنها مهلكات، إلا أن النفس تزينها دون أن يشعر بها المرء.

فهذه أمثلة على (كم حسنت لذة)، فظاهرها طعام دسم، وداخلها سم زعاف/ ظاهرها عمل صالح، وداخلها فساد.

كم حسنَت: تفيد (كم) الخبرية التكثير. ورغم ذلك جاء بالتضعيف في (حسَّنَت) بقصد المبالغة في التأكيد.

اتعظوا بكلمة الدينار والدرهم:

كما أن السم مزيج بالدسم في معنى الشعر، كذلك السم يتضمنه النطق بالدسم.

يقول الشاعر:

النار آخر دينار نطقت به ۞ والهم آخر هذا الدرهم الجاري
والمرء بينهما إن كا ذا ورع ۞ معذب القلب بين الهم والنار

(جذوة المقتبس للحميدي، ص ١٥٣)

ففي الدينار «نار»، وفي الدرهم «هم». قيل: إذا أنفقت الدينار في سبيل الدين كان «دينا»، وإذا أنفقته في غير وجهه كان «نارا». وإذا أنفقت الدرهم في وجهه كان «درا»، وإذا أنفقته في غير وجهه كان «هما».

حاصل الكلام:

فعلم أن النفس كما تهجم على الإنسان بالمعصية،كذلك تشارك في العمل الصالح و تفسده. فعلى المرء أن يحذر دائما، وسبق الحديث الخاص به في البيت السابق.

إلى مَا يشير السَّمّ في الدسم؟:

السم في الدسم: في ذكر الزيت إشارة إلى أمرين:

(١) الدهن يطفو على سطح الطعام، والسم يرسخ في القعر، فكذلك العمل عبادة في الظاهر، ويكمن فيه نية سيئة.

(٢) بما أن السم يختلط بالطعام الدسم كل الاختلاط، ولا يدرك ما فيه من السم إلا الرجل العبقري، كذلك تكمن النية السيئة والمفاسد في الأعمال الصالحة، ولا يقدر المرء على إزالتها إلا بالحذر الشديد.

والبيت يشير إلى قوله تَعَالَىٰ:﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ (الكهف: ١٠٤)

الفرق بين العلم والدراية:

(١)الدراية: العلم المقتبس من القواعد.

(٢) العلم هو المعرفة، والدراية هي الفهم.

(٣)الدراية: مأخوذ من (دريت) بمعنى (احتلَتُ)، فالدارية هي معرفة الشيء بتدبير وحذر، و العلم أعم منها. فلا يطلق الدراية –بهذا المعنى–على الله تعالى.

(٤)قيل: هما مترادفان. وذلك لأن الإنسان إذا سئل عن شيء لايعلمه، صح له أن يقول: لا أعلم، كما يصح أن يقول: لا أدري. ولكن لم يرد إطلاقها على الله تعالى فلا يقال «الله الداري» لعدم وروده ولما يلي:

(٥)دراية: على وزن (فِعالة)، وهذا الوزن يفيد الاشتمال، نحو: عِصابة، وعمامة، و قلادة؛ فإنه يحيط بالرأس والعنق. فالدارية هي معرفة مختلف جهات الشيء، على خلاف العلم.

(٦)وزن فِعالة: يفيد الاستيلاء، مثل: إمارة، وخلافة. فالدراية هي المعرفة الغالبة على كل شيء، وهو نحو ما سبق.

(٧) العلم الحاصل بعد الشك هو الدراية، والعلم أعم منها. فالدراية: المعرفة الحاصلة **بعد تردد مقامات.** (للاستزادة راجع: عمدة القاري ٥/٢٩٥؛ الفروق اللغوية ٢٣٠/١؛ كتاب الكليات٤٥١/١؛ تاج العروس ٤٢/٣٨، مادة: درو).

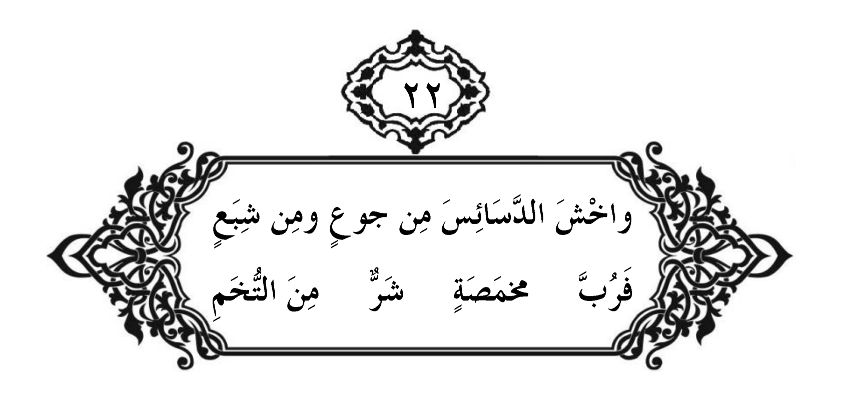
البلاغة:

(١) العجب والرياء: مشبه. السم: مشبه به. وجه الشبه؛ الإهلاك. أطلق المشبه به وأريد المشبه، فالاستعارة تصريحية.

(٢) صورة الطاعة: مشبه. الدسم: مشبه به. وجه الشبه: كل منهما ساتر لغيره. أطلق المشبه به وأريد المشبه، فالاستعارة تصريحية.

انتهى ولله الحمد أولا وآخرا.

****



اللغة:

واخش: خَشِيَ (س) خشيَةً: (١) الخوف، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ﴾ (آل عمران: ١٧٣)

وفي الحديث: «ولكن أخشى أن تُبسط عليكم الدنيا». (صحيح البخاري، رقم:٦٤٢٥)

(٢) الخوف مع التعظيم والمهابة: قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ (فاطر: ٢٨)

(٣) الأمل. (٤)الكراهة، في التنْزيل: ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا﴾ (الكهف:٨٠)

خَشَّى: خوَّفه، هابه. تخشَّى: خافه. الخَشِيُّ: الحشيش.

الدسائس: دَسَّ الشيء (ن) دَسًّا ودَسيسًا: كتمه. قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِ﴾ (النحل: ٥٩)

أصله: دسَّسَ: المعنى كتم النفس من الذنوب.

وأرسلت أم سليم خبزا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، قال أنس: «لَفَّتِ الخبزَ ببعضه ثم دسَّته تحت يدي». (صحيح البخاري، رقم:٣٥٧٨)

اندَسَّ: انكتم، وخاض.

دسيسة: التدبير الخفي، المكر والدهاء، ج: دسائس. سميت الدسيسة بذلك؛ لأنها تكون مكتومة.

الدَّسَّاس: (١) المكار، النمام، (٢) حية صغيرة حمراء مستوية الأطراف. ولا يدرى

أين رأسها. يندس تحت التراب، ولا يخرج في ضوء الشمس.

العرق الدساس: العرق المنكتم الذي لا يدرى بسهولة.

وفي الحديث: «تزوجوا في الحجُز الصالح؛ فإن العرق دساس».(كنز العمال، رقم:٤٤٥٥٩).

يسمى الجاسوس دساسا؛ لأنه يكتم أنه جاسوس.

من جوع: جَاعَ (ن) جَوعا ومَجاعَةً: خلا بطنه. قَالَ تَعَالَى:﴿أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾ (قريش:٤)، وقَالَ تَعَالَى:﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ (طه: ١١٨)

في الأدعية المأثورة: «أعوذ بك من الجوع؛ فإنه بئس الضجيع».(سنن أبي داود، رقم:١٥٤٧)

الجوع: بفتح الجيم: مصدر، وبضم الجيم: اسم.

جائع: خالي البطن، ج: جِياعُ.

جاع الحي: أصيب بالسنين، وقال الذي جاء يستسقي: «جاع العيال».(صحيح البخاري، رقم : ٩٣٣)

أجاع/ جَوَّعَ: جعله يجوع. تجوَّع: جاع، المَجاعُ: المسافة التي تجيع.

من شبع: شَبِعَ (س) شَبَعًا: امْتَلأَ من الطَّعَام. قالت عائشة رضي الله عنها: «ما شبع آل محمد صلى الله عليه وسلم من خبز بُرّ مأدوم ثلاثة أيام حتى لحق بالله». (صحيح البخاري، رقم:٥٤٢٣)

أشبع: ملأ بطنه، وقَنَّعه. يقول الله تعالى لمن يطلب الزراعة في الجنة: «فإنه لايشبعك شيء». (صحيح البخاري، رقم:٢٣٤٨)

أشبع البحثَ: أكمل الدراسة والتحقيق.

تشبَّعَ: (١) تظاهر بالشبع. في الحديث: «المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور».(صحيح البخاري، رقم:٥٢١٩) (٢) سئم وملَّ.

(الشباعة) الفضالة بعد الشِّبَع.

ويسمى زمزم بالشباعة؛ لأنه يشبع الناس، قال ابن عباس: «كنا نسمي زمزم شبَّاعة».(مصنف ابن أبي شيبة، رقم:١٤٣٣٧)

الشبعان: ملآن البطن. ج: شِباع، وشَباعَى. وورد في منكر الحديث: «ألا يوشك رجل شبعان على أريكته...يقول: عليكم بهذا القرآن». (سنن أبي داود،رقم:٤٦٠٤)

مشبع: (١) مالئ البطن، (٢) الكافي، والكامل. (٣) البحث الذي يتسبب للاطمينان.

شِبع بطن: ما يملأ البطن. «إن أبا هريرة كان يلزم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشبع بطنه». (صحيح البخاري، رقم:١١٨)

رُبَّ: حرف جر يخفض النكرة، وفي حكم الحرف الزائد، يلحق بآخرها (ما) الزائدة، فتكف عملها، فتدخل حينئذ على المعارف والأفعال. وتدخل ربما على الفعل فتحوله إلى الماضي في الأكثر، نعم يجوز دخولها على مضارع مقطوع الوقوع. نحو قوله تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ (الحجر: ٢)

وقد تُخَفَّفُ، وقد تلحق بآخرها تاء التانيث، وتأتي للتكثير حينا وللتقليل حينا آخر. وسياق الكلام يحدده، فإذا كان الهدف الافتخار أفادت التكثير.

وفي (رب) سبع عشرة لغة. للاستزادة راجع: تاج العروس٢/٤٧٥، المادة: ربب.

مثال التقليل: قول عائشة رضي الله عنها: «ربَّما أصابني ثوبه إذا سجد».(صحيح البخاري، رقم:٣٧٩)

وفي حديث: «فرب مبلَّغ أوعى من سامعٍ».(صحيح البخاري، رقم:١٧٤١)

ورب في الحديث للتقليل، فقد ورد في حديث آخر: «فإن الشاهد عسى أن يبلغ من هو أوعى له منه». (صحيح البخاري، رقم:٦٧)

مخمصة: خَمَصَ (ن، س) البطنُ خمصا ومخمصة: جاع.

قال جابر رضي الله عنه: «لما حفر الخندق رأيت بالنبي صلى الله عليه وسلم خَمَصًا شديدا». (صحيح البخاري، رقم:٤١٠٢)

خَمصان: خالي البطن. ج: خَماصٌ. في الحديث: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرُزِقتم كما يُرزق الطير، تغدو خماصا وتروح بطانا».(سنن الترمذي، رقم:٢٣٤٤)

خَمِصَ القدم: ارتفع باطنها من الأرض. جاء ذكر أخف العذاب في النار: «رجل توضع في أخمص قدميه جمرة يغلي منها دماغه».(صحيح البخاري، رقم:٦٥٦١)

تخامص: تجافى عنه.

الخميصة: رداء أسود ذو خطوط. «أن النبي صلى الله عليه وسلم صلَّى في خَميصةٍ لها أعلام». (صحيح البخاري، رقم:٧٥٢)

مخمصة: الجوع. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ﴾ (المائدة: ٣)

شَرٌّ: شَرَّ (ن) شَرًا وشَرارةً: أفسد، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ (الزلزلة: ٨)

في الأدعية المأثورة: «أعوذ بك من شر ما صنعت».(صحيح البخاري، رقم ٦٣٠٦)

أشَرَّ: نشره، أشرَّ الثوبَ: نشره في الشمس ليجف، شارَّ فلانا: نازعه.

شَرَرَةٌ (١) زر الكهرباء (Switch)، يخرج الشعاع بالضغط عليه، (٢) القبسات، ج: شرار. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ﴾ (المرسلات: ٣٢)

الشِّرَّةُ: (١)الحدة، (٢) الغضب، (٣) النشاط.

في الحديث: «إن لكل شيء شرة، ولكل شرة فترة».(سنن أبي داود، رقم:٢٤٥٣)

وورد في الدجال: «وآخر أيامه كالشررة».(سنن ابن ماجه، رقم:٤٠٧٧)

التُّخَم: تَخَمَ (ض) تَخْمًا: رسم الحد.

تَخِمَ (س) تَخَمًا/ اتَّخَمَ: ثقل الطعام فلم يستمرئ. أَتْخَمَ: جعله يثقل ولا يستمرئ.

تخمة: امتلاء المعدة وفساد الطعام فيها، ج: تُخَمٌ.

تخمة: أصله: وخمة. استبدلت الواو تاء، نحو: تجاه، أصله: وجاه. وتراث: أصله وراث. استبدلت الواو تاء فيهما.

«قيل: لو سئل أهل القبور ما سبب قصر آجالكم؟ قالوا: التخمة».(فيض القدير١/٦٧٩)

(التخم) الْحَد الْفَاصِل بَين أَرضين (ج) تخوم.

قال سعيد يعني ابن عبد العزيز: «جزيرة العرب ما بين الوادي إلى أقصى اليمن إلى تخوم العراق إلى البحر».(سنن أبي داود، رقم:٣٠٣٣)

الإعراب:

واخش الدسائس: (١) الواو استينافية. (٢)عاطفة، (احذر اللذات) واخش الدسائس.

من جوع، ومن شبع:

(١) حال، اخش الدسائس حال كونها ناشئة/ صادرة من جوع ومن شبع.

(٢) الدسائس: موصوف، والناشئة من جوع ومن شبع: صفة.

ويرد عليه أنه حذفَ الموصوف مع صلته، ولا يستحسنه النحاة. ويرى بعض النحاة هذا النوع من الحذف أمرا عاديا، ويقدر السيوطي وفقه في تفسيره فيقول: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ (الكائن) فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ (تفسير الجلالين، ص ٣٤)، فقدر «الكائن».

وعلى التقديرين السابقين: (مِن) ابتدائية حذفَ متعلَّقها.

وقيل: من: بيانية. فالمعنى حينئذ: احذر الدسائس الخفية، التي هي الجوع والشبع. ولا يراد به حينئذ إلا المعنى الحقيقي، ولا يسع المعاني الأخرى. فالقول الأول أحسن.

فَرُبَّ: الفاء للتعليل، كما في قوله تَعَالَىٰ: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَا﴾ (التحريم:٤)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ (فاطر: ٣٧)، وقوله قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ (الأعراف: ١٦)

فَرُبَّ مخمَصَةٍ شرٌّ مِنَ التُّخَمِ:

(١) رُبَّ: إن كانت حرفًا فمجروره مبتدأ على غير قياس، والتقدير: المخمصة الكثيرة شر من التخم.

(٢) رُبَّ: حرف جر، مخمصة: مجرور، والمتعلق محذوف. والتقدير: رب مخمصة (تجنبها، أو توجد، هو) شر من التخم.

(٣) رُبَّ: مضاف، مخمصة: مضاف إليها، مبتدأ، خبره: شر من التخم. لو قلنا إن «رب» اسم.

الشرح:

أشار البيت إلى سلاح من أسلحة النفس الخفية التي تستخدمها ضد الإنسان، وحاصل البيت: توسط في الجوع والأكل، لا تبالغ في الجوع ولا في الأكل.

المراد بقوله: من جوع ومن شِبَع:

(١) المراد به المعنى الحقيقي: أي أن الأمرين يحتالان عليك، فيضرانك كثيرا، فالنفس

تقول: يجب أن تجوع، وهي حيلة لها، فإن الجوع الشديد يجعل المرء عاطلا، وعليه نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن صوم الوصال. في الحديث عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تواصلوا. قالوا: إنك تواصل؟ قال: لست كأحد منكم، إني أطعَم وأسقى».(صحيح البخاري، رقم :١٩٦١)

نظرا إلى هذا الاعتدال والوسطية أشار النبي صلى الله عليه وسلم على عبد الله بن عمرو بن العاص أن يصوم ثلاثة من كل شهر. فقال: عبد الله: قلت: أطيق أكثر من ذلك، قال: «أفطر يوما وصم يوما». فلما كبر وضعف ندم على ذلك وكان يقول: ليتني قبلت رخصة رسول الله صلى الله عليه وسلم. (صحيح البخاري، رقم:٥٠٥٢)

وكان الصحابة رضي الله عنهم يكرهون صوم الدهر. «بلغ عمر أن رجلا يصوم الدهر، فعلاه بالدرة، وجعل يقول: كل يا دهري».(فتح الباري ٢٢٢/٤) عزاه في فتح الباري إلى ابن أبي شيبة، وفي مصنف ابن شيبة بلفظ: «كل يا دهري».(مصنف ابن أبي شيبة، رقم:٩٦٤٩).

التوسط في العبادات كلها:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، يقول: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم؟ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم، فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله، إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني».(صحيح البخاري، رقم:٥٠٦٣)

روى البخاري في صحيحه: «آخى النبي صلى الله عليه وسلم بين سلمان، وأبي الدرداء،... فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، قال: نم، فنام، ثم ذهب يقوم فقال: نم، فلما كان من آخر الليل قال: سلمان قم الآن، فصليا، فقال له سلمان: إن لربك عليك حقا، ولنفسك عليك حقا، ولأهلك عليك حقا، فأعط كل ذي حق حقه، فأتى

النبي صلى الله عليه وسلم، فذكر ذلك له، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «صدق سلمان». (صحيح البخاري، رقم:١٩٦٨)

والحاصل أن الاعتدال والوسطية خصلة هامة، وما كان الإفراط والتفريط في شيء إلا جلب الضر.

فوائد الاعتدال في الطعام، وأضرار تركه:

إذا اعتدل المرء في الطعام، وأمسك عنه على بعض الجوع جرَّ له عدة فوائد:

(١) الجوع يجلي القلب.

(٢) يرققه، فيتلذذ بالذكر ونحوه.

(٣) يواظب على العبادات.

(٤) يبقى صحيحا سليما، ويتقي نفقات العلاج والدواء.

(٥) تقل نفقة طعامه.

(٦) يتسير له فرص التصدق ونحو ذلك.

والمبالغة في الجوع لها أضرار عدة :

(١) يورث الشدة والغلظة في المزاج.

(٢) الملل من العمل.

(٣) يورث البدن الذبولَ.

(٤) يقصر في حقوق الله وحقوق العباد.

(٥) يضعف المرء كثيرا.

وعلى العكس من ذلك، للأكل الكثير أضرار كثيرة لا تحصى:

(١) كثرة النوم.

(٢) غلظة القلب.

(٣) الغفلة.

(٤) طول الأمل.

(٥) كثرة الشهوة.

(٦) كثرة الأمراض.

(٧) الكسل في الأعمال الصالحة.

قال الشاعر:

إذا كثُرَ الطعام فحَذّروني ۞ فإن القلبَ يُفسده الطعامُ

إذا كثُر الكلامُ فسكّتوني ۞ فإن الدينَ يهدمه الكلامُ

إذا كثُر المنامُ فنبّهوني ۞ فإن العمرَ ينقصه المنامُ

إذا كثَر المشيبُ فحرّكوني ۞ فإن الشيبَ يتبعه الحِمامَ

(الحمام: الموت، تنسب هذه الأبيات إلى ابن عباس رضي الله عنهما. تفسير روح البيان ١٩٠/٥)

يقول الصوفية: أقِلوا من أربع:

(١) الطعام.

(٢) الكلام.

(٣) المنام.

(٤) الاختلاط مع الأنام.

فكثرة الجوع تورث الرياء، فيرائي المرء بأنه لا يحتاج إلى الأكل.

قال الشيخ سعدي: طلب ملك رجلا، فخرج مع ابنه إليه، فقدم الملك إليه طعامًا، فاكتفى بلقيمات، وقال: أود الصلاة، ثم أطالها. ثم عاد إلى البيت وتناول الطعام، فقال ابنه: يا أبتِ، اقض الصلاة كما قضيت الطعام. (كلستان سعدي ص٧٠-٧١، ط: المكتبة القديمة، كراتشي).

توجيه الكتاب والسنة إلى الاعتدال والوسطية:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ (الأعراف: ٣١)

تعلِّم هذه الآية الكريمةُ التوسط والاعتدال، يقول بعض الحكماء: جمع الله تعالى الطب كله في نصف آية.

وفي الحديث: «ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطن، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه، وثلث لشرابه وثلث لنفسه». (سنن الترمذي، رقم:٢٣٨٠)

قصص لكثرة الأكل:

١- قال صدقة بن عبيد الله المازني: أولَم عليّ أبي فصنع عشر جفان ثريدًا. فكان أول من دخل عليه هلال بن أسعر – شاعر شهير من شعراء الدولة الأموية- فأقعده أبي

على جفنة فأكلها. ثم على أخرى فأكلها حتى استوفاها جميعا. ثم استسقى فدعا له أبي بقربة من نبيذ فوضع طرفها في شدقه ففرغت في جوفه. ثم قام. فخرج واستأنفنا عمل **الطعام.** (كنوز الذهب في تاريخ حلب١/١٢٣، بدون إسناد)

٢- قال ابن عبد ربه: ولما حج سليمان تأذى بحرّ مكة، فقال له عمر بن عبد العزيز: لو أتيت الطائف! فأتاها، فلما كان بسحق لقيه ابن أبي الزهير، فقال: يا أمير المؤمنين، اجعل منـــزلك عليّ. قال: كلّ منـــزلي. فرمى بنفسه على الرمل، فقيل له: يساق إليك الوطاء. فقال: الرمل أحبّ إليّ. وأعجبه برده، فالزق بالرمل بطنه، قال: فأتى إليه بخمس رمانات فأكلها، فقال: أعندكم غير هذه؟ فجعلوا يأتونه بخمس بعد خمس، حتى أكل سبعين رمانة؛ ثم أتوه بجدي وست دجاجات، فأكلهن؛ وأتوه بزبيب من زبيب الطائف فنثر بين يديه، فأكل عامته؛ ونعس، فلما انتبه أتوه بالغداء، فأكل كما أكل الناس، فأقام يومه: ومن غد، قال لعمر: أرانا قد أضررنا بالقوم. وقال لابن أبي الزهير: اتبعني إلى مكة. فلم يفعل، فقالوا له: لو أتيته! فقال: أقول ماذا؟ أعطني ثمن قراي الذي **قريته»!؟** (العقد الفريد ٥/١٧٨. أخبار مكة للفاكهي ٢/٢٧٢. وهذه قصة موضوعة، في إسناده عبد العزيز بن أبي رواد قال عنه ابن حبان: «روى عن نافع عن ابن عمر نسخة موضوعة كان الحديث بها توهما لا تعمدا». قال الذهبي: «قلت: الشأن في صحة تلك الأحاديث عن عبد العزيز». تاريخ الإسلام للذهبي ٩/٥٠٢)

٣- قال ابن عبد ربه: «كان سبب موت سليمان بن عبد الملك، أن نصرانيا أتاه وهو بدابق بزنبيل مملوء بيضا وآخر مملوء تينا، فقال: قشّروا. فقشروا، فجعل يأكل بيضة وتينة، حتى أتى على الزنبيلين، ثم أتوه بقصعة مملوءة مخا بسكر، فأكله، فأتخم فمرض **فمات».**(العقد الفريده/١٧٨، ذكره ابن عبد ربه بدون إسناد. وظاهر القصة يدل على وضعه. ويرى الذهبي أن وفاته كانت بذات الجنب. قال الذهبي: «كان دَيِّنا، فصيحًا، مُفَوَّهًا، عادلا، مُحِبًّا للغزو. مات بذات الجنب». سير أعلام النبلاء ٥/١١١)

دراسة حديث روي في إكثار معاوية رضي الله عنه من الطعام:

حدثنا محمد بن المثنى العنَزي، وحدثنا ابن بشار، - واللفظ لابن المثنى - قالا: حدثنا أمية بن خالد، حدثنا شعبة، عن أبي حمزة القصاب، عن ابن عباس، قال: كنت ألعب مع الصبيان، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فتواريت خلف باب، قال فجاء فحطأني حطأة، وقال: «اذهب وادع لي معاوية». قال: فجئت فقلت: هو يأكل، قال: ثم قال لي: «اذهب فادع لي معاوية». قال: فجئت فقلت: هو يأكل، فقال: «لا أشبع الله

بطنه». (صحيح مسلم، رقم:٢٦٠٤)

الحديث السابق مما لا يفهم للأسباب التالية:

(١) لم يرد في الحديث أن ابن عباس طلب معاوية. فربما رأى معاوية يأكل فرجع، ولو سلمنا أنه طلبه، فلم تذكر رواية أن معاوية أبى الإجابة.

(٢) تكلم أهل العلم في أبي حمزة القصاب-أحد الرواة-، فضعفه كثيرون منهم، ووثقه البعض. ولم يروِ له من أصحاب الصحاح إلا الإمام مسلمًا، وليس له في صحيح مسلم إلا هذه الرواية، قال ابن حجر: صدوق له أوهام.

وفي تحرير تقريب التهذيب: «بل: ضعيف يعتبر به، فقد ضعفه أبو زرعة الرازي، وأبو حاتم، والنسائي، وأبو داود، والعقيلي، ووثقه ابن معين، وذكر ابن خلفون أن ابن نمير وثقه أيضا، وذكره ابن حبان في الثقات».(تحرير تقريب التهذيب ١١٥/٣)

(٣) طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن عباس، وجاء في رواية مسلم أن ابن عباس اختفى، ويستبعد أن ابن عباس — الذي كان يعد صحبة النبي صلى الله عليه وسلم سعادة له- يلوذ بالاختفاء، في حين أنه قضى الليل كله أوجله في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في نوبة ميمونة رضي الله عنها، وذلك ليرى أعمال ليله صلى الله عليه وسلم. والله أعلم.

(٤) ويبدو من صنيع الحافظ ابن كثير رحمه الله أنه يعد أكل معاوية بكثرة من فضائله، و ذلك بأنه —معاوية- كان يكثر من الأكل، كان يأكل في اليوم سبع مرات، ويقول: لا أشبع. وأتعب. وسواء كان ذلك نعمة في الواقع أو لا، إلا أنه نعمة عند الملوك؛ فإنهم يملكون أنواعا شتى من الأطعمة والحلاوي، والفواكه، إلا أنهم لا يأكلون. فيستخدمون أنواعا من الجوارش والأدوية التي تعين على هضم الطعام. ويحمدون الله تعالى على كثرة الأكل، فمن هذا الاعتبار هو نعمة، يغتبط به الملوك.

قال ابن كثير— بعد سرد القصة عن أبي حمزة القصاب-: «وقد انتفع معاوية بهذه الدعوة في دنياه وأخراه، أما في دنياه فإنه لما صار إلى الشام أميرا، كان يأكل في اليوم سبع مرات يجاء بقصعة فيها لحم كثير وبصل فيأكل منها، ويأكل في اليوم سبع أكلات بلحم، ومن الحلوى و الفاكهة شيئا كثيرا، ويقول: والله ما أشبع وإنما أعيا، وهذه نعمة ومعدة

يرغب فيها كل الملوك». (البداية والنهاية ٨/٤١٥، تحت: وهذه ترجمة معاوية، وذكر شيء من أيامه وما ورد في مناقبه وفضائله)

وهذا الحديث مذكور في مسند أحمد من طريق أبي حمزة القصاب، لا يوجد فيه ما يكدّر مناقب الصحابيين الجليلين معاوية بن أبي سفيان وابن عباس رضي الله عنهم، ولفظ الحديث: « قال: اذهب فادع لي معاوية. قال: وكان كاتبه، فسعيت فأتيت معاوية، فقلت: أجب نبي الله صلى الله عليه وسلم، فإنه على حاجة». (مسند أحمد، رقم:٢٦٥١، و٣١٠٤)

ليس فيه اختفاء ابن عباس ولا تكرار الذهاب ولا قوله «لا أشبع الله بطنه» وهو أيضًا من طريق أبي حمزة القصاب، فالظن الغالب أن أبا حمزة القصاب أضاف فيما بعد ما هو المذكور في متن مسلم.

وللتفصيل راجع: العصيدة السماوية شرح العقيدة الطحاوية ٢/٢٤٨-٢٥٢.

متى يتبع مجاهدات الصحابة رضي الله عنهم؟:

تنبيه: ذكرت كتب الحديث بالتفصيل: فضائل الزهد والفقر والفاقة، وقصص النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فنقول: إنهم قضوا حياة المجاهدة والمشقة، إلا أنهم لم ينحرفوا عن القصد (طاعة الله تعالى). ولا اختلت الأعمال. ابتلينا اليوم بالضعف في القوة الجسدية والإيمانية كليهما، فلو ذهب البعض إلى التأسي بهم في الأعمال اتباعا حرفيا لعَجِزَ عن الأعمال كلها. فعلى المرء أن يختار السذاجة مراعيا قوته الجسدية.

والحاصل أن المراد بالجوع والشبع في البيت معناهما الحقيقي، ويؤيده التعليل المذكور في الشطر الثاني من البيت.

من جوع ومن شبع: في إعادة الجار إشارة إلى أن كل واحد منهما مفسد لوحده.

ويلاحظ أن الناظم حذر من مكر الجوع والشبع كليهما، ولكن اكتفى بالتعليل للحذر من الجوع، وذلك لأمرين:

(١) معظم الناس على علم بمضار الشبع، وأما مضار الجوع الشديد فلا يعلمها إلا القليل منهم.

(٢) يتمكن المرء من العبادة مع الشبع وإن كانت على كسل. وأما مع الجوع الشديد فلا.

معنى ثانٍ:

المراد بالجوع: الفقر، وبالشبع: الغنى. ومن مضار الفقر: الحرص، وتكفف الناس، والحسد ونحو ذلك.

وفي حديث ضعيف: «كاد الفقر أن يكون كفرا».(شعب الإيمان للبيهقي، رقم٦١٨٨)

ومن مضار الغنى: العجب، والتكبر، وحب الدنيا والطمع وطول العمر ونحو ذلك.

معنى ثالث:

المراد بالجوع: الجهل، وبالشبع: العلم. ومن آفات الجهل أن المرء لا يقدر على إتيان الأعمال الصالحة على وجهها، ويخاف عليه انتشار الضلال. وفي الحديث: «اتخذ الناس رؤوسا جهالا، فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا».(صحيح البخاري، رقم ١٠٠)

من مظاهر الجهل:

(١) خطب بعض العلماء فقال في خطبته: «قالَ: قالَ رسول الله صلى الله عليه وسلم». فقام أعرابي: كيف قلت: كالا كالا، وقد سمعت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أحسن الناس.[كالا كالا- بالكاف المهملة- معناه في الأردية : الأسود].

(٢) قال بعض الأعراب لبعض العلماء، واقرأ على ثوري؛ فإنه مريض. فقال الشيخ: أنا أدرس صحيح البخاري، فقال الأعرابي: دع «بخار بخور» ثوري مريض.

(٣) كان بعض الأئمة يتحرك كثيرا في الصلاة، فقيل له في ذلك، فقال: كيف لا، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من صلى بالناس فليخفف».(صحيح البخاري، رقم٩٠) [كان هذا الكلام بالأردية، ومعنى الحديث فيها: *ہلکی نماز*: وثمة كلمة أخرى في الأردية تشبهها في الخط وهي:ہِلکے].

(٤) كان بعض الناس يؤدي الوتر بعد الاستنجاء، فقيل له في ذلك، فقال: في الحديث: من استجمر فليوتر. [فحمل الإيتار على صلاة الوتر، والمراد هنا: ضد الزوج]

وما أكثر آفات العلم في هذه العصور، وخاصة في هذه البلاد.

معنى رابع:

المراد بالجوع: السكوت، و بالشبع: الإكثار من الكلام. أي: احذر كثرة الصمت

وكثرة الكلام.

قال الشاعر:

الصمت زين والسكوت سلامة ۞ فإذا نطقتَ فلا تكن مِكثارًا

معنى خامس:

المراد بالجوع: سهر الليل، وبالشبع: النوم. أي لا تنَمْ الليل كله، ولا تقم الليل كله. ويفصله المحدثون في أبواب التهجد.

واخْشَ:

صيغة الأمر تفيد (١٦)معنى، (راجع: نور الأنوار، ص ٢٧). نسوق هنا اثنين منها:

(١) التأديب، أي تهذيب الأخلاق، كما في الحديث: «كل مما يليك».(صحيح البخاري، رقم:٥٣٧٧)

(٢) الإرشاد: أي امتثاله خير لك. كما في قوله تَعَالَىٰ:﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ (الطلاق: ٢)

وفي الحديث: «عليكم بالإثمد». (سنن ابن ماجه، رقم:٣٤٩٥)

تعليم النبي صلى الله عليه وسلم الاعتدال:

نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن صيام الدهر، وفي الحديث: «لا صام من صام الأبد». (صحيح البخاري، رقم:١٩٧٧)

هذا الحديث يحتمل عدة معانٍ:

(١) دعاء عليه بألا يوفقه الله للصوم.

(٢) نفي الصوم. كما في قوله تَعَالَىٰ:﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ (القيامة: ٣١)

وإنما حمله على ذلك، لأنه ورد في صحيح مسلم (رقم:١١٦٣): «لاصام ولا أفطر»، وفي سنن الترمذي (رقم:٧٦٧): «لم يصم و لم يفطر».

(٣) أصبح الصوم عادة له، فلم تتحقق الفائدة المرجوة منه.

واختلفت المذاهب الفقهية في الحكم الشرعي لصوم الدهر، وفصل العلماء علة النهي.

خلاصة ما ذهب إليه الأحناف أن صوم الدهر يسبب الضعف، والتقصير في

الفرائض والواجبات وغيرها من المقاصد، فنهي عنه، وإلا فيجوز الصوم مطلقا، بل هو مندوب إليه. (راجع: فتح الباري ٢٢١/١٤-٢٢٢؛ عمدة القاري ١٩٨/٨؛ أوجز المسالك ١٢٠/٥-١٢٥؛ مراقي الفلاح، ص٢٣١).

كما نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ختم القرآن الكريم في أقل من ثلاثة أيام، وذلك لأن المرء لا يكاد يتدبر القرآن الكريم في أقل من ثلاثة أيام، ويتعذرعليه مراعاة الآداب الأخرى، و في الحديث: «لايفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاثة».(سنن أبي داود، رقم: ١٣٩٤؛ سنن الترمذي، رقم:٢٩٤٩)

ثم أذن به النبي صلى الله عليه وسلم أخيرا، ولكنه غير الأولى.

يقول النووي رحمه الله: «فإن كان من أهل العلم، لم يقرأ من القرآن ما يفوت عليه التدبر والاستنباط وغيرهما من المقاصد الهامة، وفي حكمه من كان مشغولا بالخدمات الدينية، فلا يقرأ منه ما يختل به الخدمات الأخرى، وأما العامي فيكثر من قراءته ما استطاع، ولكن لا يقرأ منه ما يمل ويسأم به.

ما يدل على ختم جماعة من الصحابة والسلف الصالح القرآن في أقل من ثلاثة أيام:

(١) عمل عثمان رضي الله عنه: عن عطاء بن أبي رباح: «أن عثمان... قام خلف المقام، فجمع كتاب الله في ركعة».(الطبقات الكبرى لابن سعد٧٥/٣، ذكر أنه كان يقرآ القرآن في ركعة؛ سنن الترمذي ٤٧/٥، آخر باب قبل تفسير القرآن)

(٢) عمل تميم الداري رضي الله عنه: عن ابن سيرين قال: «كان تميم الداري يحيي الليل كله بالقرآن كله في ركعة».(شرح معاني الآثار، رقم:٢٠٥١، باب جمع السور في ركعة).

(٣) عمل عبد الله بن الزبير رضي الله عنه: عن عبد الله بن الزبير أنه قرأ القرآن في ركعة. (المصدر نفسه).

(٤) عمل سعيد بن جبير رحمه الله: وروي عن سعيد بن جبير أنه قرأ القرآن في ركعة في الكعبة. (سنن الترمذي ٤٧/٥، آخر باب قبل تفسير القرآن).

وفي رواية:... أنه قرأ القرآن في ركعتين في الكعبة. (مختصر قيام الليل للمروزي، رقم ١٧٢)

(٥) عمل الإمام أبي حنيفة: عن أبي يوسف قال: «كان أبو حنيفة يختم القرآن كل

ليلة في ركعة».(تاريخ الإسلام للذهبي ٣٠٩/٩)

ثنا حفص بن عبد الرحمن قال: «كان أبو حنيفة يحيي الليل بقراءة القرآن في ركعة ثلاثين سنة».(تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٣٥٤/١٣، مناقب أبي حنيفة)

(٦) الإمام البخاري: «كان محمد بن إسماعيل البخاري... يختم بالنهار كل يومٍ ختمةً». (تاريخ بغداد١٢/٢، ذكر من اسمه محمد).

(٧) الحجاج بن يوسف: قال بعض السلف: «كان الحجاج بن يوسف يقرأ القرآن كل ليلة».(البداية والنهاية ١٤٤/٩، هذه ترجمة الحجاج)

(٨) قال النووي: «وممن ختم أربعا في الليل وأربعا في النهار: السيد الجليل ابن الكاتب الصوفي رضي الله عنه، وهذا أكثر ما بلغنا في اليوم والليلة».(الأذكار، ص ١٠١؛ شرح النووي على مسلم٣٦٦/١؛ للاستزادة منه راجع: شوق حديث ص ٨٢-٩٢ الفصل الحادي عشر للشيخ محمد سرفراز خان صفدر رحمه الله، ذكر فيه المؤلف قصص ختم عشرين من المحدثين والسلاطين القرآن الكريم، وغيره من العبادات؛ قيام الليل للمروزي؛ إقامة الحجة على أن الإكثار من التعبد ليس ببدعة، للعلامة اللكنوي؛ فضائل أعمال ص٢٥٤، نحو ذلك)

الإكثار من الأكل يورث الكسل في العبادة:

عن مالك بن أنس قال: حُدِّثت أن نفرا من بني إسرائيل يصومون النهار، فإذا كان الليل و وضع الطعام جعلوا ذلك نوائب بينهم يقوم رجل منهم فيقول: «لاتأكلوا كثيرا، فتشربوا كثيرا فترقدوا كثيرا».(الزهد لأحمد بن حنبل، ص ١٠٣؛ بقية زهد عيسى عليه السلام، ص ٥٢٨، ط: دار الكتاب العربي).

وفي كتاب الجوع لابن أبي الدنيا: «لا تأكلوا كثيرا، فإنكم إن أكلتم كثيرا نمتم كثيرا، وإن نمتم كثيرا صليتم قليلا ».(الجوع، رقم ٣٠٩)

مصادر أخرى في هذا الموضوع:

عمل العلامة ابن أبي الدنيا رسالة سماها «الجوع»، ذكر فيها فوائد قلة الطعام، ومضار الشبع، وسرد فيه روايات قولية وفعلية، وعادات السلف الصالح، وقصصهم. تناولت الرسالة (٣٢١) خصلة.

وفي العهد القريب عمل الشيخ محمد أصغر مغل- خريج دارالعلوم/كراتشي- رسالة

سماها «فوائد الجوع، ومضار الشبع»، ضمنها كتاب الجوع لابن أبي الدنيا.

كما سلط الإمام الغزالي أيضا الضوء على ذلك مفصلا، وذكر فوائد الإقلال من الطعام، علاوة على الأشخاص والأحوال وأحكامها. (راجع : إحياء علوم الدين ٣/٨٤-٩٤)

الفرق بين الخوف والخشية:

(١) الخوف: التألم من المكروه، والخشية: التألم من شخص أحد فمثلا: زيد يريد قتل عمرو،فتألم عمرو من القتل يسمى خوفا، وبغض النظر عن القتل تألمه من شخص زيد يسمى خشية.

(٢) مخافة الله: خوف عاقبة الذنوب والمعاصي، وخشية الله: حالة تحصل عند الشعور بعظمة الخالق وهيبته.

(٣) الخوف: عام، والخشية: الخوف مع التعظيم.

(٤) الخوف: عام، والخشية: الخوف المؤدي إلى التقوى وطمانينة القلب.

(٥) الخوف يتعلق بحدوث صفة أو فعل يكون مكروهًا، والخشية تتعلق بذات شخص.

فتقول: خشيت زيدًا، ولاتقول: خشيت ذهابَ زيد، بل تقول: خِفت ذهاب زيد. ويدل عليه قوله قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝٢١﴾ (الرعد: ٢١)

(٦) الخوف يورث الحركة، والخشية تورث السكون. فمثلا يرى المرء عدوه فيطرأ عليه أمران:

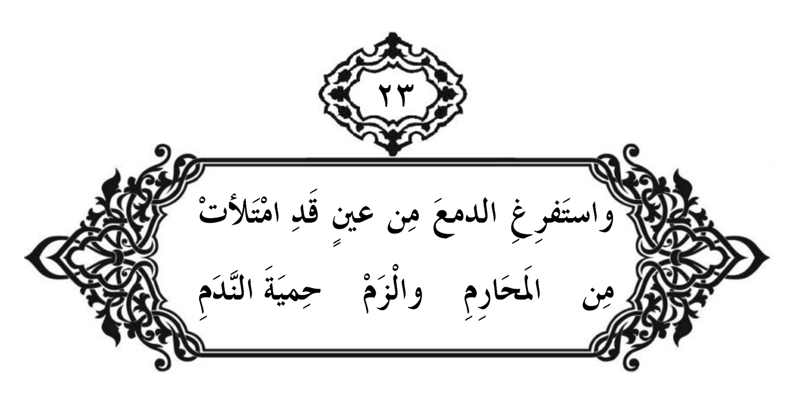
(١) الفرار منه يسمى خوفا. (٢) القرار في موضع لا يصل إليه العدو يسمى خشية. (للاستزادة منه راجع: مدارج السالكين١/٥٤٩، منْزلة الخوف؛ الفروق اللغوية، ص ٢١٨-٢١٩).

البلاغة:

بين (الجوع، والشبع) طباق، وكذلك بين (المخمصة والتخم).

الطباق: اجتماع الضدين.

انتهى، ولله الحمد أولا وآخرا.



اللغة:

فَرَغ: (ن، ف) فَراغا، وفُروغا: خلا.

فرغَ منه: أكمله، وفي الحديث: «كما إذا فرغ من طعامه... قال: الحمد لله الذي كفانا وأروانا...». (صحيح البخاري، رقم:٥٤٥٩)

وقد يتعدى بنفسه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾ (الشرح: ٧)

فرغ له: قصده. ويطلق في الوعيد عامة. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ (الرحمن:٣١)

فرُغَ (ك) فَراغة: إسراع الفرس سيره.

أفرغَ الإناء: أخلاه. وفي حديث المعراج: «جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيمانا فأفرغه في صدري». (صحيح البخاري، رقم:٣٤٩)

أفرغ الذهب والفضة: صبَّها في قالب. وفي التنْزيل العزيز: ﴿أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ (الكهف: ٩٦)

(فرغ) الشَّيْء أخلاه. استفْرَغَ: طلب منه أن يخليه، وفي الحديث: «لا يحل لامرأة تسأل طلاق أختها لتستفرغ صفحتها، فإن لها ما قدر لها».(صحيح البخاري، رقم:٥١٥٢)

القول الفارغ: اللغو من القول. القلب الفارغ: المضطرب. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾ (القصص: ١٠)

الدمع: دَمَعَ (ف) دَمْعًا، ودَمَعانا: ذرف الدموع، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ

مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾ (المائدة: ٨٣)

قال النبي صلى الله عليه وسلم عند وفاة ابنه إبراهيم: «إن العين تدمع، والقلبَ يحزن».(صحيح البخاري، رقم ١٣٠٣)

أدمع الإناء: ملأه حتى فاض. الدمع: ماء العين. ج: دموع، وأدمع.

الدموع: عين دموع، دميع: عين كثيرة البكاء، ج: دمعى.

عين: له معانٍ عدة، ذكر العلامة الفيروز آبادي (٥٠) معنًى، والشيخ بهاء الدين السبكي (٥٣) معنًى، وآخرون (١٠٠) معنًى. (للاستزادة راجع: تاج العروس٣٥/٤٤٠، المادة: العين؛ بصائر ذوي التمييز للفيروزآبادي ١/١٠٨٠، بصيرة في العين).

نكتفي هنا بسرد بعض معانيها الشهيرة:

(١) الباصرة، كما في قوله تَعَالَىٰ:﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ﴾ (البلد: ٨)، وهو المراد هنا.

(٢) النبع، كما في قوله تَعَالَىٰ:﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ (الرحمن: ٥٠)، ج: أعين وعيون.

(٣) الحفظ والصيانة، كما في قوله قَالَ تَعَالَىٰ:﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ (طه: ٣٩)

(٤) الجاسوس، (٥) الجماعة، وفي صحيح البخاري: «خرج النبي صلى الله عليه وسلم عام الحديبية حتى كان بغدير الأشطاط، أتاه عينه...، كان الله عزوجل قطع عينا من المشركين».(صحيح البخاري، رقم:٤١٧٨)

ففي هذا الحديث (العين) الأولى بمعنى الجاسوس، والعين الثانية بمعنى الجماعة.

(٦) عين الشيء، قال النبي صلى الله عليه وسلم لبلال حين باع صاعين من التمر بصاع منه: «عين الربا، وعين الربا».(صحيح البخاري، رقم:٣٢١٣)

(٧) سوء النظر، في الحديث: «العين حق».(صحيح البخاري، رقم:٥٧٤٠)

امتلأت: ملأ (ف) الشيءَ ملأ: أفعمه، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (الأعراف: ١٨)

وفي الحديث: «لا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب». (صحيح البخاري، رقم:٦٤٣٦)

ملَّأَ: بالغ في ملئه، مَلِئَ (س) ملأً: امتلأ، مَلَأَ عينه منه: أعجب بمنظره.

مَلُؤَ (ك) ملاء وملاءة: غني، وورد في قبول الحوالة: «فإذا أتبع أحدكم على مليء

فليَتْبَع)).(صحيح البخاري، رقم:٢٢٨٧)

امتلأ: أفْعِمَ، وفي التنْزيل: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ﴾ (ق: ٣٠)

وورد فيمن اشتغل في الشعر فألهاه عن مقاصده: ((لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا خير له من أن يمتلئ شعرا)).(صحيح البخاري، رقم ٦١٥٤)

الملأ: (١) الجماعة، (٢) رئيس القوم. في التنْزيل: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ (الأعراف:١٠٩)، (٣) العادة.

المِلء: ما يملأ الشيء، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا﴾ (آل عمران: ٩١)

المحارم: حرَمَ (ض) حِرمانا: صار محروما. وفي صحيح مسلم: ((مَن حُرِمَ الرفق حُرِم الخير)).(صحيح مسلم، رقم:٢٥٩٢)

حرُمَ عليه (ك) حُرمًا وحُرمَة: امتنع.

أحرمَ (١)دخل في الإحرام، (٢) دخل في الحرم.

حَرَّمَ: منعه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَاحِشَ﴾ (الأعراف: ٣٣)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ (البقرة: ٨٥)

تَحَرَّمَ: تحمى وتمنع، استحرم: عده حراما.

المحرم: (١)الممنوع، (٢)ذوحرمة، (٣) ومن النِّساء والرِّجال الذي يحرم التَّزَوُّج به. وفي الحديث: ((لا تسافر امرأة مسيرة يومين ليس معها زوجها أو ذو محرم منها)).(صحيح البخاري، رقم:١٨٦٤) (٤) ما حرمه الله تعالى.

المُحَرَّم: ما يحترم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ (إبراهيم: ٣٧)

والزَم: لزِمَ (س) الشيءُ: ثَبت ودام.

قال أبوهريرة: ((كنت ألزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ملء بطني)).(صحيح البخاري، رقم:٢٠٤٧)

لزِمَ الشَّيْءُ فلانا وَجب عَلَيْهِ. لزم العملَ: داوم عليه.

(ألزم): أثْبته وأدامه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ (الفتح: ٢٦)

(لازمه) تعلق بِهِ.

(الْتزم) الشَّيْء أوجبه على نفسه. استلزم: (١) اقتضاه. (٢) عده لازمًا.

حِمية:حَمَى (ض) فلانا حَميا وحِماية: وقاه، وحفظه. سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب رضي الله عنها عن رأيها في قصة الإفك، فقال: «يارسول الله، أحمي سمعي وبَصَري».(صحيح البخاري، رقم:٤١٤١)

حمَى المريض حِميةً: وقاه ما يضره.

حَمِيَت الشمسُ (س) حَميًا وحُمُوا: اشتدت حرارته. قَالَ تَعَالَى:﴿يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ (التوبة: ٣٥)، و قَالَ تَعَالَى:﴿تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ (الغاشية: ٤)

حَمِي من الشيء حِميةً: غار عليه، وأباه، وفي التنْزيل: ﴿إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾ (الفتح: ٢٦)

حَمِي في الغضب: اشتد غضبه. حامَى عنه مُحاماة: دافع عنه.

تحامى: احترز. ورد في قصة ضعف بنيان الكعبة وإرادة عبد الله بن الزبير إعادة بنائها: «تحَاماه الناس».(أي تجنبوه). (صحيح مسلم، رقم:١٣٣٣)

احتمى في الحرب: تحمس فيها.

أحمَى الشيء: سَخَّنَه. جاء في العرنيين: «ثم أمر بمسامير فأحميت فكحلهم».(صحيح البخاري، رقم:٣٠١٨)

وفي حديث الأخدود: «مَن لم يرجع عن دينه، فأحموه فيها».(صحيح مسلم، رقم ٣٠٠٥)

الحامي: (١) الجمل الَّذي طال مكثه عند أَصْحابه حَتَّى صار لَهُ عشرَة أبطن فتركوه باسم أصنامهم، وسموها حاميا، لأنه حمى ظهره عن الحمل والركوب. وفي التنْزيل: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ﴾ (المائدة: ١٠٣)

(٢) المحافظ، ج: حماة. (٣) الساخن، (٤) الحاد.

الندم: نَدِمَ (س) نَدَمًا ونَدامةً: أسف، وكرهه بعد ما فعله، قَالَ تَعَالَى:﴿فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ (المائدة: ٣١)، وقَالَ تَعَالَى:﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ﴾ (يونس: ٥٤)

وفي الحديث: «ما من أحد يموت إلا نَدِمَ».(سنن الترمذي، رقم:٢٤٠٣)

تَنَدَّم: أسف. جاء في حارث بن سويد: «كان رجل من الأنصار أسلم، ثم ارتد، ولحق بالشرك ثم تندم». (سنن النسائي، رقم ٤٠٦٨)

أَنْدَمَ: آسفه. نَادَمَ: شاربه. انتدمَ: تيسر حصوله.

النديم: المرافق، والمصاحب (ج) ندماء. والمراد بمَن سمي به: وفاؤه بحق الصحبة.

الإعراب:

من عين: التنوين للتحقير، لامتلائها بالمعاصي.

عين: موصوف، قد امتلأت: صفته، من المحارم: متعلق بـــ (امتلأت).

حِمية الندم:

(١) الإضافة بيانية، وتقديره: الزم الحمية التي هو الندم.

(٢) الندامة: مشبه. والحمية: مشبه به. فهو من إضافة المشبه به إلى المشبه.

الشرح:

الترغيب في التوبة:

ذكر في البيت السابق أنه يجب صيانة النفس من المعاصي، ولكن كيف يفعل بما صدر عنه في الماضي من حياته؟ أشار إلى علاجه في هذا البيت، وهو التوبة.

استفرغ الدمعَ:

(١) السين والتاء للمبالغة، والمعنى: بالغ في ذرف الدموع. (٢) السين والتاء للطلب؛ فإن الدموع لا تسيل من غير طلب. (٣) اطلب الدموع من العيون. وفيه إشارة إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن لم تبكوا فتباكوا». (سنن ابن ماجه، رقم:٤١٩٦)

قال الشاعر الأردي:

سنبھلتے نہیں ہیں یہ آنسو سنبھالے ۞ تمہاری امانت تمہارے حوالے

(يعز التغلب على هذه الدموع رغم المحاولة كلها، فهي أمانة لك مردودة إليك)

العين سبب لكثير من الذنوب:

عين قد امتلأت:

(١) أي بواسطة العين والقلب والبطن وغيرها، وامتلاء العين كناية عن كثرة

الذنوب.

(٢) العين سبب معظم الذنوب. فنُسب إليها.

قال الشاعر:

كلُّ المصائبِ مبدأها من النظرِ ۞ ومعظمُ النارِ من مستصغرِ الشررِ

كم نظرة فتكت في قلب صاحبها ۞ فتكَ السهام بلاقوس ولا وتَر

يَسُرُّ مقلتَه ما ضر خاطره ۞ لا مرحبا بسرور جاء بالكدر

ما التوبة؟

الزم حمية الندم: المراد به: تُبْ. والتوبة تتعلق بخمسة أشياء:

(١) الندم في القلب على ما سبق في الماضي.

(٢) التخلي عن الذنب في الحال.

(٣) العزم على عدم العودة في المستقبل

(٤) أداء حقوق الله (من الصلوات الفائتة والصوم الفائت ونحوها).

(٥) أداء حقوق العباد من الدين ونحوه.

(٦) إن كان عالما فالشرط السادس أن يبين المسألة الصحيحة ويصلح ما فعل أو ابتدع في الدين كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٠﴾ (البقرة)

فالتوبة تضم هذه الأمور الخمسة و لم يذكر الناظم إلا الندم؛ لأن:

(١) التوبة تلزم الندم.

(٢) الندم أعظم أركان التوبة؛ فإن الندم هو الذي يجلب الخصال الأربع الباقية. وعليه جاء في الحديث: «الندم توبة».(سنن ابن ماجه، رقم:٤٢٥٢)

روي هذا الحديث في عدة مصادر حديثية عن سبعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومن أمثلته: حديث: «الحج عرفة».(سنن الترمذي، رقم: ٨٨٩)

الحِمية: وقاية النفس مما لا يليق بها. واشتهر: «المعدة رأس كل داء، والحمية رأس كل دواء».

يذكر بعض الناس هذه المقولة على أنها حديث من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا يصح. (راجع:كشف الخفاء ٢/٢١٤؛ تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزيلعي ٤٥٩/١)

فضل البكاء من خوف الله تعالى:

بكاء العبد على ذنوبه خوفا من الله تعالى من أحب الأعمال إليه سبحانه وتعالى، وورد الترغيب فيه في عدة أحاديث، إليكم بعضها على سبيل المثال:

(١) عن أبي هريرة رضي الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع».(سنن الترمذي، رقم:١٦٣٣)

(٢) عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من ذكر الله ففاضت عيناه من خشية الله حتى يصيب الأرض من دموعه لم يعذبه الله يوم القيامة».(المستدرك للحاكم٤/٣١٧، رقم:٧٦٦٨، قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي).

(٣) عن ابن عباس: قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله».(سنن الترمذي، رقم:١٦٣٩)

(٤) عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من عبد يخرج من عينيه دموع -وإن كانت مثل رأس الذباب- من خشية الله،لم تصب الأرض شيئا من حر وجهه إلا حرمه الله على النار».(سنن ابن ماجه، رقم:٤١٩٧)

(٥) عن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ليس شيء أحب إلى الله من قطرتين أو أثرين: قطرة من دموع في خشية الله، وقطرة دم تهراق في سبل الله...».(سنن الترمذي، رقم:١٦٦٩)

هذا المعنى ورد في الأحاديث الكثيرة بألفاظ مختلفة.(راجع: كنْز العمال٣/١٤٣-١٤٩)

(٦) عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «...فإن الله عزوجل يقول: وعزتي وجلالي وارتفاعي فوق عرشي لا تبكي عين عبد في الدنيا من مخافتي إلا

أكثرت من ضحكه معي في الجنة».(شعب الإيمان، رقم:٧٧٨)

(٧) عن عقبة بن عامر قال: قلت: يارسول الله، ما النجاة؟ قال: «أمسك عليك لسانك، وَ لْيَسَعْك بيتك، وابكِ على خطيئتك».(سنن الترمذي، رقم:٢٤٠٦، وقال الترمذي: هذا حديث حسن).

(٨) «يا موسى...لم يتعبد المتعبدون بمثل البكاء من خشيتي». (المعجم الكبير للطبراني ١٢/٢٠/١٢٦٥)

(٩) وفي حديث مرسل: الدمع أغلى شيء. عن مسلم بن يسار قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «... لو أن باكيا بكى في أمة من الأمم رُحِموا وما من شيء إلا له مقدار إلا الدمعة، فإنه يطفأ بها بحار من النار».(شعب الإيمان للبيهقي، رقم:٧٩٠، الخوف من الله تعالى).

(١٠) وفي حديث مرسل أن الملائكة تدعو: «اللهم شَفِّع البكائين في من لم يبكِ».(شعب الإيمان للبيهقي، رقم ٧٨٩، الخوف من الله تعالى)

ذكر البكاء في الأدعية المأثورة:

«اللهم ارزقني عينين هطالتين تشفيان القلب بذروف الدمع من خشيك».(حلية الأولياء ١٩٦/٢، قال الحافظ العراقي: وإسناده حسن.(فيض القدير١٨١/٢).

وفي بعض الأدعية: «اللهم إنك تسمع كلامي... أدعوك دعاء الخائف الضرير من خضعت لك رقبته وفاضت لك عيناه».(المعجم الكبير ١١/١٧٤/١١٤٠٥)

كتب في موضوع التوبة:

لقصص الصحابة والسلف الصالح في البكاء من خشية الله تعالى راجع: المصنف لابن أبي شيبة١٩/٢٥٢، وما بعدها، ما قالوا في البكاء من خشية الله).

وظهرت رسالة للعلامة ابن أبي الدنيا في هذا الموضوع سماها «الرقة والبكاء»، ساق فيها فضل البكاء وأسبابه، ومواقعه، وأحوال الأنبياء الكرام والملائكة والسلف الصالح. وتتضمن الرسالة (٤٢٤)خصلة. كما صدرت عدة رسائل في العرب في الماضي القريب حول هذا الموضوع، وفصَّلت الكتب فضائل التوبة وشرائطه، وما يخصها من الأمور، ساقها المفسرون في تفسير الآيات الخاصة بالتوبة، كما عقد المحدثون أبوابا مفردة للتوبة، وعُمِلت كتب مفردة في هذا الموضوع، ومن أسماء بعضها مما هو متوفر ما يلي:

(١) التوبة لعلي بن الحسين ابن هبة الله الشافعي المعروف بابن عساكر، المتوفى سنة ٥٧١هـ، تحقيق: محمد مطيع، ط: دائرة الأوقاف، دبي.
(٢) التوبة لابن أبي الدنيا.
(٣) التوابين لابن قدامة المقدسي، تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط، ط: دار الكتب العلمية، بيروت. تناول الكتاب توبة الملائكة والأنبياء والسلف الصالح والأمم الماضية والأمة المحمدية.
(٤) جبال الذنوب وسيل الغفران لأبي طلحة محمد يونس عبد الستار المدني، قرظ له الشيخ عاشق إلهي البلند شهري.

البلاغة:

(١) «امتلأت من المحارم»: فيه استعارة مصرحة تبعية.

كثرة ارتكاب المحرمات: مشبه. وامتلاء: مشبه به. والكثرة: وجه الشبه.

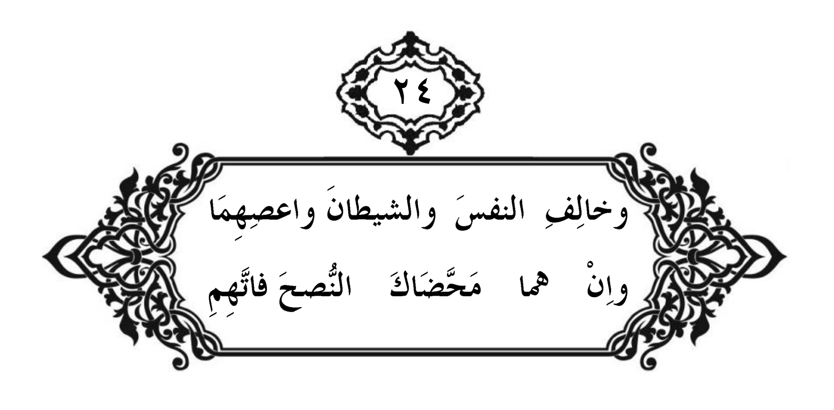
ذكر المشبه به فكانت الاستعارة مصرحة، واشتق من (الامتلاء) امتلأت، فكانت تبعية.

(٢) «الزم حِمية الندم»: فيه إضافة المشبه إلى المشبه به.

الندم: مشبه. حمية: مشبه به. وجه الشبه: كل منهما يزجر صاحبه.

انتهى ولله الحمد.

****



اللغة:

خَالِف: خَلَفَ (ن) خُلوُفًا: فسد، وتغير. خلفَ فمه: تغيرت رائحة فمه.

في الحديث: «لخلوف فم الصائم أطيب عند الله تعالى من ريح المسك».(صحيح البخاري، رقم:١٨٩٤)

خَلَفَ فلانا خَلَفًا: تبعه. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَـٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى ﴾ (الأعراف:١٤٢)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ﴾ (الأعراف: ١٥٠)

وفي الحديث: «من خلف غازيا في سبيل الله بخير فقد غزا».(صحيح البخاري، رقم:٢٨٤٣)

في بعض الأدعية المأثورة: «اللهم قَنِّعني بما رزقتني...، واخلف على كل غائبة لي بخير». (المستدرك على الصحيحين ٢/٣٨٨/٣٣٦٠)

ورد هذا الدعاء في تفسير قوله تعالى: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ (النحل: ٩٧)

وورد هذا الدعاء بين مقام إبراهيم والركن اليماني أيضًا.(المستدرك على الصحيحين ١/٦٠٠/١٦٧٤، ٢/٤٤٩/٣٣٦٠).

خَلِفَ (س) خَلَفًا (١) مال على أحد شقيه، (٢)كان أحول العَينَين.

أخلَفَ: (١) تتابع/ حل محل غيره. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ﴾(سبأ: ٣٩)

ومن الأدعية المأثورة عن المصائب: «اللهم أْجرني في مصيبتي وأَخلِف لي خيرا منها».(صحيح مسلم، رقم:٩١٨)

(٢) قصد ما نهاه. وفي المنافق: «وإذا وعد أخلف».(صحيح البخاري، رقم:٣٣)

أخلَفَ يده: أرسلها ليأخذه من خلفه.

وورد في نظر الفضل بن عباس إلى امرأة في حجة الوداع: «فأخلف بيده فأخذ بذقن الفضل فعدل وجهه عن النظر إليها».(صحيح البخاري، رقم:٦٢٢٨)

(خَالف) عنه مُخالفَة وخِلافًا تخلف، وفي التنْزِيل العزيز: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾ (هود: ٨٨)

خالف إلى فلان: قصده وأتاه.

وورد في الذين يتخلفون عن الجماعة: «أخالف إلى رجال فأحرق عليهم بيوتهم».(صحيح البخاري، رقم٦٤٤)

خالف الشيءَ: عارضه. خالَف بين الشيئين: فرق بينهما.

خَلَّفَ: (١) جعله خلفه. (٢) أخره. قال سعد بن مالك أي سعد بن أبي وقاص للنبي صلى الله عليه وسلم: «أُخَلَّفُ بعد أصحابي».(صحيح البخاري، رقم:٣٩٣٦)

(اخْتلف) لم يتفق في شيء. وفي التنْزيل: ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡ﴾ (مريم: ٣٧)

اختلف إليها: تردد إليه. يقول عبد الله بن الزبير في غزوة الخندق: «فإذا أنا بالزبير على فرسه يختلف إلى بني قريظة مرتين أوثلاثا».(صحيح البخاري،رقم:٣٧٢٠)

(اسْتَخْلَفَهُ) جعله خَلِيفَته، منحه الخلافةَ.

في الحديث: «قيل لعمر: ألا تستخلف؟ قال: إن أستخلف فقد استخلف من هو خير مني...».(صحيح البخاري، رقم: ٧٢١٨)

(الْخلاف) (١) شجر الصفصاف، (٢) الاختلاف، (٣) المعارض. وفي التنْزيل: ﴿تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ﴾ (المائدة: ٣٣)

جَاءَ خِلافه: أي بعده، وفي التَّنْزِيل الْعَزِيز: ﴿وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ (الإسراء: ٧٦)

الخَلْفُ: (١) الظهر، (٢) آلَة ينقر بهَا الْخشب، (٣) القرن يَأْتِي بعد الْقرن، (٤)الْولد الطالح، وفي التنْزيل الْعَزِيز:﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ﴾ (مريم: ٥٩)

(٥) الرديء من القول وفي الْمثل «سكت ألفا ونطق خلفا» يضْرب للرجل يُطِيل الصمت فَإِذا تكلم تكلم بالْخَطَأ.

زعموا أن امرأة زفت إلى بيت زوجها، وكانت تسكت دائما، فقالت له أم زوجها: هلا تتكلمين؟ فإن العروس يروق كلامها. فقالت: هل تزوجينني زوجا آخر إذا مات ابنك؟ فقالت أم زوجها: أن تسكتي خير لك.

(٦) ضد القدام، وفي التنْزيل: ﴿وَإِذَا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء: ٧٦)

الخُلْفُ: إخلاف الوعد. الخِلْفُ: (١) مختلف الصفات. (٢) وأقصر الأضلاع وأرقها. ج: أخلاف، خِلاف.

الخَلَفُ: العوض. وفي الحديث: يقول أحدهما: «اللهم أعطِ مُنفِقًا خَلَفًا».(صحيح البخاري، رقم :١٤٤٢)

(٢) الولد الصالح، الخلف الصادق.

(٣) من تركهم الميت.

خَلِفة: الناقة الحامل، ج: خَلِفات. وفي الحديث: «ثلاث آيات يقرأ بهن أحدكم في صلاته خير له من ثلاث خلِفات عظام سمان».(صحيح مسلم، رقم:٨٠٢)

الشيطان: شاط: (ض) شَيطا وشِياطة: احترق. شاط فلان: هلك. شاطَ في الأمر: أسرع فيه.

أشاط/شيَّطَ: أحرقه/ أهلكه. قال عمر بن الخطاب: «القسامة توجب الدم ولا تشيطه». أي لاتبطله. (مصنف عبد الرزاق ١٠/٤١/١٨٢٦٨)

(اشتاط) عَلَيْهِ اشْتَدَّ غَضَبه. شَطَنَ (ن) بعد. أشطن: أبعده.

شيطنَ: (١) صار شيطانا، (٢) فعل فعل الشيطان.

الشيطان: (١) المتصف بصفات إبليس، (٢) كل مفسد طاغٍ من إنس أو جن، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ (الأنعام: ١١٢)

وصف الحديث مَن يمر بين يدي المصلي رغم حجزه ومنعه عنه — بالشيطان: «فإن أبى فليقاتله؛ فإنه شيطان». (صحيح البخاري، رقم:٥٠٩)

وفي الحديث السابق قال أهل العلم: يصح وصف الطاغي من الإنسان بالشيطان. (فتح الباري١/٥٨٤)

وفي حديث: «إن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلا يتبع حمامة، فقال: شيطان يتبع شيطانة».(سنن أبي داود، رقم:٤٩٤٠)

(٣) الداهية من الحية.

مأخذ «الشيطان»؟:

(١) شطن: أي بَعُدَ، وهو بعيد من رحمة الله تعالى. فهو فيعال ومنصرف.

(٢) شاط: أي احترق، وهو يحترق ويهلك بالنار. فهو «شيطان» والألف والنون زائدتان فيه، على زنة فعلان، لا ينصرف.

(٣) شاط: أي أسرع، وهو يسرع السير في الإنسان. وهو لا ينصرف حينئذ.

الإعراب:

إن هما مَحَّضاك: من باب «ما أضمر عامله على شريطة التفسير». والتقدير: إن (مَحَّضاك) هما مَحَّضاك.

فاتَّهِم: أي: فاتهمهما: والسياق يحدد هذا المعنى.

الشرح:

سؤال: لِمَ جمع بين (خالف) و(اعصهما)؟ وما الفرق بين المخالفة والعصيان ؟

الجواب: (١)خالفهما في الأمر، واعصهما في المنهيات. فأحدهما يتعلق بالإتيان والآخر بالترك.

(٢) كرره للتاكيد، والمعنى: خالف في المأمورات والمنهيات، واعص، أي: لا تتبعهما.

(٣) جمع بين المترادفين لضرورة الشعر. فالنثر يسع اختصار الكلام بحذف شيء منه، وأما الشعر فيجب فيه مراعاة الألفاظ.

(٤) العصيان: هو الإباء. والمخالفة: هي الجمع بين الإباء والإتيان بما لا يهواه الشيطان والنفس. فمثلا يقول الشيطان والنفس: مارس الزنا. وقال المرء: لا أزني. فهذا عصيان. ثم يقول: بل أتزوج زواجا شرعيا، فهذه مخالفة له. فالعصيان يرجع إلى المفرد،

والمخالفة ترجع إلى المركب.

النفس والشيطان:

جمع بينهما، لأن معاصي كل واحد منهما ومكائده تختلف عن غيره.

كيف يحمل الشيطان على المعاصي؟:

فيما يلي صور من عصيان الشيطان، حيث يقول للإنسان:

(١) أخر الصلاة الفريضة، وقدِّم عيادة المريض، فإن أجره كبير.

(٢) ازجر الفقير بعد التصدق عليه. فهذا من الشيطان، ليس للنفس منه نصيب.

(٣) المجادلة في ذات الله وصفاته، وورد هذا المعنى في الحديث الذي رواه الشيخان في صحيحيهما: «يأتي الشيطان أحدكم فيقول: مَن خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله وَلْيَنْتَهِ».(صحيح البخاري، رقم:٣٢٧٦)

(٤) خُضْ فيما شجر بين الصحابة.

(٥) احتل حيلا غير شرعية في العبادات والمعاملات.

(٦) اشرب السجار. فالدخان لا تهواه النس، ولكن الشيطان يزينه ويقول: اشرب الخمر. فالنفس لا يحبها لكراهة رائحتها وطعمها. وكذلك عمل قوم لوط عليه السلام يزينه الشيطان مع كون المقاعد والأستاه محل الغائط.

معاصي النفس:

معاصي النفس غير ما ذكِر، مثلا: الأكل الحرام، و شهوة البطن، والفرح بالمدح الكاذب، و نحوذلك.

النفس والشيطان: لِمَ قدم النفس على الشيطان؟

(١) النفس عدو داخل، و الشيطان عدو خارج. ولأن النفس لا تفارق الإنسان في حال من الأحوال، حتى وقت العبادات، والنفس محبوبة إلى الإنسان، في حين يمكن طرد الشيطان بالاستعاذة والذكر ونحوهما، فهي كالكلب، فإن لاذ المرء بخالقه ورجع إليه وقِيَ شره.

والعدو إذا كان داخلا، ويعجب الإنسانَ، فإن المرء لا يكاد يطلع على فساده

وضرره، فقدم النفس على الشيطان، لأنها خطيرة جدا.

(٢) النفس يقتصر عملها على داخل الإنسان، وأما الشيطان فيؤثر في داخله وخارجه، وفي الحديث: «إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم».(صحيح البخاري، رقم:٣٢٨١) فقدم الفتنة المفردة على الفتنة المركبة.

(٣) يحاول الشيطان أن يوقع الإنسان في المعصية بصورة أو أخرى، فإذا عجز عن إيقاعه في معصية من المعاصي، تحول إلى إيقاعه في معصية أخرى، ورغب فيها، وأما النفس فإنها تصر على ما تطلبه، ولا تقنع بغيره. اللهم إلا أن يحترز الإنسان من الذنب مخافة الله تعالى. ويصعب مخالفة ما اقترن به الإصرار. فقدم النفس على الشيطان.

ويمكن شرح ما سبق بأسلوب أيسر فنقول:

إن ضرر النفس أفدح من ضرر الشيطان، وأوضح دليل على ذلك ما جاء في الحديث النبوي: «تُغَلُّ فيه مردة الشياطين».(سنن النسائي، رقم: ٢١٦٠)

وفي رواية: «يُصَفَّد فيه مردة الشياطين، فلا يخلصون إلى ما يخلصون إليه في غيره». (مسند أحمد، رقم:٧٩١٧)

فإن قيل: كيف تصدر الذنوب رغم ذلك ؟

ومما يجاب عنه أن هذه الذنوب تصدر عن النفس، و رد عليه بسبعة وجوه.(راجع: أوجز المسالك ٥/٣٤٥-٣٤٦)

محَّضاك النُصحَ:

فمثلا: تقول النفس والشيطان: اقضِ شهوتك هذه، ليرتاح قلبك إلى العبادة، وإلا ظل قلبك معلقا بها. أو تقول: إن لجسدك عليك حقا، فلا تكثر من العبادة، أو تقول له: إن إقامتك بعض الركعات، أو إنفاقك بعض المال هل يجلب لله تعالى فائدة، ونحو ذلك من التسويلات. والحاصل يجب الحذر من الاغترار بالنفس والشيطان وإن لبسا ما لبسا من الثياب.

سبق بيان مكايد النفس في البيت السابق بالتفصيل، ونوجز الكلام هنا فيما يخص الشيطان، فنقول:

حذَّر القرآن الكريم في غيرما آية مكايدَ الشيطان وحيله، ونسوق بعض الآيات على سبيل المثال:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ (فاطر: ٦)، و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴾ (النساء: ٣٨)، و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ ﴾ (الأعراف: ٢٧)، و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ (النور:٢١)، و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ ﴾ (البقرة:١٦٩)، و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ (الفرقان:٢٩)، و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾ (القصص:١٥)، و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ ﴾ (الحشر: ١٦)

لقد غرَّ أبانا آدم بقوله: ﴿ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ (الأعراف: ٢١) فكيف بالبشر الذين أقسم الشيطان بإغوائهم، ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (ص: ٨٢)

وبما أن الشيطان يتوخى إيقاع الإنسان في المعصية بصورة أو أخرى، فقد يتذرع بالخير في الهجوم على الإنسان. أي يجعل الخير وسيلة إلى الشر.

عن الحسن بن صالح: «إن الشيطان ليفتح للعبد تسعة وتسعين بابا من الخير، يريد به بابا من السوء». (حلية الأولياء ٣٣١/٧، علي والحسن؛ سير أعلام النبلاء ٣٧٩/٧، الحسن بن صالح)

ذات مرة أيقظ الشيطان بعض أولياء الله — قيل هو: معاوية رضي الله عنه- لصلاة الليل، فقال له: من أنت؟ فقال: الشيطان. فقال: كيف أنت هنا؟ فقال: فاتك صلاة التهجد في المرة السابقة، فتحسرتَ عليه حسرة كبيرة، وأنبت إلى الله تعالى، فأعطاك الله تعالى من الأجر أضعافا مضاعفة، فلا أود أن يتكرر ذلك، فجئت لأوقظك للصلاة.

والبيت الآتي يخص هذا الموضوع.

الوجوه المأثورة في الاستعاذة من الشيطان:

(١) الاستعاذة منه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ (الأعراف:٢٠٠)

و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ (الأعراف: ٢٠١)

(٢) ورد في الحديث أن الشيطان يأتي الإنسانَ فيطرح عليه أسئلة مختلفة، ثم يقول:

من خلقَ اللهَ؟ فإذا خطر ببال أحدكم ذلك فليقل: «آمنت بالله».(صحيح مسلم، رقم:١٣٤)

وفي صحيح البخاري: «يأتي الشيطان أحدكم، فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربك، فإذا بلغه، فليستعذ بالله ولْيَنْتَهِ».(صحيح البخاري، رقم:٣٢٧٦)

وصف الحديث نوعين من العلاج لمثل هذه الوساوس:

(١) العلاج المأثور: وهو الاستعاذة.

(٢) العلاج العقلي: وهو أن ما بالعرض ينتهي بما بالذات، والسؤال وراء ذلك فضول. فمثلا: حرارة المكان لأجل النار، ثم لا يسأل عن سبب حرارة النار. أو مثل: الضوء لأجل الشمس، ثم لا يسأل عن سبب إضاءة الشمس. وقس عليه أن المخلوق يُسأل عن خلقه، فإذا تجاوز الأمر المخلوقَ إلى الخالق، فهو بالذات، فيتلاشي التساؤل عنه تلقائيا.

أضف إلى ذلك أن المحدَثات لابد له من محدِثٍ وموجِد. فإذا ذهبت تبحث عن الموجِدِ للموجِد نفسه لزم التسلسل وهو باطل.

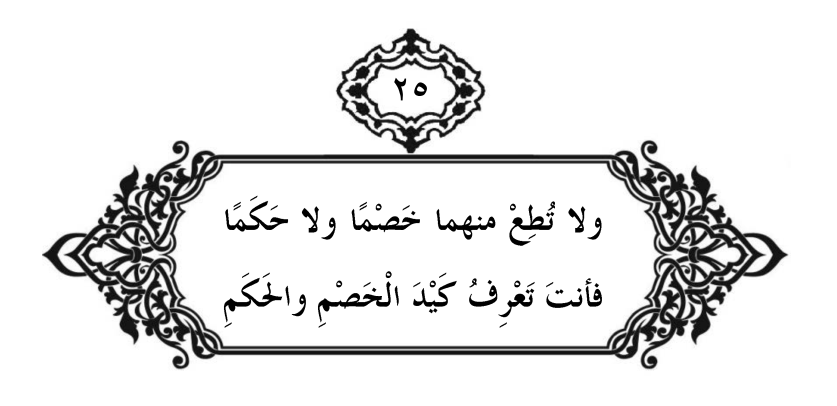
(٣) ورد في الحديث: «أما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، فمن وجد ذلك فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم. ثُمَّ قَرأَ: قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ...﴾ (البقرة: ٢٦٨. سنن الترمذي، رقم:٢٩٨٨)

(٤) يقول ابن عباس رضي الله عنهما: «كان النبي صلى الله عليه وسلم يعوِّذ الحسن و الحسين، ويقول: «أعيذكما بكلمات الله التامة من شر كل شيطان وهامة، ومن شر كل عين لامة».(صحيح البخاري، رقم:٣٣٧١)

(٥) في الحديث: «إن الشيطان وضع خطمه على قلب ابن آدم، فإن ذكر الله خنس، وإن نسي التقم قلبه، فذلك الوسواس الخناس». (مسند أبي يعلى الموصلي، رقم:٤٢٨٥)

(٦) في الحديث: «ستر ما بين الجن وعورات بني آدم إذا دخل الخلاء أن يقول: «بسم الله».(سنن ابن ماجه، رقم ٢٧٩؛ سنن الترمذي، رقم: ٦٠٦)

انتهى، ولله الحمد أولا وآخرا.



اللغة:

لا تطع: طاع: (ن) طَوعًا: انْقَادَ. طاع الشجر: أمكن جمع ثمره.

طَاعَ لسَانه: مرن عَلَيْهِ .

(أطَاع) فلانا (إفعال) إطاعة وطاعة. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ﴾ (النساء:٨٠)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ (محمد: ٢١)

وفي الحديث: «من أطاعني دخل الجنة».(صحيح البخاري، رقم:٧٢٨٠)

و ورد في الأمير: «فإذا أمَرَ بمعصية فلا سمع ولا طاعة».(صحيح البخاري، رقم:٢٩٥٥)

(طاوعه) فيه مطاوعة: أطاعه فيه.

(طوَّع) (١) خضع له، (٢) سهله، وفي التنْزيل العزيز: ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ ﴾ (المائدة: ٣٠)، (٣) حضَّه عليه.

(تطوَّع) (١) لان، (٢) تكلف الطاعة، (٣) تنفل أَي قَامَ بالْعبَادَة طَائِعا مُخْتَارًا دون أَن تكون فرضا لله. وفي التنْزيل العزيز: ﴿ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ﴾ (البقرة: ١٨٤)

وفي الحديث أن ضمام بن ثعلبة سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل علي غيرهن. فقال: «لا، إلا أن تطوع».(صحيح البخاري، رقم:٤٦)

(الطوع) المنقاد. طوعًا: برضى. وفي التنْزيل: ﴿ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ (فصلت: ١١)

(المطواع) من يسْرع إلى الطَّاعَة، وفي الأدعية المأثورة: «رب اجعلني لك ذكارا...، لك مِطواعا». (سنن أبي داود، رقم: ١٥١٠)

(المطوع) المتطوع وفي التنْزيل العزيز: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ﴾ (التوبة: ٧٩)

خَصْمًا: خَصَمَ (ض) خَصْمًا وخِصَامًا: غلبه في الخصم. وفي الحديث: «ومَن كنت خصمه، خصَمْتُه يوم القيامة».(سنن ابن ماجه، رقم:٢٤٤١)

خَصِمَ (س) خَصَمًا وخِصَامًا: جادله. فهو خَصَمٌ.

الخَصِمُ: (١) العالم بالخصومة وإن لم يخاصم، (٢) المباشر للخصومة. وفي التنْزيل: ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾ (الزخرف: ٥٨)

(اختْصم) الْقَوْم خَاصم بَعضهم بَعْضًا. وفي التنْزيل: ﴿ عِندَ رَبِّكُمۡ تَخۡتَصِمُونَ ﴾ (الزمر:٣١)

ورد في الحديث عن رجل من بني الإسرائيل الذي قتل مئة نفس: «فاختصمت ملائكة الرحمة وملائكة العذاب». (صحيح البخاري، رقم:٣٤٧٠)

خاصَم مُخاصَمةً: اختصم بعضهم مع بعض، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ﴾ (ص: ٦٤)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ (يس: ٧٧)

و ورد في المنافق: «إذا خاصم فجر».(صحيح البخاري، رقم:٣٤)

الخَصْمُ: العدو الذي ظهرت عداوته، المقابل، والحريف، والمخاصم، ويستوي فيه المذكر والمفرد وفروعهما. قال الله تعالى: وفي التنْزيل العزيز: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ﴾ (ص: ٢١)، وقد يثَنَّى، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡ﴾ (الحج: ١٩)

الخُصْمُ: (١) من كل شَيْء طرفه، وفي حديث سهل بن حنيف بعد التحكيم ولم تظهر له فائدة- قال: «هذا أمر لا يسد منه خصم إلا انفتح علينا منه خصم، ما ندري كيف نأتي».(صحيح البخاري، رقم:٤١٨٩)

(٢) زاوية الغرارة ونحوها. (٣) فم الوادي.

الخَصام: الخصومة، العداوة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٍ﴾ (الزخرف: ١٨)

حَكَمًا: حَكَمَ:(ن)حُكمًا: قضى، وفي التنْزيل: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ (المائدة:٤٨)

قال سعد بن معاذ وهو يقضي في بني قريظة: «فإني أحكم أن تقتل المقاتلة».(صحيح

البخاري، رقم:٤٠٤٣)

حَكُمَ:حُكمًا: عقل، فهو حكيم. أحكمَ الفرسَ: ألجمه.

أحكم الأمر: أتقنه. قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ (الحج: ٥٢)

حاكمَ إليه: اختصم إليه. وفي دعاء النبي صلى الله عليه وسلم في التهجد: «وإليك حاكمتُ». (صحيح البخاري، رقم: ١١٢٠)

حَكَّمَ: جعل حكمًا، وفي التنْزيل: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ﴾ (المائدة: ٤٣)

الحُكمُ: (١) الحكومة، (٢) الفصل. وفي التنْزيل: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ (الأنعام: ٥٧)

(٣) الحكمة. وفي التنْزيل: ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ (الشعراء: ٢١)

الحَكَمُ: (١) من أسماء الله تعالى، (٢) الحاكم، وفي التنْزيل: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾(الأنعام: ١١٤)، (٣) الوسيط، وفي التنْزيل: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ (النساء: ٣٥)

وفي الحديث: «ليوشكن أن ينْزل فيكم عيسى بن مريم حكما عدلا».(صحيح البخاري، رقم ٣٤٤٨)

(الْحِكْمَة) وردت كلمة الحكمة في الكتاب والسنة كثيرا، وفي التنْزيل: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (البقرة: ٢٦٩)

معاني الحكمة المتعددة:

للحكمة معانٍ متعددة، منها: (١) فراسة يضع به كل شيء في محله مع العلم والعمل. ففي الإنفاق مثلا يُلْهمُ المرء أن يمنح كل واحد ما يستحقه، لا غيره. وكذلك الكلام فيراعي موقعه ومهيعه. (٢)الشريعة المحكمة. (٣) الحديدة التي توضع في فم الفرس لترويضه، فيتربى ويسيطر عليه صاحبه. فيجب أن يمسك المرء بالسنة النبوية طوال حياته، وفي الحديث: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين».(سنن أبي داود، رقم: ٤٦٠٧)كما يجب تربية الناس على التمسك بالسنة النبوية. (٤) السنة. (٥) أسرار القرآن الكريم، أي استنباط العلل واللطائف، وفهم أحكام القرآن الكريم. (٦) إتقان العلم والعمل. (٧)الفهم

والعلم والمعرفة. وفي التنْزيل: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ (لقمان: ١٢)

المُحكَم: آيات القرآن الكريم الظاهرة الواضحة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ (آل عمران: ٧)

تعرف: عَرَفَ (ن) عِرافة: دبر أمر القوم وقام بسياستهم.

عرَفَ (ض) الشيءَ عِرفانا ومعرفة: أدركه وعلمه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ (البقرة: ١٤٦)

يقول عمر رضي الله عنه في قوله قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ (المائدة: ٣)، «لقد عرفنا ذلك اليومَ الذي نزل فيه».(صحيح البخاري، رقم٤٥)

عَرَفَ الفرسَ: قص شعره. ومَعَارف: شعر عنق الفرس. وفي الحديث: «لا تقصوا نواصي الخيل ولا معارفها... ومعارفها دفاؤها».(سنن أبي داود، رقم: ٢٥٤٢)

عَرِفَ (س) عَرَفًا: ترك التطيب.

عَرَّفَ الشيءَ: أعلمه، وفي التنْزيل: ﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ (محمد: ٦)

عَرَّفَ الاسم: ضد نكره، عَرَّفَ الشيء: أشهره. وورد في اللقطة: «عَرِّفْها سنةً».(صحيح البخاري، رقم ٢٤٢٧)

الفرق بين العراف والكاهن:

العرَّاف: المنجم، ويقرب منه (الكاهن)، ويحل أحدهما محل الآخر إلا أن بينهما فرقًا: الكاهن يدعي معرفة المغيبات، ويخبر بما لم يقع؛ وأما العراف، فيخبر بالمفقود من الأشياء أو المسروقة ونحوها.

اعترَفَ: أقرَّ، وفي التنْزيل: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ﴾ (التوبة: ١٠٢)

وفي حديث الإفك: «إن العبد إذا اعترف ثم تاب، تاب الله عليه». (صحيح البخاري، رقم: ٤١٤١)

تعارفَ: عرف بعضهم بعضا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ (الحجرات: ١٣)

ورد في الأرواح: «ما تعارف منها ائتلف».(صحيح البخاري، رقم ٣٣٣٦)

العَرْفُ: الطيب، قال أنس رضي الله عنه: «...ولا شمِمت ريحا قط أو عرفا قط أطيب من ريح أو عرْف النبي صلى الله عليه وسلم».(صحيح البخاري، رقم٣٥٦١)

للعُرف معانٍ عدة:

(العُرْفُ): (١) ما تعارف عليه الناس في عادتهم ومعاملاتهم، (٢) الاصطلاح، (٣)شعر عنق الفرس، (٤) المكان العالي. وفي الحديث: «أنا زعيم... ببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه». (سنن أبي داود، رقم:٤٨٠٠)

وفي رواية للحديث: «بيتٌ في عرف الجنة وبيت في وسط الجنة...».(مسند البزار، رقم: ٦٦٢٦)

(٥) المعروف، وفي التنْزيل: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ (الأعراف: ١٩٩)

عريف: سيد القوم، ونقيبهم. ج: عرفاء.

قال النبي صلى الله عليه وسلم في أسارى هوازن: «فارجعوا حتى يرفع إلينا عُرفاؤكم أمركم».(صحيح البخاري، رقم:٢٥٣٩)

كيد: كاد فلانا: (١) بَيَّت له، وفي التنْزيل: ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾ (يوسف: ٥)، (٢) أراده بسوء، وقَالَ تَعَالَى:﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ (الأنبياء: ٥٧)

وورد في فضل المدينة المنورة: «لا يكيد أهل المدينة أحد إلا انماع كما ينماع الملح في الماء». (صحيح البخاري، رقم:١٨٧٧)

كاد بنفسه: صبر على مشقة خروج الروح، والخفي من الشيء يطلق عليه الكيد، والروح تخرج خفية.

قال أنس رضي الله عنه عن إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لقد رأيته وهو يكيد بنفسه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فدمعت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم». (صحيح مسلم، رقم:٢٣١٥)

(كايده) كاده. وكاد الشيءَ: دبره، استخرج له منفذا، وفي التنْزيل:﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ (يوسف: ٧٦)

الكيد: (١) الخفي من التدبير، (٢) الحرب، وفي الحديث: «وثلاثين من كل صنف من أصناف السلاح... إن كان باليمن كيد ذات غَدَرٍ».(سنن أبي داود، رقم:٣٠٤١)

وكان من شروط الصلح مع أهل نجران أنهم يمدون المسلمين بالسلاح على العارية إذا اضطر المسلمون إلى محاربة أهل اليمن.

المكيدة: الكيد، والخدعة، ج: مكايد.

الإعراب:

منهما:

(١) حال من النفس والشيطان. والتقدير: لا تطع خصما ولا حكما حال كونهما من النفس والشيطان.

وتتأخر الحال عن صاحبها عامة، منه قوله تَعَالَىٰ:﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ (البقرة: ١٣٥)، وإنما تقدمت على صاحبها لضرورة الشعر. (٢) المراد بهما الشيطان من الجن والإنس.

خَصْمًا ولا حَكَمًا:

النكرة الواردة في سياق النفي تفيد العموم، فقال في البيت أولا: لا تطع، ثم قال: خصما ولا حكما، وهو نفي، فأورثت العموم. والمعنى لا تطع أحدا خصما كان أو حكما مصلحا.

لا حكما:

(١) لا: زائدة، وتأكيد، وفي التنْزيل العزيز:﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾ (الأنعام: ٣٨)، و قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ (التوبة: ٣٠)

(٢) القصد منه التحذير من كل واحد منهما بصورة مستقلة.

كيد الخصمِ والحكم: إضافة المصدر إلى الفاعل.

مثل:﴿كَيۡدُ سَٰحِرٍ﴾ (طه: ٦٩)، و﴿وَعَدَ ٱللَّهُ﴾(الحديد: ١٠) ، و﴿بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾(الصافات: ٦) ونحوها.

الخصم والحكم:

(١) اللام للجنس، أي عامة الخصوم والحكام.

(٢) اللام للعهد الخارجي، كما في قوله قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ (المزمل: ١٦)

والمراد من الخصم والحكم هما المذكوران في الشطر الأول. أي إنهما عدوان مبينان، فلا تطعهما وإن برزا في ثوب القضاة أو الخصوم.

الشرح:

حاصل البيت أنه يجب الحذر من طاعة الشيطان والنفس في الأحوال كلها، فإنهما عدوان أزليان لكم، وتختلف صور هجوم الشيطان على الإنسان، وما أكثر القصص في الكتب، نكتفي هنا بذكر قصتين:

(١) قصة ذي الكفل ذكرها المفسرون أيضا، تتلخص في أن اليسع عليه السلام قال: لا أستخلف إلا مَن يكفل لي أن يقوم الليل، ويصوم النهار ولا يغضب. فقال ذو الكفل: أنا أكفل ذلك، فأتمهن وقام بما كفل به. وذات يوم أتاه إبليس اللعين في هيئة شيخ ضعيف نصف النهار، وكان ذو الكفل يقيل ساعة في نهاره، فدخل عليه وقال: إن بيني وبين قومي خصومة وذكر كلاما كثيرا، حتى ذهب وقت القائلة. فقال له ذو الكفل: ائتني حين أجلس للقضاء. إلا أنه تخلف عنه. ثم دخل عليه وقت قائلته (وكان على علم بأن ذا الكفل لا ينام إلا في القائلة)، فقال له ذو الكفل: ألم أقل لك: ائتني حين أجلس للقضاء بين الناس؟ فقال: إن صاحبي رضي بقضاء حقي حين سمع اسمك. ثم أبى. فقال له ذو الكفل: ائتني غدا، ثم تخلف عنه في اليوم التالي أيضًا، وأمر ذو الكفل في قائلة اليوم الثالث أن يحكم إغلاق الأبواب، ولا يدع أحدا يدخل عليه. فدخل عليه إبليس من الروشن، وعرفه ذو الكفل، فقال له: أنت عدو الله إبليس؟ فقال: نعم، جئت لاختبر صبرك، وقد نجحت فيه.

(٢) قصة العابد: يذكر أن أحد العباد بلغه أن الناس يعبدون بعض الأشجار، فحمل فأسا بيده وخرج إليه ليقطعها، فلقيه الشيطان في بعض طريقه، فقال له: إلى أين؟ قال: لأقطع الشجرة. فقال: ما لك وللشجرة التي لم يقطعها الأنبياء؟ فقال العابد: لابد أن أقطعها. فصارعا فغلبه العابد. فاحتال عليه الشيطان، فقال له: دع عنك هذا العمل الذي صار عبئا على الناس، وأنا أدفع إليك دراهم. فقال العابد: لا بأس إذا. فدفع إليه الشيطان

الدراهم يومين، ثم أمسك عنه. فحمل العابد الفأس بيده مرة أخرى وخرج ليقطع الشجرة. فتصارعا، فغلبه الشيطان...، وذلك لأنه حملته عليه الآن الدنيا دون الآخرة. وبتعبير آخر: خرج لله تعالى في المرة الأولى، وثم خرج لأجل المال الذي انقطع عنه.

ولاتُطع:

سؤال: ما فائدة قوله: لاتطع، بعد قوله في البيت السابق: اعصهما؛ فإن الأمر بالشيء نهي عن ضده؟

الجواب: هل الأمر بالشيء نهي عن ضده؟ فيه ثلاثة مذاهب:

(١) ذهب بعض أهل العلم إلى أن الأمر بالشيء ليس نهيا عن ضده على الإطلاق، فالأمر والنهي مفترقان بناء عليه، فجمع بينهما.

(٢) وقيل: الأمر بالشيء يتضمن النهي عن ضده، فجمع بينهما بناء على هذا القول لأن الإفراد بالشيء خير من ذكره تبعًا.

(٣) قيل: الأمر بالشيء نهي عن ضده. وعليه جمع بينهما للتعميم، فإن الأمر لا عموم له بخلاف النهي. والتفصيل في مطولات كتب الأصول.

المراد بكون النفس والشيطان خصما وحكمًا؟

يقول العلامة الخربوتي: «تحيرت في المراد بهذا البيت مدة من الزمان، ثم قال لي العلامة البوصيري في المكاشفة: يتطلب العملَ ثلاث خصال: (١)القلب، (٢) النفس، (٣) الشيطان.

حين يريد القلب عملا من أعمال الخير، تحول النفس الأمارة بالسوء دونه، فيُرفع أمر القلب والنفس إلى الشيطان، فيأمر الشيطان بالسوء. فكان النفس خصما والشيطان حكما. وحين يحدو الشيطان إلى عمل من أعمال السوء، يحول القلب دونه، ويصر الشيطان على ذلك، فيُرفع الأمر إلى النفس، فتحكم النفس في حق الشيطان. فكان الشيطان خصما للقلب، والنفس حكما.

كيد الحَكم:

سؤال:كيد الخصم مما نشاهد، فكيف يتم كيد الحكم؟

الجواب عنه: إن الحاكم قد يكيد، ويلاطف، فمثلا يقول للمنكر: الاعتراف بالحق

خير، فإذا أقرَّ به قال له: أدِّ ما عليك من الحق. فإن قال: لا أجد ما أودي به حقه، زجَّ به في السجن ونحو ذلك.

الحَكَم: من صفات الله تعالى، في التنْزيل العزيز: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا﴾ (الأنعام:١١٤)

وفي الحديث: «إن لله تسعا وتسعين اسما... الحَكَم العَدْلُ...».(سنن الترمذي، رقم: ٣٥٠٦)

والمراد به حين إطلاقه على الله تعالى – الذي يقدر على الحكم والقضاء، ويقضي بالحق، ولا يرد قضاءه أحد، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ (الرعد: ٤١)

الفرق بين الحاكم (القاضي) والحَكم:

(١) الحاكم: من نصبه الخليفة لفصل الخصومات. والحَكَمُ: مَن نصبه الفريقان لحل المشكلات. فالحاكم عام، والحَكَم خاص.

(٢) حكم الحاكم لا ينقضه حاكم آخر، وأما حكم الحَكم فللقاضي أن ينقضه.

مثاله: الزوج حنفي، والزوجة شافعية، وطلق الزوج طلاقا بالكناية، ولا رجوع فيه عند الأحناف، بخلاف الشوافع، فإن له الرجوع فيه. فإن ترافع الزوجان إلى قاضٍ من قضاة الحنفية، وحكم بعدم الرجوع فيه، فلا يسع أحدًا نقض قضائه. وإن ترافعا إلى قاضٍ من قضاة الشافعية، فحكم بإمكانية الرجوع، ثم حكم قاضي حنفي بعدم الرجوع. فقضاء الحاكم ينفذ، وينتفي قضاء الحكم.

(٣) لا يحكم في الحدود والقصاص إلا القاضي دون الحكم.

(٤) حكم الحاكم أعم، ويلزم الناس جميعا، وأما حكم الحكم فيقتصر على الخصمين.

فمثلا: حكَّمَ البائع والمشتري رجلا في العيب القديم في المبيع، فحكم برد المبيع، لم يسع البائع أن يرد المبيع إلى البائع الأول،ما لم يعترف البائع الأول بحكم الحكم. وأما إذا حكم القاضي برد المبيع فإن البائع له أن يرده على البائع الأول.

الإرشاد إلى التحكيم في المعاملات:

يشرع التحكيم في المعاملات، وثبت بالنصوص الشرعية.

١- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ (النساء: ٣٥)

٢- حَكَّمَ النبي صلى الله عليه وسلم سعد بن معاذ في قضية بني قريظة.(صحيح البخاري، رقم:٣٠٤٣)

٣- كان أبو شريح هانئ بن يزيد حكما في قومه، رضي به النبي صلى الله عليه وسلم. (سنن أبي داود، رقم:٤٩٥٥)

وثبت التحكيم عن الصحابة غيرهم من السلف الصالح في قضايا عدة، ومعظم الكتب الفقهية تعقد «باب التحكيم» و بعضها تعقد «باب الحكمين»، يتحدث عن التحكيم وشروطه ومحله ووجهه وأثره، والرجوع عنه وغيرها من الأحكام بالتفصيل.

المراد بالحكم في البيت: من يحكم بين المتنازعين سواء كان قاضيا أوحاكما.

كتب تتحدث عن الكيد الشيطاني ومكره:

للاستزاد من مكايد الشيطان وحيله وأسلحته التي يهجم بها على الإنسان راجع:

(١) تلبيس إبليس، للعلامة ابن الجوزي (ت:٥٩٧)، طبع مرارا.

يتحدث الكتاب عن مواطن الضعف في كافة طبقات المسلمين وانحرافاتهم والمكايد الشيطانية بشرح وبسط، ويسرد قصصا فيها عبر و دروس. نقله الشيخ أبو محمد عبد الحق الأعظمي إلى الأردية.

(٢) تازيانه شيطان —سوط الشيطان- للشيخ أحمد علي سعيد، ويعتبر هذا الكتاب ملخصا لكتاب ابن الجوزي: تلبيس إبليس.

(٣) مكايد إبليس للعلامة ابن أبي الدنيا: رسالة مختصرة.

(٤) **موت کے وقت شیطانی دھوکہ** — خدعة الشيطان عند الموت - للشيخ المفتي محمد شفيع رحمه الله. رسالة موجزة في (٤٠) صفحة. تسرد قصص إغواء الشيطان عند الموت، وسبل الوقاية منه، وقصة الصراع مع الشيطان شاهدها بأم عينيه، وثمة كتيبات ورسائل أخرى في هذا الموضوع.

الفرق بين العلم والمعرفة:

يقول بعض أهل العلم (أهل اللغة وأهل الكلام): هما مترادفان؛ لأن كل واحد منهما يحل محل الآخر في النصوص. وعليه يوصف الله سبحانه وتعالى بأنه: عارف، كما يوصف بأنه عالم.

فقوله تَعَالَىٰ: ﴿ لَا تَعْلَمُهُمْۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾ (التوبة: ١٠١) بمعنى: لا تعرفهم نحن نعرفهم. والدليل عليه أن المعرفة تتعدى إلى مفعول واحد، والعلم يتعدى إلى مفعولين، و لم يتعدَّ هنا إلا إلى مفعول واحدٍ.

وفي الحديث: «تعرف إلى الله في الرخاء، يعرفك في الشدة». (المستدرك على الصحيحين ٦٣٠٣/٦٥٦/٣؛ مسند أحمد، رقم:٢٨٠٣)

واستدل أهل العلم أيضا على وجوب معرفة الله تعالى بقوله سبحانه: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ (محمد: ١٩) (عمدة القارئ ٢٥٠/١).

عُلِمَ منه أيضًا أنهما مترادفان، في حين ذهب كثير من أهل العلم إلى الفرق بين العلم والمعرفة. وذكروا فروقا عدة، منها:

(١) العلم يتعدى إلى مفعولين، والمعرفة تتعدى إلى مفعول واحد. فمثلا: علمتُ زيدا عالما، وفي التنْزيل: ﴿فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ﴾ (الممتحنة: ١٠)

عرفتُ زيدا. وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾ (البقرة: ١٤٦)

(٢) المعرفة تتعلق بذات الشيء، والعلم يتعلق بأحواله.

مثلا: عرفتُ خالدا، وعلمتُ بكرا مسافرا.

فمعنى الجملة الأولى: أعرف ذات خالد، (أي أفرق بينه وبين غيره إذا مثل بين يدي)، ومعنى الجملة الثانية: علمت اتصاف بكر بالسفر.

ولذا جاء في القرآن الكريم الأمر بإدراك الشيء بالعلم دون المعرفة. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ (محمد: ١٩)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ (المائدة:٩٨)

(٣) المعرفة تستعمل في البسيط، والعلم في المركبات. والمراد بالبسيط هنا الواحد، وبالمركب: ما فيه عدة أشياء. فمثلا إذا قلت: عرفت زيدا: كان المعنى: عرفت مَن هو زيد. وإذا قلت: علمت زيدا قائما، فمعرفة زيد حاصلة من ذي قبل، ثم علمت القيام، ثم علمت اتصافه بالقيام.

والحاصل إذا قيل: علمتُ، تضمن ثلاثة أمور حتما: (١) المحل، (٢) الصفة، (٣)إضافة الصفة إلى المحل.

(أي أن فلانًا من الناس متصف بهذه الصفة). وأوضحه العلامة ابن القيم في «بدائع الفوائد».

وعبر البعض عن هذا الفرق بقوله: «إذا قلت: عملتُ زيدا» لم يستفد المخاطب فائدة، ما لم تضف إليه صفة من الصفات،: عالما صالحا ونحوهما، وإذا قلت: عرفتُ زيدا: فقد تم الكلام، وعرفتَ مَن هو زيد.

والمراد بالبسيط هنا الواحد، وبالمركب: ما فيه عدة أشياء. وأيضا البسيط: ما ليس له جزء. والمركب: ما له أجزاء. ولذا قالوا: عرفتُ ربي: بسيط.

(٤) المعرفة ما تحصل بعد النسيان، جعله بعض الناس أشهر الأقوال. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ (يوسف: ٥٨)

من أمثلة المعرفة أن يزورك أحد بعد سنوات عدة، فأنكرته، ثم عرَّفك بنفسه، وقال: كنت في الجماعة الفلانية، فتقول: عرفتك. وبتعبير آخر: المعرفة: تذكّر شيء.

وفي حديث حذيفة رضي الله عنه: «ثم إذا رآه عرفه».(صحيح مسلم، رقم:٢٨٩١)

وكذا إذا ذُكرَت أوصافُ شيء لأحد من الناس، ثم عرفه برؤيته، فيقول: عرفتُ. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ (البقرة: ١٤٦)، و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ (البقرة: ٨٩)، و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ (المائدة: ٨٣)

وصفت هذه الآيات أهل الكتاب بالمعرفة؛ لأن أوصاف النبي صلى الله عليه وسلم ذكرت لهم، فرأوها وعرفوا أنه النبي الموصوف.

وبناء عليه يقابل المعرفة الإنكارُ، ويقابل العلمَ الجهل. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ (النحل: ٨٣)

وفي صحيح البخاري: «يقبض العلم ويظهر الجهل».(صحيح البخاري، رقم:٨٥)

(٥) المعرفة تحصيل الشيء بتدبر وتفكير، والعلم أعم منه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ (النمل: ٩٣)، و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ

إِلۡحَافٗاۗ﴾ (البقرة: ٢٧٣)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾ (محمد: ٣٠)

ويعبر عن هذا الفرق بعضهم بقوله: المعرفة العلم الحاصل بواسطة الكسب. فلا يقال: الله عارف.

اتفق أهل السنة والجماعة على أنه لا يصح إطلاق المعرفة على الله تعالى بهذا المعنى، ويجوز ذلك عند الشيعة.

(٦) المعرفة: إدراك الشيء مفصلا، والعلم هو إدراك الشيء بالإجمال والتفصيل، فكل معرفة علم وليس كل علم معرفة. (فبينهما عموم وخصوص مطلقا). ولعله يقرب إلى الفرق الثاني، وهو أن المعرفة تتعلق بالعين والعلم يتعلق بالصفة.

(٧) المعرفة: الإحاطة بالشيء، والعلم أعم منه.

وبناء عليه لا يصح القول: «عرفت الله»؛ إذ يتعذر الإحاطة بالله تعالى، صرح به أهل العلم في باب رؤية الباري تعالى. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ (طه: ١١٠)

وسرد العلامة ابن القيم ثلاثة فروق فقال:

(٨) أن المعرفة لب العلم، ونسبة العلم إليها كنسبة الإيمان إلى الإحسان.

(٩) أن المعرفة هي العلم الذي يراعيه صاحبه بموجبه ومقتضاه. فهي علم تتصل به الرعاية.

(١٠) أن المعرفة شاهدة لنفسها، وهي بمنْزلة الأمور الوجدانية، التي لا يمكن صاحبها أن يشك فيها، ولا ينتقل عنها، بخلاف العلم.

من هو العارف بالله؟

العارف هو من كان من أهل الله تعالى. والمعنى: من عرف الله وصفاته وأفعاله. (مدارج السالكين، ص٣٥٣)

وتوضيحه ما قاله أهل العلم في حمد الله تعالى: «الحمد لله وكفى، الذي بكماله ظهر وبذاته اختفى». (خطبات الأحكام، الخطبة:٤١)

المعرفة منْزلة عالية عند الصوفية، وتفصيله في كتب التصوف.

(١١) يستعمل العلم في الكليات والقوانين، وتستعمل المعرفة في الجزئيات، فيقال: علم الصرف، لأنه قوانين.

خلاصة البحث:

بالنظر في كتب اللغات وبعض كتب العقيدة والأصول يتحصل أن:

(١) ذهب البعض (ومنهم العلامة الرضي، والكرامية وبعض أهل اللغة) إلى عدم الفرق بين العلم والمعرفة. وذهب آخرون إلى الفرق بينهما. والصحيح أن أحدهما يحل محل الآخر، نعم يفرق بينهما إذا اجتمعا، أو يتعين المعنى بالسياق والسباق. الحاصل أنه ليس له قانون عام يضبطه.

اقرأ كلام إمام اللغة أبي هلال العسكري:

«والفرق بين العلم والمعرفة إنما يتعين في الموضع الذي يكون فيه جملة غير مبهمة. ألا ترى أن قولك: «علمت أن لزيد ولدا» وقولك: «عرفت أن لزيد ولدا». يجريان مجرى واحدا. (الفروق اللغوية للعسكري).

ومن أوضح الأدلة على ذلك ما جاء في صحيح البخاري من قول عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «إن رفع الصوت بالذكر حين ينصرف الناس من المكتوبة كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم». وقال ابن عباس: «كنت أعلم إذا انصرفوا بذلك إذا سمعتُه». (صحيح البخاري، رقم:٨٤١)

ومثله في رواية تالية بلفظ: «كنت أعرف انقضاء صلاة النبي صلى الله عليه وسلم بالتكبير». (صحيح البخاري، رقم:٨٤٢)

والحاصل أنهم يعبرون عن شيء واحد حينا بـــ (أعلم)، وحينا آخر بـــ (أعرف).

وفي صحيح البخاري:«إني لأعلمكم بالله». (صحيح البخاري، رقم:٢٠)

وفي رواية أخرى: «إني لأعرفكم بالله».(الفردوس بمأثور الخطاب للديلمي١/٥٩/١٦٦)

يقول الحافظ ابن حجر في شرح حديث صحيح البخاري السابق: «وفي رواية الأصيلي: «أعرفكم». وكأنه مذكور بالمعنى، حملا على ترادفهما هنا، وهو ظاهر، وعليه عمل المصنف. (فتح الباري١/٧٠).

(٢) أباح البعض إطلاق (عرف) على الله تعالى، ومنعه البعض الآخرون، وبالتفصيل لهذا الإجمال يتجلى أن الاختلاف بينهم يكاد يكون لفظيا؛ فإنه لا يجوز عند

أحد إطلاقه بالمعنى الذي ينافي شأن الله تعالى، مثلا: المعرفة: التذكر بعد النسيان، وإدراك الشيء بتدبر وتفكر. فلايصح إطلاقه على الله تعالى عند أحد من أهل السنة والجماعة.

وعليه حين ورد على القائلين بجواز إطلاق المعرفة على الله تعالى بأن المعرفة تكون بعد الجهل؟ أجابوا: هذا فيمن يصلح عليه الجهل، والله لا يرد عليه الجهل.

واعلم أن هذا الخلاف في الجواز فحسب، وإلا فإنه يستحسن في حق الله تعالى إطلاق العلم فقط، لأنه لم يرد في الكتاب والسنة إطلاق غير العلم.

(للاستزادة منه راجع: مدارج السالكين (٣/٣٤٩-٣٨٥، ط: دارالحديث، القاهرة، جمع فيه العلامة ابن القيم – علاوة على الفروق- حقيقة المعرفة، وأقسامها، وأقوال السلف الصالح، وغيرها من الفوائد و الأسرار الكثيرة؛ بدائع الفوائد لابن القيم ١/٣٠٠-٣٠٣، ط: مكتبة المؤيد، الرياض؛ الدر المصون في علم الكتاب المكنون (١/٣٠٩) للمحلي الشافعي المعروف بالسمين (ت:٧٥٦هــ)؛ بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروز آبادي، ص ١١٠٩-١١١٠؛ عمدة القاري ١/٢٥٠؛ التحبير شرح التحرير في أصول الفقه ١/٢٤٣-٢٤٧ للمرداوي الحنبلي؛ الكليات لأبي البقاء (٩/٦١٠-٦١٢)؛ الفروق اللغوية للعسكري ١/٥٠٠-٥٠٢؛ حاشية الخضري على شرح ابن عقيل ١/٣٤٧ ظن وأخواتها).

البلاغة:

في البيت مراعاة النظير.

مراعاة النظير: الجمع بين المتناسبين، وشرطه ألا يكون تناسب التضاد، نحو قوله تعالى: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ﴾ (الرحمن: ٥)

جمع بين الخصم والحكم في البيت.

انتهى، وبالله التوفيق.



اللغة:

استَغفرَ: غَفَرَ (ض) المرضُ غَفْرًا: نكس.

غَفَرَ الشيءَ: ستره، غَفرَ (ض) غَفْرًا وغُفْرَانًا ومَغفرةً: ستره وعفا عنه. **قَالَ تَعَالَى**: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ (آل عمران: ١٣٥)، و**قَالَ تَعَالَى**: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ (فصلت: ٤٣)

وفي الحديث: «من قام رمضان إيمانا واحتسابا غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه».(صحيح البخاري، رقم:٣٧)

والمغفرة تختص بالله تعالى. وأما العبد فيوصف بالعفو والصفح بعضهم عن بعض. **قَالَ تَعَالَى**: ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ (النور: ٢٢)

غُفران: العفو، في التنْزيل العزيز: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾ (البقرة: ٢٨٥)

غَفِرَ (س) غَفْرًا: انكاس المرض. اغتَفَرَ ذنبه: عفا عنه. تَغَافَرَ: عفا بعضهم عن بعض.

غَفَّرَ: استغفر. عن عمرو قال: قلت لعروة: «كم لبث النبي صلى الله عليه وسلم بمكة؟ قال: عشرا. قلتُ: فابن عباس يقول: بضع عشرة. قال: فغَفَّره».(صحيح مسلم، رقم:١١٦)

(استْغفر) اللهَ: طلب مِنْهُ أَن يغفره، **قَالَ تَعَالَى**: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ (نوح: ١٠)

«من يستغفرني فأغفر له». (صحيح البخاري، رقم:١١٤٥، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل)

الاستغفار لغة يقتضي مفعولين، نحو: استغفرَ اللهَ ذنبَه. وورد في القرآن الكريم في غير موضع يتعدى إلى مفعول واحد، نحو قوله **تَعَالَى**: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ (نوح: ١٠)

الغفار: من صفات الله تعالى، **قَالَ تَعَالَى**: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ (طه: ٨٢)

الغِفارَةُ: (١) خرقَة تلبسها الْمَرْأَة فتغطي رَأسهَا مَا قبل مِنْهُ وَمَا دبر غير وَسطه. (٢) سحابة فوق سحابة. (٣) زرد ينسج من الدروع على قدر الرَّأْس يلبس تَحت القلنسوة.

المِغفَرُ: زرد ينسج من الدروع على قدر الرَّأْس يلبس تَحت القلنسوة، ج: مغافر. وفي الحديث: «إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل مكة عام الفتح وعلى رأسه **مغفر**». (صحيح البخاري، رقم:٥٨٨٠)

الجم الغفير: الساترون للأرض لكثرتهم.

غَفَرَ: ستر.

الحكمة في قراءة «غفرانك» في الأدعية المسنونة:

«كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خرج من الخلاء قال: غفرانك». (سنن الترمذي، رقم:٧)

يسن قراءة «غفرانك» حين الخروج من الخلاء، فما الحكمة فيه؟

أجاب عنه المحدثون والشراح بستة وجوه، وقرنوه في العامة بالذنب، ومن الوجوه التي لا غبار عليه والتي يطمئن إليها النفس ويناسب المعنى اللغوي أيضا:

أن لكل مقام دعاء يناسبه، فمثلا: المسجد مكان الرحمة، فنقول عند دخوله: «اللهم افتح لي أبواب رحمتك».(صحيح مسلم، رقم:٧١٣)

عند اللباس: «الحمد لله الذي كساني».(سنن ابن ماجه، رقم:٣٥٥٧)

ومادة (غفر) تدل على الستر، كما ذكرنا في معنى المغفر والغفارة والجم الغفير. فكان المعنى بهذه المناسبة: اللهم: استرني خارج الخلاء. فإني تجردت في الخلاء للحاجة إليه، فأدعوك أن تسترني خارجه، واحفظني من التجرد، فلا أضطر إلى التجرد لا في المستشفى ولا عند الطبيب، أو السارق. ومن مدلول هذه الكلمة أيضا: اللهم استر عيوبي الظاهرة والباطنة في الدنيا والآخرة. فهل يصدر دعاء مثله حبيب مفيد جامع من غير مشكاة النبوة.

فإن قيل: إذا كان المقصود معنى الستر فهلا قيل: سترُك؟ فالجواب عنه أن أدعية

النبي صلى الله عليه وسلم جامعة للغاية، فيختار من الكلمات ما يعم خير الدنيا وخير الآخرة، أي استر لنا عيوب الدنيا والآخرة.

(٢) من معاني (غفر) المحو، فمعنى غفرانك: امحُ ذنوبي.

يرد على قوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ (الفتح: ٢): إذا كان النبي معصوما فما معنى الذنب؟ وأجيب عنه بوجوه عدة، منها أن المراد بالذنب: خلاف الأولى، أو ذنوب الأمة، أو الخطأ الاجتهادي، أو المراد الحيلولة دونه ودون الذنب، وغير ذلك من الوجوه، إلا أن خير ما يقال فيه هو أن (غَفَرَ) بمعنى المحو.

نزلت هذه الآية الكريمة مقفله صلى الله عليه وسلم من صلح الحديبية عام ٦هـ. وفي نفسه وسوسة التقصير في التبليغ، حيث إنه صلى الله عليه وسلم قام بهذه الرسالة عشرين سنة دون أن يفتح مركز الإسلام مكة المكرمة، فتوهّم أنه قصَّر في التبليغ. فاعتبر ذلك ذنبا ودعا الله تعالى أن يمحو هذه الوسوسة، ويتبين بذلك العلاقة الواضحة للآية الكريمة بالسياق والسباق والأوضاع الخارجية، حيث إن الله تعالى فتح مركز الإسلام (مكة المكرمة) له، (أي وعد له بذلك)، ليمحي عن قلبه وسوسة التقصير هذه.

(٣) «غفر» قد يأتي بمعنى التوبة، فمعنى غفرانك: اللهم امح ذنوبي/استرني برحمتك. والتوبة تتعلق بخمس خصال، سبق تفصيلها في البيت رقم (٢٣).

نَسَبْتُ: نَسَبَ (ض) الشاعر بفلانة نَسْبًا ومَنسبًا: عرض بهواها وحبها.

نَسَبَ (ن) نَسْبًا ونِسبَةً: ذكر أصله. نَسَبَ الشيءَ إلى فلان: عزاه إليه. وفي الحديث: «ما ينبغي لعبد أن يقول: إني خير من يونس بن متَّى» (نسبه إلى أبيه). (صحيح البخاري، رقم:٣٤١٣)

(أنسبت) الرّيح اشتدت واستافت التُّرَاب والحصى.

ناسب مناسبة: (١) شركه فِي نسبه، (٢) شاكله، (٣) لاءمه ووافقه.

(انتسب) ذكر نسبه. عن ابن عمر أنه رأى رجلا يجر إزاره، فقال: ممن أنت؟ فانتسب له. (صحيح البخاري، رقم:٢٠٥٨)

في هداية النحو في مبحث «ما ولا»:

ومُهَفهَفٍ كالغُصنِ قلتُ له انتسِبْ ۞ فأجابَ ما قتل المحب حرام

(تنْسب) إلى كذا ادّعى نِسْبَة إليه. النَّسَابة: القرابة. النَّسَّاب: الْعَالم بالأنساب.

(النّسَب) الْقَرَابَة، ج: أنْسَاب. قَالَ تَعَالَى:﴿ فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ﴾ (الفرقان: ٥٤)، و قَالَ تَعَالَى:﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ ﴾ (المؤمنون: ١٠١)

وفي الحديث: «من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه».(صحيح مسلم، رقم:٢٦٩٩)

لقَد: اللام مؤطئة للقسم، أي فيها معنى القسم، ووردت في غير موضع من القرآن هذا المعنى، منها قوله تَعَالَى:﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ (المائدة: ١٢)، أي والله لقد أخذ. فاللام دالة على القسم وواقعة في جواب القسم، و قَالَ تَعَالَى:﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ﴾ (الزمر: ٦٥)، و قَالَ تَعَالَى:﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الفتح: ١٨)

نَسْلا: نَسَلَ (ن) نُسولا: انْفَصل عَن غَيره وَسقط. ويستعمل لازما ومتعديا.

نَسَلَ (ض) نَسْلا: كثر نسله. نَسلَ الماشي: أسرع. قَالَ تَعَالَى:﴿ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ (الأنبياء: ٩٦)

(تناسل) القوم توالَدُوا. والنَّسْلُ: الأولاد، ج: أنسال. قَالَ تَعَالَى:﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ ﴾ (السجدة: ٨)

وفي حديث مرسل: «تناكحوا تناسلوا». (أسنى المطالب، رقم:٥١٢).

النَّسلُ: اللبن الذي يخرج من الضرع تلقائيا.

عُقم: عَقَمَ (ن) عَقْمًاوعُقْما/ عَقِمَ (س) عَقَمًا/ عَقُمَ (ك) عُقْمًا: لم يصلح الرجل أو المرأة للإنجاب لداء أو شيخوخة.

العُقْم: عدم قبول الرحم النطفة. أو عدم صلاحية الرحم للتولد.

هو عقيم: عديم الصلاح للإنجاب، ج: عُقماء، وعقام، وهي عقيم، ج: عقائم وعُقُم. قَالَ تَعَالَى:﴿ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ﴾ (الشورى: ٥٠)

والعقيم يستخدم للمذكر والمؤنث كليهما، لأن معناه من لا يولد له أو لها. ولفظ الفعيل إذا كان بمعنى المفعول فيستوي فيه المذكر والمؤنث. واستعماله في الريح العقيم واليوم العقيم على سبيل التشبيه بالمرأة العقيم.

ورد في دجال : «إنه عقيم لايولد له».(صحيح مسلم، رقم:٢٩٢٧)

«قيل: ماسوء المرأة؟ قال: عقمُ رحمها».(المعجم الكبير للطبراني ٣٩٥/٢٥٣/٢٤)

ريح عقيم: هواء لا مطر فيه. قَالَ تَعَالَىٰ:﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ (الذاريات: ٤١)

يوم عقيم: يوم لا بركة فيه، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ (الحج: ٥٥)

عَقَّمَ (١) إبادة الجراثيم. ماء معقّم: الماء المصفى(Filtered). (٢) الإبطال.

اعتقم في الأمر: تدخل فيه.

الإعراب:

مِن قَول: التنوين عوض عن المضاف إليه.

بلا عمل: صفة للقول. تقديره: قول مصحوب بترك العمل/ متلبِّس بترك العمل.

لقَد نسبتُ: جملة استينافية بيانية.

به: أي بهذا القول بدون العمل.

الشرح:

يرى الناظم رحمه الله أنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ولا يعمل بمقتضاه، وهي خصلة سيئة للغاية، فاستغفر منه، ومعنى البيت ما يلي:

(١) القول بلا عمل قبيح كنسبة الولد إلى العقيم.

(٢) الذي يخطب فيكتم في خطبته ادعاء العمل، مثلا يتحدث عن فضل التهجد وقيام الليل، ويدعي بباطنه أنه يقوم بالليل، أو يذكر أضرار التدخين، فكأنه يدعي بداخله أنه لا يدخن، فالذي يخطب وينصح الناس دون العمل فكأنه ادعى العمل، وهو لم يعمل به، فكما يقبح نسبة الولد إلى العقيم، كذلك يقبح ادعاء العمل بدونه.

ما أعجب حكمة ذكرها الناظم رحمه الله حيث شبه الولد بالعمل،كما أن الولد من نتاج المرء،كذلك العمل، وكما أن الولد محبوب، كذلك يجب أن يكون العمل الصالح محبوبا.

فضل الاستغفار:

ورد فضل الاستغفار في القرآن والسنة بكثرة، نوجزها فيما يلي:

(١) قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (النساء: ١١٠)

(٢) قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ (النساء: ٦٤)

(٣) في الحديث: «إني أستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة».(صحيح البخاري، رقم: ٦٣٠٧)

(٤) وورد في الحديث أن الله تعالى يغفر للعبد ذنوبه - وإن بلغت عنان السماء- إذا تاب، قال النبي صلى الله عليه وسلم: قال الله تبارك وتعالى: «يا ابن آدم، لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي».(سنن الترمذي، رقم:٣٥٤٠).

(٥) «من لزم الاستغفار جعل الله له من كل همٍّ فرجا، ومن كل ضيق مخرجا، ورزقه من حيث لا يحتسب».(سنن ابن ماجه، رقم :٣٨١٩، باب الاستغفار).

ما أقبحَ أن يحض غيره على شيء دون أن يعمل به:

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دون العمل به ذميم وقبيح، وورد القرآن والسنة بالوعيد عليه:

(١) قَالَ تَعَالَى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ﴾ البقرة: ٤٤

(٢) قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾ (الصف)

حاصل الآية : ائت ما نصحت به غيرك، ولا تعني أنه لا يسع النصح للغير إذا كان لا يأخذ به.

(٣) في الحديث: تقرض شفاه الواعظ غير العامل به.

عن أنس مرفوعا: «رأيت ليلة أسري بي رجالا تقرض شفاههم بمقارض من نار، فقلت: مَن هؤلاء يا جبريل؟ فقال: الخطباء من أمتك يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون».(صحيح ابن حبان ٤٣/٢٤٩/١، قال الشيخ شعيب الأرنؤوط:الحديث صحيح)

(٤) عن أسامة...سمعته يقول: «يجاء بالرجل يو القيامة، فيُلقى في النار، فتندق أقتابه في النار، فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه، فيقولون: أي فلانُ، ما شأنك؟ أليس كنتَ تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنتُ آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر، وآتيه».(صحيح البخاري، رقم:٣٢٦٧)

موقف بعض الصلحاء:

أتِيَ بعض الصلحاء بطفل وقيل له: ادع الله تعالى له أن يترك أكل السكر الأحمر، فقال: ائتوني بي بعد أسبوع. ثم دعا له بذلك بعد أسبوع، فقيل له في ذلك، فقال: حين أتيتم به في المرة الأولى كنت معتادا لأكل السكر الأحمر، فأمسكت عنه أولا ثم دعوت له.

أبيات حول ذلك:

قال الشاعر:

يا أَيُّها الرَجُلُ المُعَلِّمُ غَيرَهُ ۞ هَلا لِنَفسِكَ كانَ ذا التَعليمُ
تَصِفُ الدَّواءَ لِذي السَّقامِ وَذي الضَّنا ۞ كيما يَصِحّ بِهِ وَأَنتَ سَقيمُ
وَأَراكَ تُلقِحُ بالرشادِ عُقولَنا ۞ نُصْحًا وَأَنتَ مِن الرَّشادِ عَديمُ
ابْدَأ بِنَفسِكَ فَانْهَها عَن غَيِّها ۞ فَإِذا اِنتَهَت عَنهُ فأنتَ حَكيمُ
فَهُناكَ يُقبَلُ ما تَقولُ وَيُقْتَدَي ۞ بِالقَولِ مِنْكَ وَينفَعُ التعليمُ
لا تَنهَ عَن خُلُقٍ وَتَأتِيَ مِثلَهُ ۞ عارٌ عَلَيكَ إِذا فعلتَ عَظيمُ

(٥) ورد في الحديث: مثل العالم الذي يعلم الناس الخير ولا يأتيه كمثل المصباح ينير للناس ويحترق.

قال جندب: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مثل العالم الذي يعلم الناس الخير وينسى نفسه كمثل السراج يضيء للناس ويُحَرق نفسه».(المعجم الكبير للطبراني، ١٦٨١/١٦٥/٢).

وعمل العلامة الخطيب البغدادي رسالة في هذا الموضوع سماها «اقتضاء العلم العمل»، سرد فيه نحو مئتي حديث.

لا يترك نصح الناس وإن لم يأته:

إن الإتيان بما يأمره به المرء غيره والانتهاء عما ينهى غيره من شروط الكمال، أي الأعلى والأفضل أن يفعل المرء ما يقوله، وحينئذ يكون لقوله تأثير في قلوب الناس، ولكن ليس عليه أن يمسك عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا لم يفعله. ورد هذا المعنى في الحديث النبوي.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قلنا: يارسول الله، لا نأمر بالمعروف حتى نعمل به كله، ولا ننهى عن المنكر حتى نجتنبه كله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بل مُروا بالمعروف وإن لم تعملوا به كله، وانهوا عن المنكر وإن لم تجتنبوه كله».(المعجم الأوسط للطبراني ٧/٣٢٩/٦٦٢٤).

من الأدلة العقلية عليه أن الانتهاء عن المنكر والعمل بالمعروف واجب من الواجبات، وأما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (بشروطهما) فواجب مستقل، فلا يترك أحد الواجبات إذا فاته شيء منها.

فائدة:

وجدنا في كافة النسخ «عُقُم» -بضم العين وضم القاف- والعُقُم: جمع عقيم، وهو صفة، وليس هذا المعنى مرادا هنا، فالأولى أن يكون (عُقَم) -بضم العين وفتح القاف- مصدرا.

وقيل: إن الثلاثي إذا كان الحرف الأول منه مضموما وثانيهما ساكنا، فإن كثيرا من العرب يضمون الثاني أيضا. نحو: عُسُر، زُحُم، حُلُم. فهو مصدر حينئذ.

البلاغة:

(١) هذا تشبيه ضِمنِيّ، الواعظ بلا عمل: مشبه، ونسبة الولد إلى من ليس له ولد: مشبه به.

(٢) الاستعارة مصرحة، العمل: مشبه، والولد: مشبه به. وجه الشبه: الانتفاع بهما.

****



اللغة:

أَمَرْتُكَ: أَمَرَ (ن) كلفه شيئا، **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ (النساء: ٥٨)

يقتضي الأمر في الغالب مفعولين، و يتعدى بالباء، وبدونها أحيانا.

قال عمرو بن معدي كرب:

أمرتُك الخيرَ فافعل ما أمرتُ به ۞ فَقَد تركتُكَ ذا مالٍ وذا نشَب

أمَرَ عليهم (ن، س) صار أميرا عليهم.

قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي ذر: «إني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تَأَمَّرَنَّ على اثنين». (صحيح مسلم، رقم:١٨٢٦)

فائدة:

دل الحديث على وجوب الحذر من الإمارة ما استطاع إليه سبيلا، هذا ما دفع كثيرا من كبار العلماء إلى اجتنابه، والصبر على ما لاقوه على ذلك، وأما من كان يرى نفسه أهلا لها، ويحكم بالعدل، فقد ورد له فضائل كثيرة في الأحاديث الصحيحة، منها:

«سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل...». (صحيح البخاري، رقم:٦٦٠)

«وإن المقسطين على منابر من نور». (صحيح مسلم، رقم:١٨٢٧) ونحوهما.

أَمِرَ الشيءُ أَمَرًا: نما. في حديث هرقل: «قال أبو سفيان: لقد أَمِرَ أمر ابن أبي كبشة». (صحيح البخاري، رقم :٧)

الأمر: طلب الأعلى من الأدنى على سبيل الاستعلاء، سواء كان أعلى في الحقيقة أم لا.

الدعاء: طلب الأدنى من الأعلى.

الالتماس: طلب المساوي من المساوي.

الخيرَ: الخيرُ: ما له عاقبة حميدة.

خارَ (ض) خيرًا وخِيارة: (١) صار ذا خير، (٢)نفع، (٣) غني.

خارَ فلانًا: فضله في الخير. خايره: باراه في الفضل.

خارَ (ض) خَيرا وخِيَرا وخِيرَة/ تَخَيَّرَ/ اختار: اصطفى. قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴾ (القلم: ٣٨)، وقَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴾ (طه: ١٣)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ (القصص: ٦٨)

وفي الحديث: «أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد أمرا قال: اللهم خِر لي واختَر لي».(سنن الترمذي، رقم :٣٥١٦)

خيَّرَه بين الشيئين: فوض إليه الاختيار بينهما. وفي الحديث: «إن عبدا خيَّرَه الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء وبين ما عنده، فاختار ما عنده».(صحيح البخاري، رقم:٣٩٠٤)

خَيَّرَ الشيء على غيره: فضله عليه.

(استخاره) طلب مِنْهُ الْخَيْر. وفي الحديث: «كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها». (صحيح البخاري، رقم ٦٣٩٢)

(الْخِيَار): (١) الاختيار، (٢) ضرب من الخرنوب من الفصيلة القرنية.

(الْخِيرَة): (١) مَا يخْتَار، (٢) الأفضل والأعلى من كل شيء.

(الْخِيرَة): (١) الاختيار. قَالَ تَعَالَىٰ:﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ (القصص: ٦٨)

(٢) المختار من الشيء. وفي الحديث: «عليك بالشام؛ فإنه خيرة الله من أرضه».(سنن أبي داود، رقم:٢٤٨٣)

استَقَمْتُ: قَامَ (ن) قَومًا وقِياما وقَومةً: (١) نهض. قَالَ تَعَالَىٰ:﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ (الجن: ١٩) (٢) توقف وهو سائر.

قامَ بالشيء: نهض بها. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ (آل عمران: ١٨)

أقامَ الشيء: (١) أبقاه، (٢) أداه بحقوقه كلها. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ (المائدة:٥٥)، (٣) قوَّمه وسوَّاه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾ (الكهف:٧٧) (٤) أزاله من مكانه، وفي الحديث: «لا يقيم الرجل الرجلَ من مجلسه ثم يجلس فيه».(صحيح البخاري، رقم:٦٢٦٩)

تقّوَّم: (١) اعتدل. (٢)سَعَّرها وثَمَّنها.

استقام الشيء: ثبت على قدمه. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ (هود: ١١٢)

الاستقامة حقيقة في تعديل الجسم وتسويته. ويطلق على تسوية الأخلاق والعادات مجازا.

(الْقَوْم): (١) الْجَمَاعَة من النَّاس تجمعهم جَامِعَة. (٢)جماعة الرجال خاصة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ (الحجرات: ١١)

وفي الحديث: «إن نَسَّاني الشيطان شيئا من صلاتي فليسبح القوم وليصفق النساء».(سنن أبي داود، رقم:٢١٧٤)

وقال زهير:

وَمَا أَدْرِي وسوف إخال أَدْرِي ۞ أقوم آل حصن أم نسَاء

(ديوان زهير بن أبي سلمى، ص ١٤)

ائتمرتُ: ائتمرَ: امتثل الأمر، يقال: أمرتُه فأتمر.

ائتمر القوم: (١) تشاوروا. (٢)أمر بعضهم بعضا. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ (الطلاق: ٦)

ورد في تفسير الآية ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾: «ائتمروا بالمعروف وانهوا عن المنكرحتى إذا رأيت شحًّا مطاعا...، فعليك بخاصة نفسك».(سنن الترمذي، رقم:٣٠٥٨)

ائتمر بالشيء: قصده. ائتمر بفلان: كاده. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ

لِيَقۡتُلُوكَ﴾ (القصص: ٢٠)

استأمر: (١) طلب منه المشورة. نزلت آية التخيير، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها: «فلا عليكِ أن لا تستعجلي حتى تستأمري أبويكِ».(صحيح البخاري، رقم:٤٧٨٥) (٢) كلفه.

الإعراب:

ما ائتمرتُ به، ما استقمتُ: ما نافية فيهما. وما في (فما قولي لك) استفهامية.

فما قولي: الاستفهام للتوبيخ والتعجب والإنكار. والمعنى: لا فائدة لقولي لك: استقم.

اعتراض: في الوجهين عطفَ الإنشاء على الخبر؟

الجواب: (١) أمرتُك: خبر ظاهرا، إلا أن المقصود منه التحسر والتأسف، أي آمر بالخير ولا أفعله. وهو إنشاء. فكان عطف الإنشاء على الإنشاء.

الجواب(٢) فما قولي: أصله: فما ينبغي أن أقول. فهو خبر، وهو من باب عطف الخبر على الخبر.

الشرح:

هذا البيت شرح ما قبله.

وعظ الواعظ غير العامل بوعظه لا يؤثر:

ما قولي لك استقم: (ما) للاستفهام الإنكاري، أي ليس وعظي نافعا؛ إذ لا ينفع الوعظ عادة إلا إذا عمل به الواعظ.

في الحديث: «لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يُسأل عن خمس:... وماذا عمل فيما علم». (سنن الترمذي، رقم:٢٤١٦)

يقول أبو عثمان الحيري:

وغيرُ تقِيٍّ يأمر الناس بالتقى ۞ طبيب يداوي والطبيب مريض

(شعب الإيمان للبيهقي ٥/٤٦٥، الباب:٤٧، فصل في محقرات الذنوب)

وما استقمتُ:

للاستقامة تعريفات، وأيسرها:

(١) دوامُ العلم والعمل. (٢) دوامُ الوفاء بالعهد. (٣) الثبات على الخير.

تعليم القرآن والسنة الاستقامةَ:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا ﴾ (يونس: ٨٩)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ ﴾ (فصلت: ٣٠)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ ﴾ (هود:١١٢)

عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ ﴾، قال: «قد قال الناس ثم كفر أكثرهم، فمن مات عليه فهو ممن استقام». (سنن الترمذي، رقم: ٣٢٥٠)

الاستقامة مطلوبة في العمل والعقيدة وفي كل خير. كما أنها مطلوبة في العمل والدعوة، كما قيل لموسى وهارون عليهما السلام: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱسۡتَقِيمَا﴾ (يونس: ٨٩)

قال ابن القيم: «الاستقامة تتعلق بالأقوال والأفعال، والأحوال والنيات، فالاستقامة فيها: وقوعها لله، بالله، وعلى أمر الله». (مدارج السالكين٢/١١٠).

كان النبي صلى الله عليه وسلم يداوم عليها:

في الحديث عن عائشة رضي الله عنها: «ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يزيد في رمضان ولا في غيره على إحدى عشرة ركعة». (صحيح البخاري، رقم:١١٤٧)

وفي الحديث عن أنس: «كان لا تشاء أن تراه من الليل مصليا إلا رأيته، ولا نائما إلا رأيته». (صحيح البخاري، رقم:١١٤١)

على المرء أن يضع لأوقاته برنامجا محددا، يأخذ به، كما يجب التقيد بالأعمال الفردية التي يقوم به المرء على أوقاتها المحددة لها، إلا أنه يجب عدم اعتبار تحديد الأوقات من الدين.

ورد في الأحاديث: «كان إذا أوى إلى منْزله جزَّأ نفسه ثلاثة أجزاء: جزء لله، وجزء لأهله، وجزء لنفسه، ثم جزَّأ جُزءه بينه وبين الناس». (مجمع الزوائد ٨/٢٧٤)

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « أحب الأعمال إلى الله أدومها، وإن قل». قال: وكانت عائشة إذا عملت العمل لزمته. (صحيح

مسلم، رقم:٧٨٣)

وفي الحديث: «وأحب الصلاة إلى النبي صلى الله ما ديم عليه، وإن قلت، وكان إذا صلى صلاة داوم عليها». (صحيح البخاري، رقم:١٩٧٠)

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لسفيان بن عبد الله الثقفي: «قُل: آمنت بالله فاستقم».(صحيح مسلم، رقم:٣٨)

وفي الحديث: «شيبتني هود والواقعات».(سنن الترمذي، رقم:٣٢٩٧)

عن أبي علي السري: «رأيت النبي صلى الله عليه وسلم، فقلت: يا رسول الله، رُوي عنك أنك قلتَ: شيبتني هود؟ قال: نعم، فقلت: ما الذي شيبك، قصص الأنبياء وهلاك الأمم؟ قال:لا، ولكن قوله: فاستقم كما أمرت».(شعب الإيمان للبيهقي، رقم:٢٢١٥)

أقوال السلف في الاستقامة:

قال عمر: «الاستقامة أن تستقيم على الأمر والنهي، ولا تروغ روغان الثعلب». (تفسير البغوي ٤٠٤/٢، سورة هود)

قال (أبو علي) الدقاق: «كن طالب الاستقامة، لا طالب الكرامة، فإن نفسك تطلب منك الكرامة، وربك يطلب منك الاستقامة». قال السهروردي: «وهذا أصل كبير غفل عنه كثيرون».(فيض القدير ٦٣٤/١).

قيل لبعض الأولياء: فلانٌ يمشي على الماء، فقال: وكذلك الضفدع والسمك. ثم قيل: فلان يطير في الهواء. فقال: وكذلك الذباب. ثم قيل: فلان يذهب من المشرق إلى المغرب في ساعة. فقال: كذلك الشيطان. فقيل له: ما للقبول عندك؟ قال: الاستقامة في الدين.

قلت: وقريب من هذا ما ذكره أبو القاسم القشيري (المتوفى سنة ٤٩٥هـ) في باب الولي من كتابه الشهير «الرسالة القشيرية».

قصة استقامة سعيد بن عامر رضي الله عنه:

نصب عمر رضي الله عنه سعيد بن عامر عاملا على حمص، وكان أهل حمص مشهورين بالشكوى ضد عمالهم، وذات مرة زار عمر حمص فسألها عن سعيد، فقالوا:

نشكو أربعا:

(١) لا يخرج إلينا حتى يتعالى النهار.

(٢) لا يجيب أحدا بليل.

(٣) له يوم في الشهر لا يخرج فيه إلينا.

(٤) يغنظ الغنظة بين الأيام أي تأخذه موتة.

فجمع عمر بينهم وبينه، وقال له: إنهم يشكونك:

(١) تبطئ عليهم؟ فقال سعبد: ليس لي خادم فأخدم نفسي بنفسي.

(٢) لا تجيب أحدا بليل؟ قال: جعلت النهار لهم وجعلت الليل لله عز وجل.

(٣) لك يوم في الشهر لا تخرج فيه إليهم؟ قال: ليس لي ثياب أبدلها، فأجلس حتى تجف ثم أخرج إليهم.

(٤) تغنظ الغنظة بين الأيام؟ قال: شهدت مصرع خبيب الأنصاري بمكة، وتركت نصرته في تلك الحال وأنا مشرك لا أؤمن بالله العظيم فلا أذكر ذلك إلا أصابتني تلك الغنظة، فحمد عمر الله تعالى، وقال: الحمد لله الذي لم يفيل فراستي. (صفة الصفوة لابن الجوزي١/٦٦٥-٦٦٦، ومن الطبقة الثالثة من المهاجرين والأنصار، ممن شهد الخندق وما بعدها. وتاريخ مدينة دمشق٢١/١٦١-١٦٢، ذكر من اسمه سعيد، سعيد بن عامر بن حذيم)

فإن قيل: قال: أمرتك الخير، و لم يقل: نهيتُك عن الشر؟

قلنا: (١) الأمر بالخير يتضمن النهي عن الشر. مثل: لا تجلس: أي قم، أو لا تنم: أي استيقظ.

فالأمر فيه مصرح والنهي عرض.

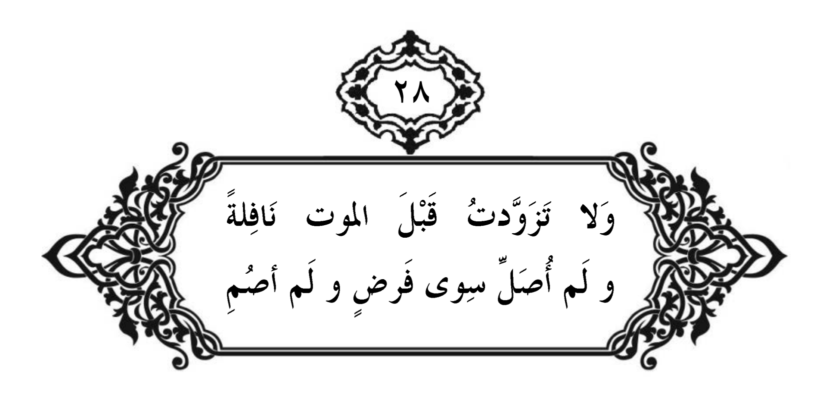
(٢) المراد بالأمر الطلب، وهو يعم طلب الفعل وطلب الكف.

سؤال: قال: ما قولي لك استقم، و لم يرد ذكر الاستقامة في الماضي؟

الجواب: مراقبة النفس، وتعويدها الأعمال الصالحة، والاعتدال في الأعمال كل ذلك يتضمن الأمر بالاستقامة عرضا.

للاستزادة من الاستقامة يرجع إلى الآيات الدالة على الاستقامة في كتب التفاسير. وهذه الكتب من أهم مواد التصوف. (راجع: الرسالة القشيرية، ص ٣٢٦، باب الاستقامة؛ مدارج السالكين ٢/١٠٦-١٠٨، منْزلة الاستقامة؛ نتائج الأفكار في بيان معاني شرح الرسالة القشيرية لشيخ الإسلام زكريا بن محمد الأنصاري)

****



اللغة:

تَزَوَّدتُ: زاد (ن) زَودًا: اتخذ زادا للسفر.

أزادَ/ زَوَّدَ: هيأ له الزاد، في الحديث: «جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، إني أريد سفرا فزوِّدني. قال: »زَوَّدَك الله التقوى».(سنن الترمذي، رقم:٣٤٤٤)

زَوَّده بكذا: هيأه له. تزَوَّدَ: اتخذ زادا. قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ (البقرة: ١٩٧)

(المزود): وعَاء الزَّاد،كيس المسافر في سفره (ج) مزاود. وفي رحلة الحديبية أصاب الصحابة جوع شديد، فأمر بجمع الأزواد. في الحديث: «خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم...، فجمعنا مزاودنا، نحن أربع عشرة مئة».(صحيح مسلم، رقم:١٧٢٩)

الزاد: طعام يتخذ للسفر، ويطلق على الأعمال الصالحة.

ورد في الروث والعظم: «لا تستنجوا بالروث ولا بالعظام؛ فإنها زاد إخوانكم من الجن».(سنن الترمذي، رقم:١٨)

الموت: مَاتَ يموتُ (ن)، ماتَ يَماتُ (س): فارقته الحياة. قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ (الفرقان: ٥٨)

مات الشيءُ: برد. ماتتِ الأرض: خلت من السكان. قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ (الروم: ١٩)

في الحديث: «من أحيا أرضا مواتا فهو أحق به».(سنن أبي داود، رقم:٣٠٧٦)

أمات فلانا: قضى عليه، ضيعه. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ (البقرة: ٢٥٨)

في الحديث: «يا أبا ذر، إنه سيكون بعدي أمراء يميتون الصلاة، فصل الصلاة لوقتها». (صحيح مسلم، رقم:٦٤٨)

أمات غضبَه: سكّنَه، وأمات فلانٌ: مات ولده.

تماوَتَ: أظهر من نفسه الضعف والكسل. ورد في الصحابة الكرام: « لم يكن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم متحزقين ولا متماوتين».(مصنف ابن أبي شيبة ٢٦٥٨/٣٠٦/١٣) أي لم يكونوا بخلاء ولا مظهرين الضعف والكسل.

استمات: طَابَ نفسا بِالْمَوْتِ فِي طلب الشَّيْء.

قال عتبة بن ربيعة يوم بدر في الصحابة رضي الله عنه وهو يخاطب كفار مكة: «إني أرى قوما مستميتين».(مسند أحمد، رقم:٩٤٨)

الموت: (١) الفناء، والانتهاء، (٢) السفه، (٣) عدم الإيمان، (٤) المثبطات. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ﴾ (إبراهيم: ١٧)

الفرق بين المَيِّتِ والمَيْتِ؟:

المَيِّت: من أشرف على الموت، والمَيْت: من طرأ عليه الموت. قال الشاعر:

أيا سائلي تفسير ميْت ومَيِّت ۞ فدونك قد فسرت ما عنه تسألُ

فمن كا ذا روح فذلك ميِّت ۞ وما الميْتُ إلا مَن إلى القبر يحمل

(تاج العروس ١٠٠/٥، موت)

نافِلَةً: نَفَلَ (ن) الرجلُ نَفْلا: حلفَ. قال النبي صلى الله عليه وسلم حين قُتِل عبد الله بن سهل لأوليائه: «أترضون نفلَ خمسين من اليهود ما قتلوه؟ فقالوا: ما يبالون أن يقتلونا أجمعين ثم ينتفلون». (صحيح البخاري، رقم:٦٨٩٩)

نَفَلَ/ نَفَّلَ فلانا: أعطاه نافلة من المعروف، ورد في المساهمين في سرية نجد: «نُفِّلوا بعيرا بعيرا».(صحيح البخاري، رقم:٣١٣٤)

تنَفَّلَ: المصلي: صلى النوافل، نَفَّلَ: صلى بهم نافلة. قال الصحابة لرسول الله صلى

الله عليه وسلم في رمضان: «لو نَفَّلتنا بقية ليلتنا».(سنن الترمذي، رقم:٨٠٦)

نَفَّل عنه: دافع عنه. انتقل من الأمر: تبرأ منه. «إن رجلا لاعن امرأته في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم، وانتفل من ولدها». (موطأ مالك، رقم:٢٠٩٣)

النافلة: (١) ما زاد. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ (الأنبياء: ٧٢) طلب يعقوب ابنا، فنال ابنا وحفيدا. فكان نافلة.

ورد فيمن يتوضأ على السنة: «كانت صلاته ومشيه إلى المسجد نافلة».(صحيح مسلم، رقم :٢٢٩)

(النَّفْل) (١) الْغَنيمَة. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ (الأنفال: ١)

(٢) الْهِبَة (ج) أنفال. وفي الحديث: «لا نَفْلَ إلا بعدَ الخمس».(سنن أبي داود، رقم:٢٧٥٣)

(٣) جنس أعشاب ذات رائحة طيبة.

النُّفَلُ: الليلة الرابعة أو الخامسة أو السادسة بالتوقيت القمري.

لم أصَلِّ: صلَّى الفرسُ في السباق: جاءَ مُصَليا وَهُوَ الثَّاني في السباق.

صلى عليه: دعا له، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ (التوبة: ١٠٣)، و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ﴾ (الأحزاب: ٤٣)، وفي الحديث: «اللهم صلِّ على آل أبي أوفى». (صحيح البخاري، رقم:١٤٩٧)

صلى صلاة: أقام الصلاة. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ (الأعلى: ١٥)

صلى بالناس: أقام الصلاة بهم. صلى عليه: أقام عليه صلاة الجنازة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ (التوبة: ٨٤)

الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم: الرحمة الخاصة عليه مع الثناء الحسن له في العالم العلوي. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ (الأحزاب: ٥٦)

الصلاة: (١) الدعاء والتسبيح، في الحديث: «إذا دُعيَ أحدُكم فليُجبْ؛ فإن كان صائما فليُصَلِّ». (صحيح مسلم، رقم:١٤٣١) (٢) العبادة المخصوصة المبينة حُدُود أوقاتها في الشَّريعة. (٣) الرحمة. (٤) معابد اليهود، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ﴾ (الحج: ٤٠)

المصلِّي: الفرس الذي جاء مصليا أي ثانيا في السباق.

صلَى (ض) صَلْيًا: ألقاه في النار/ استدفأ بها.

قال حذيفة يوم الخندق وقد خرج لمعرفة أوضاع القوم: «فرأيت أبا سفيان يصلي ظهره بالنار». (صحيح مسلم، رقم:١٧٨٨)

صلِيَ (س) النارَ وبها، وصَلَى وصِلِيًّا: ألقاه في النار. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ (المسد: ٣) وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ (مريم: ٧٠)، صَلِيَ الأمرَ: ذاق المر في أمر.

صَلّاه النارَ تصليةً/ أصلاه النارَ: ألقاه فيها، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ (النساء:٣٠)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ (الحاقة: ٣١)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ (الواقعة:٩٤)

عن أبي هريرة أنه مرَّ بقوم بين أيديهم شاة مصلِيَّةٌ. (صحيح البخاري، رقم:٥٤١٤)

اصطلى: استدفأ بها. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ (القصص: ٢٩)

فرض: فَرَضَ (ن) فُرُوضًا: وسع.

فرَضَ (ض) الأمر فَرْضا: أوجبه.

في حديث المعراج: «فرَضَ خمسينَ صلاة».(صحيح البخاري، رقم:٣٤٩)

معاني الفرض المختلفة:

«فَرَضَ» له عدة معانٍ في اللغة:

(١) التقدير: كقوله تَعَالَىٰ: ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ (البقرة: ٢٣٧)، أي قدَّرتم.

(٢) القطع: كقوله تَعَالَىٰ: ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ (النساء: ٧)

(٣) ما يعطى من غير عوض، كقول العرب: «ما أصبتُ منه فرضا ولا قرضا».

(٤) الإنزال: كقوله تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ (القصص: ٨٥)

(٥) التبيين، كقوله قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ (التحريم: ٢)

(٦) الإحلال: كقوله تَعَالَىٰ: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾ (الأحزاب: ٣٨)، أي أحَلَّ له. (ينظر: مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج ٤/٤، كتاب الفرائض؛ تهذيب الأسماء واللغات للنووي، ص:١٣١٦؛ حاشية السراجي في الفرائض، للشيخ محمد نظام الدين الكيرانوي، ص:٢).

فَرُضَ: (ك) الحيوانُ فَراضة: أسنَّ. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ ﴾ (البقرة: ٦٨)

أفرَضَ: جعل فريضة. أفرَضَ المال: وجب فيه الزكاة.

افترضَ: اتخذ فرضا. افترض الشيءَ: لزمه. وفي الحديث: «ما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه». (صحيح البخاري، رقم:٦٥٠٢)

الفَرْضُ: (١) الحز في العود وغيره، ج: فراض وفروض. (٢) مَا أوجبه الله عز وَجل على عباده، ج: فرائض. (٣) فكرة يُؤْخَذ بهَا. (٤) العطية المرسومة. (٥) السهم قبل أن يعمل فيه الريش. ج: فروضٌ.

علم الفرائض: علم تعرف به قسمة المواريث الشرعية على مستحقيها.

أَصُمِ: صَام (ن) صَومًا وصِيامًا (١) أمسك عَن الطَّعام والشراب من طُلوع الفجْر إلى غروب الشَّمس مع النيَّة/ صمت. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا ﴾ (مريم:٢٦)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ (البقرة: ١٨٤) (٢) ركد، صام الماء: ركد.

صَوَّمَ: جعله يصوم. تقول الربيع بنت معوذ في صوم عاشوراء: «فكنا نصومه بعد، ونصوِّم صِبيانَنا». (صحيح البخاري، رقم: ١٩٦٠)

قال أبو عبيدة: «كل ممسك عن طعام أو كلام أو سير هو صائم».(تاج العروس٣٢/٥٢٩)

الشرح:

دل البيت على ما دل عليه البيت السابق.

«سوى فرض»: المراد به الفرض مع ما يكمله،أي يعم السنن.

سؤال: ما سبب تخصيص الصلاة والصوم بالنهي بعد نفي النوافل من الأعمال؟

الجواب: (١) المبالغة والتاكيد في النفي. والصلاة أهم العبادات، والصوم له فضائل عدة، فإذا لم يقم بهاتين العبادتين، فلا تسأل عما سواهما. (٢)هاتان عبادتان بدنيتان. لا تطلبان مالا، رغم ذلك لم أقم بهما.

حقيقة الموت:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ (الملك: ٢)

سؤال: الخلق إيجاد، والموت عدم، فكيف تعلق الخلق بالموت الذي هو عدم ؟

الجواب: (١) الموت وجودي، وبينه وبين الحياة تقابل تضاد. ولذا يؤتى بالموت في الآخرة في صورة كبش، ويذبح. في صحيح مسلم: «يُجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار...، فيؤمر به فيُذبحُ».(صحيح مسلم، رقم:٢٨٤٩)

ولذا قيل في تعريفه: هو للمؤمن: «الانتقال من دار الغرور إلى دار السرور»، وللكافر: «الانتقال من دار الأفراح إلى دار الأتراح».أو يقال في تعريفه: «مفارقة الروح البدنَ».

الجواب(٢): الموت عدم، وخلق بمعنى قدَّرَ. والتقدير يتعلق بالوجودي والعدمي كليهما.

الجواب(٣): المراد بالموت النطفة، التي انتقلت من ظهر الأب إلى رحم الأم، وتعلق بها الخلق.

الجواب(٤): الموت والحياة بينهما نسبة العدم والملكة. أي الموت: عدم الحياة ما من شأنه الحياة، مثل العمى والبصر. أي: العمى: عدم البصر ما من شأنه البصر. والعدم الذي له شأن الوجود يتعلق بالخلق.

ضابط التقابل: ما لا يجتمعان من حيثية واحدة.

أقسام التقابل:

التقابل له أربعة أقسام: (١) التضاد، (٢) التضايف، (٣) العدم والملكة، (٤)الإيجاب والسلب.

(١) تقابل التضاد: كون الشيئين الوجوديين غير مجتمعين: كالسواد والبياض.

(٢) تقابل التضايف: كون الشيئين الوجوديين غير مجتمعين، ولكن يتوقف تصور أحدهما على تصور الآخر كالأبوة والبنوة؛ فإن الابن: من له الأب، والأب: من له الابن.

(٣) تقابل العدم والملكة: كون الشيئين بحيث يكون أحدهما عدمي، والآخر وجودي، ولكن العدمي يصلح للاتصاف بالوجود، كالعمى والبصر؛ فإن العمى عدم البصر عما من شأنه أن يكون بصيرا؛ فلا يطلق الأعمى على الحجر.

(٤) تقابل الإيجاب والسلب: كون النسبتين متقابلتين بحيث يكون إحداهما إيجابية والأخرى سلبية مثل: زيد إنسان وزيد ليس بإنسان.(دستور العلماء في اصطلاح الفنون ٢٣٠/١)

ما سبب تسمية الصلاة صلاة؟

(١) الصلاة بمعنى الدعاء، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ (التوبة: ١٠٣) والصلاة تتضمن الدعاء.

(٢) لتحريك الصلوين؛ فإن الصلاة تحتوي عليه.

(٣) المصلي هو الفرس الثاني في السباق، والمجلي: الفرس الأول في السباق، والصلاة مع الجماعة أصل، فالإمام مصلٍّ، والموتم مجلٍّ.

عمل العلامة يوسف البنوري رحمه الله كتابا في الرد على العلامة المشرقي سماه «قُبلة المصلي في قِبلَة المصلي». عُرِضت مسودة الكتاب على الشيخ أشرف علي التهانوي رحمه الله، فقال: من ذا يفهم معنى هذه التسمية؟ فاقترح تسميته «بغية الأريب في مسألة القبلة والمحاريب». والكتاب مطبوع.

(٤) صَلِيَ: احترق وتلين بالنار: النار تعين على تليين الأشياء، وكذلك الصلاة تلين قلب البشر، وكما أن العصا المعوجة تستقيم إذا ألقيت في النار، والمستقيمة تعوَجُّ، كذلك الصلاة تحتوي على تسوية الاعجاج الروحي، وفي الركوع والسجود تعويج السديد.

الفرض شرعا:

الفرض: لغة: التقدير، والفرض الاصطلاحي له معنيان:

(١) الفرض عقيدة وعملا: ما ثبت بدليل لا شبهة فيه. (٢) الفرض عملا: ما يفسُد العمل بتركه.

مثاله: مسح ربع الرأس عند الأحناف فرض ،ولا يعني أن من أنكره قد كفر. وإنما المعنى أن الذي لا يمسح ربع الرأس لم يصح وضوؤه عند الأحناف. وكذلك يرى الإمام الشافعي مسح ثلاث شعرات أو شعرة واحدة فرضًا، ولا يعني ذلك أن من لم يقل به كان كافرا؛ بل المعنى: لم يصح وضوؤه إذا لم يمسح على قدر ثلاث شعرات.

المناسبة بين المعنى اللغوي والمعنى الشرعي للفرض:

(١) الفرض لغة: التقدير. والفرض مقدر من جانب الشرع. و بما أن الفرض محدد فلا يجوز للمرء الزيادة عليه أو النقص منه من عند نفسه. والنفل غير محدد، فيجوز له أن يأتيه ما شاء.

(٢) الفرض لغة: القطع. والقطع يكون بعد التعيين. فمثلا تريد قطع قدمين من الخشب، فإنه يتم تعيينه أولا من كذا إلى كذا ثم يقطع. كذلك العمل الفرض متعين، ومقطوع عن النوافل وغيرها.

الصوم لغة: الإمساك.

اصطلاحا: (١) ترك المفطرات الثلاثة نهارا مع النية. (٢) ترك الأطيبين ما بين الخيطين من غير استمناء واستقاء.

فضائل النوافل:

(١) في الحديث: «وما زال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه».(صحيح البخاري، رقم:٦٥٠٢)

(٢) في الحديث: «فإن انتقص من فريضته شيء، قال الرب عز وجل: انظروا هل لعبدي من تطوع؟ فيكمل بها ما انتقص من الفريضة».(سنن الترمذي، رقم:٤١٣)

(٣) في الحديث: «ما أذِن الله لعبد في شيء أفضل من ركعتين يصليهما».(سنن الترمذي، رقم:٢٩١١)

(٤) في الحديث: «فضل صلاة الرجل في بيته على صلاته حيث يراه الناس كفضل المكتوبة على النافلة».(المعجم الكبير ٧٣٢٢/٤٦/٨)

الاستعداد للموت:

«تزودت قبل الموت»: فيه إشارة إلى الاستعداد للموت.

(١) في الحديث: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل».(صحيح البخاري، رقم:٦٤١٦)

وفي رواية: «عد نفسك من أصحاب القبور».(سنن الترمذي، رقم:٢٣٣٣)

(٢) في الحديث: «اغتنم خمسا قبل خمس: شبابك قبل هرَمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك».(المستدرك للحاكم ٧٨٤٦/٣٧٦/٤)

البلاغة:

(١) الاستعارة مصرحة تبعية.

العبادات: مشبه، الزاد: مشبه به، وجه الشبه: العبادات وسيلة الآخرة، كما أن الزاد وسيلة السفر. أطلق المشبه به وأريد المشبه، فكانت الاستعارة مصرحة. «زاد»: اشتق منه فعل: تزودتُ، فكانت الاستعارة تبعية.

(٢) الاستعارة مكنية تخييلية. والموت: مشبه، وسفر إلى المقصود: مشبه به.

حذِف المشبه به، فكانت الاستعارة مكنية. ذكر لازم المشبه به وهو زاد السفر، فكانت تخييلية.

انتهى ولله الحمد أولا وآخرا.

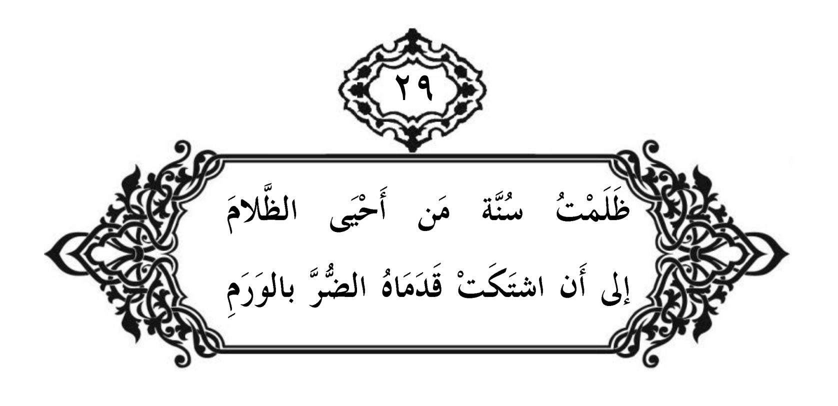
تم الفصل الثاني بعون الله تعالى وتوفيقه.

****

الفصل الثالث

في مدح رسول الله ﷺ





اللغة:

ظَلَمْتُ: ظَلَمَ (ض) ظُلْمًا، ومَظلِمَة: جار، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ﴾ (النساء: ٤٠)

وفي الحديث: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسلمه». (صحيح البخاري، رقم:٢٤٤٢)

ظَلَمَ الطريقَ: حاد عنه. ظَلِمَ (س) الليل ظَلْمًا/ أَظْلَمَ الليلُ: اسود. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ﴾ (يس: ٣٧)

وفي الحديث: «أن رجلين خرجا من عند النبي صلى الله عليه وسلم في ليلة مظلمة». (صحيح البخاري، رقم:٣٨٠٥)

أظْلَمَ البيتَ: جعله مظلمًا، ظُلمَة: ذهاب النور. ج: ظُلَمٌ، وظُلُمات. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ (الرعد: ١٦)

ظَالَمَ مُظَالَمَة: ظلم، تظالَمَ: ظلم بعضهم بعضا. ظَلَّمَ: نسبه إلى الظلم.

الظَّلام: ذهاب النور، والظِّلام: النظر الشزر. يقال: نظر إليه ظِلامًا.

سنَّةٌ: سَنَّ (ن) السكينَ سَنًّا: أحدَّه. سَنَّ الطريقَ/ تسننَ الرجلُ: اتخذ طريقا، ورد في قابيل: «لأنه أول من سنَّ القتل». (صحيح البخاري، رقم:٣٣٣٥)

سَنَّ سُنَّةً: اخترع طريقا. يقول علي رضي الله عنه في حد شرب الخمر: «...أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يَسُنَّه». (صحيح البخاري، رقم:٦٧٧٨)

أَسَنَّ: (١) نبتت سنه، (٢) كبرت سنه. سَنَّنَ الكلامَ: حَسَّنَه وهذَّبه.

استَنَّ: استاك. السِّنُّ: (١) قِطْعَة من الْعظم تنْبت في الفك، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ﴾ (المائدة: ٤٥) (٢) من الشَّيْء كل جُزْء مسنن محدد على هيئتها مثل سنّ الْمشْط.

وفي الحديث: «الناس سواء كأسنان المشط، وإنما يتفاضلون بالعافية».(كنْز العمال، رقم:٢٤٨٢٣) (٣) الحد، (٤) العمر، (٥) الترب، ج: أسنان.

(السّنَن) الطَّرِيقَة والمثال. السنة: الطريقة الخاصة. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ (الفتح: ٢٣)

وفي الحديث: «فكانت سنة للمتلاعنين».(صحيح البخاري، رقم:٥٣٠٨)، (٢) السيرة، (٣)الفطرة، (٤) الوجه والصُّورَة، (٥) الطريقة المسلوكة في الدين، ج: سُنَنٌ. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ (آل عمران: ١٣٧)

أحيى: حَيِيَ (س) حياةً وحَيَوَانًا: كان ذا نماء، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ (طه: ٧٤)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ (العنكبوت: ٦٤)

حَيِيَ من الرجل: احتشم منه، أحيا القومُ: أخصبوا / حسنت حالهم.

أحيى الأرض: اخضرت الأرض، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ (فاطر: ٩)

أحيى الليلَ: اللَّيْل ترك النّوم فِيهِ وَصَرفه فِي الْعِبَادَة.

حَيَّاه الله (١) أبقاه. (٢)كتب الله له الحياة (جملة دعائية).

حيَّاه تحية: سلم عليه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾ (النساء: ٨٦)

تحايا القوم: سلم بعضهم على بعض/ قال له: «حيّاك الله»، استحيا الأسير: تركه حيا فلم يقتله.

استحياه واستحيى منه: احتشم منه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ﴾ (الأحزاب: ٥٣)

وفي الحديث: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستحي فاصنع ما شئت». (صحيح البخاري، رقم:٦١٢٠)

قال الشاعر:

يَعيشُ المَرءُ ما استَحيا بخَيرٍ ۞ وَيَبقى العودُ ما بَقِيَ اللِحاءُ
فَلا وَاللهِ ما في العَيشِ خَيرٌ ۞ وَلا الدُنيا إِذا ذَهَبَ الحَياءُ
إِذا لَم تَخشَ عاقِبَةَ اللَيالي ۞ وَلَم تَستَحيِ فَافعَل ما تَشاءُ

(ديوان أبي تمام، ص٧٥٦)

الحياء: النضرة، المطر.

اشتَكَت: شكا (ن) شَكوا وشكوى وشَكَاةً: أخبر بإساءته إليه/ أبدى همه متوجعا.

قال النبي صلى الله عليه وسلم وهو يخاطب النساء: «إنكن تكثرن الشكاة».(صحيح مسلم، رقم:٨٨٥)

أشكى فلانا: أزال سبب شكواه، وفي الحديث: «شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة في الرمضاء فلم يُشكنا».(صحيح مسلم، رقم:٦١٩)

شكا إلى الله: أبدى همه/ ذكر حاله، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ (يوسف: ٨٦)

اشتكى: تألم، ورد في علي رضي الله يوم خيبر: «فقال: أين علي بن أبي طالب؟ فقيل: هو يا رسول الله يشتكي عينيه».(صحيح البخاري، رقم:٤٢١٠)

اشتكى إليه: لجأ إليه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ (المجادلة: ١)

وفي الحديث: «واشتكت النار إلى ربها».(صحيح البخاري، رقم:٥٣٩)

شاكي السلاح: (١) المسلَّحُ، (٢)كامل الاستعداد.

قَدَماه: القدم: مَا يطَأ الأَرْض من رجل الإنسان.

قَدِمَ: (س) قُدُوما، ومقدمًا: أقبل، وتقدم. في الحديث: «قدِمَ علي رضي الله عنه على النبي صلى الله عليه وسلم من اليمن».(صحيح البخاري، رقم:١٥٥٨)

قدِمَ إلى الشيء قُدوما: أقبل عليه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٍ﴾ (الفرقان:٢٣)

قَدُمَ (ك) قِدْمًا، وقَدَامَةً: ضد حدث، القديم: ضد الحديث، ج: قدماء. قديمة: ج: قَدائم.

قَدَمَ (ن) قَدْمًا: شجع، قَدَمَ القومَ: تقدمهم. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ (هود: ٩٨)

تَقَدَّمَ: صار قداما. أقدم على العمل: أسْرع في إنجازه بِدُونِ توقف.

قَدَّمَ الشيءَ: جعله قداما وَالشَّيْء إِلى غَيره قربه مِنْهُ. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾)الحشر: ١٨)

وفي الأدعية المأثورة: «أنت المقدم وأنت المؤخر».(صحيح البخاري،رقم:١١٢٠)

قال النبي صلى الله عليه وسلم ويدفن شهداء أحد: «قَدِّموا أكثرهم قرآنا».(سنن الترمذي، رقم:١٧١٣)

قَدَّم الكتاب: عمِل له مقدمة. تقادمَ: قدم. استقدم فلانا: طلبه.

استقدم القومَ: تقدمهم، وفاقهم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (النحل: ٦١)

الضُّرُّ: ضَرَّه وبه (ن) ضَرًّا وضَرَرًا: آلمه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ (يونس: ١٠٦)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ (الجن: ٢١)

وفي الأدعية المأثورة: «بسم الله الذي لايضر مع اسمه شيء».(سنن الترمذي، رقم:٣٣٨٨)

ضَرَّ بصرُه: عمي، أضَرَّ الرجلُ: تزوج على الزوجة الأولى. أضَرَّ فلانا: أكرهه.

ضارَّه مُضَارَّةً وضِرَارًا: (١) ضَرَّه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ (البقرة:٢٨٢) (٢) خالفه.

اضطرَّ: أكرهه، دفعه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ (البقرة:١٧٣)

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ﴾ (البقرة: ١٢٦)

وفي الحديث: «هل تضارون في رؤية الشمس إذا كانت صحوا».(صحيح البخاري، رقم:٧٤٣٩)

الضُرُّ: (١) الضرر، (٢) سوء الحال، (٣) الألم الجسدي، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾ (الأنبياء: ٨٣)

الضَّرَرُ: (١) الضيق، (٢) مرض يمنع من الجهاد ونحوه. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ (النساء: ٩٥)

بالورَمِ: وَرِمَ (س) وَرَمًا: انتفخ، وفي الحديث: «رُمِيَ سعد بن معاذ في أكحله، قال: فحسمه النبي صلى الله عليه وسلم بيده بمشقص ثم ورِمت فحسمه الثانية».(صحيح مسلم،رقم:٢٢٠٨)

وَرِمَ أنفه: غضب، أورَمَ فلانًا: أسمعه ما يغضب له. تورَّمَ: انتفخ، وفي الحديث: «قام النبي صلى الله عليه وسلم حتى تورَّمت قدماه».(صحيح البخاري، رقم:٤٨٣٦)

الإعراب:

إلى أن اشتكت: (أن) مصدرية، والمعنى: إلى اشتكاء قدميه بالورم.

مَنْ: اسم موصول، صلته: أحيى الظلام.

مِنْ وَرَم: (١) حال من (الضر). (٢) بيان لـــ (الضر).

الشرح:

يبدأ هدف قصيدة البردة من الفصل الثالث في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم، والفصل السابق توطئة وتمهيد له.

ظلمت سنة: أي: تركتُ. فالمراد بالظلم معناه المجازي وهو الترك؛ لأن أصل الظلم يدل على مفارقة الشيء مكانه الأصل.

مَنْ أحيى: أبهمَ (مَن)، والقصد من هذا الإبهام الإشارة إلى التعظيم ورفع الشأن، فإنه ترك سنة النبي الكبير الشأن، والذي له فضائل ومناقب جمة.

ورد الإبهام للتعظيم في غير موضع من الكتاب والسنة، كما في قوله تَعَالَىٰ: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ (النجم:١٠)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ (النجم: ١٦)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ السجدة: ١٧

وفي الحديث: «لو يعلم المار بين يدي المصلي ماذا عليه لكان أن يقف أربعين». (صحيح البخاري، رقم:٥١٠)

وفي حديث آخر: «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين».(صحيح البخاري، رقم:٧١)

قال أبو نواس:

وَلَقَدْ نَهَزْتُ مع الغُواة بِدَلوهِم ۞ وأَسَمْتُ سرحَ اللَّحْظ حَيثُ أَسَامُوا

وَبَلَغْتُ مَا بَلَغَ امرؤٌ بِشَبَابه ۞ فَإذَا عُصَارَةُ كُلِّ ذَاكَ أَثَام

(طبقات الشعراء١/٦٣)

ففي قوله: ما بلغ امرؤ: مبالغة خفية.

أحيى الظلامَ: أي ترك نوم الظلام للعبادة. الظلام: ذهاب النور، والمراد الليل.

أحيى الظلامَ: إنما قال ذلك لأن العبادة كما تنير وجه العابد، كذلك تؤثر في الزمان.

اشتكت قدماه: المراد به المجاز، أي: دلت قدماه على الكلفة، والضُر أظهرت الشكوى.

كما في قول الشاعر:

شكوتُ وما الشكوى لمثلي عادة ۞ ولكن تفيض الكأس عند امتلائها

(العقد الفريد٢/٢٠٣؛ نهاية الأرب في فنون الأدب٦/٧٩)

إلى أن اشتكت: (إلى) لبيان الثمرة والنتيجة، وليست لانتهاء الغاية، أي هذه ثمرة العبادة ونتيجتها حيث إن إطالة الركعات تسببت في تورم الأقدام. ولا يعني أن العبادة غايتها التورم، فلما تورمت ترك العبادة.

شرح كلمة الظلم:

(١) وضع الشيء في غير محله، أي استعمال العين واللسان واليد والرجل وغيرها من أعضاء البدن في غير ما وضعت له يعد ظلما.

(٢) تجاوز الحق إلى الباطل، كما في قوله تَعَالَىٰ:﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ ﴾ (النساء: ٦٤)

(٣) الضرر، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ (النساء: ٤٩).

(٤) النقص مع الضرر، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ﴾ (الكهف: ٣٣)،وقال: قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا ﴾ (الأعراف: ٢٣) أي نقصنا من نعم أنفسنا، حيث لا تتوفر هنا النعم التي تتوفر في الجنة. والضرر يستمر إذا لم تغفر لنا،

وندخل الجنة بعد قليل إذا رحمتنا.

وفي الحديث: «إن الله لا يظلم مؤمنا حسنة».(صحيح مسلم، رقم:٢٨٠٨)

درجات الظلم:

(١) الكفر والشرك، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾(البقرة: ٢٥٤)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان: ١٣)

(٢) الفسق والفجور، أو التقصير في العبادات.

(٣) التقصير في حقوق العباد، كالغصب وغيره.

وعليه عقد الإمام البخاري «باب ظلم دون ظلم». وفيه الإشارة إلى أن الظلم على درجات كثيرة.

ورد هذا المعنى في الحديث أيضًا، روى البزار والطيالسي: «الظلم ثلاثة: فظلم لا يغفره الله، وظلم يغفره الله، وظلم لا يتركه الله. فأما الظلم الذي لا يغفره الله فالشرك، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾(لقمان: ١٣) وأما الظلم الذي يغفره الله فظلم العباد لأنفسهم فيما بينهم وبين ربهم. وأما الظلم الذي لا يتركه الله فظلم العباد بعضهم بعضًا حتى يدين لبعضهم من بعض». (مسند الطيالسي، رقم:٢٢٢٣. مسند البزار، رقم:٦٤٩٣)

معنى السنة وأقسامها:

السنة في الشرع: (١) ما صدر عن النبي صلى الله عليه وسلم على جهة الاقتداء به.

(٢) الطريقة المسلوكة في الدين. وهو مثل الشارع العام(Highway)، يمشي عليه الجميع، ولا يسع أحدًا إنكاره. نعم اختلفوا في تفصيله قليلا أو كثيرا، إلا أن الأصل لا يخفى على أحد. مثل: راتب الظهر هل هو أربع ركعات أو ركعتان؟ اختلفوا فيه، وإن اتفقوا على أصل السنية.

(٣) ما نسِبَ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير (والتقرير: ما وقع بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وسكت عليه). ثم تنقسم السنة على قسمين:

(١) مؤكدة: ما واظب عليه النبي صلى الله عليه وسلم.

(٢) غير مؤكدة: ما لم يواظب عليه.

والعمل الذي واظب عليه الصحابة أيضًا سنة مؤكدة. فالأذان للصلاة لم يثبت من فعل النبي صلى الله عليه وسلم إلا أن الصحابة واظبوا عليه فكان سنة مؤكدة.

عمل العلامة عبد الحيي اللكنوي رسالة سماها «خير الخبر في أذان خير البشر»، أكد فيها أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يثبت من فعله الأذان للصلاة. ثم ذكر له عدة حِكَمٍ.

سنة الصحابة رضي الله عنهم:

تعدل سنة الصحابة سنة النبي صلى الله عليه وسلم، في الحديث: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ».(سنن أبي داود، رقم:٤٦٠٧)

السنة التقريرية: ما فعل بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم وأقره.

ورد في الحديث أن بعض الصحابة ركع وقرأ فيه: «ربنا ولك الحمد حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه». ولم ينكر عليه النبي صلى الله عليه وسلم، بل أثنى عليه.(صحيح البخاري، رقم:٧٩٩)

عمل الشيخ عبد الحيي اللكنوي رسالة سماها «تحفة الأخيار بإحياء سنة سيد الأبرار». ذكر فيها تعريفات السنة، وكون سنة الخلفاء الراشدين في حكم سنة النبي صلى الله عليه وسلم، وتعريفات السنة المؤكدة، وإطلاقاتها عند فقهاء أهل السنة، وحكم ترك السنة المؤكدة، كل ذلك محققا ومدللا. وانتهت الرسالة ببيان أن التراويح سنة مؤكدة، طبعت الرسالة بتحقيقات الشيخ عبد الفتاح أبي غدة.

حال عبادة رسول الله صلى الله عليه وسلم:

هذا البيت يشير إلى الأحاديث التي تناولت مجاهدة النبي صلى الله عليه وسلم في العبادة:

(١) «إن كان النبي صلى الله عليه وسلم ليقوم ليصلي حتى ترم قدماه، أو ساقاه، فيقال له. فيقول: أفلا أكون عبدا شكورا».(صحيح البخاري، رقم:١١٣٠)

وفي رواية «قام النبي صلى الله عليه وسلم حتى تورمت قدماه، فقيل له: غفر الله لك

ما تقدم من ذنبك وما تأخر، قال: أفلا أكون عبدا شكورا».(صحيح البخاري، رقم:٤٨٣٦)

وفي رواية: «كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه».(صحيح البخاري، رقم:٤٨٣٧)

وفي رواية: «أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى حتى انتفخت قدماه».(صحيح مسلم، رقم: ٢٨١٩)

(٢) كانت سجدته صلى الله عليه وسلم تعدل خمسين آية.

عن عائشة رضي الله عنها: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلي إحدى عشرة ركعة، كانت تلك صلاته (أي بالليل)، يسجد السجدة من ذلك قدر ما يقرأ أحدكم خمسين آية، قبل أن يرفع رأسه».(صحيح البخاري، رقم:١١٢٣)

(٣) ورد في رواية أنه صلى الله عليه وسلم قرأ سورة البقرة وآل عمران والنساء – وهي نحو خمسة أجزاء وربع جزء– في ركعة واحدة. روى مسلم عن حذيفة قال: «صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم ذاتَ ليلة، فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المئة، ثم مضى، فقلت: يصلي بها ركعة، فمضى، فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران، فقرأها، يقرأ مترسلا... ثم ركع، فجعل يقول: سبحان ربي العظيم، فكان ركوعه نحوا من قيامه... فكان سجوده قريبا من قيامه».(صحيح مسلم، رقم:٧٧٢)

(٤) قال عبد الله: «صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم فأطال حتى هممت بأمر سوء، قال: قيل: وما هممتَ به؟ قال: هممت أن أجلس وأدعه».(المصدر نفسه)

(٥) وورد أنه صلى الله عليه وسلم قرأ نحو ستة أجزاء في أربع ركعات، في الركعة الأولى سورة البقرة، وفي الثانية آل عمران، وفي الثالثة سورة النساء، وفي الرابعة سورة المائدة.

عن عوف بن مالك الأشجعي قال: «قمت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقام فقرأ سورة البقرة،... ثم ركع بقدر قيامه... ثم سجد بقدر قيامه... ثم قام فقرأ بآل عمران، ثم قرأ سورة سورة». (سنن أبي داود، رقم: ٨٧٣)

(٦) روى البزار بسند حسن عن علي، قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم: يُراوح بين قدميه يقوم على كل رِجل حتى نزلت﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾ (مسند البزار،

رقم:٩٢٦)

روت كتب الأحاديث روايات أخرى عديدة في هذا المعنى.

فائدة:

أراد الناظم بذكر مجاهدة النبي صلى الله عليه وسلم في العبادة بين صفاته السامية الأخرى توبيخ نفسه بأنه صلى الله عليه وسلم كان يطيل الصلاة وهو في سمو مكانته ومغفرته من الله تعالى. وأنت يا نفسي، والغة في المعاصي، ولا تفعل شيئا من ذلك، فأنت أحق بأن تكثري من العبادة.

قصة لطيفة لأحد أولياء الله:

كان بعض أولياء الله تعالى مواظبا على صلاة التهجد، وتخلف عنه ذات ليلة، فأتته من الحور العين في المنام ودفعت إليه ورقة، فيها عدة أبيات. نُسبَت هذه القصة إلى كل من الحسن البصري، ومالك بن دينار، وأبي سليمان الداراني، وعزاه كثير من المؤرخين إلى عابد مجهول. كما نقل البيت الأول بألفاظ مختلفة:

أَتَلْهو بالكَرى عَنْ طِيبِ عَيْشٍ ۞ مَعَ الْخَيِّرَاتِ فِي غُرَفِ الْجِنَانِ

تَعِيشُ مُخَلَّدًا لا مَوْتَ فِيهَ ۞ وَتَنْعَمُ فِي الْجنَانِ مَعَ الْحِسَانِ

تَيَقَّظْ مِنْ مَنَامِكَ إنَّ خَيْرًا ۞ مِنَ النَّوْمِ التَّهَجُّدُ بِالْقُرْانِ

(فضل قيام الليل والتهجد للآجري، ص:٩؛ تاريخ مدينة دمشق٣٤/١٤٨)

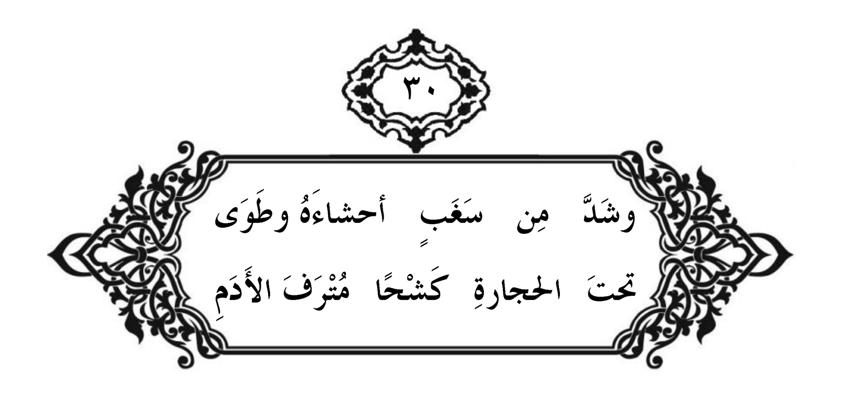
البلاغة:

(١) اشتكت قدماه: مجاز عقلي؛ نسب الفعل إلى المحل.

(٢) في البيت حسن التخلص.

التخلص: انتقال الشاعر من موضوع إلى موضوع آخر بأسلوب حسن. وفي البيت حسن انتقال من المقدمة إلى أصل الموضوع.

****



اللغة:

شَدَّ: شَدَّ: (ن) شِدة: ضبط.

شَدَّ(ن) شَدًا (١) جرى، (٢) هجم. وفي الحديث: «إن الشيطان عرض لي فشدَّ علي ليقطع الصلاة علي فأمكنني الله منه».(صحيح البخاري، رقم:١٢١٠)

(٣) أحكم الضبط، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ﴾ (محمد: ٤)

وفي الحديث: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل العشر شدَّ ميزره».(صحيح البخاري، رقم:٢٠٢٤)

(٤) أيده. قَالَ تَعَالَىٰ:﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ (القصص: ٣٥)

شَدَّ على قلبه: ختم عليه، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ (يونس: ٨٨)

أشدَّ الفتى: بلغ الأشد في عقل وسن. (٢)كان معه دابَّة شديدة.

وفي الحديث: «المسلمون تتكافأ دماؤهم...يردّ مشدُهم على مضعفهم».(سنن أبي داود، رقم :٢٧٥١)

شادَّه مشادة وشِدادا: غالبه، وفي الأَمر بالغ فيه ولم يُخَفف. وفي الحديث: «لن يشاد الدين أحد إلا غلبه».(صحيح البخاري، رقم:٣٩)

تشدد في الأمر: بالغ فيه و لم يُخَفف.

الأشد: الاكتمال في العمر والعقل، وفي التَّنْزيل العزيز: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ (يوسف: ٢٢)

سَغَب: سَغَب: الجوع المقارن بمشقة.

سَغَبَ (ن) سَغبًا وسُغُوبًا/ سَغِبَ سَغَبا وسَغَابةً: اشتد الجوع. هو سغِبٌ، وهي سَغِبة، ج: سِغابٌ.

وفي الحديث: «من أطعم مؤمنا حتى يشبعه من سَغَب أدخله الله بابا من أبواب الجنة».(المعجم الكبير للطبراني ٢٠/٨٥/١٦٢)

يقول عبادة بن شرحبيل: أصبت شيئا من حائط عام مجاعة، فضربني، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «ما أطعمتَه إذ كان جائعا أو ساغبا...».(سنن ابن ماجه، رقم:٢٢٩٨)

أسغَبَ: دخل في المجاعة. السَّغابُ: الجوع الشديد. المَسغَبة: الفقر. قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ﴾ (البلد: ١٤)

أحشاءه: حشا (ن) حشوًا: ملأه. في حديث المعراج: «ثم أُتِيَ بطست من ذهب فيه تور من ذهب، محشُوًّا إيمانا وحكمة فحشا به صدره».(صحيح البخاري، رقم:٧٥١٧)

سميت الأحشاء بها؛ لأنها تمتلئ طعاما وغيره.

حَشا الوسادة: ملأها قطنا.حشَا فلانا: ضربه على حشاه.

حشِيَ (س) حَشًى، (١) أصيب بوجع في الحشا. (٢)ملأ.

ورد في ملء جروح النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد: «وأُخِذَ حصير فأحرق، ثم حشي به جرحُ رسول الله صلى الله عليه وسلم».(صحيح البخاري، رقم:٣٠٣٧)

حاشا: استثنى. حَشَّى: عمل الحاشية. احتشى: امتلأ.

الحشا: (١) مَا دون الْحجاب مِمَّا يَلِي الْبَطن كُله من الكبد والأضلاع. ويطلق على البطن مجازا. (٢)الخصر. (٣) الأحشاء. (٤) الملاذ. ج: أحشاء.

طوَى: طَوَى (ض) الشيءَ طيًّا: لف بعضه على بعض. قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِ﴾ (الأنبياء: ١٠٤)

وفي دعاء السفر: «واطوِ عنا بعده».(صحيح مسلم، رقم:١٣٤٢)

قال التفتازاني:

طويت بإحراز العلوم ونيلها ۞ رداء شبابي والجنون فنون

وحين تعاطيتُ العلوم ونيلها ۞ تبين لي أن الفنون جنون

الفنون: فروع العلم. (شذرات الذهب ٣١٩/٦، في وقائع سنة ٦٩١هـ)

طوى بطنه: جاع. طَوِيَ (س) انقبض.

الحجارة: حَجَرَ (ن) حَجْرًا: منعه. حجرَ الأرض: وضع على حدودها أعلاما بالحجارة ونحوها لحيازتها.

حَجَّرَ الشيء: ضيقه. قال النبي صلى الله عليه وسلم للأعرابي الذي دعا لنفسه وللنبي صلى الله عليه وسلم خاصة: «لقد حَجَّرتَ واسعًا».(صحيح البخاري، رقم:٦٠١٠)

تحجَّرَ: صلب كالحجر. ورد في سعد رضي الله عنه: «تحجر كلمه للبرء».(صحيح مسلم، رقم:١٧٦٩)

الحِجْرُ: (١)السنبلة، (٢) الحضن، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾ (النساء: ٢٣)، والرعاية، (٤) العقل، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ﴾ (الفجر: ٥)، (٥)الممنوع، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ﴾ (الأنعام: ١٣٨)

الحَجَرُ: الحجارة.

كَشْحًا: كَشَح (ف) كَشْحًا: ورد على الماء. كَشِحَ (س) كَشْحًا: أصيب بوجع الجنب. كاشَحَ: عاداه. كَشَحَ (ن) كنسَ. ويطلق على القائم به «الكشاح»و «الكَسَّاح».

الكَشْحُ: ما بين الخاصرة والكشح: الجنب.

ورد في أسيد بن حضير: «فرفع النبي صلى الله عليه وسلم عن قميصه، فاحتضنه فجعل يقبل كشحه».(سنن أبي داود، رقم:٥٢٢٤)

المَكشوح: المصابُ بمرض الكشح.

مُترَف: تَرِفَ (س) فلان تَرَفًا: نَعُمَ. تَرَّفَ: كان ذا عيش نعيم.

أَتْرَفَ فلان: أصر على البغي/ كان ذا عيش نعيم، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ ﴾ (المؤمنون: ٣٣)، أي هيأنا لهم أسباب العيش والنعمة.

وقَالَ تَعَالَىٰ:﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا﴾ (الإسراء: ١٦)

أي أكثرنا مترفيهم. أو المعنى أمرنا مترفيها بأن يعودوا إلى الهداية، وهم يأبونه.

مُترف: (١) اللين، وهو المراد في البيت. (٢) ناعم البال.

الأدَم: أَدِمَ: (س) أَدَمًا، وأُدْمَةً/ أَدُمَ (ك) أَدَامَة وأُدُومَةً: كان ذا سمرة. هو آدم، وهي أدماء، وج: أُدْمٌ.

أدَّم الخُبزَ: أكثر من الإدام. الأَدَمَةُ: بَاطِنِ الْجلد تَحت الْبشرَة وَفَوق اللَّحْم.

الأديم: (١) الظاهر من الْجلد، (٢) الطَّعَام المأدوم. ج: أُدُمٌ.

في الحديث: «نِعْمَ الأدُمُ -أو الإدام- الخَلُّ».(صحيح مسلم، رقم:٢٠٥١)

قال في عيسى عليه السلام: «فإذا رجل آدم كأحسن ما ترى من أُدُم الرجال».(صحيح البخاري، رقم:٣٤٤٠)

الإعراب:

وشَدَّ: عطف على (أحيى الظلام).

من سَغَب: تعليلية أي: لأجل الجوع.

كَشْحًا: موصوف، صفته: مترف الأدَم.

مُترَف الأدَم: إضافة الصفة إلى موصوفها،: الجلد الناعم/ الأديم المُترَف.

الشرح:

طوى تحت الحجارة: المراد به الضغط؛ لأن المطوي مضغوط عليه.

تعصيب رسول الله صلى الله عليه وسلم بطنه بحجر:

سبق أن ذكرنا مجاهدته صلى الله عليه وسلم في العبادة، وفيما يلي يذكر حال جوعه صلى الله عليه وسلم، والبيت يذكر خصلتين منه:

(١) تعصيبه صلى الله عليه وسلم بطنه، روى مسلم عن أنس رضي الله عنه: «قد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم عصَّبَ بطنه بعصابة، فسألت بعض أصحابه، فقالوا: من الجوع». (صحيح مسلم، رقم:٢٠٤٠)

(٢) تعصيبه صلى الله عليه وسلم بطنه بحجر، ورد هذا المعنى في غير حديث، منها رواه البخاري عن جابر رضي الله عنه: «إنا يوم الخندق نحفر، فعرضت كُدية شديدة، فجاؤوا النبي صلى الله عليه وسلم... فقال: «أنا نازل»، ثم قام وبطنه معصوب

بحجَر». (صحيح البخاري، رقم:٤١٠١)

وفي رواية أخرى: عن أبي طلحة قال: شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الجوعَ، ورفعنا عن بطوننا عن حجرحجَرٍ، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حجرين». (سنن الترمذي، رقم:٢٣٧١)

صور من حياة زهده صلى الله عليه وسلم:

تذكر كتب الحديث قصصا عديدة لزهده صلى الله عليه وسلم وكفافه وقناعته بالطعام البسيط. نسوق بعضها على سبيل المثال:

(١) ذات مرة خرج النبي صلى الله عليه وسلم من بيته، فأتاه أبو بكر وعمر، وقد أصابهم جميعا جوع شديد، فتوجهوا إلى بيت أبي هيثم، وأكلوا التمور، وشربوا الماء البارد، ثم أحضر اللحم، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الأكل: «لتسألن عن هذا النعيم». (ونفاصيل القصة في: صحيح مسلم، رقم:٢٠٣٨؛ سنن الترمذي، رقم:٢٣٦٩)

(٢) قال جابر: رأيت برسول الله صلى الله عليه وسلم خمصا يوم الخندق، فانكفأت إلى بيتي، لأعد له شيئا من الطعام، وأدعوه مع نفر من أصحابه إلى البيت، ثم عدت إليه ودعوته مع نفر من أصحابه. فصاح رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: «يا أهل الخندق، إن جابرا قد صنع لكم سورا فحي هلا بكم». فأتوا جميعا، وجعل يأكل العشرة منهم ثم العشرة. قال جابر: وهم ألف، فأقسم بالله لأكلوا حتى تركوه وانحرفوا، وإن برمتنا لتغط كما هي». (صحيح مسلم، نفس المصدر)

(٣) قال أبو طلحة: عرفت برسول الله صلى الله عليه وسلم الجوع، فذكرت لأم سليم، فأخرجت أقراصًا ثم أخرجت خمارا لها، فلفت الخبز ببعضه، ثم دسته تحت يدي ولاثتني ببعضه، ثم أرسلتني إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوجدت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد، ومعه الناس، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن معه: «قوموا». فأكل القوم كلهم وشبعوا، والقوم سبعون أو ثمانون رجلا. (صحيح البخاري، رقم:٣٥٧٨)

(٤) وفي رواية: عن ابن عباس قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبيت

الليالي المتتابعة طاويا، وأهله لا يجدون عشاءً».(سنن الترمذي، رقم:٢٣٦٠)

(٥) وفي الحديث: «لقد أتت عليَّ وبلال من بين يوم وليلة ومالي لبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال».(سنن الترمذي، رقم:٢٤٧٢)

(٦) وعن أنس: «أن فاطمة رضي الله عنها جاءت بكسرة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ما هذه؟ قالت: قرص خبزته فلم تطب نفسي حتى آتيك بهذه الكسرة. قال: أما إنه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام».(المعجم الكبير١/٢٥٨/٧٥٠)

(٧) عن عائشة: «توفي النبي صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعًا من شعير».(صحيح البخاري، رقم:٢٩١٦)

(٨) وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبيت الليالي المتتابعة طاويا وأهله لا يجدون عشاء وكان أكثر خبزهم خبز الشعير».(سنن الترمذي، رقم:٢٣٦٠)

(٩) ذات مرة دخل عمر على النبي صلى الله عليه وسلم، وقد أثر الحصير في جنبه. قال عمر: رفعت بصري في بيته، فوالله ما رأيت غير أهب ثلاثة، وقبضة من شعير في ناحية من البيت، فبكيت، فقال: «ما يبكيك»؟ فقلت: أثر الحصير في جنبك. ثم قلت: ادع الله تعالى أن يوسع على أمتك. فإن فارس والروم قد وسع عليهم وهم لا يعبدون الله، وأنت نبي الله تعالى، فقعد النبي صلى الله عليه وسلم وقال: «أو في شك أنت يا ابن الخطاب، أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا».

روى البخاري رحمه الله: «وإنه لعلى حصير ما بينه وبينه شيء، وتحت رأسه وسادة من أدم، حشوها ليف، وإن عند رجليه قَرظا مصبوبا، وعند رأسه أهب معلقة، فرأيت أثر الحصير في جنبه، فبكيت، فقال: ما يبكيك؟ فقلت: يا رسول الله، إن قيصر وكسرى فيما هما فيه وأنت رسول الله، فقال: أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة».(صحيح البخاري، رقم:٤٩١٣. فتح الباري ٩/٢٨٧)

(١٠) روى مسلم عن النعمان بن بشير: «لقد رأيت نبيكم صلى الله عليه وسلم وما يجد من الدقل ما يملأ به بطنه».(صحيح مسلم، رقم:٢٩٧٧)

(١١) عن عائشة أنها قالت لعروة: ابن أختي، إن كنا لننظر إلى الهلال ثلاثة أهلة في

شهرين وما أوقدت في أبيات رسول الله صلى الله عليه وسلم نارٌ. فقلت: ما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان: التمر والماء».(صحيح البخاري، رقم:٦٤٥٩)

علاوة على ذلك وردت فضائل عدة في الأحاديث وكلام السلف لترغيب الأمة في الزهد.

مَن الزاهد؟

الزاهد: من توفرت له وسائل العيش والنعيم في الدنيا كلها، ولا يعلق قلبه بها، ولا يعيش عيش المتنعمين. ومما يذكر بصفة خاصة من فوائد الزهد: الانصراف الذهني، ولطافة الروح، وقلة أسباب العيش، والصيانة من الحرام والمشكوك فيه.

ونظرا لأهمية الزهد عمل غير واحد من السلف الصالح الكتب حوله، منهم المحدث الشهير ابن المبارك، والإمام أحمد بن حنبل، والإمام أبو داود، والمحدث وكيع، والإمام أبو حاتم الرازي، و المحدث أسد بن موسى، والمحدث أبو عاصم، والإمام البيهقي، والعلامة ابن أبي الدنيا رحمهم الله أجمعين، وطبعت مؤلفاتهم باسم «كتاب الزهد».

كان فقره صلى الله عليه وسلم اختياريا:

كان فقره صلى الله عليه وسلم اختياريا لا اضطراريًّا. روي عنه صلى الله عليه وسلم: «اعرض عليّ أن تحول جبال مكة ذهبا، كما سيأتي تفصيله في البيت اللاحق.

الإيراد: يرد عليه أن النبي صلى الله عليه وسلم علل وصاله للصوم بأنه "يطعمني ربي".(صحيح البخاري، رقم:١٩٦١)، فكيف يعصب بطنه بالحجر من الجوع ؟

الجواب: (١) المراد في الحديث بالطعام والشراب نتيجته وهو القوة على العبادة، لا الطعام والشراب حقيقة. فكان لا يجد ألم الجوع في الصوم، ويتقوى عليه، ويؤلم الجوع في غير الصوم.

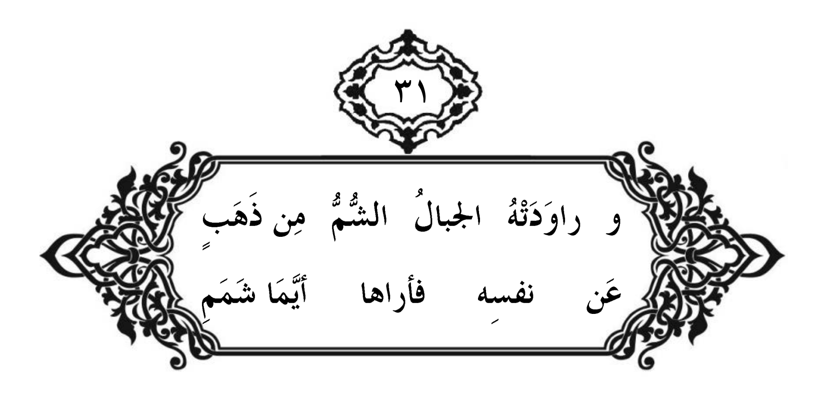
وقد يرد عليه أنه يفوِّت هدف الصوم. نعم إذا كان المراد القوة على العبادة فقط، فلا إشكال.

(٢) المراد بالإطعام والإشراب في الحديث: لذة العبادة والمناجاة. «إن المراد في الحديث ما يغذيه الله به من معارفه، وما يفيضه على قلبه من لذة مناجاته وقرة عينه بقربه،

ونعيمه بحبه والشوق إليه، وغير ذلك من الأحوال التي هي غذاء القلوب ونعيم الأرواح، وقد يغني هذا عن غذاء الأجسام».(ملخصا من زاد المعاد٢/٣٢، للاستزادة منه راجع: فتح الباري٤/٢٠٧؛ فيض القدير٣/١٥٩؛ المواهب اللدنية ٢/٣٨٦-٣٨٩)

انتهى بعون الله تعالى.

****



اللغة:

وراوَدَتْهُ: أراد الشيء: رغب فيه. قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ (يس: ٨٢)

وإذا أطلق على غير ذي الروح أريد به الاستعداد والتهيؤ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ (الكهف: ٧٧)

راود مراودة ورِوادا: خدعه، وطلب منه. طلب منه أن يكون على مراده.

المراودة: المطالبة بجد واشتهاء.

راد يرود رَودا: اختلف إليه، وهو مقدمة للطلب. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ (يوسف: ٢٣) وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ﴾ (القمر: ٣٧)

وقال ثالث ثلاثة بني إسرائيل الذين سقطت عليهم الصخرة: «وإني راودتها عن نفسها». (صحيح البخاري، رقم: ٣٤٦٥)

وقال موسى للنبي صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج: «قد والله راودت بني إسرائيل على أدنى من ذلك». (صحيح البخاري، رقم: ٧٥١٧)

الجِبال: جَبَلَ الله (ن) جَبْلا: خلقه، صاغه. وفي الأدعية المأثورة: «أسألك من خيرها وخير ما جُبلتْ عليه». (سنن ابن ماجه، رقم: ١٩١٨)

جَبَلَ الشيءَ: شده، جَبِلَ (س) جَبَلا: سمن. الجَبْل: (١) القوم، (٢) الميدان. ج: أجبل و جبول.

الجَبَل: الجبل، ج: أجبُل، جبال، أجبال.

الجِبلُّ: الأمة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ (يس: ٦٢)

الجِبلَّة: (١) الفطرة، (٢) الأمة. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ (الشعراء: ١٨٤)

الشمُّ: شَمَّ (ن) شَمًّا وشميما: أدرك رائحته. قال أنس: «ما شممت ريحا قط أطيب من ريح النبي صلى الله عليه وسلم».(صحيح البخاري مختصرا، رقم:٣٥٦١)

شَمَّ (س) يَشَمُّ شَمَمًا: ارتفع. أشَمَّ الرجلُ: مر رافعا رأسه متكبرا.

الإشمام: (عند القراء): الإشارة بالشفتين إلى الضمة.

الأشم: (١) مرتفع الأنف، في الشمائل: «يحسبه من لم يتأمله أشم».(شمائل النبي صلى الله عليه وسلم للترمذي، رقم:٧) (٢) المتكبر، (٣) الرئيس، ج: الشُّمُّ.

من ذهب:

ذَهَبَ (ف) ذَهابا، ومذهبا: (١) سار، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ (طه: ٢٤)

ذَهبَ به: سار به. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا﴾ (يوسف: ٩٣)

وفي الحديث: «من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث».(صحيح البخاري، رقم:٦٠٢)

(٢) أزاله. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ (البقرة: ١٧)

ذهب إلى كذا: اختاره. أذهبَ: أزاله. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ (فاطر: ٣٤)

وفي الأدعية المأثورة: «الحمد لله الذي أذهب عني الأذى».(سنن ابن ماجه، رقم:٣٠١)

ذَهَّبَ: موهه بالذهب. الذهب: عنصر فلزي أصفر اللون، ج: أذهاب، ذُهوب.

فأراها: رأى يرَى، رأيا ورؤية: (١) أبصره بحاسة البصر. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا﴾(الأنعام: ٧٧) (٢) اعتقده. وإذا تعدت الرؤية إلى مفعولين وكان مبنيا للمعروف، دل على معنى (أعلم)، وإذا كان مبنيا للمفعول كان بمعنى (أظن).

قال سعد رضي الله عنه في رجل: «إني لأراه مؤمنًا».(صحيح البخاري، رقم:٢٧) أي أعلمه وأظنه.

أرأيت: أخبرني، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ (الملك: ٣٠)

أرى إراءة: جعله يرى، قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ﴾ (غافر: ١٣)

وفي الحديث: «أريت النار». (صحيح البخاري، رقم:٢٩)

راءى مراءاة ورءاءً: تظاهر لأحد بالصلاح والتقوى على خلاف الواقع.

شَمَمٍ: مصدر شَمَّ (س).

الإعراب:

الجبال: موصوف، صفته: الشم.

من ذهب: (١) حال، وتقديره: حالَ كونها صائرة من ذهب/ حال كونها متنقلة إلى ذهب.

(٢) صفة لـــ (الشم)، والتقدير: الشُّمُّ الكائنة من ذهب.

ويرد عليه حذف الموصول مع بعض صلته، لأنه حذف (الكائنة) من (الشم الكائنة من ذهب). وذهب بعض النحاة إلى عدم جواز حذف الموصول مع بعض الصلة.

عن نفسه: يتعلق بـــ (راودته)، والمعنى: لأجل نفسه.

أراها أيما شمم: أرى: فعل، و(ها) مفعول أول، (شمم) موصوف، (أيما شمم) صفته. والموصوف مع صفته مفعول ثانٍ.

تقول القاعدة: إذا وقع (أي) صفةً، وأضيف إلى جنس الموصوف دل على معنى الكمال، نحو: رأيت رجلا أي رجل. وقس عليه: شمما أيما شمم، فمعناه: أراها شَمَمًا عظيمًا وإعراضًا شديدًا.

الشرح:

سبق أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعصب بطنه بحجر من الجوع،فيرد عليه بأنه ربما فعل ذلك فقرا وضيقا،و هذا البيت يزيل هذه الشبهة.

راودته: كناية عن تمكنه منه وقرب حصوله.

راودته الجبالُ: إرادة الصغير من الكبير شيئا يطلق عليه «الالتماس»، وإرادة الكبير من الصغير يطلق عليه «الأمر».

الجبال: اللام للعهد الذهني. ولعل المراد خمسة من جبال مكة: (١) أبو قبيس،

(٢)حراء، (٣) ثور، (٤) بطحاء، (٥) عرفات.

المفاعلة للمبالغة:

المفاعلة في «راودته» للمبالغة، أي حاولت الجبال كل المحاولة حملَ النبي صلى الله عليه وسلم على التحول عن موقفه، والمفاعلة تفيد الكثرة، نحو قوله تَعَالَىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ (البقرة: ٢٦١)، وقوله تَعَالَىٰ: ﴿ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ (آل عمران: ١١٤)، قوله تَعَالَىٰ: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ (الأعراف: ٢١)

وفي الأدعية المأثورة: «اللهم باعد بيني وبين خطاياي». (صحيح البخاري، رقم:٧٤٤)

وفي الحديث: عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرَّ بشجرة يابسة، فضربها بعصاه، فتناثر الورق. فقال: «إن الحمد لله وسبحان الله، ولا إله إلا الله، والله أكبر» لتساقط من ذنوب العبد كما تساقط ورق هذه الشجرة».(سنن الترمذي، رقم:٣٥٣٣)

سبب تسمية الذهب ذهبًا:

سمي الذهب ذهبا؛ لأن الناس كانوا يتعاملون بعملات الذهب والفضة، وهي غادية ورائحة. كما أن الناس كانوا يميلون إلى من يملك الذهب والفضة.

قال الشاعر:

رأيت الناس قد مالوا ۞ إلى من عنده مال
ومن لا عنده مال ۞ فعنه الناس قد مالوا
رأيت الناس قد ذهبوا ۞ إلى من عنده ذهب
ومن لا عنده ذهب ۞ فعنه الناس قد ذهبوا
رأيت الناس منفضة ۞ إلى من عنده فضة
ومن لا عنده فضة ۞ فعنه الناس منفضة

عن نفسه:

(١) مائلة إلى نفسه: كانت الجبال مائلة إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

(٢) مميلة لنفسه: كانت الجبال مميلة لنفس رسول الله صلى الله عليه وسلم إليها.

(٣) مميلة له عن رأيه: كانت الجبال مميلة للنبي صلى الله عليه وسلم عن رأيه إلى رأيها.

(٤) عن نفسه: أي عن ذات النبي صلى الله عليه وسلم، وهو متعلق بـــ (راودته).

عرض تحويل الجبال ذهبا على النبي صلى الله عليه وسلم:

معنى البيت يؤيده الأحاديث النبوية، فقد روي أنه صلى الله عليه وسلم قال: «عُرِض علي ليجعل الجبال ذهبا. فقلت: لا».

(١) «عرض عليه ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهبا، قلت: لا، يارب، ولكن أشبع يوما وأجوع يوما، -وقال ثلاثا، أو نحو هذا- فإذا جعت تضرعت إليك وذكرت، وإذا شبعت شكرتك وحمدتك». (سنن الترمذي، رقم:٢٣٤٧)

وروى بعضهم حديثا فيه عرض جبرئيل على النبي صلى الله عليه وسلم ذلك، وإباؤه صلى الله عليه وسلم قوله في الجواب عنه: «الدنيا دار من لا دار له».

غير أن العلامة العراقي قال: «ليس حديثا بمفرده، بل ملفق من حديثين: حديث الترمذي هذا، وحديث آخر».(إحياء علوم الدين مع تخريج العراقي ١٩٠/٤، فضيلة الفقر مطلقا)

(٢) ذات مرة رأى عمر ما به صلى الله عليه وسلم من الفقر، فبكى، فقال: «لا تبكِ يا عمر، فلو أشاء أن تسير الجبال ذهبا لسارت».(الطبقات الكبرى لابن سعد٤٦٦/١)

(٣) عن ابن عمر، يقول: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «لقد هبط علي ملك من السماء ما هبط على نبي قبلي، ولا يهبط على أحد من بعدي، وهو إسرافيل وعنده جبريل فقال: السلام عليك يا محمد، ثم قال: أنا رسول ربك إليك أمرني أن أخبرك إن شئت نبيا عبدا، وإن شئت نبيا ملكا، فنظرت إلى جبريل فأومأ جبريل إلي أن تواضع، فقال النبي صلى الله عليه وسلم عند ذلك: «نبيا عبدا»، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لو أني قلت نبيا ملكا، ثم شئت لسارت الجبال معي ذهبا».(المعجم الكبير للطبراني٣٤٨/١٢/ ١٣٣٤٣)

(٤) «... فأتاه إسرافيل، فقال: إن الله سمع ما ذكرت، فبعثني إليك بمفاتيح خزائن الأرض، و أمرني أن يُعرَضن عليك إن أحببت أن أسير معك جبال تهامة زمردا، وياقوتا، وذهبا، وفضة فعلت».(المعجم الأوسط للطبراني ٦٩٣٣/٤٧٤/٧)

قال الهيثمي: «رواه الطبراني في الأوسط، وفيه سعدان بن الوليد، و لم أعرفه، وبقية رجاله ثقات».(مجمع الزوائد ٣١٥/١٠).

(٥) وعن عائشة قالت: لم يمتلئ جوف النبي صلى الله عليه وسلم شبعا قط، و لم يبث شكوى إلى أحد، وكانت الفاقة أحب إليه من الغنى، وإن كان ليظل جائعا يلتوي طول ليلته من الجوع، فلا يمنعه صيام يومه، ولو شاء سأل ربه جميع كنوز الأرض وثمارها».(الشفاء ١١٢/١، فصل: زهده في الدنيا)

علاوة على ذلك وردت أحاديث وقصص كثيرة بألفاظ مختلفة عن كثير من الصحابة ما يدل على أن الله تعالى خيَّر نبيه أن يجعل الجبال تسير معه.

لَم تؤثر المادية فيه صلى الله عليه وسلم:

لن تساير المادة –مهما علت شأنها– الروح في السمو والعلو، فإن الجبال– على ما هي عليه من كبر الحجم والطول — لم تزحزح من أقدام محمد صلى الله عليه وسلم.

وقول النبي صلى الله عليه وسلم: «أجوع يوما وأشبع يوما»، يحمل معنوية غائرة، فإن التواضع وهضم الذات حالة الجوع، والحمد والشكر حالة الشبع مما يورث قوة روحية لا متناهية، لا توازيها قوة مادية.

أبيات أخرى في معنى بيت القصيدة هذه:

قال غيره من الشعراء في معنى القصيدة، يقول الشاعر التونسي: شهاب الدين الخلوف:

وفي مراودة الشم الجبال له ۞ عن نفسه ذهبا ما صان علياه

وقال أبو الهدى الصيادي:

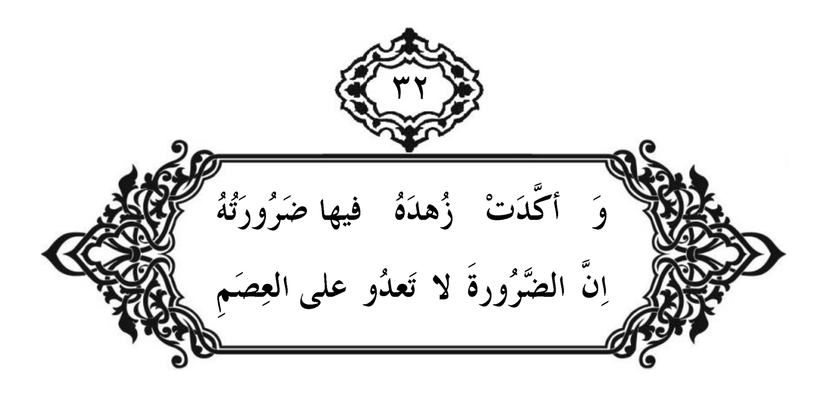
و قلَّبت له الجبال ذهبا ۞ فكف عنها الطرف زهدا وأبى

البلاغة:

راودته: فيه استعارة مكنية.

الجبال: مشبه، الإنسان المراود: مشبه به. حذف المشبه به وذكر لازمه: راودته.

انتهى ولله الحمد.



اللغة:

أكَّدَت: وَكَدَ (ض) وُكُودا: توثق وقام. وأدرك مراده. ولايستعمل في المجرد بالهمزة (أكد).

وَكَّدَ / أوكَدَ: أوثقه. أَكَدَ (ن) أَكْدًا: وثقه. هو أكيد: قوي/ موثوق به.

آكَدَ/ أكَّدَ: قواه و وثقه. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ (النحل:٩١)

ويستعمل (التأكيد) و(التوكيد) مصدرًا إلا أن (التوكيد) أفصح.

زُهده: زَهَدَ (س،ف،ك) في الدنيا زُهدًا وزَهادَةً: قلة الرغبة في الدنيا والإعراض عنها.

في الحديث: «ازهد في الدنيا يحبك الله».(سنن ابن ماجه، رقم:٤١٠٢)

في الحديث: «ليس الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال ولا في إضاعة المال».(سنن الترمذي، رقم :٢٣٤٠)

زَهِدَ في الشيء: رغب عنه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾ (يوسف: ٢٠)

أزهَدَ الرجلُ: قل ماله.

زَهَّدَ: قلله، خفضه. ورد في ساعة الإجابة يوم الجمعة: «وقال بيده: قلنا: يقللها يزهدها».(صحيح البخاري، رقم:٦٤٠٠)

تَزَهَّد: صار زاهدا وتاركا للدنيا. الزُّهد: القليل من الشيء. الزَهدُ: الزكاة. (لأن الزكاة قليل من أصل المال)

ضرورته: ضَرَّ (ض) ضَرًّا وضَرَرًا: آلمه. تقدم تحقيق هذه الكلمة في البيت رقم (٢٩).

لا تعدو: عَدا (ن) عَدْوًا وعُدْوَانا، وعَدَوانا: سعى، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ﴾ (الكهف: ٢٨)

عَدا (ن) عليه عَدوًا وعُدْوانا: تجاوز، واعتدى، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ﴾ (الأعراف: ١٦٣)، و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (الأنعام: ١٠٨)

قال النبي صلى الله عليه وسلم لمسيلمة الكذاب: «ولن تعدو أمر الله فيك».(صحيح البخاري، رقم: ٣٦٢٠)

ولا تعدو في البيت بمعنى: لا تغلب.

أعدى: جعله يعدو. وعَدَّى عن الأمر: خَلاّه، عَدَّى الشيء: نقله من مكان إلى آخر.

اعتدى: ظلم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ (البقرة: ١٩٤)

وفي الحديث: «سيكون قوم يعتدون في الدعاء».(سنن ابن ماجه، رقم: ٣٨٦٤)

عَادَى: خاصم. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم﴾ (الممتحنة: ٧)

وفي الحديث: «من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب».(صحيح البخاري، رقم: ٦٥٠٢)

العِصَم: عَصَمَ (ض) إليه عَصْمًا: لجأ إليه. عَصَمَ الله فلانا عِصمةً: حفظه. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ (المائدة: ٦٧)

وفي الحديث: «فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم».(صحيح البخاري، رقم: ٢٥)

العِصمة: ملكة إلهية تمنع من فعل الْمعْصِيَة والميل إليها مع القُدرة عليه.

في الأدعية المأثورة: «اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري».(صحيح مسلم، رقم: ٢٧٢٠)

أي اجعلني على الدين الحق الذي يعصمني في الدنيا والآخرة.

(٢) رباط الزوجية/ العهد والوثيقة. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ (الممتحنة: ١٠)

اعتصم إليه: امتنع به ولجأ إليه. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ﴾ (آل عمران: ١٠٣)

العاصمة: قاعدة البلاد. ج: عواصم.

عصامي: من ساد بشرف نفسه. تقول العرب: كُن عصاميا لا عظاميا.

أي كن على استعداد شخصي، ولا تعتمد على شرف النسب فقط. (ولا تقل: كان أبي مِلِكًا).

الإعراب:

زُهده: مفعول به مقدم.

فيها: الظرف متعلق بـــ (أَكَّدَت).

(١) فيها أي في الجبال: وهو الأولى. (٢) أو في الدنيا: ذكرت الدنيا عرضا.

إن الضرورة: جملة مستأنفة بيانية.

العِصَم: (١) عصم الأنبياء: فاللام للعوض. (٢)حذف مضافه، والتقدير: ذوي العصم. (٣)مأخوذ من (عصِم) وأصله (عصيم) بمعنى المعصوم. حذفت الياء للضرورة. أي أن الضرورة لا تغلب الرجل المعصوم. فلا حاجة إلى تقدير مضاف حينئذ.

الشرح:

ذكر البيت سمو النبي صلى الله عليه وسلم إلى ذروة الزهد، أي أن السنة جارية بأن يلين المرء حين الضرورات، وأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد زادته الضرورات زهدا وقوة فيه. وإباء المرء قبول الشيء -رغم اشتداد حاجته إليه- دليل على زهده ورغبته عنه.

ويرد عليه فيما يبدو أن الضرورات تبيح للمرء كثيرا من الأشياء شرعا وطبعا. ولذا أباحت الشريعة تناول الميتة عند الضرورة. فلمَ كان أمر النبي صلى الله عليه وسلم على عكس ذلك.

والجواب: رد عليه في الشطر التالي، بأن الضرورة حقيرة في جنب عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

إن الضرورة:

الضرورة: الحاجة التي يؤدي عدم الأخذ بها إلى الحرج للإنسان.

درجات الضرورة:

الإتيان بالعمل على درجات في ضوء ما قاله الفقهاء:

(١) الضرورة: حالة الاضطرار. كما يباح تناول الخمر عند الاضطرار حيث يموت الإنسان إذا لم يتناولها.

(٢) الحاجة: ما يوقع المرء في مشقة شديدة إذا لم يأته.

(٣) المعونة: ما له بد منه، إلا أنه يخاف المشقة إذا لم يأته.

(٤) المنفعة: ما يغلب فيه المنفعة على الضرورة. مثل تناول الخبز مع الشأي، فإنه إذا كان مع الزبد كان أنفع، أو مثل تناول البسكويت مع الشأي.

(٥) الزينة: ما يزين الشيء، مثل تزيين البيت، وإن كان يكفيه البيت العادي الساذج.

(٦) العبث: ما لا فائدة فيه، مثل التدخين.

هذه مصطلحات الفقهاء، والمراد في البيت بالضرورة مطلق الحاجة.

إن الضرورة لا تعدو على العصم:

عصمة الأنبياء عليهم السلام:

أشار الناظم إلى عصمة الأنبياء عليهم السلام، وذهب أهل السنة والجماعة إلى عصمتهم، وحفظ أولياء الله، وفيما يلي نوجز الكلام حول العصمة:

(١) **تعريف العصمة:** ملكة تمنع العبد عن ارتكاب المعصية مع بقاء الاختيار، وهذا خاص بالأنبياء.

الحفاظة: عدم ارتكاب المعصية عادة، ولكن يمكن صدروه أحيانا وهذا للأولياء.

والحاصل أن الأنبياء معصومون، أي أن القوة المانعة واجبة لهم، وأما الأولياء فمحفوظون، أي أن القوة المانعة في حقهم في درجة الجواز، وعليه قد تصدر المعاصي من الأولياء.

قال بعض الخطباء حطًّا لشأن الصحابة: لا فرق عندي بين المعصوم والمحفوظ. يريد بذلك أن الصحابة ليسوا معصومين ولا محفوظين. نقول: الفرق بينهما ثابت، فالأنبياء معصومون كما هو المسلّم. ويدل عليه﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ﴾ (يوسف: ٣٢)،

والصحابة محفوظون، يقول حذيفة رضي الله عنه: « ولقد علم المحفوظون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ابن أم عبد هو من أقربهم إلى الله زلفى». (سنن الترمذي، رقم:٣٨٠٧، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح)

(٢) سؤال: لِم فرقوا بينهما؟:

قال الشاه ولي الله المحدث الدهلوي في مخطوط له كلاما رائعا، وهو أن عدم العصمة يوجب القبح في الشريعة، فإن الأنبياء إن لم يكونوا معصومين وكانوا فاسقين فإن شهادتهم مردودة، ثم لا تجب طاعتهم. وعلى العكس من ذلك الأولياء محفوظون، وعدم حفظهم لا يستلزم قبحا في الشريعة، فإن صدرت المعصية منهم- كما هو الممكن- فإنهم ليسوا واجبة طاعتهم كما يجب طاعة الأنبياء.

(٣) اختلفوا في تفصيل العصمة:

المعتزلة: يمكن ارتكاب المعصية قبل النبوة.

الماتريدية: الأنبياء معصومون من الصغائر والكبائر كلها.

الأشاعرة: الأنبياء معصومون من الكبائر وكذلك من الصغائر المهينة، وأما الصغائر غير المهينة فلا يلزم عصمة الأنبياء منها.

وهذا الخلاف لفظي، والتوفيق بينها أن الماتريدية أرادوا بالصغائر الذنوب، فلا تصدر منهم، وأراد بها الأشاعرة خلاف الأولى، حيث يمكن ذلك منهم.

(٤) بِمَ تتعلق العصمة؟:

العصمة واجبة للأنبياء عن الكفر قبل النبوة وبعدها، وعن الصغائر بعد النبوة، وكذا عن ترك الدعوة والتبليغ، وعن الكذب لاسيما في أمر الدعوة، وكذا عن الشرك، وعن الجهل بالله تعالى وصفاته. وخلاصته فيما يلي:

١- العصمة في العقائد. قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ ﴾ (الأنبياء: ٥١)، وقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ (مريم: ١٢)

٢- في التبليغ، والتبليغ أهم مقاصد البعثة. فإن صدر عنه هذا التقصير لم يكن تقصير أشد منه.

٣- من الكبائر: معصومون بالاتفاق.

٤- محفوظون من الصغائر، والمراد بالصغائر عند الذين جوزوا صدورها- خلاف الأولى، ويمكن صدوره منهم.

(٥) الأدلة: الأدلة على عصمة الأنبياء عديدة، منها:

١- قوله تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (آل عمران: ١٦١)

والغلول على معنيين: (١) الخيانة في الغنيمة. (٢) مطلق الخيانة. والمراد بها العموم هنا لأن النكرة وقعت في سياق النفي، فالمراد بها مطلق الخيانة. ومعنى الآية: لا يسع النبي أن يخون. كما في قوله تَعَالَىٰ: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَانَهُ﴾ (مريم: ٣٥)، أي لا يسع أن يكون لله ولد، ومثله في قوله تَعَالَىٰ: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا﴾ (النمل: ٦٠)، وقوله تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (آل عمران: ١٤٥)

ثم تنقسم الخيانة على ثلاثة أقسام: (١) في القول، (٢) في العمل، (٣) في القلب، أي في العقيدة. فالأنبياء عليهم السلام معصومون من الخيانة في أقوالهم وأفعالهم وعقائدهم كلها. (من إفادات العلامة خالد محمود).

١- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ (النساء: ٨٠)، فكما أن الله تعالى منَزّه من كل عيب وظلم وجور ونحوها كذلك رسله منَزهون عن عصيانه سبحانه وتعالى. ولذا كانت طاعة الرسول مثل طاعة الله تعالى.

٢- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ (الأحزاب: ٣٦) فإن عصى النبي وصار محلا للضلال فمن عسى أن يكون على هدى من الله.

٣- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا﴾ (النساء: ١٤) وهذه عقوبة العصيان، ولن يستحق الأنبياء النارَ.

٤- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ١٢٤)، وكيف يبعث الأنبياء رسلا إذا ظلموا بالذنوب والمعاصي.

٥- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ (ص: ٤٧)

٦- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ (البقرة: ٤٤) فإن ارتكب

الأنبياء الذنوب شملهم هذا الوعيد.

٨- في هذه الدنيا حزبان: حزب الله و حزب الشيطان.(المجادلة:١٩-٢٢) وكيف يكون الأنبياء من حزب الله تعالى إن صدر منهم الذنوب.

٩- قال الشيطان: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ (الحجر)، والأنبياء الكرام أول محمل للمخلصين، فإذا لم يكونوا منهم فمن عسى أن يكون منهم؟

١٠- قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ (يوسف: ٢٤) والله سبحانه تعالى يصرف الأنبياء عن السوء والفحشاء، أي فضلا عن انصرافهم إلى المعاصي يصرف الله تعالى عنهم المعاصي إذا دنت إليهم.

١١- قَالَ تَعَالَى: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ (الحج: ٧٨) أي ينبغي كون الشاهد عدلا. (للاستزادة منه راجع: معارف القرآن للشيخ إدريس الكاندهلوي١/١٤٦-١٥٢)

مصادر وكتب حول عصمة الأنبياء:

١- عصمة الأنبياء للعلامة فخر الدين الرازي (ت:٦٠٦هـ)، في (١٤٠) صفحة، والكتاب مطبوع. قال بعض أهل العلم: هو أول من طرق هذا الموضوع، فإنه من علماء القرن السادس الهجري. استفاد المفسرون من هذه الرسالة.

٢- «الفصل في الملل والأهواء والنحل» للعلامة ابن حزم رحمه الله، تحدث عن هذا الموضوع في (٢٧) صفحة بالتفصيل، وأشبع موضوع عصمة الأنبياء عليهم السلام بجانب عصمة الملائكة. وكشف الشبهات التي تثار حول الأنبياء عليهم السلام. (راجع: الفصل في الملل ٤/١٠٢٧، ط: مكتبة الخانجي، القاهرة)

٣- درس الشيخ السيد فخر الدين أحمد رحمه الله -من كبار علمائنا وشيخ الحديث سابقا بدارالعلوم/ديوبند- في أماليه على صحيح البخاري- التي رتبها الشيخ رياست علي البجنوري باسم إيضاح البخاري- هذا الموضوع دراسة متأنية في (٤٤) صفحة. وهو مطبوع. وقام الشيخ بكشف الشبهات الواردة على بعض الأنبياء عليهم السلام بجانب شرح قضية عصمة الأنبياء في أسلوب رائع. (راجع: إيضاح البخاري ٣/٢٣٧-٢٨٠).

٤- عصمت انبياء عليهم السلام: رسالة مفيدة نافعة في (٧١) صفحة، جمع فيها

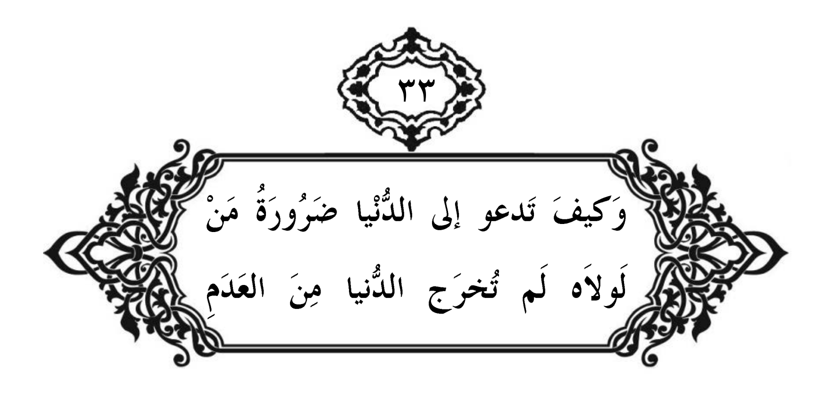
الشيخ فتح الرحمن–أستاذ قسم اللغة العربية بجامعة بيشاور– إفادات الشيخ العلامة شمس الحق الأفغاني رحمه الله في خصوص عصمة الأنبياء عليهم السلام. حقق فيها عصمة الأنبياء وكشف الشبهات الواردة على عصمة بعضهم بأسلوب تحقيقي في ضوء الأدلة والبراهين. وتم نشر هذه الرسالة.

٥– أعد الشيخ عماد سيد محمد إسماعيل الشربيني رسالة الدكتوراه برعاية كلية أصول الدين بجامعة الأزهر عام ٢٠٠٢م، باسم «رد شبهات حول عصمة النبي صلى الله عليه وسلم في ضوء السنة النبوية الشريفة». نظر فيها كبار علمائها، وهو في (٤٦٧) صفحة، وقد طبعت.

درست الرسالة كلمة «العصمة»، وساق الأدلة عليها، ورد الشبهات التي أثاره الأعداء– في ضوء الكتاب والسنة، كما رد الشبهات الواردة على حياة النبي صلى الله عليه وسلم الاجتماعية ردا مفصلا. وسرد في نهاية الكتاب المصادر البالغ عددها (٤٥٠) مصدرا استفاد منها في الرسالة، و لم يستوعب المصادر كلها في القائمة. وطبعت الرسالة في مصر.

ولله الحمد أولا وآخرا.

****



اللغة:

سبق بيان خمسة معانٍ لــ (كيف) في البيت رقم (٦). والاستفهام هنا بمعنى الإنكار. أي لا يسوغ للدنيا بحذافيرها أن تُميله إليها. ومن أمثلة الاستفهام الإنكاري قوله تَعَالَىٰ: ﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ﴾ (آل عمران: ٨٦)

تَدعو: دَعَا (ن) دَعوًا ودَعوَةً ودُعاءً ودَعوَى: تسبب، طلب، **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ﴾ (القصص: ٢٥)

رغب إليه: **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (البقرة: ١٨٦)

في الحديث: «لكل نبي دعوة مستجابة». (صحيح البخاري، رقم: ٦٣٠٤)

طلبه إلى الشيء: **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ (فصلت: ٣٣)

دعا القوم دعاء ودعوة ومَدعاةً: طلبه إلى الطعام.

ادَّعى: زعم لنفسه شيئا، اندعى: أجابه/ قبل دعوته.

تداعى: دعا بعضهم بعضا وجمعه، في الحديث: «ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد: إن اشتكى عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى». (صحيح البخاري، رقم: ٦٠١١)

الدعوة: (١) ما يدعى إليه من طعام وشراب. (٢) الابتهال.

لِمَ سمِّيتْ الدنيا بها؟:

القول الأول: دنيا: صفة من: دنا (ن) دُنوًّا (قرب). سمِّيت به: لأن: (١) الدنيا

قريبة من الإنسان فيعيش فيها. (٢) الدنيا قريبة إلى قلوب العباد (تسعون في المئة من الناس يحبون الدنيا). (٣) الدنيا قريبة إلى الزوال. (فكل إنسان قريب موته).

القول الثاني: الدنيا مشتقة من «دنيَ يَدْنى» بمعنى الخسة والدناءة، والدنيا خسيسة بالنسبة إلى الآخرة. روي أن الدنيا لو عدلت جناح بعوضة لما سقى الكافر شربة من ماء. (سنن الترمذي، رقم: ٢٣٢٠)

وفي ضوء هذا التفصيل (الدنيا) أصله (دُنْوَى)، والقاعدة تقول: إذا كانت الصفة أو اسم التفضيل على (فُعلى) تحولت الواو ياءً، نحو: عُليا من (عُلوى)، و(دُعْيا: مؤنث أدعى اسم التفضيل) من (دُعوى).

سؤال: كلمة (قصوى) صفة في القرآن الكريم، ولم تتحول واوها ياءً ؟

الجواب: هو شاذ، والحكمة فيه أن القصوى معناها البعيدة، فكانت الكلمة أيضا بعيدة عن القانون العام ليناسب اللفظ معناه.

أما إذا كان (فعلى) عَلَما فلا يحول واوها ياء، نحو: حُزوَى، فلا يتحول إلى (حُزيا)، (حُزوى: اسم مكان في نجد أو اليمامة. (معجم البلدان٢/٢٥٥، وراجع تفاصيل هذه القاعدة في: النحو الوافي، وأوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ٣٨٨/٤).

لولا: امتناع الثاني لوجود الأول. أي إنك موجود فلم تنعدم الدنيا. فلو لم تكن موجودا لانعدمت الدنيا.

لم تُخرَج: خَرَجَ (ن) خُروجا: الظهور، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ﴾ (مريم: ١١)

البروز: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ (الصافات: ٦٤)

خَرِجَ (س) خَرَجًا: كان ذا لونين. خرجت الأرض: كَانَ نبتها في مكان دون مكان.

أَخْرَجَ الشيءَ (١) أبرزه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ (الأنعام: ٩٥)

(٢) حذفه. (٣) استثناه. (٤) أبرزه للناس.

أخرج الحديث: نَقله بالأسانيدِ الصَّحِيحة. تخَرَّجَ في كذا: برع فيه، وتربى فيه.

العَدَم: عَدِمَ (س) عَدَمًا وعُدْمًا: فقدَ، تلاشى. في الحديث: «مثل الجليس الصالح

والجليس السوء.. لا يعدمُكَ من صاحب المسك إما تشتريه أو تجد ريحه».(صحيح البخاري، رقم:٢١٠١)

عَدُمَ (ك) سفه. أعدَمَ فلانٌ: أفلس. أعْدَمَ فلانا: حرمه.

الإعدام: إزهاق الروح/ عقوبة الموت. العدَمُ: ضد الوجود.

الإعراب:

كيف: ظرف مقدم، ضرورة من الخ: فاعل، مفعوله مقدر: رسول الله.

ضرورة من: ضرورة: مضاف و(من) موصولة، لولاه الخ: جملة الصلة.

لولاه: حرف شرط، (ه) بمعنى هو: مبتدأ، خبره محذوف، أي موجود. ثم جملة (هو موجود) اسم الشرط.

لم تخرج الدنيا من العدم: فعل وفاعل، ومتعلق: جزاء الشرط، وهو بمجموعه مضاف إليه لـــ (ضرورة).

(٢) فإن حملنا (تدعو) على (تقع) فهو في غنى عن المفعول.

الشرح:

معنى البيت:

المعنى الأول: النبي صلى الله عليه وسلم مخدوم للعالم، لم تخلق الدنيا إلا لأجله، فكيف يكون محتاجا إلى الدنيا وخادما لها؟ كيف تدعو الدنيا رسول الله إلى نفسها وهو سبب الدنيا.

المعنى الثاني: أيسر معنى البيت: (تدعو) بمعنى (تقع)، فإن المرء لا يدعوه الشيء إلى نفسه إلا إذا احتاج إليه، فالمعنى:كيف تقع حاجة شخص إلى الدنيا، لم تخلق إلا لأجله.

المعنى الثالث: المراد بالضرورة: أسبابها، فالمعنى: كيف تدعو أمتعة الدنيا رسولَ الله إلى نفسها وهو سبب وجود أمتعة الدنيا.

«لم تخرج الدنيا من العدم»: أشار به الناظم إلى ما اشتهر على الألسنة من الحديث: «لولاك لما خلقت الأفلاك».

يعترض عليه البعض بأن القرآن الكريم اعتبر العبادةَ – لا رسولَ الله صلى الله عليه

وسلم- سببَ وجود العالم. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦)

وأجيب عنه من وجوه:

١- قد يكون للشيء الواحد عدة أسباب، فمثلا يبني الواحد مدرسة للذكر والعلم والدعوة والتبليغ كلها، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾)هود:١١٨- ١١٩)

وحكى شيخ القرآن الشيخ محمد طاهر البنج بيري-كبير مؤسسة إشاعة التوحيد- في كتابه «البصائر للمتوسلين بأهل المقابر» (ص٤١٧) نقلا عن روح المعاني للعلامة الآلوسي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم «علة الكائنات» من غير رد وإنكار عليه، وإن رد عليه في مقام آخر من هذا ال. يقول صاحب روح المعاني: «إذا كان هذا المشروع في زيارة سيد الخليقة وعلة الإيجاد على الحقيقة فماذا تبلغ زيارة غيره بالنسبة إلى زيارته عليه الصلاة والسلام».

٢- نصَّ القرآن الكريم على أن الدنيا خلقت للبشر، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ (البقرة: ٢٩)

فقولنا: الدنيا خلقت لنا، أو الدنيا خلقت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: سواء؛ فإنه قد يذكر الرعيةُ وقد يُذكر الراعي والأمير. كما نقول: فتح «سومناث» جيش محمود الغزنوي، أو نقول: فتح محمود الغزنوي «سومناث».

٣- ويمكن القول بأن معنى الأية أن الجن والإنس خلقوا لاتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم والإيمان به. وهو عبادة أيضا. وفي قوله تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ (آل عمران: ٨١) إشارة إلى ذلك.

تحقيق الأحاديث التي تفيد بأن النبيﷺ هو سبب خلق الكون:

الأحاديث التي تجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم سبب خلق الكون إما غير صحيحة أو ضعيفة للغاية أو موضوعة، منها:

١- حديث سلمان الفارسي، الذي رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق»

(٥١٧/٣-٥١٨) بسنده بلفظ: «لولاك يا محمد ما خلقت الدنيا». قال ابن الجوزي في «الموضوعات» (٢٨٩/١)، والسيوطي في «اللآلي المصنوعة» (٩٤٢/١): موضوع. وقال الدارقطني: في إسناده أبو السكين -وهو ضعيف- وإبراهيم ويحيى وهما متروكان. وقال الفلاس: كان يحيى كذابا.

٢- وكذلك حديث ابن عباس رواه الحاكم في «المستدرك» (٦١٤/٢-٦١٥) بلفظ: «لولا محمد ما خلقت آدم، ولولا محمد ما خلقت الجنة والنار». وصححه، وقال الذهبي: موضوع.

٣- وروى الديلمي حديث ابن عباس بإسناد آخر في «مسند الفردوس»، وابن حجر في «الغرائب الملتقطة» (رقم:٢٥٣) بلفظ: «أتاني جبريل فقال: يا محمد، لولاك ما خلقت الجنة ولولاك ما خلقت النار». وقال العقيلي: أحد رجاله وهو عبد الصمد بن علي حديثه غير محفوظ، وهو مجهول. وقال الحافظ ابن حجر في «التلخيص الحبير» (٦١٥/٤): قال الصغاني حديثه الآخر: «أكرموا الشهود...» موضوع. وفي إسناد هذا الحديث رواة آخرون مجهولون، منهم: الفضل بن جعفر وعبد الله بن موسى. فإسناد الحديث ضعيف للغاية، لا يستدل به.

٤- وكذلك حديث عمر الذي رواه الآجري في «الشريعة» (٩٥٦) والحاكم في «المستدرك» (٦١٥/٢)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٤٨٨/٥-٤٨٩) بلفظ: «لولا محمد ما خلقتك» وصحح الحاكم إسناده، وقال الذهبي: موضوع. وقال: أحد رواته وهو عبد الرحمن بن زيد واهي الحديث. وقال الحاكم في كتابه «المدخل إلى الصحيح» (١٥٤): هو متهم بالوضع. فقال: عبد الرحمن بن زيد بن أسلم روى عن أبيه أحاديث موضوعة لا يخفى على من تأملها من أهل الصنعة أن الحمل فيها عليه. وضعف جمهور المحدثين- عدا ابن عدي- عبد الرحمن بن زيد. فلا يصح الاستدلال بهذا الحديث لأنه ضعيف جدا وإن لم نعُدَّه من الموضوعات.

٥- وكذلك رواه الطبراني في «الأوسط» (٦٥٠٢) و«الصغير» (٩٩٢) بإسناد آخر، ولكنه لا يصح الاستدلال به لأجل عبد الرحمن بن زيد ومجهولين آخرين.

٦- كذلك حديث ميسرة الذي رواه ابن تيمية في «فتاواه» (١٥٠/٢) نقلا عن «الوفاء» لابن الجوزي، بإسناد ابن بشران. وفي إسناده: أحمد بن إسحاق بن صالح، ذكر الخطيب البغدادي رواة ثقات وغير ثقات من هذه الطبقة يحملون الاسم نفسه، فيصعب تحديده.

ولوسلمنا أن الحديث صحيح؛ فإنه يستحق النظر في عدة أمور:

(١) ذكر الحديث أن آدم عليه السلام توسل بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ولكنه لا ينص على أن محمدا صلى الله عليه وسلم هو سبب خلق الكون. فلا يكون هذا الحديث شاهدًا لحديث سلمان وابن عباس وعمر رضي الله عنهم.

(٢) روت كتب الأحاديث حديث ميسرة هذا بعدة طرق وأسانيد صحيحة، جاء فيه كون محمد صلى الله عليه وسلم نبيا قبل خلق آدم، وليس فيه ذكر التوسل به ولا أنه سبب خلق الكون. فهذه الرواية المنكرة أو الشاذة لا يصح الاستدلال بها.

(٣) نشرَ كتاب «الوفاء» لابن الجوزي، ولكن مع حذف الأسانيد. وأما أصل نسخة الكتاب فليس مطبوعًا ومخطوطه متوفر. فلا يمكن التأكد من إسناد الحديث. وأما حديث ابن بشران فكتبه المخطوطة والمطبوعة متوفرة غير أنه -رغم البحث الطويل- لم نقف على الحديث المطول، نعم ذكِرَ الحديثُ المختصر، جاء فيه كون محمد صلى الله عليه وسلم نبيا قبل خلق آدم عليه السلام، مما يشير إلى أن الناسخ أو المؤلف لفتاوى ابن تيمية أو «الوفاء» قد أخطأ.

(٤) ذكر الإمام الذهبي رحمه الله في سير أعلام النبلاء (٣٨٤/٧) هذا الحديث بإسناده الصحيح الذي يصل إلى شيخ ابن بشران، ولكن ألفاظه مختصرة. جاء في كون محمد صلى الله عليه وسلم نبيا قبل خلق آدم عليه السلام. وليس فيه ذكر كونه سببا لخلق الكون.

بناء على ما ذُكر نكاد نجزم بأن الحديث الطويل الذي رواه ابن تيمية نقلا عن «الوفاء» لابن الجوزي بإسناد ابن بشران قد أخطأ ناسخه أو مؤلفه. فلا يصح الاستدلال بهذه الرواية أيضا.

علاوة على الروايات المذكورة سابقا توجد روايات كثيرة أخرى في الكتب العربية

والأردية، منها «أحسن الفتاوى» وغيره، ولكن لم يرد إسناد شيء منها، لا صحيح ولا ضعيف ولا موضوع. والله أعلم.

وبناء على هذه الروايات ذهب كثير من العلماء منهم: الملا علي القاري رحمه الله في «الأسرار المرفوعة» (٢٨٨)، وشرح «الشفاء» (٣١/١)، والشيخ عبد الحي اللكنوي رحمه الله في «الآثار المرفوعة» (ص:٤٤)، ومجدد الألف الثاني رحمه الله في المكتوبات (٢١٣/١، رقم:٤٤)، والعلامة محمد أنور شاه الكشميري رحمه الله في «ملفوظات كشميري» (٢١١)، والشيخ خير محمد الجالندهري رحمه الله في «خير الفتاوى» (٢٦٧/١)، والشيخ المفتي محمود الحسن الكنكوهي رحمه الله في «فتاوى محمودية» (٨٢/٤-٨٥)، والمفتي محمد فريد رحمه الله في «فتاوى فريدية» (٢٦٠/١)، والشيخ المفتي رشيد أحمد اللدهيانوي رحمه الله في «أحسن الفتاوى» (٤٨٦/١)؛ ذهبوا إلى تصحيح حديث «لولاك» بالنظر إلى المعنى.

علاوة على هؤلاء صحح كثير من العلماء حديث «لولاك» لفظا أو معنى. منهم: الشيخ محمد قاسم النانوتوي- رحمه الله- (رحمت كائنات، ص٢٦، لصاحبه القاضي زاهد الحسيني، والشهاب الثاقب، ص٢٢٧، لمؤلفه شيخ الإسلام حسين أحمد المدني، ذكر مبارك محمد، ص١١-١٢، لمؤلفه شيخ الحديث الشيخ محمدزكريا) والشيخ أشرف علي التهانوي -رحمه الله- (نشر الطيب، ص١٤-١٥، وحفظ الإيمان، ص١٣، وإمداد المشتاق، ص١٢)، والشيخ حسين أحمد المدني -رحمه الله- (فتاوى شيخ الإسلام ٢٦٠/١)، والشيخ عبد الحق الحقاني الدهلوي -رحمه الله- (مقدمة تفسير حقاني، ص١٠١). وحكى الشيخ عبد الحفيظ المكي- رحمه الله- في مقدمته على كتاب «ذكر مبارك محمد» (ص١٠) اتفاق كافة المحققين من أكابر العلماء والمحدثين والفقهاء والصوفية وغيرهم على أن خاتم النبيين وسيد المرسلين محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم هو صاحب «لولاك».

وسبق أن قرأتَ هذا الحديث وما في معناه من الأحاديث أنها كلها على غاية من

الضعف أو موضوعة. والله أعلم. وأما الحديث المشهور «لولاك لما خلقت الأفلاك» فقد اتفق المحدثون على وضعه. فقد قال الصغاني في «الموضوعات» (ص٥٢)، والملا علي القاري في «الأسرار المرفوعة» (٢٨٨)، و«المصنوع» (ص١٥٠)، والعجلوني في «كشف الخفاء» (١٩٢/٢)، والشوكاني في «الفوائد المجموعة» (ص٣٢٦)، والشيخ محمد طاهر الفتني في «تذكرة الموضوعات» (ص٨٦)، والشيخ عبد الحيي اللكنوي في «الآثار المرفوعة» (٤٤): «إنه موضوع».

الترغيب في الزهد:

خلاصة ما ذكر الناظم أنه كان مقبلا على الآخرة وغلبه الزهد، فلم يلتفت إلى الدنيا كثيرا.

وفي الحديث: «ما أنا والدنيا، إنما أنا والدنيا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح منها». (سنن ابن ماجه، رقم:٤١٠٩)

ورَغَّب النبي صلى الله عليه وسلم أمته في الاتصاف به، ففي الحديث: «من أحب دنياه أضر بآخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنياه، فآثروا ما يبقى على ما يفنى». (المستدرك على الصحيحين ٧٨٩٧/٣٩١/٤، قال الحاكم: هذا حديث صحيح، ووافقه الذهبي)

وفي حديث آخر: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء».(صحيح مسلم، رقم:٢٧٤٢)

وفي حديث آخر: «ما مَثَلُ الدنيا في الآخرة إلا مثلُ ما يجعل أحدكم إصبعه في اليم، فلينظر بم يرجع».(سنن ابن ماجه، رقم:٤١٠٨)

وفي حديث: «لوكانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء». (سنن الترمذي، رقم:٢٣٢٠)

وراودته الجبال الشم من ذهب:

كيف عرض الجبال عليه؟:

ذكر الناظم رحمه الله أن الجبال عرضت نفسها على النبي صلى الله عليه وسلم،

فنقول فيه:

(١) وردت عدة أحاديث تفيد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: عرَض عليَّ ربي أن يجعل الجبال ذهبا. وحينئذ هو مجاز في كلام الناظم.

(٢) وربما منح الله تعالى الجبال قوة النطق، فعرضت نفسها على النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن لم نجد هذا المعنى في الأحاديث رغم التتبع الكثير.

ويرد عليه أن الجبال لا روح فيها، ولا كلام. فكيف عرضت نفسها على النبي صلى الله عليه وسلم؟

والجواب عنه: أن الله تعالى أودع الجمادات الشعور والإحساس، أو هذا خلاف العادة.

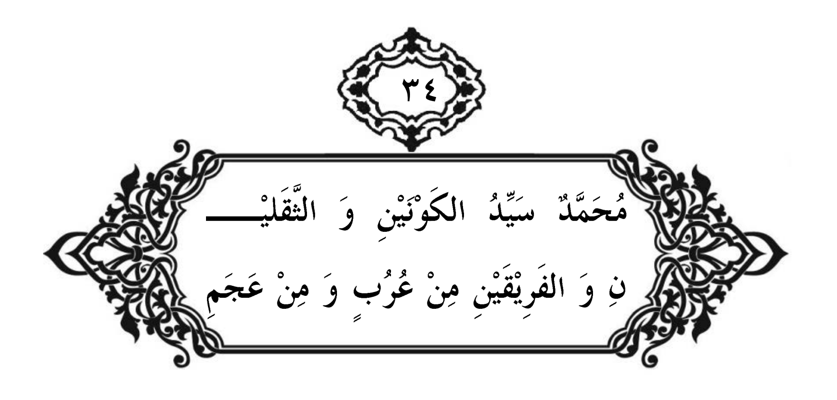
وسيأتي هذا المعنى في الفصل الخامس في سياق «جاءت لدعوته الأشجار ساجدة» بالتفصيل.

(٣) وردت في الأحاديث: «جبال تهامة» و«جبال مكة» و«بطحاء مكة»، كلها بمعنى واحد تقريبا.

رزقنا الله تعالى اتباع السنة النبوية. آمين.

وانتهى ولله الحمد أولاً وآخرًا.

****



اللغة:

مُحَمَّدٌ: حَمِدَ (س) حَمْدًا: مدحه. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ﴾ (آل عمران: ١٨٨)

في الحديث: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها». (صحيح مسلم، رقم: ٢٧٣٤)

أحْمَدَ الرجلُ: فعل ما يحمد عليه. تَحَمَّدَ: أكثر من الحمد. وقال: الحمد لله. تَحَمَّدَ: أثنى على نفسه.

تعريفات متعددة للحمد:

(١) الثناء باللسان على الوصف الاختياري. (٢) الوصف بالجميل. (٣) الثناء بالجميل على سبيل التعظيم، سواء كان في مقابلة النعمة أم لا. (٤) إظهار صفات الكمال. (٥) الثناء على صفة أو نعمة.

الفرق بين الحمد والمدح:

(١) الحمد للحي فقط، والمدح للحي والميت والجماد.

(٢) الحمد خاص بالوصف الاختياري، والمدح عام. يقال: مدحت اللؤلو على صفائها. ولا يقال: حمدت اللؤلؤ.

(٣) الحمد يكون من أعماق القلب، والمدح قد لايكون من القلب.

(٤) المدح منهي عنه في بعض الأحيان، و ليس الحمد كذلك، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم الترابَ». (صحيح مسلم، رقم: ٣٠٠٢)

ولذا ورد في القرآن الكريم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾. (للاستزادة منه راجع: بدائع الفوائد ١/٣٣١، فصل فيما يجدد من المصادر، وتفسير الرازي١/٢٨)

الفرق بين الحمد والشكر:

(١) الحمد لا يكون إلا باللسان، وأما الشكر فقد يكون باللسان، وقد يكون بالقلب، وقد يكون بالجوارح، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ (الإسراء: ١١١)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ (سبأ: ١٣)

(٢) الشكر في مقابلة النعمة، والحمد أعم منه.

(٣) الحمد: ذكر الإنعام سواء كان على نفسه أو على غيره. والشكر: ذكر الإنعام على نفسه. (للاستزادة منه راجع: مدارج السالكين٢/٢٣٦، وما بعده، فصل الفرق بين الحمد والشكر؛ تاج العروس ١٢/٢٢٦، مادة: شكر)

سَيِّد: سادَ (ن) سِيادة، وسُوددا: صار سيد القوم، وعظم.

سادَ الشيءُ: غطَّى، وانتشر.

سَوِدَ (س) سَوَدًا: اسود، ساودَه: غالبه في السيادة والعز. تَسَوَّدَ: تزوج.

سَوَّدَ: جعله سيدا، وزوجه. ورد في الحساب يوم القيامة: «فيلقى العبدَ فيقول: ألم أكرمك و أسوِّدك وأزوِّجك». (صحيح مسلم، رقم:٢٩٦٨)

السيِّد: (١) المالك، (٢) الملك، (٣) المولى ذو العبيد والخدم، (٤) كل من افترضت طاعته، (٥) كل من كان من نسل السيدة فاطمة رضي الله عنها، (٦) أشرف الشيء وأعلاه. نحو: القرآن سيد الكلام. ج: سادة/ سيائد.

الكونين: كَانَ (ن) الشيءُ كَونًا وكِيانًا: وجد.

تدل «كان» على عدة معانٍ:

(١) بمعنى صار. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ (هود: ٤٣)

(٢) بمعنى الحال، نحو قوله تَعَالَىٰ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران: ١١٠)

(٣) التسلسل الزمني، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (النساء: ٩٦)

«كان» على قسمين:

(١) ناقصة، فترفع الاسم وتنصب الخبر، نحو: كان زيد قائما.

(٢) تامة: تدخل على الفاعل فقط، ويتم المعنى. فهي بمعنى: ثبت/ وقع. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ (البقرة: ١٤٤)

الكونان: الدنيا والآخرة.

الثقلين: ثَقُلَ (ك) ثِقْلا وثَقَالةً: شق.ث قُلَ: ضعف لسانه.

أثقَلَتْ المرأة: حملت. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾ (الأعراف: ١٨٩)

اثَّاقَل/ تثاقَلَ: ثقل، وتباطأ. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ (التوبة: ٣٨)

الثقلان: الجن والإنس. ورد في كيفية صراخ الميت من عذاب القبر: «يسمعها مَن يليه غيرُ الثقلين». (صحيح البخاري، رقم: ١٣٧٤)

الفريقين: فَرَقَ (ن) فَرقًا وفُرقانًا: (١) ميز أحد الشيئين من الآخر. (٢) حكم وفصل. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ (المائدة: ٢٥)، (٣) شقَّ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ (البقرة: ٥٠)، (٤) أوضحه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ﴾ (الإسراء: ١٠٦)

فَرِقَ (س) جزع، واشتد خوفه. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ (التوبة: ٥٦)

فارَقَ مفارَقَةً: باعده، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ (الطلاق: ٢)

افترق: اعتزله وباعده.

من عُرْبٍ: عَرُبَ (ك) عُروبًا وعُروبةً: فصح لسانه.

أعرب الكلام: (١) أوضحه. وفي الحديث: «الثيب تعرب عن نفسها». (سنن ابن ماجه، رقم: ١٨٧٢) (٢) إجراء القواعد العربية في الكلام.

أعرب في البيع: أعْطى العربون. والعربون: ما يعطي المشتري البائعَ جزءًا من الثمن، إن تَمّ البيع فهو من الثمن، وإن لم يتم فهو للبائع. وهذا ممنوع في ضوء الحديث. عَرِبَ (س) عَرَبًا: أبان لسانه بعد العجمة.

عَرِبَت المعدةُ: فسدت. قال بعض الصحابة: «إن أخي عرب بطنه، فقال: اسقه عسلا».(صحيح مسلم، رقم:٩١)

تَعرَّبَ: (١) تشبه بالعرب (٢) أقَام بالبادية. قال الحجاج لسلمة بن الأكوع: «تعَرَّبتَ»؟ قال: «لا، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن لي في البدو».(صحيح البخاري، رقم :٧٠٨٧)

عَجَم: عَجَمَ (ن) عَجْمًا: أزال الإبهام بالنقط والشكل. (٢) عضه ليعلم صلابته من رخاوته.

عَجُمَ (ك) كان في لسانه عجمة.

الأعجم: (١)الأخرس. (٢) غير العرب، (وإن كان يفصح الكلام). (٣) ذو كلام غير واضح، (وإن كان عربيا). ج: أعاجم.

المعجم: (١)ديوَان لمفردات اللُّغَة مُرَتّب على حُرُوف المعجم. (٢) حرف عليه نقط. (٣) من لا يقدر على الكلام. وفي الحديث: «اتقوا الله في هذه البهائم المعجمَة».(سنن الترمذي، رقم: ٢٥٤٨).

عجمي: غير عربي. ج: عَجَمٌ. والعُجْمُ: غير العرب.

استعجم: استصعب. وفي الحديث: «إذا قام أحدكم من الليل فاستعجم القرآنَ على لسانه فلم يدر ما يقول فليضطجع».(صحيح مسلم، رقم:٧٨٧)، (٢) لزم الصمتَ.

العَجْماء: البهيمة. وفي الحديث: «العجماء جرحها جبار».(صحيح البخاري،رقم،٦٩١٢)

الإعراب:

محمد سيد:

(١) مُحَمَّدٌ: مبتدأ، خبره (سيد الكونين).

(٢) (هو) مبتدأ مقدر، (محمد) خبر أول، و(سيد الكونين) خبر ثانٍ.

(٣) (أمدح) محمدا سيد الكونين.

(٤) محمدٍ سيدِ الكونين: عطف على (من) في قوله: (ضرورةُ من). ضرورة من وضرورة محمد.

والثقلين: عطف الخاص على العام.

من عجم: أعاد الجار للإبقاء على وزن الشعر.

الشرح:

يحدد هذا البيت مَن سبق بيان صفاته .وقدم الصفات على الاسم لتشويق السامع إليه. وهو أوقع في النفس.

سَيِّد الكونين:

سيادته صلى الله عليه وسلم:

(١) قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ (سبأ:٢٨)، وقَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء: ١٠٧)، وقَالَ تَعَالَىٰ:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ﴾ (الأعراف: ١٥٨)

(٢) في الحديث: «أنا سيدُ ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مشفع».(صحيح مسلم، رقم:٢٢٧٨)

في حديث الشفاعة الكبرى: «أنا سيد الناس يوم القيامة».(صحيح البخاري، رقم: ٤٧١٢)

(٣) في الحديث: «أنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر».(سنن الترمذي، رقم:٣٦١٠)

(٤) وفي حديث آخر: «ألا وأنا حبيب الله ولا فخر، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر، و أنا أول شافع وأول مشفع يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول من يحرك حلق الجنة، فيفتح الله لي فيُدخلنيها و معي فقراء المؤمنين ولا فخر، وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر». (سنن الترمذي، رقم:٣٦١٦)

(٥) «فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهورا ومسجدا، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون». (صحيح مسلم، رقم:٥٢٣)

وفي رواية: «وبينا أنا نائم أتيتُ بمفاتيح خزائن الأرض فوضعت في يدي».(صحيح البخاري، رقم:٧٠١٣؛ وصحيح مسلم، رقم:٥٢٣).

(٦) الشفاعة الكبرى: يرجع الناس إلى مختلف الأنبياء عليهم السلام يوم القيامة ليقوم الحساب، وأخيرا يطلبون من النبي صلى الله عليه وسلم أن يشفع لهم. ثم يبدأ الحساب. (للاستزادة منه راجع: صحيح البخاري، رقم:٤٧١٢)

(٧) المعراج: قَالَ تَعَالَى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ (الإسراء: ١) (للاستزادة منه راجع: صحيح البخاري، رقم:٣٤٩)

(٨) قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ (الحجر: ٨٧)

(٩) أخذَ العهد من الأنبياء كلهم أنهم ينصرون النبي صلى الله عليه وسلم إذا ظهر في عهدهم. روى ابن جرير في تفسيره حديثا، حكاه جمع من المفسرين، وهو:

«عن علي بن أبي طالب قال: لم يبعث الله عز وجل نبيا آدم فمن بعده إلا أخذ عليه العهدَ في محمد: لئن بعث وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، ويأمره فيأخذ العهد على قومه، فقال قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ (آل عمران: ٨١ . تفسير الطبري٣/٢٣٦).

(١٠) إنه صلى الله عليه وسلم نبي الأنبياء وسيد المرسلين، روى الدارمي:«والذي نفس محمد بيده لو بدا لكم موسى... ولوكان حيا وأدرك نبوتي لاتبعني».(سنن الدارمي، رقم:٤٤٩)

ورد وصف النبي صلى الله عليه وسلم بسيد المرسلين في أحاديث كثيرة، والأجدر بالذكر منها أحاديث الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم. (راجع على سبيل المثال: سنن ابن ماجه، ص٦٥، باب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم)

ورد وصف النبي صلى الله عليه وسلم بالسيد في غير الصلاة عليه، نسوق حديثين فقط:

١- عن زرارة بن أوفى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لما عرج بي إلى السماء فأوحى إليَّ... بأني سيد المرسلين، وإمام المتقين، وقائد الغر المحجلين».(إتحاف الخيرة المهرة ٩/٥٩/٨٥٤٢)

٢- «أنا سيد المرسلين إذا بعثوا، وسابقهم إلى وردوا».(كنْز العمال، رقم:٣٢٠٤٢)

فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم سيد المرسلين فلأن يكون سيد أممهم أولى.

ينْزل عيسى عليه السلام في أمته، ففي الحديث: «فيكون عيسى بن مريم عليه السلام

في أمتي حكما عدلا وإماما مقسطا». (سنن ابن ماجه، رقم:٤٠٧٧)

وفي فتح الملهم: «يكون عيسى حاكمًا من حكام هذه الأمة، ولا يكون نزوله من حيث إنه نبي مستقل».(فتح الملهم ٢٨٥/٢؛ راجع أيضا: فتاوى دارالعلوم زكريا ٦٩/١، ٧٢-٧٣)

(١١) إنه أول من يحشر، ففي الحديث: «فإن الناس يصعقون، فأكون أول من يفيق». (صحيح البخاري، رقم:٣٤٠٨)

«أنا أول الناس خروجا إذا بعثوا، وأنا خطيبهم إذا وفدوا، وأنا مبشرهم إذا أيسوا».(سنن الترمذي، رقم:٣٦١٠)

مُحَمَّد: اشتهر النبي صلى الله عليه وسلم في الأرض بمحمد، وفي السماوات والأمم السابقة بأحمد. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُ﴾ (الصف: ٦)

معنى محمد:

(١) الذي يحمده الإنس والجن. (٢) من يستحق المدح، مدحه أحد أم لا، وهو صلى الله عليه وسلم نعمة عظيمة، امتن الله تعالى به على عباده، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ (آل عمران: ١٦٤)

القرآن الكريم معمور بمدحه والثناء عليه، وخاصة السور الأخيرة منه تكثر من الثناء عليه.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ١﴾ (الشرح: ١)... وغيرها.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾ (الكوثر: ١) تنويه بشأنه صلى الله عليه وسلم.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ٢﴾ (الكوثر: ٢) تنويه ببرنامجه. صلِّ: عبادة بدنية. وانحر: عبادة مالية.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ٣﴾ (الكوثر: ٣) نتيجة رسالته.

أفضل أسمائه صلى الله عليه وسلم:

له صلى الله عليه وسلم أسماء عديدة أفضلها: محمد وأحمد، لأنه:

(١) يحمد الله تعالى حمدا لم يحمده نبي غيره. في الحديث: «ثم يفتح الله علي من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه على أحد قبلي». (صحيح البخاري، رقم :٤٧١٢)

وفي رواية: «يُلهمني محامد أحمده بها لا تحضرني الآن».(صحيح البخاري، رقم:٧٥١٠)

(٢) أول سور الكتاب الذي أعطيه هي سورة الحمد.

(٣) مقامه مقام محمود.

(٤) في القرآن الكريم سورة اسمها سورة محمد.

(٥) حض أمته على حمد الله تعالى في كل حال.

(٦) لواء الحمد بيده يوم القيامة، كما مر.

(٧) أحمد: أكثر الناس حمدا، مبالغة في الحمد على زنة التفضيل. أو أحمد: اسم تفضيل بمعنى المفعول، بمعنى: أكبر محمود. ومعنى محمد: من حُمِدَ بكثرة.

(٨) وصفت أمته في الكتب السابقة بـــ (حمادون). (سنن الدارمي، رقم:٥)

قال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

وضَمَّ الإله اسم النبي إلى اسمه ۞ إذا قال في الخمس المؤذن أشهد

وشَقَّ له من اسمه ليجله ۞ فذو العرش محمود وهذا محمد

(ديوان حسان بن ثابت، ص٤٢)

روى البيت الثاني صاحب كنْز العمال نقلا عن ابن عساكر مرفوعًا من رواية عبد الله بن عباس.(كنْز العمال، رقم:٣٢٠١٠. وللاستزادة من كلمة (محمد) و(أحمد) راجع: الشفا بتعريف حقوق المصطفى مع حاشية الشمني١/٢٢٩، فصل في أسمائه صلى الله عليه وسلم؛ والروض الأنف١/٢٧٦، اسم محمد وأحمد؛ القول البديع ١٦٨-١٧٠؛ جلاء الأفهام ١٢٢؛ مرقاة المفاتيح، باب أسماء النبي صلى الله عليه وسلم)

سبب تسمية الجن والإنس بالثقلين:

الثقلين: لم سميت الجن والإنس بالثقلين مع أن الجن ليسوا ثقالا؟

الجواب (١) سموا به تغليبا، وإلا فإن الإنس هم الثقال في الواقع. وما أكثر التغليب في كلام العرب. فيقال: القمران: للشمس والقمر، والأسودان: للماء والتمر. وعمران: لأبي بكر وعمر. والأبوان: للأب والأم.

(٢) لكونهما مثقلين بالأحكام. فالجن والإنس مكلفون، وعليهم ثقل الأحكام،

وليس غيرهم من الخلق كذلك.

(٣) الثقيل: هو النفيس من الأشياء، الذهب ثقيل: أي نفيس. فسموا بذلك لنفاستهم.

(٤) لكونهما مثقلين بالذنوب.

وحاصل الثاني والرابع واحد. (للاستزادة منه راجع: تفسير سورة الرحمن :٣١، في مصادر التفسير)

بعث محمد صلى الله عليه وسلم إلى الجن أيضا:

أشار الناظم رحمه الله إلى أن بعثته إلى الجن أيضا، وحكى العلامة ابن حزم الإجماع على هذه العقيدة. (الفصل في الملل والأهواء ١٤٧/٣)

وتشير آيات القرآن الكريم إلى ذلك أيضا، وحكى بالتفصيل قصة استماعهم للقرآن الكريم و إيمانهم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ (الأحقاف:٢٩)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ (الجن: ١)

روى البيهقي: «بعثت أنا إلى الجن والإنس».(السنن الكبرى٢/٤٣٣، باب أين ما أدركتك الصلاة)

ألف الشيخ عبد الله بن محمد بن صديق الغماري (ت:١٤١٣هـ) رسالة ماتعة لطيفة في هذا الموضوع، سماها «قرة العين بأدلة إرسال النبي إلى الثقلين» في (٦٨) صفحة. ساق فيها (٢٩) دليلا على بعثة النبي صلى الله عليه وسلم إلى الجن، وأسماء (٣٨) من صحابة الجن، وسرد ثلاثة أحاديث من روايتهم، وانتهت الرسالة ببعض الأحكام الخاصة بهم.

أسماء النبي صلى الله عليه وسلم:

في الحديث: «لي خمسة أسماء: أنا محمد وأحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب».(صحيح البخاري، رقم:٣٥٣٢. وراجع لشرح الحديث: عمدة القاري ٢٨٢/١١-٢٨٣)

قال العلامة العراقي في مفتتح «ألفية السيرة النبوية»: يذكر للنبي صلى الله عليه وسلم ٦٧، ٩٩، ٣٠٠ اسمٍ، ووصل بها بعض الصوفية إلى (١٠٠٠)اسم. (ألفية السيرة النبوية، ص١)

قال ابن العربي: «وقال بعض الصوفية: لله ألف اسم، وللنبي صلى الله عليه وسلم ألف اسم [ثم سرد سبعة وستين من أسمائه الشريفة].(عارضة الأحوذي١٠/٢٨١)

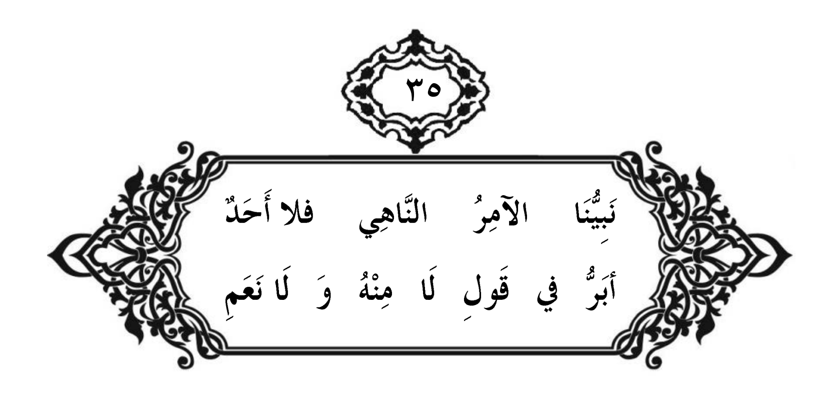
ونظم الشيخ محمد موسى الروحاني بازي في «القصيدة الحسنى في أسماء النبي العظمى» (٥٢١) اسما، وهذه القصيدة في (٣٤) صفحة.

وألف نحو خمسة عشر عالِمًا حول أسماء الرسول صلى الله عليه وسلم، أجدرها بالمطالعة مؤلفات العلامة السيوطي، والقرطبي، وابن فارس اللغوي.(كشف الظنون١/٨١)

وسرد صاحب هدية العارفين تراجم مختلف الأعلام وذكر تصانيفهم في هذا الموضوع. وطبع «الرياض الأنيقة في شرح أسماء خير الخليقة» للسيوطي، و«المنبئ في شرح أسماء النبي» لابن فارس من بيروت غير مرة.

وساق العلامة السخاوي في «القول البديع»(٤٤٨) اسما من أسمائه المباركة. (القول البديع ص ١٧٤-١٨١. للاستزادة منه راجع: (١) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد١/٤٠٠-٥٥٥، وهو في نحو مئة وخمسين صفحة،(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ١/١٠٤-١٠٦، ذكر أسماء رسول الله صلى الله عليه وسلم. (٣) تحفة المودود، ص ٩٠، الفصل الثامن في جواز التسمية بأكثر من اسم واحد. (٤) زاد المعاد ١/٨٤)

****



اللغة:

نَبِيُّنَا: نَبَأ(ف) فلانا نَبَأً: أخبره. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِي۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ (الأنعام: ٣٤)

ورد في حق القرآن الكريم: «فيه نبأ ما قبلكم».(سنن الترمذي، رقم:٢٩٠٦،)

نَبَّأ/ أَنْبَأ الخبرَ: أعلمه. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝٣﴾ (التحريم: ٣)، و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ (البقرة: ٣٣)

استنبأ الخبَر: بحث عنه. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ﴾ (يونس: ٥٣)

النُّبُوَّة: سفارة بَين الله عز وَجل وَبَين العباد. وتبدل الْهمزَة واوا وتدغم فَيُقَال النُّبُوَّة. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ﴾ (العنكبوت: ٢٧)

تنَبَّأ: ادعى النبوة.

الناهي: نَهَى(ف) عن الشيء: منعه عنه. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ (العنكبوت: ٤٥)

في الحديث: «المهاجر من هجرَ ما نهى الله عنه».(صحيح البخاري، رقم:١٠)

نَهى الشيء إليه:بلغه إياه. نَهِيَ (س) ساهم.

أنهى: ختمه. نَهَّى الشَّيْء بلَّغه نهايته.

انتهى: كف عَنهُ/ أمسك عنه. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ (الحشر: ٧)

الناهي: (١)الشبعان، (٢)المانع، ج: نُهاةٌ.

أبَرَّ: البِرُّ: التوسع في الصدق والتقوى، كما أن البَرَّ يكون واسعًا.

بَرَّ (س): برًّا اتقى، وحسن سلوكه. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ﴾ (البقرة: ٢٢٤)

بَرَّ (ض) بِرًّا في اليمين: أمضاه. أبَرَّ: سافر في البر. الأبَرُّ: على غاية من الصلاح/ الصدق.

البَرُّ: (١) البَرُّ: ضد البحر، ما انبسط من سطح الأرض. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ (يونس: ٢٢)

(٢) من أسماء الله الحسنى. (سنن الترمذي، رقم ٣٥٠٧)

(٣) المطيع، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ﴾ (مريم: ١٤)

(٤) البِرُّ: الصلاح، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ﴾ (المائدة: ٢)

البُرُّ: حب القمح. البارُّ: الصالح، ج: أبرار، وبررة.

البرير: ثَمَر الأَرَاك والمسماة بالبريرة هي التي تريح الناس.

ولا نعم: نَعِمَ (س) نعم حاله. نَعُمَ (ك) لان.

نعم: يجعل المثبت مثبتا والمنفي منفيا. بلى: يجعل المنفي مثبتا. فإن سبق نعم إثباتٌ كان مثبتا، وإن سبقه نفيٌ كان نافيا.

الإعراب:

نبينا: تابع لإعراب (محمد) في البيت السابق.

نبينا الآمر: (١) نبينا: مبتدأ، الآمر: خبر أول، والناهي خبر ثانٍ. (٢)نبينا: موصوف، صفته الأولى: الآمر. والناهي صفته الثانية.

ولا نعم: لا:حشو فيما يبدو، وإنما كررها لتاكيد النفي، ولضرورة وزن الشعر.

لا أحدٌ أبَرّ: لا: نافية. أحدٌ: اسمها. أبرَ خبرها. (١) أبرَّ: منصوب بـــ لا. (٢) أبرُّ: يجوز رفعه، لأن عمل (لا) ضعيف. الآمر (لكل خير)، الناهي(عن كل شر).

الشرح:

حاصل البيت: أن النبي صلى الله عليه وسلم إذا أخبر بوقوع شيء أو لا وقوعه أو أمر بشيء أو نهى عن شيء، فلا أصدق منه في ذلك.

لا أحد أصدق منه:

لا ونعم:

(١) المراد معناه الحقيقي، أي إذا قال: نعم أو قال: لا، فلا أحد أصدق منه.

(٢) لا أحد أصدق منه في الخبر المثبت أو النافي.

مثال (لا): لم يشرك الأنبياء، و لم يدعوا إلى غير الله تعالى.

مثال (نعم): الأنبياء صادقون، وقاموا بواجب الدعوة والتبليغ.

ذكر الناظم رحمه الله في الشطر الثاني كونه صلى الله عليه وسلم صادقا وأمينا.

بلغ صلى الله عليه وسلم من الصدق والأمانة أن الكفار كلهم كانوا يرونه صادقا رغم عدائهم وأذاهم له. وعليه حين قام على الصفا وجمع قريشا وتلا عليهم كلام الله، فقالوا قولا واحدا: لم تكذب قط. روى البخاري في صحيحه: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ صعد النبي صلى الله عليه وسلم على الصفا فجعل ينادي: يا بني فهر، يا بين عدي، لبطون من قريش حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو؟ فجاء أبو لهب وقريش وقال: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم، أ كنتم مصدقِيَّ؟ قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقا. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد...».(صحيح البخاري، رقم: ٤٧٧٠)

ولذا كان الكفار يودعون عنده صلى الله عليه وسلم ودائعهم، فكانت ودائعهم عنده من لدن شبَّ حتى آخر أيامه في مكة، ولما أراد الهجرة أمر عليًّا أن يؤدي الأمانات إلى أهلها ثم يلحقه في المدينة المنورة.

«وأقام علي بن أبي طالب رضي الله عنه ثلاث ليالٍ وأيامها حتى أدى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الودائع التي كانت عنده للناس حتى إذا فرغ منها لحق رسول الله صلى الله عليه وسلم».(السنن الكبرى للبيهقي٦/٢٨٩)

ويشمل ذلك كافة العهود والمواعيد التي قطعها النبي صلى الله عليه وسلم لمن قطعها، ولن يثبت التاريخ أنه صلى الله عليه وسلم تزحزح قيد أنملة عما قال فيه: نعم.

إيراد: لم يتخلف قوله: نعم ولا، في حين ثبت أنه صلى الله عليه وسلم قال

للأشعريين :لا أحملكم، ثم حملهم. وقال لذي اليدين: لم أنسَ في الصلاة، في حين قد ركع ركعتين مكان أربع ركعات.

الجواب: قوله: «لم أنس» في قصة ذو اليدين أراد به نفي نسيانه كعامة البشر، أي لا يصدر مني ما يصدر عن عامة الناس من التقصير والنسيان. بل نسياني رحمة أيضًا، حيث تتعلم به الأمة الأحكام.

وقوله: «لا أحملكم» معناه: ليس عندي ظهر فكيف أحملكم عليه؟ ثم حصل له الظهر فحملهم عليه. ولذا قال: ما أنا حملتكم ولكن الله حَمَلكم.

لا أحدٌ أبرَّ:

لا بد للمتصدي للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر -تلك الوظيفة الهامة- أن يكون أمينا.

هذا البيت فيه لنا درس عظيم، حيث إن كلامنا ودعوتنا ستحمل من التأثير ما حمل كلام السلف الصالح شريطة أن نتخلق بهذه الصفات. قال عيسى للحواريين: «قولكم: نعم، يجب أن يكون نعما حقا». قال العلامة ابن قتيبة:

«قرأت في الإنجيل: أن المسيح عليه السلام قال للحواريين:...لا تحلفوا بشيء ... ليكن قولكم: «نعم»، «نعم»، و«لا»، «لا»».(تاويل مختلف الحديث، ص٥٨٦)

نبينا: النبي إنسان بعثه الله لتبليغ الحق إلى الخلق.

الفرق بين النبي والرسول:

القول الأول: قال المحقق ابن الهمام والعلامة التفتازاني وكثير من العلماء: هما واحد.

قال في شرح العقائد: «مبلغين عن الله تعالى؛ لأن هذا معنى النبوة والرسالة».(شرح العقائد النسفية، ص ١٤٠، للاستزادة منه راجع: شرح العقائد النسفية، ص١٧؛ شرح المقاصده /٥. والعصيدة السماوية شرح العقيدة الطحاوية ٣١٥/١)

إيراد: قوله تَعَالَىٰ:﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ (الحج: ٥٢) يفيد الفرق بينهما ؟

الجواب: هذا الخلاف في الحيثية. فهو رسول بالنظر إلى التعلق مع الخالق، فقد

أرسله الله تعالى، ونبي بالنظر إلى التعلق مع المخلوق.حيث إنه ينبئ المخلوق. وبتعبير آخر: ذات واحدة لها عدة صفات، مثلا: الرسول نذير وبشير وداعٍ إلى الله أيضًا.

وقال الجمهور: بينهما فرق، وذكروا له وجوها من الفرق:

(١) الرسول: من أعطي شريعة جديدة وكتابا جديدا، أو بعث إلى قوم جديد. والنبي أعم: سواء تحقق له ذلك أم لا.

ويرد عليه: أن إسماعيل عليه السلام رسول ونبي، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾ (مريم: ٥٤)، و لم يكن له شريعة جديدة ؟

الجواب (١) معنى الشريعة الجديدة أنها جديدة للأمة، وشريعة إسماعيل وإن كانت شريعة إبراهيم إلا أنها جديدة بالنسبة لبني جرهم.

الجواب(٢) لم يثبت حين بعثة إسماعيل أنها كانت شريعة قديمة أو شريعة إبراهيم.

(٢) الرسول: المأمور بتبليغ الرسالة. والنبي غير مأمور بتبليغ الرسالة، سواء بلغ أو لم يبلغ.

ومن ذهب من العلماء إلى أن الخضر نبي لا يصفونه بالرسالة. وكذلك من قال بأن مريم أو أم موسى كانت نبيئة (مثل العلامة ابن حزم وغيره) قالوا:إنها موحى إليها، و لم تكن مأمورة بالرسالة.

(٤) قال العلامة ابن تيمية: الرسول من كذّبه الناس، فهو مبعوث إلى المخالفين، وهو مأمور بالجهاد. والنبي أعم منه، سواء أُمِرَ بالجهاد أم لا. يقول العلامة: «فإن أرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله فهو رسول...، فإن أرسل إلى كفار يدعوهم إلى توحيد الله و عبادته وحده لا شريك له، ولا بد أن يكذب الرسل قوم... فإن الرسل ترسل إلى المخالفين فيكذبهم بعضهم».(النبوات للعلامة ابن تيمية، ص٤٨٥-٤٨٦)

ويرد على هذا القول: بأن إسماعيل عليه السلام كان رسولا و لم يكن مأمورا بالجهاد، و لم يبعث إلى المكذبين ؟

(٤) الرسول يبعث إلى الأمة، والنبي يبعث إلى قومه. و تذكر الكتب الصلاة التي يُؤتى بها لدى زيارة الروضة المقدسة بلفظ: «جزاك الله عنا أفضل ما جازى نبيا عن قومه ورسولا عن أمته».

تنبيه:

أشارت رسالة «چهل درود» (الصلوات الأربعون) التي ألّفها الشيخ محمد زكريا إلى هذا الحديث، من غير عزو إلى أصل الكتاب. ورسالة «چهل درود» المطبوعة بالحجم الصغير تعزو الحديث إلى صحيح البخاري، ولم أجده فيه، وهذه الرواية رواها في القول البديع (ص٢٥، ط: مؤسسة الريان) نقلا عن ابن أبي عاصم، من غير ذكر للإسناد ولا من رواه من الصحابة، ولا توجد فيه هذه الألفاظ. وإنما فيه: «من أفضل ما جازيت نبيا عن أمته».

(٥) الرسول: نبي له شأن عظيم. والنبي أعم منه. ولذا قدم القرآن الكريم الرسول على النبي، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ﴾ (الحج: ٥٢)

أدلة الجمهور على الفرق بينهما:

(١) قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ﴾ (الحج: ٥٢)

(٢) عن أبي أمامة قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد... حتى جاء أبوذر... قال: قلت: يا رسول الله، كم وفى عدة الأنبياء؟ قال: مئة ألف وأربعة وعشرون ألفا، الرسل من ذلك ثلاث مئة وخمسة عشر جما غفيرًا».(مسند أحمد، رقم:٢١٢٥٧؛ المعجم الكبير للطبراني٨/٢١٧/٨٧٧١)

رواه ابن حبان في صحيحه بلفظ: «قلت :يارسول الله، كم الأنبياء؟ قال: مئة ألفوعشرون ألفا».(صحيح ابن حبان، رقم:٣٦١)

ورواه أبونعيم في الحلية (١/١٦٦)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٣/٢٥٤ – ٢٥٥)، وابن جرير الطبري في تاريخ الرسل والملوك (١/٩٥)

وللحديث إسنادان: في أحدهما: معان بن رفاعة، وعلي بن يزيد، وأبو عبد الرحمن، كلهم ضعفاء. وفي الإسناد الآخر: إبراهيم بن هشام، متهم بالكذب، ولكن أورد أبو نعيم ثلاثة من المتابعات لإبراهيم بن هشام، وأورد ابن جرير في تاريخه متابعا آخر له. وهؤلاء لا يخلو أحد منهم من الضعف، ولكن كثرة المتابعات تجبر هذا الضعف. ولذا سكت عليه الحافظ ابن كثير، والحافظ ابن حجر والعلامة العيني. (راجع: فتح الباري ٦/٣٦١؛ عمدة القاري ١١/٣؛ البداية والنهاية١/١٠٨. وقال العلامة الآلوسي: زعم ابن الجوزي أنه موضوع، و ليس كذلك، نعم قيل: في

سنده ضعف جبر بالمتابعة.(روح المعاني، الحج:٥٢)

يقول أهل العلم: لا يحدد العدد في الإيمان بالأنبياء، لأن تحديد العدد في الأمور الإيمانية يتطلب درجة اليقين، وهذه الأحاديث الواردة في عدد الأنبياء لا تفيد اليقين والجزم. (راجع: شرح العقائد النسفية، ص ١٣٩).

مأخذ «النبي»؟

(١) نبي: مأخوذ من (نبأ) بمعنى الإخبار، والنبي يخبر العباد عن الله تعالى. (٢) من النبو، بمعنى الارتفاع، والأنبياء أعلى خلق الله.

حكم نداء: يا نبيء الله ؟

الإيراد: قال بعض الأعراب: يا نبيء الله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لا تُنبِر باسمي».[(١)] (لسان العرب١/١٦٢)

فإن قيل: إذا كان النبي مشتقا من (نبأ) فما بال رسول الله صلى الله عليه وسلم ينكر عليه؟

قلنا: (١) ليس «نبيء» على لغة قريش، فأنكر عليه.

(٢) إنما أنكر على الأعرابي لأن حمل «النبيء» على الخارج من مكة إلى المدينة. أي أني نبي الله بمعنى المبلغ عن الله؛ فإن الخروج من مكة أمر عارض، والتبليغ عمل مستمر. (بصائر ذوي التمييز للفيروزآبادي ١/١٤٤٩)

لِمَ قال الناظم: نبينا؟

فإن قيل: ما بال الناظم قال: نبينا، و لم يقل: رسولنا، مع أن كليهما واحد وزنا؟

---

(١) هذا الحديث بهذه الألفاظ لا يوجد في مصادر الحديث. نعم روي عن أبي ذر وعبد الله بن عباس بألفاظ متقاربة منه.

أما حديث أبي ذر فرواه الحاكم في «المستدرك» بلفظ: «جاء أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا نبيء الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لست نبيء الله، ولكني نبي الله»». وقال: صحيح على شرط الشيخين، ورده الذهبي وقال: بل منكر لم يصح. وفي إسناده حمران بن أعين، قال ابن معين: ليس بشيء، وقال أبوداود:رافضي.

وأما حديث ابن عباس فرواه العقيلي في «الضعفاء الكبير» (٣/٨١)، وابن جُميع الصيداوي في «معجمه» (١٨٥) بإسناد: عبد الرحيم بن حماد عن الأعمش عن الشعبي عن ابن عباس، وباللفظ المذكور، وقال الذهبي في عبد الرحيم بن حماد: «عبد الرحيم شيخ واهٍ، ولا أصل لهذا الحديث من حديث الأعمش». (ميزان الاعتدال٢/٦٠٤)

الجواب:(١) للإشارة إلى أن كونه صلى الله عليه وسلم نبيا كفاه فضلا، وأما الرسول فأعلى منه بمراتب. وهذا الجواب غير معقول.

الجواب:(٢) النبي والرسول واحد عند الناظم.

الجواب:(٣) سبق ذكر «سيد» في البيت السابق، فناسبه ذكر «نبي»؛ فإن «النبي» يشير إلى السمو والرفعة.

الآمر الناهي:

فيه إشارة إلى أنه صلى الله عليه وسلم نبي الدعوة. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ (الأعراف: ١٥٧)

وظائف رسول الله صلى الله عليه وسلم:

للنبي صلى الله عليه وسلم وظائف في أمته في ضوء القرآن الكريم:

(١) هو حكَم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ (النساء: ٦٥)

(٢) يحل ويحرم بأمر الله تعالى، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ (الأعراف: ١٥٧)

(٣) يدعو الناس إلى الله تعالى، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ (الأحزاب:٤٦)

(٤) من وظائفه التبشير والإنذار، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ (سبأ: ٢٨)

(٥) كان حاكِمًا بين الناس، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ (النساء:١٠٥)

(٦) كان قاضيًا بين الناس، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾ (الأحزاب: ٣٦)

(٧) هو معلم ومربٍّ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ (آل عمران: ١٦٤)

(٨) يفسر القرآن الكريم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (النحل: ٤٤)

الفرق بين الأحد والواحد:

(١) الأحد: الواحد باعتبار ذاته. والواحد: الواحد باعتبار صفاته.

(٢) الأحد: ما ليس له جزء، والواحد: هو الفرد وإن كان له جزء.

(٣) الأحد: من لا شريك له ولا نظير له. والواحد: أعم منه، يطلق على الواحد وإن كان له شركاء.

(٤) الواحد: للمذكر، والأحد: للمذكر و المؤنث والواحد والجمع، نحو: ليس عندي أحد، أي لا مذكر ولا مؤنث. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ (الأحزاب: ٣٢)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ (الحاقة: ٤٧)

(٥) الأحد: يطلق للنفي والاستفهام، والواحد أعم منه. ليس عندي أحد، وهل عندك أحد؟

(٦) الواحد: يحتمل الكثرة، والأحد لا يحتمل الكثرة.

(٧) الواحد يطلق في الإثبات غالبا، والأحد: للنفي، وقد يطلق في الإثبات أيضا، نحو: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ (الإخلاص: ١)

ومن وجوه إطلاق الأحد هنا أنه نفي حكمًا، أي لا شريك له.

(٨) الواحد: يقابل الاثنين والجمع، والأحد: من لا شريك له.

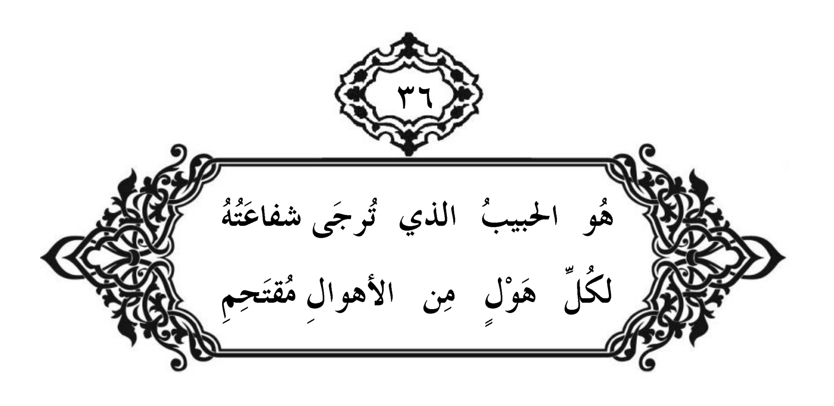
قال الناظم: أحد، و لم يقل: واحد، لأن: (١) المقصود هنا النفي، (٢) لضروة وزن الشعر.

البلاغة:

في البيت تطابق، حيث جمع بين اسمين متضادين (الآمر والناهي) وبين حرفين متضادين (لا، ونعم).

من أمثلة التطابق بين اسمين في القرآن الكريم: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝١٩ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝٢٠﴾ (فاطر)

ومن أمثلة التطابق بين حرفين: قوله تَعَالَىٰ: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ (البقرة: ٢٨٦)



اللغة:

تُرجى: الرجاء: الخوف والطمع.

والفرق أنه يطلق على معنى الأمل في الإثبات والنفي، وأما في معنى الخوف فلا يطلق إلا في النفي غالبا.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ (النساء: ١٠٤)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ (نوح: ١٣)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ (يونس: ٧)

رجا (ن) يرجو رَجْوًا ورُجُوًّا ورَجاءً ورَجاءةً: أمل وخاف.

قال عمير بن حمام يوم بدر: بخ بخ، فقيل له، فقال: «رجاءةَ أن أكون من أهلها».(سنن أبي داود، رقم: ٥٠٩٠)

رجى (س) رجًا: عجز عن الكلام. أرجى الأمر: أخره. رَجَّاه: أمله.

شفاعته: شَفَعَ (ف) شَفْعًا: ضمه.

شَفَعَ لفلان: توسل له. وفي الشفاعة كان المجرم أو الملتمس فردا فصار شفعا.

أي كان واحدا فضم الشافع نفسه إليه، وكان الطالب واحدا فانضم إليه الشفيع. أو انضم رأيه إلى رأيه.

فرت النّوّار بنت الأعين المجاشي -زوجة الفرزدق- إلى مكّة، وعبد الله بن الزبير يومئذ في مكة وبعض المناطق، فطلبت منه أن يفرق بينها وبين الفرزدق، ونزلت على بنت منظور بن زبان -زوجة عبد الله بن الزبير- وطلبت منها أن تشفع لها، وقدم الفرزدق مكة، ومدح حمزة بن عبد الله بن الزبير، وطلب منه أن يشفع له، فقضى ابن الزبير للنوار

على الفرزدق وفي ذلك يقول الفرزدق:

أمّا بنوه فلم تُقبل شفاعتُهم ۞ وشُفّعت بنتُ منظور بن زبّانا

ليس الشّفيع الّذي يأتيك مؤتزرا ۞ مثل الشّفيع الّذي يأتيك عريانا

(الإصابة في تمييز الصحابة، ترجمة منظور بن زبان؛ شرح مقامات الحرير للشريشي، ص ٣٦٨-٣٦٩)

شَفَّعَ:(١) بالغ في الشفاعة. (٢) قبل شفاعتَه. تشَفَّعَ: شفع. استشفع: طلب منه أن يشفع له.

هول: هَالَ (ن) خاف.

هاوَلَ: خوَّفه. استهالَ الأمر: وجده هائلا.

الهول: الأمر المخوف، ج: أهوال، وهؤول.

أبو الهول: نصب فرعوني ضخم جسْمه جسم أَسد وَرَأسه رَأس إِنْسَان إشارة إلى اجْتِمَاع الْقُوَّة وَالْعقل وَطوله عشرُون مترا وَعرضه أَرْبَعَة أمتار.

مقْتَحِم: قَحَمَ (ن) قُحوما: رمى بنفسه في عظيمة.

اقتَحم المكانَ: دخله عنْوَة. قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴾ (البلد: ١١)، وقَالَ تَعَالَىٰ:﴿ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ﴾(ص: ٥٩)

تَقَحَّمَ الأمرَ: تحمل العظيمة على مشقة.

قال النبي صلى الله عليه وسلم وهو يضرب مثله ومثل أمته: «جعل الفراش وهذه الدواب يقعن فيها، فيجعل يتزعهن ويغلبنه فيقتحمن فيها، فأنا آخذ بحجزكم عن النار وهم يقتحمون فيها».(صحيح البخاري، رقم:٦٤٨٣)

الإعراب:

هو الحبيب الذي:

الجملة برمتها صفة لـــ (محمد) في البيت السابق.

هو: مبتدأ، الحبيب: خبره. واللام في الخبر للحصر، أي أن هذه الصفة مختصة به.

لكل هول:

(١) اللام بمعنى (في)، في كل هول من الأهوال. كما في قوله تَعَالَىٰ:﴿ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ

لِحَيَاتِي﴾ (الفجر: ٢٤)، وقَالَ تَعَالَى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ (الإسراء: ٧٨)

(٢) اللام بمعنى (عند).

(٣) لكل هول: أي لدفع كل هول.

مُقْتَحم:

(١) اسم فاعل: معناه: بلية داخلة بين الناس. أي بلية نزلت على الناس على كره.

(٢) مُقتَحم: اسم مفعول: المعنى: مقتَحم فيها. أي بلية تورط الناس فيها.

الشرح:

مُقْتَحِم: يشفع في بلية نزلت على الناس ولا يد لهم فيها. فالمرء أحيانا يقاتل أو يخطئ فيترل عليه البلية، فإنه جلبها على نفسه هو. وكم من بلية تنْزل من غير أن يكون للمرء فيها يد.

هو الحبيب:

من صفاته الخاصة كونه حبيب الله:

إيراد: خص الناظم كونه حبيب الله تعالى به، مع أن كل ذي دين حبيب الله تعالى؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ (آل عمران: ٣١)، وفي الحديث: «فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه». (المستدرك للحاكم ٣٦٧١/٥٩/٢) وكان إبراهيم خليل الله تعالى. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ (النساء: ١٢٥) فما الفرق بينهما؟ وكيف صار الحبيب وصفا خاصا به صلى الله عليه وسلم؟

الجواب:(١) فروق عديدة بين الحبيب والخليل.كما سيأتي. (٢) وإن كان غيره صلى الله عليه وسلم حبيبا إلا أن الحبيب من أسمائه صلى الله عليه وسلم. ووردت عدة أحاديث نبوية بأنه صلى الله عليه وسلم حبيب الله.

(٣) تخصيص الوصف به بالنظر إلى (ترجى شفاعته...)، وكثير من أقسام الشفاعة خاص به صلى الله عليه وسلم.

(٤) هذا الوصف وإن اتصف به غيره إلا أنه على ذروته.

تُرجى شفاعته:

سؤال: شفاعته أمر يقيني؛ فإن كثيرًا من الأحاديث ورد فيها هذا المعنى،فكيف قال:

ترجى شفاعته ؟

الجواب:(١) إنما اختار هذا الأسلوب لئلا يتكل عليه الإنسان، بل عليه أن يشتغل بالأعمال.

لكل هول:

(١) المراد به أهوال الآخرة، بدليل قوله: ترجى شفاعته. أي يشفع النبي صلى الله عليه وسلم في أهوال القيامة الشفاعة الكبرى والصغرى.

(٢) يعم أهوال الدنيا، فالمراد بالشفاعة: الدعاء. أي حفظت الأمة ببركة دعائه صلى الله عليه وسلم من المسخ والفسخ والعذاب العام، ولذا قال الناظم: ترجى بالمضارع الذي يعم الحال والاستقبال.

وفي الحديث: «وإن ربي قال:... وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة، وأن لا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم». و في رواية: «وسألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها».(صحيح مسلم، رقم: ٢٨٩٠)

الفرق بين الحبيب والخليل:

(١) الحب من الجانبين، والخلة من جانب واحد أي أنه صلى الله عليه وسلم حبيب إلى الله، والله تعالى حبيب إليه، وأما إبراهيم فخليل الله، وليس الله تعالى خليلا لإبراهيم؛ فإن الخلة تدل على الحاجة.

(٢) الحبيب: من يصل إلى محبوبه بلا واسطة، والخليل: من يصل بواسطة.

(٣) الحبيب: من غفرانه مقطوع به، والخليل: من يرجى غفرانه.

(٤) الحبيب: يعطى من غير سؤال، والخليل: يعطى بسؤال.

(٥) الخليل من الخلة (الحاجة). فالخليل من يحب لحاجته. والحبيب من يحب من غير حاجة له.

(٦) الخليل: من يريد رضوان الله، والحبب من يريد إرضاء الله، ويرضيه الله تعالى أيضًا. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ (الضحى: ٥)

(٧) المحبة من حبة القلب، فالحبيب من يحب من أعماق القلب، وأما الخليل فلا يستلزم الحب من أعماق القلب، فقد يحب لتوافق الطبيعة والمزاج.

قال في المرقاة: «اعلم أن الفرق بين الخليل والحبيب: (١) أن الخليل من الخلة، فإبراهيم عليه السلام كان افتقاره إلى الله تعالى، فمن هذا الوجه اتخذه خليلا، والحبيب فعيل بمعنى الفاعل والمفعول، فهو محب ومحبوب. (٢) والخليل محب لحاجته إلى من يحبه، والحبيب محب لا لغرض، ولذا قيل: (٣) الخليل يكون فعله برضا الله تعالى، والحبيب يكون فعله برضاه. (٤) وقيل: الخليل مغفرته في حد الطمع، كما قال إبراهيم: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى﴾ (الشعراء: ٨٢) والحبيب مغفرته في مرتبة اليقين، كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ (الفتح: ٢) والأظهر في الاستدلال على أن مرتبة محبوبيته في درجة الكمالِ قولُ ذي الجلال و الجمال: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ (آل عمران: ٣١. مرقاة المفاتيح ٦١/١١-٦٢، فضائل سيد المرسلين؛ وعمدة القاري٣٩٠/١١)

تحقيق كلمة «الحب»:

قال الأصفهاني: «وحببتُ فلانا يقال في الأصل: أصبت حبة قلبه، نحو شغفته وكبدته وفَأَدتُه». (المفردات في غريب القرآن، ص١٠٥)

وفيه أيضًا: «والمحبة: البلوغ بالود إلى حبة القلب، من قولهم: حببته إذا أصبت حبة قلبه». (ص١٠٤)

تحقيق كلمة الخليل:

الخليل من الخلة. الخلة: الحب الذي دخل في خلال قلب المحب. وكان قلب إبراهيم عليه السلام معمورا بحب الله تعالى وملآن به. قال الشاعر:

ما الخل إلا من أود بقلبه ۞ وأرَى بطرف لا يَرى بسوائه

(٢) خُلة: امتلاء القلب من حب المحبوب. الحب: ميل القلب إلى المحبوب. ولهذا يمكن أن يكون الحب مع المتعددين، والخلة لا يكون إلا مع الواحد.

(٣) الخلة: الرجوع في الحاجات، وهذا لايكون إلا إلى الله تعالى. والمحبة: الميل إلى المحبوبين والمحبوبات.

(٤) الخُلة: إحاطة الحب بالقلب، بحيث لا يغفل عن المحبوب ساعة.

(٥) الخلة: صفاء المودة. الخليل: ليس في حبه خلل أي نقص.

قال الحافظ الشيرازي:

خلل پذیر بود هر بنا که می بینم ۞ مگر بناء محبت که خالی از خلل است

(كل بناء أرى فيه خللا، وأما بناء الحب فيخلو من الخلل).

(٦) الخلة: الموافقة في الخصلة أي الصفات التي ذكره الله تعالى مما يمكن التوافق، نحو الجود والحلم ونحوهما.

قال ابن القيم: «والخلة: هي المحبة التي تخللت روحَ المحب وقلبه حتى لم يبق فيه موضع لغير المحبوب».(مدارج السالكين ٣/٣٠)

وقال أيضا: «وأما الخلة فتوحيد المحبة، فالخليل هو الذي توحد حبه لمحبوبه، وهي رتبة لا تقبل المشاركة».(روضة المحبين، ص ٤٧)

ونظرا إلى هذه المعاني ورد وصف الرسول صلى الله عليه وسلم بالخلة في الأحاديث، «وقد اتخذ الله صاحبكم خليلا». وفي رواية: «ولكن صاحبكم خليل الله». (صحيح مسلم، رقم: ٥٣٢)

والأحاديث التي نصت على أن النبي صلى الله عليه وسلم خليل الله، المراد به معنى خاص، وأما حديث: «لو كنت متخذا من الناس خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا» فنفي الخلة فيها بالمعنى الخاص. وثبوت الخلة بالمعنى العام مع المخلوق مما لا ينكر. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴾ (الإسراء: ٧٣) وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (الزخرف: ٦٧)

من هو الأفضل: الخليل أو الحبيب؟

ذكر الشراح الفروق السابقة بين الحبيب والخليل، مما يظهر أفضلية الحبيب.

فالنبي صلى الله عليه وسلم حبيب الله، وهو بالمعنى الخاص، أي المراد به ذروة المحبة. «مكتوب في التوراة: محمد حبيب الرحمن».(مجمع الزوائد١/٧١، باب منه في الإسراء)

وفي الحديث: «اتخذ الله إبراهيم خليلا وموسى نجيا، واتخذني حبيبا».(شعب الإيمان للبيهقي، رقم:١٤١٣. في إسناده: مسلمة بن علي الخشني ضعيف، وفي تقريب التهذيب: «مسلمة بن علي

الخشني...متروك».

ولذا يقول العلامة ابن القيم: لا يصح تفضيل الحبيب على الخليل، لأن المحبة عامة، والخلة خاصة (ذروتها)، وقد أثبت الرسول صلى الله عليه وسلم في غير حديث الحبَّ للناس، وأما الخلة فخصه بالله تعالى. فكونه خليلا هو ذروة الكمال. وبحث ابن القيم هذا الموضوع في غير موضع.

قال ابن قيم: «وأما ما يظنه بعض الغالطين أن المحبة أكمل من الخلة، وأن إبراهيم خليل الله ومحمدًا حبيب الله، فمن جهله».(الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، ص ١٣٥) للاستزادة منه راجع: روضة المحبين،ص ٤٩، ومدارج السالكين)

وفصل الكلام عليه العلامة محمد بن يوسف الشامي أيضًا. (راجع: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ١/٤٤٦-٤٤٧)

وألف شيخ الإسلام العلامة ابن تيمية رسالة في هذا الموضوع سماها: «قاعدة في الخلة و المحبة، وأيهما أفضل». ذكرها العلامة ابن القيم في «مؤلفات ابن تيمية» ص ٢٢.

الحاصل الخليل أعلى مرتبة من الحبيب في ضوء الأحاديث فيما يبدو، والمشهور أن الحبيب أعلى درجة من الخليل، نعم الخليل بمعنى الحبيب بالمعنى العام.

بحث وجيز حول الشفاعة:

الشفاعة: طلب الخير/ طلب العفو والفضل من الغير للغير.

سيأتي بحث مفصل حول الشفاعة، نكتفي هنا بذكر أقسام الشفاعة:

أقسام الشفاعة:

للشفاعة أقسام كثيرة، جاء في حاشية الترمذي ذكر عشرة أقسام لها، وجمعتُ أشهر أقسامها في (تخمر كَدًّا). ومعناه: غطِّ /امح المشقة بالشفاعة، أو: الشفاعة تغطي المشقة.

ت: لتخفيف العذاب.

خ: للخروج من النار لمن دخلها.

م: لمتساوي الحسنات والسيئات.

م: لمستحق النار الذي لم يدخلها بعدُ.

ر: لرفع الدرجات، يقول بها المعتزلة أيضًا.

ك: الشفاعة الكبرى ولأصحاب الكبائر.

د: لدخول الجنة بغير حساب

د: لدخول جميع المؤمنين في الجنة.

أ: شفاعة الله بمعنى العفو.

إيراد على أقسام الشفاعة الثلاثة التي ذكرها الشيخ إسماعيل الشهيد رحمه الله- والجواب عنه:

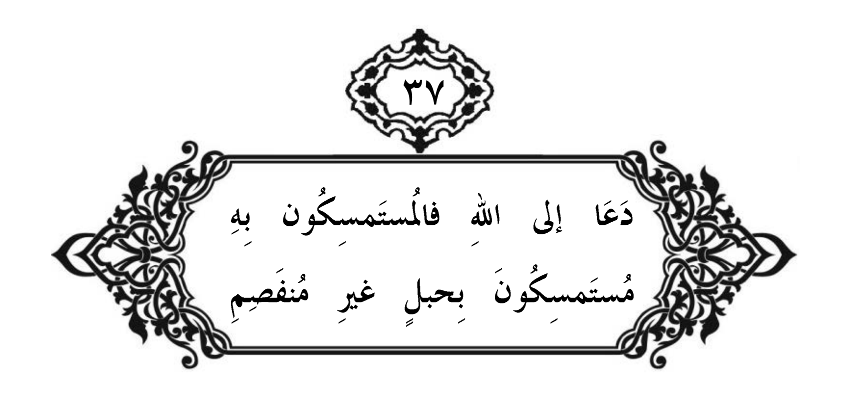
سؤال: يقول علماء البريلوية: إن إسماعيل الشهيد ينكر الشفاعة، فما جوابه؟

الجواب: إن الشيخ إسماعيل الشهيد لم ينكر الشفاعة؛ بل قسمها على ثلاثة أقسام، وأنكر قسمين منها، نفاهُما، واعترف بقسم منها: (١) الشفاعة بالوجاهة: مثل السارق يريد الملك عقابَه، ثم يعفو عنه بشفاعة وزير من وزرائه، فإنه إذا لم يجبه فسد نظام الدولة. (٢) الشفاعة بالمحبة، مثل السارق يريد الملك عقابه، ثم يوقف عقابه على كره لغضب محبوب له. فهذان القسمان نفاهما الشيخ إسماعيل. (٣) القسم الثالث الشفاعة بالإذن، وهو السارق يريد الملك أن يعاقبه بمقتضى القانون، ولكنه يأذن لأحد — فضلا وتكرما منه ومن غير إكراه - بالشفاعة له، يشفعه فيه ويعفو عن السارق. ذكر الشيخ إسماعيل تفصيل ذلك في باب الإشراك في التصرف من كتابه «تقوية الإيمان». ويسمي القسمين الأولين شفاعة قهرية، ويسمي القسم الثالث شفاعة إذنية.

ولا يقول المعتزلة بالشفاعة إلا أن تكون لرفع الدرجات، ويستدلون على رأيهم بقوله تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞ﴾ (البقرة: ٢٥٤)، وبقوله تَعَالَىٰ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ (المدثر: ٤٨)

نقول: فيه نفي الشفاعة للكافر، وإلا فإن قوله تَعَالَىٰ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ (البقرة: ٢٥٥)، وغيرها من الآيات صريح في الشفاعة بالإذن. والمراد بالظالمين في قوله تَعَالَىٰ: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ﴾ (غافر: ١٨) الكفار.

انتهى. ولله الحمد.



اللغة:

دَعَا: المعنى الحقيقي لكلمة الدعاء: النداء وطلب الإقبال. يستلفت انتباه أحد.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ (القصص: ٨٨)

وفي الحديث: «أي الذنب أكبر عند الله؟ قال: أن تدعو لله نِدًّا، وهو خلقك».(صحيح البخاري، رقم:٧٥٣٢)

وفي الدعاء يطلب المرء عناية الله تعالى وكرمه. وكذلك الدعوة إلى الدين أو غيره تتضمن هذا المعنى. والأذان يوصف بالدعوة، لأنه يستلفت به انتباه الناس إلى الصلاة.

فالمستمسكون: مَسَكَ (ض) مَسْكًا، (ن) مَسَاكَةً: أخذه بقوة.

أمسكَ الشيءَ وبه/ استمسك الشيء وبه: أخذه. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَ﴾ (الزخرف: ٤٣)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ (البقرة: ٢٥٦)

أمْسَكَ عن الشيء: امتنع عنه. مَسَّكَ بالشيء: أخذه بقوة.

بِحَبْلٍ: حَبَلَ (ن) حَبْلا: شده بالحبل. حَبِلَ (س) حَبَلا: حملت. حَبَّلَ الزرعُ: تكاثف.

في الأدعية المأثورة: «اللهم ذا الحبل الشديد، والأمر الرشيد...».(سنن الترمذي، رقم:٣٤١)

غَيرِ: غَارَ (ض) غَيرَةً: عدم احتمال الشركة في شيء مخصوص. غَارَ غَيرًا وغِيارًا: نفعه.

معانٍ مختلفة لكلمة (غير):

يطلق (غير) على معانٍ مختلفة: (١) علاوة، (٢) خلاف، (٣) بمعنى إلا. مثل جاء القوم غير زيد. و إعرابه حينئذ إعراب المستثنى. (٤) اسم بمعنى علاوة، نحو: مررت بغيرك، هذا غيرُك. (٥) بمعنى ليس: نحو: هذا غير مفهوم. وإعرابه في هاتين الصورتين على وفق إعراب العامل السابق. (٦) اسم بمعنى لا، نحو قوله تَعَالَىٰ:﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ (البقرة:١٧٣)، و قَالَ تَعَالَىٰ:﴿غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ﴾ (المائدة: ١)، وهو منصوب على الحالية حينئذ. (٧) للصفة، نحو قوله تَعَالَىٰ:﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا﴾ (الفاتحة: ٧) وإعرابه حينئذ إعراب موصوفه.

مُنفَصِم: فَصَمَ (ض) فَصْمًا: كسره من غير فصل.

فَصم: كسر الشيء من غير فصل أجزائه. قصم: كسره مع فصل أجزائه.

أفصَمَ الشيءُ: أنهاه. انفَصَمَ: انكسر (من غير انفصال)، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ (البقرة: ٢٥٦)

ورد في خصوص الوحي: «فيفصم عني وقد وعيتُ عنه».(صحيح البخاري، رقم:٢) أي ينتهي الوحي وقد حفظت كل شيء.

الإعراب:

«دعا»: حذف مفعوله للتعميم، والتقدير: (الخلقَ كلهم)

إلى الله: مع حذف المضاف، وتقديره: إلى دين الله/ إلى شرع الله/ إلى عبادة الله.

فالمستمسكون: الفاء للتفريع، أي إذ كانت دعوتك إلى دين الله تعالى فإن عاقبته أن كل من يستمسك بالدين الذي جئت به كان ناجحا.

به: أي بشرع الله/ بدين الله. والضمير يعود على المضاف المحذوف إلى لفظ الجلالة.

حبلٍ: موصوف، صفته: غير منفصم.

الشرح:

هذا البيت يشير إلى عظيم وظيفة الرسول وهي الدعوة إلى الله تعالى. وفيه ثناء عليه

صلى الله عليه وسلم أيضًا، وهو أن الذي يعتنق الدين المبارك الذي يدعو إليه، كان مصيره النجاح والتوفيق.

الدين الإسلامي مثل الحبل المتين:

شبه الناظم رحمه الله الدين بالحبل، وفيه إشارة إلى أن حبل الدين لن ينقطع، وسيستمر إلى قيام الساعة. روي: «لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس».(صحيح مسلم، رقم:١٠٣٧)

ورد في أحاديث كثيرة وبألفاظ مختلفة أن الدين مثل الحبل المتين، والآخذ به ناجح.

ورد في بعض الحديث عن القرآن الكريم: «وهو حبل الله المتين».(سنن الترمذي، رقم:٢٩٠٦)

وورد: «كتاب الله هو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض».(كنز العمال، رقم:٩٢٣)

وفي حديث آخر: «إني قد خلَّفتُ فيكم ما لم تضلوا بعدهما ما أخذتم بهما أو عملتهم بهما: كتاب الله وسنتي».(السنن الكبرى للبيهقي١١٤/١٠)

بعث النبي صلى الله عليه وسلم إلى الملائكة علاوة على الجن والإنس:

حذِف مفعولُ (دعا) ليدل على عموم الرسالة؛ لأنه صلى الله عليه وسلم بعث إلى الإنس والجن والملائكة جميعا. وسبق بيان بعثته إلى الجن في البيت رقم (٣٤) بالتفصيل.

واختلفوا في بعثته إلى الملائكة. ونفاه العلامة الرازي، وذهب كثير من المحققين منهم العلامة السبكي، والسيوطي وابن حجر الهيثمي إلى ترجيح بعثته إلى الملائكة أيضًا.

وألف العلامة السيوطي رسالة فيه سماها: «تزيين الأرائك في إرسال النبي إلى الملائك»، في عشر صفحات، واستدل فيها على الموضوع بعشرة أدلة. وهذه الرسالة مطبوعة ضمن «الحاوي للفتاوي».(راجع: الحاوي للفتاوى١٦٨/٢-١٧٧؛ والفتاوى الحديثية لابن حجر الهيتمي ٢٠٣-٢٠٨؛ مرقاة المفاتيح ٦٨/١١)

الدعوة إلى الله تعالى أهم وظائفه صلى الله عليه وسلم:

أهم مقاصد بعثته صلى الله عليه وسلم الدعوة إلى الله تعالى، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ۝٤٦﴾ (الأحزاب)،

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ (يوسف: ١٠٨)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ﴾ (النحل: ١٢٥)،و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الحج: ٦٧)، و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ (القصص: ٨٧)، و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾(الشورى: ١٥)، و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ (فصلت: ٣٣)، و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ (الأنفال: ٢٤)

شغف النبي صلى الله عليه وسلم بعمل الدعوة، ومنهجه فيها، وحرصه عليها في كافة الأحوال، ودعوته الأفراد والقبائل والأمراء والسلاطين، وكذلك دعوة الصحابة رضي الله عنهم الناس إلى الله تعالى، وقصص إقبالهم على الدين؛ للاستزادة منها راجع: حياة الصحابة ج:١، الباب الأول، فقد تحدث الشيخ محمد يوسف رحمه الله في نحومئة وخمسين صفحة عنها في أسلوب علمي رائع.

ثلاثة أهداف هامة لبعثته صلى الله عليه وسلم:

سردت الآية الكريمة وظائف الرسول صلى الله عليه وسلم بإيجاز: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ (الجمعة: ٢)

معنى موجز للآية الكريمة مع تطبيقها:

(١) يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ: يشمل الكتاتيب –التي تعَلِّم القرآن الكريم–، وإذا تعدى (تلا) بصلة (على) أفاد معنى الدعوة (أي القراءة عليهم ودعوتهم إليه). فيعم الدعوة أيضا. كما علم منه أن منهج الدعوة ومادتها هي القرآن الكريم.

(٢) وَيُزَكِّيهِمْ: التزكية: التخلية عن الرذائل والتحلية بالفضائل: ويعم الخانقاهات.

(٣) وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ: فيه إشارة إلى المدارس الدينية والجامعات: ومنهجها الدراسي القرآن والسنة النبوية.

سبق تحقيق كلمة الحكمة في البيت رقم (٢٥). والحكمة تعم تعليم السياسة الشرعية.

معنى آخر للآية الكريمة:

يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ: للعوام. وَيُزَكِّيهِمْ: للأولياء، وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ: للعلماء والطلبة. وَٱلْحِكْمَةَ: للأمراء.

وفي آية أخرى: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ١٥١) وهذا للمجتهدين.

دعوته صلى الله عليه وسلم يغلبها التبشير:

دعوته صلى الله عليه وسلم تضم الإنذار والتبشير، وأشار الناظم بلفظ (دعا) إلى أن جانب التبشير غالب عليها، وضرب الرسول صلى الله عليه وسلم مثله ومثل أمته مثل الداعي والمجيب إليها، روى البخاري عن جابر رضي الله عنه: «جاءت ملائكة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو نائم، فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا: إن لصاحبكم هذا مثلا، فاضربوا له مثلا،... فقالوا: مثله كمثل رجل بنى دارا وجعل فيها مأدبة، وبعث داعيا فمن أجاب الداعي دخل الدار، وأكل من المأدبة، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة».(صحيح البخاري، رقم:٧٢٨١)

يطلق «الدعوة» غالبا على دعوة الأنبياء عليهم السلام، ويطلق «الإرشاد» على أولياء الله تعالى. كما أن الدعوة تطلق على دعوة غير المسلمين أكثر، وأما المسلمون فيطلق عليهم التذكير و الدعوة كلاهما.

قال الناظم: مستمسكون، و لم يقل: مجيبون -وإن كان «مجيبون» أنسب بـــ «دعا»- لأن النجاح ليس في قبول الدين باللسان فقط، ما لم يتمسك به المرء وعض عليه بالنواجذ.

و لم يقل: هدى إلى الله: لأنه لا يشمل إلا أمة الإجابة، وأما أمة الدعوة فلا.

نفى الناظم رحمه الله الفصم، ويتضمن نفي القصم، ولو نفي القصم لم يضمن نفي الفصم.

البلاغة:

(١) في البيت استعارة تصريحية أصلية ترشيحية. الدين: مشبه. والحبل: مشبه به. وجه الشبه: عدم الانفصام. ذكر المشبه به فكانت الاستعارة تصريحية. مستمسكون يناسب الحبل. فكانت ترشيحية.

وهذه الاستعارة غير مشتقة، فكانت أصلية.

(٢) في البيت اقتباس من قوله تَعَالَىٰ: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ (آل عمران: ١٠٣)، وقوله تَعَالَىٰ: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ (البقرة: ٢٥٦)

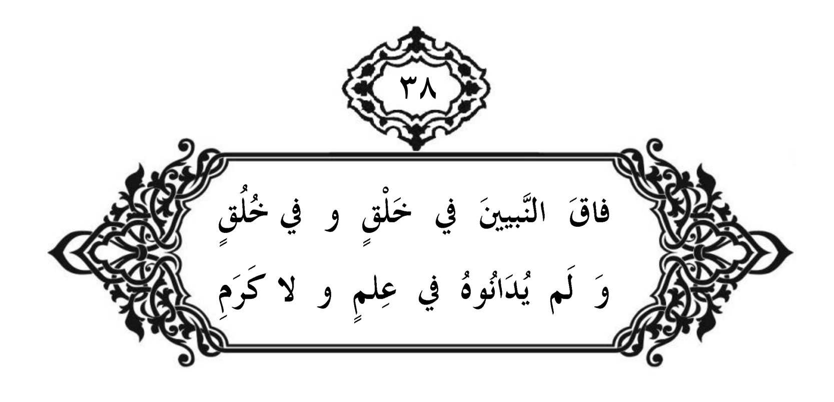
الاقتباس: هو تضمين الكلام -نظما كان أونثرا- شيئا من القرآن والحديث لا على أنه منه.

جاء في مختصر المعاني: «أما الاقتباس فهو أن يضمن الكلام نظما كان أو نثرا شيئا من القرآن أو الحديث لا على أنه منه... أي لا على وجه يكون فيه إشعار بأنه منه». (مختصر المعاني، ص ٥٢٧).

وفيه: «ولا بأس بتغيير يسير في اللفظ المقتبس للوزن وغيره». (٥٢٧)

وفي خزانة الأدب: «ثم اعلم أنه يجوز أن يغير لفظ المقتبَس منه بزيادة أو نقصان أو تقديم أو تأخير أو إبدال الظاهر من المضمر أو غير ذلك». (خزانة الأدب ٤٥٦/٢، ذكر الاقتباس، ط: مكتبة الهلال)

****



اللغة:

فاقَ: علاهم بالشرف.

فاق (ن) الشيء فوقًا وفوَاقا: علاه، وغلبه، وتقدمه.

فاقَ: حقيقته في العلو المكاني، ومجازا لعلو المنْزلة والمكانة.

فاقَ (ن) فُواقا: شهق شهقة عالية متكررة.

أفاق: عَاد إلى طبيعته. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ﴾ (الأعراف: ١٤٣)

ورد في قيام موسى يوم المحشر: «فلا أدري أكان فيمن صعق فأفاق قبلي».(صحيح البخاري، رقم:٣٤٠٨،باب وفاة موسى وذكره بعدُ).

الفَواق: -بضم الفاء وفتحها- الْوَقْت بَين الحلبتين.

وفي الحديث: «من قاتل في سبيل الله فَواق ناقة وجبت له الجنة».(سنن الترمذي، رقم: ١٦٥٠)

فوق: ظرف مكان، وله معانٍ متعددة: (١)الارتفاع والعلو، نحو: السماء فوق الأرض. (٢) الزيادة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ (النساء: ١١) (٣) التفضيل، نحو: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾ (يوسف: ٧٦)

خَلق: خَلَقَ الشيء (ن) خَلْقًا: أوجده. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ (الأنعام: ٧٣)

خلقَ القول: افتراه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًا﴾ (العنكبوت: ١٧)

خَلِقَ الثوبُ (س) خَلَقًا: بلي. خلُقَ (ك) حسن خلقه. فهو خليق.

الخُلُقُ: الخصلة الطبيعية، الطبيعة، ج: أخلاق.

في الحديث: «سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكثر ما يدخل الناس الجنة، فقال: تقوى الله وحسن الخلق».(سنن الترمذي، رقم:٢٠٠٤)

لم يُدانوه: دَنا (ن) منه وإليه دُنُوًّا: قرب.

أدنى الثوبَ: أرخاه، قَالَ تَعَالَى: ﴿يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ (الأحزاب: ٥٩)

دنُؤَ (ك) دُنوءًا ودَناءةً: لؤم، صار دَنِيًّا. ورد في أهل الجنة: «وما فيهم دنيء».(سنن ابن ماجه، رقم:٤٣٣٦) أي ليس فيهم أدنى منْزلة.

ومن أسباب تسمية الدنيا بها أنه أخس وأدنى من الآخرة. وسبق تفصيله.

كرَم: كَرُمَ (ك) كَرَمًا وكَرَامةً: شرف. كَرُمَ الشيء: نفس. أكرمَ فلانا: أعزه. الكَرَم: (١) السخاء والجود، (٢) التكرم، (٣) رجل كرم: كريم. وهو مصدر، يستوي فيه المفرد والجمع والمذكر والمؤنث.

المكرمة: (١) عمل يستحق التكريم، (٢) السلوك السامي. ج: مكارم. مكارم الأخلاق: سمو الأخلاق.

الشرح:

ذكر في الماضي حسن صورته صلى الله عليه وسلم تبعا وفي هذا البيت ذكره صريحًا.

لابُدّ من حسن السيرة مع حسن الصورة:

لابد لكمال المرء أن يجمع بين حسن الصورة وحسن السريرة، بل حسن السريرة أهم.

يقول الشاعر الأردي:

حسنِ صورت چند روزه حسن سیرت مستقل

اس سے خوش ہوتی ہیں آنکھیں، اس سے خوش ہوتا ہے دل

(حسن الصورة لا يدوم إلا أياما معدودات، وحسن السيرة دائم ومستمر، فحسن الصورة يعجب العين وحسن السيرة يعجب القلب).

أربع من خصال رسول الله صلى الله عليه وسلم الهامة:

جمع الناظم في هذا البيت أربعًا من خصال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (١)حسن الصورة، (٢)حسن الخلق، (٣) العلم، (٤)الشرف والجود.

في خَلق:

بيان حسن صورته صلى الله عليه وسلم:

عن جابر بن سمرة قال: «رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في ليلة إضحيان فجعلت أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى القمر، وعليه حلة حمراء، فإذا هو عندي أحسن من القمر». (سنن الترمذي، رقم:٢٨١١)

قال الشاعر الأردي:

چاند سے تشبیہ دینا یہ بھی کیا انصاف ہے؟

اس کے منہ پر داغ ہے حضرت کا چہرہ صاف ہے

(هل من العدل تشبيهه بالقمر؟ فإن وجه القمر عليه وصمات، ووجه ممدوحنا مبرأ منها).

يقول كعب بن مالك، وهو يحدث حين تخلف عن تبوك، قال: «فلما سلَّمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبرق وجهه من السرور، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سر استنار وجهه، حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه».(صحيح البخاري، رقم:٣٥٥٦)

وروى مسلم: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أزهر اللون كأن عرَقَه اللؤلؤ».(صحيح مسلم، رقم:٢٣٣٠)

قال عبد الله بن سلام يحكي أول لقائه برسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يكن مسلما آنئذ: «فلما استَبَنت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم عرفتُ أن وجهه ليس وجه كذاب».(سنن الترمذي، رقم:٢٤٨٥)

قال علي يصف رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من رآه بديهة هابه، ومن خالطه

معرفة أحبه».(سنن الترمذي، رقم:٣٦٣٨)

قال أنس يصفه صلى الله عليه وسلم: «أزهر اللون، ليس بالأبيض الأمهق، ولا بالآدم».(صحيح البخاري، رقم:٥٩٠٠)

وعن البراء، قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وجهًا، وأحسنهم خلقا».(صحيح البخاري، رقم:٣٥٤٩)

وقال أبو الطفيل يصفه عليه الصلاة والسلام: «كان أبيض مليحَ الوجه».(صحيح مسلم، رقم:٢٣٤٠)

وقال أنس: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنما صيغ من فضة».(تاريخ بغداد ٢٩٧/١٠)

وفي عدة روايات: «أبيض مشربا بحمرة».(مسند أحمد، رقم:٩٤٤)

وقالت أم معبد تصف النبي صلى الله عليه وسلم: «كأن عنقه إبريق فضة، إذا نطق فعليه البهاء، وإذا صمت فعليه الوقار، كلامه كخرز النظم، أزين أصحابه منظرًا، وأحسنهم وجها». (المعجم الكبير للطبراني ١٠٥/٧/٦٥١٠)

ولله در شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم: حسان بن ثابت رضي الله عنه حيث يقول:

وَأَحْسَنَ مِنْكَ لَمْ تَرَ قطّ عَينِي ۞ وَأَجْمَلَ مِنْكَ لَم تَلِدِ النِّسَاءُ
خُلِقْتَ مُبَرّأ مِن كُلِّ عَيْبٍ ۞ كَأَنَّكَ قَدْ خُلِقْتَ كَمَا تَشَاءُ

(ديوان حسان بن ثابت رضي الله عنه، ص١٠، ط: دار صادر، بيروت)

وقال الشاعر:

يَا صَاحبَ الجمَال ويا سيِّدَ البشر ۞ من وَجْهِكَ المنِيْرِ لَقَد نَوَّرَ القَمَر
لا يمْكِنُ الثَناءُ كمَا كانَ حقه ۞ ***بعد از خدا بزرگ توئی قصه مختصر***

وأنشد عروة شعر عائشة رضي الله عنها في مدح النبي صلى الله عليه وسلم:

فَلَوسَمِعُوا فِي مِصرَ أَوْصَافَ خَدهِ ۞ لَمَا بَذلُوا فِي سَوْمِ يُوْسُفَ مِنْ نَقْدِ

لُوَامَى زُلَيْخَا لَوْ رَأَيْنَ جَبِيْنَهُ ۞ لآثَرْنَ بِالقَطْعِ القُلُوبَ عَلَى الأَيْدِيْ

(تاريخ الخميس ١/٣٨٥)

روى الترمذي عن قتادة والدارقطني عن أنس قال: «ما بعث الله نبيًّا إلا حسن الوجه، حسن الصوت، وكان نبيكم صلى الله عليه وسلم أحسنهم وجها وأحسنهم صوتا».(العلل الواردة في الأحاديث النبوية١٢/١٥٩. والشمائل المحمدية للترمذي، رقم:٣٠٣)

سؤال: ورد في حديث المعراج: «إذا هو قد أعطي شطر الحسن».(صحيح مسلم، رقم:١٦٢)، يفيد أن يوسف أعطي نصف الحسن، والنصف الباقي يشترك فيه الخلق كلهم، فكان يوسف أحسن الناس. وحديث الترمذي المذكور آنفًا يفيد أن النبي صلى الله عليه وسلم أحسن الناس؟

الجواب: سلط المحدثون الضوء على حسن النبي صلى الله عليه وسلم وحسن يوسف عليه السلام بالتفصيل، ملخصه ما يلي:

(١) المتكلم يُستثنى من كلامه عقلا، نحو قوله تعالى:﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ (البقرة: ٢٠) فليس النبي صلى الله عليه وسلم شريكا في حسن باقي الخلق. (الحافظ ابن حجر)

(٢) أعطي يوسف نصف حسن النبي صلى الله عليه وسلم. (العلامة ابن المنير الزركشي)

(٣) المراد بالشطر: الجزء، لا النصف، شطر الحسن أي حظا عظيما من الحسن. (العلامة المناوي).

(٤) يقول ابن القيم: كل من الحديثين على مكانه، وكان نبينا أحسن الناس، وأعطي يوسف نصف الحسن. فكأن النبي صلى الله عليه وسلم له حظ مما أعطي يوسف من الحسن، وله صلى الله عليه وسلم حظ مما أعطي الخلق من الحسن أيضا، فكان أحسن الناس.

(٥) أو المراد أن يوسف عليه السلام أعطي نصف حسن أهل زمانه فكان أحسن أهل زمانه لا من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(٦) قال الشيخ أشرف علي التهانوي: كان يوسف عليه السلام أحسن، أي أصبح الناس، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أملح الناس، والأصبح من يكون أجمل في أوائل النظر، والأملح من يكون أجمل دائمًا في كل نظرة، ويوجد فيه دقائق الجمال

وينجذب إلى رؤيته الطبائع والنفوس.

كما قال الشاعر :

يزيدُكَ وجْهُهُ حُسْناً ۞ إذا ما زِدْتَه نَظَرا

ونقل الشاه ولي الله رحمه الله تعالى حديثا من غير سند ومن غير حوالة: أخبرني سيدي الوالد، قال: بلغني أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أنا أملح وأخي يوسف أصبح». كذا في الدر الثمين، الحديث العشرون.

قال الحافظ ابن حجر أثناء الكلام على حديث المعراج: «إذا يوسف»: زاد مسلم: «فإذا هو قد أعطي شطر الحسن»،....فيحمل حديث المعراج على أن المراد غير النبي صلى الله عليه وسلم، ويؤيده قول من قال: إن المتكلم لا يدخل في عموم خطابه.

وأما حديث الباب فقد حمله ابن المنير على أن المراد أن يوسف أعطي شطر الحسن الذي أوتيه نبينا صلى الله عليه وسلم، والله أعلم».(فتح الباري٧/٢١٠، وينظر: عمدة القاري ١١/٦٠٤؛ فيض القدير٢/٤).

قال العلامة ابن القيم: «يوسف أوتي شطر الحسن» قالت طائفة: المراد منه أن يوسف أوتي شطر الحسن الذي أوتيه محمد. فالنبي صلى الله عليه وسلم بلغ الغاية في الحسن، ويوسف بلغ شطر تلك الغاية، قالوا: ويحقق ذلك ما رواه الترمذي من حديث أنس... (فساق الحديث المذكور آنفا ثم قال:) والظاهر أن معناه أن يوسف عليه السلام اختص عن الناس بشطر الحسن واشترك الناس كلهم في شطره فانفرد عنهم بشطره وحده. وهذا ظاهر اللفظ فلماذا يعدل عنه! واللام في الحسن للجنس لا للحسن المعين والمعهود المختص بالنبي صلى الله عليه وسلم... وحديث أنس لا ينافي هذا ولا يلزم من كونه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أحسنهم وجها أن لا يكون يوسف اختص عن الناس بشطر الحسن، واشتركوا هم في الشطر الآخر ويكون النبي صلى الله عليه و سلم شارك يوسف فيما اختص به من الشطر وزاد عليه بحسن آخر من الشطر الثاني. والله أعلم». (بدائع الفوائد٢/٢١٤).

وفي خُلُق:

بيان عظيم خلقه صلى الله عليه وسلم:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة:١٢٨)

وقال عليه الصلاة والسلام: «بعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق».(المستدرك للحاكم، رقم:٤٢٢١).

وعن أنس قال: «كان النبي صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقا».(صحيح البخاري، رقم :٦٢٠٣)

وعنه قال: «خدمت النبي صلى الله عليه وسلم عشر سنين، فما قال لي: أف، ولا لِم صنعت ولا ألا صنعت؟».(صحيح البخاري، رقم:٦٠٣٨)

وقال معاوية بن الحكم السلمي يحكي قصة كلامه في الصلاة مع النبي صلى الله عليه وسلم: «فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فبأبي هو وأمي ما رأيتُ معلما قبله ولا بعده أحسن تعليما منه، فوالله ما كهرني ولا ضربني ولاشتمني». قال: «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس».(صحيح مسلم، رقم:٥٣٧)

والأحاديث في هذا الباب كثيرة لاتحصى.

ونظرا لأهمية حسن الخلق رغب النبي صلى الله عليه وسلم الأمة فيه.

وفي الحديث: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقا».(سنن الترمذي، رقم:٤٧٩٨)

«إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم».(سنن أبي داود، رقم:٤٧٩٨)

«ما شيء أثقل في الميزان من حسن الخلق». (سنن أبي داود، رقم: ٤٧٩٩)

في علم ولاكرم:

بيان علمه صلى الله عليه وسلم:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾ (النساء: ١١٣) (ستأتي التفاصيل في الفصول اللاحقة)

بعض الأمثلة على سخائه وشرفه:

ما أكثر الأمثلة على سخائه وشرفه صلى الله عليه وسلم، نسوق مثالين هنا:

(١) لا يخفى على أحد ما صبه كفار مكة عليه صلى الله عليه وسلم من العذاب، و لم يألوا جهدا في إيذائه وإيذاء أصحابه. ثم سعوا سعيا مستميتا للقضاء عليه وعلى أصحابه في الحياة المدنية، ثم يعفو عنهم النبي صلى الله عليه وسلم جميعا حين يدخل مكة فاتحا. وهذا موضوع أهم موضوعات السيرة. سلط أهل العلم الضوء بالتفصيل على أن الدنيا عاجزة عن ضرب مثال لذلك. والتفصيل في المطولات.

لننظر في الحديث:

«قال لهم حين اجتمعوا في المسجد: «ما ترون أني صانع بكم؟» قالوا: خيرا. أخ كريم وابن أخ كريم. قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء».(السنن الكبرى للبيهقي ١١٨/٩، وانظر: سيرة ابن هشام ٤١١/٢).

(٢) وهل يخفى على أحد قصة غورث بن الحارث، الذي سلت سيفه على النبي صلى الله عليه وسلم ثم عفا عنه رغم قدرته عليه.

«ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعونا، فجئنا فإذا عنده أعرابي جالس، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن هذا اخترط سيفي وأنا نائم، فاستيقظت، وهو في يده صَلتا، فقال: من يمنعك مني؟ قلت: الله، فها هو جالس، ثم لم يعاقبه رسول الله صلى الله عليه وسلم... عن ابن بشير: اسم الرجل: غورث بن الحارث».(صحيح البخاري، رقم:٤١٣٦)

والحاصل أن حياة النبي صلى الله عليه وسلم تجمع بين الصفات المحمودة والخصائل الحميدة والأخلاق الفاضلة والصفات الجميلة. قال الشاعر الفارسي:

حسن یوسف دم عیسی ید بیضا داری ❁ آنچه خوباں ہمہ دارند تو تنہا داری

(لك حسن يوسف، ونفخ عيسى واليد البيضاء، تنفرد بما كان مجموعهم يتصفون به).

ولو ذهبنا نفصل الخصال الأربع التي جمعها العلامة البوصيري في هذا البيت- وهي: الخلق، والخلق، والعلم، والكرم- لضاقت عنه آلاف الصفحات.

يقول الشاعر الأردي:

تیری دنیا میں تو مجھ جیسے ہیں کروڑوں آدمی ❁ جانِ عالم، کوئی تجھ سامیری دنیا میں نہیں

(في عالمك ملايين الملايين من البشر أمثالي، ياروح العالم، ليس في العالم مثلك)

المراد بالخَلق: الكمالات الظاهرة من حسن الصورة وتناسب الأعضاء ونحوها. والمراد بالخُلق: الكمالات الباطنة من الحلم والعفو والجود والسخاء والشجاعة ونحوها.

سبب إفراد «الخُلق»:

أفردَ الخَلْقَ: لأن الصورة واحدة، وكان عليه أن يجمع (الخُلْقَ)، لأن الكمالات كثيرة، ولكنه أفرده لمراعاة الجناس مع الخَلق، والوزن الشعري. وقائمة الكمالات يرجع لها إلى «الخصائص الكبرى» و«دلائل النبوة» وغيرهما من الكتب المؤلفة حول هذا الموضوع.

كمالاته صلى الله عليه وسلم تفوق الكل:

فاق النبيين: كمالاته صلى الله عليه وسلم تفوق كمالات الناس جميعا. وأعلن نبوته قبل كل نبوة الجميع.

وفي الحديث: «قالوا: يارسول الله، متى وجبت لك النبوة؟ قال: وآدم بين الروح والجسد». (سنن الترمذي، رقم:٣٦٠٩، قال أبوعيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب)

ورد هذا المعنى في عدة أحاديث. قال الهيثمي: رواه أحمد بأسانيد، و البزار،... وأحد أسانيد أحمد رجاله رجال الصحيح، غير سعيد بن سويد، وقد وثقه ابن حبان. (مجمع الزوائد ٨/٢٢٣)

سؤال: ما المراد بــ كنتُ نبيا؟ فإن كان المراد أن نبوته كانت مقدرة، فنبوة سائر الأنبياء كانت مقدرة، وإن أراد به نيل النبوة فإنه صلى الله عليه وسلم لم ينلها إلا بعدهم جميعا؟

الجواب: المراد به: أعلن نبوتي حينئذ في الملائكة والأرواح.

قال في فيض القدير: «وآدم بين الروح والجسد»، ويعني أنه تعالى أخبرهم بمرتبته وهو روح قبل إيجاد الأجساد الإنسانية، كما أخذ العهدَ على بني آدم قبل إيجاد

أجسامهم. ذكره ابن عربي. (فيض القدير٥/٦٩).

سرد شيخ الإسلام ابن تيمية عدة أحاديث في هذا المعنى ثم قال: «ورُويَ في ذلك عدةُ أحاديث توافق هذه الأحاديث الثابتة تتضمن التنويه باسمه وإعلاء ذكره حنيئذ». (مجموع الفتاوى ٢/١٥٠، للاستزادة منه راجع: الطبقات الكبرى لابن سعد ١/١٤٨، ذكر نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ كشف الخفاء٢/١٢٩؛ مجلة المنار٨/٨٦١، ذوالقعدة ١٣٣٣هـ؛ سبل الهدى والرشاد١/٨١)

توضيح «لا تفضلوا بين الأنبياء»:

سؤال: ورد في البيت تفضيل النبي صلى الله عليه وسلم على سائر الأنبياء، و ورد الحديث بالمنع عنه: «لا تفضلوا بين أنبياء الله... ولا أقول: إن أحدا أفضل من يونس بن متى».(صحيح البخاري، رقم:٣٤١٤)

وفي رواية: «لا تخيروني على موسى».(صحيح البخاري، رقم:٣٤٠٨)

وفي رواية: «جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا خير البرية، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ذلك إبراهيم عليه السلام».(صحيح مسلم، رقم:٢٣٦٩)

الجواب: (١) لا تفضلوني على يونس تفضيلا يوجب تنقيصه.

حكى القرآن الكريم قصة هجرة يونس عليه السلام من وطنه باجتهاد منه، فتحذيرا للجهال أن يستنبطوا منها أن يونس عليه السلام قصَّر في أداء واجبه، ورد تخصيص يونس عليه السلام في عدة أحاديث، وإلا فإن نفس التفضيل قد ورد به القرآن الكريم. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ (البقرة: ٢٥٣)

(٢) تفضيلا يوجب السب والقتال. فقد تنازع اليهود والمسلمون في ذلك كما رواه البخاري.

(٣) لا تفضلوني على يونس في نفس النبوة، كما ورد في القرآن الكريم: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ (البقرة: ٢٨٥) فالإيمان به ونبوته يستوي في ذلك الجميع، نعم قد يفضلون لوجوه أخرى.

وهذا كما يقول الأحناف: جميع المؤمنين في نفس الإيمان سواء. (وأرى أن هذا هو

معنى «الإيمان لا يزيد وينقص»).

(٤) لا تفضلوني بجميع الوجوه. أي حصل لبعضهم فضل جزئي لم أحصل عليه. وإن كنت نِلتُ فضلا كليا عليهم. والفضل الكليُّ كثرة الثواب ونيل الدرجات.

(٥) قال ذلك حين لم يكن يعلم أنه أفضلهم، وقال فيما بعد: أنا سيد ولد آدم.

(٦) يرجع إلى التواضع وهضم الذات، وتوضيحه بإيجاز أن المرء حين ينال منْزلة التواضع، لا يرى كمالاته.

قال الشيخ الكنكوهي ذات مرة وهو يشرح حديث: «لا تفضلوا بين الأنبياء»: «هذا مبني على التواضع وهضم الذات، فاعترض عليه الطلاب بأنه خلاف الواقع، ولا تواضع فيه؟ فشرحه الشيخ بإسلوب آخر، وسألهم: ماذا ترونني؟ قالوا: أنت أفضل منا. فقال الشيخ: والله أنتم أفضل مني. فصاح الطلاب. وفي اليوم التالي سألهم: هل وعيتم المسألة التي ثارت بالأمس؟ قالوا: نعم، وعيناها.

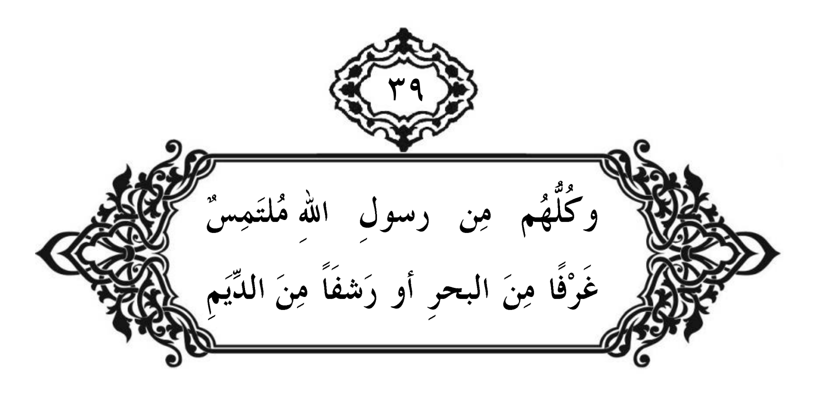
ودرست شروحُ الحديث هذا الموضوعَ ببسط وتفصيل، راجع أيضا: شرح الشفاء لملا علي القاري٢/٦٠٢-٦١٩.

تعريف العلم:

(١) إدراك الشيء بحقيقته. (٢) حصول صورة الشيء في الذهن. (٣) قال الحافظ ابن القيم: «العلم نقل الشيء من الخارج وإثباته في الذهن. والعمل: نقل الشيء من الذهن وإثباته في الخارج».(الفوائد لابن القيم، ص٨٤) (٥)قال العلامة النسفي: صفة يتجلى به الشيء لمن هي قامت به. قال بعض العلماء: هو أحسن ما قيل في ماهية العلم. (كتاب الكليات، ص ٦١٢)

هذا، وقد ذكر العلامة القنوجي سبعة عشر تعريفًا للعلم في «أبجد العلوم».

****



اللغة:

كلُّهم: أي كل واحد منهم.

كل: من الإكليل. والإكليل: هو التاج. كما أن الإكيل يحيط بالرأس، كذلك كلمة (الكل) تفيد الإحاطة.

بحث العلماء كلمة (كل) بحوثا عدة، نكتفي هنا بذكر أمرين هامين في هذا الخصوص:

أقسام (كل):

(١) كل نوعي: مثل: كل إنسان ناطق. أي النوع الإنساني كله ناطق.

(٢) كل مجموعي: لمجموع الأفراد، نحو: كل إنسان لا تسعه هذه الدار. أي لا تسع الدار كل الناس (بل بعض الناس).

(٣) كل أفرادي: نحو: كل إنسان يشبعه هذا الرغيف.أي يشبع به أي كل واحد من الناس.

ضابط إضافة (كل):

تأتي كلمة (كل) مضافة دائما، وإضافته لغيرها لها ثلاثة ضوابط:

(١) إذا أضيفت إلى معرفة، شملت كافة أجزاء ما أضيفت إليه، نحو:كل التفاح حامض. أي جميع أجزاء التفاح حامض.

(٢) وإذا أضيفت إلى النكرة أفادت الإحاطة بالأفراد، نحوقوله تَعَالَىٰ:﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴾ (الإسراء: ١٣)

(٣) وإذا أضيفت إلى معرفة وهي ضمير أفادت الإحاطة بالأفراد كذلك، نحو قول الشاعر: «كلهم من رسول الله...».

وهذه الضوابط أكثرية. (للاستزادة منه راجع:تاج العروس٣٣٧/٣٠، مادة: كلل؛ كتاب الكليات، ص١٠٤٦، آخر الكتاب)

ملْتَمِس: لَمَسَ (ن،ض) مسه. (ويعم المسُ التحصيلَ أيضًا)، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ (الأنعام: ٧)

لامسَ: مسح بعضهم بعضا/ مس. وفي الحديث: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن المنابذة...، ونهى عن الملامسة».(صحيح البخاري، رقم:٢١٤٤)

لامسَ المرأةَ: أتاها، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ (النساء: ٤٣)

التمس منه: سأله، طلب منه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا ﴾ (الحديد: ١٣)

قالت عائشة رضي الله عنها في حديث الإفك: «فالتمست عقدي».(صحيح البخاري، رقم: ٢٧٧٠)

الالتماس: طلب المساوي من المساوي. سبقت كلمات قريبة منه في البيت رقم (٢٧).

اللمسُ: إحدى الحواس الخمس (القوة اللامسة).

غَرفًا: غَرَفَ (ض) الناصيةَ غَرفًا: جزَّ الناصية. غرَفَ الماء: ملأ كفه.

اغترف: أخذ الماء بيده، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةَۢ بِيَدِهِۦ ﴾ (البقرة: ٢٤٩)

الغُرفَة: (١)كف من الماء وغيره، ج: غِرَاف، غَرَفات، غُرف.

وفي الحديث: «أخذ غرفة من ماء فمضمض بها».(صحيح البخاري، رقم: ١٤٠)

(٢)العلية، ج: غُرَف، غُرَفات. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ (العنكبوت: ٥٨)، و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾ (سبأ: ٣٧)

ورد في قصة إيلاء النبي صلى الله عليه وسلم: «وهو في غرفة له».(صحيح البخاري، رقم: ٥٢٠٣)

اعلم أنه يصح إطلاق الغُرفة – بفتح الغين وضمها- في معنى الأخذ باليد. قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وغيرهم بالفتح، وقرأ الباقون بالضم. قال الكسائي: « لو كان

مَوْضِعُ اغْتَرَفَ غَرَفَ اخْتَرْتُ الفَتْحَ؛ لأَنَّه يُخَرَّجُ على فَعْلَةٍ، ولَمّا كان اغْتَرَفَ لم يُخَرَّجْ على فَعْلَة. (للاستزادة راجع: تاج العروس٢٤/٢٠٩، مادة: غرف)

من البحر: بَحَرَ (ف) بَحْرًا شقه. سمي البحر به؛ لأنه شق الأرض.

ورد في قصة عبد المطلب المفصلة في حفر زمزم: «ثم حفر حتى أنبط الماء ثم بحرها». (مصنف عبد الرزاق، رقم:٩٧١٨)

وفي حديث: «قد عرفت أول الناس بحر البحائر». (أي شقها). (مصنف ابن أبي شيبة رقم:٣٦٩٨٠)

البَحر: (١) المالح من البحر، النهر العذب. (٢) العالم المتبحر. (٣) فرس كثير الجري.

قال النبي صلى الله عليه وسلم في فرس أبي طلحة: «وجدناه بحرا» أو قال: «إنه لبحر». (صحيح البخاري، رقم:٢٩٠٨)

تبحر المكان: اتسع.

رَشْفًا: رَشَفَ (ن،ض) الماء رَشْفا ورَشيفا، و(س) رَشَفا: المص. (٢) جرعة من ماء. الرشْف: الْبَقِيَّة الْيَسِيرَة من السَّائِل ترشف بالشفاه. تَرَشَّفَ: بالغ في الرشف.

الدِّيَم: دامَ (ن) دَوما، ودوامًا: خلد. (٢) مكث.

في الحديث: «لا يبولن أحدكم في الماء الدائم الذي لا يجري».(صحيح البخاري، رقم:٢٣٩)

داوَمَ على الشيء: واظب عليه، وفي الحديث: «كان إذا صلى صلاة داوم عليها». (صحيح البخاري، رقم:١٩٨٠)

دَوَّمَت السماءُ: أمْطرت الديمة، وتواصل المطر. دِيمَة: المطر الكثير الدائم من غير رعد ولا برق. أقله ثلث النهار. وأكثره يوم وليلة. ج: دِيم. وأصل الديمة: دِومة، استبدلت الواو ياءً.

الإعراب:

وكلهم: الواو مستأنفة. كلهم من رسول الله: مبتدأ، خبره: مُلتمس.

أفرد (ملتمِس)؛ لأن (كل) مفرد لفظا. وجمع (واقفون) في البيت التالي رعاية لمعنى (كل).

وثمة أمثلة عديدة في القرآن الكريم، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (البقرة: ٨)،وقَالَ تَعَالَىٰ:﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ (البقرة: ٦٢)، وقَالَ تَعَالَىٰ:﴿ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ۝٢٧ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ ﴾ (الجن: ٢٧-٢٨)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ (محمد: ١٣)، وقَالَ تَعَالَىٰ:﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ (محمد: ١٣)

من رسول الله: متعلق بـــ ملتمس.

من البحر/ من الدِّيم: (١) من البحر: متعلق بـــ غرفا. ومن الديم: متعلق بـــ رشفا. (٢) كلاهما حال. (٣) كلاهما صفة.

من رسول الله: حذف المضاف منه، والتقدير: من علوم رسول الله-صلى الله عليه وسلم- ومن معارفه.

الشرح:

حاصل البيت أن الأنبياء كلهم استفادوا من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، بين مقل ومكثر.

يعترض كثير من العرب على هذا البيت، ويرون فيه غلوًّا وانتقاصًا للأنبياء عليهم السلام، وتفصيله فيما يلي:

الاعتراض: ظاهر البيت يفيد أن الأنبياء كلهم استفادوا العلم من محمد صلى الله عليه وسلم، منهم من استفاد بقدر البحر، ومنهم من استفاد بقدر الغرفة، ومنهم من استفاد بقدر الجرعة، إذًا أصل العلم عند محمد صلى الله عليه وسلم؟

وكيف يصح ذلك؟ في حين أن الله تعالى هو الذي منح الأنبياء العلم، ثم لم يكن محمد صلى الله عليه وسلم في أزمان الأنبياء؟

الجواب: أجاب عنه غير واحد من العلماء بأجوبة عدة، نكتفي بذكر ثلاثة منها:

(١) من التأويلات البعيدة: كلهم من رسول الله ملتمس: أي جميع الأنبياء يلتمسون من الله، أي يدعون الله أن يرزقهم من علوم محمد صلى الله عليه وسلم، فيلتمس

بمعنى يدعو، وحذف منه لفظ الجلالة: (الله). و(من) للتبعيض، أي: بعض علوم رسول الله. أي كان الأنبياء على علم بمحمد صلى الله عليه وسلم، حيث أخذ الله تعالى منهم العهد، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ (آل عمران: ٨١)، فطلبوا من الله تعالى أن يرزقهم حظا من علم محمد صلى الله عليه وسلم.

(٢) والتأويل القريب أن كافة الأنبياء عليهم السلام ائتموا بمحمد صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج. وتلا النبي صلى الله عليه وسلم القرآن الكريم في الصلاة (وبما أن حالة القيام في الصلاة لا يقرأ فيها إلا القرآن) فقد استفاد كافة الأنبياء علوم القرآن الكريم وبركاته وحكمه ومعارفه من النبي صلى الله عليه وسلم مباشرة. وكل أخذ منه ما وسعه، قليلا أو كثيرا.

الملتمس: معناه: الآخذ. والآخذ هو المستفيد. قال صاحب الهداية: «وكذا إذا كان الوكيل من جانب الملتمس» أي الآخذ. (كتاب الوكالة، ص١٨٠)

فالمعنى: ملتمس أي مستفيد من النبي صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج من تلاوته وعلومه وبركاته على قدر ظروفهم. وهذا المعنى أنسب.

والدليل على أنه يخص المعراج البيت الآتي: «و واقفون لديه عند حدهم...».

(٣) في ضوء كلام حجة الإسلام الشيخ محمد قاسم النانوتوي رحمه الله:

النص الأول: يقول الشيخ: «إن محمدا صلى الله عليه وسلم موصوف بالنبوة بالذات، وسائر الأنبياء موصوفون بها بالعرض. ونبوتهم من فيض نبوته صلى الله عليه وسلم، وليست نبوته من فيض أحد».

ثم ذكر الشيخ الأدلة على ذلك، فقال: (١) قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ (آل عمران: ٨١)، (٢) قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أوتيت علم الأولين والآخرين».[١]

---

(١) «أوتيت علم الأولين والآخرين». لم نجده بهذا اللفظ في مصادر الحديث. يقول الشيخ محمد يونس في «اليواقيت الغالية»: لم يقع نظري في حديث من الأحاديث «أوتيت علم الأولين والآخرين» أو «علمت علم الأولين والآخرين». (اليواقيت الغالية ٢/١٩٠)

(٣) قوله صلى الله عليه وسلم: «كنت نبيا وآدم بين الماء والطين»[(١)] ثم شرح ذلك كله. (راجع: تحذير الناس من إنكار أثر ابن عباس، ص ٣٥، وما بعدها؛ مقدمة العلامة الدكتور/خالد محمود، ص ٦، وما بعدها، مع تكملة للشيخ محمد إدريس الكاندهلوي)

وفيما يلي توضيحه هذا النص بإيجاز، يقول الشيخ سرفراز خان صفدر:

«ليس معنى «بالذات» في هذا المقام أن نبوته —والعياذ بالله —كانت من عند نفسه، وإنما أراد الشيخ أن الله تعالى رزقه كمالات النبوة مباشرة وبدون واسطة. وأما سائر الأنبياء فقد نالوا كمالات النبوة بوساطة منه صلى الله عليه وسلم وبفيض منه. كما نصِف ضوء الشمس بأنه بالذات، وضوءَ القمر بأنه بالعرض. (نور القمر مستفاد من نور الشمس). وليس معناه أن ضوء الشمس بالذات بمعنى أنه —معاذ الله– في غنى عن الله تعالى. انتهى ملخصًا. (راجع: عبارات اكابر، ص ١٢٦–١٢٧)

نص آخر: حكى الشيخ خليل أحمد السهارن فور في «المهند على المفند» تحقيقات الشيخ محمد قاسم النانوتوي في «تحذير الناس» (ص٤٤، ٥٥)، حاصله: الخاتمية جنس، تحته نوعان: خاتمية باعتبار الزمان: وهو أن زمان نبوته صلى الله عليه وسلم متأخر عن زمان نبوة سائر الأنبياء. والنوع الثاني: خاتمية باعتبار الذات، ومعناه أن نبوته ختم بها نبوة سائر الأنبياء؛ لأن ما بالعرض ينتهي بما بالذات. ونبوته صلى الله عليه وسلم بالذات،

نعم يوجد بلفظ «أوتيت مفاتيح كل شيء» في كتب الحديث المختلفة، وروي عن ابن عمر وابن مسعود بلفظ: «أوتيت مفاتيح كل شيء إلا الخمس». (راجع: مسند أحمد ٤١٢/٩، رقم:١٣٣٤٤؛ المعجم الكبير للطبراني ٣٦٠/١٢ /٣١٩٩٩؛ تفسير ابن كثير ٥٠٠/٣؛ الخصائص الكبرى١٩٥/٢؛ روح المعاني١١١/١١، قال الآلوسي: «بسند صحيح». وقال الهيثمي: رجال أحمد رجال الصحيح).

ولكن لا يؤخذ من هذا الحديث أنه أوتي جميع العلوم غير العلوم الخمسة؛ فإن كلمة (كل) قد تأتي بمعنى (البعض)، لا الإحاطة الحقيقية. نحو قوله تَعَالَىٰ:﴿ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٍ ﴾ (النمل: ٢٣)، وقوله تَعَالَىٰ:﴿ ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا﴾ (البقرة: ٢٦٠)، و قوله تَعَالَىٰ:﴿ يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ (القصص: ٥٧)؛ فإن المراد هنا البعض.

وفي تاج العروس: «وقد جاء استعماله بمعنى البعض».(١٠٠/٨) وفي أصول السرخسي: «وكلمة كل، وهي تحتمل الخصوص».(أصول السرخسي١٥٤/١)، وفيما أرى لو قلنا: الصفة محذوفة بعد (كل شيء) لكان خيرا، أي: كل شيء يحتاج إليه في الدين.

(١) «كنت نبيا وآدم بين الماء والطين» قال أهل الحديث: بهذا اللفظ موضوع. نعم روي بلفظ: «كنت نبيا وآدم بين الروح والجسد» عن عدد من الصحابة أمثال أبي هريرة وابن عباس وميسرة الفجر وعرباض ين سارية وغيرهم بسند صحيح في سنن الترمذي وغيرها.

ونبوة سائر الأنبياء بوساطة منه صلى الله عليه وسلم. وهذا ما حققه الشيخ الأكبر ابن عربي، والعلامة السبكي، والشيخ عبد القدوس الكنكوهي. فصَّل الشيخ السهارن فوري هذا البحث تفصيلا. (المهند على المفند،ص ٥٧-٦١؛ راجع لتحقيق العلامة السبكي المفصل حوله في: الحاوي للفتاوي ١٧٥/٢، تزيين الأرائك؛ الخصائص الكبرى٦/١، رسالة النبي صلى الله عليه وسلم عامة؛ سبل الهدى والرشاد ٨١/١، تقدم نبوته صلى الله عليه وسلم)

لا يكاد يسيغ كثير من السلفيين هذا المعنى، فيوجهون إليه سهام الاعتراضات، ويعتبرونه شركًا، فيجب إيضاحه.

أيسر وأقرب المعاني إلى الفهم هو أن سائر الأنبياء عليهم السلام أخذ منهم العهدُ بأنهم يؤمنون بمحمد ويؤيدون إذا جاءهم. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ (آل عمران: ٨١)، فمحمد صلى الله عليه وسلم مثل نبي الأنبياء، وسائر الأنبياء بمنْزلة أمته. وبتعبير آخر: معنى النبوة بالذات: نبي الأنبياء وكونه متبوعًا، والنبوة بالعرض معناها: التبعية له، كما يتبع العرض.

وأما حمله على «أن الأنبياء خلقوا من نور محمد صلى الله عليه وسلم» فلا يصح، كما سيأتي تفصيله في البيت رقم (٥٢) قريبًا بإذن الله تعالى.

أوْ رَشفًا: (١) أو بمعنى: الواو. أي حصل الفيض على الوجهين. (٢) أو على بابها، فمنهم مقل ومنهم مكثر.

من البحر:

يقول الشراح: قرن البحر بالغرف؛ لأن ماء البحر لا يصلح للشرب، وإنما يؤخذ باليد، ويستعمل. وأما ماء المطر فلذيذ وصالح للشرب، فقرنه بـــ (رشفا).

وفيه نظر، لأنه جاء في سياق بيان سمو شأن محمد صلى الله عليه وسلم، واستفادة الأنبياء عليهم السلام من بحر عمله وحكمته. فالقول بأن ماء البحر لا يصلح للشرب غير معقول. والصحيح أن (الرشف) إشارة إلى القلة، والغرف إشارة إلى الكثرة. (فاليد تحمل من الماء أكثر مما يحمله الفم). والحاصل أن منهم مقلا ومنهم مكثرا. علا أن (البحر) لا يخص المحيط العظيم، فقد يطلق البحر على البحر العذب.

مُلتمِس:

أطلق الالتماس تأدبا مع الأنبياء عليهم السلام؛ فإن كافة الأنبياء سواسية في أصل النبوة. كما مر في الشعر السابق. والأنبياء إخوة. وفي الحديث: «الأنبياء إخوة لعلات». (صحيح البخاري، رقم: ٣٤٤٣)

ولذا وصف عدد من الأنبياء محمدا صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج بـــ (الأخ الصالح). (صحيح البخاري، رقم:٣٤٩)

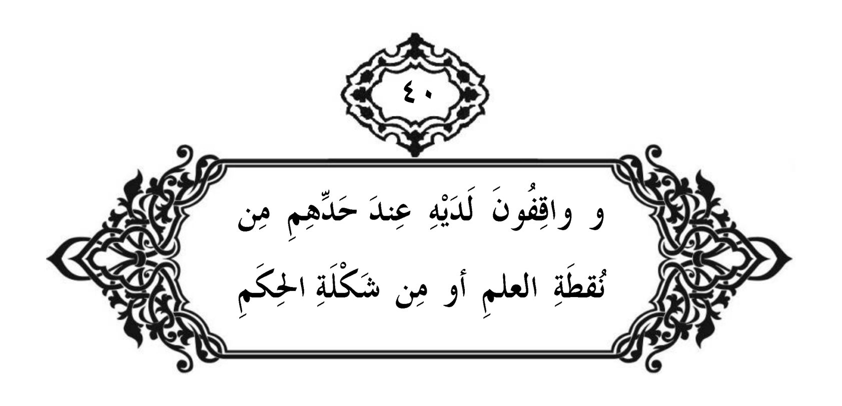
واعتبر النبي صلى الله عليه وسلم سليمان أخا له، ففي الحديث: «فذكرت دعوة أخي سليمان». (صحيح البخاري، رقم:٣٤٢٣)

وقال في يونس عليه السلام: «ذاك أخي، وكان نبيا وأنا نبي».(سيرة ابن هشام١/٤٢١، قصة عداس النصراني)

ولن تعوزك أحاديث متعددة في الصحاح الستة بهذا المعنى، مما يشير إلى أن المشاركين في رسالة واحدة هم إخوة بينهم.

انتهى، ولله الحمد.

****



اللغة:

واقفون: وَقَفَ (ض) وُقُوفا: (١) قام من جلوس. (٢) سكن بعد المشي. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ (الأنعام: ٢٧)

وفي الحديث: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف في حجة الوداع بمنى». (صحيح البخاري، رقم:٨٣)

وقَفَ في المسألة: ارتاب فيها. وقَفَ على الشيء: اطلع عليه.

وقَفَ فلانا: منعه. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ (الصافات: ٢٤)

وقف الأمر على كذا: علق عليه.

أوقف: منع. واقَفَ: وقف معه، نصره. توقف عن كذا: امتنع عنه.

توقيف: نَص الشَّارِع الْمُتَعَلّق بِبَعْض الأُمُور مما لامجال فيه للرأي.

لديه: لدى: بمعنى عند، ظرف مكان. وهو اسم جامد وإذا أضيفت إلى مُضْمر قلبت ألفها يَاء فَتَقول لديك ولديه. وقد يأتي للزمان، نحو: جئتك لدى طلوع الشمس.

الفرق بين لدى وعند:

(١) لدى: للدلالة على وجود الشيء عند أحد فعلا، نحو: المال لدى زيد، إذا كان عنده حالا. وأما عند فتدل على الملكية، وإن لم يكن حاضرا عنده، نحو: المال عند زيد. أي في ملكه، وإن كان مودعا في البنك. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ﴾ (آل عمران: ٤٤)، وقوله تَعَالَىٰ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (ق: ١٨)

فمعنى الحضور واضح في الموضعين من الآية.

ولذا أطلق الله تعالى كلمة (لدى) في غير موضع من القرآن الكريم لنفسه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ﴾ (المؤمنون: ٦٢)،وقوله تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ (يس: ٣٢)، وقوله تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ (الزخرف: ٤)

(٢) فرق آخر: (عند) تصلح لظرفية الأعيان والمعاني كليهما، (أي المحسوس وغيره) نحو: هذا القول عندي صواب، عند فلان علم به. ولا يصح استعمال (لدى) في هاتين الجملتين. (راجع: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ص٢٠٩، حرف العين).

و(عند حدهم) في البيت ظرف لغير محسوس.

ذكر العلامة السيوطي ستة فروق بين (لدن) و(عند). (راجع: الإتقان في علوم القرآن ٤٤٦/١، النوع الأربعون)

عندَ حدهم: حَدَّ (ض) السيفُ حِدَّةً: صار قاطعا.

أَحَدَّ: جعله قاطعا. «وليحد أحدُكم شفرته».(صحيح مسلم، رقم:١٩٥٥)

حَدَّ على غيره: غضب عليه. وفي الحديث: «لا ينبغي لحامل القرآن أن يحدَّ مع من يحِدُّ».(شعب الإيمان للبيهقي، رقم:٢٣٥٣)

وفي بعض الروايات بالجيم: أن يجد مع من وجد، وحاصلهما واحد.

حَدَّت المرأة (ض) حِدادًا: تركت الزينة.

حَدَّ (ن) وضع فاصلا. وفي حديث الشفاعة الكبرى: «فيحدُّ لي حدًا».(صحيح البخاري، رقم:٤٤٧٦)

حَادَّ فلانا: عصاه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ (التوبة: ٦٣)

تعريف الحد:

الحد: (١) نهاية الشيء، وآخره، «لكل حرف حد». (المعجم الكبير للطبراني ١٣٦/٩/ ٨٦٦٧)، (٢) المرتبة، وهو المناسب في البيت. (٣) الحاجز والمانع. (٤) الرَّقِيق الحاد. (٥)عُقُوبَة شرعية مقدرَة، مثل حد الزنا وحد القذف، وحد شرب الخمر، وحد السرقة ونحوها. ج: حدود. «أتشفع في حد من حدود الله».(صحيح البخاري، رقم:٣٤٧٥)

(٦) التعريف بالذاتيات (القول الدال على ماهية الشيء). نحو: تعريف الإنسان بالحيوان الناطق. وهو حد. والتعريف بالعرضيات يسمى رسما.

حدود الله: الأحكام التي وضعها الله تعالى بالأوامر والنواهي. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ (البقرة: ٢٢٩)

نقطة:

نَقَطَ (ن) نَقْطًا:وضع النقطة. نقط الكتاب: أعربه.

النقطة: (١) علامة مستديرة صغيرة. (٢) وصمة. وفي الحديث: «عليكم بالأسود البهيم ذي النقطتين (أي اقتلوه) فإنه شيطان».(صحيح مسلم، رقم:١٥٧٢)

(٣) الجزء. (٤) المركز، الجبهة. (٥) موضوع البحث. (٦) في علم الهيئة: ما ليس له طول ولا عرض.

ذكرت كتب الأحاديث في باب نقط المصحف عدة آثار، تتحدث عن إعراب حروف القرآن ونقطها. (مصنف ابن أبي شيبة ١٥/٥٦٨-٥٦٩)

شَكلة: شَكَلَ الأمر (ن) شُكولا: صعب، شَكَلَ الكتاب: ضبطه بالشكل.

شَكِلَ: خالطت الحمرة البياض. وبهذا المعنى يسمى: شكيل وشكيلة.

أشكل الأمر: الْتبس. شاكله: شابهه وماثله.

الشكل: (١) الخارطة. (٢) هيئة الشيء وصورته. (٣) المثل والشبيه. (٤) الشكل في علم الهيئة: هَيْئَة للجسم أَو السَّطْح محدودة بِحَدّ وَاحِد أَو بحدود مُخْتَلفَة كالمثلث بثلاثة حدود، والمربع بأربعة حدود، ج: أشكال، وشُكول.

الحِكَم: حِكمةٌ: ج: حِكَم. والمراد: الكلمة الحكيمة. حَكُمَ (ك) حُكمًا: عقل. فهو حكيم.

سبق تحقيق (الحكمة) لغةً في البيت رقم (٢٥).

الشرح:

معنى البيت أن الأنبياء عليهم السلام بأجسادهم المثالية وعيسى عليه السلام بجسده الحقيقي حين كانوا واقفين للنبي صلى الله عليه وسلم وقوفَ الخدَم، كما يخدم الإعراب

والنقط الكلمة.

يقول أنس وهو يحكي قصة المعراج: «ثم ركب البراق فسار حتى أتى به إلى بيت المقدس فصلى فيه بالنبيين والمرسلين إمامًا، ثم عرج به إلى السماء الدنيا».(تفسير الطبري ٣٣٣/١٧)

حاصل المعنى الذي ذكره الشراح لهذا البيت يتلخص فيما يلي:

(١) كان الأنبياء متواجدين ثمة، كانوا واقفين وفق مرتبتهم.

(٢) حال كونهم آخذين منه، أي أن ما استفاده الأنبياء منه صلى الله عليه وسلم كان بإزاء علم محمد صلى الله عليه وسلم مثل النقطة أو الإعراب. وما إلى ذلك. ولكن هذه التوجيهات لا يطمئن إليها النفس.

وثمة توجيهان يسيران فيما أرى لهذا البيت:

التوجيه الأول: كما أن الكلمة العلمية تحتاج إلى النقطة، والنقطة بمنْزلة الخادم لها، كذلك الأنبياء عليهم السلام كانوا كالخدم له عليه السلام في المعراج.

ولإيضاح هذا المعنى، أي كون النقطة معاونة كالخادم، نفصل بعض التفصيلات:

أهمية النقطة:

يقول الشاعر الأردي:

ہم دعا کرتے رہے اور وہ دغا سمجھتے رہے ❁ ایک نقطے نے ہمیں محرم سے مجرم کر دیا

(واصلنا الدعاء وهو يراه خدعة، إن نقطة واحدة حولتنا من الْمَحْرَمِ إلى الْمُجْرِم)

أمر سليمان بن عبد الملك كاتبه أن يكتب كتابا إلى أبي بكر بن حزم: أن أحص من قبلك من المخنثين، فصحف الكاتب فقرأ بالخاء فخصاهم. (أخبار الحمقى والمغفلين لابن الجوزي، الباب:١٤؛ أخبار المصحفين للعسكري، ص:٥٣؛ محاضرات الأدباء للأصفهاني، تصحيف أدى إلى مضرة).

أي كما أن الضبط يخدم ذا الحكمة، كذلك الأنبياء عليهم السلام كانوا واقفين كالخدم لِمُحمّد صلى الله عليه وسلم.

المعنى: كما أن الشكل يعين على معرفة صورة الكلمة، إذ به نعرف حقيقتها.(فكأنه خادم) كذلك الأنبياء عليهم السلام كانوا كالخدم واقفين له صلى الله عليه وسلم.

أهمية الضبط الصحيح:

معرفة معنى الكلمة الصحيح تتطلب الضبط الصحيح لها، فإن تغير الضبط يغير حقيقة الكلمة. ومن الأمثلة على ذلك:

(١) دخل أعرابي بخصمه على الملك، فقال: ختني ظلمني. فقال الملك: من خَتَنَك؟ -ففتح النون- فقال: معذر في الحي. فقال الملك: ويحك، ما تقول؟ فقال: هلا قلتَ: ختنُك؟ بالضم. عزا بعضهم هذه القصة إلى الوليد بن عبد الملك، وبعضهم إلى عبد العزيز بن مروان. فلزم بيته أسبوعا، و لم يخرج منه، وتعلم العربية فعُدَّ من الفصحاء. (تاريخ مدينة دمشق٣٦/٣٥٤، ٦٣/١٦٧؛ خزانة الأدب ٨/٤٨٠)

فالفتح مكان الضم قلب المعنى رأسا على عقب.

(٢) أراد رجل الوصول إلى المأمون في ظلامة فلم يصل إليه، فقال على الباب: أنا أحمد النبيّ المبعوث، فكتب بذلك صاحب الخبر يذكر أن رجلاً تنبّأ فأدخل على المأمون فقال له: ما تقول؟ فذكر ظلامته. فقال له: ما تقول فيما حكي عنك؟ قال وما هو؟ قال: ذكروا أنك تقول إنك نبيّ. قال: معاذ الله، إنما قلت: إني أحمد النبيِّ المبعوثَ أ فلست يا أمير المؤمنين ممن يحمده؟ قال: نعم، واستظرفه ونظر في أمره. (نفحة العرب، ص٢١٠؛ سمط اللآلي ١/٦٨، خبر الحضرمي بن عامر)

(٣) قدم أعرابي في زمان عمر فقال: من يقرئني مما أنزل الله على محمد؟ فأقرأه رجل براءة، فقال: «إن اللهَ بريء من المشركين ورسوله» بالجر، فقال الأعرابي: أو قد برئ الله من رسوله إن يكن الله برئ من رسوله فأنا بريء منه، فبلغ عمر مقالة الأعرابي فدعاه. وشرح له القراءة الصحيحة بالرفع. ثم أمر أبا الأسود الدؤلي بوضع قواعد النحو. (كنز العمال٢/٣٢٩؛ تاريخ مدينة دمشق ٢٥/١٩١)

معنى البيت هذا إذا جعلنا (من) للتشبيه، وتقديره: كنقطة العلم أو كشكلة الحكم.

قد تأتي «من» لبيان الفرع:

نجد عدة أمثلة عند التتبع، فيما يلي بعضها:

(١) قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةً وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴾ (الفتح: ٢٩) قال ابن كثير: «مِن هذه لبيان الجنس». (تفسير ابن كثير ٤/٢١٦)

ويمكن أن نقول أن «مِن» ههنا للتشبيه، أي المؤمنون العامِلون المشابهون بالصحابة المذكورين من قبلُ لهم مغفرةٌ وأجرٌ عظيم.

(٢) قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ﴾ (النساء: ٤٦)، قال ابن كثير: «مِن هذه لبيان الجنس». (تفسير ابن كثير١/٥٥٤)

(٣) قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ (المائدة: ٥٧)، قال ابن كثير: «مِن هذه لبيان الجنس». (تفسير ابن كثير ٨٢/٢)

(٤) قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ (الحج: ٣٠)، قال ابن كثير: مِن ههنا لبيان الجنس. (تفسير ابن كثير ٢٤٢/٣)

(٥) قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ (الأحقاف: ٣٥)، قال ابن كثير: «ومِن في قوله: (مِنَ ٱلرُّسُلِ) لبيان الجنس». (تفسير ابن كثير٤/١٨١)

(٦) قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾ (النحل: ٢٥)، قال القرطبي: «ومن للجنس، لا للتبعيض». (تفسير القرطبي١٠/٩٦)

(٧) قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ﴾ (المائدة: ٥١)

(٨) قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ (البقرة: ٢٢٠)

«مِن» قد تأتي للتشبيه:

(١) قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ (النجم: ٥٦) أي رسول مثل الرسل الأولى. (أيسر التفاسير ٥/٢٠٢)

(٢) قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ (الروم: ٢١) أي أمثالكم من الإنس.

(٣) قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ﴾ (الإنسان: ١٦)، أي مثل فضة.

(٤) وفي الحديث: «الكمأة من المن». (صحيح البخاري، رقم:٥٧٠٨)

أي الكمأة مثل المن. كما حصلت بنو إسرائيل على المن من غير كد، كذلك تحصلون على المن من غير زرع.

قال النووي: «قال أبو عبيدة وكثيرون: شبهها بالمن، الذي كان ينْزل على بني

إسرائيل؛ لأنه كان يحصل لهم بلا كلفة ولا علاج، والكمأة تحصل بلا كلفة ولا علاج، ولازرع بزر، ولاسقي و لا غيره».(شرح صحيح مسلم، رقم:٢٠٤٩، باب فضل الكمأة)

(٥) عن أبي هريرة قال: «خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في حج أو عمرة، فاستقبلنا رجل من جراد، فجعلنا نضربه بسياطنا وعصينا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «كلوه؛ فإنه من صيد البحر».(سنن الترمذي، رقم:٨٥٠)

وفي المرقاة: «قال العلماء: إنما عده من صيد البحر؛ لأنه يشبه صيد البحر من حيث ميتته». (مرقاة المفاتيح ٣٨٩/٥)

(٦) وفي الحديث: «إذا اشتد الحر فأبردوه بالظهر؛ فإن شدة الحر من فيح جهنم». (صحيح البخاري، رقم:٥٣٣)

ذكر الشراح في هذا الحديث أيضًا معنى التشبيه، أي صلوا الظهر بالتأخير إلى وقت الإبراد، لأن شدة الحر مثل فيح النار وحرارتها. قال العلامة العيني: «ويقال: هذا خارج مخرج التشبيه والتمثيل، أي كأنه نار جهنم في حرها. ويقال: هو حقيقة».(عمدة القاري ٢٩/٤؛ ومثله في فتح الباري ١٧/٢؛ وفيض القدير ١٠١/١)

(٧) وفي حديث آخر: «الحمى من فيح جهنم، فأطفئوها بالماء». (صحيح البخاري، رقم:٥٧٢٣) ذكر الشراح في هذا الحديث أيضا معنى التشبيه. قال الحافظ ابن حجر: «وقيل: بل الخبر ورد مورد التشبيه، والمعنى: إن حر الحمى شبيه بحر جهنم».(فتح الباري١٠/١٧٥؛ ومثله في عمدة القاري١٤/٧٠٢)

(مِن) في النصوص السابقة كلها للتشبيه.

وكذلك ما ورد في الحديث: «فليس منا» يمكن حمله على التشبيه.

حاصل التشبيه أن النقط والضبط مما يعين على فهم الكلمة، فكأنه كله خادم للكلمة، كذلك الأنبياء عليهم السلام حضروا المعراج كخدم.

التوجيه الثاني:

كما أن نقطة العلم سبيل إلى تفهيمه، والضبط سبيل إلى فهم الكلمة، (فلو أزيل النقط كلها من القرآن الكريم لتعذر فهم شيء منه) كذلك الأنبياء عليهم السلام سبب لتفهيم مكانة رسول الله صلى الله عليه وسلم. كل منهم شرح مكانة محمد صلى الله عليه

وسلم لأمته. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ...﴾ (آل عمران: ٨١)

وسبق في تفسير هذه الآية الأحاديث الدالة على أنه ما من نبي إلا عرَّف أمته بمحمد صلى الله عليه وسلم، و أخذ منهم العهد بأن يؤمنوا به إذا شهدوا عهده. سبق التفصيل في البيت رقم (٣٩).

وهذان المعنيان قريبان ومناسبان للبيت.

إيضاح وجيز للحكمة:

حكمة: سبق بيان عدة معانٍ لهذه الكلمة، نوجز إيضاحها هنا:

من معاني الحكمة: (١) فراسة يوضع بها كل شيء في محله. أي معرفة كيف ومتى يقوم بالعمل؟ هي الحكمة. (أي مراعاة المقام والمحل).

ويعبر عنه بعض علمائنا بقوله في الفارسية: *موقع شناسى، مردم شناسى*(معرفة المقام ومعرفة الشخص)، ومن أيسر الأمثلة على ذلك مايلي:

(١) إذا أردنا منع أحد من المخدرات فلنوصه بالتخفف عنه قليلا قليلا. (٢) إذا تاب المغني من عمله أوصيناه بقراءة الأبيات والمدائح النبوية. (٣) إذا رأينا من يسدل إزاره تحت كعبيه، فلا نقول له: أصلح إزارك، وإنما نقول له: أرأيت هل إزاري تحت الكعبين. قَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ (النحل: ١٢٥)، و قَالَ تَعَالَى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ (طه: ٤٤)

(٢) من معاني الحكمة: إدراك العلل واللطائف والدقائق. فمثلا يقولون: من الحكم في صلاة الفجر:

١- أدبر ظلام الليل، وأقبل النور فاركع ركعتين. ٢- أو النهوض بعد النوم يشبه الحياة بعد الممات، ونحو ذلك.

وكذلك يذكرون الحكم في إقامة الصلوات الخمس على مواقيتها. أو ما الحكمة في الثناء على الله والقراءة والركوع والسجود والتشهد والسلام في الصلاة؟ وما الحكمة في فرض الصوم وصوم ثلاثين يوما؟ ونحو ذلك.

ذكر الشاه ولي الله المحدث الدهلوي هذه الحكم بالتفصيل. وكذلك كتاب «المصالح

العقلية في الأحكام الشرعية» لحكيم الأمة أشرف علي التهانوي من أهم كتب هذا الموضوع، وكذلك كتاب «الرسالة المحمدية» من الكتب التي تستحق المطالعة.

وفي الحديث: «الكلمة الحِكمة ضالة المؤمن؛ فحيث وجدها فهو أحق بها».(سنن الترمذي، رقم:٢٦٨٧)

مادة: ح ك م تفيد الإحكام:

مادة (ح ك م) تفيد الإحكام، نحو: (١) أحكمه، أي: أتقنه. (٢) الحكمة: حلقة تكون في فم الفرس، اللجام. وهذه الحديدة متينة بذاتها وتعين على ضبط الفرس، وإلا سقط الراكب مَن على ظهره. (٣) قَالَ تَعَالَى:﴿ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ ﴾ (محمد: ٢٠) أي غير منسوخة. (٤) كذلك الحكيم والحكم والحاكم والحكمة تفيد معنى الإحكام والقوة. فالسنة النبوية مما يجب التمسك به بقوة: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ».(سنن ابن ماجه، رقم: ٤٢)

ولا يدرك الحكم واللطائف إلا من قوي علمه و أحكم.

والحكمة يناسبه كلمة الفقه.

الفقه: (١) العلم العميق. (٢) العلم الاستدلالي. (٣) العلم الراسخ، الظاهر عمله في الباطن. (٤) العلم بالأحكام الشرعية العملية عن أدلتها التفصيلية.

وقريب من هذا ما ذكره الجرجاني. (راجع: التعريفات ١٧٠؛ وينظر: كشاف اصطلاحات الفنون، ص ٣٠-٣٢، المقدمة).

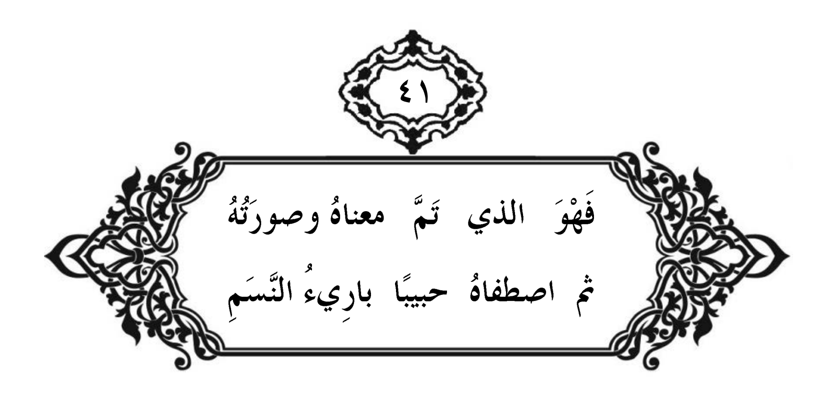
هذا، وتحتوي كتب الفقه واللغة على عشرينات التعريفات للفقه.

البلاغة:

في البيت تشبيه تمثيل، (أي تشبيه المركب بالمركب).

النبي صلى الله عليه وسلم رئيس ومتبوع، والأنبياء عليهم السلام واقفون له كالخدم. وذلك كالملك العظيم الذي يقعد في مجلس، وخدمه حشمه واقفون حوله كل على قدر منْزلته وقدره، يترقبون قوله.

****



اللغة:

تَمَّ: تَمَّ (ض) تِمًّا وتَمامًا: كمل، وانتهى، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ﴾ (الأعراف: ١٤٢)

أَتَمَّ الشيءَ: أكمله، تَمَّ (ن) تَمًّا: علق التميمة. تَمَّمَ الصبيَ: علق عليه التميمة.

التميمة: مَا يعلق فِي الْعُنُق لدفع الْعين، ولعلها سميت بذلك لأنها تعلق لجبر النقص.

ليلة التمام: ليلة البدر.

تقول عائشة رضي الله عنها: «كنت أقوم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة التمام، فكان يقرأ سورة البقرة وآل عمران والنساء».(مسند أحمد، رقم:٢٤٦٠٩)

مَعْناه: عَنَى (ض) عَنْيًا: قصد. سمي به لأنه يُقصد.

عَنَى الأمر فلانا عنايةً: أهمه.

وفي الحديث: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه».(سنن الترمذي، رقم:٢٣١٧)

عَنِيَ (س) عنى وعناءً: تعب، وأصابته مشقة.

عُنِيَ بالأمر عَنيًا وعِنايةً: التفت إليه/ اهتم به. فهو معني به.

عَنَّاه: آلمه.

قال محمد بن مسلمة — حين خرج لقتل كعب بن الأشرف بإذن من الرسول صلى الله عليه وسلم وهو غير جاد فيما قال-: «إنه قد عَنَّانا».(صحيح البخاري،رقم:٤٠٣٧) أي آلمنا/ وحمل علينا المشقة.

عَاناه: تحمل المشاق.

قيل لعقبة رضي الله عنه: إنك تتعلم الرماية وأنت كبير السن، فقال: «لولا كلام سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أعانه».(صحيح مسلم، رقم:١٩١٩)

عنَا (ن) عُنُوًّا: خضع لذلة، تبعه، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ (طه: ١١١)

مَعْنى: (١) ما يدل عليه اللفظ. (٢) الصفة الحميدة،ج: معانٍ.

علم المعاني: هُوَ علم يعرف به أحوال اللَّفظ العرَبيّ التي بها يُطابق مُقتَضى الحال.

صورته: صار (ن) صَورا: صوَّت.

صار الشيء إليه: (١) اقترب إليه، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ (البقرة: ٢٦٠)(٢) قطعه.

صَوِرَ (س) صَوَرًا: خضع، تبع.

صَوَّرَ: جعل لَهُ صُورَة مجسمة وفي التَّنْزيل العزيز: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ (آل عمران: ٦)، وقَالَ تَعَالَىٰ:﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ (الحشر: ٢٤)

تصوَّرَ له كذا: تخيله.

التصوير: نقش صُورَة الأشياء أو الأشخاص على لوح أو حائِط أو نحوهما بالقلم أو غيره أو بآلة التَّصْوير.

الصورة: (١) الشكل. قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ (الانفطار: ٨) (٢) التمثال،ج: صور.

اصطفاه: صفَا (ن) صَفْوًا وصَفَاءً: نقي و خلص. أصفى اليومُ: لا غبار فيه.

صَفَّى: نقاه، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ (محمد: ١٥)

اصطفاه: (١) اختاره. قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ (الحج: ٧٥) (٢) عظّمه، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (آل عمران: ٣٣)

والبيت يحتمل المعنيين.

بارئ: بَرَأ (ف) بَرْءًا: خلقه. قَالَ تَعَالَىٰ:﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ الحديد: ٢٢

بَرِئَ (س) المريض: عاد إليه الصحة.

بَرُؤَ (ك) بُرءا وبَرْءًا: برئ، تخلص من الاعتراض.

بَرَّأه: عدَّه برئيا/ برّأ ساحته من الجريمة، قَالَ تَعَالَى: ﴿كَالَّذِينَ ءَاذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ﴾ (الأحزاب: ٦٩)، وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ﴾ (يوسف: ٥٣)

قال علي ذات مرة وهو يستحلف: «والذي خلق الحبة وبرأ النسمة».(صحيح البخاري، رقم: ٣٠٤٧)

النسم: نَسَمت الريح نَسمًا (ض) هبت هبوبا رويدا.

النسمة: (١) الروح، والروح لا يرى مثل الهواء. (٢) مخلوق ذوحياة. وله معانٍ أخرى عديدة. ج: نَسَمٌ.

النسيم: الرّيح اللينة.

قال الشاعر:

مَشَت كالغُصن يثنيه النسيم ۞ و يعدوها النسيم فتستقيم

وما حبي لها إلا عذاب ۞ عليها من نضارته نعيم

الإعراب:

فهو: تفريع وبيان للنتيجة. وهذا متفرع على الكمالات والأوصاف المذكورة في الأبيات المذكورة.

تمَّ معناه: صلة (الذي).

ثم اصطفاه حبيبا:

حبيبا: (١) تمييز، من حيث إنه حبيب .(٢)حال. (٣) فيه تضمين فعل، اصطفاه (فجعله) حبيبا.

الشرح:

معنى هذا البيت حاصل الأبيات السابقة وخلاصته، أي أن كمالاته الظاهرة والباطنة مكتملة.

معناه وصورته:

(١)الكمالات الظاهرة والباطنة. (سبق تفصيله في البيت رقم (٣٨). (٢) الطريقة

والشريعة. (٣) الروحانية والجسمانية. (٤) العلم والعمل. (العمل ظاهر). (٥) العبادات والمعاملات. (فالمعاملات ظاهرة للناس).

تعريف الشريعة والطريقة والحقيقة:

يطلقون ثلاث كلمات متقاربة:

(١) الشريعة: الأحكام الظاهرة والعمل بها.

(٢) الطريقة: الأحكام الباطنة والسير عليها.

(٣) الحقيقة: هي أن تصير العبادة بمنْزلة العادة.

ألف حكيم الأمة الشيخ أشرف علي التهانوي كتابا سماه «الشريعة والطريقة»، في أكثر من خمس مئة صفحة. يسلط الكتاب الضوء بأسلوب بسيط على كل ما يخص علم التصوف، يبدو أن الكتاب خلاصة مطولات التصوف. والله أعلم.

الكمال الباطني مقدم:

قدَّمَ الكمال الباطني؛لأن:

(١) تولي الشريعة الكمالات الباطنة أهمية أكثر من الكمالات الظاهرة.

(٢) مراعاة لوزن الشعر.

ما المراد بـــ «ثُمَّ» ؟

(١) التراخي في الزمان، نحو: توضأت ثم صليت.

ومعنى البيت: خلقك وبعد مدة (أربعين سنة) جعلك نبيا.

(٢) التراخي في الرتبة، ومعنى البيت: أنه كامل، ولكن مقام الاصطفاء فوق ذلك بكثير.

(٣) الترتيب في الذكر، أي: اسمع بعد ذلك، كأنه ذكر أولا صفة من الصفات، ثم ذكر صفة أخرى، دون النظر إلى الزمان أو الرتبة.

اصطفاه:

يتولى الله تعالى اصطفاء الأنبياء عليهم السلام:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا ﴾ (آل عمران: ٣٣)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ

يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ (الأنعام: ١٢٤)

وفي الحديث: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشا من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم».(صحيح مسلم، رقم:٢٢٧٦)

وزاد الترمذي في أوله: «اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل».(سنن الترمذي، رقم:٣٦٠٥)

وروى الحاكم معناه، وزاد: «فأنا خِيرة من خيرة».(المستدرك، رقم:٦٩٩٦)

ومن أسمائه صلى الله عليه وسلم: المصطفى، الصفي، المجتبى، المختار، المرتضى، وغيرها مما يدل على هذه الصفة.

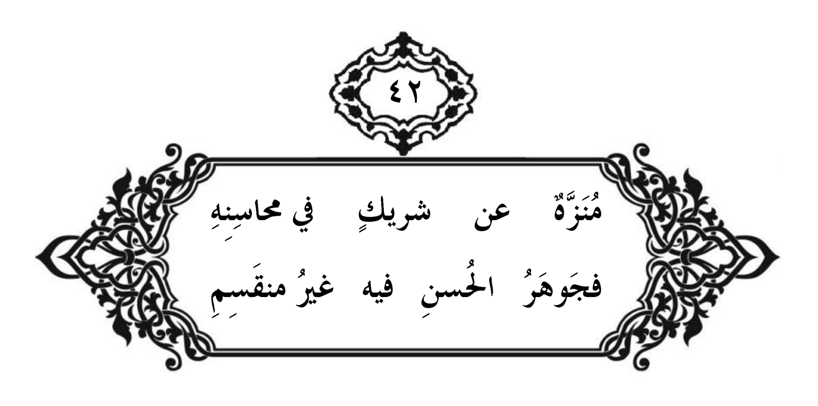
وفي الحديث: «بعثت من خير قرون بني آدم قرنا فقرنا، حتى كنت من القرن الذي كنت فيه». (صحيح البخاري، رقم:٣٥٥٧)

الفرق بين الخالق والبارئ:

ذكر المفسرون في تفسير قوله تَعَالَىٰ:﴿ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ﴾(الحشر: ٢٤) عدة أقوال، يمكن الرجوع إلى كتب التفاسير لها، نكتفي هنا بذكر بعض الفروق اليسيرة: (١)هما بمعنى. (٢) خالق الأجسام وبارئ الأرواح. وهو المراد بالبارئ في البيت. (٣)الخالق: الموجد، والبارئ: الذي خلق الأجسام بريئة من التفاوت. (٤)الخالق: الموجد، والبارئ: مميز الأشكال.

في العالم بلايين من البشر، ميَّزَ الله تعالى أشكالهم وصورهم، فإن تشابهت الأشكال فلا بد أن تتفاوت بصمات الأنامل. ولذا قال القرآن الكريم في سياق البعث بعد الموت: ﴿ نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴾(القيامة:٤) أي يعرف بصمات أصابعه. ولم يذكر عضوا آخر من أعضاء الإنسان؛ فإنه يعرف بها.

****



اللغة:

مُنَزَّهٌ: نَزَه (ف) الدابةَ نَزَها: أبعدها عن الماء.

نَزِه (س،ك) المكانُ نَزَاهَةً ونَزاهيةَ: صفا. نَزِهَ فلانٌ: ابتعد عما لايريد. فهو نزه، ونزيه.

نَزَّهَه: (١) أبعده. (٢) أبعده عن الذنوب. (٣) بَرَّأه، وسبَّحه. ورد في قيامه صلى الله عليه وسلم بالليل: «وإذا مرَّ بآية تنْزيه لله سبَّح».(سنن ابن ماجه، رقم:١٣٥١)

استنْزَه: تصون. قال النبي صلى الله عليه وهو يتحدث عن عذاب قبر بعض الناس: «وكان الآخر لا يستنْزه عن البول».(صحيح مسلم، رقم:٢٩٢)

النُّزهة: (١) التَّنَزُّه. (٢) الْمَكَان الْبعيد. يقال: هو بنُزهة عن كذا: أي بعيد.

شريك: شَرِكت النعلُ (س): انقطع شراكها.

شَرِك فلانًا في الأمر شِركا وشِركةً: شاركه.

قال النبي صلى الله عليه وسلم فيمن تخلف عن الجهاد لعذر: «شرِكوكم في الأجر».(صحيح مسلم، رقم:١٩١١)

أشرَكَ: أدخله فيه. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾ (المائدة:٧٢)

وفي الحديث: «من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه».(صحيح مسلم، رقم:٢٩٨٥)

شاركه: كان شريكه. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَالِ وَٱلْأَوْلَادِ﴾ (الإسراء: ٦٤)

الاشتراكية: مَذْهَب سياسي واقتصادي يقوم على سيطرة الدولة على وَسَائِل الإنتاج وعدالة التَّوْزِيع والتخطيط الشَّامِل.

الشِركة: (١) عقد بَين اثْنَيْنِ أَو أَكثر للْقِيَام بِعَمَل مُشْتَرك. (٢) المؤسسة.

في محاسنه: حَسُنَ (ك) طاب، وجمل.

أحسنَ: (١) فعل ما هو حسن. وفي التنْزيل: ﴿ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ (القصص:٧٧)

(٢) أحكمه، قال تَعَالَىٰ:﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ (غافر: ٦٤)

هذا من معاني الآية. وسبق تحقيق هذه الكلمة في البيت رقم (٢١).

محاسن: (١) جمع (حسن) على خلاف القياس، نحو: ذكر جمعه: مذاكير، وقبيح جمعه: مقابح. (٢) جمع: مَحْسن.

فَجوهر: معرب (گوہر) الفارسية.

(١) حقيقة الشيء/ الأصل والمادة. (٢) عند الفلاسفة: القائم بالذات، ويقابله العرض، القائم بالغير. (٣) حجر غالٍ يخرج من البحر.

جَهَرَ (ف) جَهْرًا: برز وظهر. اللؤلو الذي يغلب ضوؤه كل شيء.

منقسم: قَسَمَ (ض) قَسْمًا: وزعه. قَالَ تَعَالَىٰ:﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ (الزخرف: ٣٢)

ورد في بير حاء: «فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه».(صحيح البخاري، رقم:١٤٦١)

قَسُمَ (ك) قَسَامَةً وقَسامًا: فهو قسيم، أي جميل.

قالت أم معبد وهي تصف رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قسيم، في عينيه دعج». (أي سواد العين في شدة بياضها). (المستدرك للحاكم، رقم:٤٢٧٤)

أقسَمَ: حلف، قال قَالَ تَعَالَىٰ:﴿أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ (المائدة: ٥٣)

قاسَم فلانٌ فلانا: أخذ حظه منه. انقسمَ: تقسم.

تقَاسمَ: تحالفوا، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ (النمل: ٤٩)

وفي الحديث: «منْزلنا غدا إن شاء الله بخيف بني كنانة حيث تقاسموا على الكفر».(صحيح البخاري، رقم:٣٨٨٢)

الاستقسام: نوع من الاقتراع بالأزلام.

وكانوا يَكْتُبون على القداح (لا تفعل) و(افْعَل). ويغفلون بَعْضها فما خرجت به الْقرعَة عمِلوا به، وأعادوا الاقتراع إذا خرج ما أغفلوه. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾ (المائدة: ٣)

اعلم أن هذا من جملة تفاسير الاستقسام، فله معانٍ أخرى، مذكورة في التفاسير.

الإعراب:

مُنَزَّهٌ: خبرٌ لمبتدأ محذوف، تقديره: (هو) منَزه.

عن شريك: أي عن كل شريك. النكرة وردت في سياق النفي فأفادت العموم.

سؤال: منَزه، مثبت، ليس فيه معنى النفي؟

الجواب: منَزه وإن كان مثبتا، لكنه نفي في الواقع، ومعنا: لا يوجد له شريك في محاسنه.

فيه: (١) فجوهر الحسن: مبتدأ، فيه: خبر أول. غير منقسم: خبر ثانٍ، والمبتدأ وخبره جملة اسمية.

(٢) جوهر الحسن: مبتدأ، غير منقسم: خبر أول. فيه: متعلق بـــ (منقسم) في (غير منقسم).

الشرح:

لا ثاني له صلى الله عليه وسلم:

المعنى: لا يشارك أحدٌ كمالات النبي صلى الله عليه وسلم. فحسنه مثل اللؤلو الذي لا ينقسم. وبتعبير آخر: لوكان لؤلؤ الحسن قابلا للتقسيم لكان جوهر منه فيه صلى الله عليه وسلم، وجزء منه في غيره، فكأنه شريكه فيه، ولكن حسنه مثل الدر اليتيم لا يوجد في غيره صلى الله عليه وسلم.

يقول الشيخ محمد قاسم النانوتوي رحمه الله:

جہاں کے سارے کمالات ایک تجھ میں ہیں ۞ تیرے کمال کسی میں نہیں مگر دو چار

(اجتمعت كمالات العالم كلها فيك وحدك، وليس من كمالاتك في غيرك إلا عدد

يسير).

إيراد: يشترك الأنبياء كلهم في النبوة والرسالة، وكذلك يحظى بعض الأنبياء الآخرين في بعض الصفات الحميدة. فكيف يصح تخصيصها بمحمد صلى الله عليه وسلم؟

الجواب: (١) وإن شارك سائر الأنبياء عليهم السلام محمدا صلى الله عليه وسلم في بعض المحاسن، إلا أنه نبي الأنبياء، وسائر الأنبياء بمنزلة أمته. فما يحظى به غيره من الأنبياء من الكمالات أقل منهم ولا شيء بالنسبة له.

سبق شرحه في البيت رقم (٣٩)، وسيأتي قريبا في البيت (٥٢) بحث مفصل عنه، بإذن الله تعالى.

هذا المعنى يؤيده الأحاديثُ النبوية. منها:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون». (صحيح مسلم، رقم:٥٢٣)

وعقد العلامة محمد بن يوسف الصالحي الدمشقي في كتابه «سبل الهدى والرشاد» أبوابا عدة لبيان خصائصه صلى الله عليه وسلم، وذكر في باب واحد منه — باب ما اختص به في ذاته في الدنيا- (٢١٣) خصيصة ذاتية ودنيوية، علاوة على الفضائل الخاصة بأمته وشريعته والآخرة.

كما أن السيوطي جعله موضوع كتابه الشهير «الخصائص الكبرى».

الفرق بين المحاسن والشمائل:

قال: محاسنه، ليعم المحاسن الظاهرة والباطنة. ولم يقل: شمائله؛ لأنها تطلق على الأوصاف والكمالات.

فجوهر الحسن:

إيضاح موجز للجوهر الذي لا يتجزأ:

أشار الناظم إلى أن الجزء الذي لا يتجزأ ثابت، والهيولى باطلة.

الجوهر: (١) الجزء الذي لا يتجزأ ولا ينقسم قط.

(٢) القائم بالذات: ما كان قائمًا بذاته وليس صفة لغيره. ثم الجوهر على قسمين:

(١) الجوهر الفرد: وهو الجزء الذي لا يتجزأ. (٢) الجسم المركب من الأجزاء.

وقيل في تعريف الجوهر: الموجود لا في مكان. أي لا يوجد في مكان خاص، بل يتنقل من مكان إلى مكان، مثل الأشياء المنقولة من الكتب وغيرها، ويقابله العرض: الموجود في موضع. مثل: البياض في الجدار لا يمكن نقله منه.

أقسام الجوهر:

ذكر الفلاسفة عدة أقسام للجوهر:

(١) العقول العشرة: وهي مبدأ الدنيا ومنتهاها فيما يزعمون.

(٢) النفس: وتعم النفس الحيوانية والنفس النباتية والنفس الفلكية وغيرها.

(٣) الصورة الجسمية: الصورة التي يتكون بها الجسم، مثل أجسامنا.

(٤) الصورة النوعية: الصورة الخاصة بنوع من الأنواع، مثل الصورة الخاصة بالإنسان، والصورة الخاصة بالشاة.

(٥) الصورة الشخصية: الصورة الخاصة بالمرء، مثل صورة زيد.

(٦) الهيولى. (٧) الجسم.

فالأمور السبعة المذكورة تدخل في الجوهر.

لا تقول الفلاسفة بالجزء الذي لا يتجزأ، نعم يقولون بالهيولى، والمتكلمون والصوفية يقولون بها.

أدلة موجزة على إثبات الجزء الذي لا يتجزأ:

(**١**) إذا وضعت كرة حقيقية على سطح حقيقي تماستا على نقطة، ومحل النقطة هي الجزء الذي لا يتجزأ.

فإن لم تتماسا –فرضا– على النقطة (الجزء الذي لا يتجزأ)، بل على جزءين أو ثلاثة أجزاء كان خطا.

(٢) إن لم يوجد الجزء الذي لا يتجزأ فكل فرد ينقسم لا إلى نهاية، فلا تكون الخردلة أصغر من الجبل. فإنك تقسم الجبل وتقسم الخردلة لا إلى نهاية. فكأنهما متساويان في الانقسام، مع أنهما ليسا متساويان.

(٣) قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ (سبأ: ٧)

(٤) أهم من ذلك كله أن الله تعالى قادر على أن يقسم شيئا لا إلى نهاية. أي ينقسم الفرد إلى أصغر جزء لا يقبل الانقسام بعده.

الجوهر عند المتكلمين أمران: (١) الجزء الذي لايتجزأ. (٢)جسم ونفس. والمراد في البيت هو الأول.

وعلى كل، قال الناظم: كل كمال من كمالات محمد صلى الله عليه وسلم مثل الجزء الذي لا يتجزأ لا يشاركه فيه أحد.

نكتة لطيفة:

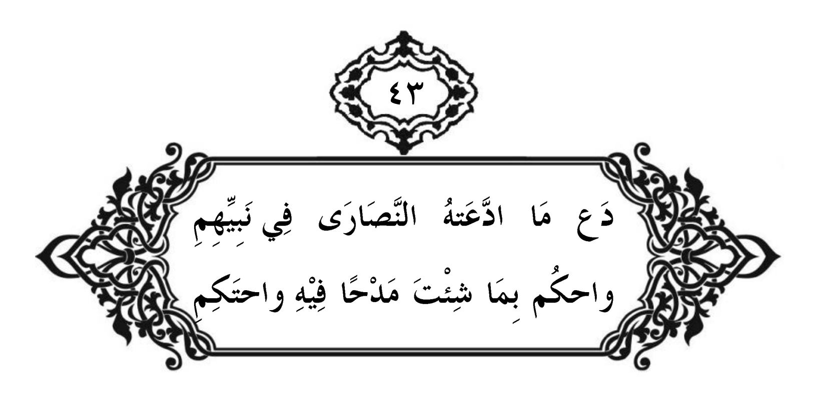
يقول الشيخ المفتي محمود الكنكوهي رحمه الله: قالت امرأة بغي في الهند — اسمها *گوہر*– للشاعر الشهير: أكبر الإله آبادي: أنشدت أبياتا للناس جميعا، فهلا أنشدت لي شعرا، فقال: دونك:

کون دنیا میں ہے آرام سے گوہر کے سوا ۞ سب کچھ اللہ نے دے رکھا شوہر کے سوا

من ذا في نعيم وراحة في الدنيا عدَا «*گوہر*»، فقد منَّ الله عليها بكل شيء عدا البعل).

ولله الحمد أولا وآخرا.

****



اللغة:

دَعْ: وَدَعَ يَدَعُ (ف) وَدْعًا: تركه.

يقول علماء اللغة: أماتوا ماضي يدع. وقرئ قوله تَعَالَى:﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ (الضحى:٣) بالتخفيف: ما وَدَعَك. وهي قراءة شاذة.

وَدُعَ يَودُعُ (ك) دَعَةً: سكن واطمأن.

أودَعَ الشيءَ: (١) صانه، (٢) دفع إليه ليكون وديعة عنده. استودَعَ: استحفظه إياه.

وَدَّعَ: فارقه محييا له.

في سنن أبي داود: «دَعوا الحبشة ما ودعوكم».(سنن أبي داود، رقم:٤٣٠٢). أي أن الدعوة والتبليغ فيهم أوقع.

الفرق بين وَدَعَ يَدَعُ وَذَرَ يَذَر: أن ودع للترك من البداية، و ذر: للترك فيما بعد.

وأقرب مثال على ذلك: قوله تَعَالَى:﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ (الصافات: ١٢٥)، أي تدعون الله تعالى في الضراء، ثم تتركونه، فدعوه في حال، وتركوه في أخرى. ولذا قال: وذَرَ، وإلا كان الأنسب مع (تدْعون): تَدَعونَ، ليتقارب اللفظان، ويختلف المعنى فيكون صنعة الجناس.

وكذلك قوله تَعَالَى:﴿ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ ﴾ (البقرة: ٢٧٨)، وقوله تَعَالَى:﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ﴾ (الأعراف: ٧٣)، وقوله تَعَالَى:﴿ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا ﴾ (البقرة: ٢٣٤)، وقوله تَعَالَى:﴿ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ﴾ (الجمعة: ٩)،كلها يتضح فيها معنى الترك لاحقا.

وفي الحديث: «لينتهين أقوام عن وَدعهم الجمعات أو ليختمن الله على قلوبهم». (صحيح مسلم، رقم:٨٦٥)

ويطلق الوداع عرفًا أن يكون في القلب ويفارقه ظاهرا، ومعنى توديع أحد: أن يفارق ظاهرا وقلبه متعلق به.

ادَّعته: ادَّعى: زعم، أثبتَ شيئا لنفسه.

الدعوى: إثبات حقه على الغير، والإقرار: إثبات حق الغير على نفسه. والإشهاد: إثبات حق الغير على الغير.

والادعاء يطلق على الباطل غالبا.

وسبق تحقيق لفظة (دَعَى) في البيت رقم: (٣٣).

النصارى: نصران، نصرانة: ج: نصارى، مثل: ندمان وندمانة، ج: ندامى.

واحده نصراني، وأصله نصران، والياء للمبالغة، مثل أحمري، فالياء فيه للمبالغة.

مدحا: مَدَحَ (ف) مدحا: أثنى عليه، مَدَّحَ: بالغ في المدح.

المدح: إظهار صفات الكمال باللسان. وسبق الفرق بين المدح والحمد في البيت رقم: (٣٤).

تعريف الشكر: (١) تعظيم المنعم باللسان أو الجنان أو الأركان. (٢) استعمال كل نعمة في محلها.

واحْتَكِمْ: احتكم إلى الحاكم: رفع القضية إليه، طلب منه أن يحكم.

الشرح:

أي احتكموا إلى الشرع في الثناء على النبي صلى الله عليه وسلم، وأثنوا عليه ما شئتم بما سمح لكم الشرع.

احتكم: (١) احتكم إلى الحكم، وهي الشريعة.

(٢) الافتعال للمبالغة، والمعنى: واحكم وأتقن في الحكم.

لم سميت النصارى بالنصارى؟ :

(١) لأنهم نصروا الدين مع عيسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٥٢)

(٢) لنصرة بعضهم بعضا. (٣) خرجت مريم عليها السلام بعيسى إلى قرية، اسمها ناصرة،ويطلق على أهلها: النصارى. (مستفاد من روح المعاني ٢٧٩/١)

قال الناظم: دعوا غلو النصارى، وامدحوه بما سمحت لكم به الشريعة.

وقبل شرح هذا الإجمال يجب أن تكون على علمٍ بأن اليهود والنصارى كلهم جنوا على الأنبياء عليهم السلام، والفرق بينهما:

(١) أن اليهود كانوا يفرطون في جنب الأنبياء عليهم السلام، حتى قتلوهم، ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾ (آل عمران: ١٨١)، فوصفهم بالمغضوب عليهم؛ لأنهم أساؤوا الأدب إليهم، وأما النصارى فقد أفرطوا في حقهم، أي غلوا في حبهم حتى حادوا عن الطريق السوي، ووصلوا بالنبي إلى منْزلة الألوهية، فوصفهم بالضالين.

(٢) كان اليهود علماء غير عاملين بعلمهم، والنصارى عاملين لا علم لهم بالدين.

تحريف اليهود وإساءتهم إلى الأنبياء عليهم السلام:

(١) شرب نوح عليه السلام الخمر، جاء في سفر التكوين: «شرب (نوح) من الخمر، فسكر وتعرى داخل خبائه...».(التكوين٩، الآية ٤١)

(٢) عرض إبراهيم عليه السلام-والعياذ بالله- زوجته سارة على الملك وتلقى مقابله مالا منه. جاء في سفر التكوين: «فصنع إلى أبرام خيرا بسببها».(التكوين:١٢، الآية ١٦)

(٣) شرب لوط عليه السلام الخمر وزنى بابنتيه (العياذ بالله منه)، جاء في سفر التكوين: «فسقتا أباهما خمرا في تلك الليلة ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها... فسقتا أباهما خمرا تلك الليلة أيضًا، وقامت الصغيرة واضطجعت».(التكوين ١٩، الآية ٣٠-٣٨)

(٤) وضع يعقوب عليه السلام على يده جلدا من شعر، وخدع أباه إسحاق عليه السلام بأنه عيسو (أي أخو يعقوب)، وكذب عليه ونال دعاء أبيه ونبوته. (نعوذ بالله). (القصة مفصلا في سفر التكوين ٢٧)

(٥) عبد هارون عليه السلام العجل (نعوذ بالله)، جاء في سفر الخروج: «فقال لهم هارون: انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وأتوني بها...، فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالأزميل ووضعه عجلا مسبوكا». (الخروج ٣٢، الآية ٢-٤)

(٦) رأى داود عليه السلام زوجة أوريا: بنت إليعام وهي تغتسل، ...ثم زنى بها، ثم قتل زوجها، وتزوجها.(نعوذ بالله)، جاء في سفر حموئيل الثاني: «فرأى من أعلى السطح امرأة تستحم... فدخلت إليه فاضطجع معها». (سفرحموئيل الثاني١١، الآية ٢-٨).

(٧) تزوج سليمان عليه السلام -والعياذ بالله- نساء كافرات رغم منعه عنه، وكن يذبحن لغير الله، وألهاه حب النساء عن أحكام الله تعالى، جاء في سفر الملوك الأول: «والتحق قلب سليمان بهؤلاء بالمحبة...، فأمالت نساؤه قلبَه...، وعمل سليمان الشر في عين الرب... وهكذا بجميع نسائه الغريبات اللواتي كن يوقدن ويذبحن لآلهتهن». (سفر الملوك الأول، الآية ١-٩، ملخصا)

هذا، وتتضمن التوراة علاوة على ذلك- عقائد نجسة واتهامات شنيعة موجهة إلى الأنبياء عليهم السلام.

عقيدة النصارى في عيسى عليه السلام:

وفي جانب آخر غلت النصارى وتجاوزت الحد.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ ﴾ (النساء: ١٧١)

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: « لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم». (صحيح البخاري ، رقم:٣٤٤٥)

وقال: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد».صحيح البخاري، رقم:١٣٣٠)

للنصارى فرق متعددة:

اليعقوبية: المسيح هو الله تعالى بنفسه.

النسطورية: المسيح ابن الله.

الملكانية: المسيح ثالث ثلاثة.

الله تعالى مجموع ثلاثة أقانيم: الأب، والابن، وروح القدس.

تنسب اليعقوبية إلى مار يعقوب، والنسطورية إلى نسطورس، والملكانية إلى ملكان رئيسهم. (للاستزادة منه راجع: مفاتيح العلوم للخوارزمي، ص ٦)

ثم نشأت فرقة أخرى: «كاثوليكية رومانية» اسمها(ROMAN CATHOLIC)، تحمل مزيجا من عقائد الثلاث. وتعتبر عيسى عليه السلام: الإله والابن وثالث ثلاثة جميعا.

تاريخ وجيز للباباوية:

كانت الباباوية على ذروتها إبان عهد الكاثوليكية الرومانية، وكان البابا يحتل عندهم مكانة أعلى من مكانة الملك في العصر. فكان بابا روما يحمل ثلاثة تيجان، والملك لا يحمل إلا تاجا واحدا. وكان الملك يمشي وهو يمسك بلجام البابا. ولم يسع أحدا معارضة البابا إذا أصدر أمره بالحرب، وكان يحرق العصاة أحياء.

وذات مرة عاقب البابا ملك ألمانيا بالقيام ثلاثة أيام حافيا في الشتاء، وقال: لا سبيل إلى العفو إلا ذلك.

وتجاوزت الباباوية الحد، فأنشأ مارتن لوثر(MARTIN LUTHER) عام١٤٨٣م/٨٨٨هـــ البروتستانت (PROTESTANT)، وقضى على كافة الرسوم والتقاليد.

وألغى بيع الغفران الذي صار تجارة، واعتبر معظم العبادات غير واجبة.

قامت فرقة البروتسنتانت هذه بإزاء الكاثوليكية الرومانية، إلا أنهما تشتركان في كثير من العقائد أمثال: التثليث، والعشاء الرباني، والاصطباغ.

وعلى كل، شوَّهت النصارى وجه الدين، وأدخلوا إلى التوراة كافة العقائد المحرَّفة أمثال: التثليث والصليب ونحوها على يد بوليس (PAUL). وعندهم كتاب مقدس اسمه «إنجيل برنابس» (BERNABY)، ومعناه: ابن النصيحة. وهذا الإنجيل أصح من الأناجيل الأخرى. فيه غير واحد من العقائد الصحيحة، مما تم تحريفها في الأناجيل الأخرى، نحو:

اعتراف عيسى بالعبدية ونفيه الابنية والتثليث.

كان الذبيح هو إسماعيل دون إسحاق.

فيه: لاإله إلا الله محمد رسول الله.

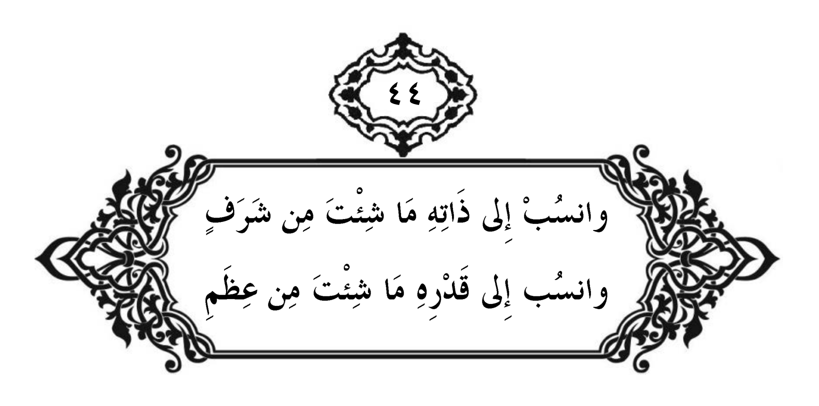
ولا يؤمن النصارى بهذا الإنجيل، وقالوا: هو من صنع المسلمين. والحق أن هذا الإنجيل قد فرض عليه الحظر قبل ميلاد النبي صلى الله عليه وسلم، حتى اكتشفه «كريمر» من مكتبة نصرانية عام ١٧٠٩م، وقام بترجمته إلى الإنجليزية أحد النصارى عام ١٩٠٧م، ثم نقله إلى العربية أحد النصارى من مصر عام ١٩٠٨م، ثم نقله الشيخ عبد

الحليم شرر إلى الأردية عام ١٩١٠م.

فائدة:

للاستزادة من تاريخ النصرانية المفصلة وعقائدهم بأسلوب يسير راجع: «إعلام الفئام بمحاسن الإسلام وتنبيه البرية على مطاعن المسيحية». وأعددت هذه المقالة قبل نحو خمسة وأربعين عاما في الجامعة الإسلامية/ بنوري تاؤن/كراتشي في قسم التخصص. تتناول المقالة تاريخ النصرانية وحياة عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم، في ضوء القرآن والإنجيل، والرد على عقيدة الصليب، والتثليث ونحو ذلك، بالإضافة إلى المقارنة بين الإسلام والنصرانية في العبادات والاجتماعات والأخلاق. وقمت بالرد المفصل على الاعتراضات الموجهة إلى الجهاد والحقوق الإنسانية. طبعته مكتبة زمزم/ باكستان.

****



اللغة:

انسُب: نَسَبَ (ن،ض) الشيء إلى كذا: ذكر وصف في أحد، عزوه إليه.

سبق تحقيق هذه الكلمة في البيت رقم (٢٦).

ذاته: ذات: أصله: مؤنث (ذو)، وزالت منه معنى التانيث. وأطلق في معنى الشخصية. ولذا ورد في حق الله تعالى.

إطلاق «الذات» على الله تعالى:

في الحديث: «لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات: ثنتين منهن في ذات الله عزوجل ...». (صحيح البخاري، رقم:٣٣٥٧)

وفي حديث آخر: «أفضل الجهاد أن تجاهد نفسك، وهواك في ذات الله».(كنز العمال، رقم:١١٢٦٥)

إطلاق «النفس» على الله تعالى:

من معاني النفس: النفس الناطقة المتعلقة بالبدن، وعند المناطقة: نفسنا نحن. ولذا لا تطلق على الله تعالى غالبا. وحيث ورد إطلاقها على الله تعالى فهي في معنى الذات. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ (آل عمران: ٣٠)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ (المائدة: ١١٦)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ (طه: ٤١)

وفي الأدعية المأثورة: «أنت كما أثنيت على نفسك».(سنن الترمذي، رقم:٣٥٦٦)

فالنفس في هذه المواضع كلها بمعنى الذات.

ما نوع التاء في «ذات» ؟:

فيه قولان:

(١) التاء ليست للتانيث، كما في الشاة فإنها ليست للتانيث. ولذا يقال: شاة ذكر، وشاة أنثى. والدليل عليه أن تاء التانيث تتحول هاء عند الوقف عليها، ولا تتحول التاء في (ذات، وشاة) إلى الهاء. فعلم أنها ليست للتأنيث. ومثال تاء التانيث: امرأة وعالمة، فإنها تتحول هاء عند الوقف.

وثمة كلمات عدة ليست تاؤها للتانيث، نحو: هاروت، ماروت، وقت، موت وأمثالها.

(٢) التاء للتانيث، إلا أن أصل معنى التانيث زال، وصارت في حكم التاء الأصلية.

ويطلق على النفس. (للاستزادة منه راجع: تهذيب اللغة: ذو)

معنى «ذات»:

(١) الذات ما يقابل الصفة.

الذات: القائم بنفسه، والصفة: ما قام بغيره. وبتعبير آخر: الذات:حقيقة الشيء.

(٢) يأتي بمعنى الرضا، ورد في الأبيات التي أنشدها خبيب عند قتله: «وذلك في ذات الإله». (صحيح البخاري، رقم:٧٤٠٢. للاستزادة منه راجع: كتاب الكليات، ص٤٥٤، وأيضا: كلام الشراح المفصل في صحيح البخاري كتاب التوحيد، باب ما يذكر في الذات).

شئْتَ: شَاءَ (ف) رغب، أراد. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ (الإنسان: ٣٠)

شَيَّأه: حثه.

الشيء: ١-كل ما يمكن تصوره والإخبار عنه. ٢-القليل. ٣-موجود في الخارج، وهذا مذهب أهل السنة.

ج: أشياء، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ (المائدة: ١٠١)

أصل «أشياء»:

فيه اختلافات كثيرة، ملخصها:

(١) أشياء: أصله: شيئاء، قدمت أولى الهمزتين —التي هي بعد الياء– على الشين،

فصار: أشياء. الحاصل أنه تقدمت همزة واحدة. وإنما فعلوا ذلك؛ لأنه يستثقل وقوع حرف العلة ثم همزتان بينهما ألف، فهذا مثل فعلاء ولفعاء. وهذا القول الأول قاله سيبويه والخليل.

(٢) الأخفش والفراء: أصله:شيِّئٌ (على زنة هيِّن)، يجمع على: أشْيِئَاء على زنة: أفعِلاء. حذفت الهمزة الأولى-التي بعد الياء- استثقالا، فبقي: أشياء.

(٣) الكسائي: أشياء على وزن: أقوال، فيجب صرفه، إلا أنه أشبه بحمراء، فمنعوه من الصرف.

وكذلك جمادى في (جمادى الأولى) مفرد مثل حبارى، إلا أنه شابه المؤنث، فوصف بالمؤنث. فيقال: جمادى الأولى والثانية أو الأخرى.

اختار كثير من النحاة وعلماء اللغة هذا القول الأخير، كما في عرفات، إذا أولناه بالبقعة واعتبرنا العلمية لم ينصرف، وهذا مثل: قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ (يوسف: ٩٩)

ورد «مصر» غير منصرف، ولكنهم صرفوا عرفات لأجل شبهه بالمسلمات. و ورد في الحديث: «لا ملجأ ولامنجأ» فالهمزة في الثاني (منجأ) لمجاورته مافيه همزة (ملجأ)، وأصله بالألف (منجا) لأنه من نجا ينجو. (راجع تاج العروس١/١٥٤-١٥٦، مقدمات: شيًّا، وفصول أكبري)

شَرَف: شَرُفَ (ك) شَرَفًا: عزَّ.

أشْرَفَ الشيءَ: سما، واطلع عليه.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لعمر في قبول الهدية: «إذا جاء من هذا المال شيء وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه».(صحيح البخاري، رقم:١٤٧٣)

تَشَرَّفَ: تطلع إليه.

ورد عن أبي طلحة: «فكان إذا رمى تشرف النبي صلى الله عليه وسلم فينظر إلى موضع نبله». (صحيح البخاري، رقم:٢٩٠٢)

شارفَ: فاخره في الشرف. شَرَّفَ البناء: جعل له شرفا.

شَرَّفَ فلانا: عظمه. الشَرَف: العز والمجد.

قيل: الشرف: للشرف الذاتي، مثل: المجد العائلي، ويختص بالحسب والنسب.

استشرَفَ: أمعن النظر فيه.

ورد في الأضحية: «أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نستشرف العينين والأذنين».(سنن الترمذي، رقم:١٥٠٣)

قَدْره: قَدَرَ (ض) قَدَارة، وقُدرَة: تمكن، واستطاع، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ (البقرة: ٢٦٤)

وفي دعاء الاستخارة: «فإنك تقدر ولا أقدر».(صحيح البخاري، رقم:٦٣٨٢)

قَدَرَ الشيءَ: خمَّنه، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَـٰدِرُونَ﴾ (المرسلات: ٢٣)

قَدَرَ فلانا: عظمه، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ (الأنعام: ٩١)

اقتدَرَ: قدرَ. قَالَ تَعَالَىٰ:﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ (الزخرف: ٤٢)

تَقَدَّرَ عليه الأمرُ: جعل له.

التقدير: (١) الحكم الإلهي. (٢) القياس، والحساب. (٣) التكريم والتعظيم. (٤)درجة النجاح في الامتحان وغيره. (٥) توجيه تحية. وله معانٍ أخرى.

القدر: المنْزلة، والمكانة.

عِظَم: عَظَمَ (ن) عَظْمًا وعَظْمَةً: ضربه على العظم. عَظُمَ (ك) عِظَمًا وعَظَامَةً: كبر، وفخم. أَعْظَمَ الأمر: هال الأمر، وكبر.

أعظَمَ الفريَةَ: كذب كذبا شنيعا. قالت عائشة رضي الله عنها في النبي صلى الله عليه وسلم: ''ومن زعم أنه يعلم ما في غد،فقد أعظم الفرية على الله''.(سنن الترمذي،رقم:٣٠٦٨،باب ومن سورة الأنعام).

عَظَّمَه:كبره، واحترمه.

تَعَاظَمَ:١. تكلف العظمة،٢. رآه عظيما.

ورد في الوسوسة: «إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به».(صحيح مسلم، رقم: ١٣٢)

استعظم الأمرَ: (١) تعظمه، (٢) أنكره.

العَظْمُ: القصب الَّذي عليه اللَّحْم. قَالَ تَعَالَىٰ:﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾

(مريم:٤)، ج: عِظام، وأعظم. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا﴾ (المؤمنون: ١٤)

العَظَمَة: الكبرياء، ج: عظم.

الإعراب:

ما شئت: أي الذي شئته: الضمير يعود على الموصول.

عِظَم، شَرَف: التنوين للتعظيم والتعميم، أي أي شرف وكمال.

في بعض النسخ: فانسب. فالبيت شرح لما قبله.

الشرح:

أي اسمح بما يسمح به الشريعة من ذكر الفضائل والمناقب.

فالمعنى: من شرف في ذاته ومن عظم في صفاته.

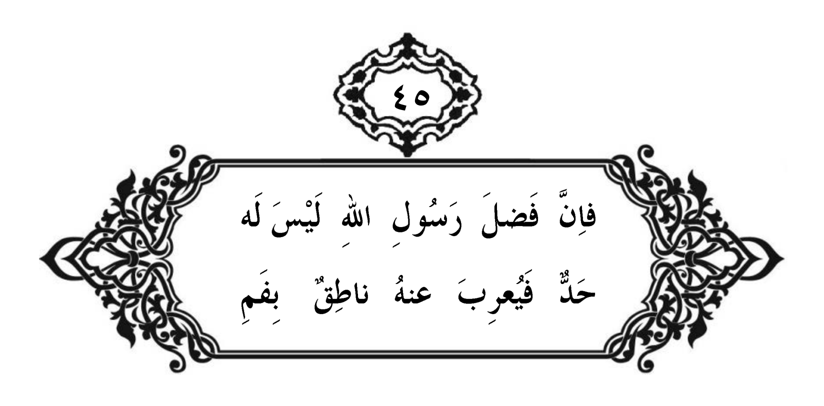
الشرف يعم: تناسب الأعضاء والحسن والجمال ولطافة البدن ونحوها.

ويدخل في العظمة: الإرهاصات، والمعجزات والمعراج والمقام المحمود، والشفاعة الكبرى، ولواء الحمد ونحو ذلك.

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أنا أول من تنشق عنه الأرض، فأكسَى الحلة من حلل الجنة، ثم أقوم عن يمين العرش، ليس أحد من الخلائق يقوم ذلك المقام غيري». (سنن الترمذي، رقم:٣٦١١)

سيأتي شرح هذا البيت في كلام الناظم، ذكر فيه عدة مناقب للرسول صلى الله عليه وسلم.

****



اللغة:

فضل: فَضَلَ (ن،س) فَضْلا: ما زاد على الحاجة. قال النبي صلى الله عليه وسلم لبعض الصحابه حين دفع إليه مالاً: «ابدأ بنفسك فتصدق عليها، فإن فضل شيء فلأهلك».(صحيح مسلم، رقم:٩٩٧)

فَضُلَ (ك) فُضُولا: سمت منْزلته، فهو فاضل.

أفضلَ عليه: أحسن إليه.

فَضَّلَه: آثره، وجعله أفضل من غيره. قَالَ تَعَالَىٰ:﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ (البقرة: ٢٥٣)

وفي الحديث: «لا تفضلوا بين أنبياء الله».(صحيح البخاري، رقم:٣٤١٤).

تفَضَّل عليه: (١) أحسن إليه. (٢) ادعى الفضل لنفسه. قَالَ تَعَالَىٰ:﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ (المؤمنون: ٢٤)

ملحوظة: ذكر بعض علماء اللغة ثلاث لغات، أي مثلثة العين في الفضل بمعنى الزيادة، وبعضهم جعل (فضَلَ) بمعنى (شرفَ) مثل نصر. (للاستزادة منه راجع: تاج العروس ١٧٢/٣٠)

الفَضْل: (١) الإحسان ابتداء بلا عِلّة. قَالَ تَعَالَىٰ:﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ (آل عمران: ١٧٤)

(٢) الميزة، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ (هود: ٢٧)

وفي الحديث: «فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام».(صحيح

البخاري، رقم:٣٧٦٩)

(٣) البقية. قال الزبير بن العوام لابنه عبد الله في حرب الجمل: «فإن فضل من مالنا بعد قضاء الدين شيء فثلثه لولدك».(صحيح البخاري، رقم:٣١٢٩)

وذكرَ للفضل معانٍ متعددة أخرى.

حَدٌّ: حَدّ: (١) الغاية. (٢) الوصف المحيط. (غريب القرآن للأصفهاني، ص ١٠٩)

أي صفة تشمل الصفات كلها.

هذان المعنيان للحد هما المراد هنا، وله معانٍ أخرى سبقت في البيت رقم (٤٩).

فيُعربَ: يظهره بطريق حسن.

أعربَ: أفصحه، ورد في عدد من الأحاديث والآثار: «أعربوا القرآن». (مصنف ابن أبي شيبة، رقم:٣٠٥٣٢) أي اكشفوا مطالب القرآن وبينوها.

ناطق: نَطَقَ (ض) نُطْقًا ومَنْطِقا: تكلم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ (النجم: ٣)

وقال الشاعر:

الصمت زين والسكوت سلامة ۞ فإذا نطقتَ فلاتكن مكثارا

أنطَقَ: (١) جعله ينطق. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ (فصلت:٢١)

(٢) تنطَّقَ/ انتَطَقَ: شدّ وَسطه بالمنطقة.

المنطق: الكلام. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ (النمل: ١٦)

وفي الحديث: «وزنا اللسان المنطق».(صحيح البخاري، رقم:٦٢٤٣)

علم المنطق: علم يعْصم الذِّهْن من الخَطَأ في الفِكر.

المِنْطقة/ المِنطَق: (١) ما يشد به الوسط. وفي الحديث: قال ابن عباس: «أول ما اتخذ الناس المِنطق من قبل أم إسماعيل».(صحيح البخاري، رقم:٣٣٦٤)

(٢) جزء مَحْدُود من الأَرْض لَهُ خَصَائِص مُمَيزَة.

استنطق: طلب منه أن ينطق، ويكلمه. وردفي التسبيح بالأنامل: «فإنهن يأتين يوم القيامة مسؤولات مُستَنْطَقات».(سنن الترمذي، رقم:٧٦٥٦)

النطاق: حزَام يشد بِهِ الْوسط وَذَات النطاقين أَسمَاء بنت أبي بكر. (صحيح البخاري، رقم:٣٩٠٥)

الناطق: المراد بالناطق في البيت: المتكلم، وأما في علم المنطق فالناطق بمعنى مدرك الحقائق. وليس مرادا هنا.

يعرف المناطقة الإنسان بالحيوان الناطق. أي الجسد الحي الذي يحمل النطق الظاهري -القول باللسان- والنطق الباطن أي العقل وإدراك الحقائق. فلا يرد أن الببغاء والمينا -طائر- أيضا حيوان ناطق؛ وذلك لأنه لا يحمل العقل وإدراك الحقائق. ولا يرد بالملائكة والجن؛ لأنهم ليسوا حيوانا؛ بل نورا ونارا. والحيوان من الطين. وبتعبير آخر: الحيوان الناطق: من له نفس ناطقة متعلقة بالبدن.

بفم: فم: أصله: فوه، لأنه يجمع على (أفواه).

قاعدة: التصغير وجمع التكسير يرجعان اللفظ إلى أصله. وحذفت الهاء في (فوه)، وإلا كان فوهه عند الإضافة إلى الضمير. ولا يخفى ثقله، ولذا حذفت الهاء. فصار (فو)، تقول: هذا فو زيد، ورأيت فا زيد، و وضحت الحلو في في زيد، وإذا تجرد عن الإضافة تبدلت الواو ميما فيقال هذا فم. ودليل تبديل الواو بالميم لوجهين الدالة على أن الشفتين تنطبقان بالميم، فهذا يشير إلى أن السكوت أولى من كثرت الكلام، ولأن في الانطباق ضم الشفة إلى الشفقة، وفيه إشارة إلى المحبة، فينبغي أن يكون الغم وسيلة الحب والشفقة.

الإعراب:

ليس له حد: خبر (إن).

فيعرب: جواب النفي. وقدرت (أن) بعد الفاء، فنصب الباء في (فيعرب).

عنه: متعلق بـــ(يعرب)، بفم: ١- متعلق بـــ (ناطق). ٢-متعلق بـــ (يعرب).

الشرح:

وقال الشاعر:

يَا صَاحبَ الجمَال ويا سيِّدَ البشر ۞ من وَجْهِكَ المنِيْرِ لَقَد نَوَّرَ القَمَر

لا يمْكِنُ الثَناءُ كمَا كانَ حقه ۞ ***بعد از خدا بزرگ توئی قصه مختصر***

يقول الشيخ سعدي

نه وصفش غایتے دارد نه سعدی را سخن پایاں ۞ بمیرد تشنه مستسقی ودریا ہمچناں باقی

(لا نهاية لأوصافه الحميدة، ولا يجد سعدي من الكلام ما يعبر به عنها، يعود

المستسقي عطشان والبحر كما هو).

هذا البيت تعليل لما سبق بيانه في البيت السابق، حيث ذكر أولا: لا مانع من ذكر فضائل النبي صلى الله عليه وسلم بما يسمح به الشريعة، ثم علله بقوله في هذا البيت: لا نهاية لكمالاته، وبعضهم حول هذا المعنى إلى الشكل الأول عند المناطقة:

الصغرى: رسول الله صلى الله عليه وسلم لا حد لفضله.

الكبرى: وكل من شانه هذا، ينبغي أن تنسب إلى ذاته ما شئت من عظم.

النتيجة: ينبغي أن تنسب إلى ذاته ما شئت من عظم.

الصغرى فيه موجبة، يشتمل محموله على النفي، فلا يرد بأن من شروط الشكل الأول إيجاب الصغرى وكلية الكبرى.

ناطق بفم:

سؤال: ما فائدة (بفم) بعد قوله (ناطق)، فإن النطق لا يكون إلا بالفم؟

الجواب: (١) قوله: (بفم) للتأكيد. وذلك مثل قوله تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾ (الأنعام: ٣٨)، وقوله تَعَالَىٰ: ﴿يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم﴾ (آل عمران: ١٦٧)، وقوله تَعَالَىٰ: ﴿وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ (الحج: ٤٦)

وتشير كتب الحديث كثيرا إلى أن الراوي يقول قبل نقل الحديث: «سمعته أذناي، وأبصرته عيناي» ونحوها من الكلام، والقصد منه المبالغة وتاكيد الضبط. (راجع: صحيح البخاري، رقم: ١٠٤)

وبيانه أن صفاته العالية لا يسع فم ناطق أن يشرحه مع أن الذكر باللسان أهون من الكتابة باليد، فإذا كان هذا الأمر السهل لا يسع اللسان القيام به، فلا يصح ما ذهب إليه بعض الأساتذة من القول بأن هذا البيت نزل من الفصاحة.

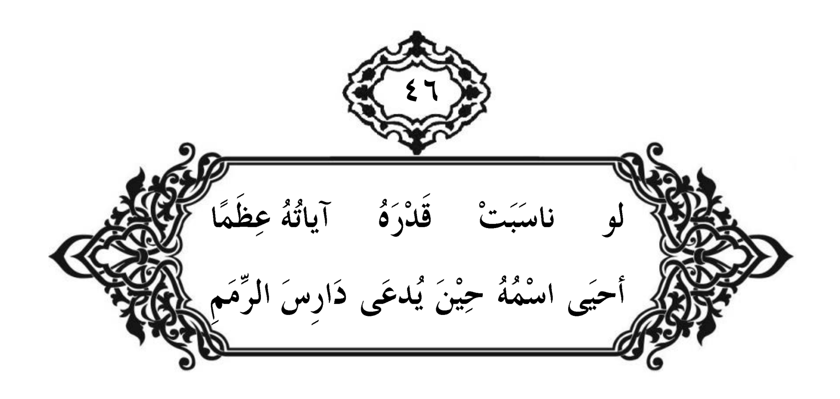
(٢) قال البوصيري (بفم) لمراعاة الوزن الشعري أيضا.

(٣) ولأن النطق قد يأتي بمعنى الدلالة، فأكد (بفم) دلالة عمل النطق الظاهر.

البلاغة:

بفم: المراد بالفم اللساان، وهو مجاز مرسل، حيث أطلق المحل وأريد به الحال.

****



اللغة:

نَاسَبَ: شاكله، وازنه.

المناسبة: تساوي شيئين في صفة أو أكثر. وسبق شرحه في البيت رقم (٢٦).

قَدْرَه: القَدْرُ: ١- المقدار،العدد. ٢- المكانة والمنْزلة، أي له منْزلة وقدر. وهو المراد.

آياته: الآية: (١) علامة خاصة، قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ (آل عمران: ٤١)، و قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ (البقرة: ٢٤٨)

(٢) ما يعتبر به، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ (يونس: ٩٢)

(٣) المعجزة (وهو المراد في البيت)، قَالَ تَعَالَى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ (الأعراف: ٧٣)

وفي الحديث: «سأل أهل مكة أن يريهم آية، فأراهم انشقاق القمر».(صحيح البخاري، رقم :٤٨٦٧)

(٤) جملة من القرآن الكريم أو عدة كلمات منه يوقف على آخرها، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ (البقرة: ١٠٦)

عِظَمًا: عَظُمَ (ك) عِظَمًا وعَظَامَةً: كبر، سمت منْزلته. ورد في حق جبرئيل عليه السلام: «رأيته منهبطا من السماء سادًّا عظم خلقه ما بين السماء والأرض».(صحيح مسلم، رقم:١٧٧)

أحيى: أحيى: بعثه.

حَيِيَ (س) حياةً: انبعث، الحيا: المطر، والحياءُ: الحشمة.

اسمه: سَمَا (ن) سُمُوا وسَمَاء: (١) ارتفع، (٢) ارتفعت منْزلته، (٣) طمح.

أسمى الشيءَ: رفعه، أعلاه، سَمَّى: جعل له اسما. استمى: خرج للصيد.

الاسم: ما يعرف به الشيء. وعند النحاة: مَا دلّ على معنى في نفسه غير مقترن بِزَمن. أونقول: ما يعرف به الشخص أو الشيء.

أصل الاسم:

(١) الاسم: من السمو بمعنى العلو والظهور، ويخرج الشيء من الخفاء ويتجلى بالتسمية.

(٢) لعلوه على غيره من أقسام الكلمة، لأنه -الاسم- يكون مخبرا عنه -مسندا إليه- ومخبرا به. وأما الفعل فيكون مخبرا به، لا مخبرا عنه، والحرف لا يكون مخبرا به ولا عنه.

(٣) أصله: وسم، بمعنى العلامة، لأن الاسم علامة على مسماه. وحذفت الواو من الوسم، و وضعت الهمزة محلها.

ورأي البصريين في ذلك راجح، وذكر علماء اللغة وجوه الترجيح بالتفصيل، و ردَّ العلامة أبو البركات الأنباري على أدلة الكوفيين بخمسة وجوه، وأوضح مذهب البصريين بالأدلة. (راجع: الإنصاف في مسائل الخلاف، ص٦-١٥، للاستزادة منه راجع: تاج العروس ٤٧/٣٤)

دارس: دَرَسَ (ن) دَرْسًا ودُرُوسًا: امحى.

دَرَسَ الكتاب: طالعه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّن كُتُبٖ يَدۡرُسُونَهَا﴾ (سبأ: ٤٤)

تدارَس الطلبة: ذاكروا. ورد في فضل تعلم القرآن وتعليمه: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة».(صحيح مسلم، رقم:٢٦٩٩)

الدراسة: التعليم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ﴾ (الأنعام: ١٥٦)

(٢) إمعان النظر.

مِدراس: المدرسة. في الحديث: «حتى جئنا المِدراس».(صحيح البخاري، رقم:٣١٦٧)

(٢) المدرِّس، المعلم. ورد في قصة رجم اليهودي: «فوضع مِدراسها الذي يدرسها منهم كفه على آية الرجم».(صحيح البخاري، رقم:٤٥٥٦) والمراد منه: المدرس.

الرَّمم: رَمَّ (ض) رَمًّا ورِمَّةً ورَميما: بلي. رَمَّ الشيءَ رَمًّا ومرَمةً: أصلح، وعدله.

أرَمَّ فلانٌ: (١) أقبل عليه. (٢) سكت. و ورد في قصة قراءة الحمد لله حمدا كثيرا...: «فقال: أيكم المتكلم بالكلمات؟ فأرَمَّ القومُ».(صحيح مسلم، رقم:٦٠٠)

ارتَمَّ ما على الخوان: اكتنسه.

الرميم: البالي من كل شيء، وفي التَّنْزيل العزيز: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ (الذاريات: ٤٢)، وقَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ مَن يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (يس: ٧٨)

الإعراب:

أحيى اسمه حين يدعى:

(١) ضمير (يُدعى) يعود إلى (إسمه) وهو ناب مناب الفاعل، و (دارس الرمم) مفعول لـــ (أحيى).

(٢) دارسُ الرمم: نائب فاعل الفعلِ (يُدعى)، اسمه: فاعل (أحيى)، والتقدير: أحيى اسمه (دارسَ الرمم). حين يدعى دارسُ الرمم. وسيأتي بيان لهذه المعاني لاحقا.

دارس الرمم: من إضافة الصفة إلى الموصوف. والتقدير: الرمم الدارسة، أي العظام البالية.

لو: حرف، أحيى: جزاء.

نَاسبت: فعل. آياته: فاعله، قدره: مفعول مقدم لضرورة الشعر، عظما: تمييز.

الشرح:

هذا البيت من أبيات قصيدة البردة، التي اعترض عليها بعض الناس. ويصفونه بالغلو المحرم، فلا بد من شرح معناه الصحيح.

إيرادات على معنى البيت والجوابات عنها:

الإيراد الأول:

الإيراد الأول: أن قوله: «لو ناسبت» فيه اعتراض على الله تعالى، بأنه لم يمنح نبيه ما

يليق بشأنه من المعجزات؟

الجواب عنه: أنه جمع (الآيات) في البيت، فيكون المراد جميع الآيات. والمعنى: أن معجزاته كلها لو كانت أعلى كما أن مكانته أعلى (وهو أفضل البشر)، لكان من جملة معجزاته أن الميت يحيى ببركة اسمه، و لم يكن كذلك، لأن معجزاته تتفاوت، فبعضها أعلى وبعضها عالية.

ولا شك أن معجزاته ليست سواسية، فلا تعدل أيّ معجزة معجزة القرآن والمعراج، و لا تعدل معجزةُ البركة في الطعام معجزةَ المعراج، ولا تعدلُ معجزةُ انفجار الماء بوضع الإصبع فيه منها معجزة شق القمر.

وذلك مثل آيات القرآن الكريم ليست متساوية في الفضل، فسورة الفاتحة وآية الكرسي و المعوذتين لها من الفضائل ما ليس لغيرها.

إيراد ثانٍ:

ظاهر معنى البيت أنه إذا نودي الرسول بـــ يارسول الله، أحيِ هذه العظام، لحييت. وهذا باطل على الإطلاق في ضوء الشريعة؛ فإنه استعانة من غير الله تعالى عن غيب، فيما لا دخل فيه للأسباب. وهو حرام وشرك. و ردّ هذا المعنى في القرآن والسنة النبوية في أساليب مختلفة وبكثرة كاثرة مما لا يدع مجالا للشك فيه. وفيما يلي بعض الآيات على سبيل المثال:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ (فاطر)

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ (النمل: ٦٢)

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ (العنكبوت: ٦٥)

و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ (لقمان: ٣٢)

و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ (غافر: ١٤)

وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ (يونس: ١٠٦)

وقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾ (الأنعام)

وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ (هود: ١٠١)

وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ (النحل: ٢٠)

وقَالَ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ (لقمان: ٣٠)

وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾ (غافر: ٢٠)

وقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ (الإسراء: ١١٠)

وقَالَ تَعَالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة: ٥)

وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾ (الأحقاف: ٥)

وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ (غافر: ٦٠)

وكذلك من سنة الأنبياء عليهم السلام كلهم أنهم استعانوا بالله وحده، ودعوه دون غيره:

آدم عليه السلام: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ (لأعراف: ٢٣)

نوح عليه السلام: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ (القمر: ١٠)

إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ (البقرة: ١٢٧)، وقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (الصافات: ١٠٠)، وقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ (إبراهيم:٣٧)

موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ (طه: ٢٥)، وقال: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ (يونس: ٨٨)، وقَالَ ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى

وَلِأَخِي ﴿(الأعراف: ١٥١)

زكريا عليه السلام: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ (الأنبياء: ٨٩)، وقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ (آل عمران: ٣٨)

سليمان عليه السلام: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ﴾ (النمل: ١٩)، وقال: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا﴾ (ص: ٣٥)

داود عليه السلام: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ (ص: ٢٤)

يوسف عليه السلام: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾ (يوسف: ١٠١)

يونس عليه السلام: ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٧)

أيوب عليه السلام: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٣)

وقال في موضع بعد ذكر عدد من الأنبياء: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ (الأنبياء: ٩٠)

وفي حديث شهير قال النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس: «إذا سألت فسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله». (سنن الترمذي، رقم:٢٥١٦)

والحاصل أن النصوص السابقة وأمثالها تفيد بأنه لا يجوز الاستعانة من غير الله تعالى فيما هو فوق الأسباب. ويجوز ما تحت الأسباب، قال الله تعالى حكاية عن المسيح عليه السلام: ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾ (آل عمران: ٥٢) وقال ذو القرنين: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ (الكهف:٩٥) وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (محمد: ٧)، وغيرها من الآيات والأحاديث الكثيرة.

فإذا دلت النصوص على التحذير من الاستعانة من غير الله تعالى فيما هو فوق الأسباب، فما معنى إحياء العظام بذكر اسمه صلى الله عليه وسلم؟

الجواب: معاني البيت الصحيحة ما يلي:

المعنى: (١) المراد باسمه ذاته صلى الله عليه وسلم. يقول الأصوليون: الاسم عين المسمى. ويأتي الاسم بمعنى الذات.

الأدلة بإيجاز:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ (الأعلى: ١)، أي سبحوا ذات الله تعالى السامي.

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ (البقرة: ١١٤)، ذكرُ الاسمِ هو ذكرُ الله تعالى.

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً﴾ (يوسف: ٤٠)، أي ذواتا. فإن الكفار كانوا يعبدون المسميات -الأصنام الحقيقية- لا الأسماء.

فإن قلنا: الاسم ليس عين المسمى لزم أن يكون المؤمن بالاسم غير مؤمن بالله تعالى، مع أنه لو قال قائل: أؤمن بالعزيز الحكيم، أو قال: بالرحمن الرحيم، أو: بالذي لا إله إلا هو، كان مؤمنا. فعلم أن الاسم عين المسمى، أي ذاته. تحدث عن هذه المسألة -علاوة على كتب العقائد- عدد من كتب التفاسير. (راجع: روح المعاني ١/٥٢-٥٣)

وقوله: (دارس الرمم) تنازع فيه الفعلان (أحيى، ويدعى) يقتضي أولهما المفعول والآخر النائب عن الفاعل.

وذهب الكوفيون في باب تنازع الفعلين إلى إعمال الأول، والبصريون إلى إعمال الثاني، فإن أعملنا الأول على رأي الكوفيين كان (دارس الرمم) مفعولا، ويضمر في قوله: (يدعى) والتقدير: أحيى اسمه دارس الرمم حين يدعى اسمه. والمعنى: إذا قرئ اسمه على العظام البالية قامت، وهذا المعنى محل الإيراد والإشكال.

وإذا أعملنا الثاني وهو يدعى -على رأي البصريين، وهو المختار عند النحاة- كان (دارس الرمم) نائبا عن الفاعل، ويحذف (دارس الرمم) بعد (اسمه)، والتقدير: أحيى ذاتُه (دارس الرمم) حين يدعى دارسُ الرمم، بأن يقول النبي صلى الله عليه وسلم حين حياته: أيتها العظام البالية قومي بإذن الله تعالى. ولا يرد أي إشكال على هذا المعنى.

أي: لوكانت معجزات محمد صلى الله عليه وسلم كلها تليق بعظم مكانته، لكان إحياء الموتى من معجزاته صلى الله عليه وسلم، في حين دلت الأحاديث الصحيحة على أنه لم يكن من معجزاته. والأحاديث التي تفيد بأن إحياء الموتى كان من معجزاته قد تكلموا فيها كثيرا.

والحاصل لا إشكال على هذا التقدير، ومعنى (يدعى) حينئذ الطلب، لا النداء إلى

الغائب، أي لو أنه صلى الله عليه وسلم قال مباشرة: أيتها العظام قومي، لقامت.

أحاديث تدل على إحياء الموتى للنبي صلى الله عليه وسلم:

١- إحياء أبوي النبي صلى الله عليه وسلم وإيمانهما به:

قال ابن الجوزي وابن دحية والدارقطني رحمهم الله هذه الأحاديث موضوعات، ومعارضة للقواعد المسلمة في الدين. يقول الإمام السهيلي: في سنده راوٍمجهول. (الروض الأنف٢/١٢١)، وقال الحافظ ابن كثير: منكر. (المقاصد الحسنة، ص٦٧؛ تمييز الطيب من الخبيث، ص١١)، وقال الملا علي القاري: موضوع. (الأسرار المرفوعة، ص ١٠٨)

وذهب آخرون منهم: العلامة ابن شاهين، والخطيب البغدادي، وابن عساكر، والطبري، وابن سيد الناس، والسيوطي رحمهم الله إلى ثبوته وضعفه. واعتبره الإمام القرطبي أيضا صحيحًا وثابتًا.

جاء في المقاصد الحسنة: «إحياء أبوي النبي صلى الله عليه وسلم حتى آمنا به. أورده السيهلي عن عائشة، وكذا الخطيب في السابق واللاحق، وقال السهيلي: إن في إسناده مجاهيل، وقال ابن كثير: إنه حديث منكر جدا، وإن كان ممكنا بالنظر إلى قدرة الله تعالى، لكن الذي ثبت في الصحيح يعارضه. وقد كتبت فيه جزءا».(المقاصد الحسنة١/٦٧. وينظر: الروض الأنف ١/٢٩٦، موت آمنة وزيارته لها. لسان الميزان٤/١٩٢ ترجمة علي بن أحمد المكي)

وألف السيوطي حول هذا الموضوع رسالة سماها «مسالك الحنفاء في والدي المصطفى»، كشف فيها جوانب القضية كلها في ضوء كتابات المتقدمين والمتأخرين. ورجح ضعف حديث الإحياء، وهي ضمن كتابه الحاوي للفتاوي (١/٢٤٤-٢٨٢). وقال السيوطي أيضا في شرح صحيح مسلم: «ولي في المسألة سبع مؤلفات».(الديباج على صحيح مسلم ٣/٤٧)

ثم ألف الملا علي القاري كتابا سماه: «أدلة معتقد أبي حنيفة الأعظم في أبوي الرسول عليه السلام». بدأ الكتاب بذكر مذهب الإمام أبي حنيفة رحمه الله وهو أنه لم يثبت إيمان والديه. ثم أوضح مذهب الجمهور في ضوء القرآن والسنة بالأدلة. كما تعقب في ثناياه على ما استدل به السيوطي تعقبات كثيرة. والكتاب في نحو ١٥٠ صفحة.

موقف الملا علي القاري من أبويه المكرمين:

(١) ذكر الملا علي القاري في الكتاب عدم إيمان أبويه المكرمين، وأرجع تحقيقه إلى نسخة من «الفقه الأكبر» التي ورد فيها: «والدا رسول الله صلى الله عليه وسلم ماتا على الكفر». والصحيح: «ما ماتا على الكفر».(مقدمة مرقاة المفاتيح ٤٠/١)

(٢) قد رجع الملا علي القاري حتما عن موقفه الذي أورده في «أدلة معتقد أبي حنيفة الأعظم في أبوي الرسول عليه السلام»، من عدم إيمان أبويه صلى الله عليه وسلم، فليت شعري ما الذي دفع الناس إلى عزو القول بعدم الإيمان إليه بكل قوة. وتفصيله أن الملا علي القاري أكمل تأليف «شرح الشفا» قبل وفاته بثلاثة أعوام، عام١٠١١هـــ، وذكر فيه إيمان الأبوين المكرمين، وعدَّه قول الأئمة الأجلة، وقال: «(وأبو طالب لم يصح إسلامه)، وأما إسلام أبويه ففيه أقوال، والأصح إسلامهما على ما اتفق عليه الأجلة من الأمة،كما بينه السيوطي في رسائله الثلاث المؤلفة». (شرح الشفا للملا علي القاري ١٠٦/١، و٦٤٨/١). وينظر: منح الروض الأزهر في شرح الفقه الأكبر للملا علي القاري.

٢- قصة أخرى لإحياء الميت:

دعا النبي صلى الله عليه وسلم رجلا إلى الإسلام، فقال: لا أؤمن حتى تحيي بنتي. فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم: يا فلانة، فقامت.

جاء في المواهب اللدنية: «روى البيهقي في دلائل النبوة: أنه دعا رجلا إلى الإسلام، فقال: لا أؤمن بك حتى تحيي لي ابنتي. فقال صلى الله عليه وسلم: أرني قبرها. فأراه إياه. فقال صلى الله عليه وسلم: «يا فلانة، فقالت: لبيك وسعديك».(المواهب اللدنية ٥٧٧/٢؛ الشفا بتعريف حقوق المصطفى٣٢٠/١)

عزا الحديث إلى دلائل النبوة للبيهقي، و لم نعثر عليه رغم مواصلة البحث عنه مرات وكرات، و لم نجد له إسنادا في مصدر من المصادر. والله تعالى أعلم.

٣- و لم نجد أحدا أحيي بمعجزة النبي صلى الله عليه وسلم علاوة على ذلك، نعم تشير بعض النصوص إلى أن ثمة قصصا أخرى وقعت، و لم نجد لها إسنادا.

يقول العلامة القرطبي: «وكان عيسى عليه السلام يحي الموتى، وكذلك نبينا عليه الصلاة والسلام أحيى الله تعالى على يديه جماعة من الموتى».(التذكرة للقرطبي، ص ١٧)

معنى آخر للبيت:

نسبة الإحياء إلى الاسم مجاز بالحذف، نحو: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ (يوسف: ٨٢) أي أهل القرية.

والتقدير: أحيى وسيلة اسمه دارس الرمم/ أحيى بركةُ اسمه دارسَ الرمم.

فالمعنى إذًا: أحيى وسيلةُ اسمه دارسَ الرمم حين يُدعى دارسُ الرمم بأن يقال : أيتها العظام البالية ، قومي بوسيلة محمد صلى الله عليه وسلم.

بحث موجز حول التوسل:

كلمة البركة تستعمل في معنى الوسيلة، تقول: ألقيت هذه الخطبة ببركتك. ويدخل في هذا المعنى والذي يليه التوسل. والتوسل ثابت بالأحاديث الصحيحة، سيأتي بحثه مفصلا في موضعه، وإنما نكتفي بذكر موجز عنه:

أدلة موجزة على التوسل:

(١) توسل عمر رضي الله عنه بالعباس. (صحيح البخاري، رقم:١٠١).

(٢) حضر الصحابي الأعمى إلى النبي صلى الله عليه وسلم وطلب منه أن يدعو له بالشفاء، فأوصاه بأن يركع ركعتين، ثم الدعاء بما يلي:

«اللهم إني أسألك، وأتوجه إليك بمحمد نبي الرحمة، يا محمد، إني قد توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضي، اللهم فشفعه فيّ».(سنن ابن ماجه، رقم:١٣٨٥. سنن الترمذي، رقم:٣٥٧٨)

ملحوظة: يرجع إلى مبحث التوسل لمعرفة المكانة الإسنادية لهذه الأحاديث والكلام الخاص بها.

معنى ثالث للبيت:

حين يدعى: أي حين يذكر اسمه.

دَعَى: ليس في معنى النداء، بل بمعنى ذكر الاسم.

المعنى: لو ذكر اسمه صلى الله عليه وسلم على سبيل الوسيلة لحييت العظام. أي يقال: اللهم،أحيِ هذه العظام ببركة اسم النبي–صلى الله عليه وسلم – المبارك، فإنها تحيى إذا.

اعلم أن (يدعى) ليس بمعنى النداء في هذاالوجه، بل المراد ذكر اسمه على سبيل التوسل.

دعا: يأتي بمعنى الذكر، ومن الأمثلة عليه: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ (الإسراء: ١١٠)

يحمل الدعاء هنا على النداء غالبا، ولكن قوله في الآية التالية: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ (النمل: ٥٩) يدل على أن (ادعوا) يمكن حمله على (اذكروا)، لنقرأ نص العلامة طاهر بن عاشور: «وعلى هذا التفسير قد وقع تجوز في فعل (ادعوا)، مستعملا في معنى (اذكروا) أو (سموا في دعائكم)». (التحرير والتنوير١٥/٢٣٧).

وفي تفسير السراج المنير: «فمعنى الآية: ادعوا باسم الله، أو ادعوا باسم الرحمن، أي اذكروه بهذا الاسم أو اذكروه بذلك الاسم». (السراج المنير٢/٣٨٢)

وفي الحديث: «أفضل الدعاء الحمد لله».(سنن الترمذي، رقم:٣٣٨٣) أي أفضل الذكر.

وفي التمهيد: «وأما قوله في حديث جابر: أفضل الدعاء الحمد لله... فإن الذكر دعاء عند العلماء».(التمهيد لابن عبد البر٦/٤٣)

التوجيه الأول من التوجيهات الأربعة في الشعر لا يصح نظرا إلى الحمل على الظاهر، وأما سائرها فلا غبار عليه.

خلاصة الكلام:

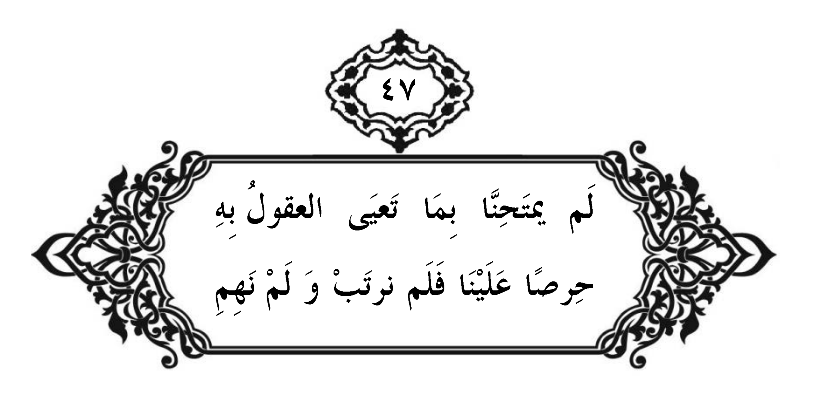
حيث طال الكلام نلخص هذه المعاني الأربعة:

(١) لو ذكر اسمه صلى الله عليه وسلم على العظام البالية لقامت، على سبيل الدعاء لغير الله تعالى. (لا يصح هذا المعنى حملا على الظاهر).

(٢) أحيى ذاته دارس الرمم حينما كان حيا بأن يقول لها: أيتها النظام البالية قومي بإذن الله، فتحيى، كما كان للمسيح عليه السلام. وهذا المعنى أولى عندنا، لأن معجزات النبي عليه السلام تتعلق بذاته غالبا.

(٣) لو قيل للعظام البالية: قومي بوسيلة محمد صلى الله عليه وسلم، لقامت. أي أحيى وسيلة اسمه النظام البالية، وكان هذا معجزة باقية من معجزاته.

(٤) لو قيل: اللهم، أحيِ هذه العظام ببركة اسم الرسول صلى الله عليه وسلم المبارك، لقامت الأموات.



اللغة:

يمتحِن: مَحَنَ (ق) فلانا مَحنًا: اختبره، وابتلاه. مَحَنَ الفضَّةَ: صفاها وخلصها بالنار.

امتحَنَ: اختبر هو ابتلاه. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ﴾ (الممتحنة: ١٠)

وفي الحديث: «إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات». (صحيح البخاري، رقم:٤٨٩١)

تَعْيَى: عَيِيَ (س) عَيًّا: عجز، تعب. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ ﴾ (الأحقاف: ٣٣)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ (ق: ١٥)

القصة الشهيرة التي ورد فيها أن النبي صلى الله عليه وسلم اشترى من جابر بعيرا، وجاء فيها: فقال لي: «ما لبعيرك»؟ قال: قلت: عيي. (صحيح البخاري، رقم:٢٩٦٧)

أعيى الرجلُ: عجز، أعياه السير: أتعبه.

ويفرق بين مجرد هذا الفعل ومزيده بأن: عييتُ للتعب العقلي، وأعييت: للتعب الجسدي.

قصة للإمام الكسائي فيها عبرة:

اشتهر عن إمام النحو والقراءة الشهير: علي بن حمزة الكسائي الكوفي أنه مشى حتى أعيي، فجلس إلى الهباريِّين، وكان يجالسهم كثيرا، فقال: قد عيّيت، فقالوا له:

أتجالسنا؟! وأنت تلحن؟ فقال:كيف لحنت؟ قالوا له: إن كنت أردت من التعب، فقل: أعييت، وإن كنت أردت من انقطاع الحيلة والتحير في الأمر، فقل: عييت مخففة. ثم قام من فوره إلى إمام النحو في بلده: معاذ، ثم توجه إلى البصرة وأخذ عن الخليل حتى صار إماما في النحو. (تاريخ بغداد١١/٤٠٤؛ تاريخ الإسلام للذهبي١٢/٣٠٣).

العقول:

أيسر تعريف للعقل:

(١) قوة تميز بين الحسن والقبيح. (٢) قوة يتمكن بها المرء لإدراك الحقائق.

وللعقل أكثر من عشرة تعاريف. (راجع: التعريفات للجرجاني، ١٥٤-١٥٥).

وسلط الشيخ محمد أعلى التهانوي الضوء على تعريفات العقل وأقسامه وما يتعلق به. (راجع: كشاف اصطلاحات الفنون ٢/١٠٢٦-١٠٣٤. دستور العلماء ٢/٢٣٥-٢٣٨)

صلة العقل بالقلب أو بالدماغ؟:

(١) العقل في القلب.

(٢) قال بعض أهل العلم: العقل في الدماغ، والمشهور أن العقل على صلة بالدماغ، غير أن المحققين يقولون: العقل على صلة بهما جميعا. فالدماغ مثل رئيس الوزراء، والقلب مثل الملك. فإن القلب يمد بالدم، كأنه يمد بالروح والغذاء. وتموت الأعضاء كلها إذا لم تتغذ بالدم. والدماغ يدبر الأمور الظاهرة، وبما أن الأصل هو القلب، فنسب القرآن الكريم العقل إلى القلب، قَالَ تَعَالَى:﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ (الأعراف: ١٧٩)، وقَالَ تَعَالَى:﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ (الحج: ٤٦)، وقَالَ تَعَالَى:﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ (محمد: ٢٤)، (للاستزادة منه راجع: روح المعاني ١٩/١٢١. تفسير الرازي ٢٤/٥٣٤)

وسبق تحقيق كلمة القلب، ومكانته السامية في الشريعة، وما يتعلق به في البيت رقم(٣).

عَقَلَ (ض) عَقْلا: فهم. قَالَ تَعَالَى:﴿مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ (البقرة: ٧٥)

عَقَلَ الغلامُ: وعى، وأدرك.

عَقَلَ البعير: ربطه ليظل قاعدا.

قال النبي صلى الله عليه وسلم لرجل من الصحابة: «اعقلها وتوكل». (سنن الترمذي، رقم: ٢٥١٧) أي اربط الظهر ثم فوضه إلى الله تعالى.

فعلم أن التوكل هو أن يختار المرء الأسباب ثم يفوض النتيجة إلى الله تعالى.

عَقَلَ فلانا: أمسكه. والعقل يعقل الإنسان عن القبيح، والدية تعقل الدماء أن تسفك.

عَقَلَ القتيلَ: أدى ديته.

ورد في عبد الله بن سهل: «فعقله النبي صلى الله عليه وسلم من عنده».(صحيح البخاري، رقم:٣١٧٣)

اعتقل لسانه: عيي.

حرصا: حَرِصَ (س،ض) طمع فيه، اشتدت رغبته. قَالَ تَعَالَىٰ:﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ (يوسف: ١٠٣)

وفي الحديث: «احرص على ما ينفعك».(صحيح مسلم، رقم:٢٦٦٤)

حَرِصَ على أحد: جدّ في نفعه. قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ (التوبة: ١٢٨)

فلم نرْتَبْ: رابَ (ض) رَيبًا ورَيبَةً: جعله شاكا.

وفي الحديث: «دع مَا يريبك إلى ما لا يريبك».(سنن الترمذي، رقم:٢٥١٨)

أرابَ: جعله شاكا.

أرابَ فلانا: أقلقه، وأزعجه. قال النبي صلى الله عليه وسلم في فاطمة: «يُريبني ما أرابها».(صحيح البخاري، رقم:٥٢٣٠)

ارتاب فِيه وبه: شكّ. قَالَ تَعَالَىٰ:﴿وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ﴾ (التوبة: ٤٥)

الريب: (١) شك يقلق المرء. (٢) شك به ظِنة.

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ (البقرة: ٢)، وقَالَ تَعَالَىٰ:﴿لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوۡاْ رِيبَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ (التوبة: ١١٠)، وقَالَ تَعَالَىٰ:﴿فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ﴾ (التوبة: ٤٥)

نَهِم: هَامَ (ض) هَيمًا وهَيْمانًا فهو هائم: تحير وقلق. قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ (الشعراء: ٢٢٥)

الإعراب:

بما تعيي: ما: موصولة. تعيي العقول: صلته. والموصول مع صلته مجرور للجار، والظرف متعلق بالفعل.

حرصًا (١) مفعول له، لأجل حرصه علينا. (٢) حال. حال كونه حريصًا علينا.

علينا: حذف المضاف بعد (على): أي على هدايتنا.

نهم: سكنت الميم للجازمة (لم)، وسقطت الياء -حرف العلة- لالتقاء الساكنين.

الشرح:

المعنى: لم يكلفنا النبي صلى الله عليه وسلم الأحكام الشاقة، حتى نهيم ونتحير عقولنا: كيف نقوم بها؟ (والجسد بدور ضعيف). فعرض علينا أحكاما يسيرة.

ليست في الشريعة الإسلامية أحكام شاقة:

من الأمثلة على التيسير في الشريعة الإسلامية ما يلي: وضعت الأحكام الشاقة عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم، نحو: عدم صحة الصلاة إلا في المسجد، وحرمة الغنيمة، وإخراج ربع المال في الزكاة، وحرمة الإبل والشحم، وقرض الثوب للنجاسة، فليس شيء من هذه الأحكام الشاقة في شريعتنا. كما لم يكن التيمم مباحا لهم، وكانت عقوبة القتل في اليهود القصاص حتما. ويجوز لهذه الأمة أداء الدية والعفو. وكانت توبتهم القتل، وتوبتنا أيسر، وحرم عليهم العمل يوم السبت.

وتفاصيل الأمور المذكورة أعلاه في كتب الأحاديث وشروحها.

وفيه الحديث المشهور: «فضلت على الأنبياء بست:...». (صحيح مسلم، رقم:٥٢٣)

وفي صحيح البخاري: «كان أبو موسى الأشعري يشدد في البول، ويقول: كان إذا أصاب ثوب أحدهم قرضه». (صحيح البخاري، رقم:٢٢٦، باب البول عند سباطة قوم).

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ (البقرة: ٥٤)، وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَضَعُ

عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ (الأعراف: ١٥٧)

«في بني إسرائيل إذا أذنب أصبح على بابه مكتوبا: أذنب كذا وكذا».(شعب الإيمان، رقم:٦٧٤٢)

رُفِع العذاب العام عن الأمة ببركته صلى الله عليه وسلم. قال النبي صلى الله عليه وسلم: «سألت الله أن لا يهلك أمتي بالسنة، فأعطانيها، وسألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها».(صحيح مسلم، رقم:٢٨٩٠)

وعقد العلماء في كتب السيرة أبوابا مستقلة سردوا فيها التسهيلات والنعم التي نالتها الأمة ببركة محمد صلى الله عليه وسلم.

وفي الحديث: «بعثت بالحنيفية السمحة».(مسند أحمد، رقم:٢٢٢٩١). أي أرسلت بشريعة فيها التوحيد الخالص والتيسير.

وفي حديث آخر: « لقد تركتكم على مثل المحجة البيضاء ليلها ونهارها سواء».(سنن ابن ماجه، رقم:٥)

ليلها ونهارها سواء: أي لها الأجر في الراحة والمشقة. ووردت عدة أحاديث بأن الإنسان له الأجر في المصيبة، في خصوص أعمال كثيرة.

أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم أبا موسى ومعاذا إلى اليمن فأوصاهما وقال: «يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا ولا تختلفا».(صحيح البخاري، رقم:٣٠٣٨)

ومن خصائص الشريعة المحمدية أنها تتصف بالعزائم بجانب الرخص، فمثلا من لم يستطع الصوم فعليه عدة من أيام أخر، أو فدية من طعام. وقِس عليه أحكام المسافر. ويدخل فيه كافة الأحكام والمسائل التي ذكرها الفقهاء في قاعدة «المشقة تجلب التيسير»، و«الأمر إذا ضاق اتسع»، وما في معناه من القواعد. (راجع: الأشباه ١/٢٢٦، ٢٤٩)

معنى آخر للبيت:

قال بعض الشراح: المراد في البيت المعجزات، أي لم يأت النبي صلى الله عليه وسلم من المعجزات ما يعجز عن إدراكها البشر، وإلا لفات هدف المعجزات. وعلى هذا المعنى البيت موافق لما سبقه: أي لو كانت معجزاته كلها على الدرجة العليا وفق مرتبته السامية،

لعجزت عقول الناس عن إدراكها.

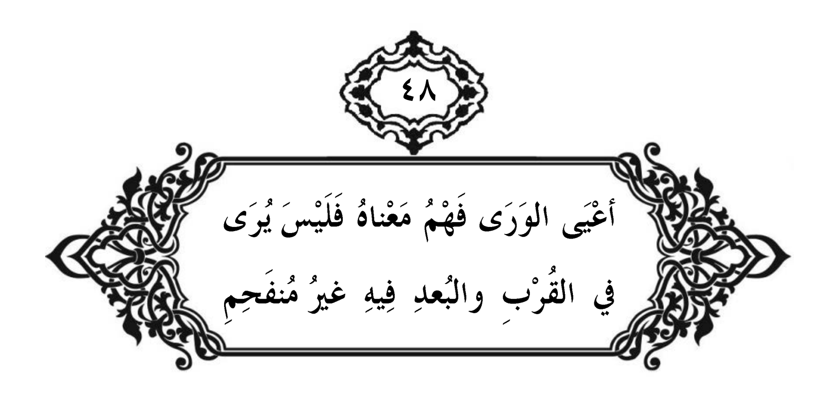
وقوله: حرصا علينا: فيه إشارة إلى النصوص التالية:

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧)، وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٢٨)، وقوله تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ (الأعراف: ١٥٧)، وقوله تعالى: ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ (الأنفال: ٦٦)

وفي الحديث: «بعثت بالحنيفية...».(مسند أحمد، رقم:٢٢٢٩١)

وفي حديث آخر: «لقد تركتكم على مثل البيضاء...».(سنن ابن ماجه، رقم:٥)

ولله الحمد أولا وآخرًا.



اللغة:

الورى: وَرَى (ض) يَرِيْ وَرْيًا الزند: خرجت ناره. حك الحجر بالحجر لتخرج ناره.

وَرَى القيحُ: أفسد القيحُ الجوفَ.

وفي الحديث: «لأن يمتلئ جَوف أحدكُم قَيْحا حَتَّى يرِيه خير لَهُ من أَن يمتلئ شعرًا». (سنن ابن ماجه، رقم: ٣٧٦٠، باب ما كره من الشعر).

وَرِي (س) يَورَى الزندُ وريًا: خرجت ناره.

تَوارَى: استتر، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾ (النحل: ٥٩)

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ولقد أتت علي ثلاثون من بين يوم وليلة وما لي ولبلال طعام يأكله ذات كبد إلا شيء يواريه إبط بلال». (سنن الترمذي، رقم: ٢٤٧٢)

وَرَّى عن فلانٍ: دفع عنه. ورَّى عن الشيء: أَرَادَهُ وَأَظْهر غَيره.

التورية: إرادة المعنى البعيد معرضا عن المعنى القريب، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ (الصافات: ٨٩)، أراد إبراهيمُ محزون القلب بسبب شركهم، أي منْزعجا من أصنامهم.

الورَى: المخلوق، النوع البشري.

تدل مادة (وري) على الاستتار، ورى: (ض) ما استتر في الزند من النار.

الورَى: المخلوق، يستر المخلوق بوجوده الأرضَ، وكذا بزراعته وغرسه وأبنيته. التورية: يستتر فيها المعنى الظاهر.

فهمُ: فَهِمَ (س) فهما: عقل. فهمَ الرجل: صار ذا عقل.

فَهَّمَ: الأمر: مكنه أن يفهم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ ﴾ (الأنبياء: ٧٩)

ليس: قيل: أصله: لا إيس، أي: لا موجود، وحذفت الألف والهمزة لكثرة الاستعمال، فصار (ليس). ولا يستعمل إلا ماضيا، وليس له صيغ المضارع. وتدخل (ليس) على الجملة الاسمية، فترفع الاسم وتنصب الخبر، نحو: ليس زيد جالسا. ولا يجوز تقديم خبرها، فلا يقال: ليس جالسا زيد.

وقد تأتي للاستثناء، نحو: جاءني القوم ليس زيدا. وحينئذ اسمها مضمر وخبرها منصوب، ولا تستعمل في معنى الاستثناء إلا مفردة، وإن كان المستثنى جمعا، نحو: حضر الطلاب ليس المتأخرين. و لا تقول: ليسوا.

فإن دخلت (ليس) على الجملة الفعلية أو المبتدإ كان اسمها ضمير الشأن، والجملة بعدها في محل نصب خبرا لها. نحو: ليس يقوم زيد. وليس زيد يقوم، فضمير الشأن في المثالين اسمها، وهو مرفوع، وقد دخلت (ليس) في البيت على الفعل.

يُرى: رأى يَرَى رأيا ورُؤيةً: أبصر. فإن كانت الرؤية بصرية اقتضت مفعولا واحدا، نحو: رأيت زيدا وإن كانت علمية اقتضت مفعولين، نحو: رأيت زيدا عالِمًا.

طريفة:

كان شيخ مشايخنا مولانا عبد الحنان من "تاجك" يقول: كان الشيخ مولانا مروّت حفظه الله، يقول باعتبار الحساب في العيد ورمضان. وذات مرة قال: هؤلاء العلماء يجهلون حتى كتاب «شرح مئة عامل»، فقد جاء فيه: الرؤية تطلق على الرؤية القلبية، فقوله صلى الله عليه وسلم: «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته»، المراد فيه الرؤية القلبية والحساب. قال شيخنا: فقلت: يا شيخ، أ ليس ورد في شرح مئة عامل أيضًا أن الرؤية إذا تعدت إلى مفعول واحد كانت بصرية، وإذا تعدت إلى مفعولين كانت قلبية، وقوله: صوموا لرؤيته: تعدت فيه إلى مفعول واحد.

للقُرب: قرِبَ (س) الشيءَ قُربا وقِربانا: دنا منه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ﴾ (الإسراء:٣٢)

قَرُبَ (ك) الشيء: دنا.

القربان: كل مَا يتقرَّب به إلى الله عز وجل من ذبيحَة وغيرهَا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِذۡ قَرَّبَا

قُرۡبَانٗا﴾ (المائدة: ٢٧)

القِراب: غمد السيف، الغلاف،ج: قِرَب، وأقرِبَة، مزود من الجلد.

والبعد: بَعِدَ (س) بَعَدًا، (ك) بُعدًا: ضد قرب، وهلك، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ﴾ (هود: ٩٥)، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ﴾ (هود: ٦٠)

أَبْعَدَ: نحاه، وتنحى، وفي الحديث: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذهب المذهب أبعد». (سنن أبي داود، رقم:١)

البُعدُ: اتساع المسافة، المسافة، ج: أبعاد.

غير بعيد: قليل، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ ﴾ (النمل: ٢٢)

بَعْدُ: ضد قبل، ظرف مبهم، لا يتضح معناه إلا بالإضافة إلى غيرها، فهو منصوب حينئذ، نحو: بعدَ الصلاة، وقد يحذف المضاف إليه ويكون منويا، فيبنى على الضم، نحو قوله تَعَالَىٰ:﴿ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُ ﴾ (الروم: ٤)

فإن كان المضاف إليه محذوفا ونسيا منسيا كان معربا، نحو: رب قبل خير من بعدٍ.

منفحِم: فَحِمَ (ف،س) فَحمًا وفحوما: سكت، فَحُمَ (ك) فُحُومًا: اسود كثيرا.

أفْحَمَ: منعه، وأسكت الخصم، قالت عائشة رضي الله عنها: «فاستقبلتها، فلم ألبث أن أفحمتها».(سنن النسائي، رقم:٣٨٤٦) أي أسكت زينب بعد برهة.

فَحَّمَ: جعله فحما بالإحراق، الفحمُ: ما تخلف من إحراق الخشب من الأعواد.

الإعراب:

أعيى الورى فهم:

أعيى: فعل، الورى: مفعول مقدم، فهم: فاعل.

الورى: اللام للاستغراق، أي: جميع الخلق.

فليس: الفاء فصيحة، والتقدير: إذا عجز المخلوق عن فهم معناه فليس يرى.

ليس يرى للقرب:

ليس: فعل ناقص، اسمها ضمير الشأن، يرى للقلب: الجملة خبر.

يرى للقلب: إن كانت الرؤية بصرية فنائب فاعله: أحد، مقدر قبل (غير)، وهو

مضاف إلى (منفحم)، والمضاف مع المضاف إليه بدل، والتقدير: فليس يبصر أحد إلا ساكت. وإن كانت الرؤية علمية، كان (أحد) نائب فاعل مقدرا، و(منفحم) مستثنى، مفعول به، والتقدير: فلا يعلم أحد إلا ساكتا. والمستثنى على الوجهين مفرغ.

فيه: يتعلق بـــ (منفحم).

قاعدة: إذا وقعت (غير) محل (إلا) أعربت إعراب المستثنى، نحو: ما جاءني القوم غير زيد. وأصله: إلا زيد. وحذفت (إلا) وأعرب (غير) إعرابها. أو نقول بطريق سهلٍ: غير قوم بدل من القوم.

الشرح:

لا يسع العقل البشري إدراك كمالاته صلى الله عليه وسلم:

سبق قوله:

فإنَّ فَضلَ رَسُولِ اللهِ لَيْسَ لَه ۞ حَدٌّ فَيُعرِبَ عنهُ ناطِقٌ بِفَمِ

ذكر فيه أن اللسان عاجز عن ذكر كمالاته، وذكر في هذا البيت أن العقل هو الآخر عاجز عن إدراك كمالاته صلى الله عليه وسلم.

والمعنى: أعجز فهم كماله وفضله الخلق كلهم، فلا يرى القريب والبعيد إلا ساكتا عن بيانه.

معناه:

المراد به: كمالاته صلى الله عليه وسلم، مثل: الشفقة، والرحمة، والوفاء بالعهد، والأمانة، والصدق، والجود، والسخاء، والعلوم، والمعارف، ولين الكلام، وحسن العمل، وحسن المعاشرة، وخصائص وميزات لا تحصى ولا تعد.

للقرب والبعد: مصدر بمعنى الصفة المشبهة بالفعل: القريب والبعيد.

(١) المراد به قرب الزمان وبعده،أي يعجز عنه الناس كلهم، سواء كانوا في عهده أو بعده.

(٢) المراد به القرب والبعد مكانا.

(٣) المراد به القرب والبعد مكانة ومنْزلة.

رجحه بعض الشراح، قالوا: إن مجرد القرب حِسا ليس مما يعتز به، فكم من رجل جاء

بعد عهد النبي صلى الله عليه وسلم ولكنه قريب من النبي صلى الله عليه وسلم بما عمل من الصالحات.

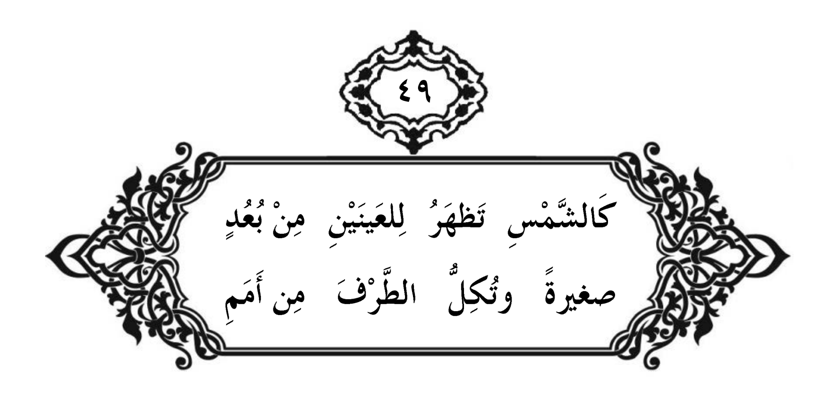
ويحظى الصحابة رضي الله عنهم بالقرب مكانا وبالقرب منْزلة كليهما.

فالصحابة ومن بعدهم لم يسعهم إدراك كمالات النبي صلى الله عليه وسلم وفضائله حق الإدراك. فمهما ذكرت من كمالاته لن توفيه حقه منها، ويعرب الواصف في نهاية الأمر عن عجزه وحسره عنه.

منفحم: فيه مبالغة، أي ليس المعنى أنهم سكتوا وأمسكوا عن وصفه؛ بل يكثر الشعراء وأصحاب السيرة من وصفه إلا أنهم أعربوا عن عجزهم عنه في نهاية الأمر، ولذا أطلق (الإفحام).

ولله الحمد أولا وآخرًا.

****



اللغة:

كالشمس: شَمَسَ (ن) اليومُ شُموسا:(١) قويت شمسه. (٢) أضاءت.

شَمَسَ فلان: استعصى.

في الحديث: «مالي أراكم رافعي أيديكم كأنها أذناب خيل شمس». (صحيح مسلم، رقم: ٤٣٠).

(شامسه): عَادَاهُ وعانده، شَمَّسَ: عرضه للشمس ليجف وييبس.

الشمس: (١)كوكب نهاري مضيء لجميع العالم. (٢) النَّجْم الرئيس الَّذِي تَدور حوله الأَرْض السيارة. يقول الفلكيون: الشمس تعدل مليون وثلاث مئة ألف كرة أرضية.

اللام الشمسية: هي لام الْمعرفَة إذا أدغمت فيما بعْدها من الحروف وهي التَّاء والثاء والدَّال وما يليها إلى الظَّاء واللام والنُّون وما عداها حُرُوف قمرية.

الصور الشمسية: الصورة.(Photo).

تَظْهَرُ: ظَهَرَ(ف) الشيءُ ظُهورا: (١) بدا، وتجلى، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ (الروم: ٤١)

(٢) اطلع عليه، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ ﴾ (الكهف: ٢٠)

(٣) صعد، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ (الزخرف: ٣٣)

ظَهَرَ عَلَى عَدُوِّهِ: غلبه، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ (التوبة: ٨)

ظَهِرَ (س) ظَهَرًا: أصابه وجع الظهر.

أظْهَرَ الشيءَ: (١) أبداه، وأوضحه، (٢) أطلعه عليه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ (الجن: ٢٦)

أظْهَرَ القومُ: دخلوا في الظهيرة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝١٧ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ۝١٨﴾ (الروم)

ظَاهَرَ بين الثوبين: طابق بينهما وَلبس أَحدهمَا على الآخر.

ظَاهرَ امرأتَه: قال لها: أنت عليَّ كظهر أمي، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم ﴾ (المجادلة: ٢)

تَظَاهرَ: (١) تعاون، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا ﴾ (القصص: ٤٨)

(٢) اجتماع الناس لتحقيق مصلحة من المصالح، والخروج بالمسيرات.

العينين: سبق تحقيق (العين) في البيت رقم: (٢٣).

صغيرة: صَغَرَ (ن) صَغْرًا: سنه أقل من سنه. صَغُرَ (ك) صِغَرًا: (١) قل عمره. (٢)قل حجمه. صَغُرَ (ك) صَغَارًا: رضي بالذل والضعة.

صاغر (ج) صغرة، وصاغرون: الذليل، والوضيع. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ (التوبة: ٢٩)،و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ (الأنعام: ١٢٤)

تَصَاغرَ: سلك مسلك الصغار، استصغرَ: (١) عده صغيرا. (٢)طلب الصغير اكتفاء به.

تكِلُّ: كَلَّ: (ض) كلولا وكلالة: تعب، و ضعف. كَلَّلَ فلانا: ألبسه التاج.

كلالة: (١) من ليس له ولد ولا والد، من ليس له فروع ولا أصول، (فهو عاجز).

(٢) من ليس فوقه ولا تحته أحد، وإن كان له كثير من الأطراف يحيطون به، من ابن العم وغيرهم. وسبق تحقيق كلمة (كل) في البيت رقم (٣٩).

إكليل: التاج (لأنه يحيط بالرأس). ورد في حديث الاستقساء:«فنظر إلى المدينة وإنها لفي مثل التاج».(صحيح البخاري، رقم١٠٢١)

الطَّرْف: طَرَفَ (ض) طَرْفًا: الْبَصَر طرفا تحرّك جفناه. (ومنه: طرفة عين). ورد في

قصة القسامة في أول حدوثها: «ما حال الحول ومن الثمانية والأربعين عين تطرف». (صحيح البخاري، رقم:٣٨٤٥) أي ماتوا جميعا.

في الأدعية المأثورة: «اللهم رحمتك أرجو، فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين».(سنن أبي داود، رقم: ٥٠٩٠)

طَرَفَه: لطمه. طَرُفَ (ك) المال طَرافةً: حصل له مال جديد وغريب.

طريف: المال الجديد، والتليد/ التالد: مال قديم ورثه عن الآباء والأجداد. أطْرَفَ: (١) أتَى بطرفة. (٢) أحسن العمل.

تطَرَّفَ: صار على الطرف. الأُطْرُوفَة: (١) الملحة، و(٢) التحفة، (٣) المستحدث المعجب. (ج) أطاريف.

الطَّرفُ: (١) العين. (٢) وهو المراد في البيت. (٢) البصر. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ (النمل: ٤٠)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ﴾ (الصافات: ٤٨)

وفي الحديث: «فليس أحد يرفع طَرفه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ينقضي الوحي». (صحيح مسلم، رقم: ١٧٨٠)

(٣) الناحية، ج: أطراف، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ (الرعد: ٤١)

أمَم: أمَّ (ن) قصد. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ (المائدة: ٢)

وفي الحديث: «ليؤمن هذا البيت جيشٌ يغزونه...».(صحيح مسلم، رقم:٢٨٨٣)

الأَمَم: (١) القرب. (٢) القصد. (٣) المعتدل.

الإمام: المقصود والمقتدى. فإن الناس يقصدون الإمام في صلاتهم.

ائتم به/ تأمم به: اقتدى. وفي الحديث: «إنما جعل الإمام ليؤتم به».(صحيح البخاري، رقم: ٦٨٨)

الإعراب:

كالشمس: ١- (هو) كالشمس. مبتدأه محذوف. ٣- أعيى الورى فهم معناه إعياء كإعياء الشمس. ٣- معناه كالشمس.

وحاصلهما: أن كمالات النبي صلى الله عليه وسلم تعجز الناظر إليها كما تعجز الشمس الناظر إليها.

صغيرة: حال من (تظهر).

من أمم: ١- متعلق بـــ (تكل). ٢- حال منه.

الشرح:

تشبيهه صلى الله عليه وسلم بالشمس:

تظهر للعينين الخ: أراد به التشبيه، أي أن تشبيه النبي صلى الله عليه وسلم بالشمس إنما يختص بهذه الصفة، وليس المقصود التشبيه مطلقا.

وفي هذا المعنى يقول أبو نواس: إنه كالشمس، (أي يشبه ممدوحه بالشمس) غير أن الشمس والقمر لا شيء في جنب ممدوحي.

قال:

تَتيه الشمسُ و القمرُ المنيرُ ۞ إذا قلنا كأنكما الأميرُ

فإن الشمسَ تغرب حين تمسي ۞ و أن البدر ينقصه المسير

(ديوان أبي نواس، ص٢٥٣)

وعلى كل فإن الناظم شبه النبي صلى الله عليه وسلم بالشمس، فإن فيها أمرين:

١-لا يمكن إدراك حقيقة الشمس ولا الإحاطة بكماله.

٢. إنه يعجز عن إدراك حقيقتها سواء كان قريبا أو بعيدا، وهذان الأمران متوفران في النبي صلى الله عليه وسلم ، فشبهه بالشمس.

وردت الأحاديث بتشبيهه صلى الله عليه وسلم بالشمس في الجمال:

عن أبي هريرة، قال: «ما رأيت شيئا أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم كأن الشمس تجري في وجهه».(سنن الترمذي، رقم:٣٦٤٨)

عن الربيع بنت معوذ قالت: «لو رأيتَه رأيت الشمس طالعة».(المعجم الكبير٢٤/٢٧٤/ ٦٩٦).

قال رجل: «وجهه مثل السيف»؟ قال جابر بن سمرة: «لا؛ بل كان مثل الشمس والقمر، وكان مستديرا».(صحيح مسلم، رقم ٢٣٤٤)

وفي السيرة الحلبية: «عن ابن عباس: لم يقم صلى الله عليه وسلم مع شمس قط إلا غلب ضوؤه ضوء الشمس، ولم يقم مع سراج قط إلا غلب ضوؤه ضوء السراج».(السيرة الحلبية ٣/٤٣٤)

قال الطيبي: «شَبَّهَ جريان الشمس في فلكها بجريان الحسن في وجهه صلى الله عليه وسلم، وفيه عكس التشبيه للمبالغة، ويحتمل أن يكون من باب تناهي التشبيه جعلُ وجهه مقرا ومكانا للشمس».(فتح الباري٦/٥٧٣)

٢- ويشبه الدين المحمدي -أيضًا- بالشمس.

تتصف الشمس بستّ صفات:

١- الإخلاص، ٢- الطاعة، ٣- استمرار العمل، ٤- الإحاطة، ٥- الإحراق، ٦-الإشراق.

ودينه صلى الله عليه وسلم يحمل هذه الصفات الست. وعلينا أن نعمل في ضوئها.

١- الإخلاص: تعمل الشمس من غير أجرة تتقاضاها، فعلينا أن نعمل للدين من غير أجر. فإن الشمس لو كُلِّفْنا أداء فاتورتها لعجزت أموالنا كلها عن أدائها.

سمعنا في غير واحد من خطبات الشيخ شمس الحق الأفغاني يقول: إن الشمس ترسل من ضوئها كذا وكذا من القدر، وتوفر لكذا وكذا من البشر النور، لو ذهبنا نحسب فاتورته لكان كذا وكذا من المال مقابل كل وحدة (Unit)، وعليه كانت فاتورة يوم واحد كذا وكذا، ثم كم يجب على الفرد منها؟

وتفيد الدراسات بأن ضوء ساعة واحدة من أضواء الشمس يعدل ضوء العالم كله على مدار سنة واحدة.

٢- الطاعة: تأتمر الشمس بما يؤمر به، قَالَ تَعَالَى:﴿ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾ (يس: ٤٠)

وفي الحديث: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق». (المعجم الكبير للطبراني ١٨/١٧٠ /٣٨١. المصنف لعبد الرزاق ٢/٣٨٢، وجاء معناه في سنن أبي داود، رقم: ١٧٠٧ في باب ما جاء لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق)

٣- استمرار العمل، فلا تفتر عن العمل طوال السنة، ولا تترخص، وعليه فلا رخصة للناشطين في العمل الديني.

٤- الإحاطة: عمل الشمس يحيط بالعالم كله، وعلينا أن نحمل الدين ونشاطه إلى العالم كله.

٥- الإحراق: عمل الدين يُحرق الباطل، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ (الإسراء: ٨١)، وقَالَ تَعَالَى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ ﴾ (الأنبياء: ١٨)، وقَالَ تَعَالَى: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ (الحجر: ٩٤)

الصدع: إن الباطل ينكسر كما تنكسر الزجاج إذا ضربت بالخشبة.

قال الشاعر الأردي:

مٹ گئے مرقس مرگئے متی ۞ چل دیے پطرس گم ہوئے لوقا

جاء الحق وزهق الباطل ۞ إن الباطل كان زهوقا

(زهق مرقس، وزهق متى. ذهب بطرس، وتلاشى لوقا. جاء الحق وزهق الباطل...إن الباطل كان زهوقا)

٦- الإشراق: نضيء العالم بالدين ونطرد ظلماته كما تنير الشمس بضوئها العالم وتطرد ظلماته.

وردت الأحاديث الكثيرة التي تفيد أن الصحابة رضي الله عنهم اندفعوا —وهم يصفون النبي صلى الله عليه وسلم— إلى تشبيهه بالقمر، وأما الناظم فاختار تشبيهه بالشمس، وذلك لأمرين:

١- نور الشمس أتم؛ فإن نور القمر مستفاد من نور الشمس.

٢- ما ذكر من الصفات في الشمس يخلو منه القمر، ونظرا إلى هذه الصفات شبهه بالشمس.

يقول الشاعر الأردي:

چاند سے تشبیہ دینا یہ بھی کیا انصاف ہے ۞ اس کے منہ پر داغ ہیں حضرت کا چہرہ صاف ہے

(هل من العدل أن نشبهه بالقمر؛ فإن وجه القمر به وصمة، وأما وجه سيدنا فلا يشينه شيء).

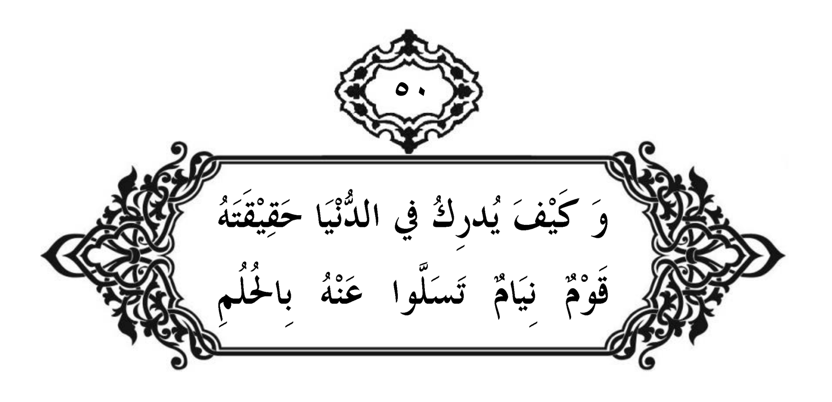
من بعد/ من أمم:

ما المراد بالقرب والبعد ؟

١- القرب فرضا، أي هب أن أحدا ارتفع حتى دنا من الشمس، لم يستطع إدراكها. والبعد حقيقي.

٢- إن الشمس تبعد عند الطلوع والغروب، فهو المراد بالبعد، وتدنو في غيرها من الأوقات.

انتهى، ولله الحمد في البدء والتمام.



اللغة:

يُدرك: أَدْرَكَ: لا يستعمل منه الفعل المجرد.

تعريف الإدراك:

الإدراك: (١) تصور الشيء. ويعبر عنه المناطقة بقولهم: حضور الصورة عند النفس الناطقة. (٢) الإحاطة بجوانب الشيء، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ﴾ (الشعراء: ٦١)، وقَالَ تَعَالَىٰ:﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ (الأنعام: ١٠٣) (٣) النظر إلى حقيقة الشيء، أي مجرد تصوره، دون الحكم عليه بإثبات أو نفي، فإذا حكم عليه بشيء كان تصديقا. (التعريفات، ص ٨)

درجات العلم:

لحصول العلم مراتب ودرجات: (١) الشعور، (٢) الإدراك، (٣) الحفظ، (٤)التذكر، (٥) الذكر، (٦) الفهم، (٧) الفقه، (٨) اليقين وغيره.

أدرَكَ الشيءُ: نضج، بلغ نهايته. أَدرَكَ الصبيُ: بلغ الحلم.

أدرَكَ الشيءَ: حصله، وناله، وأمسكه، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖ﴾ (النساء: ٧٨)

وفي الحديث: «إذا أدرك أحدكم سجدة من صلاة العصر قبل أن تغرب الشمس فليتم صلاته».(صحيح البخاري، رقم:٥٥٦)

أدركَ المعنى: وعاه.

الدرَك: (١) التبعة، (٢)الضرر، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ﴾ (طه: ٧٧)

وفي الحديث عن سليمان عليه السلام: « لو قال: إن شاء الله، لم يحنث، وكان دركا له في حاجته». (صحيح البخاري، رقم: ٦٧٢٠)

ضمان الدرك: (٢) ضمان الضرر، تقول: اشتر هذا الشيء، ومَا لحقك من دَرك فعليّ خلاصه. (٣) أسفل الشيء، الغور، نحو: درك البحر، (٤) الطبق، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ (النساء: ١٤٥)

ملحوظة: «الدَرَك» فيه لغتان: فتح الراء وتسكينها.

حقيقته: حق (ض) حقا وحقوقا: (١): ثبت وصح، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (يس: ٧٠)

(٢) وجب، يقال: يحق عليك أن تدرس. ومنه قول موسى عليه السلام: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ (الأعراف: ١٠٥)

حق (ن) الأمرَ حقا: (١) تأكد منه، (٢) أثبته، نحو: حققت أمنيةَ الأستاذ.

حُقّ له: لزمه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝﴾ (الانشقاق)

الحق:

(١) من أسماء الله تعالى: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ (طه: ١١٤)

(٢) ما لا شك فيه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾ (النبأ: ٣٩)

(٣) ما يوافق الواقع، والصادق، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ (آل عمران: ٦٢)

إيضاح الحقيقة:

الحقيقة: على فعيلة من (حق الشيء). وليست التاء للتأنيث؛ بل للنقل من الوصفية إلى الاسمية.

والمعنى: ما به الشيء هو الحقيقة. فالوصف الذي يمكن تصور الشيء بدونه، لم يكن داخلا في حقيقته، نحو حقيقة الإنسان: الحيوان الناطق، وأما الضاحك والكاتب فغير داخلين في حقيقته.

معنى الحقيقة اللغوية: استعمال اللفظ فيما وضع له. ويقابله المجاز اللغوي، نحو: إطلاق الأسد على الحيوان المفترس حقيقة، وعلى الرجل الشجاع مجاز.

تقسيم آخر للحقيقة والمجاز: الحقيقة العقلية والمجاز العقلي. فالحقيقة العقلية: نسبة الشيء إلى ما هو له. والمجاز العقلي: نسبة الشيء إلى غير ما هو له. مثال الحقيقة العقلية: أنبت الله البقل. ومثال المجاز العقلي: أنبت الربيع البقل.

قوم: سبق تحقيق (قام) في البيت رقم: ٢٧.

القوم لغة: القوم (١) اسم جمع، (واسم الجمع: ما دل على أكثر من اثنين، وليس له مفرد لفظا ولا معنى). (٢) جمع. وليس له مفرد من لفظه. (٣) جمع، مفرده (قائم). نحو زائر يجمع على (زَور)، والصائم يجمع على (صَوم).

القوم: يذكر ويؤنث، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ (الأنعام: ٦٦)

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ (الشعراء: ١٠٥)

قاعدة: كل جمع لا مفرد له من لفظه، إذا أطلق على الإنسان ذكِّرَ وأنث، نحو: قوم، ورهط، ونفر. فتصغير (قوم) قُويم، ولا يلحقه التاء. نحو: رُهيط و نُفير.

معنى القوم: القوم خاص بالرجال؛ لأنهم قائمون على الأمور، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ ﴾ (الحجرات: ١١)

وفي الحديث: «إن أنساني الشيطان شيئا من صلاتي فليسبح القوم، وليصفق النساء».
(سنن أبي داود، رقم: ٢١٧٤)

وقال زهير:

وما أدري، وسوف إخال أدري ۞ أقومٌ آل حصن أم نساء

(ديوان زهير بن أبي سلمى، ص ١٤).

نيام: نَامَ (ف) نَوما ونياما: رقد، نائم، ج: نيام. نَامَ الشيءُ: سكن.

النوم: حالة طبيعية تتعطل معها القوى بسبب ترقي البخارات إلى الدماغ.

درجات النوم:

١- الوسن: إذا طرفت العين.
٢- النعاس: ما ظهر أثره في الرأس، وبدأ يهتز.
٣- النوم: ما يرقد فيه القلب والدماغ.
٤- الرقاد: النوم الطويل.

٥- الكَرَى: ما كان بعد الرغبة الشديدة فيه والسهر الطويل.

تسلوا: سلا (ن) سَلوا وسُلوان: نسيه، وانكشف همه، وطابت نفسه بعد فراقه.

سُلو وسُلوان: انكشف همه.

يقول أهل العلم: مادة (سلو) تدل على طيب النفس، ويتضح ذلك بالنظر إلى ما اشتق منها.

أسلى فلانا: كشف همه عنه. انسلى القوم: انكشف همهم.

سُلوانة: من معانيه: كل ما يكشف الهم.

بالحلم: حلَمَ (ن) حُلما وحُلْمًا: رأى في نَومه رُؤْيا.

حلمَ الصبي: أدرك وبلغ مبلغ الرجال. حَلِمَ (س) حَلَمًا الجلدُ: وقع فيه دود فتثقب وفسد.

حَلُمَ (ك) حِلمًا: تأنى وصبر. احتلم: (١) بلغ مبلغ الرجال. (٢) أصيب بالاحتلام.

تحلَّمَ: تكلّف الْحلم وَادّعى الرُّؤْيا كاذِبًا.

وفي الحديث: «من تحلّمَ بحلم لم يره كلف أن يعقد بين شعيرتين».(صحيح البخاري، رقم:٧٤٠٢)

الحُلم/ الحُلُم: (١) ما يراه النائم في نومه، ج: أحلام، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٍ﴾ (يوسف: ٤٤) (٢) البلوغ مبلغ الرجال، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ﴾ (النور: ٥٩)

الحِلمُ: (١) التأني، ج: أحلام، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ﴾ (الصافات: ١٠١) (٢) العقل، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم بِهَٰذَآ﴾ (الطور: ٣٢)

وفي الحديث: «ليليني منكم أولو الأحلام والنهى».(صحيح مسلم، رقم:٤٣٢)

الشرح:

كيف يدرك:

(١) الاستفهام للإنكار والاستبعاد، أي لا يسع أحدا إدراك كمالاته صلى الله عليه وسلم كما يجب.

(٢) للتعجب، والمعنى: الإنسان غافل، فكيف يدرك كمالاته صلى الله عليه وسلم.

في الدنيا:

قيد بالدنيا لأن المؤمنين ينالون نورا من البصيرة في الآخرة يدركون بها منْزلة النبي صلى الله عليه وسلم السامية وكمالاته العالية. كما لا يمكن رؤية الباري سبحانه وتعالى في الدنيا بالعيون الضعيفة، إلا أن المؤمنين يتمتعون بها في الآخرة.

حقيقته:

قال الناظم: حقيقته، و لم يقل: ماهيته؛ لأن كلمة الماهية تدل على المجانسة، (أي الناس من جنس واحد)، وكلمة الحقيقة فيها إشارة إلى أنه بلغ من المكانة العالية ما يجعل نوعا غير نوع الإنسان، يقول المتنبئ:

فإن تَفُقِ الأنامَ وأنت منهم ❁ فإن المسك بعض دم الغزال

القوم: وإن كان خاصا بالرجال إلا أنه يشمل النساء تبعا للرجال، فالمراد به الخلق كلهم.

نيام: (١) الغافلون، وهذا المعنى واضح.

وقيد (النيام) اتفاقي لا احترازي، أي ليس المعنى أن العقلاء يدركون مكانة الرسول صلى الله عليه و سلم، وإنما قال: (نيام) لأن الناس غافلون في الغالب، يقول علي رضي الله عنه: «الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا».(الفوائد المجموعة للشوكاني١/٢٥٦)

وفيه إشارة أيضا إلى أن العاقل بمنْزلة الغافل في الوصول إلى مكانة الرسول صلى الله عليه وسلم. يقول العلامة البنوري رحمه الله: «اشتهر على الألسنة أن الولي لا يعرفه إلا الولي»، قلت: «النبي لايعرفه إلا النبي».

وكيف يدرك:

وفي بعض النسخ: فكيف يدرك، فالبيت مفرع على معنى البيت الأول، وتعليل له، بأن سبب عدم إدراك مكانة النبي صلى الله عليه وسلم هو ما يلي.

معنى البيت:

(١) نعجز عن الوصول إلى كمالات الرسول –صلى الله عليه وسلم– الحقيقية وإنما ندرك ما ظهر من مناقبه وصفاته، ونكتفي بذكرها، وذلك لأن عقولنا قاصرة ناقصة، وذلك مثل رجل يعجز عن رؤية حبيبه في اليقظة، فيتمنى رؤيته في المنام على أقل تقدير.

والحاصل أننا نيام عن مكانة الرسول صلى الله عليه وسلم، ومثل ما ظهر من كمالاته وفضائله مثل الرؤيا، فما نذكره لا يعدو أن يكون رؤيا.

عجز بعض الشعراء عن رؤية حبيبه في اليقظة فتمنى أن يراه في المنام، فأرق، فانقطع حبل رجائه؛ لأن الرؤيا لا تتحقق إلا في النوم.

يقول الشاعر الأردي:

نیند بھی فرقت میں کھا بیٹھی ہے آنے کی قسم ۞ خواب میں دیکھنے کا آسرا بھی جاتا رہا

(لقد أقسم النوم أن يزورني حتى عند فراق الحبيب، فانقطع حبل رجاء رؤيته في المنام أيضا).

(٢) لا يخاطب البيتُ المؤمنين الصادقين، بل الأعداء، والمعنى حينئذ: هؤلاء يعجزون عن إدراك صفات النبي – صلى الله عليه وسلم- السامية، فيتخيلون أشياء، ويلبسونها لباس الحقيقة، ويعترضون بها، وأقرب مثال على ذلك الزواج بأكثر من امرأة، فقد تزوج النبي صلى الله عليه وسلم إحدى عشرة امرأة، وكان في عصمته ٩/زوجات في آن واحد، وحيث عجزوا عن أسراره وحكمه وأنه بأمر من الله تعالى فتخيلوا أن الباعث عليه الشهوة، واعتبروه حقيقة فاعترضوا به عليه صلى الله عليه وسلم.

فخاطبهم الناظم رحمه الله، وقال: الذين يعجزون عن إدراك كمالاته صلى الله عليه وسلم أمثال المستشرقين مثلهم كمثل رجل يعجز عن إدراك حقيقة الشيء، ومبلغه التخيل والأوهام المجردة. فتخيلوا أشياء اعترضوا بها على النبي صلى الله عليه وسلم، فالمخاطب بهذا البيت المستشرقون وأذنابهم.

بالحُلُم:

إيراد على «الحُلم» والجواب عنه:

يقول البعض: الحلم يطلق على الاحتلام، فلا يليق إيراده في وصف النبي صلى الله عليه وسلم؟

الجواب: (١) هذا غير وارد، لأن (١) الحلم: يطلق على مجرد الرؤية في المنام. ولا يدل على الاحتلام، وأما إذا قلنا: حلم الصبي دل على ذلك. فمثلا ﴿ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٍ﴾، معناه: ما كَان منْهَا ملتبسا مضطربا يصعب تَأْوِيله.

(٢) لو سلمنا أن الحلم يطلق على الاحتلام، فإنه لم يرد ذلك؛ لأن المعنى اللغوي قد يكون مهجورا، فـــ (بلغ) معناه وصَلَ، وإذا قلنا: (بلغ الصبي) كان المعنى اللغوي مهجورا، ودل على البلوغ مبلغ الرجال. والمراد في البيت ما يراه النائم في النوم.

أمثلة على هجر المعنى اللغوي:

وردت النصوص الشرعية والكلام العادي بكثير من الجمل التي لا يراعى فيها المعنى اللغوي، و إليكم بعض الأمثلة على ذلك:

١ – «فداك أبي وأمي»: فلا يحمل أحد هذه الجملة على التضحية بالأب والأم. وإنما هي كناية عن بالغ الرضى، وكذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد لسعدبن أبي وقاص، ويوم الأحزاب للزبير بن العوام: «فداك أبي وأمي». و لم يكن أبواه صلى الله عليه وسلم على قيد الحياة يومئذ. (راجع: صحيح البخاري، رقم:٣٧٢٠، و٦١٨٤)

٢ – قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ (النبأ: ٣٣)، فالكواعب: هي البنات الناشزات ثديهن. والمعنى اللغوي مهجور هنا فيما يبدو. والمراد به الشابات. ويؤيده كلمة أخرى في الآية (أتراب)، فإن معناه اللغوي كذلك مهجور، فالترب: من يلعب معك في التراب. وليس مرادا في الآية، وإنما المراد به من يساويك في السن سواء لعب معك في التراب أو لم يلعب.

٣- قال عبد الله بن عباس وهو يصف التوجه إلى (منى) في حجة الوداع: «وأنا يومئذ قد ناهزت الاحتلام».(صحيح البخاري، رقم:٧٦) أي دنوت من الرؤية في المنام، وليس المعنى اللغوي مرادا في الحديث، وإنما كنى عن دنوه من بلوغه مبلغ الرجال).

٤- ورد في وجوب غسل الجمعة في بدء الإسلام، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم».(صحيح البخاري، رقم٨٧٩) أي يجب على كل من بلغ مبلغ الرجال. وليس المحتلم بمعنى ذي الاحتلام. فإن الغسل واجب عليه لأجل الاحتلام وإن لم يدخل عليه يوم الجمعة.

٥- كلمات الزجر والتوبيخ معناها اللغوي مهجور، قال النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة: «تربت يمينك». روى البخاري في صحيحه قصتين في ذلك: (١) قصة عائشة

رضي الله عنها.(صحيح البخاري، رقم:٦١٥٦). (٢) قصة أم سلمة رضي الله عنها. (صحيح البخاري، رقم:١٣٠). معناه اللغوي: تلوثت يداك بالتراب أو أصابك الفقر. وهو مهجور.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لعمر ومعاذ وأبي ذر: «ثكلتك أمك».(فقدتك أمك)

وقال لصفية رضي الله عنها: «عقرى حلقى». أي أهلكك الله، وأصابك مرض الحلقوم، يطلقه العرب للمرأة الشقية والتعسة).

فهذه الكلمات كلها معناها اللغوي مهجور،وإنما تطلق عند الغضب حينا وعند العجب حينا آخر.

٦- تطلق اللغة الأردية كلمة (سر پرست) معناه: من يعبد رأسه. والمراد به في العرف: المشرِف والراعي.

٧- كذلك يطلق كلمة (حضرة) ومعناه: الحاضر. ويراد بها في العرف: السيد تعظيما.

٨- معنى كلمة (يناير) وكلمة (فبراير) الصنم، والمعنى اللغوي مهجور.

البلاغة:

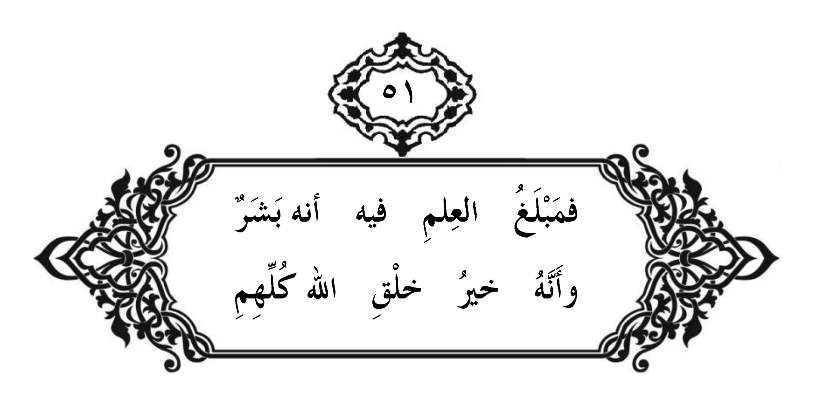
قوم نيام/ استعارة تصريحية تبعية.

غافلين: مشبه، ونيام: مشبه به، وجه الشبه: عدم الإدراك.

ذكر المشبه به فكانت الاستعارة تصريحية، والاستعارة في المشتق (نيام)، فكانت تبعية.

ولله الحمد أولا وآخرًا.

****



اللغة:

فمبلغ: بلغ (ن) بلوغا وبلاغ: وصل إلى غايته، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا ﴾ (الكهف: ٦١)

بلغ الغلام: أدرك.

بلُغ (ك) فصح وحسن بيانه. وقال عمر رضي الله عنه بمناسبة اختيار الخليفة: «ثم تكلم أبو بكر، فتكلم أبلغ الناس». (صحيح البخاري، رقم:٣٦٦٧)

ورد في قضاء القاضي الحديث الشهير: «فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض». (صحيح البخاري، رقم:٢٤٥٨)

أبلغ: أنهاه، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ (التوبة: ٦)

بالغ مبالغة: تجاوز الحد، تبالغ: تناهى.

المبلغ: (١) المقدار من المال. (٢) حد الشيء ونهايته ومقداره. قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ (النجم: ٣٠)

وفي الأدعية المأثورة: «اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا».(سنن الترمذي، رقم:٣٥٠٢)

بشر: بَشر به (ن) بشرا: (١) فرح، (٢) سلخ الجلد. بشِر (س) بِشرا، (ض) بُشرا: فرح. وفي معناه: أبشَرَ. وبَشُرَ (ك) بشارة: حسنت صورته. باشرَ: تولى الأمر، جامع، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ﴾ (البقرة: ١٨٧)

بَشَّرَ: أخبره بخبر مفرح، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ (التوبة: ٢١)

البشر: طلاقة الوَجْه.

البَشَرة/ البَشَرُ: ظَاهر الْجلد وظاهر السطح. ورد في العشر الأول من ذي الحجة: «فلا يمس من شعره وبشَره شيئا».(صحيح مسلم، رقم:١٩٧٧)

بَشَر: الإنسان (ذكرا كان أو أنثى)، لأن جلده الظاهر يُرى. وليس مثل الحيوانات. قَالَ تَعَالَىٰ:﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ (مريم: ١٧) ، وقَالَ تَعَالَىٰ:﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا﴾ (مريم: ٢٦)

خَير: أصله أخير، حذفت الهمزة لكثرة الاستعمال، وهو اسم تفضيل ولا يثنى ولا يجمع، وأما قوله تَعَالَىٰ:﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ (ص: ٤٧) فــ(الأخيار) جمع خيِّرٌ، وسبق تحقيقه لغة.

الإعراب:

العلم: اللام عوض عن المضاف إليه، وتقديره: مبلغ علمهم، أو: علمنا.

فمبلغ العلم: مبتدأ. أنه بشر: أنّ مع اسمه وخبره خبر للمبتدأ. كلهم: الضمير يعود على الخلق، وهو جمع معنى، وقد يعود ضمير الجمع إلى المفرد.

الشرح:

هذا البيت خلاصة الأبيات العديدة السابقة، سبق أن قال: «أعيى الورى فهم معناه...»، أي نعجز عن إدراك مكانته صلى الله عليه وسلم الحقيقية، فما علمنا به صلى الله عليه وسلم؟

وقال في هذا البيت: هو صلى الله عليه وسلم بشر بالنظر إلى ذاته، وخير خلق الله تعالى بالنظر إلى صفاته وخصائله.

بشر:

فيه رد على النصارى، حيث قال: (بشر) ففيه إشارة إلى أنه إنسان، وليس معبودا، كما يصف النصارى نبيهم بذلك. فلا يرد أنه صلى الله عليه وسلم نبي ورسول، فكيف اكتفى بقوله: بشر؟ لأنا نقول: سبق ذكر كونه نبيا ورسولا وسيدا فيما مضى، والمقصود هنا بيان ذاته السامية صلى الله عليه و سلم.

خيرُ خلْقِ الله كُلِّهِمِ:

سبق ذكر كونه صلى الله عليه وسلم أفضل البشر وسيد الكونين، وفي الحديث: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة».(صحيح مسلم، رقم :٢٢٧٨)، و «أنا أكرم وُلد آدم على ربي ولا فخر». (سنن الترمذي، رقم: ٣٦١٠)

اعتراض على بيت البوصيري هذا، والجواب عنه:

اعترض بعض المتعنتين على بيت قصيدة البردة هذا، وقالوا: هذا ليس من نسج البوصيري؛ بل دفع بعضَ المتأخرين شعورُهم بتطرق الغلو إلى عدد من أبيات القصيدة فألحقوا هذا البيت بها في غير وجه، وقالوا أيضا: قد ألحق الناس أبياتا أخرى غير هذا البيت بالقصيدة. (مظاهر الغلو في قصائد المديح النبوي)

الجواب: (١) لا يملك هؤلاء على دعواهم دليلا من العقل أو النقل، ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔا﴾ (النجم: ٢٨) وإنما حملهم على الاعتراض على الناظم أنه لا يرى رأيهم، ولا يتبع مذهبهم، قال الشاعر:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ۞ كما أن عين السخط تبدي المساويا

والحق أن هذا الشعر يمثل روح القصيدة؛ فليس الرسول صلى الله عليه وسلم إلها يعبد، ولا نور؛ بل هو بشر.

(٢) أن هذا البيت في كافة النسخ للقصيدة وشروحها وتخميساتها وتسبيعاتها. وأقدم شرح على القصيدة: «العمدة في إعراب البردة»، وهو بأيدينا، ومن عمل أحد علماء القرن الثامن، وتوفي البوصيري في نهاية القرن السابع عام ٦٩٦هـ، أي ظهر هذا الشرح بعد وفاة الناظم بسنوات قليلة. وهذا الشرح يتضمن هذا البيت، كما عَزَتْ دواوين الشعراء العرب هذا البيت إلى قصيدة البردة. واتفق كل من ذكره في كتابه بمناسبة من المناسبات على عزوه إليها.

قضية النور والبشر:

ذهب أهل السنة والجماعة إلى أنه صلى الله عليه وسلم ليس مجرد بشر، بل سيد النوع البشري.

«هو نور» يحتمل معنيين:

(١) أنه بشر بالنظر إلى الذات، ونور بالنظر إلى الصفات. كما أن النور هو الظاهر بنفسه والمظهر لغيره، كذلك النبي صلى الله عليه وسلم يظهر الدين للناس ويبلغه إياهم.

والنبي صلى الله عليه وسلم -بالنظر إلى هذا المعنى- منار نور للبشرية كلها، واهتدت البشرية في نوره إلى الله تعالى، فهو نور وبشر معا فيما نعتقده. ومن الخطأ وضع النور والبشر في خانتين مختلفتين ونفي أحدهما على الإطلاق، وإثبات الآخر. ومثاله مكبر الصوت(Loud Speaker)، فهو بالنظر إلى ذاته حديد، وبالنظر إلى صفاته رافع الصوت ومبلغه.

(٢) ومن الخطأ حمله على أنه صلى الله عليه وسلم نور مثل الملائكة، ومنزّه عن العوارض و الحوادث البشرية؛ لأن بشريته ثابتة بالأدلة القطعية، نوجزها فيما يلي:

الأدلة:

(١) قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ﴾ (فصلت: ٦) التعبر بــ(قُلْ) يتم به الإعلان من الله تعالى، نحو قوله تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ (الإخلاص: ١)، ففيه إعلان عن التوحيد. ومثله قوله تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ (الكهف: ١١٠) يعلن أنه صلى الله عليه وسلم مثل عامة الناس في البشرية،نعم يختلف عنهم في الصفات.

«أنا بشر أيضا»: أي لا أخلو من اللوازم البشرية العامة، وإنما أختلف عنكم بأن الله تعالى يوحي إلي، فأنا أسمى منكم منْزلة.

(٢) وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ (الإسراء: ٩٣)

(٣) وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾(الإسراء: ٩٤)

(٤) وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ (يونس: ٢)

فعلم منه أن الذي منع الكفار والمشركين من الإيمان به هو قولهم: كيف ينال بشر الرسالة؟ وصرحوا بقولهم: كيف بعث الله بشرا رسولا؟ فكان مبعث عجب وحيرة لهم، وكان المشركون على علم بأنه بشر.

(٥) قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ (المؤمنون: ٢٤) قال الكفار ذلك في حق نوح عليه السلام.

(٦) قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ (الأعراف: ٦٣) وهذه الآية أيضا تشير إلى عجب الكفار من أن يبعث بشر رسولا.

(٧) عن ابن مسعود مرفوعا: «إنما أنا بشر مثلكم، أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني». (صحيح البخاري، رقم:٤٠١)

(٨) قال النبي صلى الله عليه وسلم: «اللهم إنما محمد بشر يغضب كما يغضب البشر». (صحيح مسلم، رقم:٢٦٠١)

(٩) ذكر غير واحد من الصحابة وهم يحدثون عنه صلى الله عليه وسلم في مناسبات كثيرة أنه بشر. نذكر مثالا واحدا: سئلت عائشة: ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل في بيته؟ قالت: كان بشرا من البشر يفلي ثوبه.(مسند أحمد، رقم: ٢٦١٩٤)

(١٠) اتفق العلماء والفقهاء كلهم على أن الأنبياء عليهم السلام كانوا بشرا، ونصوص الكتب الفقهية في المذاهب الأربعة صريحة في ذلك، ولا يسعنا تفصيله هنا. جاء في الفتاوى البزازية ضمن حكم شاتم الرسول صلى الله عليه وسلم: «ولأن النبي صلى الله عليه وسلم بشر، والبشر جنس يلحقهم المعرة إلا من أكرمهم الله تعالى». (الفتاوى البزازية على هامش الهندية ٣٢١/٦، ٣٢٢)

(١١) يقول الفقهاء: «يكفر من لا يعلم بشرية النبي صلى الله عليه وسلم؛ «ومن قال: لا أدري أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إنسيا أم جنيا، يكفر. وكذا في الفصول **العمادية**». (الفتاوى الهندية ٢٦٣/٢)

وفي روح المعاني: وقد سئل الشيخ ولي الدين العراقي: هل العلم بكونه صلّى الله عليه وسلم بشرا ومن العرب شرط في صحة الإيمان أو من فروض الكفاية؟ فأجاب بأنه شرط في صحة الإيمان، ثم قال: فلو قال شخص: أؤمن برسالة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم إلى جميع الخلق؛ لكن لا أدري هل هو من البشر أو من الملائكة أو من الجن، أولا أدري هل هو من العرب أو العجم؟ فلا شك في كفره لتكذيبه القرآن وجحده ما تلقته قرون الإسلام خلفا عن سلف وصار معلوما بالضرورة عند الخاص والعام- ولا أعلم في

ذلك خلافا- فلو كان غبيا لا يعرف ذلك وجب تعليمه إياه، فإن جحده بعد ذلك حكمنا بكفره». (روح المعاني ١١٣/٤)

(١٢) محمد (صلى الله عليه وسلم) بن عبد الله بن عبد المطلب، أبو القاسم، له أولاد وبنات. وهذا كله من صفات البشر.

شبهات منكري البشرية والجواب عنها:

القائلون بأنه صلى الله عليه وسلم نور استدلوا غالبا بالآيات القرآنية التي تذكر نزول النور من الله تعالى.

الجواب:

(١) من الأجوبة التي سبقت: أنه نور باعتبار الصفات، وليس نورا باعتبار الذات.

(٢) جواب آخر: ذهب جمهور المحققين إلى أن المراد بالنور القرآن الكريم، نحو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ﴾ (المائدة: ١٥)، قالوا: ففيه عطف صفة على صفة أخرى، والنور هو القرآن الكريم نفسه، و ذلك لأن غير واحد من آيات القرآن الكريم وصفت القرآن بالنور، نحو قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾ (النساء: ١٧٤)، وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ (الأعراف: ١٥٧)، و قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَا﴾ (التغابن: ٨)

فـ(نور وكتاب مبين) مثل قوله: (القرآن وكتاب مبين) أو (الكتاب وقرآن مبين)، فالصفتان محلهما واحد، وإن اختلفت في نفسها، ويؤيد أن المراد بالنور والكتاب شيء واحد، أنه أفرد الضمير في قوله الآتي (يهدي به)، ولم يقل (بهما)، فلو كان النور غير الكتاب لقال: (بهما).

(٣) ومن قال من المفسرين: إن النور هو النبي صلى الله عليه وسلم، ذهب إلى بشريته صلى الله عليه وسلم. وحمل النور على ما سبق بيانه.

ما يدعو إلى التفكير:

ألا ينظر هؤلاء الذين ينكرون بشرية الرسول صلى الله عليه وسلم ويعتبرونه نورا-

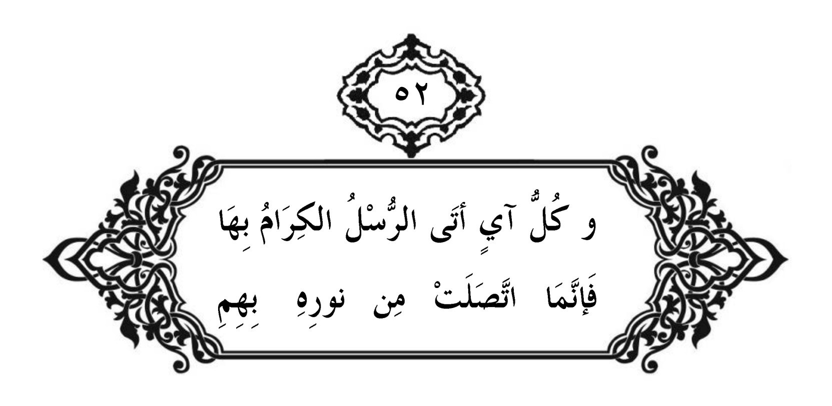
أن القرآن الكريم اعتبر البشرية هي سبب الفضيلة ومحكها، أي أن الله تعالى فضل البشر ما لم يفضل شيئا من خلقه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ (الإسراء: ٧٠)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين: ٤)

وفي الحديث: «أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، إن الله خلق الخلق فجعلني في خيرهم فرقة، ثم جعلهم فرقتين: فجعلني في خيرهم فرقة، ثم جعلهم قبائل فجعلني في خيرهم قبيلة، ثم جعلهم بيوتا فجعلني في خيرهم بيتا وخيرهم نفسا».(سنن الترمذي، رقم:٣٦٠٨)، يدل ذلك على أن الإنسان أشرف المخلوقات.

وفي المرقاة: «خلق الخلق أي الجن والإنس... وأبعد الطيبي وأدخل المَلَك معهم لقوله: فجعلني في خيرهم، وهو الإنس».(مرقاة المفاتيح، فضائل سيد المرسلين)

أضف إلى ذلك أن البشر مسجود له، والملائكة ساجدون له، فالبشر أعلى. (للاستزادة راجع: مؤلفات الشيخ سرفراز خان صفدر؛ «نور وبشر» من إفادات الشيخ سرفراز خان صفدر. و«***بريلوى ترجمۂ قرآن كا علمى تجزيہ***»، لصاحبه الشيخ أخلاق حسين القاسمي وغيرها)

****



اللغة:

آي: جمع: آية: العلامة الظاهرة. والمراد هنا: المعجزة.
المعجزة: العلامة التي نصبها الله تعالى على صدق النبي.

أصل كلمة آية:

(١) مشتقة من (آي) لأنها تبين أيا من أي، وأنها علامة تميز الأشياء بعضها من بعض، فمثلا لوحة مكتوب عليها (لوديم)، وأخرى مكتوب عليها (جوهانسبرغ)، فميزت هذه اللوحة إحدى القريتين من الأخرى.

(٢) مشتقة من (التأيي)، وهو التثبت، فيجب أن تقوم العلامة على حالها، وإلا اشتبه الأمر، فآية القرآن الكريم ومعجزته قائمة على حالها. رجح بعض الناس هذا القول.

(٣) مشتقة من (أوى إليه)، أي رجع، فإن الناس يرجعون إلى الشيء لمعرفته، ويطلبون الدليل والعلامة عليه.

وأصل (آية): أوية أو أيية، كتمرة، فاستبدلت عينها ألفًا على غير قياس، فصارت (آية)؛ لأن الواو والياء الساكنتين لا تتبدلان ألفا مثل قول وبيع.(راجع: تفسير البيضاوي ٧٤/١)

تعريف الآية القرآنية: كلمات من القرآن الكريم لها أول وآخر ولها فاصلة.

أتى: أتى يأتي (ض) إتيانا وإتيا ومأتى: جاء، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا﴾ (الكهف: ٧٧)

أتى عليه: مر به، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ﴾ (الإنسان: ١)
أتى على الشيء: أنفذه وأكمله.

أتى المكان: جاءه، وحضره.

أتى الأمر: فعله. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ﴾ (النساء: ١٥)

أتى المرآة: باشرها، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ (الشعراء: ١٦٥)

أتى به: جاء به، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَن يَأۡتِيكُم بِمَآءٖ مَّعِينِۭ﴾ (الملك: ٣٠)

أتى البنيان محكما: أي صار محكما.

وقد يدل على الأمر عند القرائن، نحو قوله تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ (الحشر: ٧)

وقد يفيد معنى الأداء، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ﴾ (التوبة:٥٤)

نوره: نار (ن) نورا: أضاء، ولمع، أنار/ نوَّرَ: أضاءه، نارت الفتنة: ظهرت.

النور: الظاهر بنفسه المظهر لغيره.

الفرق بين النور والضياء:

(١) مترادفان.

(٢) الضياء: النور القوي، والنور أعم.

(٣) الضياء: ما لم يؤخذ من غيره في الظاهر، والنور ما كان مأخوذا من غيره، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا﴾ (يونس: ٥)

أقسام النور:

التقسيم الأول:

(١) الظاهري: ما يرى بالباصرة، مثل نور القمر والنجوم.

(٢) الباطني: نور البصيرة، العقل والفراسة ونحوهما.

التقسيم الثاني:

(١) الدنيوي: نور الشمس والقمر، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا﴾ (يونس: ٥)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجٗا وَقَمَرٗا مُّنِيرٗا﴾ (الفرقان: ٦١)

(٢) الأخروي، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ (التحريم: ٨)

اتصلت: اتصل بفلان (١) تواصل معه، لقيه. (٢) انضم. (٣) كلم أحد بالهاتف. تواصل: اتصل بعضهم ببعض.

وصل يصل (ض) الشيءَ بالشيء: ضمه إليه، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ (الرعد: ٢١)

المستوصلة: الْمَرْأَة سَأَلت أَن يُوصل شعرهَا بِشعر غَيرهَا.

الإعراب:

كل: مضاف. آي: مضاف إليه نكرة، تدل على العموم.

لها: الضمير يعود على (آي).

من نوره، بهم: متعلقان بـــ(اتصلت).

فإنها: جزاء، و(كل آي) يدل على السببية فدخلت الفاء على جزائه، وكثيرا ما يحذف حروف الشرط في النصوص، وتدخل الفاء على جزائه، كما يتضمن الموصول معنى الشرط. جاء في الكافية: «وإذا تضمن المبتدأ معنى الشرط جاز دخول الفاء على خبره، وذلك على نوعين: الاسم الموصول، والنكرة الموصوفة».(المفصل في صفة الإعراب للزمخشري، ص ٤٧)

قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (الحجر: ٩٦)

وقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (الأحقاف:١٣)

وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا﴾ (المائدة: ٣٨)

وقَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾ (النور: ٢)

وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ (آل عمران: ١٦٦)

وقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ (الجمعة: ٨)

هذه الآيات كلها يدل ما قبل الفاء فيها على السببية، فدخلت الفاء على ما بعدها.

الشرح:

الرسل الكرام:

سؤال: هلا قال الناظم: الأنبياء دون الرسل؛ فإن الأنبياء أعم والرسل أخص؟

الجواب: (١) النبي والرسول مترادفان عند الناظم رحمه الله، كما سبق في البيت رقم: ٣٥.

(٢) الرسل: يعُمّ –علاوة على الأنبياء الكرام– الملائكةَ الذين أرسلوا إلى الدنيا. فبعض أعمال الملائكة على خلاف المعتاد ليس إلا ببركة الأنبياء مثل مشاركتهم في القتال يوم بدر.

الكرام:

(١) واحده: كريم، لقد تكرم الأنبياء الكرام على البشرية حيث أرشدوهم إلى الدين وأخرجوهم من النار.

وفي الحديث المشهور: «إنما مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد نارا، فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار... فأنا آخذ بحجزكم عن النار وهم يقتحمون فيها». (صحيح البخاري، رقم:٦٤٨٣)

(٢) مأخوذ من الكرم، فإن الأنبياء عليهم السلام مكرمون عند الله تعالى، وكرامتهم ومجدهم مما اتفقوا عليه.

معنى البيت:

(١) أشار البيت إلى الحديث الذي يدل على خلق الأشياء كلها من نور محمد صلى الله عليه و سلم، واشتهر هذا الحديث بحديث جابر رضي الله عنه، يقول العلامة القسطلاني في المواهب اللدنية: «وروى عبد الرزاق بسنده عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: قلت يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، أخبرني عن أول شيء خلقه الله تعالى قبل الأشياء. قال: يا جابر، إن الله تعالى قد خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره، فجعل ذلك النور يدور بالقدرة حيث شاء الله تعالى، و لم يكن في ذلك الوقت لوح ولا قلم، ولا جنة ولا نار، ولا ملك ولا سماء، ولا أرض ولا شمس ولا قمر، ولا جني ولا إنسي، فلما أراد الله تعالى أن يخلق الخلق قسم ذلك النور أربعة أجزاء، فخلق من الجزء الأول القلم، ومن الثاني اللوح، ومن الثالث العرش. ثم قسم الجزء الرابع أربعة أجزاء، فخلق من الجزء الأول حملة العرش، ومن الثاني الكرسي، ومن الثالث باقي الملائكة، ثم قسم الجزء الرابع أربعة أجزاء، فخلق من الأول السماوات، ومن الثاني الأرضين، ومن الثالث الجنة و النار، ثم

قسم الرابع أربعة أجزاء، فخلق من الأول نور أبصار المؤمنين، ومن الثاني نور قلوبهم- و هي المعرفة بالله-، ومن الثالث نور أنسهم، وهو التوحيد لا إله إلا الله محمد رسول الله ... ». (المواهب اللدنية ١/٧١-٧٢)

هذه الرواية غير مكتملة، فقد وردت زيادات في الروايات الأخرى.

علم من هذا النص أن كل شيء خلق من نور محمد صلى الله عليه وسلم، فمعجزات الأنبياء عليهم السلام كذلك ببركة نوره صلى الله عليه وسلم.

وخلاصة الكلام على هذه الرواية مايلي:

قالوا: هذه الرواية أخرجها عبد الرزاق. ولا توجد في مصنف عبد الرزاق أوغيره من كتبه، ولا يوجد له إسناد، فإذا عدم الإسناد لم يعد له ذكر.

وفيمايلي الكلام على هذه الرواية:

(١) قال العلامة السيوطي: «والحديث المذكور في السؤال ليس له إسناد يعتمد عليه». (الحاوي للفتاوي ١/٣٨٦، سورة المدثر)

(٢) خلاصة ما قاله الشيخ عبد الله الغماري في رسالة «مرشد الحائر لبيان وضع حديث جابر» وغيرها من مؤلفاته:

يوجد للعلامة عبد الرزاق ثلاثة مؤلفات: (١) تفسير عبد الرزاق، (٢) جامع عبد الرزاق، (٣) مصنف عبد الرزاق. وليس هذا الحديث في شيء منها، ولا حاجة إلى مزيد من القول مادام أنه غير ثابت الأصل.

ويحكي الشيخ محمد عدنان دوريش: «قال الشيخ عبد الله الغماري في «مرشد الحائر لبيان وضع حديث جابر» (ص١٣١)، و«رفع الإشكال» (ص ٤٥): «لا يوجد في مصنف عبد الرزاق ولا في جامعه ولا في تفسيره. وقال في «رفع الإشكال» (ص٤٥): «وأعجب من هذا أن بعض الشناقطة صدَّق هذا العزو المخطئ، فركب له إسنادًا من عبد الرزاق إلى جابر. ويعلم الله أن كل هذا لا أصل له، فجابر بريء من رواية هذا الحديث. وعبد الرزاق لم يسمع به».[انتهى كلام الغماري] لكن الكتاني رحمه الله في «جلاء القلوب» بيّن طرقه وأن له أصلا». (تعليقات الشيخ محمد عدنان درويش على ضوء المعالي لبدء الأمالي للشيخ الملا علي

القاري، ص٥٤)

(٣) قال العلامة أبو الفيض أحمد الغماري في مقدمة كتابه «المغير على الأحاديث الموضوعة في الجامع الصغير»: «وهو حديث موضوع؛ لو ذكر بتمامه لما شك الواقف عليه في وضعه، وبقيته تقع في ورقتين كبيرتين تشتمل على ألفاظ ركيكة ومعانٍ منكرة». (المغير، ص ٦-٧)

(٤) قال الشيخ محمد عبد القادر الشنقيطي في رسالته: «تنبيه الحذاق على بطلان ما شاع بين الأنام من حديث النور المنسوب لمصنف عبدالرزاق» هذا الحديث لا أصل له، وهو معارض للنصوص الصريحة الصحيحة.

(٥) وعمل العلامة حسن بن السقاف رسالة مختصرة سماها «إرشاد العاثر إلى وضع حديث أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر». وذكر فيها فيما ذكر أن بعض أهل العلم [كالعلامة العجلوني في كشف الخفاء، والعلامة السيوطي في الخصائص، والقسطلاني في المواهب] عزاه إلى المصنف لعبد الرزاق، ولا عبرة به، فليس فيه هذا الحديث، فلو أن عالما محققا (ولوكان الإمام النووي ذلك العالم المحقق المحدث) عزا بعض الأحاديث إلى صحيح البخاري، وعند الرجوع إليه يتبين أنه لا يوجد فيه، فلا عبرة به. (رسالة السقاف هذه مطبوعة ضمن رسائل السقاف). للاستزادة منه راجع: النور المحمدي بين هدي الكتاب المبين وغلو الغالين، للشيخ عداب محمود الحمش؛ ملحق قصيدة البردة، ص٧٥، للشيخ عبد الله بن محمد صديق الغماري (ت:١٤١٣هـ)؛ إرشاد الطالب النجيب إلى ما في مولد النبي من الأكاذيب (ص٩-١٠) للشيخ عبد الله الغماري أيضا؛ الدليل القائم على الصراط المستقيم، ص١٨٠، للشيخ عبد الله الهرري الحبشي)

كما تدل الأحاديث على أن الملائكة هم الذين خلقوا من نور، وخلق البشر من طين، وخلقت الجن من النار، في حين تفيد هذه الرواية بأن الإنسان خلق من النور. عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج النار، وخلق آدم مما وصف لكم».(صحيح مسلم، رقم:٢٩٩٦، باب في أحاديث متفرقة). [هذه الرواية أيضًا تعارض كثيرا من النصوص، للاستزادة راجع: الرسائل السابق ذكرها].

واقع الجزء المفقود من مصنف عبد الرزاق:

الجزء المفقود من الجزء الأول من مصنف عبد الرزاق، تحقيق: عيسى مانع الحميري، طبع الكتاب عام ٢٠٠٥م في دبي، وفيه حديث النور وغيره من الأحاديث المماثلة، يقول

الناشر: عثرت على هذا المخطوط عند الشيخ محمد أمين البركاتي القادري (البريلوي) بعد جهود استمرت أعواما عدة. [رأينا الكتاب في بنوني من جنوب إفريقيا].

والحق أنه لا أصل له. وتصفح مصنف عبد الرزاق فلم يجد فيه هذا الحديث، فوضع له إسنادا من عند نفسه، وألحقه به، وطبعه. وقد درسه علماء العرب وأكدوا كذبه بأدلة وعلامات لا تحصى. وحقق بعض العلماء فتوصل إلى أن هذه الكتابة لا يتجاوز عمرها سنتين. وطُلِبَ أصل المخطوطة فاعتذر بأنه قد احترق. وليس أسلوبه عربيا، وبالمقارنة مع كتب الحديث الشهيرة تبين أن صاحبه أخطأ كثيرا في وضع الأسانيد أيضا.

وأعدوا حوله كتاب مفصلا، راجع: التحذير من قطعة موضوعة من مصنف عبد الرزاق للشيخ محمد زياد التكلة.

وحاصل التفاصيل السابقة أن الحديث ليس في مصنف عبد الرزاق.

من هو عبد الرزاق؟

قال بعض أهل العلم: عبد الرزاق الذي عزي إليه هذا الحديث ليس هو العالم الشهير صاحب المصنف، وإنما هو عبد الرزاق الكاشاني الصوفي.

يقول الشيخ محمد وائل الحنبلي: «ولعل عبد الرزاق الذي ذكره القسطلاني هو عبد الرزاق الكاشاني (ت:٧٣٠هـ) صاحب الكتب في التصوف وفلسفته».(الأربعون العجلونية للمحدث العلامة إسماعيل بن محمد العجلوني، تحقيق: محمد وائل الحنبلي، ص ١٦٠، حاشية:٣، دارالبشائر الإسلامية)

ترجمة موجزة لعبد الرزاق الكاشاني الصوفي:

«جمال الدين، عبد الرزاق بن أحمد الكاشاني، من العلماء، صوفي، مفسر، توفي بعد سنة٧٣٠هـ، له كتب، منها: كشف الوجوه الغُر في شرح تائية ابن الفارض (ط)، اصطلاحات الصوفية (خ)، شرح منازل السائرين (ط)، السراج الوهاج في تفسير القرآن، شرح فصوص الحكم لابن العربي (ط)».(الأعلام للزركلي ٣/٣٥٠. معجم المؤلفين ٥/٢١٥).

نسبة التشيع إلى الإمام عبد الرزاق:

قال شيخنا سرفراز خان صفدر –وهو يتحدث عن هذا الحديث-: «كان الإمام عبد الرزاق من الشيعة غير الغلاة، تفرد ببعض الأشياء، ولا يوافقه عليها أحد».(تذكرة

الحفاظ١/٣٣١). وخاصةً روى في الفضائل أحاديث لم يوافق عليها أحد». (إلى آخر ما قال).(نور وبشر، ص ٤٨، وغيره)

أقول في هذا الصدد: قال بعض المحققين: لا يصح نسبة التشيع إليه، والحق أنه إمام محدث كبير الشأن. راجع: نصوص تقريب التهذيب، وتعليقات الشيخ شعيب الأرنؤوط عليها.

قال في التقريب: «عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري مولاهم، أبو بكر الصنعاني، ثقة حافظ مصنف شهير، عمي في آخر عمره، كان يتشيع، من التاسعة، مات ١١هـ [أي:٢١١هـ]، وله خمس وثمانون».

قال الشيخ شعيب الأرنؤوط: «لم يثبت تشيعه، ولا وجدنا ذلك في كتابه العظيم: «المصنف»، و لم نجد له رواية عند الشيعة، فلو كان شيعيا لرووا عنه، والله أعلم.

أما تغيره فقال المصنف في «مقدمة الفتح»: «وضابط ذلك: من سمع منه قبل المئتين، فأما من بعدها فكان قد تغير، وفيها سمع منه أحمد بن شبويه فيما حكى الأثرم عن أحمد وإسحاق الديري، وطائفة من شيوخ أبي عوانة، والطبراني ممن تأخر إلى قرب الثمانين والمئتين». (هدي الساري مقدمة فتح الباري، ص٤١٩-٤٢٠)، قلنا: وما كان في كتبه فهو صحيح واحتج به الشيخان في جملة من حديث من سمع منه قبل التغير».(تحرير تقريب التهذيب٢/٣٦٠، ٤٠٦٤).

علاوة على ذلك من الجدير بالتأمل أننا لو رددنا أحاديث هؤلاء الأئمة الأجلة وشككنا فيها لسد ذلك باب الحديث.

حكى العلامة عبد الحئي اللكنوي رحمه الله -وهو يتحدث عن تشدد العلامة العقيلي في الجرح- عن العلامة الذهبي قولَه: «ولو تُرك حديث علي (بن المديني) وصاحبه محمد (الإمام البخاري)، وشيخه عبد الرزاق، وعثمان بن أبي شيبة... لغلقنا الباب، وانقطع الخطاب، ولماتت الآثار واستولت الزنادقة ولخرج الدجال».(الرفع والتكميل في الجرح والتعديل، تحقيق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، ص٤٠٧-٤٠٨. ميزان الاعتدال٢/٢٣)

فعلم أنه لم يثبت اعتبار الإمام عبد الرزاق من الشيعة.

وخلاصة ما سبق: (١) نحن في غنى عن الكلام على هذا الحديث حيث لا يوجد في

مصنفه. (٢) أنه ليس المراد هو الإمام عبد الرزاق الصنعاني، بل هو الكاشاني. (٣) ومن العبث الكلام على تشيع عبد الرزاق لاعتبار أن الحديثَ لا أصل له.

وقد فصّلنا الكلام عن تشيع عبد الرزاق في كتابنا: «العصيدة السماوية شرح العقيدة الطحاوية» ٢/٤٠٢-٤٠٦.

معنى ثانٍ للبيت:

أن الدنيا خلقت ببركة النبي صلى الله عليه وسلم. وفي ضوء ذلك كان معنى البيت ما يلي:

«حديث: لولاك لما خلقت الأفلاك» لم يثبت لفظه، وأما معناه فقد روي عن ثلاثة من الصحابة: عمر، وابن عباس وسلمان رضي الله عنهم. وسبق بيان مكانة هذه الروايات في الإسناد ضمن البيت رقم (٣٣)، كما سبق أنه لا يصح لها إسناد واحد، وللتفصيل يرجع إليه.

لننظر إذاً:

الصغرى: المعجزات كلها موقوفة على الأنبياء.

الكبرى: والأنبياء موقوفون (أي وجودهم) على النبي صلى الله عليه وسلم.

النتيجة: فالمعجزات موقوفة على النبي صلى الله عليه وسلم، فهو أصل وهُم تبع له.

معنى ثالث للبيت:

وعبر عنه بعض الناس بتعبير آخر، فقال: الأنبياء عليهم السلام كلهم بمنْزلة خلفائه صلى الله عليه وسلم، وكانوا يأمرون أممهم باتباعه صلى الله عليه وسلم، و وردت عدة أحاديث بأن الأنبياء كانوا يخبرون أممهم به صلى الله عليه وسلم. عن علي بن أبي طالب قال: «لم يبعث الله عز وجل نبيا آدم فمن بعده إلا أخذ عليه العهد في محمد صلى الله عليه وسلم: لئن بعث وهوحي ليؤمنن به ولينصرنه، ويأمره فيأخذ العهد على قومه، فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ (آل عمران: ٨١). (تفسير الطبري٣/٢٣٦).

وروي هذا المعنى عن غيره أيضا.(تفسير ابن كثير١/٤٠٥). فلما كان الأنبياء عليهم

السلام خلفاءه صلى الله عليه وسلم كانت المعجزات الظاهرة على أيديهم ببركة محمد صلى الله عليه وسلم، كما أن كرامات الأولياء من ثمار رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم واتباعه.

معنى رابع للبيت: في ضوء كلام الصوفية:

قسم الشيخ محمد قاسم النانوتوي رحمه الله ختم النبوة على ثلاثة أقسام: (١)الزماني، (٢) الرتبي، (٣) الذاتي.

(١) ختم النبوة الزماني: أي أن عهد نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بعد عهود سائر الأنبياء عليهم السلام. ثم قال: إن التقدم والتأخر زمنا ليس فيه فضل.

(٢) ختم النبوة الرتبي: انتهت المراتب كلها بنبوته صلى الله عليه وسلم، فلا رتبة فوق رتبه صلى الله عليه وسلم.

(٣) ختم النبوة الذاتي: أي نال الأنبياء كلهم النبوة ببركته صلى الله عليه وسلم، فنبوته ذاتية ونبوة غيره من الأنبياء عارضة.

لننظر في كلام النانوتوي وتوضيحه:

النص الأول: يقول النانوتوي: «محمد صلى الله عليه وسلم موصوف بالنبوة بالذات، وأما غيره من الأنبياء فموصوف بالنبوة بالعرض. ونبوة سائر الأنبياء من فيضه صلى الله عليه وسلم، وليس نبوته من فيض غيره من الأنبياء».

واستدل الشيخ على ذلك بأدلة:

١ - ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ (آل عمران: ٨١).

٢- قال النبي صلى الله عليه وسلم: « أوتيتُ علم الأولين والآخرين».

٣- قال صلى الله عليه وسلم: «كنتُ نبيا وآدم بين الماء والطين».

ثم شرح كل ذلك. (راجع: تحذير الناس من إنكار أثر ابن عباس، ص٣٥، وما بعدها؛ مقدمة للعلامة الدكتور خالد محمود، ص ٦ وما بعدها، مع تكملته للشيخ محمد إدريس الكاندهلوي)

توضيح موجز لهذا النص:

وفيما يلي توضيح هذا النص بإيجاز، يقول الشيخ سرفراز خان صفدر: ليس معنى

«بالذات» في هذا المقام أن نبوته —والعياذ بالله — كانت من عند نفسه، وإنما أراد الشيخ أن الله تعالى رزقه كمالات النبوة مباشرة وبدون واسطة. وأما سائر الأنبياء فقد رزقهم كمالات النبوة بوساطة منه صلى الله عليه وسلم وبفيض منه. كما نصِف ضوءَ الشمس بأنه بالذات، وضوءَ القمر وغيره بأنه بالعرض. (نور القمر مستفاد من نور الشمس). وليس معناه أن ضوء الشمس بالذات بمعنى أنه —معاذ الله – في غنى عن الله تعالى. انتهى ملخصا.(راجع: عبارات اكابر، ص ١٢٦-١٢٧).

نص آخر: حكى الشيخ خليل أحمد السهارن فوري في «المهند على المفند» تحقيقات الشيخ محمد قاسم النانوتوي في «تحذير الناس»(ص ٤٤، ٥٥)، حاصله: الخاتمية جنس، تحته نوعان: خاتمية باعتبار الزمان: وهو أن زمان نبوته صلى الله عليه وسلم متأخَّر عن زمان نبوة سائر الأنبياء. والنوع الثاني: الخاتمية باعتبار الذات، ومعناه أن نبوته ختم بها نبوة سائر الأنبياء؛ لأن ما بالعرض ينتهي بما بالذات. ونبوته صلى الله عليه وسلم بالذات، ونبوة سائر الأنبياء بوساطة منه صلى الله عليه وسلم. وهذا ما حققه الشيخ الأكبر ابن العربي، والعلامة السبكي، والشيخ عبد القدوس الكنكوهي. وفصَّل الشيخ السهارن فوري هذا البحث تفصيلا. (المهند على المفند، ص ٥٧-٦١؛ راجع تحقيق العلامة السبكي المفصل حوله في: الحاوي للفتاوي٢/١٧٥، تزيين الأرائك. الخصائص الكبرى١/٦، رسالة النبي صلى الله عليه وسلم عامة. سبل الهدى والرشاد ١/٨١، تقدم نبوته صلى الله عليه وسلم).

لا يكاد يسيغ كثير من أهل الحديث هذا المعنى، فيوجهون إليه سهام الاعتراضات، ويعتبرونه شركا، فيجب إيضاحه.

ومعناه: أن سائر الأنبياء عليهم السلام أخذ عليهم العهدُ بأنهم يؤمنون بمحمد ويؤيدونه إذا جاءهم. قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ (آل عمران: ٨١). فمحمد صلى الله عليه وسلم مثل نبي الأنبياء، وسائر الأنبياء بمنْزلة أمته. وبتعبير آخر: معنى النبوة بالذات: نبي الأنبياء، والنبوة بالعرض معناه: التبعية له، كما يتبع العرض الجوهرَ.

تحقيق موجز لحديث:كنت نبيا وآدم بين الماء والطين:

ومما استدل به الشيخ النانوتوي على أن نبوته صلى الله عليه وسلم بالذات ومقدمة

على نبوة غيره من الأنبياء حديثُ: كنت نبيا وآدم بين الماء والطين». وهو حديث مشهور، يؤيد معنى البيت، فهلا نوجز الكلام عليه:

هذا الحديث لم يرد بهذا اللفظ، وورد بألفاظ أخرى بعدة طرق:

(١) «متى جُعِلت نبيا؟ قال: وآدم بين الروح والجسد». (مسند أحمد، رقم:٢٣٢١٢، قال الشيخ شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح)

(٢) عن ميسرة الفجر قال: قلت: يار سول الله، متى كنت نبيا؟ قال: «وآدم عليه السلام بين الروح والجسد». (مسند أحمد رق/٢٠٥٩٦. المستدرك للحاكم، رقم:٤٢٠٩، وصحح الحاكم ووافقه الذهبي بقوله: صحيح. وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح)

(٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قالوا: يا رسول الله، متى وجبت لك النبوة؟ قال: «وآدم بين الروح والجسد».(سنن الترمذي، رقم:٣٦٠٩، وقال أبو عيسي: هذا حديث حسن صحيح)

(٤) عن العرباض بن سارية قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « إني عند الله في أول الكتاب لخاتم النبيين، وأن آدم لمنجدل في طينته». (المستدرك للحاكم، رقم: ٤١٧٥، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي؛ مسند أحمد، رقم:١٧١٦٣)

(٥) عن ابن عباس قال: قيل: يا رسول الله، متى كنت نبيا؟ قال: «وآدم بين الروح و الجسد». (المعجم الكبير للطبراني٩٦/١٢. المعجم الأوسط ٢٧٢/٤. مسند البزار ٨٣٥٨. وينظر: المقاصد الحسنة ٥٢١/١. المصنوع في معرفة الحديث الموضوع بتحقيق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، ص١٤٢-١٤٣)

وفصل العلامة القسطلاني والعلامة الزرقاني الكلام بعد سرد هذه الروايات، يقول القسطلاني:

«فإن قلت: إن النبوة وصف لابد أن يكون الموصوف به موجودًا، وإنما يكون بعد بلوغ أربعين سنة أيضا، فكيف يوصف به قبل وجوده وإرساله؟

ثم قال: أجاب العلامة الغزالي بأن المراد بالخلق هنا: التقدير دون الإيجاد، فكانت نبوته مقدرة في ذلك الوقت، لا أنه موجود.

ثم ذكر ما حققه السبكي إشارة إلى رد قول الغزالي، وقال: إذاكان المراد تقدير النبوة، فليس ذلك من خصائص محمد صلى الله عليه وسلم، فإن نبوة سائر الأنبياء مقدرة، فالمراد أن جسده صلى الله عليه وسلم خلق فيما بعد، ولكن حقيقته كانت

موجودة ذلك الوقت.

للاستزادة من البحث والنقاش حوله يرجع إلى: المواهب اللدنية ١/٦٥٦١، وشرح الزرقاني على المواهب ١/٣٤-٣٩. وفيما يلي نكتفي باقتباس شطر منه:

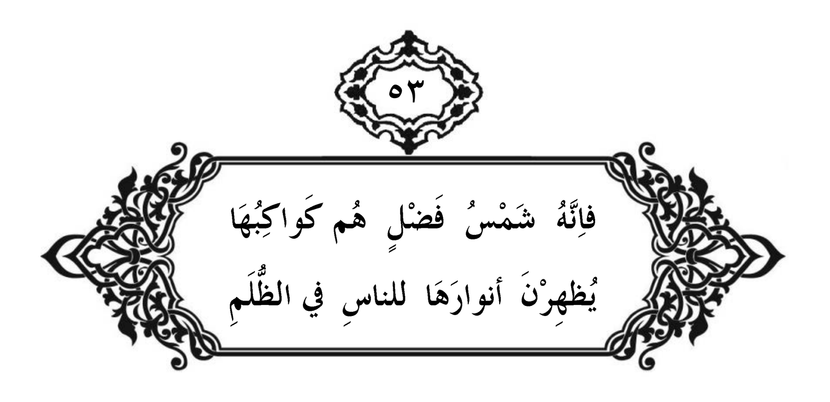
«فحقيقة النبي- صلى الله عليه وسلم- قد تكون من حين خلق آدم آتاها الله ذلك الوصف، بأن يكون خلقها متهيئة لذلك، وأفاضه عليها من ذلك الوقت، فصار نبيّا... فحقيقته موجودة من ذلك الوقت وإن تأخر جسده الشريف المتصف بها... ولو كان المراد بذلك مجرد العلم بما سيصير في المستقبل لم يكن له خصوصية بأنه نبى وآدم بين الروح والجسد، لأن جميع الأنبياء يعلم الله تعالى نبوتهم فى ذلك الوقت وقبله».(المواهب اللدنية ٦٣/١-٦٤)

وقال الشيخ تقي الدين السبكي في كتابه «التعظيم والمنة في لتؤمنن به ولتنصرنه»: في هذه الآية من التنويه بالنبي صلى الله عليه وسلم وتعظيم قدره العلي ما لا يخفى. وفيه مع ذلك أنه على تقدير مجيئه في زمانهم يكون مرسلا إليهم، فتكون نبوته ورسالته عامة لجميع الخلق من زمن آدم إلى يوم القيامة، وتكون الأنبياء وأممهم كلهم من أمته، ويكون قوله: «بعثت إلى الناس كافة» لا يختص به الناس في زمانه إلى يوم القيامة، بل يتناول مَن قبلهم أيضا، ويتبين بذلك معنى قوله صلى الله عليه وسلم: «كنت نبيا وآدم بين الروح والجسد»، وإن من فسَّره بعلم الله بأنه سيصير نبيّا لم يصل إلى هذا المعنى». (الدر الثمين في مبشرات النبي الأمين، وهي ضمن «الرسائل الثلاث» للشاه ولي الله، مع تعليقات الشيخ محمد عاشق إلهي، ص١٥٤، تعليقات. قلت: وقد نقل هذه العبارة بتمامها السيوطي في الخصائص١/٦، والشامي أكثرها في سبل الهدى ١/٩١، و القسطلاني جزءا منها بتقديم وتأخير في «المواهب اللدنية» ١/٦٤، كلهم من كتاب «التعظيم والمنة»).

والأظهر أن نقول في «كنت نبيا وآدم بين الروح والجسد» أن إعلان نبوته بين الملائكة كان قبل خلق آدم عليه السلام.

انتهى ولله الحمد.

****



اللغة:

كواكبها: كوكب: (في علم الفلك): جرم سماوي يَدُور حول الشَّمْس ويستضيء بضوئها وَ أشهر الْكَوَاكِب مرتبَة على حسب قربهَا من الشَّمْس: عُطَارِد، الزهرة، الْمُشْتَرِي، زحل، يورانس، نبتون، بلوتون، الأرض.

الناس: جمع (إنسان) على غير قياس. قد يطلق الناس على الأشراف وعلية القوم، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ (البقرة: ١٣)

ناس: (ن) تحرك وتذبذب. وتحقيق بقية الكلمات لغة سبق.

الإعراب:

هم: مبتدأ. كواكبها: مضاف ومضاف إليه خبره، والجملة حال من خبر (إن).

وإذا وقعت الجملة الاسمية حالا سبقها الواو والضمير، وقد يكتفى بالواو، وتقدر الواو هنا لضرورة الشعر، أو نقول : شمس فضل، موصوف، والجملة صفته.

أنوارها: (١) أنوار الشمس: هاء الضمير يعود على الشمس. (٢) ها: الكواكب: تظهر الكواكب نورها.

يظهرن أنوارها:... الجملة حال من (كواكب)، أي : مظهرة أنوارها للناس، أو: صفة ثانية لـــ(شمس فضل).

الشرح:

يقول علماء الهيئة: الكواكب –عدا الشمس– مظلمة، تقبل نور الشمس. فما فيها من نور مستفاد من الشمس، غير أن النهار يكون ضوؤها منتشرا أكثر، فلا يظهر نور

الكواكب الأخرى. فإذا غربت الشمس في الليل أنارت الكواكب العالم بالنور الذي استفادوه من الشمس.

سبب تشبيه النبي صلى الله عليه وسلم بالشمس:

شبه الناظم رحمه الله الرسول صلى الله عليه وسلم بالشمس وسائر الأنبياء بالكواكب، وفيه أمران يستحقان النظر والتأمل:

١- أن النور الذي تظهر الكواكب في الليل في غياب الشمس مستفاد من الشمس، كذلك ما أظهر الأنبياء عليهم السلام في غياب محمد صلى الله عليه وسلم من النور – التعليم والهداية وغيرهما- ليس إلا ببركة نوره صلى الله عليه وسلم، فنور الأنبياء مأخوذ من نور النبي صلى الله عليه وسلم كما أن نور الكواكب مأخوذ من نور الشمس. فهو صلى الله عليه وسلم مثل نبي الأنبياء.

٢- يغيب نور الكواكب بظهور الشمس، كذلك نور شرائع الأنبياء يغيب بعد ظهور نور دين محمد صلى الله عليه وسلم.

وسيأتي هذا المعنى في البيت التالي الموجود في بعض النسخ.

وسبق الكلام مفصلا على الشمس في البيت رقم: ٤٩.

وفي الشمس والكواكب إشارة إلى أن الشمس تعم الكلَّ، ونوره أقوى الأنوار، كذلك يمتاز محمد صلى الله عليه وسلم عن غيره من الأنبياء في فضله وشرفه وسمو منْزلته وظهور شرعه وعمومه، وكما أن بركات الشمس وفوائدها أكثر من الكواكب الأخرى، كذلك حال النبي صلى الله عليه وسلم. وسيظل الناس كلهم يدرسون حوله؛ بل كافة جوانب حياته صلى الله عليه وسلم على مستويات شتى وستنتشر فوائده في العالم كله.

فحياته الاجتماعية وحدها كتبوا حولها من الناحية العلمية والمدنية والإسلامية وغيرها من النواحي التي لا تحصى، وتغطي آلاف الصفحات.

كواكب:

(١) المراد بالكواكب: عظام النجوم، فالنجم عام والكوكب خاص. (٢)الكواكب والنجوم بمعنى.

الضمير في (أنوارها) يحتمل وجهين:

(١) يعود على الشمس، فالنور الذي تظهره هو نور الشمس في الواقع. (٢) تظهر نورها، أي الكواكب. ولا فرق بينهما في المآل.

من أسماء النبي صلى الله عليه وسلم «الشمس»:

يذكر من أسماء النبي صلى الله عليه وسلم الشمس، فهو يعطي معنى: كالشمس تظهر للعينين.

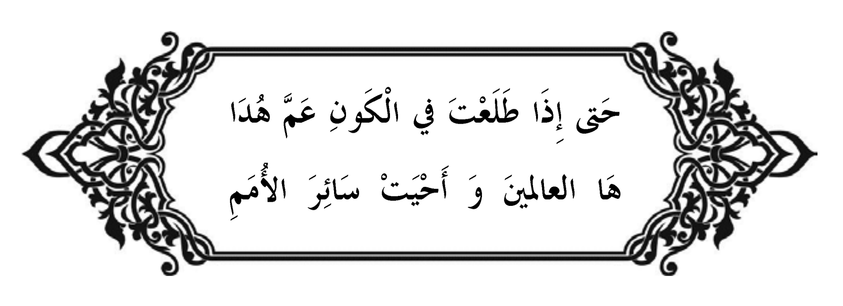
جاء في المواهب اللدنية: « وأما «الشمس» فسمى بها- صلى الله عليه وسلم- لكثرة نفعه، وعلو رفعته، وظهور شريعته، وجلالة قدره وعظم منْزلته، لأنه لا يحاط بكماله، حتى لا يسع الرائي له أن ينظر إليه ملء عينيه إجلالا له، كما أن الشمس في الرتبة أرفع من غالب الكواكب؛ لأنها فى السماء السادسة والانتفاع بها أكثر من غيرها، كما لا يخفى، ولا يدركها البصر لكبر جرمها، وأيضا فلما كان سائر الكواكب تستمد من نورها ناسب تسميته -عليه الصلاة والسلام- بها، لأن نور الأنبياء مستمد من نوره».(المواهب اللدنية٢/٤٥)

ذكر الزرقاني في شرح هذا النص بعد الشمس، وأمورا أخرى، ثم ذكر بيت قصيدة البردة: وكل آي أتى الرسل، ثم قال:

«وفي وجه الشبه بالشمس أوجه.... منها: أنها لا تطلع حتى يتقدمها الفجر الأول، والثاني مبشرين بها، وكذلك لم يبعث صلى الله عليه وسلم حتى بشرت به الأنبياء والمرسلون ووصفته الكتب المنْزلة، ومنها: أن للشمس إحراقا وإشراقا، وكذلك كان صلى الله عليه وسلم لبعثته نور يشرق في قلوب أوليائه ولسيوفه نار تحرق قلوب أعدائه، ومنها: أن فيها هداية ودلالة، وكذلك صلى الله عليه وسلم هدى من الضلالة، ودل على الرشاد، ومنها: أنها سيدة الأنوار الفلكية، وهو صلى الله عليه وسلم سيد الأنبياء». (شرح الزرقاني على المواهب اللدنية ٣/١٧٨-١٧٩).

انتهى ولله الحمد.

ملحوظة: البيت التالي لا يوجود في معظم نسخ القصيدة وشروحها، وإنما يوجد في بعضها:



اللغة:

طلعت: طلع (ن،ض) الشمس أو الكوكب طلوعا: برز، وظهر، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ (الكهف: ٩٠)

طلع على وزن نصر أكثر، و على وزن ضرب أقل، وبالنظر إلى أنه على وزن نصر كان القياس: مطلَع، ومغرَب، ولكن جاء مطلِع، ومغرِب على خلاف القياس، والحكمة فيه أن الشمس أسفل عند الطلوع والغروب، فكسروا الكلمة الدالة عليه أيضًا.

طلع على كذا: علمه، طلع عليه: أقبل عليه. طالع الكتاب: أمعن النظر فيه.

اطَّلع: أشرف عليه ليراه، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ (الصافات: ٥٥)

اطلع عليه: (١) وقف عليه. (٢)ظهر له، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ (الكهف: ١٨)

اطلع إليه: استشرف إليه، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ (القصص: ٣٨)

اطلع الأمر: وقف على حقيقته، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ (مريم:٧٨)

عم: عمَّ: (ن) عموما: شمل، وانتشر. عم الرجل عمومة: صار عما.

عَمَّمَ فلانا: (١) ألبسه العمامة. (٢) قلده أمره إياه.

تعمَّمَ، اعتَمَّ، استعمَّ الرجل: لبس العمامة.

هدا: هدى (ض) فلان هدى وهديا وهداية: بيّن الطريق ودلّ عليه، وسيّره وأوصله إلى المقصود على الطريق المستقيم.

الهداية: (١) إراءة الطريق، (٢) الإيصال إلى المطلوب.

إيضاح معنى الهداية:

عبر عنه علماء اللغة بقولهم: الهداية: الدلالة على ما يوصل إلى المطلوب، أو سلوك طريق يوصل إلى المطلوب.(التعريفات، ص٢٥١. كشاف اصطلاحات الفنون، ص ١٧٣٧)

وقال بعض أهل العلم: إذا نسبت الهداية إلى الله تعالى أريد بها الإيصال إلى المطلوب، وإذا نسبت إلى الرسول أو إلى مخلوق أريد بها إراءة الطريق.

وليس هذا ضابطا كليا لا يتخلف، نضرب لكم مثالا واحدا، وهو قوله تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ (القصص: ٥٦)، فقد نسبت إلى الرسول، وليس المراد بها إراءة الطريق. كما لا يخفى.

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾(الإنسان:٣)، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾(فصلت:١٧)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾(الشعراء: ٦٢) فهذه الآيات نسبت الهداية إلى الله تعالى وأريد بها إراءة الطريق.

العالمين: العالم: لغة: ما يعلم به الشيء، فالعالم لما يعلم كالخاتم لما يختم به.

معنى العالم: (١) كل ما سوى الله تعالى من الموجودات. فالخلق كله دال على وجود الله تعالى، قال الشاعر:

و في كل شيء له آية ۞ تدل على أنه واحد

(٢) قيل: العالم: جنس من ذوي العقول، مثل عالم الإنس، وعالم الجن، وعالم الملائكة. وحاصل هذا القول أن العالم يطلق في الواقع على ذوي العقول، ويدخل فيه غيره تبعًا.

وللكلمة تعريفات أخرى، وكلام مفصل في ضوء كل تعريف. (راجع: دستور العلماء ٢٥١/٢. كشاف اصطلاحات الفنون ١٠٥٣/٢)

الأمم:

معاني كلمة «أُمّة»:

الأمة: (١) من يجمعهم أصل واحد، أو دين واحد، أو مكان واحد، أو زمان واحد.

(٢) الإمام: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ (النحل: ١٢٠)

(٣) المدة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ﴾ (هود: ٨)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ (يوسف: ٤٥)

(٤) الدين، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ (الزخرف: ٢٢)

الإعراب:

دلالة «حتى» على معنى الغاية هكذا: أظهر الأنبياء عليهم السلام أنواره صلى الله عليه وسلم إلى أن طلعت شمس هدايته.

هدا: مضاف. ها: مضاف إليه، (الضمير يعود على الشمس)، جاء المضاف في الشطر الأول والمضاف إليه في الشطر الثاني لضرورة الشعر.

هداها: المضاف مع المضاف إليه فاعل الفعل (عم)، العالمين: مفعول.

الشرح:

أرسل الأنبياء كلهم إلى العالم، وأرسل محمد صلى الله عليه وسلم آخرهم،كما أن نور الشمس يتلألأ، فيغيب نور الكواكب والنجوم الأخرى، كذلك غاب نور سائر الأنبياء بوجود محمد صلى الله عليه وسلم.

والأمر الثاني الجدير بالملاحظة في هذا التشبيه: كما أن الشمس لا تبطل نور الكواكب الأخرى، وإنما يغيب نورها، كذلك محمد صلى الله عليه وسلم لم يبطل نور غيره من الأنبياء (فهم أنبياء ليومنا هذا)، إلا أن نورهم قد غاب وذهب، وسيستمر نور محمد صلى الله عليه وسلم إلى قيام الساعة، ولن يعود نورهم، وذلك كما أن الحاجة إلى السراج تزول بظهور الشمس، كذلك وروده صلى الله عليه وسلم أغنى عن غيره من الأنبياء.

العالمين: فيه إشارة إلى أن نبوته ليس قاصرة على البشر؛ بل هو نبي لعالم الإنس وعالم الجن وعالم الملائكة وعالم النباتات وعالم الوحوش والطيور جميعا.

عموم النبوة:

نبوته صلى الله عليه وسلم عامة زمانا ومكانا:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ (سبأ: ٢٨)

قَالَ تَعَالَى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان: ١)

قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ (الأعراف: ١٥٨)

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧)

قَالَ تَعَالَى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ (إبراهيم: ١)

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ (الأنعام: ١٩)

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥ﴾ (هود: ١٧)

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗا﴾ (النساء: ٧٩)

والحاصل أن القرآن الكريم عبر عن عموم الرسالة بألفاظ وأساليب مختلفة: عبر بإرساله إلى الناس، وإلى العالمين، وبإنذاره من بلغ. كما يدل عليه الآيات التي تدعو أهل الكتاب إلى الإيمان.

وردت أحاديث كثيرة بهذا المعنى:

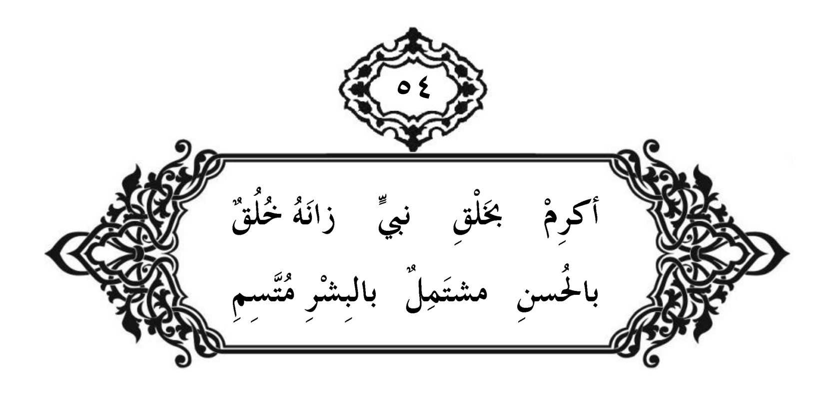
(١) «فضلت على الأنبياء بست...وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بي النبيون». (صحيح مسلم، رقم:٥٢٣)

(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا: «والذين نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة: يهودي ولا نصراني ثم يموت و لم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار». (صحيح مسلم، رقم:١٥٣)

(٣) عن جابر رضي الله عنه مرفوعا: «وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة». (صحيح البخاري، رقم:٣٣٥)

انتهى ولله الحمد.

****



اللغة:

أكرم: كرم (ك) عز. كرم (ن) غلبه في الكرم. وسبق تحقيقه لغة.

خلْق: الإيجاد. والخلق يلزم الصورةَ.

زانه: زان (ض) زينا: جَمَّله وحسَّنَه.

أزْيَنَ/ زَيَّنَ الشيء: زانه، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ (الصافات: ٦)

ازَّيَّنَ/ ازدانَ: حسن وجمل.

مشتمل: شَمَلَ (ن) الأمر شملا وشمولا: عمه.

شَمِلَ (س) فلان: ارتدى، شَمِلَ الشيءُ شيئًا: تضمنه، وعمه.

بالبشر: بَشَرَ (ن) بَشِرًا: فرح. ويطلق على الظاهر من الجلد البشر؛ لأن الفرح يظهر على الجلد. سبق تحقيقه مفصلا.

متَّسم: وَسم يسم: (ض) وَسْمًا وسِمَةً: كواه فأثر فيه بعلامة.

وسُمَ يُوسم: (ك) وَسامة و وِساما: جمل وحسن.

اتَّسَم: حصل له ميزة وصفة خاصة. وعرف بصفة خاصة، هو متسم بالخير.

الإعراب:

أكرم بخلق نبي: تستعمل العرب للتعجب صيغتين في الغالب: ما أحسن زيدا، وأحسن به. فما أصلهما؟ اسمان أم فعلان؟ فيه أقوال عدة، والأشهر قولان، نكتفي بذكرهما:

ما أحسن زيدا:

قال سيبويه: (ما) استفهامية،: أي شيء أحسن زيدا؟ أي شيء عجيب صيَّرَ زيدا

حسنا؟

قال الأخفش: (ما) موصولة،: الذي أحسن زيدا شيء عظيم.

أحسن بزيد:

قال سيبويه: الباء زايدة، و(أحسن) فعل بمعنى (حَسُنَ)، و(زيد) فاعل، المعنى: حسن زيد.

قال الأخفش: الباء زايدة، و(زيدا) مفعول به، المعنى: صِف زيدا بالحسن.

ويبدو أن مذهب سيبويه في (ما أحسن زيدا)، و مذهب الأخفش في (أحسن بزيد) أعجب، وعليه قدرنا (صف) في (أحسن بزيد) على رأي الأخفش، لأن المقصود هو البيان. وتُرك زيد على حاله. وأما على رأي سيبويه فمن العجب أن نعتبر (زيد) فاعلا لــ (أحسن).

فالمعنى على رأي الأخفش:

أكرم: فعل وفاعل، والباء زايدة، (خلق نبي) مفعول. فالمعنى: صِفْ صورة النبي صلى الله عليه وسلم بالحسن. والتنوين في (نبي) للتعيظم، أي: النبي العظيم الموصوف بهاتين الصفتين. ومشتمل ومتسم صفتان لخلقٍ، أي: هاتان الصفتان ثابتتان له. وبما أن (خلق) مجرور فكانت الصيغتان مجرورتين.

الشرح:

كرم: الكريم: من كان أصله وعنصره نزيها.

زانه خلق: أشار به الناظم إلى أنه لا يكفي مجرد حسن الصورة، ما لم يزينه حسن السيرة.

قال المتنبئ:

وما الحسن في وجه الفتى شرَفا له ۞ إذا لم يكن في فعله والخلائق

قال الشاعر الأردي:

حسنِ صورت چند روزہ حسن سیرت مستقل

اس سے خوش ہوتی ہیں آنکھیں، اس سے خوش ہوتا ہے دل

(حسن الصورة لا يدوم إلا أيامًا معدودات، وحسن السيرة دائم ومستمر، فحسن

الصورة يعجب العين وحسن السيرة يعجب القلب)

بالحسن: سبق بيان حسن صورة النبي صلى الله عليه وسلم.

طلاقة وجهه صلى الله عليه وسلم:

بالبِشر متسم: أي متصف ومشتهر بطلاق الوجه.

عن عبد الله بن جرير رضي الله عنه قال: «ما حجبني النبي صلى الله عليه وسلم منذ أسلمت ولا رآني إلا تبسم في وجهي». (صحيح البخاري،رقم:٦٠٨٩)

وفي حديث طويل في وصف النبي صلى الله عليه وسلم: «جل ضحكه التبسم».(الشمائل المحمدية للترمذي، رقم:٢١٥)

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه في وصف النبي صلى الله عليه وسلم: «وإذا ضحك كاد يتلألأ في الجُدُر».(مصنف عبد الرزاق، رقم:٢٠٤٩)

وفي حديث عائشة رضي الله عنها في وصفه صلى الله عليه وسلم: «كان أكرم الناس، وأحسن الناس خلقا،كان ضحاكا بساما».(تاريخ مدينة دمشق ٣٨٣/٣، صفة النبي صلى الله عليه وسلم. وقد روى ابن عساكر روايات كثيرة بهذا المعنى)

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: «ما رأيت ولا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث حديثا إلا تبسم».(مسند أحمد، رقم:٢١٧٣٢)

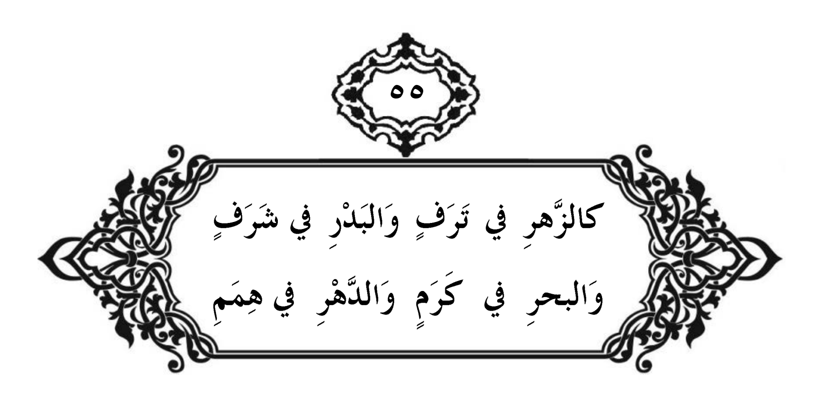
علاوة على هذه الروايات روى أصحاب الستة كثيرا من الأحاديث التي تفيد تبسمه صلى الله عليه وسلم قبل الحديث وبعده، وثمة روايات تفيد تبسمه صلى الله عليه وسلم حين أمر أحدًا بشيء.

والحاصل: أن النبي صلى الله عليه وسلم تعود طلاقة الوجه والتبسم للناس، علَّمَ أمته ذلك.

فائدة:

يقول الشراح: إن هذا البيت هو الرابع من الأبيات الستة التي اهتز النبي صلى الله عليه وسلم حين سمعها.

انتهى، ولله الحمد.



اللغة:

كالزهر: زهَرَ (ف) زهرا وزهورا: لمع، وأضاء، قَالَ تَعَالَى:﴿زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ (طه: ١٣١)

زهر (س) زهرا وزهارة وزُهورة: تلألأ وأشرق، وتفتح لونه. هو أزهر وهي زهراء.

وجه تسمية فاطمة رضي الله عنها بالزهراء:

سميت بالزهراء لحسنها واستنارة وجهها، ولا يصح القول بأنها كانت لا تحيض، فسميت الزهراء؛ فإن المرأة التي لا تحيض تكون عقيما، و لم تكن كذلك. (للاستزادة منه راجع: فتاوى دار العلوم زكريا ١/٨٨)

الزهر: (١) الريحانة وهي المراد، (٢) نور النبات. واحده: زهرة، ج: أزهار، جمع الجمع: أزاهير.

ترف: تَرَفَ: (س) تَرَفًا: نعم، ولطف. وسبق تحقيقه في البيت رقم:٣٠.

والبدر: بدَرَ (ن) إلى الشيء بُدورا: جرى، وأسرع.

وسمي هلال الليلة الرابعة عشرة؛ لأنه يطلع عقب ذهاب نور الشمس على الفور.

بادر مبادرة وبِدارا: سابق، تقدم، قَالَ تَعَالَى:﴿وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا﴾ (النساء: ٦)

ابتدرت عيناه: ذرفتا الدموع.

شرف: شرف (ف) شرفا: سمت منْزلته.

والدهر: دهَرَ (ف) نزل به مكروه، دَهْوَرَ الشيءَ: أسقطه في الهاوية.

الدَّهر: (١) مُدَّة الْحَيَاة الدُّنْيَا كلهَا. (٢) ألف سنة. (٣) الزَّمَان الطَّوِيل. (٤) الهمة والإرادة. ج: أدهار.

همم: هَمَّ (ن) همًا: عزم على الشيء، قَالَ تَعَالَى:﴿إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ

أَيْدِيَهُمْ﴾ (المائدة: ١١)

هَمَّ (س) هُمومةً وهمامة: صار الشيخ كبيرا فانيا. الهِمة: الإرادة، ج: هِمم.

الإعراب:

كالدهر: (١) خبر مبتدأ محذوف (هو). (٢) صفة لـــ(نبي).

في ترف: (١) الجار والمجرور متعلقان بالكاف، فإنها تتضمن معنى التشبيه، والتقدير: يشبه الزهر في ترف.

(٢) الجار والمجرور متعلقان بمحذوف، والتقدير: كالزهر باديا في ترف. ترف، شرف، كرم، همم: التنوين فيها عوض عن المضاف إليه، والتقدير: ترفه، شرفه وهكذا.

البدر معطوف على الزهر. وهو مجرور بالكاف، وعطف (في شرف) على (في ترف).

وفيه أن العطف على معمولي عاملين مختلفين لا يجوز إلا إذا تقدم المجرور. وعطف هنا على معمولي عاملين مختلفين (ك، في)، إلا أن المسوغ له تقدم (ك، في) فلا إشكال.

الشرح:

أجمل ذكر حسن صورة النبي صلى الله عليه وسلم وحسن سيرته في البيت السابق، وزاده هذا البيت إيضاحا بتوضيح المعقول بالمحسوس. والشطر الأول منه يتحدث عن صورته وخلقته الظاهرة، والشطر التالي يتناول حسن سيرته وأخلاقه صلى الله عليه وسلم. ذكر في هذا البيت أربع من صفاته صلى الله عليه وسلم:

الصفة الأولى: النضارة:

كالزهر في ترف: أي جسده الظاهر كالزهر في النضارة واللين. ورد هذا المعنى في عدة أحاديث، منها:

١- عن أنس رضي الله عنه قال: «ما مسست حريرا ولا ديباجا ألين من كف رسول الله صلى الله عليه وسلم، و لا شممت ريحا قط أو عرفا قط أطيب من ريح أو عرق النبي صلى الله عليه وسلم». (صحيح البخاري، رقم:٣٥٦١)

٢- عن أبي جحيفة رضي الله عنه قال: «خرج النبي صلى الله عليه وسلم

بالهاجرة... فأخذتُ بيده فوضعتها على وجهي، فإذا هي أبرد من الثلج، وأطيب رائحة من المسك». (صحيح البخاري، رقم:٣٥٥٣)

٣- عن المستورد بن شداد عن أبيه رضي الله عنه قال: «أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذت بيده فإذا هي ألين من الحرير، وأبرد من الثلج». (المعجم الكبير للطبراني ٧١١٠/٢٧٢/٧)

٤- عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: «صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم... فمسح خدي، قال: فوجدت ليده بردا أو ريحا كأنما أخرجها من جؤنة عطار». (صحيح مسلم، رقم:٢٣٢٩)

قال الحافظ في الجمع بينهما: إن المراد اللين في الجلد والغلظ في العظام فيجتمع له نعومة البدن وقوته... وحيث وصف بالغلظ والخشونة فهو بالنسبة إلى امتهانهما بالعمل؛ فإنه كان يتعاطى كثيرا من أموره بنفسه صلى الله عليه وسلم». (فتح الباري ٥٧٦/٦)

قلت: أما الروايات في طيب عرقه وفضله على سائر الأطياب فكثيرة، وفيه عن عمر وعلي وأم سلمة وأنس وأبي هريرة وعتبة بن فرقد السلمي، ووائل بن حجر ومعاذ بن جبل رضي الله عنهم أجمعين.

الصفة الثانية: علو منْزلته:

البدر في شرف: أي هو كالقمر في علو منْزلته،كما أن البدر يملأ الأرض نورًا، كذلك ملأ النبي صلى الله عليه وسلم العالم كله بأنوار الهداية.

كما لوحظت الأمور التالية في التشبيه بالبدر:

١- البدر التام أعلى وأشرف من الكواكب الليلية، كذلك النبي صلى الله عليه وسلم إنسان إلا أنه أعلى وأشرف المخلوقات.

٢- البدر هو القمر الكامل المتكامل، كذلك النبي صلى الله عليه وسلم متكامل من كل الجهات.

٣- نور البدر يعم الدنيا كلها، ويفرح به كل من رآه، كذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم.

٤- نور البدر يبعث الطمانينة والراحة، ولا تسأل عن الراحة التي كانت تسود

مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال الشاعر:

كالبدر، والكاف إن أنصفتَ زايدة ۞ فلا تظننها كافًا لتشبيه

وصفه صلى الله عليه وسلم بالبدر في الأحاديث:

(١) وردت عدة أحاديث بتشبيه النبي صلى الله عليه وسلم بالبدر، وسبق ذكرها، راجع: البيت، رقم:٤، ٣٨، ٤١.

(٢) يقول أهل العلم: من أسماء النبي صلى الله عليه وسلم البدرُ، يقول العلامة محمد يوسف الصالحي الشامي: «البدر: القمر المستكمل. سمي بدرا لتمامه صلى الله عليه وسلم ولكماله وعلو شرفه. وفي قصص الكسائي: «إن الله تعالى قال لموسى في مناجاته: «إن محمدا هو البدر الباهر والنجم الزاهر والبحر الزاخر».(سبل الهدى والرشاد ٤٣٩/١)

الصفة الثالثة: السخاء:

والبحر في كرم: فالنبي صلى الله عليه وسلم مثل البحر في السخاء والكرم.

يقول أهل العلم: السخاء على ثلاث درجات:

السخي: من أعطى البعض. والجواد: من بذل الأكثر. والكريم: من أعطى الكل. وكان النبي صلى الله عليه وسلم متصفا بهذه الصفة، فكان يبذل كل ما عنده في سبيل الله، ولا يحتفظ بشيء لنفسه.

وفي التشبيه بالبحر في السخاء إشارة إلى قوله تَعَالَىٰ:﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ (النحل: ١٤) كما أن فائدة البحر عامة وتامة، فالسحاب ينشأ عن البحر، ويمطر، كذلك دينه صلى الله عليه وسلم عام وتام.

أمثلة على جوده صلى الله عليه وسلم:

نسوق بعض الأمثلة على جوده وكرمه صلى الله عليه وسلم وإلا فإن الكلام عنه يحتاج إلى كتاب بمفرده:

١- ذات مرة أعطى النبي صلى الله عليه وسلم رجلا واديا من الشياه: عن أنس

رضي الله عنه قال: «إن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم غنمًا بين جبلين، فأعطاه إياه، فأتى قومه، فقال: أي قوم، أسلموا، فو الله إن محمدا يعطي عطاء ما يخاف الفقر». وفي رواية: «ما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام شيئا إلا أعطاه».(صحيح مسلم، رقم:٢٣١٢)

٢- وأعطى يوم حنين غير واحد مئة من الإبل: عن رافع بن خديج رضي الله عنه قال: «أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وعيينة بن حصن و الأقرع بن حابس كل إنسان منهم مئة من الإبل». (صحيح مسلم، رقم:١٠٦٠)

٣- عن جابر رضي الله عنه: «ما سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن شيء قط فقال: لا». (صحيح البخاري، رقم:٦٠٣٤)

٤- عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان، فيدارسه القرآن، فلَرسول الله صلى الله عليه وسلم أجود بالخير من الريح المرسلة». (صحيح البخاري، رقم:٦)

٥- أعطى النبي صلى الله عليه وسلم العباس مالا لم يستطع حمله: عن أنس رضي الله عنه: «أتى النبي صلى الله عليه وسلم بمال من البحرين، فقال: انثروه في المسجد، فكان أكثر مال أتي به رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ جاءه العباس، فقال: يارسول الله، أعطني؛ فإني فاديت نفسي وفاديت عقيلا. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: خذ. فحثا في ثوبه ثم ذهب يقلّه، فلم يستطع. فقال يارسول الله، اؤمر بعضهم يرفعه إلي، فقال: لا. قال: فارفعه أنت علي. قال: لا. فنثر منه. ثم ذهب يقلَّه فلم يرفع. ثم انطلق... فما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وثم منها درهم». (صحيح البخاري، رقم: ٤٢١)

سبق بيان شيء من جوده وسخائه في البيت رقم ٥، ضمن أسباب المحبة.

قال الشاعر:

هو البحر من أي النواحي أتيته ۞ فلجته المعروف والجود ساحله
كريم إذا ما جئت للعرف طالبا ۞ حباك بما تحوي به أنامله
ولو لم يكن في كفه غير روحه ۞ لجاد بها فليتق الله سائله

الصفة الرابعة: علو الهمة:

الدهر في همم: كان النبي صلى الله عليه وسلم مثل الدهر في علو الهمة والإرادة.

المعنى: (١) كما أن الدهر يقصد إكمالَ الشيء وهو سببه، مثل المولود إذا عاش كان شابا حين بلغ الخامس عشر من عمره، وسيبلغ الكمال حين يكون ابن أربعين سنة، وتمَّ ذلك في زمانٍ. كذلك عزم النبي صلى الله عليه وسلم أن يبلِّغ أهلَ الدينِ الذروةَ والكمال، وكذلك الدين. فالدهر يقصد إكمال الشيء إنماءه، فكذلك النبي صلى الله عليه وسلم نشر الدين إلى كل مكان وزمان.

وفي الحديث: «ليبلُغنّ هذا الأمر مبلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله هذا الدينَ بعز عزيزٍ وبذُل ذليلٍ، يُعِزّ بعزِّ الإسلامِ في الإسلام، ويُذِلّ به في الكفر». وكان تميم الداري يقول: «قد عرفت ذلك في أهل بيتي». (المستدرك، رقم:٨٣٢٦، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي)

المعنى (٢): المراد بالدهر أهله، أي أن عزيمته تعدل عزيمة من سيأتي إلى يوم القيام.

قال الشاعر:

له همم لا منتهى لكبارها ۞ وهمته الصغرى أجل من الدهر

له راحة لو أن معشار جودها ۞ على البركان البر أندى من البحر

نسب كثير من الناس هذا البيت إلى حسان بن ثابت رضي الله عنه، ولم نجده في ديوانه، وقيل: قالها بكر بن نطاح في مدح أبي دلف. (تاريخ مدينة دمشق ١٣٢/٤٩)

المعنى (٣): يظهر الزمان أحداثا وفجائع عظاما وعجائب كثيرة، فنسبت إليه مجازا، ومن عادة العرب أنهم يذكرون عزائم الدهر ويشبهون بها ممدوحهم، فمعنى البيت حينئذ: كما أن الزمان يشهد عظائم الأمور، والأحداث الجسام، ولا يمل الدهر أبدا، كذلك قام النبي صلى الله عليه وسلم طوال حياته بعظائم الأمور وعجائب المعجزات، وتعرض خلاله لأنواع من المصائب والأوضاع، دون أن تزحزج من عزيمته وإرادته، وهكذا أكمل النبي صلى الله عليه وسلم رسالته التي جاء بها.

لابد من المناسبة بين الفاعل الحقيقي والفاعل المجازي:

تُنسب الأشياء إلى الزمان مجازا عقليا، فإنها تحدث في الزمان. قال الشاعر:

أشاب الصغير وأفنى الكبير ۞ كر الغداة و مرّ العشي

يستدل به بعض الجهلة على أنه يجوز الاستمداد من غير الله تعالى مجازا (على معنى أن الله تعالى هو الفاعل ولكنا نطلب ذلك من الصلحاء)، كما يجوز نسبة الأشياء إلى غيره سبحانه وتعالى. وهذا باطل على الإطلاق:

١- لابد من المناسبة بين الفاعل الحقيقي والفاعل المجازي في المجاز العقلي، فمثلا حين ننسب الأشياء إلى الزمان فإن الزمان سبب أو ظرف ظاهر للأشياء، وأما الولي والصالح المتوفى الذي ننسب إليه النعمة فلا دخل له أصلا فيها. وذلك يدخل تحت الأسباب، وأما الاستمداد من الولي غيبا؛ فإنه يدخل فيما هو فوق الأسباب.

٢- أن الناس يعتبرون الزمان ظرفا غير مختار، وأما عامة الناس فيعتبرون الأولياء مانحين ومعطين لهم، وهو باطل.

والمجاز العقلي لا يخفى على أحد حقيقته فمثلا: أنبت الربيع البقل، لا يعتبر أحد الربيع فاعلا حقيقيا، وأما الذين يقولون: «إن فلانا من الصلحاء قد حقق أمري» أو: «رزقني ولدا» فإنهم يعتبرونه فاعلا حقيقيًّا، ولا يخفى خطورته، إذًا هو قياس من الفارق.

البلاغة:

١- في البيت أربعة تشبيهات مرسلات مفصلات:

التشبيه المرسل: ما ذكر فيه أداة التشبيه.

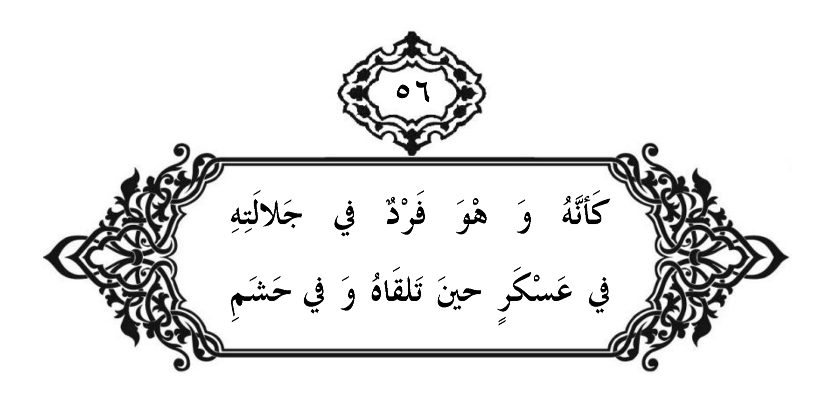
التشبيه المفصل: ما ذكر فيه وجه التبشيه.

فأداة التشبيه ووجهه مذكوران في المواضع الأربعة من البيت.

٢- قيل: هذه التشبيهات كلها من باب التشبيه المقلوب، فإن المشبه به أقوى بالنظر إلى وجه الشبه عامة، نحو: زيد كالأسد، فالأسد أشجع من زيد.

وأما التشبيه المقلوب فينعكس أمره، فمثلا: الأسد كزيد، الغرض من هذا التشبيه أن وجه الشبه أقوى في المشبه به. وقس عليه البيت، فإن الصفات: ترف، شرف، كر، همم: أقوى في النبي صلى الله عليه وسلم من المشبه به. والأصح أنه لا يلزم كون المشبه به أقوى، وإنما يكفيه الشهرة.

انتهى، ولله الحمد.



اللغة:

فرد: فرد (ن) انفرد وتوحد. أفرد: نحاه وعزله.

تفرد، انفرد: توحد في الأمر.

الفَرد: (١) المتوحد، انْفَرد. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدًا ﴾ (الأنبياء: ٨٩)

(٢) العدد ضد الزوج. (٣) الشخص. (٤) الذي لا مثيل له.ج: أفراد.

جلالته: جل (ض) جلالا وجلالة: (١) سمت منْزلته، (٢) كان ذا تجربة ومعرفة واسعة، هو رجل جليل، ج: أجلة، أجلاء، أجلال.

جل (ن) جُلولا: بعد عن وطنه. جلّ عنه: تَنَزَّه وتبرّأ.

أجل فلان: كان كبيرا وذا قوة. أجل فلانا: (١) عده كبيرا. (٢) عظَّمَه.

الجلالة: العظمة، السمو، والمنْزلة.

يقول أهل العلم: الكبير: عظيم الذات، والجليل: عظيم الصفات. والعظيم يعمهما.

عسكر: العسكر: (١) الفوج، الجند. (٢) شطر الشيء. يقال: عسكر من الرجال والخيل. وهو مأخوذ من العسكرة، وهي بمعنى الشدة.

الجيش له أسماء عدة بالنظر إلى قدره:

يقول علماء اللغة: الجيش له أسماء عدة بالنظر إلى قدره: أقل العساكر:

الجريد: وهي قطعة جردت من سائرها لوجه.

ثم السرية: وهي من خمسين إلى أربع مئة.

ثم الكتيبة: وهي من أربع مئة إلى ألف.

ثم الجيش: وهو من ألف إلى أربعة آلاف، وكذلك الفيلق والجحفل.

ثم الخميس: هو من أربعة آلاف إلى اثني عشر ألفا، والعسكر يجمعها.(فقه اللغة، ص٢٢٧)

تلقاه: لقي (س) لقاءً وتلقاءً ولقيانا: (١) صادفه، وواجهه. (٢)حصله، وناله.

ألقى الشيء: قذفه، ورماه. ألقى القرآن: أنزله.

ألقى إليه بالا: عني به، ألقى الكلمة: خطب.

حشم:

حشم (ض) حُشوما: حيي، انقبض، حشم (س) حَشَمًا: (١)حيي، (٢) غضب.

حشم: حشم الرجل: من يغضبون له أو يغضب لهم، مثل الخدم والعبيد وغيرهم.

احتشم: (١) استحيى، (٢) غضب. احتَشَم: (٣) سلك في حياته سلوكا حميدا.

الإعراب:

محمد :مبتدأ محذوف، و(كأنه) الخ: خبره.

كأنه: حرف تشبيه، متعلقه محذوف، والتقدير: كأنه (واقف) في عسكر.

هو فرد: الواو حالية، والحال أنه فرد.

في جلالته: (١) وجه الشبه في قوله:(كأنه)، وإيضاحه ما يلي:

المشبه: كونه منفردا. المشبه به: كونه في عسكر. وجه الشبه: في جلالته.

أي أنه سواء في الحالين.

(٢) في سببية: كان النبي صلى الله عليه وسلم يبدو جيشا بأكمله لما ألقى عليه من المهابة والجلال، وإن كان منفردا.

(٣) في جلالته: حال.

في عسكر: الظرف متعلق بمحذوف، تقديره: (كأنه واقف) في معسكر.

حين تلقاه: ظرف للتشبيه الذي يتضمنه (كأن)، والتقدير: كأنه عند ملاقاتك له في حشم، وهو تاكيد لقوله: في عسكر.

وعلى التفصيل المذكور آنفا معنى البيت بأيسر تعبير: حاله عند لقائك إياه منفردا

يشبه حاله وهو في العسكر، لأجل هيبته، أو: حين تراه منفردا فهو لأجل هيبته كأنه واقف في العسكر.

الشرح:

معنى البيت:

(١) كما أن الإنسان لا يخاف أحدا حين يصحبه حشمه وخدمه، كذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم بلغ من الشجاعة ما جعله لا يخاف وإن كان منفردا.

(٢) إن انفراده وكونه في جيش العدو سيان، فإنه لم يكن يخاف في شيء منهما.

(٣) قد بلغ الكفار والأعداء من الفزع منه صلى الله عليه وسلم ما يجعلهم يخافونه وإن كان منفردا كما لو كان معه جيش من أصحابه.

حين تلقاه: (١) تزوره. (٢) تواجهه.

في جلالته: سبق بيان معناه، وفي بعض النسخ: «من جلالته». فحينئذ:

(١) جملة تعليلية، أي وضعهم هذا من أجل مهابته صلى الله عليه وسلم. (٢) مفعول لأجله، وحاصلهما واحد.

وفي حشم:

في بعض النسخ: «وفي بُهُمِ». والبُهُم: جمع «بُهْمة». وهو الفارس الذي لا يعلم من أين يأتي، والجندي المباغت. وحينئذ المراد بالعسكر: المشاة منه، والمراد بالبهم: الفرسان منه.

قال بعض الشراح: هذه النسخة أحسن، فإن (البُهُم) مع (العسكر) تأسيس يفيد معنى غير المعنى الأول. وأما على النسخة السابقة فإن (حشم) تأكيد لـــ(عسكر). فإن الخدم والعسكر بمعنى واحد. والتأسيس أولى من التأكيد.

في هذا البيت بيان لشجاعة النبي صلى الله عليه وسلم.

شجاعته صلى الله عليه وسلم في وجه الكفار:

(١) إن الهجوم المباغت الذي شنه خالد بن الوليد يوم أحد زحزح أقدام كبار الشجعان، وأما النبي صلى الله عليه وسلم فقد ثبت وصمد له، ولم يحد عن موقفه قيد

أنملة، فإن الجبل قد ينحسر عن مكانه وأما أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم جبانا فهيهات وهيهات. إن شجاعة نبي واحد من الأنبياء يفوق شجاعة العالم كله.

جاء في دلائل النبوة: «عن المقداد بن عمرو فذكر حديث يوم أحد... والذي بعثه بالحق إن زال رسول الله صلى الله عليه وسلم شبرا واحدا، إنه لفي وجه العدو، وتثوب إليه طائفة من أصحابه مرة وتفرق منه مرة، وثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم كما هو، في عصابة صبروا معه».(دلائل النبوة للبيهقي٣/٢٦٤)

ذكره علي المتقي في «كنْز العمال» عن الواقدي بأوسع منه.

(٢) تفرق أصحابه صلى الله عليه وسلم عنه يوم حنين، أما هو فقد ثبت وصمد.

روي أن البراءَ سأله رجل من قيس: «أفررتم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين؟ فقال: لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفرَّ».(صحيح البخاري، رقم:٤٣١٧)

وعن أنس بن مالك قال: «لما كان يوم حنين... فأدبر عنه حتى بقي وحده». (صحيح البخاري، رقم:٤٣٣٧)

(٣) يحمي وطيس الحرب فيكون رسول الله صلى الله عليه وسلم أدنى الناس إلى الكفار، ويتقي به أصحابه.

قال البراء: «كنا والله إذا احمر البأس نتقي به، وإن الشجاع منا للذي يحاذي به». (صحيح مسلم، رقم:١٧٧٦)

وفي رواية: «كنا إذا حمي البأس ولقي القومُ اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم، فلا يكون أحد منا أدنى إلى القوم منه». (المستدرك على الصحيحين، رقم:٢٦٣٣)

شجاعته صلى الله عليه وسلم و هيبتهم منه في عموم الأحوال:

ما أكثر الأمثلة على ذلك، نكتفي بسوق بعضها:

(١) ورد في تفسير الرازي و روح البيان وغيرهما من التفاسير أن أبا جهل كان وصيا ليتيم، ماله عنده. فجاءه اليتيم يسأله شيئا من مال نفسه، فأبى وأساء إليه أيما إساءة، فقال له أكابر قريش: قل لمحمد يشفع لك، وكان غرضهم الاستهزاء ولم يعرف اليتيم ذلك، فجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم والتمس منه ذلك، فذهب معه إلى أبي جهل

فبذل المال لليتيم فعيره قريش فقالوا: صبوت، فقال: لا والله ما صبوت، لكن رأيت عن يمينه وعن يساره حربة خفت إن لم أجبه يطعنها فيّ». (تفسير الرازي، سورة الماعون؛ تفسير النيسابوري ٥٧٢/٦؛ روح البيان ٥٢٢/١٠).

ساقت هذه الكتب التفسيرية هذه القصة بغير إسناد و لم نجدها في غيرها من مصادر التفسير والحديث، وساقها الشيخ عبد العزيز في التفسير العزيزي (جزء عما يتساءلون، ص ٤٨٠ -٤٨١) على عكس ذلك حيث قال: توجه النبي صلى الله عليه وسلم – نصحا لهذا اليتيم- إلى أبي جهل، وخوفه من سؤال يوم القيامة، فقابل أبو جهل هذا النصح بالرفض وتكذيب يوم الدين، فحزن النبي صلى الله عليه وسلم وعاد إلى بيته، ثم نزلت هذه السورة (سورة الماعون)».

٢- ذات مرة قال أبو جهل: واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك -الصلاة- لأطأن على رقبته قال: فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي، زعم ليطأ على رقبته، قال: فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه، قال: فقيل له: ما لك؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقا من نار وهَولاً وأجنحةً».(صحيح مسلم، رقم:٢٧٩٧)

٣- قال ركانة بن يزيد -وكان من أشد الناس- لرسول الله صلى الله عليه وسلم: لو صرعتني لآمنت بك. فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فصرعه. فآمن. وكان ذلك في وادي الإضم. (السنن الكبرى١٨/١٠. مصنف عبد الرزاق ٤٢٧/١١. دلائل النبوة للبيهقي ٢٥٠/٦، . الخصائص الكبرى ٢١٣/١، باب الآية في مصارعة صلى الله عليه وسلم ركانة)

روي ذلك عن سعيد بن جبير مرسلاً وعن ابن عباس رضي الله عنهما موصولا.

١- الإسناد المرسل: قال البيهقي:جيد. وتعقبه ابن التركماني فقال: كيف، وفي الإسناد حماد بن سلمة الذي قال فيه البيهقي في باب من مر بحائط إنسان: ليس بالقوي. والحق أن حماد بن سلمة ثقة ثبت، من رجال الصحيحين، فالإسناد مرسل صحيح.

٢- الإسناد الموصول: قال البيهقي: ضعيف. وسرد ابن القيم في كتابه «الفروسية» (٢٠٢) الإسناد الموصول، ثم قال:« هذا إسناد جيد متصل». غير أن الإسناد الذي ذكره ابن القيم فيه عبد الله بن يزيد المدني الصغير، وهو راوٍ ضعيف، فالإسناد موصول ضعيف. فالأولى أن يكون الحديث حسنا لغيره لأن هذا الإسناد قد تأيد بمرسل صحيح. والله

أعلم.

٤- «نصرت بالرعب مسيرة شهر». (صحيح البخاري، رقم:٤٣٨)

٥- عن علي قال: «من رآه بديهة هابه».(سنن الترمذي، رقم:٣٦٣٨)

٦- وقال أبوسفيان في حديث هرقل: «(وهو يومئذ كافر): إنه يخافه ملك بني الأصفر». (صحيح البخاري، رقم:٧)

٧- عن أنس قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وأشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ليلة فخرجوا نحو الصوت، فاستقبلهم النبي صلى الله عليه وسلم على فرس لأبي طلحة عُريٍ، وفي عنقه السيف، وهو يقول: لم تُراعُوا، لم تُراعُوا».(صحيح البخاري، رقم:٢٩٠٨)

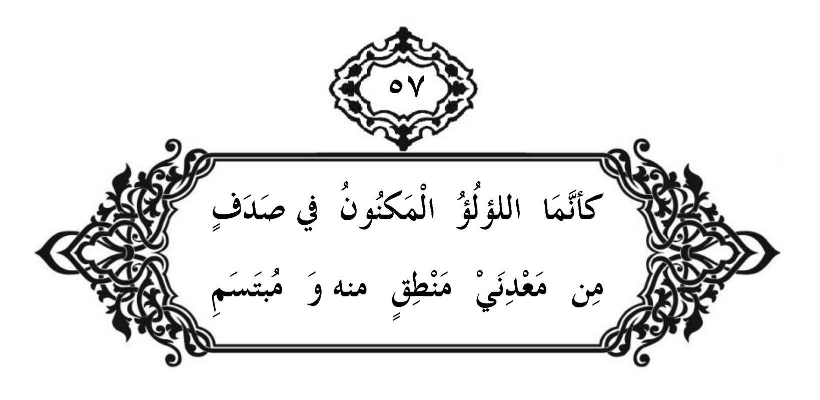
٨- الهيبة عند ذكر اسمه صلى الله عليه وسلم:

قال القاضي عياض: «كان مالك إذا ذكر النبي صلى الله عليه وسلم يتغير لونه هيبة منه وينحني».

وسئل ذات مرة فقال: كان محمد بن المنكدر وجعفر بن محمد وعبد الرحمن بن القاسم وعامر بن عبد الله بن الزبير ومحمد بن شهاب الزهري وغيرهم من المحدثين إذا حدثوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتعدوا وخافوا. (الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ص٤١-٤٢)

انتهى، ولله الحمد كله.

****



اللغة:

اللؤلؤ: لألأ النجم: لمع. تلألأ النجم: لمع في اضطراب. اللآل: بائع اللآلي.

اللؤلؤ: الدر. واحده: لؤلؤة. ج: لآلي.

المكنون: كنَّ (ض) كُنونا: اكتتم، غاب. كَنَّ (ن) كنا: كتمه.

أكنَّ: كتمه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ (القصص: ٦٩)

المكنون: المكتوم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ (الطور: ٢٤)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ (الصافات: ٤٩)

صدف: صدَفَ (ض) صَدْفًا وصُدوفا: زال، أعرض، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ (الأنعام: ٤٦)

صدَف فلانا عن الشيء: منعه.

صدِفَ (س) صدفا: أَقبلت إِحْدَى رُكْبَتَيْهِ على الأُخْرَى حِين الْمَشْي.

صادف: حاذاه.

الصدف: غشاء الدرة.

صدفة: ج: أصداف.

ربما سمي الصدف صدفا ؛لأنه يزال فيخرج منه الدر.

معدنَي:

عدَن (ض) عَدنا وعُدوانا: أقام.

العدنيات: الثياب المنسوبة إلى عدن، وكل شيء حسن، ورجل عدني: ذو خلق طيب.

المعدن:(١) مركز كل شيء، والمصدر، (٢) مكان كل شيْء فيه أصله ومركزه وموضِع اسْتِخراج الذهب والفضة من الأرض. ج: معادن.

منطق: نطق (ض) نطقا ومنطقا: تكلم.

المنطق: الميم مصدرية بمعنى النطق، وفي الحديث: «و زِنا اللسان المنطق».(صحيح البخاري، رقم:٦٢٤٣)، أو هو ظرف بمعنى مكان التكلم.

مبتسم: بسم (ض) بسما وابتسم وتبسم: انفرجت شفتاه عَن ثناياه ضَاحِكا بِدُونِ صَوت. وهو باسم وبسام.

الْمَبسم: (١) السِّن، (٢) الفَم. (موضع البسم).

مبتسم: الميم مصدرية بمعنى الابتسام أو ظرف بمعنى مكان الابتسام.

الإعراب:

كأنما اللؤلؤ: يقدر قبله مبتدأ، أي:كلامه كأنما اللؤلؤ المكنون في صدف.

(كأن) الكاف للتشبيه و(ما) كافة منعت الكون من العمل. اللؤلؤ المكنون: الصفة والموصوف مبتدأ. في صدف: متعلق بـــ (المكنون)، و(عن معدنَي منطق) الخ متعلق بـــ(مستخرج) خبر، و المبتدأ مع خبره خبر لقوله: (كلامه)، والجملة اسمية. وهذا أيسر الأعاريب فيه.

وثمة أعاريب أخرى، منها: اللؤلؤ المكنون: مبتدأ، و(في صدف) خبر، و(من معدنَ منطق) متعلق بـــ (مستخرج) حال من اللؤلؤ.

الإضافة بمعنى اللام إذا كانت الميم في (منطق، ومبتسم) مصدرية، أي معدنين للمنطق والابتسام. والإضافة بيانية إذا كانت ظرفية، أي: معدنان هما: محل الكلام والابتسام.

وحذِفَ (منه) بعد (مبتسم)، لأنه ذكِرَ بعد قوله: (منطق).

خلاصة البيت: كلامه كائن/ لامع/ نظيف كاللؤلؤ المحفوظ في صدف مستخرج من معدن منطقه ومعدِن مبتسمه.

الشرح:

اللؤلؤ: الدر المصون في الصدف غالٍ، ومصون من الغبار. وحين ينفتح فم الصدف

إلى السماء، يقع فيه قطرة فيتكون درا. ولله در القائل:

كماء صار في الأصداف دُرًّا ۞ وفي شِدْق الأفاعي صار سَمًّا

فإن انغلق فم الصدف بعد ما وقع فيه قطرة من الماء كان دُرًّا يتيما، وغلا ثمنه. وإن وقع فيه قطرتان قيل: دُرّتان. وينْزل ثمن الدرة كلما ازدادت قطرات الماء في الصدف.

من هو اليتيم؟:

اليتيم في الحيوان من لا أم له، وفي الإنسان من لا أب له، وفي الدرر ما انفرد في الصدف.

معنى البيت:

كلامه صلى الله عليه وسلم الصافي كالدر المصون في الصدف، ولا غبار عليه. وإنما وصفه بالمكنون لأن الدر المكتوم لا يصل إليه الغبار، كما أن الدر في الصدف أحسن منه في غيره.

فكلامه صلى الله عليه وسلم كالدر في الحسن والصفاء.

شُبِّه تبسمه صلى الله عليه وسلم بالدر، فإنه كان يخرج من فيه النور حين يتبسم كما يلمع الدر.

معدن منطق: (١) المراد به اللسان، لأن الإنسان يتكلم به.

(٢) المراد به القلب، لأن محل الكلام في الأصل هو القلب.

قال الأخطل:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما ۞ جُعِل اللسانُ على الفؤاد دليلا

(شرح شذور الذهب، ص ٣٥)

فالمعنى حينئذ: كما أنه يحسُن ظرف الدر/ الصدف، ويحفظ الدر، ثم ينفع المرء حين الحاجة إليه، كذلك كان قلبه صلى الله عليه وسلم -الذي يصدر منه الكلام- صافيا نظيفا من الأرجاس، قد تم غسله مرات بأمر الله تعالى، ثم إن قلبه صلى الله عليه وسلم ظرف للقرآن و الوحي ويصونه، وينفع البشر، مما لا يخفى.

فائدة:

وإنما ذكر الناظم رحمه الله عليه وسلم في الوصف معدن المنطق(اللسان) ومعدن

التبسم (الأسنان) كليهما؛ لأن الكلام الحسن ينشأ عن اتصال اللسان والأسنان.

أسلوب كلام النبي صلى الله عليه وسلم المنقطع النظير:

(١) كان يتمهل في كلامه: عن جابر رضي الله عنه قال: «كان في كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ترتيل أو ترسيل». (سنن أبي داود، رقم:٤٨٣٨)

ذات يوم كان أبوهريرة رضي الله عنه يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت عائشة رضي الله عنها: «لم يكن كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم هكذا. وقالت: ألا يعجب أبو هريرة جاء فجلس إلى جنب حجرتي... ولو أدركته لرددت عليه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يسرد الحديث كسردكم هذا». (صحيح مسلم، رقم:٢٤٣٩)

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم كلاما فصلا يفهمه كل من سمعه». (سنن أبي داود، رقم:٤٨٣٩)

وفي رواية: «يتكلم بكلام بينه فصل، يحفظ من جلس إليه».(سنن الترمذي، رقم: ٣٨٣٩)

(٢) كان يعيد الكلام -إذا كان ذا بال- ثلاث مرات: عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثا حتى تفهم عنه».(صحيح البخاري، رقم:٩٥)

وفي هذا المعنى أحاديث كثيرة.

(٣) كان يتبسم حين الكلام: عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: «ما رأيت أو سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث حديثا إلا تبسم».(مسند أحمد، رقم:٢١٧٣٢)

(٤) كان يرفع بصره إلى السماء في الكلام، يقول الشيخ يحيى الكاندهلوي رحمه الله: في هذا الحديث إشارة إلى أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن يغفل - في حديثه- عن أصل قصده وهو الوحي النازل من السماء... ففيه درس لكل داعٍ وهو ألا يغفل عن الله تعالى لأجل انشغاله في الدعوة.

عن عائشة رضي الله عنها: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جلس يتحدث يكثر من أن يرفع طرفه إلى السماء».(سنن أبي داود، رقم:٤٨٣٧،. بذل المجهود ٢٥٨/١٣)

(٥) كان يكثر من السكوت ولا يتكلم إلا عند الحاجة إليه: جاء في حديث طويل لهند بن أبي هالة في وصفه صلى الله عليه وسلم: «لا يتكلم في غير حاجة، طويل السكوت، يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه، ويتكلم بجوامع الكلم، فصل، لا فضولَ ولا تقصيرَ».(المعجم الكبير للطبراني٢٢/١٥٥/٤١٤؛ ورواه الترمذي بفرق يسير)

جوامع الكلم: ألفاظ قليلة لها معانٍ جزيلة/ ألفاظ يسيرة لها معانٍ كثيرة.

(٦) كان يكني عما لا يحسن التصريح به، كما في حديث امرأة رفاعة: «حتى تذوقي من عسيلته».(صحيح البخاري، رقم:٥٣١٧)

وفي هذا الباب أحاديث كثيرة. للاستزادة من وصف كلامه صلى الله عليه وسلم راجع: سبل الهدى والرشاد ٧/١٢٩-١٥١.

وكان يتكلم فكأن النور يخرج من بين ثناياه، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أفلج الثنيتين، إذا تكلم رئي كالنور يخرج من بين ثناياه».(سنن الدارمي، رقم:٥٩)

وفي حديث آخر: «إذا افترَّ ضاحكا عن مثل سنا البرق، وعن مثل حب الغمام».(الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ص ٦٠).

وسبق تفصيل تبسمه صلى الله عليه وسلم في شرح البيت رقم: ٥٤.

طلب الإبرة في شعاع النور الذي يخرج من بين ثناياه صلى الله عليه وسلم:

ولا يصح ما روي أن نورا خرج من بين ثناياه فطلبت عائشة الإبرة في ضوئه، رواه في تاريخ دمشق، ونقل عنه بعض كتب السيرة. أخبرنا أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الفاضل... عن عروة بن الزبير عن عائشة قالت: استعرت من حفصة بنت رواحة إبرة أخيط بها ثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسقطت مني الإبرة، فطلبتها فلم أقدر عليها، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتبينت الإبرة من شعاع نور وجهه، فضحكت، فقال: «يا حميراء، لم ضحكتِ؟» قلت: كان كيت وكيت، فنادى بأعلى صوته: «يا عائشة، الويل ثم الويل ثلاثا لمن حرم النظر إلى هذا الوجه، ما من مؤمن ولا كافر إلا ويشتهي النظر إلى وجهي». (تاريخ دمشق لابن عساكر ٣/٣١٠. دلائل النبوة لأبي القاسم

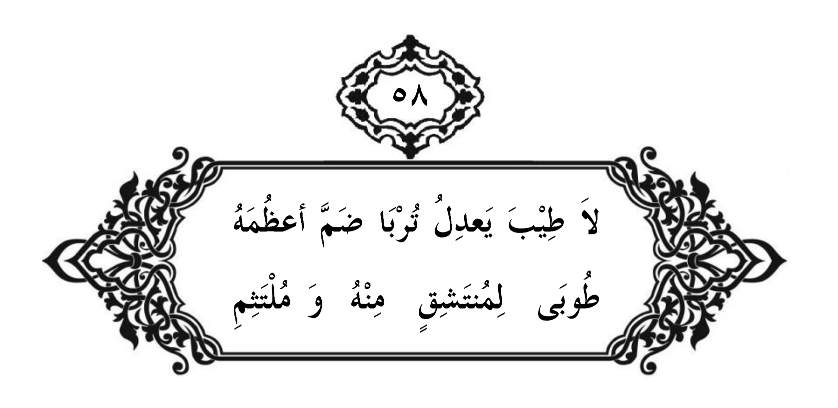
إسماعيل بن محمد الأصفهاني (ت٥٣٥هـ) ١١٣/١. حكاه السيوطي في الخصائص الكبرى ١٠٩/١، باب في وجهه الشريف صلى الله عليه وسلم عن ابن عساكر، كذلك حكاه في كنْز العمال(٤٢٩/١٢) عن ابن عساكر و الديلمي)

في إسناده مسعدة بن بكر الفرغاني، متهم، فلا يصح الحديث. يقول الذهبي في ميزان الاعتدال (٩٨/٤): «مسعدة بن بكر الفرغاني عن محمد بن أحمد بن عون بخبر كذب».

يقول الشيخ عبد الحي اللكنوي: «ومنها أنه في ليلة من الليالي سقطت من يد عائشة إبرة ففقدت فالتمستها و لم تجد، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم وخرجت لمعة أسنانه، فأضاءت الحجرة، ورأت عائشة بذلك الضوء إبرته».

هذا وإن كان مذكورا في «منهاج النبوة» وغيره من كتب السير الجامعة للرطب واليابس فلا يستند بكل ما فيها إلا النائم الناعس، ولكنه لم يثبت رواية ودراية....». (الآثار المرفوعة في الأخبار الموضوعة، ص ٤٥)

****



اللغة:

طيب: طاب (ض) الشيء طيبا وطيبة: (١) زكا وطهر. (٢) جاد. (٣) لَذَّ. (٤)صار حلالاً. (٥) صار ذا طيب.

أطاب: أحسن العمل. طيَّبَ: (١) جعله طيبا، (٢) جعله حلالا.

وفي الشطر الثاني من البيت: طوبى، وهو من هذه المادة.

ما أصل طوبى؟

أصله طُيْبَى، لأنه من الطيب، استثقلت الضمة قبل الياء فاستبدلت واوًا، فكان طوبى، كما في (موقن، وموسر)، أصله: ميقن وميسر؛ لأنه مأخوذ من اليقين واليسر. (تفسير الكشاف ٣/٢٤٩)

ما وزن طوبى؟ (١) اسم مفرد مصدر من طاب يطيب، نحو رجعى وبشرى وأمثالهما.

(٢) طوبى: جمع: طيبة، نحو :كوسى جمع كيسة، وضوقى جمع ضيقة.

معاني «طوبى»:

فيه أقوال عدة، خلاصتها ما يلي:

١- الخير، ٢- الفرح، ٣- قرة العين، ٤- النعمة، ٥- اسم شجر في الجنة، ٦-كل شيء رائع في الجنة، ٧- العز الأبدي/ النعمة السرمدية. تكلم عليه المفسرون مفصلا في تفسير الآية ٢٩ من سورة الرعد.

إطلاقات لفظ «طوبى»:

يرد في أول الكلام، (١) لأنه عَلَم. (٢) أو لأنه بمعنى الدعاء، فطوبى لك مثل سلام

عليك.

وإطلاقه على وجهين: طوباك، وطوبى لك. والمعنى: أصابك الخير. والخير يعم كل ما ذكر آنفا. (تفسير البغوي ٢١/٣)

يَعدل: عَدَلَ الشيءَ بالشيء: سواه به، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (الأنعام: ١)

ومر تحقيقه في البيت رقم: ٦.

تُربا: تَرِبَ (س) تَرْبًا: أصابه التراب، لصق به الغبار. ترِب فلان: افتقر واحتاج.

تَربت يداك: يطلق عند الزجر والتوبيخ، وليس معناها الحقيقي مرادا.

أترَب: من الكلمات الأضداد: (١) الفقير. (٢) الغني.

تارَبَ: صادقه. تَرَّب الكتابَ: وضع التراب على المكتوب. التُرب: لغة في التراب.

التِّرب: المماثل في السن، صديق الصبا، (ج) أتراب، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾ (ص: ٥٢)

متربَة: الفقر والحاجة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ (البلد: ١٦)

ضَمَّ: (ن) ضمًّا: أضافه إليه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ (طه: ٢٢)

ضَمَّ الحرفَ: حرّكه بالضم. ضامَّه إليه: أضافه إلى نفسه، اضطم/ انضم: اجتمع بعضه إلى بعض.

أعظمه: عظم: القصب الذي عليه اللحم، ج: عظام، أعظم.

منتشق: نشقَ (س) نشقا في الحبالة: وقع في الشبكة أو الحبالة.

نشق الرائحة نَشْقًا ونَشَقًا، وتنشق، انتشق واستنشق: شمه.

استنشق: جذب الماء إلى منخريه بالنفس.

ملتثم: لَثَمَ (ض) لَثْمًا: قبله. لثم فاه: غطاه. التثمت المرأة: غطت وجهها بالثوب.

اللثام: النقاب، ثوب تضعه المرأة على وجهها.

الإعراب:

لا طيب يعدل:

لا: لنفي الجنس، طيب: اسمها، وجملة: يعدل تربا: خبرها.

تربا ضم: (تربا): موصوف، (ضم أعظمه) الجملة صفة أولى له، و(طوبى لمنتشق) صفة ثانية له. (هذا واحد من الأعاريب فيه).

طوبى لمنتشق (١) صفة لـــ(تربا)، أي تراب بورك فيمن شمه. (٢)الجملة مستأنفة، (طوبى) مبتدأ، (لمنتشق) خبره، وحذف (منه) بعد قوله: (ملتثم)، لدلالة (منه) بعد (منتشق).

الشرح:

بدأ الناظم بذكر فضائل النبي صلى الله عليه وسلم ومحاسنه في الحياة الدنيا، وانتهى إلى ذكر حاله صلى الله عليه وسلم في نهاية هذا الفصل. كما يؤخذ منه أن ما يتعلق به صلى الله عليه وسلم من الأشياء مبارك فيه.

يقول أهل العلم: من تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم احترام ما يتعلق به من الأشياء.

لا طيب يعدل: ما المراد بالطيب؟

(١) طيب تراب قبره صلى الله عليه وسلم يفوق سائر الأطياب عند الله تعالى.

يقول العلامة سعدي:

گلے خوشبوئے در حمام روزے ۞ رسید از دست محبوبے بدستم
بدو گفتم کہ مشکے یا عبیرے ۞ کہ از بوئے دلآویز تو مستم
بگفتا من گلے نا چیز بودم ۞ ولیکن مدتے باگل نشستم
جمال ہم نشیں در من اثر کرد ۞ وگرنہ من ہماں خاکم کہ ہستم

نقل هذه الأبيات الفارسية العلامة بشير الغزي الحلبي إلى العربية، بالنظم فقال:

رأيت الطين في الحمام يوما ۞ بكف الحب أثر ثم نسَّم
فقلت له: أمسك أم عبير ۞ لقد صيرتني بالحب مغرم
أجاب الطين أني كنت تربا ۞ صحبت الورد صيرني مكرم
ألفت أكابرا وازددت علما ۞ كذا من عاشر العلماء يكرم

(تعليقات الشيخ عبد الفتاح أبو غدة على رسالة المسترشدين، ص١٦٣؛ المختار من فرائد النقول والأخبار للشيخ محمد عوامة ١٠٠/٣)

ذكر الشراح أن قبر الإمام البخاري فاح بالطيب عدة أيام. واشتم غير واحد من الناس الطيب من قبر الشيخ أحمد علي اللاهوري، ولايزال شهود عيانه ليومنا هذا.

(٢) المراد بالطيب الطيب الحقيقي، وليس المراد طيب الحب أو طيب قرب الله تعالى، وإن كان هذا الطيب لا يحظى به إلا من له الحب الصادق، والتوجه الكامل، والتقرب إلى الله تعالى وغيرها من الصفات، وهذا المعنى أقرب إلى اللفظ، وموافق لواقع الأمر.

ورد كثير من الأحاديث بأن طيب جسده يفوق سائر الأطياب. عن عائشة رضي الله عنها: «ما شممت عنبرا قط و لا مسكا ولا شيئا أطيب من طيب رسول الله صلى الله عليه وسلم».(صحيح مسلم، رقم:٣٢٣٠)

سبق ذكر بعض الأحاديث بهذا المعنى في البيت، رقم:٥٥. فإذا كان جسده الطاهر على هذه الحال، فلا بد أن يتأثر التراب الذي اتصل به جسده المبارك، فهذا التراب وهذا الطيب يفوقان سائر الأطياب والأتربة. قالت فاطمة رضي الله عنها:

ماذا على من شم تربة أحمد ۞ ألا يشم مدى الزمان غواليا

الجزء المتصل من الأرض بجسده المبارك أفضل البقاع:

الجزء المتصل من الأرض بجسده المبارك أفضل الأشياء. وفي الحديث: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة». (صحيح البخاري، رقم:١١٩٥)

وقبره في بيته وهو من رياض الجنة.

حكيَ اتفاق أهل العلم على أن الجزء المتصل من الأرض بجسده المبارك أفضل الأشياء والأجزاء. وقيل: هو أفضل حتى من الكعبة والعرش.

قال القاضي عياض: «ولا خلاف أن موضع قبره أفضل بقاع الأرض».(الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ص ٥١)

وقال محمد بن يوسف الصالحي: «نقل أبو الوليد الباجي والقاضي عياض وغيرهما الإجماع على تفضيل ما ضمّ الأعضاء الشريفة حتى على الكعبة كما قاله أبو اليمن بن عساكر في تحفته، وجزم بذلك أبو محمد عبد الله بن أبي عمر البِسْكَرِي رحمه الله.

جزم الجميع بأنّ خير الأرض ما ۞ قد حاط ذات المصطفى وحواها

بل نقل القاضي تاج الدين السبكي عن ابن عقيل الحنبلي أنها أفضل من العرش، وجزم بذلك أبو عبد الله محمد بن رزين البحيري الشافعي... وقال النووي: المختار الذي عليه الجمهور أن السماوات أفضل من الأرض، أي ما عدا ما ضم أعضاءه الشريفة».(سبل الهدى والرشاد ٣/٣١٥-٣١٦، وينظر: مرقاة المفاتيح ٢/١٩٠. رد المحتار ٢/٦٢٦)

أبى ذلك ابن تيمية رحمه الله، وقال: «التربة التي دفن فيها النبي صلى الله عليه وسلم فلا أعلم أحدا من الناس قال: إنها أفضل من المسجد الحرام أو المسجد النبوي أو المسجد الأقصى، إلا القاضي عياض، فذكر ذلك إجماعا، وهو قول لم يسبقه إليه أحد فيما علمناه، ولا حجة عليه؛ بل بدن النبي صلى الله عليه وسلم أفضل من المساجد».(مجموع الفتاوى ٢٧/٣٧).

طوبى لمنتشق منه وملتثم:

فيه إشارة إلى نوعين من الطيب، فمنه ما يُشم، ومنه ما يضمخ.

والمراد بالانتشاق واللثم أن الذين تولوا دفنه أو قربوا إليه لا شك أنهم اشتموا التربة، ولامست أفواههم، فهم يستحقون التهنئة والسعادة، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان طيبا حيا وميتا.«طبت حيا وميتا». (صحيح البخاري، رقم:٣٦٧٦)

ولا يعني ذلك أن نقبل قبره أو أرضه، جاء في شرح المناسك للقاري: «ولا يمس عند الزيارة الجدار، ولايطوف ولا ينحني، ولا يقبل الأرض؛ فإنه أي كل واحد بدعة، أي غير مستحسنة فتكون مكروهة».(إرشاد الساري إلى مناسك القاري، ص ٧٢٥)

نعم اختلف أهل العلم في حمل تراب الحرم، فذهب الأكثرون إلى أنه لا بأس بحمل شيء يسير منه تبركا، وقيل: لا ينبغي حمله منه. والحرم المدني يعدل الحرم المكي في الحرمة والبركة. وإن اختلفا في بعض الأحكام عند الأحناف، جاء في شرح مناسك القاري: «ولا حرج بإخراج تراب الحرم وأشجاره اليابسة والإذخر مطلقا، وماء زمزم للتبرك وتراب البيت. هذا إذا أخرج قدرا يسيرا للتبرك. وأطلق في «البحر الزاخر» عدم جواز إخراج التراب والأحجار».(ص ٦٨٥)

ضم أعظمه:

اعتراض على التعبير عن جسده الطاهر بالأعظم وجوابه:

الاعتراض: ذكر الأعظم، وظاهرهُ يوهم أن لحمه قد أكله التراب، ولم يبق غير الأعظم، وقد ورد في الحديث: «إن الله تبارك وتعالى حرم على الأرض أجساد الأنبياء». (سنن أبي داود، رقم: ١٥٢١)

الجواب: (١) أطلق الجزء وأراد به الكل، فالمراد بـــ (أعظمه) هنا الجسد كله، وإنما صرح بالعظام لأن الجسد يستقيم ما استقامت العظام.

وإطلاق الجزء وإرادة الكل شائع في كلام العرب، نحو قوله تَعَالَىٰ:﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ﴾ (الإسراء:٧٨)، المراد بالقرآن الصلاة. وقوله تَعَالَىٰ:﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ﴾ (النساء: ٩٢)،وقوله تَعَالَىٰ:﴿ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ (المؤمنون: ١٠٠)، وقوله تَعَالَىٰ:﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ (الشعراء: ٢١٩)

وأصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد. ففي هذا كله أطلق الجزء وأراد به الكل.

(٢) وردت الأحاديث بإطلاق العظام وإرادة الجسد كله:

١- عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بدَّن قال له تميم الداري: « ألا أتخذ لك منبرا يا رسول الله، يجمع أو يحمل عظامك، قال: بلى، فاتخذ له منبرا مرقاتين».(سنن أبي داود، رقم :١٠٨١)

ولا ريب أن المراد بـــ (عظامك) في الحديث هو الجسد كله؛ فإنه قصة حياته.

٢- ورد حديث آخر بإطلاق العظام وإرادة الجسد:

روى الحاكم عن أبي موسى، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل بأعرابي فأكرمه، فقال له: «يا أعرابي سل حاجتك». قال: يا رسول الله، ناقة برحلها وأعنَز يحلبها أهلي. قالها مرتين، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أعجزت أن تكون مثل عجوز بني إسرائيل؟». فقال أصحابه: يا رسول الله، وما عجوز بني إسرائيل؟ قال: «إن موسى أراد أن يسير ببني إسرائيل فأضل عن الطريق، فقال له علماء بني إسرائيل: نحن نحدثك أن يوسف أخذ علينا مواثيق الله أن لا نخرج من مصر حتى ننقل عظامه معنا، قال:

وأيكم يدري أين قبر يوسف؟ قالوا: ما تدري أين قبر يوسف إلا عجوز بني إسرائيل، فأرسل إليها فقال: دليني على قبر يوسف. فقالت: لا والله لا أفعل حتى أكون معك في الجنة، قال: وكره رسول الله ما قالت. فقيل له: أعطها حكمها. فأعطاها حكمها، فأتت بحيرة، فقالت: انضبوا هذا الماء. فلما نضبوه قالت: احفروا ههنا فلما حفروا إذا عظام يوسف، فلما أقلوها من الأرض إذ أنار الطريق مثل ضوء النهار». (مسند أبي يعلى، رقم:٧٢٥٤. تاريخ بغداد٩/٣٢٦. المستدرك للحاكم، رقم:٣٥٢٣، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخي. ووافقه الذهبي)

نص الحديث على أن موسى عليه السلام حمل عظامَ أي جسدَ يوسف عليه السلام من مصر إلى الشام.

دراسة حديث حمل جسد يوسف عليه السلام من مصر إلى الشام:

روي هذا الحديث عن أبي موسى الأشعري وعلي رضي الله عنهم مرفوعًا، وعن حسين بن علي مرسلا، وعن ابن عباس وغيره من الصحابة موقوفا.

حديث أبي موسى الأشعري: رواه أبو يعلى وابن حبان والخطيب البغدادي والحاكم بأسانيد متعددة، تنتهي إلى يونس بن إبي إسحاق السبيعي.

وفي إسناد أبي يعلى وابن حبان راوٍ مختلف فيه وهو محمد بن يزيد الرقاشي قبل يونس. وثّقه الدارقطني، وضعّفه البخاري والنسائي وابن نمير وأبو حاتم. وكذّبه عثمان بن أبي شيبة.

وفي إسناد الخطيب البغدادي والحاكم راوٍ مختلف فيه وهو أحمد بن عمران الأخنسي، وثّقه العجلي وابن حبان، وقال البخاري: منكر الحديث، وقال أبو زرعة: متروك.

وإسناد الحاكم الآخر الذي قال فيه: على شرط الشيخين، ليس فيه من الرواة المختلف فيهم إلا يونس بن أبي إسحاق، غير أنه لا يخلو من تساهل؛ لأن يونس بن أبي إسحاق السبيعي ليس من رجال البخاري، ولم يروِ له مسلم إلا متابعًا. قال الحافظ ابن حجر فيه: صدوق يهم قليلا. وقال أبو حاتم: كان صدوقا إلا أنه لا يحتج به. (التكميل لابن كثير ٢/٤٧٤)، وقال ابن حزم: «ضعَّفه شعبة بأقبح التضعيف، وضعفه يحيى القطان وأحمد بن حنبل جدا». (المحلى بالآثار ٧/٥٥٠)

أحاديث أهل الكوفة ترجع إلى صاحبين من أصحاب أبي بردة: أبي إسحاق السبيعي -والد يونس- والأعمش. و لم يرو أحدهما هذا الحديث، ولا رواه أصحاب أبي بردة وأبي إسحاق والأعمش أحد. فعلم منه أن يونس بن أبي إسحاق السبيعي الكوفي تفرد بهذا الحديث الطويل عن أبي بردة ومرده إلى الوهم، ولذا رجح ابن كثير وقفه، وقال: «هذا غريب جدا، والأقرب أنه موقوف». (تفسير ابن كثير٥/٦٢٥)

وحديث علي رضي الله عنه رواه الخرائطي في «مكارم الأخلاق»، والطبراني في «المعجم الأوسط»(رقم:٧٧٦٧)، وفي إسناده: محمد بن كثير أبو إسحاق القرشي، وأبو قدامة حبة العرني الكوفي، وخالد بن طهمان أبو العلاء السخاف، وكلهم ضعفاء.

وحديث حسين بن علي رواه أبو عاصم في «الآحاد والمثاني» (رقم:٤٣٣)، وأبو القاسم البغوي في''معجم الصحابة'' (رقم:٩٤١٠). ورجاله صدوقون أو ثقات، إلا أنه إسناد مرسل.

وحديث ابن عباس رواه ابن الحكم في «فتوح مصر» (ص ٤٢)، عن طريق الكلبي موقوفا، والكلبي كذاب مشهور.

علاوة على هؤلاء روي هذا الحديث عن قتادة وعكرمة بن الزبير وسماك بن حرب موقوفًا أو مرسلاً، ساقها السيوطي في «الدر المنثور».

وروي هذا الحديث أيضًا عن كعب الأحبار رضي الله عنه، وهو معروف بالإكثار من الروايات الإسرائيلية. وساق حديث كعب الأحبار أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/٢٧) عن طريق ابن لهيعة.

كما أن هذه القصة مذكورة في التوراة كذلك بالإيجاز، وهذا مما يدل على أنه من الإسرائيليات.

جاء في نهاية سفر التكوين، ص٢٠١: «أن يوسف أوصى بني إسرائيل عند موته قائلا: «الله سيفقدكم فتصعدون عظامي من هنا».

وفي سفر الخروج، ص٢٢٧: «وخرج بنو إسرائيل من أرض مصر متسلحين، وأخذ موسى عظام يوسف من أجل أن يوسف أقسم على بني إسرائيل وحلفهم قائلا: إن الله

يذكركم فاصعدوا عظامي من هاهنا معكم». (التوراة، ط: دار قتيبة، بيروت)

يرد على هذه الرواية ما يلي:

١- كان موسى على عجل، ويستبعد فيه التمهل لإخراج جسد يوسف عليه السلام.

٢- سؤال النبي العجوز، يدل على أن العجوز علمت ما جهله نبي من الأنبياء وعلماء بني إسرائيل، وهذا بعيد.

٣- دلالة العجوز على قبره يدل على أنها أدركت هذا الزمان، مع أن بين موسى ويوسف عليهما السلام أجيال عدة. ويستبعد بقاء العجوز وحياتها لهذه المدة المديدة.

٤- مكث موسى عليه السلام في التيه مدة مديدة، فأين وضع جسد يوسف عليه السلام؛ فإن قبور آباء يوسف في قرية الخليل من الشام ؟

٥- يبدو أن الأرض تحتضن أجساد الأنبياء عليهم السلام في قعرها، لتبقى بعيدة مصونة من امتداد أيدي الناس إليها، و إلا فإن أرض العرب والشام فيها قبور مجهولة لأنبياء لا يحصون عددا، فالمخاوف من ظهور أجسادهم حين الحفر فيها قائمة، ولا حل لهذه المشكلة إلا أن نقول: إن الأرض تحتضن الأجساد في قعرها. وإذا قلنا بذلك فإن إخراج جسد يوسف عليه السلام كان إخراجا من القعر العميق جدا، وهذا بعيد.

(٣) يقول العلامة ابن نجيم الشامي: «قوله تَعَالَىٰ:﴿ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾ (يس: ٧٨): المراد بالعظام هي النفوس. وحينئذ يعود الضمير في قوله وَهِيَ رَمِيمٞ إلى العظام البالية على طريقة الاستخدام... فإن العظام له معنيان: أحدهما: مراد، وهو النفوس مجازا، من إطلاق البعض وإرادة الكل».(البحر الرائق ١/١٠٨-١٠٩)

فوائدة مهمة:

هل: «صبت علي مصائبُ...» من قول فاطمة رضي الله عنها؟

ينسب إلى فاطمة رضي الله عنها:

ماذا على من شم تربة أحمد ۞ أن لا يشم مدى الزمان غواليا

صبتْ عليَّ مصائب لو أنها ۞ صُبّتْ على الأيام صِرن لياليا

نفى الإمام الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٣٤/٢) نسبة هذه الأبيات إلى فاطمة رضي الله عنها، غير أن محمد بن محمود النجار (ت:٦٤٣هـ) رواها بإسناده، وقال: «أنبأنا أبوجعفر الواسطي، عن أبي طالب بن يوسف، أخبرنا أبو الحسين بن الأبنوسي، عن عمر بن شاهين، أخبرنا محمد بن موسى، حدثنا أحمد بن محمد الكاتب، حدثني طاهر بن يحيى، حدثني أبي، عن جدي، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: لما رمس رسول الله صلى الله عليه وسلم، جاءت فاطمة فوقفت على قبره صلى الله عليه وسلم وأخذت قبضة من تراب القبر ووضعته على عينها وبكت، وأنشأت تقول: «ماذا على من شم تربة أحمد...»».(الدرة الثمينة في أخبار المدينة، ص ١٣٩)

ورواه عبد الصمد بن عبد الوهاب (ت:٦٨٦هـ) بإسناده عن ابن النجار، وقال: «أخبرني محمد بن محمود النجار بخطه، أنبأنا أبو جعفر الواسطي، به».(إتحاف الزائر وإطراف المقيم للسائر في زيارة النبي صلى الله عليه وسلم، ص ١٦٧)

ورواه محمد بن أحمد تقي الدين الفاسي (ت:٨٣٢هـ) بإسناده عن أبي جعفر الواسطي.(شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ٤٥٠/٢)

ورواه العلامة ابن الجوزي بإسناده، وقال: «أخبرنا ابن ناصر، قال: أنبأنا عبد القادر بن يوسف، قال: أنبأنا أبو الحسين الأبنوسي، به».(مثير الغرام الساكن إلى أشرف الأماكن ٣٠٠/٢)

وذكره العلامة السمهودي في وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى (٤٤٤/٢) نقلا عن التحفة لابن عساكر، من طريق طاهر بن يحيى الحسيني.

كما نسب غير واحد من العلماء هذه الأبيات إلى فاطمة رضي الله عنها في مؤلفاتهم. (راجع: تاريخ مكة لابن الضياء المقدسي ٣٢١/١. سبل الهدى والرشاد ٣٣٧/١٢؛ سلوة الكئيب بوفاة الحبيب لابن ناصر الدين الدمشقي، ص ٢٧. سمط النجوم العوالي لعبد الملك بن حسين العصامي المكي ٣٧٠/١)

تستبدل هذه المصادر كلها «صرن لياليا» - «عدن لياليا».

زيارة النبي صلى الله عليه وسلم أهم وجوه البر وأفضل العبادات:

ذكر البيتُ شم تراب قبر النبي صلى الله عليه وسلم، وسنأتي على ذكر أحاديث زيارة الروضة المطهرة وغيرها من التفاصيل في موضعه، ونقول هنا بإيجاز: اتفق المسلمون على أن زيارة النبي صلى الله عليه وسلم من أهم الحسنات، وقال بعض أهل العلم:

واجبة. قال في فتح القدير: « المقصد الثالث: في زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم، قال مشايخنا رحمهم الله تعالى: من أفضل المندوبات وفي مناسك الفارسي وشرح المختار: أنها قريبة من الوجوب لمن له سعة».(فتح القدير١٧٩/٣. وانظر: رد المحتار٢٦٢/٢)

قصة الشيخ أحمد الرفاعي الشهيرة:

ذكر بعض الشراح هنا ضمن قوله: «ملتثم» قصة الشيخ أحمد الرفاعي:

السيد أحمد الرفاعي من الصوفية الصالحين المشهورين، وله قصة شهيرة، أنه حج عام ٥٥٥هـ، ثم قدم المدينة للزيارة، وقام مقابل القبر الأطهر، وأنشد بيتين:

في حالة البُعد رُوحي كنتُ أرسلها ۞ تقبل الأرض عني و هي نائبتي

وهذه دولة الأشباه قد حضرت ۞ فامدد يمينك كي تحظى بها شفتي

(المراد بتقبيل الروح الأرض في البيت: الحضور الروحي بتواضع).

يقول الشاعر الفارسي:

اے غائب از نظر کہ شدی ہم نشین دل ۞ می بینمت عیان و دعا می فرستمت

(أيها الغائب عن الأنظار قد تمكنت من القلب،وأراك بوضوح وأدعو لك)

يقول العلامة السيوطي: «وفي بعض المجاميع: حج سيدي أحمد الرفاعي فلما وقف تجاه الحجرة الشريفة أنشد: «في حالة البُعد رُوحي كنتُ أرسلها»، فخرجت اليد الشريفة من القبر الشريف، فقبلها». (الحاوي للفتاوي ٣١٤/١)

وزاد الشيخ المحدث محمد زكريا الكاندهلوي –رحمه الله- نقلا عن «البنيان المشيد»: يقال: كان ذلك بمحضر تسعين ألف نسمة في المسجد النبوي، ممن شهد هذا الحدث، وزار اليد الشريفة، منهم الشيخ عبد القادر الجيلاني- المحبوب السبحاني والقطب الرباني رحمه الله. (فضائل حج، ص ١٢١).

إبطال بعض الناس هذه القصة:

واعتبرت فتاوى اللجنة الدائمة في المملكة العربية السعودية (٢٨٢/٠٢) هذه القصة باطلة منقوضة الأساس. وأشار السائل إلى كتاب «فضائل حج» للشيخ محمد زكريا، فرد عليه المفتي في اللجنة بأنه لا يتحرك أحد –نبيا كان أو غيره- في قبره على الإطلاق، وهذه

القصة باطلة، وأما السيوطي فحاطب ليل. لا يصح الصلاة وراء من يصدِّق هذه القصة؛ لأنه فاسد العقيدة، وأما كتاب فضائل أعمال وغيره من الكتب المشحونة بالخرافات والحكايات الكاذبة فلا يجوز قراءتها.

ملحوظة:

وتم شطب هذه الفتوى وإخراجها من المجموعة في الطبعات اللاحقة لفتاوى اللجنة الدائمة، ولعله دليل على الرجوع عن رأيها.

وأما كلام المفتي في اللجنة فيرجع إلى أنه لا صلة لروحه صلى الله عليه وسلم بجسده، مع أنه ثبت ذلك بعدة أحاديث:

ولا يسع المجال التفصيل فيه، وإنما نكتفي بحديث واحد: عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون». (رواه أبو يعلى، و البزار، ورجال أبي يعلى ثقات. مجمع الزوائد ٢١١/٨ باب ذكر الأنبياء. مسند أبي يعلى ٣٣٣١/٤٤٥/٧)

قال الحافظ ابن حجر في أحد رواته- وهو مستلم بن سعيد-: «صدوق ربما وهم». و قال الشيخ شعيب الأرنؤوط وبشار عواد: «بل صدوق حسن الحديث، فقد وثقه أحمد بن حنبل، وقال النسائي وابن معين في رُواة ابن محرز عنه: ليس به بأس. وذكره ابن حبان في «الثقات»، وقال: فأخذها منه المصنف، فكتب: «ربما وهم». وإنما خالف مستلم شعبة في حرف صحف فيه شعبة، وذكر يحيى بن معين أن مستلم هو المصيب، فكان ماذا؟ وقال الذهبي في الكاشف: صدوق». (تحرير تقريب التهذيب لبشار عواد والشيخ شعيب الأرنؤوط)

وفصَّلناه في «بدر الليالي شرح بدء الأمالي» (٤٠٦/٢-٤٠٧).

وصحح أهل الحديث هذا الحديث، وسبق قول العلامة الهيثمي. قال الحافظ ابن حجر: «وصححه البيهقي».(فتح الباري٤٨٨/٦)، وقال المناوي: «وهو حديث صحيح».(فيض القدير ٢٩٣/٣)

وثمة روايات عدة بهذا المعنى. (راجع: تسكين الصدور للشيخ سرفراز خان صفدر٢ /٢١٩، ٣٤٢)

وحكى الشيخ الإمام عبد الكريم الرافعي في «سواد العينين» قصة الرافعي هذه بعدة أسانيد، وحكاها الشيخ أحمد بن إبراهيم في «إرشاد المسلمين لطريقة شيخ المتقين»

بإسناده، وحكاها السيوطي في الحاوي للفتاوي ٢/٣١٤.

وكان الشيخ محمود شكري الآلوسي –حفيد محمود الآلوسي صاحب روح المعاني– اعتنق السلفية مثل أبيه، وعمل في الرد على النبهاني كتابا سماه «غاية الأماني في الرد على النبهاني»، ونفى هذه القصة (ص ٢٩١–٣٠٢)، وكذّبها. ومن أقوى إيراداته على القصة أن المسجد النبوي أو الجزء الخاص بجهة القبلة منه لم يكن يسع تسعين ألفا أو مئة ألف من الناس في ذلك الزمان، فكيف تسنى لهذا العدد الهائل رؤيتها، ثم إنه لم يكن يجتمع في المسجد النبوي هذا العدد الهائل.

يقول العبد الفقير: إن قوله: تسعين ألفا أو مئة ألف لبيان الكثرة، أي رأى جم غفير من الناس اليد المباركة.

أو هذا من قبيل ظنّ الرائي والراوي في ذكر العدد، وأخطأ فيه، وهذا مثل ما إذا توفي رجل شهير كبير الشان في مدينة من المدن يقول بعض الناس: حضر في جنازته مئتا ألف نفرٍ. والبعض يقولون: لا بل خمس مئة ألف، وإذا جاء الماهرون في الإحصاءات قالوا هذا الميدان يسع خمسين ألفا تقريبًا فهذه المبالغات والخطأ في العد لا تسبب ولا تذرع لرد واقعة الوفاة.

تتمة الكلام على قصة السيد أحمد الرفاعي:

لا عجب أن يخرج الرسول صلى الله عليه وسلم يده بعد وفاته، فقد تظافرت قصص الصالحين الذين تكلموا –بعد وفاتهم – أو اتصلوا بالأحياء كرامةً، نكتفي بذكر بعض الأمثلة على ذلك:

(١) رفع زيد بن خارجة بعد وفاته الثوب عن وجهه وتكلم.

روى الطبراني بسنده عن النعمان بن بشير قال: « لما توفي زيد بن خارجة انتظر به خروج عثمان رضي الله عنه، فقلت: يصلي ركعتين، فكشف الثوب عن وجهه، وقال: السلام عليكم...».(المعجم الكبير للطبراني ٥/٢١٩/٥١٤٥. وذكره الهيثمي ثم قال: رواه الطبراني في الكبير والأوسط، باختصار كثير بإسنادين، ورجال أحدهما في الكبير ثقات، مجمع الزوائد ٥/١٨٠)

أوردت هذه القصةَ عشرات المصادر. (راجع: سير أعلام النبلاء٤/٣٦١. البداية والنهاية ٦/١٧٥)

قلت: قد أخرج ابن أبي الدنيا في كتابه «من عاشر بعد الموت» لهذه القصة ست

روايات.

(٢) نصب بعض الصحابة خيمة على قبر، فسمع من يقرأ سورة الملك:

عن ابن عباس قال: «ضرب بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم خباءه على قبر، وهو لا يحسب أنه قبر، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك، حتى ختمها... فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «هي المانعة، هي المنجية، تنجيه من عذاب القبر».(سنن الترمذي، رقم:٢٨٩٠. وفي إسناده عمرو بن مالك النُّكري ضعيف)

(٣) كان سعيد بن المسيب يسمع يوم الحرة الأذان من قبر النبي صلى الله عليه وسلم، وفي أحد أسانيد هذه القصة عبد الحميد بن سليمان الخزاعي، ضعيف. (سير أعلام النبلاء ٢٢٨/٤). وأما إسناد طبقات ابن سعد وسنن الدارمي فليس فيه عبد الحميد. قال في الطبقات: «قال: كنت إذا حانت الصلاة أسمع أذانا يخرج من قبل القبر حتى أمن الناس». (الطبقات الكبرى ١٣٢/٥)

وفي إسناده محمد بن عمر الواقدي -شيخ ابن سعد- متروك، متهم بالكذب والوضع.

روى الدارمي في سننه: « أن مروان بن محمد عن سعيد بن عبد العزيز قال: لما كان أيام الحرة لم يؤذن في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثا، و لم يقم، و لم يبرح سعيد بن المسيب من المسجد، وكان لا يعرف وقت الصلاة إلا بهمهمة يسمعها من قبر النبي صلى الله عليه وسلم». (سنن الدارمي ٥٦/١، رقم:٩٤)

في إسناد الدارمي هذا: سعيد بن عبد العزيز لم يشهد هذه القصة، و لم يدرك عهد سعيد بن المسيب، فهو منقطع.

وضُعِّفت هذه الروايةُ الخاصة بأيام الحرة في «بدر الليالي شرح بدء الأمالي»، فليراجع.

(٤) كان ثابت بن أسلم البناني [ت:١٢٧هـ] يصلي في قبره بعد وفاته. ويُذكَر أنه دعا الله تعالى أن يوفقه للصلاة في القبر. قال العلامة الذهبي في ترجمته: «ثابت بن أسلم، الإمام القدوة شيخ الإسلام... عن حماد بن سلمة قال: كان ثابت يقول: اللهم إن كنت أعطيتَ أحدا الصلاة في قبره فأعطني الصلاة في قبري، فيقال: إن هذه الدعوة

استجيبت له، وإنه رئي بعد موته يصلي في قبره فيما قيل». (سير أعلام النبلاء ٢٢٢/٥. طبقات الأولياء، ص١٢٥. تهذيب الكمال للمزي ٣٤٨/٤)

(٥) قال ثابت بن قيس بعد موته: محمد رسول الله:

« أخبرنا أبومحمد... عن عبد الله بن عبيد الله الأنصاري، قال: كنت فيمن دفن ثابت بن قيس بن شماس، وكان أصيب يوم اليمامة، فلما أدخلناه القبر، سمعناه يقول: محمد رسول الله، أبو بكر الصديق، عمر الشهيد، عثمان لين رحيم، فنظرنا فإذا هو ميت». (تاريخ مدينة دمشق ٣٢٠/٣٩. الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ص٣٢٠. التاريخ الكبير للبخاري ١٣٨/٥. شرح الصدور، ص ٢١٨)

علاوة على هذه القصص ذكر ابن أبي الدنيا في رسالته «من عاش بعد الموت» عدة قصص أخرى، وطبعت هذه الرسالة ضمن «موسوعة الإمام ابن أبي الدنيا».

جسده صلى الله عليه وسلم مصون من أي نوع من التغير:

لا طيب يعدل:

كان جسد النبي صلى الله عليه وسلم طيبا، ولم يطرأ عليه شيء من التغير بعد وفاته، فالتراب المتصل بجسده لابد أن يكون طيبا.

ورد أنه لم يطرأ عليه من العوارض ما يطرأ على غيره من الأموات.

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: « لما غسل النبي صلى الله عليه وسلم ذهب يلتمس منه ما يلتمس من الميت فلم يجده، فقال: بأبي الطيب، طبتَ حيًّا وطِبتَ ميتا». (سنن ابن ماجه، رقم:١٤٦٧)

فصَّل حكيم الأمة الشيخ أشرف علي التهانوي الكلام على أن جسده مصون من أي نوع من التغير، ما ملخصه:

(١) صان الله تعالى جسد الشهيد من التغير، كما وردت عدة روايات بأنه تم فتح قبور شهداء أحد على عهد معاوية رضي الله عنه، فكانت أجسادهم كأنهم نائمون، فإذا كان هذا حال الشهداء، فكيف بحال سيد المرسلين ؟

(٢) وما يعارضها من الروايات مرفوض على الإطلاق، قال العلامة الخفاجي في شرح الشفا: حكى وكيع أن ظفره صلى الله عليه وسلم وخنصره قد أصابهما بعض

التغير، فرد عليه علماء ذلك العصر بشدة، وغضب عليه الحاكم، فأمسك عن ذكره.

(٣) ما رواه ابن هشام في سيرته أصح وأوثق مما رواه ابن سعد في طبقاته من تغير شيء من جسده صلى الله عليه وسلم. جاء في سيرة ابن هشام: «ولم ير من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيء مما يرى من الميت».(٦٦٢/٢)

هذا النص صريح الدلالة على معناه، ثم إن سيرة ابن هشام يفوق طبقات ابن سعد بمراحل بالنظر إلى الإستناد أيضا؛ فإنه كتاب محقق مختص بالسيرة النبوية، وأما طبقات ابن سعد فيتناول تاريخ الصحابة والتابعين، وأما أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءت عرضا. (راجع: إمداد الفتاوى ٥٢٧/١، ٥٣٢)

حاصل القول أن جسد النبي صلى الله عليه وسلم وأجساد الأنبياء كلهم مصونة من التغير، فلا عجب أن يكون تراب القبر النبوي طيبا، وأن يفوق سائر الأطياب.

تخريج موجز لحديث: «إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء»:

نص على صحته جمع من الأئمة، منهم:

١- الشيخ شعيب الأرنؤوط في تعليقاته على مسند أحمد، رقم:.١٦١٦٢

٢- الحاكم.

٣- الذهبي. (المستدرك على الصحيحين)٢٧٧/١، طبعة قديمة.

٤- الشيخ فؤاد أحمد الزملي، في تعليقاته على سنن الدارمي، رقم:١٥٧٢.

٥- الشيخ الأعظمي، في تعليقاته على صحيح ابن خزيمة، رقم:١٧٣٣.

٦- الشيخ الألباني، في تعليقاته على سنن أبي داود وسنن ابن ماجه.

٧- الشيخ بشار عواد، في تعليقاته على سنن ابن ماجه، رقم:١٦٣٦.

٨- المناوي نقلا عن الدميري، فيض القدير ١١١/٢.

٩- الملا علي القاري، مرقاة المفاتيح ١٨٧/٥.

انتهى، ولله الحمد، وبه ينتهي الفصل الثالث، ولله الحمد على عونه وتوفيقه.

****

الفصل الرابع

في مولد النبي ﷺ



تاريخ مولد النبي صلى الله عليه وسلم:

ذهب المحققون إلى أنه ولد بنهاية الثامن من ربيع الأول وبداية التاسع منه، وهو يوافق- بالتوقيت الشمسي-٢٠/أبريل عام ٥٧١م، لأن التاريخ أكد أنه صلى الله عليه وسلم ولد في الربيع، ويصادف الربيع شهر أبريل في آسيا، قال بعضهم تعبيرا عنه:

فوجهي والزمان وشهر وضعي ۞ ربيع في ربيع في ربيع

تحقيق تاريخ الولادة:

العام: مما لا خلاف فيه أنه ولد عام الفيل، اتفق عليه كافة المؤرخين وأصحاب السير.

يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله: «قال ابن إسحاق: وكان مولده صلى الله عليه وسلم عام الفيل، وهذا هو المشهور عند الجمهور». (البداية والنهاية ٢/٣٢١)

ويقول العلامة ابن الجوزي: «واتفقوا على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولد يوم الاثنين في شهر ربيع الأول عام الفيل».(صفة الصفوة ١/٥١؛ وينظر: الروض الأنف ١/٢٧٦).

الشهر: حكى القسطلاني في ذلك ستة أقوال:

١- المحرم. ٢- صفر. ٣- ربيع الأول. ٤- ربيع الآخر. ٥- رجب. ٦- رمضان.

واتفق الجمهور على أنه ولد في شهر ربيع الأول.

يقول الحافظ ابن كثير: «ثم الجمهور على أنه كان في شهر ربيع الأول».(البداية والنهاية٢/٣٢٠)

سبق نص ابن الجوزي، الذي حكى الاتفاق على أنه كان في ربيع الأول. وحقق العلامة المحقق محمد زاهد الكوثري رحمه الله تاريخ الولادة تحقيقا رائعا، فقال: وقد اتفق جمهور النقلة على أن مولده كان عام الفيل، وأنه كان يوم الاثنين، وأن شهر مولده هو شهر ربيع الأول، وذكر شهر سواه لمولده عليه السلام ليس إلا من قبيل سبق القلم عند النقاد. (مقالات الكوثري، رص ٤٠٥).

اليوم: اتفق أصحاب السير والتاريخ على أنه ولد يوم الاثنين، وفي الحديث: «وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن يوم الاثنين. قال: ذاك يوم ولدت فيه، ويوم

بعثت...». (صحيح مسلم، رقم: ١١٦٢)

وقال ابن كثير رحمه الله: «وهذا ما لا خلاف فيه أنه ولد صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين». (البداية والنهاية ٣١٩/٢)

التاريخ: في أي يوم من شهر ربيع الأول كان مولده؟ قال بعض أهل العلم: يوم الاثنين من ربيع الأول، و لم يتسنَّ تحديد تاريخه. ويرى الجمهور أنه كان محددا، فما هو إذاً ؟

ذكر العلامة القسطلاني فيه سبعة أقوال:

١- الثاني من ربيع الأول. ٢- الثامن. ٣- العاشر. ٤- الثاني عشر. ٥- السابع عشر. ٦- الثامن عشر. ٧- الثاني والعشرين. (المواهب اللدنية ١٤٠/١-١٤٢)

قال العلامة الكوثري رحمه الله: بعد نهاية الثامن أي يوم التاسع. أي الأقوال الأربعة – علاوة على القول بالعاشر والثاني عشر– مما لا يلتفت إليه، لعدم الاستناد والدليل القوي.

فلم يعد للكلام في الترجيح إلا هذه الروايات الثلاث.

رواية العاشر:

عزاه ابن سعد إلى محمد الباقر، وفي إسناده ثلاثة من الرواة المتكلم فيهم، فلا يستحق رواية العاشر الترجيح، وأشار العلامة الكوثري رحمه الله إلى هذه الرواية: قال ابن سعد: أنا محمد بن عمر الواقدي الأسلمي، قال: ثني أبو بكر بن عبد الله بن سبرة عن إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة عن أبي جعفر محمد بن علي (ويعرف بمحمد الباقر) قال: ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم لعشر خلون من شهر ربيع الأول...، فبين الفيل وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم خمس وخمسين ليلة. (الطبقات الكبرى لابن سعد ١٠٠/١، ذكر مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم)

رواية الثاني عشر:

حكاه محمد بن إسحاق، و لم يذكر له سندا، وهذا القول- وإن كان أشهر الأقوال، وعليه عمل أهل مكة في عمل المواليد من قديم الزمان، وأن عليه عمل الناس في عمل

حفلات المواليد ومحافلها في العالم كله- لم يثبت روايةً.

جاء في المستدرك: أخبرنا أبو الحسن محمد بن أحمد بن شبويه بمرو ثنا جعفر بن محمد النيسابوري ثنا على بن مهران ثنا سلمة بن الفضل عن محمد بن إسحاق قال: ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم لاثنتي عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول.(المستدرك، رقم:٤١٨٣)

هذه الرواية لا يؤبه بها؛ لأن إسناده غير متصل، وهي على شاكلة الروايات التي لا إسناد لها.

القول بالتاسع:

ويترجح عقلا ونقلا أنه ولد لنهاية الثامن وبداية التاسع من الشهر.

روايةً:

١- حكى ابن عبد البر الخلاف فيه وقدم هذا القول على سائر الأقوال، قال أبوعمر: وقد قيل: لثمان خلون منه، وقيل:....، وقيل:....، (الاستيعاب لابن عبد البر١/٣٠)

٢- جاء في البداية والنهاية: وقيل لثمان خلون منه حكاه الحميدي عن ابن حزم. و رواه مالك وعقيل ويونس بن يزيد وغيرهم عن الزهري عن محمد بن جبير بن مطعم، ونقل ابن عبد البر عن أصحاب التاريخ أنهم صححوه وقطع به الحافظ الكبير محمد بن موسى الخوارزمي ورجحه الحافظ أبو الخطاب بن دحية في كتابه «التنوير في مولد البشير النذير». (البداية والنهاية٢/٣٢٠)

٣- يقول الشيخ حفظ الرحمن: «اشتهر على ألسنة العوام أنه ولد في الثاني عشر من ربيع الأول، ويعضده بعض الروايات الضعيفة، وأكثر العلماء على أنه ولد لثمان خلون من ربيع الأول، والصحيح الموثوق به من الأقوال أنه ولد للتاسع من ربيع الأول، وقال مشاهير علماء التاريخ والحديث وأئمة الدين الأجلاء: هو الصحيح الأثبت. وإليه ذهب الحميدي، وعقيل، يونس بن يزيد، وابن عبد الله، وابن حزم، ومحمد بن موسى الخوارزمي، وأبو الخطاب بن دحية، وابن تيمية، وابن القيم وابن كثير، وابن حجر العسقلاني والشيخ بدر الدين العيني وأمثالهم من العلماء العظام». (قصص القرآن ٤/٢٥٣)

دراية /عقلاً :

١- محمد بن موسى الخوارزمي من كبار أئمة الفلكيات، وسبق أن حكينا قوله آنفا.

٢- أعدَّ العلامة محمود باشا الفلكي المصري علامة الرياضي- في اللغة الفرنسية كتابا سماه «تقويم العرب قبل الإسلام»، ونقله العلامة ذكي باشا إلى العربية وسماه"نتائج الأفكار في تقويم العرب قبل الإسلام وفي تحقيق مولد النبي وعمره صلى الله عليه وسلم. وتوصل إلى أن مولده كان للتاسع من الشهر، في ضوء غير واحد من أقوال العلماء البارعين في علوم الفلكيات.

كسفت الشمس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في آخر يوم من شوال عام ١٠هـــ، وفيه مات ابنه إبراهيم رضي الله عنه.

قال الحافظ: يوم مات إبراهيم يعني ابن النبي صلى الله عليه وسلم، وقد ذكر جمهور أهل السير أنه مات في السنة العاشرة من الهجرة. (فتح الباري ٥٢٩/٢)

فإذا رجعنا إلى الوراء على ذلك تبين أن مولده كان يوم التاسع من ربيع الأول؛ فإن يوم الاثنين يوافق التاسع لا غير.

يقول الشيخ حفظ الرحمن السيوهاروي: «إن الزائجه التي وضعها محمود باشا الفلكي (خبير الفلكيات والمنجم الشهير في القسطنطينية) وفق علم الهيئة بهدف التعرف على مواعيد الخسوف والكسوف بالتحديد منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عهده، وأكد أنه لا يصادف يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول في مولده صلى الله عليه وسلم، وإنما يصادف التاسع من ربيع الأول، فالتاريخ الذي يوثق به في مولده صلى الله عليه وسلم بالنظر إلى القوة وصحة الروايات وبالنظر إلى حساب الهيئة والنجوم هو التاسع من ربيع الأول».(قصص القرآن ٢٥٣/٤)

وبالنظر إلى ما حققه العلامة الكوثري يصادف مولده نهاية اليوم الثامن أي اليوم التاسع، في حين يقول الشيخ حفظ الرحمن السيوهاري: إن الاختلاف في الثامن والتاسع ليس اختلافا حقيقيا.

ويضيف الشيخ: «ليس الاختلاف في الثامن والتاسع اختلافا حقيقيا، بل يرجع إلى

كون الشهر ٢٨ يوما أو ٢٩ يوما. وحيث تبين بالنظر إلى الحساب أن التاريخ الصحيح هو ٢١/من أبريل فالأقوال الواردة بالثامن كلها يؤيد في الواقع القول بالتاسع من الشهر. (قصص القرآن ٤/٢٥٤)

وقت الولادة:

صرحت كتب السير بأنه ولد وقت الصبح الصادق،ويصادف الصبح الصادق في مكة المكرمة يوم ٢٠/ أبريل الساعة الرابعة والتسع والثلاثين دقيقة، فلنا أن نقول: إنه صلى الله عليه وسلم ولد في التاسع من ربيع الأول عام الفيل المصادف٢٠/أبريل يوم الاثنين نحو الساعة الرابعة والأربعين دقيقة.

مكان الولادة:

ولد صلى الله عليه وسلم في شعب بني هاشم، وهو موضع مشهور، وكان الناس يزورونه حتى قبل بضعة أعوام، وقامت حكومة السعودية بإغلاقه قبل عدة أعوام وعملت مكتبة مكانه.

يقول الزرقاني: «وقع في الخميس عن بعضهم: ولد بمكة في الدار التي تعرف بدار محمد بن يوسف في زقاق معروف في شعب مشهور في شعب بني هاشم من الطرف الشرقي لمكة، تزار ويتبرك بها إلى الآن. وفيه ما فيه». (شرح الزرقاني على المواهب ١/١٣٧)

والله تعالى أعلم.

كلمة عن الاحتفال بالمولد النبوي:

يحتفل البريليون بميلاده صلى الله عليه وسلم في الثاني عشر من ربيع الأول، ويستدلون على ذلك بأدلة منها:

١- أعتق أبو لهب جاريته ثويبة يوم الثاني عشر من ربيع الأول. وبفضله ينشأ له الماء بين إبهامه وسبابته يوم الاثنين، فينتفع به بعض الانتفاع.

٢- اتخذت النصارى اليوم الذي نزلت المائدة على بني إسرائيل عيدا لهم وفرحوا به ونحو ذلك.

وأما علماء ديوبند فلا يقولون بالاحتفال بمولد النبي صلى الله عليه وسلم، نعم

يستحسن عقد حفلات السيرة وتجمعاتها طوال السنة، وإنّ ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم وبيان سيرته خير الأعمال، وأما تخصيصه بيوم من الأيام، وعدُّه هامًّا، وأكثر فضلا أو ثوابًا فلا يصح.

يقول علماؤنا الكبار: إن الاحتفال بالمولد يتضمن عدة مفاسد:

١- لا يرجع إلى عهد النبوة أو الصحابة، وإنما اخترعه أبو سعيد مظفر الدين صاحب إربل (ت:٦٣٠هـ). قال الحافظ ابن حجر فيه: «كثير الوقيعة في الأئمة وفي السلف من العلماء، خبيث اللسان، أحمق، شديد الكبر، قليل النظر في أمور الدين متهاونا، اتفقوا على كذبه».(لسان الميزان٤/٢٩٦)

وكان يفد لمجلس الاحتفال بالميلاد كثير من الناس من بغداد وموصل ونصيبين وبلاد العجم البعيدة، وكان الملك ينفق على ذلك ثلاث مئة ألف دينار، ويستمر فيه السماع إلى الصبح، وكان الناس يتوجهون للمشاركة فيه من المحرم إلى ربيع الأول.

وأول من عمل فيه كتابا للملك أبو الخطاب عمر بن دحية المغربي. وتلقى من الملك ألف دينار جائزةً. (دول الإسلام للذهبي، ص ١٤٤). قال في لسان الميزان: «أبو الخطاب غير ثقة، ومتهم». (٦/٨٠).

كما لا يصح اعتبار الثاني عشر من ربيع الأول يوم الولادة عند المحققين، وإنما ولد في التاسع من ربيع الأول، وأما الثاني عشر من ربيع الأول فهو يوم وفاته صلى الله عليه و سلم، لا ولادته.

٢- يخصون الاحتفال بالمولد بيوم خاص، ويعتبرونه كاللازم والمساهمة فيه لها أهمية، في حين صرح كبار العلماء بأن إحلال المستحب محل الواجب يفتح بابا للبدع.

٣- القائمون بالاحتفال بالميلاد يعتبرون القيام فيه حتما لازما، وقال الشيخ عبد السميع الرامفوري في «أنوار ساطعات» (ص ٥٠٤): «القيام لازم. مع أن القيام للصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم لم يثبت شرعًا».

٤- كثيرا ما يذكرون الروايات الموضوعة في ثنايا ذكر الولادة، وهو موجب لإثم عظيم.

٥- يعتقدون حضور النبي صلى الله عليه وسلم أثناء القيام في الاحتفال بالميلاد،

وهو ما يشمله قوله صلى الله عليه وسلم: «من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار».

٦- يفوت أكثرَ الناس جماعة صلاة الفجر، بل الصلاة للسهر إلى وقت متأخر من الليل.

٧- يرفعون أصواتهم بمكبرات الصوت مما يحرم الناس حولهم النوم.

٨- فيه إسراف المال في الإكثار من الطيب وقراءة المدائح النبوية المحتوية على الشرك، ويسدون الطرق بالمسيرات، مما يؤذي الناس.

٩- اعتبر كبار العلماء تخصيصه بدعة، قال أبو إسحاق الشاطبي: «واتخاذ يوم ولادة النبي عيدا بدعة».(الاعتصام، ص ٣٩). وقال التاج الفاكهاني: «هذا دأب أهل الأهواء».(المورد في عمل المولد، ص٨-٩). وعدّه ابن أمير الحاج بدعة من البدعات.(المدخل١/٧٥). وأثنى الشيخ عبد الحق المحدث الدهلوي على إنكار ابن أمير الحاج على عمل المولد وقال: «فإن الله يثيبه على قصده الجميل، ويسلك بنا سبيل السنة».(ما ثبت بالسنة، ص٢٩٠). وحكى المفتي عبد الغني خان في كتابه «الجنة لأهل السنة» أقوال عدد من كبار العلماء والمشايخ في رد عمل المولد. وقال العلامة ابن تيمية في «اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة اصحاب الجحيم»: «وكذلك ما يحدثه بعض الناس إما مضاهاةً للنصارى في ميلاد عيسى عليه السلام وإما محبة للنبي صلى الله عليه وسلم وتعظيما، والله قد يثيبهم على هذه المحبة والاجتهاد. لا على فعل البدع من اتخاذ مولد النبي صلى الله علي وسلم عيدا، مع اختلاف الناس في مولده، فإن هذا لم يفعله السلف مع قيام المقتضي له وعدم المانع منه، لو كان خيرًا.(١٢٢/٢)

و ردّ كل من الشيخ مجدد الألف الثاني رحمه الله في مكتوباته (مكتوب، رقم ٢٧٣)، والشيخ أشرف علي التهانوي رحمه الله في «إصلاح الرسوم» (ص ١٠٧، ١٠٩)، والشيخ المفتي محمود حسن الكنكوهي رحمه الله في «فتاوى محمودية» المواليد السائدة وأنكروا عليها، واعتبروها مشتملة على عدة مفاسد، سبق أن أشرنا إلى بعضها.

١٠- يحتفل النصارى بمولد عيسى عليه السلام، ونهينا عن التشبه بهم.

١١- لا ذكر لقضية الاحتفال بالمواليد لا في علم الكلام ولا في علم الفقه فيجب الحذر من هذه العادة، نعم علينا أن نكثر من ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم بالخير، وننوه بسيرته من غير تحديد يوم من الأيام.

الاستدلال على مولد النبي بقصة إعتاق أبي لهب مولاته ثويبة:

يستدل البريليون على مولد النبي صلى الله عليه وسلم بقصة أبي لهب. رواها الإمام البخاري عن عروة بن الزبير باختصار: « قال عروة وثويبةُ مولاة لأبي لهب، وكان أبو لهب أعتقها فأرضعت النبي صلى الله عليه وسلم فلما مات أبو لهب، أريه بعض أهله بشر حِيبَةٍ، قال له: ماذا لقيت؟ قال أبو لهب: لم ألق بعدكم غير أني سقيت في هذه بعتاقتي ثويبة».(صحيح البخاري، رقم:٥١٠١)

وحكى بعض مشائخ العرب القائلون بالمولد في كتبهم تفاصيل أكثر مما سبق، فيقول الشيخ حبيب زين العابدين العلوي في كتابه «الأجوبة الغالية في عقيدة الفرقة الناجية»: «قال الحافظ شمس الدين الجزري: وقد رئي أبو لهب بعد موته في النوم فقيل له: ما حالك؟ فقال: في النار إلا أنه يخفف عني كل ليلة اثنين، وأمص من إصبعي ماء بقدر هذا، وأشار لرأس إصبعه، وأن ذلك بإعتاقي لثويبة عندما بشرتني بولادة النبي صلى الله عليه وسلم وإرضاعها له، فإذا كان أبو لهب الكافر الذي نزل القرآن بذمه جوزي في النار بفرحه بمولد النبي صلى الله عليه وسلم فما حال المسلم الموحد من أمة النبي صلى الله عليه وسلم يسرّ لمولده، إلى آخر مانقله من الأنوار المحمدية للنبهاني».(الأجوبة الغالية، ص١٤٨-١٤٩).

والحاصل أنه أعتقها بإشارة من الإصبع فيجد ماء في إبهامه يوم الاثنين ويمصه.

الرد على الاستدلال السابق:

١- هذا الحديث من مراسيل عروة، ولا ندري عمن سمعه، والذي رأى المنام كان كافرا أم مسلما؟

٢- هذه قصة رؤيا، وليست بحجة شرعية.

٣- أنه صلى الله عليه وسلم أحب الصيام يوم الولادة، و لم يأمر بالاحتفال به، ولا عُنِيَ به.

٤- ولو سلمّنا قصة أبي لهب للزم الاحتفال بكل يوم الاثنين، وهو ما لم يقل به أحد.

٥- لقد ولِدَ النبي صلى الله عليه وسلم مرة واحدة، وأعتق أبو لهب مولاته ثويبة، والاحتفال به كل سنة من تقاليد النصارى، وليس حكما شرعيا، يقول الحافظ ابن حجر في شرح البخاري: «وأجيب أولاً بأن الخبر مرسل أرسله عروة، ولم يذكرمن حدثه به، وعلى تقدير أن يكون موصولاً فالذي في الخبر رؤيا منام فلا حجة فيه، ولعل الذي رآها لم يكن إذ ذاك أسلم بعد فلا يحتج به».(فتح الباري ١٤٩/٩)

الاستدلال على مولد النبي صلى الله عليه وسلم بقصة عيسى عليه السلام:

القائلون بالمولد يستدلون بقوله تَعَالَىٰ:﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ (المائدة: ١١٤)

طلب أتباع عيسى عليه السلام اتخاذ يوم نزول المائدة عيدا لهم، فنعتبر يوم ميلاد النبي صلى الله عليه وسلم يوم عيد قياسًا عليه.

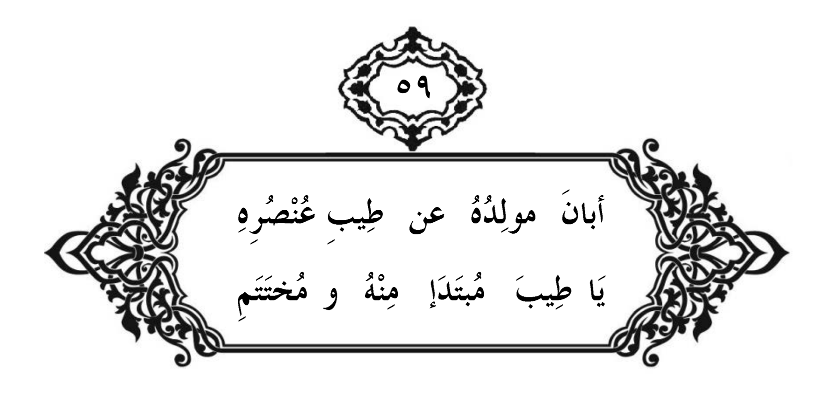
الجواب عنه: اختلفوا: هل نزلت المائدة أم لا؟ ذهب معظم المفسرين إلى أنها نزلت. وقال الحسن البصري ومجاهد: لم تنْزل. وأما قوله تَعَالَىٰ:﴿إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ (المائدة: ١١٥) فمقيد بسؤالهم وطلبهم، وإنهم لم يسألوا بعدُ مخافة أن ينْزل عليهم العذاب إذا أعرضوا عنها. وذهب معظم المفسرين إلى أنها نزلت، ولكن لا ندري هل اتخذ يوم نزول المائدة عيدا من الله تعالى أم لا؟ والمشهور أنها نزلت يوم الأحد. ولم يكن اتخاذ يوم الأحد عيدا من الله تعالى، بل يشير الحديث الذي رواه مسلم إلى أن يوم الأحد لدى النصارى، ويوم السبت لدى اليهود لم يكن وفق الهدى والرشاد، والجمعة عند المسلمين على وفق الهداية.(صحيح مسلم،رقم:٨٥٦) ولو سلمنا أنه لم يكن يوم الأحد، وكان مرة واحدة في العام، وبأمر من الله تعالى، فإنه يصير حكما إلهيا بالنسبة لهم، وأنى لنا نحن أن نتخذ يوم الميلاد عيدا؟

٣- يستدل المولعون بالمولد بما روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال حين نزل قوله تَعَالَىٰ:﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣): إني

لأعلم حيث أنزلت وأين أنزلت وأين رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزلت يوم عرفة يوم الجمعة.(انتهى مخلصًا، صحيح البخاري، رقم:٤٥)

قال الشراح: معناه: لايسعنا اتخاذ يوم من الأيام عيدا من عند أنفسنا، إنما عيدنا اليوم الذي وضعه الله تعالى لنا، أو المعنى: يصح الوقوف بعرفة ليلة العيد أيضا، ويدخل يوم العيد بغروب الشمس. فذلك اليوم متعين للعبادة من قبلُ ولا دخل لنُزول هذه الآية في كونه عيدًا.

****



اللغة:

أبان: بان (ض) منه وعنه بينا وبيونا وبينونة: انفصل، ابتعد.

تبين/ بان الشيء بيانا: وضح وظهر، قَالَ تَعَالَى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ (البقرة: ٢٥٦)

أبان الشيءُ: ظهر واتضح.

أبان الشيءَ: أظهره وأوضحه، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ (الزخرف: ٥٢)

بَيَّن الشيء: أوضحه وأظهره، قَالَ تَعَالَى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَاتِ﴾ (النور: ٥٨)

ألبان: شجر يخرج من بذروه زيت طيب الرائحة، وسبق تحقيق الكلمة في البيت رقم:٥.

مولده: ولدت (ض) تلِد وِلادًا ووِلادةً: وضعته، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ (الإخلاص: ٣)

ولَّد الأنثى: أولدها، قام بالتوليد. تولدَ: ولد. استولد: طلب الولد.

المولد: (١) مكان الولادة. (٢) وقت الولادة. (٣) الولادة، والميم مصدرية. (٤)سنة الولادة. ج: مواليد، والبيت يحمل المعاني الثلاثة: الأول والثاني والثالث.

لغة المولد: لغة الأم.

عن: الكلام حول هذه الكلمة باختصار فيما يلي:

عن: على قسمين:

(١) اسم: إذا دخلت عليه كلمة (من) أفادت معنى الجانب، منه في الحديث عن يوم القيامة: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه... فينظر من عن أيمن منه فلا يرى إلا شيئا قدمه، ثم ينظر من عن أيسر منه». الحديث.(سنن ابن ماجه، رقم:١٨٥)

وفي حديث آخر: «يسلم على أخيه من عن يمينه، ومن عن شماله».(سنن أبي داود، رقم:٩٩٨)

وإذا دخلت (من) عليها أفادت معنى ابتداء الغاية، فإذا قلت: قعدت عن يمين الأستاذ، أفادت الجملة أنه جلس عن الجانب الأيمن من الأستاذ، ولا يستلزم اتصاله به، وأما إذا قلت: قعدت من عن يمينه، أفادت أنه جلس عن الجانب الأيمن منه متصلا به.

(٢) عن الحرفية: تستعمل حرفا، وتفيد عدة معانٍ:

١- للسببية والتعليل، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ (التوبة: ١١٤) ، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ (هود: ٥٣)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ (الصافات: ٤٧) (في قول)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ (الذاريات: ٩) (في قول).

وفي الحديث: «خير الصدقة عن ظهر غنى».(صحيح البخاري، رقم:١٤٢٧). من معانيه: خير الصدقة ما كان سببها غنى في التصدق.(فتح الباري٣/٢٩٦)

٢- بمعنى (بعد)، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ (الانشقاق: ١٩)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ﴾ (المؤمنون: ٤٠)

ورد في الحديث في قصة الثلاثة من بني إسرائيل: «ورثتُ لكابر عن كابر». (صحيح البخاري، رقم ٣٤٦٤)

٣- وقد تكون زائدة: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ (النور: ٦٣)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ (المدثر) (في أحد الأقوال).

٤- بمعنى المجاوزة/الترك، نحو: ارتحل عن مكان كذا، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾(الأعراف: ١٩٩)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ (النساء: ١٦٠)، و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ (الكهف: ٢٨)

٥- بمعنى البدل والعوض، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ (البقرة: ١٢٣)

وفي الحديث: «فقالت: أفأحج عنه؟ قال: نعم».(صحيح البخاري، رقم:١٨٥٥)

ولها معانٍ أخرى عديدة غير ما ذكر، وهي حرف في هذه المعاني المذكورة، ويطلق بنو تميم (عن) لغير معنى الحرف، فهو بمعنى: (أن) و(إن) أيضا، نحو: أعجبني عن تقوم أي

أن تقوم.

أشهد عن محمد رسول الله، أي أن محمدا. (الجنى الداني في حروف المعاني، ص٢٥٠)

طيب: الجودة، والطهارة، سبق تحقيق الكلمة في البيت السابق.

طاب (ض) جاد، وحسن، أصاب بعض الأعراب برد قارس، فقال:

أيا رب إن البرد أصبح كالحا ۞ وأنت بحالي يا إلهي أعلم

فإن كنت يوما مدخلي في جهنم ۞ ففي مثل هذا اليوم طابت جهنم

(صبح الأعشى٢/٤٤١)

عنصره: العنصر: (١) الأصل، والجذر. (٢) النسب، فلان كريم العنصر. (٣) مادة تشكل جسما من الأجسام. (٤) المادة الأولية التي تتحلل كيماويا وتتشكل صورا صغيرة. (٥)النسل، (القوم)، والعناصر عند القدماء أربعة: النار والهواء والطين والماء.

مبتدأ: بدأ (ف) بدءا وبدأة: شرع. بدأ الشيء، وابتدأ الشيء وبه: شرع فيه.

أبدأ (١) خلقه، (٢) أتى أمرا يبعث على العجب، بدَّأ الشيءَ تبدئة: قدمه، وآثره.

مبتدأ: (١) الميم مصدرية بمعنى الابتداء. (٢) ظرف الزمان: بداية الوقت. (٣)ظرف مكان: مكان الابتداء.

مختتم: ختم (ض) الشيءَ ختما وختاما: أكمله، ختم على الشراب: سد فم الإناء. قَالَ تَعَالَى: ﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴾ (المطففين: ٢٥)

ختم على فمه: منعه من الكلام، وسد فاه، قَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ ﴾ (يس:٦٥)

ختم على قلبه:حرمه الفهمَ. ختَّم (١) بالغ في الختم، (٢) طبع.

اختتم الشيء: أكمله، وأنهاه.

الخاتم: له عدة معانٍ، منها: (١) ما يختم به. (٢) ما يلبس في الأنامل.(٣) غشاء البكارة وغيرها. ج: خواتيم وخاتمات.

ويحتمل (مختتم) ما يحتمل (مبتدأ) من الأعاريب الثلاثة.

الإعراب:

أبان مولده:

١- أبان: فعل. مولده: فاعله، طيب عنصره: مفعول، وعن: زائدة.

٢- أبان: فعل. مولده: فاعله. (العجائب) مفعول. عن طيب عنصره: عن سببية، والظرف متعلق بالفعل، أو حال من (مولده) أي: مظهرا عن طيب عنصره.

وحذف (منه) بعد (مختتم)، لدلالة ما بعد المبتدأ عليه، كما في البيتين السابقين.

الشرح:

طيب مبتدأ منه: كان حاله في البداية أطيب، فقد ظهرت فيه العجائب، ونهايته أيضا أطيب، حيث انتشر الدين كله في جزيرة العرب.

يا أيها العقلاء: انظروا إلى طيب ابتدائه وانتهائه/ يا أيها العقلاء! انظروا إلى طيب زمان بدئه وختمه.

ويقدر المنادى في غير موضع من القرآن الكريم منها قوله قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ﴾ (الزمر: ٥٦)، تقديره: يا قوم انظروا/ شاهدوا حسرتي على...

(٢) طيب: منادى مجازا، والمعنى: يا طيب بداية رسول الله صلى الله عليه ونهايته، احضر، أنا أدعوك. كما أن (يا حسرتى) يحتمل: يا حسرتي، احضري، فهذا أوانك.

(٣) يازمان، انظر إلى طيب مبتدأ منه....

والقول الثاني أحسن،ومعناه: يا طيب مبتدإ منه ومختتم، أقبل وانشر طيبك.

مبتدأ ومختتم:

من عادة العرب أنهم يذكرون بداية الشيء ونهايته ويريدون كله، نحو قوله تَعَالَىٰ: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا﴾ (الأحزاب: ٤٢)، والمراد بالتسبيح صباحا ومساء الديمومة عليه، ومعنى البيت: أنه صلى الله عليه وسلم كان طيبا وطاهرا ومباركا طول حياته.

طيب عنصره:

معنى طيب النسب: أنه مبرأ من الفاحشة (من الزنا وغيره)، فكان نسبه صلى الله عليه وسلم منَزّها طاهرا دائما.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «و لم يزل ينقلني من أصلاب الكرام إلى الأرحام الطاهرة حتى أخرجني من بين أبوي، لم يلتقيا على سفاح قط». (المطالب العالية للحافظ ابن حجر، رقم:٤٢٠٩)، وفيه أيضا: «فلم يصبني من سفاح الجاهلية شيء». (رقم:٤٢١٠). وفي حديث: «خرجت من لدن آدم من نكاح غير سفاح». (الطبقات الكبرى١/٦١)

من المراد بـــ طيب مبتدإ ومختتم ؟ :

قال بعض الشراح: طيب مبتدإ: هو آدم عليه السلام، وطيب مختتم: هو عبد الله – والد رسول الله صلى الله عليه وسلم– ، لأن نسبه يبدأ من آدم وينتهي إلى عبد الله، والمراد بيان طهارتهما جميعا. ولـــ(مبتدأ ومختتم) معان عدة أخرى.

وفي بعض النسخ: (مفتتح) بدلا من (مبتدأ)، والمراد واحد.

ليس مولده غير فطري أو غير عادي:

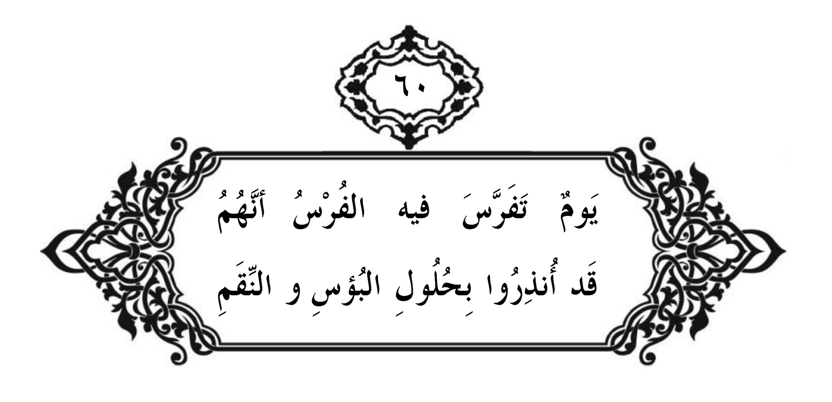
ذكر الناظم رحمه الله بعض ما ظهر من العجائب والغرائب عند ولادته صلى الله عليه وسلم، وسيأتي تفاصيله في موضعها.

علاوة على ذلك تذكر كتب السيرة العجائب والخوارق العديدة، ويذكره بعضهم ذكرا يكاد يجعل مولده غير فطري/ غير عادي، والحق أن الروايات الموثوق بها المروية عن الثقات قليلة جدا في هذا الباب، ذكره شراح الحديث والمحققون من العلماء.

قال الحافظ ابن حجر: «ومما ظهر من علامات نبوته عند مولده وبعده ما أخرجه الطبراني [المعجم الكبير للطبراني٢٥/١٤٧/٣٥٥] عن عثمان بن أبي العاص الثقفي عن أمه أنها حضرت آمنة أم النبي صلى الله عليه وسلم فلما ضربها المخاض قالت: فجعلت أنظر إلى النجوم تدلى حتى أقول لتقعن عليّ، فلما ولدت خرج منها نور أضاء له البيت والدار. وشاهده حديث العرباض بن سارية قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ... إني دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى بي، ورؤيا أمي التي رأت، وكذلك أمهات النبيين يرين، وإن أم رسول الله صلى الله عليه وسلم رأت حين وضعته نورًا أضاءت له قصور الشام. أخرجه أحمد وصححه ابن حبان والحاكم. وفي حديث أبي أمامة عند أحمد نحوه. وأخرج ابن إسحاق... وقالت: أضاءت له بصرى من أرض الشام...». (فتح الباري ٦/٥٨٣، والحديث في مسند أحمد، رقم:١٧١٥١، ١٧١٦٣، وفي مواضع أخرى. قال الشيخ شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح لغيره).

وأخرج العلامة القسطلاني حديثا طويلا عن ابن عباس رضي الله عنهما، ذكرت آمنة نفسها حالها فيه، مما سبق بيانه آنفا.

انتهى بتوفيق الله.



اللغة:

تفرس: فرُس (ك) فراسة وفُروسة وفروسية: برع في الركوب.

فرَس (ض) فَرسًا: شق الأسد فريسته.

فرس (ض) فراسة: تفطن لباطن الشيء بظاهره، أدركه، وفهمه.

الفارس: راكب الفرس. تفرس: أدرك بفراسته.

الفراسة: الاستدلال من العلامات الظاهرة على الأحوال الباطنة.

في الحديث: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله».(سنن الترمذي، رقم:٣١٢٧).

فارس: معرب (بارس) ج: فرس.

لم سموا فرسا؟:

(١) نسبة إلى جدهم: فارس بن ناسور بن سام بن نوح.

(٢) فرُس (ك) فُروسة: ركب الخيل، وكان جدهم له عشرة أبناء، حذقوا ركوب الخيل.

حلول: حل(ن) حلولا: نزل. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ (الرعد: ٣١)

حل (ض) حلالا: أبيح.

البؤس: بئس (س) بأسا وبؤسا وبئيسا: افتقر واحتاج.

بؤس (ك) بأسا وبأسة وبآسة: قوي واشتد.

البأساء: (١) المشقة. (٢) الضيق. (٣) الحرب.

النقم: نقم (ض) نَقمًا ونُقوما: عاقبه. نقم الشيء: طعن فيه، وكرهه. نِقمة: عقوبة، ج: نقم.

الإعراب:

(يوم) حذف مبتدأه، (١) هو يوم تفرس. (٢) (أبان) يوم. (٣) (مولده) يوم تفرس.

أنهم قد... : (أن) مع اسمها وخبرها مفعول (تفرس).

الشرح:

ذكر (فارس) في الحديث:

١- « لله خيرتان من خلقه: خيرته من العرب قريش، ومن العجم الفرس». (معرفة الصحابة، لأبي نعيم، عن عبد الله بن رزق المخزومي، رقم:٤١٣٠. الديلمي في مسند الفردوس، و إسناده في الغرائب الملتقطة من مسند الفردوس لابن حجر، رقم ٨١١. كنْز العمال، رقم :٣٤١٣٦)

وفي إسناده ضعف، لأن معن بن عيسى — أحد رواته- لم يصرح باسم شيخه، وإنما قال: عمن حدثه. وعبد الله بن رزق قال فيه ابن منده: لا يعرف له صحبة ولا ورؤية.

معنى الحديث: يخرج من أهل فارس كبار المحققين والمحدثين والمصنفين والفقهاء والفاتحين.

٢- قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لو كان الإيمان منوطا بالثريا لتناوله رجال من فارس». (سنن الترمذي، رقم ٣٢٦١)

وفي رواية عند البخاري: لوكان الإيمان عند الثريا لناله رجال —أو رجل- من هؤلاء». (صحيح البخاري، رقم:٤٨٩٧)

محمل هذا الحديث هو الإمام أبوحنيفة رحمه الله:

سلط الحافظ ابن حجر الهيثمي الضوء على أن المراد بهذا الحديث هو الإمام أبو حنيفة رحمه الله. وصرح به أيضًا العلامة جلال الدين السيوطي.(تبييض الصحيفة بمناقب أبي حنيفة، ص٦. الخيرات الحسان، ص ٢٩-٣٠)

إيراد: يقول بعض اللامذهبيين: إن المراد به الإمام البخاري والإمام الترمذي ونحوهما فإنهم كانوا يسكنون فارس، وليس المراد به الإمام أباحنيفة؟

الجواب عنه: نص الحديث على الوصول إلى النجوم والثريا، ويصدق ذلك على التابعي بصورة واضحة، فإن الصحابة مثل النجوم، ووصل التابعي إلى الصحابي ولقيه.

[فكأهم وصلوا إلى النجوم].

فلننظر إذا من هو التابعي؟

اعلم أن الإمام أبا حنيفة تابعي، رأى سبعة من الصحابة. (تبييض الصحيفة، ص ٨)

حكى العلامة الكوثري رحمه الله في تانيب الخطيب اتفاق عشرين من المحدثين على أن أبا حنيفة رأى أنسا رضي الله عنه.

وأمر آخر، هو أن الحديث نص على (رجال)، ويصدق على عدة أشخاص، فلا ننكر دخول الإمام البخاري وغيرهم من الأئمة في مدلوله، ولكن يتعين أن محمله الأول هو الإمام أبو حنيفة.

وأما أنه (من فارس) فليس المراد به من يسكن فارس، بل من كان من نسلهم أينما سكنوا وقطنوا. ولم يسكن الإمام البخاري والترمذي والدارمي في فارس، بل في أوزبكستان.

تحقيق مختصر لحديث: «أصحابي كالنجوم»:

سبق أن الصحابة مثل النجوم، ويحسن بنا أن نتحدث عن حديث مشهور في هذا الشأن: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم». وهذا وإن تكلموا فيه إلا أنه يؤيد معناه حديث رواه الإمام مسلم، وتفصيله بإيجاز فيما يلي:

حديث: أصحابي كالنجوم، رواه جابر وأنس وأبو هريرة وابن عمر وابن عباس وعمر رضي الله عنهم إلا أن أسانيده كلها على غاية من الضعف. نسوق الكلام على بعضها:

١- حديث جابر رضي الله عنه: جامع بيان العلم وفضله، رقم:١٧٦٠. الإحكام في أصول الأحكام ٢/٢١٥.

في إسناده الحارث بن غضين، وسلام بن سليمان: متهمان بالكذب، قال ابن عبد البر: «الحارث بن غضين مجهول». وقال ابن حزم: «سلام بن سليمان يروي الأحاديث الموضوعة، وهذا منها بلاشك».

٢- حديث أنس رضي الله عنه: ذكره الحافظ ابن حجر في لسان الميزان (٢/٣١٢) في ترجمة حسين بن محمد بن خسرو، وهو معتزلي.

٣- حديث أبي هريرة: مسند الشهاب (رقم:١٣٤٦)، وفي إسناده جعفر بن عبد الواحد كذاب.

وروي بألفاظ مختلفة أخرى عن بعض الصحابة، ولا يخلو من كلام.

نعم يؤيد معناه ما رواه مسلم، قال (النبي صلى الله عليه وسلم): «النجوم أمنة للسماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماءَ ما توعد، وأنا أمنة لأصحابي، فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنة لأمتي فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون». (صحيح مسلم، رقم:٢٥)

معنى الحديث أن النجوم حفظة للسماء، فإذا ذهبت النجوم ذهبت السماء وفنيت. كذلك الصحابة رضي الله عنهم حفظة من البدع والفتن، أي إذا ذهبوا أمطرت البدع والفتن، أي: الصحابة لحفظ الدين كالنجوم لحفظ السماء.

ولد النبي صلى الله عليه وسلم في النهار:

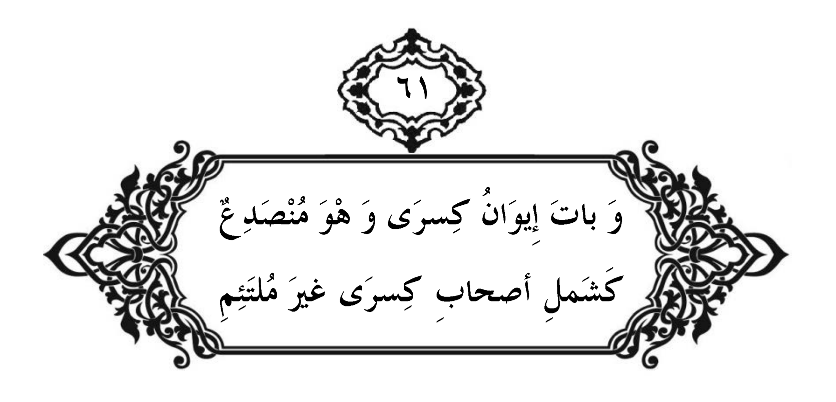
(يوم) إشارة إلى أنه ولد في النهار، لا الليل. ورد في الحديث: «سئل عن صيام يوم الاثنين؟ فقال: ذاك يوم ولدت فيه». (صحيح مسلم، رقم١١٦٢)

وقيل: المراد باليوم مطلق الزمان، فالمعنى: ولد في الزمن الذي علم أهل فارس أنه يصيبهم العذاب إن لم يؤمنوا. والدليل على إرادة مطلق الزمان، ما يأتي في البيت التالي من قوله: وبات إيوان كسرى؛ فإنها حدثت ليلا لا نهارًا. وكثيرا ما يراد باليوم الزمان مطلقًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ (المائدة: ٣)، فإن المراد في الآية الكريم مطلق الزمان.

وسيذكر الناظم رحمه الله بعض الأحداث التي وقعت عند الولادة في كلامه، وسنأتي على تفصيله في حينه.

انتهى، والحمد لله.

****



اللغة:

بات: (ض) بَيتًا وبَياتًا ومبيتًا ومَباتًا وبيتوتةً: أمضى الليل. بات الشيءُ: حدث ليلا، وقد يطلق على مطلق الحدوث. بيَّتَ: (١) عمل بيتا. (٢) أمره أن يبيت ليلا.

من مشهور أبيات مجنون:

يا ربِّ إنك ذو مَنٍّ ومغفرةٍ ۞ بيِّت بعافيةٍ ليلى الْمُحِبِّين

(٣) دبر ليلا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ﴾ (النساء: ٨١)

(٤) أوقع بهم لَيْلاً بَغْتَة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ (النمل: ٤٩)

(٥) نوى ليلا.

البيات: الإيقاع ليلا/ العذاب.

تحقيق كلمة «إيوان»:

إيوان: الشرفة، قصر ذو شرفات، مفتوح الأمام، مغلق وراءه، يجلس الملك في مكان الصدارة، وحوله كراسي يجلس عليها ملأه وأصحابه.

وأصل (إيوان) إوٍوان، استبدلت الواو الأولى ياء لكسر ما قبلها، فصار (إيوان). و لم تستبدل الواو الثانية ياء لأن همزة (إيوان) من حروفه الأصلية. ولو لم تكن هذه الهمزة أصلية لاستبدلت الواو الثانية ياء أيضا، كما في (أيام)، والصحيح أن كلمة (إيوان) فارسية، فقد أشار كل من «***لغات كشورى***» و«***فرهنگ آصفيه***» إلى معناه وهو القصر الملكي على اعتبار أن الكلمة فارسية.

كِسرى: معرب (خسرو)، معناه واسع المملكة، ج: أكاسرة وكساسرة وأكاسر. (تاج العروس ١٤/٤٠-٤١) وقيل: كسرى معناه: ملك الملوك. (عمدة القاري ١٠/٣٤٨)

ألقاب الملوك:

يطلق على ملوك فارس: كسرى. كما في ألقاب ملوك الدول الأخرى. منها:

قيصر: ملك الروم. خاقان: ملك الترك. تبع: ملك اليمن

أمير المؤمنين: ملك المسلمين. قَيل: ملك حمير. بطليوس: ملك اليونان

أفشين: ملك فرغانه. مقوقس: ملك الأسكندرية. النجاشي: ملك الحبشة

فرعون: ملك القبط. راي /راو: ملك الهند. عزيز: ملك مصر.

فغفور: ملك الصين. هياج: ملك الزنج. جالوت: ملك العمالقة.

نعمان: ملك العرب قديما. (مستفاد من فتح الباري١٠/٩٥٣. عمدة القاري١/١٣٠. قال الحافظ ابن حجر: نقل أكثر هذا الفصل من السيرة لمغلطاي وفي بعضه نظر. (١٠/٥٩٣)

منصدع: صَدع: (ف) الزجاج: كسره فلا يعود إلى الانضمام.

صدع بالشيء: أظهره وأعلنه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾ (الحجر: ٩٤)

والصدع في الآية الكريمة يشير إلى:

(١) أن دعوته صلى الله عليه وسلم يبلغ المكان البعيد كما أن صوت انكسار الزجاج يبلغ مكانا بعيدا.

(٢) حين ينكسر الزجاج ينفتح، كذلك يصاب الباطل على يد دعوته صلى الله عليه وسلم بضربة لا يعود إلى الانضمام.

صداع: وجع الرأس (كأن الرأس يتصدع).

صدع، وصَدَّع: أصيب بالصداع، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ (الواقعة: ١٩)

الصدع: الشقاق، والفجوة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ﴾ (الطارق: ١٢)، فالنبات وغيره يشق الأرض ليخرج منها.

انصدع: تكسر فلا يعود إلى الانضمام.

كشمل: شمل (س،ن): استوعبه وعمه. شَمْلٌ: من الأضداد، بمعنى الاجتماع والتفرق. ويعين السباق والسياق معناه. والمراد به في البيت الاجتماع، فإن ما بعده (غير

ملتئم) يفيد معنى التفرق.

اشتمل بثوبه: التف به. اشتمل على الشيء: احتواه، وضمه إلى نفسه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ (الأنعام: ١٤٣)

الشامل: العام، المستوعب، المحيط.

غير ملتئم: لأَمَ: (ف) لأْمًا: أصلحه، لأَمَ الجرحُ: انسد.

لأم (ك) لؤما ولآمة: دنؤَ أصله، وشحت نفسه، فهو لئيم ولئيمة، ج: لئام.

التأم: انضم، واجتمع الناس واتفقوا، قال الشاعر:

جِراحات السِّنان لها التِّيام ۞ ولا يلتام ما جَرَح اللِّسانُ

الإعراب:

قوله (بات) عطف على (تفرس) في البيت السابق. وهو منصدع: حال.

كشمل أصحاب كسرى:

(١) حال: بات إيوان كسرى منصدعا حال كون أصحابه أيضا متفرقين.

(٢) تشبيه: حذف المشبه به. وهو منصدع انصداعا مثل شمل أصحاب كسرى غير ملتئم.

(٣) صفة لمصدر محذوف (انصداعا) مثل شمل أصحاب كسرى.

الشرح:

بات إيوان كسرى:

سقوط أربع عشرة شرفة من شرفات قصر كسرى عند ولادة النبي ﷺ:

البيت يشير إلى حدث عظيم وقع عند ولادة النبي صلى الله عليه وسلم، حاصله أن الصبح الذي ولد فيه النبي صلى الله عليه وسلم ارتجس قصر كسرى في الليل الذي تلاه، فسقطت أربع عشرة شرفة من شرفاته، (ووقعت أحداث عدة أخرى في ملك كسرى سيأتي ذكرها لاحقا) فلما أصبح كسرى قلق قلقا شديدا، فجمع وزراءه، إذ جاءه موبذان (قاضي القضاة)، وقام فقال: رأيت الليلة إبلا صعابا تقود خيلا عرابا قد قطعت دجلة وانتشرت في بلادها، فأرسل كسرى عبد المسيح الغساني إلى سطيح العالم، فقال

وهو يؤول الرؤيا: يا عبد المسيح: إذا كثرت التلاوة، وظهر صاحب الهراوة، وفاض وادي سماوة، وغاضت بحيرة ساوة، وخمدت نار فارس، فليس الشام لسطيح شاما، يملك منهم ملوك وملكات على عدد الشرفات، وكل ما هو آت آت، ثم توفي سطيح مكانه.

فقال كسرى حين سمعه: إلى أن يملك منا أربعة عشر كانت أمور وأمور، فلنستمتع بالحياة. فملك منهم عشرة في أربع سنين، وملك أربعة إلى عهد عثمان.

مكانة هذه القصة الإسنادية:

حكى العلامة ابن سيد الناس في عيون الأثر (١/٤١) هذه القصة بتفاصيلها، فقال:

أخبرنا الشيخ أبو الحسن علي بن محمد الدمشقي... مخزوم بن هانئ المخزومي عن أبيه وأتت له خمسون ومئة سنة، قال: لما كانت ليلة ولد فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتجس إيوان كسرى وسقطت منه أربع عشرة شرفة...إلى آخر القصة. ورواه الطبراني بهذا الإسناد في تاريخه. (تاريخ الرسل والملوك ١/٤٥٩)

وأخرجه السيوطي عن الإمام البيهقي وأبي نعيم، والخرائطي وابن عساكر. (الخصائص الكبرى ١/٨٨. تاريخ مدينة دمشق ٣٦١/٣٧. دلائل النبوة ١/١٢٦-١٢٠)

قال الحافظ ابن حجر: رواه ابن السكن بهذا الإسناد.(الإصابة في تمييز الصحابة ٦/٥٢٤)

والراوي في هذا الإسناد هو أبو مخزوم هانئ. واختلف في صحبته، فذكره أبو الوليد بن الدباغ في الصحابة و لم يذكره فيهم غيره. (البداية والنهاية ٢/٣٢٧- ٣٢٩، ذكر ارتجاس إيوان كسرى)

ورواه الحافظ ابن كثير عن «هواتف الجان» لأبي بكر الخرائطي، بهذا الإسناد، وهو مفصل للغاية. (البداية والنهاية٢/٣٢٧-٣٢٩، ذكر ارتجاس إيوان كسرى)

وأشار الحافظ ابن كثير إلى هذه القصة في أمكنة أخرى غير هذا المكان.

الرواية التي ورد فيها ارتجاس قصر كسرى، وسقوط شرفاته، وخمود نار المجوس، وغيض بحيرة ساوة -أخرجها البيهقي في دلائل النبوة ١/١٢٦، والطبري في تاريخه ١/٤٥٩، والذهبي في تاريخ الإسلام ١/٤٨٩، وابن سيد الناس في عيون الأثر ١/٤١، وأبو نعيم الأصفهاني في دلائل النبوة، ص ٩٦، وابن كثير في البداية والنهاية ٢/٢٦٨، وابن الجوزي في المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ٢/٢٥٠.

قال الذهبي: منكر غريب. (تاريخ الإسلام ١/٤٩١، وسير أعلام النبلاء١/٤٤)، في سنده يعلى

بن عمران ومخزوم بن هانئ المخزومي مجهول، وهانئ المخزومي –الذي يقال إنه عاش ١٥٠ سنة– لم يثبت له صحبة.

قال السيوطي في الخصائص الكبرى ٨٨/١: «حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث مخزوم عن أبيه».

وقال ابن الأثير في أسد الغاية: «وليس فيه ما يدل على صحته». (أسد الغابة في معرفة الصحابة ٣٥٧/٥)

لا شك أن بعض أسانيد هذه القصة قد تكلموا فيه، غير أنه روي بإسناد مرسل أيضا، رواته كلهم ثقات. وقال الحافظ ابن حجر في ترجمة بشير بن تيم –بعد ذكر الرواية–: هذا حديث مرسل، وعَدَّ ابن أبي شيبة بشير بن تيم من الصحابة.

قال: بشير بن تيم، ذكره ابن أبي شيبة في الصحابة... قلت: وبشير بن تيم شيخ مكيّ يروي عن التابعين، وأدركه سفيان بن عيينة، ذكره البخاريّ، وابن أبي حاتم، ولبشير بن تيم خبر آخر مرسل، ذكره بسببه عبدان، فأخرج من طريق سعيد بن مزاحم، عن معروف بن خرّبوذ، عن بشير بن تيم، قال: لما كان ليلة مولد النبي صلى الله عليه وسلم رأى موبذان كسرى خيلا وإبلا قطعت دجلة ... القصّة بطولها.(الإصابة في تمييز الصحابة ٣٨١/١-٣٨٢)

والإسناد السابق أحد رواته: سعيد بن مزاحم، قال فيه ابن حجر: مقبول. (تقريب التهذيب، ص٢٨٦). أخرج له الإمام أبوداود والنسائي. فله رواية في سنن أبي داود (باب الْمُهِلَّة تحيض). صحَّحه الألباني. (صحيح وضعيف سنن أبي داود، رقم:١٩٩٨)

وراوٍ آخر: معروف بن خرّبوذ: من سكان مكة، تابعي صغير، روى له الإمام البخاري والإمام مسلم.

والحاصل أن الرواية وإن كانت مرسلة إلا أن إسناده صحيح، ومراسيل القرون الثلاثة مقبولة عند الإمام أبي حنيفة والإمام مالك والإمام أحمد بن حنبل. (الإحكام للآمدي ١٧٧/٢)

والحاصل أن الحديث المرسل إذا أيَّد حديثا مسندا ضعيفا يقبل، فالإمام الشافعي بدوره يقبل المرسل المعتضد. وفي قبول المرسل وعدم قبوله عدة روايات للأصوليين عند الأحناف، وأما في المناقب فإن المرسل –ضعيفا كان أو حسنا أو صحيحا– يقبل على كل

حال، حين تأيد بروايات أخرى. نعم يشترط لقبوله عند الشافعي أحد الأمور:

قال الشيخ ظفر أحمد العثماني رحمه الله: «قال ابن الحنبلي في قفو الأثر (ص ١٤): والمختار في التفصيل قبول مرسل الصحابي إجماعا، ومرسل أهل الثاني والثالث عندنا (أي الحنفية)، وعند مالك مطلقا، وعند الشافعي بأحد أمور خمسة...قال العلامة سيف الدين الآمدي الأصولي في كتابه «الإحكام» (١٧٧/٢) ما نصه: «اختلفوا في قبول الخبر المرسل، وصورته ما إذا قال من لم يلق النبي صلى الله عليه وسلم وكان عدلا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا، فقبله أبو حنيفة ومالك وأحمد بن حنبل في أشهر الروايتين عنه، وجماهير المعتزلة».

وعلق عليه الشيخ عبد الفتاح أبو غدة: «وقال العلامة طاهر الجزائري: والعمل بالمرسل مذهب أبي حنيفة ومالك، وأحمد في روايته المشهورة، حكاها النووي وابن القيم، وابن كثير و جماعة من المحدثين وحكاها النووي في «شرح المهذب» عن كثير من الفقهاء أو أكثرهم. قال: ونقله الغزالي في المستصفى (١٦٩/١) عن الجماهير. (قواعد في علوم الحديث مع تعليقات الشيخ عبد الفتاح أبي غدة، ص ١٣٨-١٣٩. وينظر: فتح المغيث ١٦١/١، وما بعدها)

وذكره الحافظ ابن حجر -علاوة على الإصابة في تمييز الصحابة- في فتح الباري، وسكت عليه. وسكوت الحافظ على رواية في شرح البخاري بعد إيرادها دليل على اعتبارها عنده، كما صرح به في مقدمة فتح الباري. حيث قال: «منتزعا كل ذلك من أمهات المسانيد والجوامع والمستخرجات والأجزاء والفوائد بشرط الصحة أو الحسن فيما أورده من ذلك».(هدي الساري، ص ٤)

عدم اعتبار العلامة شبلي هذه الرواية، ورد العلامة الكاندهلوي على ذلك:

ذكر العلامة إدريس الكاندهلوي في تفاصيل هذه الرواية أن العلامة شبلي النعماني رحمه الله عد هذه الرواية في (سيرة النبي ٣٩/١) غير معتبرة، وعللها بأنها لم يروها أحد من أصحاب الصحيحين؛ بل أحد من أصحاب الصحاح الستة.

ورد عليه الكاندهلوي بقوله:

١- عدم ورود الحديث في الصحيحين ليس دليلا على ضعفه أو وضعه. فإن الشيخين قد التزما الصحة دون الاستيعاب، ولا ادعى أحد منهما الاستيعاب.

٢- قد أورد العلامة شبلي في كتابه سيرة النبي [صلى الله عليه وسلم] مئات من الأحاديث التي ليس لها ذكر في الصحيحين أو الصحاح الستة. فليس ذلك ضابطا عند العلامة شبلي نفسه. (ملخص من سيرة المصطفى ١/٥٧)

كشمل أصحاب كسرى:

حال حكومة كسرى:

ملخص القصة أن رسول الله صلى الله أرسل كتابا إلى كسرى بيد عبد الله بن حذافة السهمي، فيه:

إن الله تعالى قد بعثني رسولا، أسلم تسلم، وإلا فإن عليك إثم الأريسيين. فلما قرأ الكتاب تحير وغضب ومزق الكتاب. وقال: إن عبدا من عبيدي قد كتب يدعوني إلى دينه. ثم كتب إلى عامله في اليمن اسمه باذان: ابعث إلى محمد رجلين جلدين يأتيان به مربوطا. فأرسل باذان رجلين إلى المدينة، ودخلا على رسول الله ص وقد حلقا لِحاهُما، وأعفيا شوارِبَهما، فكره النَّظَرَ إليهما، وقال: ويلكما! من أمركما بهذا؟ قالا: أمرنا بهذا ربنا- يعنيان كسرى-، فقال رسول الله: لكن ربي قد أمرني بإعفاء لحيتي وقص شواربي. ثم قال لهما: قتل ربي ربَّك. ارجعا حتى تأتياني غدا، وقد سلط الله تعالى على كسرى ابنه شيرويه فقتله. وفعلا كان قد مات. فلما علم باذان القصة قال لهما: لا تتعرضا لهذا الرجل، واتركاه وشأنه. وذلك أن شيرويه كان عشق زوجة أبيه، فقتل أباه، وكان الأب قد أعد قبل موته ما يؤدي إلى هلاك قاتله، وجعل زجاجة من سم في خزينته، وكتب عليه دواء الجماع مجرب من أخذ منه وزن كذا جامع كذا وكذا مرة. فتناول منه فكان هلاكه من ساعته. (الأذكياء لابن الجوزي، ص١٦٧. المحاسن والمساوي لإبراهيم بن محمد البيهقي، ص ٩٦-١٠٠. فتح الباري ٨/٢٨. ذيل تاريخ بغداد ٢/١٠)

ثم كان القتال في العائلة الملكية، وانتهى عشرة ملوك في أربع سنوات. ولم يجدوا من الرجال من يتولى زمام الحكومة فولوا أمرهم امرأة منها. وذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة». ووقعت حرب القادسية الشهيرة على عهد عمر رضي الله عنه بقيادة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وفتحت عاصمة الدولة. (للاستزادة من قصة حرب القادسية راجع: البداية والنهاية ٧/٤١-٥١؛ وتاريخ الأمم والملوك ٢/٣٣٣-٣٣٧)

وكسرى هو: نوشروان بن قباذ بن فيروز، وكسرى لقب ملوك ذلك العهد. وقيل:

اسمه أنوشزوان. واشتهر كسرى بكثرة الجيوش والأعوان، إلا أنهم تفرقوا أيادي سبا، وانتهت حكومتهم.

قال: إيوان كسرى: لأن الحكومة انتهت في عهده، وإلا فإن مؤسس الحكومة كان سابور.

أصحاب كسرى:

أظهر مكان الضمير في الشطر التالي لوجوه:

(١) للتاكيد على أن كسرى انتهى عهده وهو كسرى نفسه لا كسرى آخر.

(٢) قيل: إن كسرى الذي كان في عهد النبي صلى الله عليه وسلم غير كسرى الذي كان في عهد عمر رضي الله عنه، فأظهر للدلالة على أن كلا منهما كان كسرى، وهما مختلفان.

(٣) ولم يقل: أصحابه: خشية أن يتوهم متوهم أنهم أصحاب إيوان، مع أن المراد أصحاب كسرى، فالإظهار لإزالة ما قد يوهم الإضمار.

كشمل كسرى:

في البيت تشبيه تمثيل، حيث شبهت هيئة بهيئة: ولادته صلى الله عليه وسلم كان سببا لذهاب إيوانه وبنائه، كما كان دعاؤه صلى الله عليه وسلم سببا لذهاب ملكه وتفرق أصحابه.

كشمل أصحاب كسرى: فيه احتراس وتكملة.

الاحتراس: أن يأتي المتكلم معنى ثم يذكر جزءا آخر منه لمزيد بيانه.

إيوان كسرى:

يقول التاريخ: إن إيوان كسرى كان طوله (١٠٠) ذراع، أعد في (٩٠) عاما. وتم تذهيبه وزين بأنواع من الأحجار الكريمة واللآلي المتنوعة. (سنذكر المصادر لاحقا).

ذكر جدار من هذا القصر:

يقول الشيخ المفتي محمد تقي العثماني حفظه الله في رحلته إلى العراق عام ١٩٨٤م:

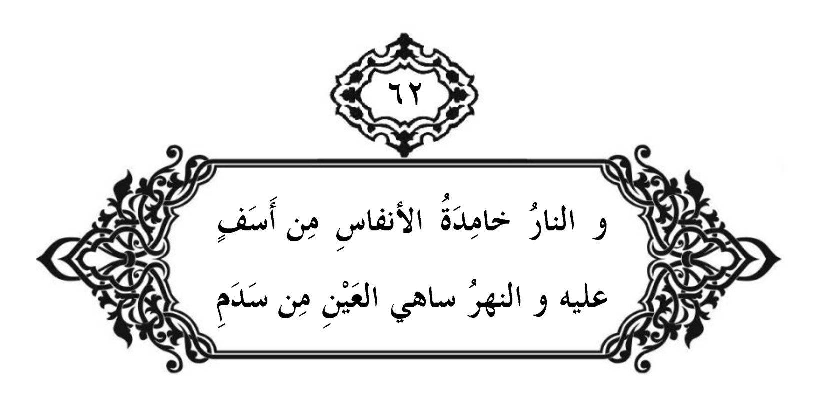
« لا يزال جدار من قصر كسرى قائما في نهاية مدينة المدائن، وفيه عبرة لمن اعتبر. وكان هذا القصر في يوم من الأيام قصر أقوى الناس في العالم، والذي سقطت شرفاته

عند ولادة النبي صلى الله عليه وسلم، والذي بشَّر بفتحه النبي صلى الله عليه وسلم بشرارة بضربه الحجر بالمعول أثناء حفره الخندق... ولا يزال جدار من قصر كسرى — رغم صبره على لطمات أربعة عشر قرنا فصاعدا – صورة حية على الأبهة والجلال. ولا يسلم القائم تحته من التفاعل والشعور بسطوته وجبروته. ولا تزال عدة شرفاته قائمة ليومنا هذا. ويتوسطه باب مرتفع له محراب، ويعقبه معالم قاعة واسعة، ويبدو أنه بلاط كسرى أو جزء آخر من قصره... أبقى المسلمون على قصر كسرى هذا تذكرة و ذكرى له، وأراد الخليفة المنصور هدمه ذات مرة، فأشار عليه مستشاره الإيراني (يذكر أن اسمه خالد بن برمك) بأن إبقاءه يوحي إلى كل من يزوره أن المسلمين يرافقهم المدد الإلهي، وإلا فإنه من الصعوبة بمكان أن يفتحه العرب سكان الصحراء الذين كانوا لا يملكون شيئا، و لم يأبه الخليفة المنصور لما أشار عليه به خالد بن برمك، وأمر بهدمه، فما كادوا هدموا إلا جزءا يسيرا منه حتى تبين له أن النفقة على هدمه أضعاف ما سيحصل عليه من أنقاضه، فيذهب شيء كثير من مال الدولة سدى، فطلب المنصور المستشار نفسه مرة أخرى واستشاره فيه، فقال: ألم أقل لك بعدم هدمه، وأما الآن فأرى أنه من العار والشنار أن يتحدث الناس بأن الفرس عملوا بناء عجز العرب عن هدمه، فأرى أن تهدمه، فتحير المنصور في أمره، وتوصل بعد تفكير طويل إلى إيقاف عمل الهدم، فإنه كان يؤدي إلى ذهاب شيء كثير من مال الدولة سدى، فلا يزال الإيوان قائما ليومنا هذا». (تاريخ بغداد ١٣٠:١-١٣١؛ ملخص من كتاب «*جهان ديده*»، ص ٥٩)

والحديث الذي أشار إليه المفتي محمد تقي رحمه الله هو ما يلي:

عن البراء بن عازب قال: لما أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نحفر الخندق عرض لنا فيه حجر لا يأخذ فيه المعول فاشتكينا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فألقى ثوبه، وأخذ المعول وقال: بسم الله...، ثم ضرب أُخرى وقال: بسم الله، وكسر ثلثا آخر. وقال: الله أكبر، أعطيت مفاتح فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن».(سنن النسائي الكبرى، رقم:٨٨٥٨. وللاستزادة من إيوان كسرى راجع: فنون العجائب ١٤٥/١. سمط النجوم العوالي؛ خلافة أبي جعفر المنصور. تاريخ الإسلام للذهبي ١٦١/١٠. معجم البلدان ٢٩٤/١)

انتهى، ولله الحمد.



اللغة:

النار: نار (ن) نورا: أضاء، لمع. نارت الفتنة: وقعت. أنار، نوَّر: أضاءه.

النار: الحريق، ج: نيران وأنوار.

خامدة: خمدت النار (ن،س) خَمدا وخُمودا: انطفأت شعلة النار، وبردت.

خمد فلان: برد، قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ (يس: ٢٩)، أي ماتوا، و ذهبت حرارة أرواحهم، كما تذهب حرارة النار فتنعدم.

أخمد: أطفأه.

الفرق بين الخمود والهمود:

الخمود: ذهاب شعلة النار مع بقاء نار جمرها.

الهمود: ذهاب شعلة النار ونار جمرها.

الفرق بين الإطفاء والإخماد:

(١) الإخماد: تسكين نار كبيرة. والإطفاء: تسكين النار صغيرها وكبيرها. فيقال: أطفأت السراج، وأطفأت النار. ويقال: أخمدت النار، ولا يقال: أخمدت السراج.

(٢) الإطفاء للنور، والإخماد للنار، قَالَ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ (التوبة: ٣٢)

وفي الحديث: «إن الحسد يطفئ نور الحسنات».(سنن أبي داود، رقم:٤٩٠٤)

وورد في قصة عبد الله بن حذافة في خصوص النار: «فما زالوا حتى خمدت النار». (صحيح البخاري، رقم:٤٣٤٠)

(٣) يخص إطلاق الإخماد بالنار، والإطفاء يشمل النار وغيرها، وفي الحديث: «إن الصدقة تطفئ غضب الرب، وتدفع عن ميتة السوء».(سنن الترمذي، رقم:٦٦٤)

(٤) الخمود يكون بالغلبة والقهر والإطفاء بالمداراة والرفق و لِهذا يستعمل الإطفاء في الغضَب لأنه يكون بالمداراة والرفق، والإخماد يكون بالغلبة؛ ولِهذا يُقال: خمدت نيران الظُّلم والفتنة.(الفروق اللغوية، ص٣٠).

الأنفاس: سبق تحقيقه لغويا في البيت رقم: ١٨.

نفس: أدخل النفس إلى رئتيه وأخرجه منهما، ما يدوم ببقائه ذو الروح. ج: أنفاس. تنفس: أدخل النفس إلى رئتيه وأخرجه منهما.

والمراد بالأنفاس في البيت: شعل النار، كما أن النفس يصعد ويهبط، كذلك شعلة النار تصعد وتهبط.

معنى تنفس جهنم:

ورد حديث يشرح هذا المعنى أكثر: «إن شدة الحر من فيح جهنم، اشتكت النار إلى ربها، فقال: يا رب، أكل بعضي بعضا، فأذن لها بنفَسين: نفَس في الشتاء ونفس في الصيف». (صحيح البخاري، رقم٥٣٦)

والمراد بـــ (نفسين) هنا: إصدار الشعاع مرتين: مرة في الصيف ومرة في الشتاء. وتقع أشعة الشمس في الصيف بالقرب من رأسنا، فنشعر بالحر، وفي الشتاء تقع أشعتها بعيدة منا، فنشعر بالبرد، ولا نشعر بالحر، وإلا فإن الشمس تتنفس في الفصلين نفسا حارا، فوجب أن نشعر بالحر في الفصلين، إلا أن الفرق ما ذكرناه، وهو أن ابتعاد الشمس عنا يسبب البرد وقربها إلينا يسبب الحر.

وبعبارة أخرى: أذنت النار بالتنفس نفسا حارا، وإخراج الحرارة يتطلب أنبوبا (Pipline)، وهذا الأنبوب هو الشمس، فحرارة الشمس بسبب فيح جهنم، وحرارة الدنيا بسبب قرب الشمس إليها، والنفسان في الواقع نفس واحد، إلا أنه اعتبر نفسين بالنظر إلى القرب والبعد. أو نقول (مِن) في قوله: «من فيح جهنم»: للتشبيه، أي شدة الحرارة من جنس جهنم، أي يشبها، وسبقت الأمثلة على (مِن) التشبيهية.

نافس: الرغبة في الشيء بحيث ينفرد به المرء، ولا يشاركه فيه غيره.

الفرق بين الرغبة والمنافسة:

الرغبة: الشوق إلى شيء بحيث لو شاركه أحد فيه فلا حرج.

المنافسة: الحرص على عمل شيء، مع الرغبة في عدم مشاركة أحد معه فيه.

ورد في القرآن الكريم في ذكر الجنة: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ (المطففين: ٢٦)، فإن الجنة التي ينالها المرء لا يشاركه فيها أحد.

الفرق بين المنافسة والحسد:

المنافسة: الْمُبَادرَة إلى الكمال الَّذي تشاهد من غَيْرك فتنافسه فيه حتَّى تلْحقهُ أَو تجاوزه.

الحسد: تمني زوال نعمة الغير. والتنافس جائز مستحسن وقد يكون واجبا، والحسد حرام.

ورد في التنافس قوله تَعَالَىٰ: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾(المطففين: ٢٦)

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ (الحديد: ٢١)

وورد في الحسد قوله قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ﴾ (النساء: ٨٩)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ (البقرة: ١٠٩). (الروح لابن القيم، ص ٢٥١)

(٢) التنافس: المنافسة: طلب التَّشَبُّه بالأفاضل من غير إِدْخَال ضَرَر على الفاضِل. والحسد مَصْرُوف إلى الضَّرَر لأن غايته أن يعدم الفاضِل فضله.(درر السلوك في سياسة الملوك للماوردي، ص٨٠)

وبالنظر إلى ذلك المنافسةُ عمل ذو فضل، فإنها تورث في الإنسان الرغبة في التخلق بالأخلاق الحسنة والخصائل الحميدة، ويرغب في التشبه بأهل الكمال.

قال الشاعر:

نافِس على الخيراتِ أهلَ العُلا ۞ فإنَّما الدنيا أحاديثُ

كلُّ امرئٍ في شأنه كادِحٌ ۞ فوارثٌ منهم و مَورُوثُ

(٣) فالمنافسة تتضمن مسابقة واجتهادا وحرصا. والحسد: يدل على مهانة الحاسد وعجزه، وإلا فهو ينافس ولا يَحْسُد.

قال الشاعر:

إِذَا أَعْجَبَتْكَ خِلالُ امْرِئٍ ۞ فَكُنْهُ يَكُنْ مِنْكَ مَا يُعْجِبُكْ

فَلَيْسَ عَلَى الْجُودِ وَالْمَكْرُمَا ۞ تِ إِذَا جِئْتَهَا حَاجِبٌ يَحْجُبُكْ

(مدارج السالكين ٣/٤٨. الروح، ص ٢٥١)

أسباب المنافسة:

في الأعمال الدينية: المبادرة في حب الله تعالى وطاعته.

في الأعمال الدنيوية: حب النعمة الدنيوية، والمبادرة إلى الاستفادة منها.

أسباب الحسد:

للحسد أسباب عدة، أعظمها: العداوة، والكبر، والإعجاب، وخوف فوات المقاصد، وحب الرياسة، وخبث النفس، والبخل.(إحياء علوم الدين ٣/١٩٢، بيان أسباب الحسد والمنافسة)

النهر: نَهر (ف) نَهْرا: بالغ في الصب. نَهَرَ الأرض: شقها. نَهر فلانا: زجره ووبّخه. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ (الإسراء: ٢٣)

نَهِرَ (س) نَهْرًا: كثر. أنهر: دخل في النهار، وعمل في النهار. نَهْرٌ ونَهَرٌ: قدر كبير من الماء العذب، الماء الكثير الانصباب.

ساهي: سها (ن) عنه وفيه سَهْوًا وسُهُوًّا وسَهوةً/ سَهِيَ (س) سَهْوًا: نسي، غفل عنه.

ويفرق بعض أهل اللغة فقالوا: سها فيه: تركه من غير علم، غفل عنه.

سها عنه: تركه عن علم، وأعرض عنه.

العين: للعين عدة معانٍ، تبلغ إلى مئة، سبق تفصيلها، والمراد في البيت معنيان:

(١)العين: النبع. والمراد به حينئذ الماء الخارج من النبع. والنهر ساهي الماء: أي سها الماء طريقه وجرى في غيره.

(٢) العين: الباصرة، ساهي العين: أخطأت عين النهر، وسلك النهر غير طريقه.

سدم: سدم (ن) سَدْمًا: سد الباب. سدم (س) فلان سدما: اغتم، وغضب وحزن. وهو المراد بـــ(من سدم) في البيت، أي من أجل الحزن والندامة.

سادم: أكثر ما يطلق مقرونا بالنادم: سادم نادم: مهموم قلق. سَدْمانٌ: ندمان. سَدِمٌ: نَدِمٌ.

الإعراب:

والنار خامدة الأنفاس:

(١) مبتدأ وخبره، والجملة عطف على (بات إيوان).

(٢) خامدة الأنفاس: حال. وعطف (النار) على (إيوان)، وعطف (خامدة) على (غير ملتئم). والتقدير: باتت النار حال كونها خامدة الأنفاس. من أسف: متعلق بـــ(خامدة)، والمعنى: خمدت النار لأجل أسفها.

عليه: إلى أي شيء يعود الضمير؟

(١) على كسرى: وا أسفا على كسرى، لقد ذهب ملكه.

(٢) على الفرس: أسفت النار على الفرس، حيث كانوا يخدمونها دائما، ويهيئون لها الحطب. وتفرقوا اليوم أيادي سبا، وتشتت شملهم فلم يجتمع لاحقًا.

(٣) على إطفاء النار: أي أطفئت النار التي كانت متوقدة منذ ألف سنة.

(٤) على الإيوان/ على انصداع الإيوان: وهذا هو الظاهر، أي أسفت النار على الإيوان، الذي أنفقت أعوام وأعوام في بنائه وأموال كثيرة قد آن أوان زواله وفنائه.

والنهر: عطف على (والنار).

والنهر ساهي العين: (١) مبتدأ وخبره. (٢) ساهي العين: منصوب على الحالية. و لم ينصب لضرورة الشعر.

سدم: حذف (عليه) بعده، لدلالة ما في الشطر الأول عليه.

من أسف ومن سدم: كلاهما للتعليل، وقيل: من أسف: صفة لـــ(النار). وكذلك (من سدم) صفة للنهر.

الشرح:

البيت يشير إلى قصتين:

انطفاء نار المجوس عند ولادة النبي صلى الله عليه وسلم:

(١) يعبد المجوس النار، وهي متوقدة منذ ألف سنة، ولم تخمد، لها خدم يوفرون الحطب، وليلة الصباح الذي ولد فيه النبي صلى الله عليه وسلم خمدت النار، فقلقوا وكان تحديا لهم بأن معبودهم قد تلاشى.

هذه القصة ذكرتها عدة كتب السيرة والتاريخ مفصلة.

ويتعلق بهذه القصة ما ذكرنا من التفاصيل الخاصة بالإسناد فيما يخص قصة سقوط شرفات إيوان كسرى، فإن هذه الروايات كلها تتحدث عن انطفاء النار. (للاستزادة من قصة انطفاء نار أهل فارس راجع: أعلام النبوة للماوردي ١٩٨/١. الروض الأنف ٥٧/١. سبل الهدى والرشاد ٣٥٤/١. حدائق الأنوار ٥٥/١)

وفي حديث سلمان: «واجتهدت في المجوسية حتى كنت قطن النار الذي يوقدها ولا يتركها تخبو ساعة». (مسند أحمد، رقم:٢٣٧٣٧)

قَطَن النار: أي خادمها وملازما لها.

نار المجوس: يطلق على من خدم أمة من الناس زمنا طويلا ثم لم يحسنوا إليه.

«العمري، لقد جربتكم فوجدتكم نار المجوس». (ثمار القلوب للثعالبي، ص ٥٧٨)

ومن أساء إلى صديقه وعدوه يطلق عليه «نار المجوس»؛ لأن النار تحرق عدوها وصديقها على حد سواء.(التمثيل والمحاضرة للثعالبي، ص ٢٦٥)

انحراف نهر فرات عن مجراه:

نهر فرات الذي يعيش عليه أهل فارس (واعلم أن العراق كان تبعا لفارس)، ويسقي زروعهم، انحرف عن طريقه في ليلة الصبح الذي ولد فيه النبي صلى الله عليه وسلم وشق طريقا جديدا بين دمشق والعراق، وسال إلى صحراء سماوة.

يقول المؤرخون: يجري نهر فرات في عدة مناطق حتى يدخل إلى أهل فارس/ ينصب فيه عدة أنهار صغيرة. وكان نهر فرات أهم عنصر في حياتهم، عمل نوشيروان جسرا عليه، كما بنى أبنية كثيرة أيضا. وحوله كثير من بيوت النار، تعبد فيها، وعلى كل انطفأت في هذه الليلة المباركة نارهم، وانحرف نهر فرات عن طريقه إلى مجرى آخر.

وانطفاء النار فيه إشارة إلى زوال حكومة المجوس، وانحراف النهر عن مجراه يشير إلى

أن نهر العلم والهدى قد انتقل من بني إسرائيل إلى بني إسماعيل (رسول الله صلى الله عليه وسلم).

من أسف:

سؤال: لم أسفت النار؟ وإنما عليها أن تفرح حيث انسد باب الشرك، وترك الناس عبادتها. وأخطأ النهر طريقه، وهو صواب أيضا، فما سبب الغم والأسف؟

الجواب: اغتم أهل النار (المجوس) بأنه كيف انطفأت نارهم التي كان موقدة منذ زمن طويل؟ واغتم أهل النهر كيف يعيشون إذ انحرف النهر عن مجراه؟ فإن انحراف النهر عن مجراه يفسد الأمور كلها.

كل ذلك يشير إلى أن حكومة كسرى ستزول، وفعلا قد زالت.

فتح العراق بقيادة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه:

فتحت القادسية ومناطق كثيرة من العراق بقيادة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه —أحد العشرة المبشرة والسابقين إلى الإسلام– في خلافة عمر رضي الله عنه. وحارت المجوسية في أمرها. وقتل رستم — القوي الشديد الشهير فيهم،والذي كان يخاف الأطفال بذكره–، فقد قاتل هلال بن علقمة رستم، وجرح هلال في رجله، وفي نهاية المطاف قضى على رستم وكان مصيره إلى النار، وأعطى سعد بن أبي وقاص هلال بن علقمة سلب رستم، الذي يبلغ ثمنه سبعين ألف درهم. وأما تاجه البالغ ثمنه مئة ألف درهم فقد ضمه إلى الغنيمة.(للاستزادة من القصة راجع: البداية والنهاية ٥٧/٧ وما بعدها؛ الكامل في التاريخ ٤٧٩/٢، ذكر ليلة الهرير وقتل رستم؛ تاريخ ابن خلدون ٩٩/٢)

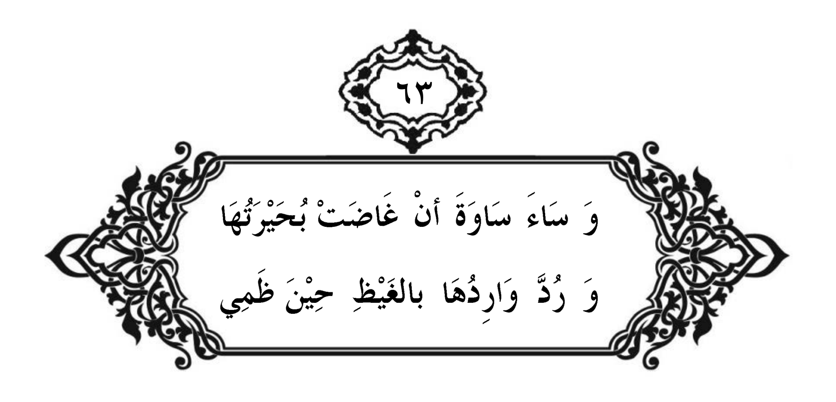
البلاغة:

(١) ساهي العين: أخطأت عين النهر. والنهر يشبه الإنسانَ، وهي استعارة مكنية، والعين من لوازم الإنسان، وهي استعارة تخييلية، ويناسب العين الخطأ في الطريق والسهو في القلق والاضطراب فكانت الاستعارة ترشيحية.

(٢) المراد بالنهر: ماء النهر، فأطلق المحل وأراد الحال. وهو مجاز مرسل.

(٣) تشبيه تمثيل: الإنسان الذي انحرف عن طريقه في قلق واضطراب مشبه به في البيت، وانحراف النهر عن مجراه مشبه.

****



اللغة:

ساء: سبق تحقيقه لغة في البيت رقم: ١٣.

ساء له معنيان:

(١) لازم: قبح. (٢) متعدٍ: أقلقه، وآذاه. والمراد في البيت المعنى المتعدي.

وقال الشاعر:

قفي قبلَ وشْك البينِ يَا ابنةَ مالكِ ۞ وَ لا تحرمِينا نظرَةً من جمالك

تعاللت كى أشجى وَمَا بك عِلّة ۞ تريدين قَتْلَى قد ظَفرت بذلك

لَئِنْ سَاءَنِي أَنْ نِلْتِني بِمَسَاءَةٍ ۞ فَقَدْ سَرَّني أَنِّي خَطَرْتُ بِبَالِكِ

(معاهدة التنصيص على شواهد التلخيص ١٥٩/١. ديوان عبد الصمد بن المعزل (ت:٨٠هـ). مختصر المعاني، ص٦٩. سمط اللآلي للمعاني، ص ٣٩. في بعض ألفاظ هذه الأبيات اختلاف)

وساوة: غير منصرف للعلمية والتانيث. وهي بين الري وهمذان. والنسبة إليها: الساوي أو الساوجي. مضى فيها عدد من العلماء والمشايخ. (معجم البلدان ١٧٩/٣). لا نظير لسكانها في الحسن والجمال، وكلهم شوافع. (آثار البلاد وأخبار العباد للقزويني، ص ٣٨٦)

غاض: غاض (ض) غَيضًا ومَغاضا ومَغيضًا: نزول الماء في القعر، وانجذابه إليه. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ (هود: ٤٤)

غاض الكرام: فقد الأشراف. أغاض: نقصه.

بحيرتها: سبق تحقيق كلمة بحر. البحيرة: الترعة، ج: بحيرات.

رُدَّ: سبق تحقيق كلمة رد في البيت رقم: ١٦.

ردَّ (ن) ردًّا وتردادا ورِدَّة: منعه، وأرجعه.

واردها: ورد (ض) وُرُودا: حضر. ورد الماءَ: نزل عند الماء/ المورد.

ورُدَ (ك) الفرس يَورد وُردةً و وُرُودا: كَانَ أَحْمَر يضْرب إِلَى صفرَة.

أورد: أحضره، وذكره. والمزيد من التفاصيل سبق في البيت رقم:٣١، ضمن (راودته).

بالغيظ: غاظ (ض) غيظا: غضب غضبا شديدا، أغاظ، غايظ، غيَّظَ: أغضبه غضبا شديدا.

اغتاظ: اشتاط غضبا.

ظَمِ: ظمِئ (س) ظمأ، وظَمانة: عطش بشدة. فهو ظامئ، وظمئ، وظمآن، وهي ظمآى، وظمآنة، ج: ظِماءٌ.

الظِمئُ: ما بين الشربتين. ظمئت الشفة (س) ظمًى: كان فيها سَمُرَة وذبول. رمح أظمى: رمح أسمر.

الإعراب:

ساء ساوة أن غاضت:

(١) ساء: فعل. ساوة: مفعول. أن غاضت: فاعل. والتقدير: أحزن أهل ساوة غيض بحيرتها. وهو الظاهر.

(٢) ساء: فعل. ساوة: فاعل. أن غاضت: أي بأن غاضت: والمعنى: حزن أهل ساوة لأجل غيض بحيرتها.

والضمير في بحيرتها: يعود على (ساوة).

ورُدَّ واردُها:

(١) عطف على (أن غاضت). والتقدير: ساء ساوة أن غاضت بحيرتها وأن رُدَّ واردها.

وقيل: قوله :(و ردَّ) عطف على (ساء). وهذا خلاف الظاهر؛ فإنه يعتبر قوله: (و رد واردها) علامة برأسها، في حين أن الشعر لم يتعرض إلا لعلامة/ حدث واحد. والشطر الثاني تكملة للشطر الأول.

(٢) (و رد) حال بتقدير قد، والتقدير: غاضت بحيرتُها حال كون الوارد عليها

مردودا. والمعنى الأول ظاهر.

بالغيظ: الباء للمصاحبة والملابسة. والمعنى: مصاحبا وملابسا للغيظ.

بالغيظ: الظرف متعلق بـــ (رد).

حين ظمئ: ظرف لـــ(وارد): الوارد وقت ظمئه.

ظمي: أصله: ظمئ، استبدلت الهمزة ياء. فصار (ظمي). ثم صار (ظَمِ) لضرورة الشعر.

رُدَّ واردها: قوله: واردها: نائب عن الفاعل، وهو الظاهر.

رَدَّ واردَها: صد نهر ساوة من ورده.

الشرح:

غيض النهر في الأرض وتلاشيه:

فيه إشارة إلى بعض ما وقع عند ولادة النبي صلى الله عليه وسلم، وهو أن مدينة ساوة كان بها بحيرة، طوله وعرضه ستة أميال. (وفيه أقوال أخرى) وماؤه صافٍ يمتاز عن مياه غيره من الأنهار، كان سكان الساحل يسافرون بالسفن فيه، فكانت مدينة ساوة منطقة خصبة للغاية ببركة هذا النهر (البحيرة).

يقول العلامة القزويني في «ساوة»: «مدينة طيبة، كثيرة الخيرات، والثمرات والمياه والأشجار... وكانت في قديم الزمان على ساحل بحيرة، غاضت عند مولد النبي صلى الله عليه وسلم...وحدثني بعض مشايخنا أنه شاهد السفينة تجري فيها».(آثار العباد والبلاد،ص١٥٧)

علاوة على ذلك كانت تقام عدة أسواق على ضفاف النهر، وتنعقد فيها الحفلات، وحولها معابد لهم. وكان للكفار فيها سطوة وغلبة.

والحاصل أن النهر غاض في الأرض وتلاشى في الليلة التالية لصبح مولد النبي صلى الله عليه وسلم.

وفيه إشارة إلى أن ثقافة العراق على شفا جرف هار، والثقافة الإسلامية مقبل عهدها.

مكانة هذه القصة من الإسناد:

يذكر هنا ما ذكرناه من المصادر وتفاصيل الأسانيد في قصة سقوط أربع عشرة

شرفة من شرفات إيوان كسرى، وخمود نار المجوس، فإن هذه الروايات تتحدث عن ثلاثة أمور:

(١) سقوط أربع عشرة شرفة من شرفات إيوان كسرى.

(٢) خمود نار المجوس.

(٣) غيض بحيرة ساوة، وغياب مائها.

ورُدَّ واردُها:

حاصل البيت أن أهل ساوة أحزنهم أمران: (١) ذهاب الماء وغيض النهر، (٢)اضطر الوارد العطشان إلى أن ينقلب على عقبيه عطشانا.

بُحَيرتَها:

الضمير يعود على «ساوة».

وإنما صرح ببحيرة ساوة؛ لأن ماء الأنهار في المناطق الأخرى من مدينة ساوة كان قد غاض في هذه الليلة، مما يشير إلى ولادته صلى الله عليه وسلم، ذكره بعض كتب السيرة، فصرح ببحيرة ساوة دلالة على أن المراد هنا غيض نهر ساوة لا غيره من الأنهار.

يقول القاضي عياض رحمه الله: «ومن ذلك ما ظهر من الآيات عند مولده... ومن العجائب ليلة مولده من ارتجاج إيوان كسرى، وسقوط شرفاته، وغيض بحيرة ساوة طبرية،... والمعروف بالغيض إنما هو بحيرة ساوة، كما هو في بعض النسخ». (الشفا بتعريف حقوق المصطفى مع حاشية العلامة الشمني ٣٦٦/١)

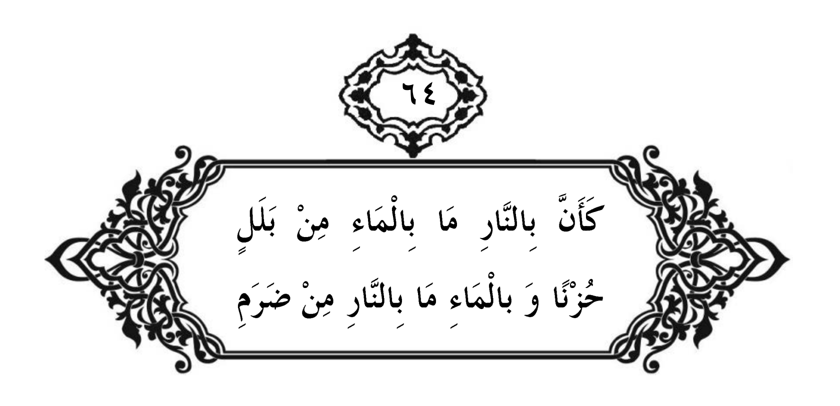
البلاغة:

ساء ساوة: مجاز مرسل. والمراد أهل ساوة. كما في قوله تَعَالَىٰ:﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ (يوسف:٨٢)، أي أهل القرية، والعلاة المحلية.

غاضت بحيرتها: مجاز عقلي. والمراد ماء البحر. نسب الفعل إلى المكان، نحو: نهاره صائم، وليله قائم، كما في قوله تَعَالَىٰ:﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ (الرعد: ١٧)

ولله الحمد أولا وآخرا.

****



اللغة:

بالماء: ماهت البئر (ن) مَوها ومؤوها: برز ماء البئر. أماهت الأرض: كانت ذات ماء كثير.

موَّهَ السماءُ: أسالت ماء كثيرا، مَوَّهَ الشيءَ: طلاه بذهب أو فضة. لمعه. الماء: سائل عليه عماد الحياة. ج: مياه، أمواه.

بَلَل: بَلَّ (ن) بلا وبَللا، وبَلالا: نَدَّاه. بلَّ رحمه: وصله، بلَّ (س) بللا، وبلالة: نجح. بلَّ في الأرض: تمتع.

بلَّ (ض) بلا، وبللا وبلولا: برأ وصح مِن مرضه.

البلال: (١) الماء. (٢) ما يبل به الحلق.

ضَرَم: ضَرِمَ (س) ضَرَمًا: ارتفعت شعلة النار، ضَرِم فلان: اشتاط غيضا. أضرَمَ: أوقده وأشعل. اضطرمت: توقدت واشتعلت. الضَرام والضِّرام: شعلة من النار، ووقدة منها.

الإعراب:

كأن: حرف مشبه بالفعل. ما بالماء: اسم مؤخر لها، بالنار: خبر مقدم. والتقدير: كأن الذي بالماء من بلل حاصل/ واقع بالنار لحزنها، وكأن الذي وقع بالنار من ضرم واقع بالماء.

بالنار: الظرف متعلق بــ خبر كان (واقع).

(ما) بيانها (من بلل)، و في الشطر الثاني قوله (من ضرم).

حزنا: للتعليل.

وبالماء ما بالنار:

(١) بالنار: في الشطر الأول معطوف عليه، والمعطوف قوله في الشطر الثاني: بالماء. وكذلك (بالماء) في الشطر الأول معطوف عليه، و(بالنار) في الشطر الثاني معطوف. وفيه عطف شيئين على معمولي عامل واحد.

(٢) جملة.

قوله: (ما بالنار) فاعل لقوله: (وقع بالماء)، وقوله: (من ضرم) بيان لـــ(ما). والواو للاستئناف. وهو خلاف الظاهر.

وذكر (حزنا) في الجملة الأولى فحذفه من الجملة الثانية.

الشرح:

هذا البيت مكملة للبيتين فيما سبق، ورد فيهما ذكر النار والنهر.

حاصل البيت: خمدت نار المجوس في الليلة القادمة من مولد النبي صلى الله عليه وسلم، يبدو أن نداوة الماء طرأت عليها، فتلاشت نارية النار. وغاض ماء نهر ساوة. أضف إلى ذلك أن صفة الهياج انتقلت من النار إلى الماء، فيبس وغاض؛ لأن النار يجفف الشيء، فجف النهر. والحاصل أن النار والماء تبادلا صفتهما أسفا على أهل ساوة.

والجدير بالذكر أن الناظم رحمه الله ذكر من أوصاف الماء: البللَ، ولم يذكر من صفاته البرودةَ أو غيرها، لأن البرودة قد تجتمع مع النار، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا﴾ (الأنبياء: ٦٩). وأما البلل فلا يجتمع مع النار، فإنه يقضي على نارية النار. وقس عليه أنه ذكر من أوصاف النار: الاضطرام، ولم يذكر الحرارة أو غيرها، لأن الحرارة قد تجتمع مع الماء، وأما الاضطرام فصفة تخرج الماء من صفة المائية.

سؤال: حزنا عليه: لم يكن ذلك باعثا للنار على الأسف، بل توقف عبادها تدعوها إلى الفرح، لأن النار من مخلوقات الله المطيعة له، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ (الإسراء: ٤٤)، فما سبب تأسف النار يا ترى ؟

الجواب من وجهين:

(١) المراد بالحزن: حزن عباد النار، أي أنهم أسفوا كثيرا على زوال ملكهم،

وفساد نظامه.

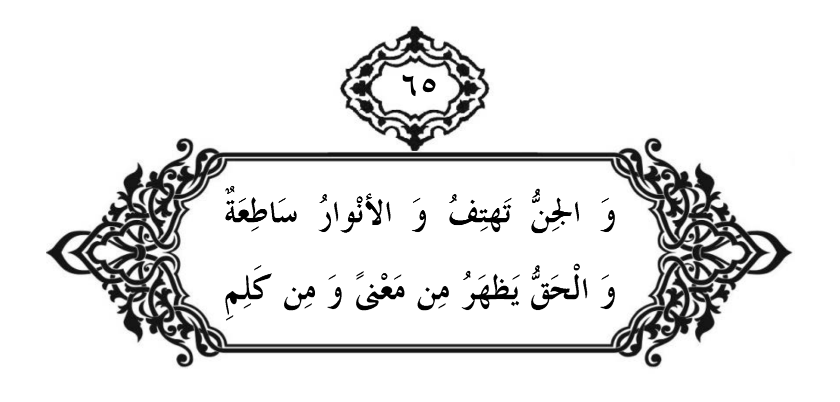
(٢) أسفت النار والماء على التخلف عن عملهما، لا على زوال ملكهم، فصفة النار الاحتراق وقد زالت، وصفة الماء الجريان وقد تلاشت.

أول من عبد النار؟

يقول بعض المفسرين: أول من عبد النار هو قابيل بن آدم. وقصته باختصار أن قربان هابيل قُبِلَ، و لم يتقبل من قابيل، فأرسل آدم قابيل إلى اليمن، فقال الشيطان له: إنما أحرقت النار قربان هابيل لأنه كان يعبد النار، فرضيت به، وغضبت عليك. فهلا عبدتها أنت كذلك. فبدأ عبادة النار. (روح المعاني ٦/١١٥. تفسير البغوي ٣/٤٥. تفسير الرازي ١١/. روح البيان٢/٣٠٧)

واعلم أن هذه القصة ليس لها إسناد، وليس لها ذكر في الأحاديث النبوية، ومعصية قابيل متحققة، وأما كفره فلم يثبت. فلا يلتفت إليها. ومن ذكر هذه القصة ذكرها بصيغة التمريض: قيل أو رُوِي. مما يدل على التمريض والضعف. قال القرطبي: «فهو أول من عبد النار فيما قيل». (تفسير القرطبي ٦/١٣٩)

****



اللغة:

الجن: جَنَّ (ض) جَنًّا: استتر. جَنَّ الليل جَنًّا وجُنونا وجِنانا: أظلمت الليلة.

جنَّ عليه: كتمه. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ (الأنعام: ٧٦)

جُنَّ جَنًّا وجُنونا وجَنَّةً ومَجنَّةً: أصابه الجنون.

يقول أهل العلم: مادة (ج،ن) تفيد معنى الاستتار.

المجنون: من استتر عقله. الجنين: الطفل في بطن الأم.

الجَنَّة: المكتومة عن أنظارنا، أو المكتوم بالأشجار والأزهار.

الجَنان: (بالفتح) القلب، فإنه مكتوم. وبالكسر: جمع الجنة، التي يدخلها المتقون في الآخرة

مِجَنَّة: الترس؛ لأنه يستتر به المرء ويصون نفسه.

الجِن: جسم ناري يتشكل بأشكال مختلفة حتى الكلب والخنْزير. وسيأتي بيان بعض الأمور حوله عما قريب.

تَهتِف: هَتَفَ (ض) هَتْفًا، وهُتَافا: صاح. هَتف به: ناداه. الهاتف: (١) ما يسمع من الصوت، ولا يرى صاحبه. (٢) التلفون. (٣) المتكلم بالهاتف.

ساطِعة: سطَعَ: (ف) سَطْعًا وسُطُوعا: ارتفع وانتشر. وقال بعض أهل العلم: سطع: أصله ارتفاع النور، ثم استعمل في ارتفاع غيره من الأشياء تبعا. (تاج العروس ١٩٤/٢١)

سَطِعَ (س) سَطَعًا: طال عنقه. وفي وصف أم معبد رضي الله عنها للنبي صلى الله عليه وسلم: «في عنقه سَطَعٌ». (المستدرك على الصحيحين، رقم:٤٢٧٤)

مِسطع: فصيح اللسان.

والحق: حقَّ (ض) حَقًّا: صدق، وثبت.

الحق: الصادق، والصواب، الموافق للواقع، غير المشكوك. وسبق تفصيله.

كلِم: كَلَمَ (ض) كَلْمًا: جرحه، هو مكلوم وكليم، ج: كَلمَى.

كالَم: خاطبه. كلَّم وتكلَّم: نطق، وتحدث.

الكلمة: (١) عند النحاة: لفظ يدل على معنى واحد وضعا. (٢) الجملة، نحو: لا إله إلا لله. (٣) الكلام الطويل، والخطبة والمقالة ونحوها.

الإعراب:

والأنوار ساطعة:

(١) عطف على (والجن قمتف)، وهذا هو الواضح.

(٢) والجن: حال من الضمير في (قمتف)، وهو معنى بعيد؛ فإنهما قصتان مختلفتان، أشار إليهما البيت. فلا يكون الجملة الثانية حالا من ضمير الجملة الأولى، بل هي جملة مستقلة.

التنوين في (من كلم) و(من معنى) للتعظيم. و(من كلم) عطف على (من معنى).

إيراد: هذه أي الجن قمتف جملة اسمية، تدل على الدوام، وفي البيت ذكر صوت الجن وهو غير دائم؟

الجواب: أن الجملة الاسمية إذا كان خبرها جملة فعلية دل على الحدوث، لا الدوام، وفي البيت الجملة الاسمية خبرها جملة فعلية، فلا يدل على الدوام.

الشرح:

الجن من ذرية الجان، وهو مخلوق من النار. واعلم أن الشيطان/ إبليس من الجن إلا أن ذرية الشيطان يطلق عليها الشياطين، وذرية الجان يطلق عليها الجن.

أقسام الجن:

ذكر الحديث النبوي ثلاثة أقسام للجن:

عن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الجن

ثلاثة أصناف: صنف لهم أجنحة يطيرون في الهواء، وصنف حيات وكلاب، وصنف يحِلون و يَظْعَنون».(المستدرك للحاكم، رقم:٣٧٠٢، وقال الحاكم: صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي)

ورد ذكر هذه الأقسام الثلاثة للجن في الحديث النبوي بألفاظ مختلفة عن أبي الدرداء وأبي ثعلبة رضي الله عنهما في عدة مصادر حديثية. (الأسماء والصفات للبيهقي ٢/٢٦٥. العظمة لأبي الشيخ ٥/١٦٣٩-١٦٤٠. الهواتف لابن أبي الدنيا ٢/٥١٦. مكايد الشيطان لابن أبي الدنيا، ص ٢٣)

أديان مختلفة للجن:

من الجن مسلمون وكفار وغيرهم شأن الإنس، وفيهم فرق باطلة أيضا. يقول الأعمش: سألت جنيًّا: ما الرافضة منكم؟ فقال: شرنا. يقول الشيخ العلامة بدر الدين شبلي الحنفي– من المحدثين والقضاة المشهورين في زمانه-: «وقال أحمد بن سليمان النجاد في أماليه: «...ثنا أبو معاوية قال: سمعت الأعمش يقول: تزوج إلينا جنِّي فقلت له: ما أحب الطعام إليكم؟ فقال: الأرز. قال: فأتيناه به. فجعلت أرى اللقم ترفع ولا أرى أحدا. فقلت: فيكم من هذه الأهواء التي فينا؟ قال: نعم. قلت: فما الرافضة منكم؟ قال: شرنا. قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي تغمده الله برحمته: «هذا إسناد صحيح إلى الأعمش».(آكام المرجان في أحكام الجان، ص ٦٩)

قلت: حكى الحافظ ابن كثير هذا النص في تفسيره نقلا عن الأمالي، وفي آخره كلام المزي هذا: هذا إسناد صحيح. (تفسير ابن كثير ٤/٤٥٥)

ويجدر هنا الإشارة إلى أن الروافض شر الآدميين أيضا. روي عن الشعبي في حديث طويل، ذكر فيه الصفات التي يشارك فيها اليهود والروافض على حد سواء، ثم قال: اليهود و النصارى خير من الروافض. وذلك أن خير الناس عند النصارى هم حواري عيسى عليه السلام، وعند اليهود هم أصحاب موسى عليه السلام، وأما عند الروافض فشر الناس أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم.

« أنا عبد الرحمن بن عبد الله الحربي... عن مالك بن مغول قال: قال الشعبي: يا مالك...، وفضلت اليهود والنصارى على الرافضة بخصلتين: سئلت اليهود: من خير أهل ملتكم؟ قالوا: أصحاب موسى، وسئلت الرافضة: من شر أهل ملتكم؟ قالوا: أصحاب محمد، وسئلت النصارى: من خير أهل ملتكم؟ قالوا: حواري عيسى، وسئلت الرافضة:

من شر أهل ملتكم؟ قالوا: حواري محمد، أمروا بالاستغفار لهم فسبوهم».(شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي ٨/١٤٦٢-١٤٦٣. ومثله في الصواعق المرسلة ٢/١١٤؛ وتفسير القرطبي١٨/٣٣؛ ومنهاج السنة النبوية ١/١١)

حكم الأعمال الصالحة من الجن:

حاصل المذاهب في هذا الصدد: عن أبي حنيفة ثلاث روايات: (١) التوقف. (٢)في الجنة. (٣) النجاة من النار فقط.

وذهب الجمهور وصاحبا أبي حنيفة إلى أن لهم الأجر، وهذا القول هو الأصح.

وقال بعض علماء الأحناف: كان أبوحنيفة يقول بالأجر للجن على الأعمال الصالحة، ولكنه يتوقف في كيفية الثواب وتفصيله. جاء في تفسير روح البيان:

«توقف أبوحنيفة في ثواب الجن ونعيمهم. وقال: لا استحقاق للعبد على الله، وإنما ينال بالوعد ولا وعد في حق الجن إلا المغفرة والإجارة. فهذا يقطع القول به. وأما نعيم الجنة فموقوف على قيام الدليل، انتهى.

قال سعدى المفتي: وبهذا تبين أن أبا حنيفة متوقف لا جازم بأنه لا ثواب لهم كما زعم البيضاوي يعني أن المروي عن أبي حنيفة أنه توقف في كيفية ثوابهم لا أنه قال: لا ثواب لهم».(روح البيان ٨/٦٦١)، وقريب من هذا ما ذكره النسفي في تفسيره مختصرا. (مدارك التنزيل ٢/٣٠٠)

وموجز أدلة الجمهور ما يلي:

(١) قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ (الرحمن: ٤٦) (٢) قَالَ تَعَالَى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (الرحمن: ٤٧) ، الخطاب فيهما للفريقين من الجن والإنس.

(٢) قال في سورة الأنعام بعد ذكر الإنس والجن: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ (الأنعام: ١٣٢)

(٣) قَالَ تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ١٨ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ١٩﴾ (الأحقاف)

تحدثت الآية الكريمة عن العقاب والثواب للجن والإنس.

(٤) قَالَ تَعَالَى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ (الرحمن: ٧٤)

(٥) كثيرا ما وعد القرآن الكريم بالثواب ودخول الجنة على الأعمال الصالحة، دون تخصيص الوعد بالإنس، منها قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾ (الكهف: ١٠٧)

(٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما: قال: «الخلق أربعة: فخلق في الجنة كلهم. وخلق في النار كلهم، وخلقان في الجنة والنار. فأما الذين في الجنة كلهم فالملائك، وأما الذين في النار كلهم فالشياطين، أما الذين في الجنة والنار فالجن والإنس، لهم الثواب وعليهم العذاب». (العظمة لأبي الشيخ ١٦٩٥/٥)

أخرج هذه الرواية عدد من المفسرين منهم العلامة السيوطي والقاضي ثناء الله البانى بتي رحمه الله من العلماء المحققين عن أبي الشيخ نفسه.

(٧) إذا كان لهم العقاب على الأعمال السيئة لزم أن يكون لهم الثواب على الأعمال الصالحة، قال تعالى: ﴿ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ۝١٤ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ (الجن)

أشرنا إلى بعض الأمور الخاصة بالجن بهذه المناسبة، ولا يسعنا تفصيلها هنا.

للاستزادة من أحوال الجن وأحكامهم مفصلة راجع:

١- آكام المرجان في أحكام الجان، للعلامة المحدث القاضي بدر الدين الشبلي الحنفي المتوفى سنة ٧٦٩هـــ. نقله إلى الأردية الشيخ المفتي محمد الميروتي خريج دارالعلوم/ ديوبند. ونشر باسم «*جنات کے حالات اور احکام*». ولا يفوتنك أن كتاب «آكام المرجام» قد طبع بأسماء أخرى، مع أن الكتاب والمؤلف واحد. طبعه الشيخ إبراهيم محمد الجميل – أحد علماء مصر– عام ١٩٨٢م بعد المقارنة مع مخطوط له في دار الكتب المصرية، وله تعليقات خفيفة في بعض المواضع. و بما أن المصنف من المحدثين فيورد الحديث غالبًا معزوا إلى المصدر.

٢- لقط المرجان في أخبار الجان للعلامة عبد الرحمن بن أبي بكرجلال الدين السيوطي رحمه الله تعالى، المتوفى٩١١هـــ، طبع هذا الكتاب عدة طبعات.

٣- عقد المرجان فيما يتعلق بالجان للشيخ علي بن إبراهيم بن أحمد الحلبي الشافعي المتوفى ١٠٤٤هـــ.

٤- عقَد العلامة ابن نجيم المصري رحمه الله، بابا مفصلا فيما يخص أحكام الجن في كتابه «الأشباه والنظائر».

٥- أفرد العلامة عبد الحي اللكنوي أحكام الجن في كتابه «نفع المفتي والمستفتي»، كما عمل رسائل مستقلة في بعض مسائل الجن.

٦- وصدرت الرسائل في اللغة الأردية في هذا الموضوع، منها: «**جنات کے** *پراسرار* **حالات**» -أحوال الجن الخفية- لصاحبه: شبير حسين الجشتي النظامي، طبع هذا الكتاب من مكتبة العلم/ لاهور، باكستان. جمع فيه المؤلف مواد زاخرة، وأكثر من ذكر الوقائع التاريخية، وهي في حاجة إلى العزو والتوثيق.

الجن تهتف:

هتاف الجن بمولد النبي صلى الله عليه وسلم:

كانت الجن تهتف بمولد النبي صلى الله عليه وسلم، فما سببه؟

(١) لأنهم كانوا فرحين بمولده صلى الله عليه وسلم؛ فإنه صلى الله عليه وسلم نبي الإنس والجن. وسبق هذا المعنى في البيت رقم:٣٤، ضمن: «محمد سيد الكونين والثقلين».

وردت عدة روايات تاريخية بتبشير الجن بمولد النبي صلى الله عليه وسلم، منها:

١- بشرت الجن بمولده صلى الله عليه وسلم عند مقبرة مكة المكرمة وأنشدت أبياتا، نذكر منها قصتين:

يقول العلامة ابن الجوزي رحمه الله: «عن عبد الرحمن بن عوف قال: لما ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم هتفت الجن على أبي قبيس على الحجون، الذي بأصله المقبرة، وكانت قريش تبل فيها ثيابها، فقال:

فَأُقْسِمُ لا أُنْثَى مِنَ النَّاسِ أَنْجَبَتْ ۞ وَلا وَلَدَتْ أُنْثَى مِنَ النَّاسِ وَاحِدَهْ
كَمَا وَلَدَتْ زُهْرِيَّةٌ ذَاتُ مَفْخَرٍ ۞ مُجَنَّبَةٌ لُؤْمَ الْقَبَائِلِ مَاجِدَهْ
فَقَدْ وَلَدَتْ خَيْرَ الْقَبَائِلِ أَحْمَدَا ۞ فَأَكْرِمْ بِمَوْلُودٍ وَ أَكْرِمْ بِوَالِدِهْ

هذه الرواية حكاها العلامة ابن أبي الدنيا بإسناده. (الهواتف لابن الجوزي ١/١٦٢-١٦٣)

حصل لغير واحد من الناس أنه كان بالقرب من الصنم إذ خرج منه صوت، يبشر

بمولد النبي صلى الله عليه وسلم يعرب عن فرحه به.

واعلم أننا نكتفي بذكر القصص التي تتضمن بشارة الجن عند مولده صلى الله عليه وسلم، وأما الروايات الخاصة بالبشارة ببعثته صلى الله عليه وسلم فغير هذه الروايات. وليس هذا محل ذكرها. سيأتي ذكرها في موضعها بإذن الله تعالى.

٢- عن عروة أن نفرا من قريش - منهم ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي، وزيد بن عمرو بن نفيل، وعبد الله بن جحش بن رئاب، وعثمان بن الحويرث - كانوا عند صنم لهم إذ رأوه مكبوبا على وجهه، فأنكروا ذلك فأخذوه فردوه إلى حاله، فلم يلبث أن انقلب انقلابا عنيفا، فأخذوه فردوه إلى حاله فانقلب الثالثة فلما رأوا ذلك اغتموا له وأعظموا ذلك. وقالوا : مالك؟ فخرج صوت منه:

تَرَدَّى لِمَوْلُوْدٍ أنارتْ بِنُورِهِ ۞ جَمِيعُ فِجَاجِ الأَرْضِ فِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ
وَ خرَّتْ لَهُ الأَوْثَانُ طُرًّا وأرعدتْ ۞ قُلُوبُ مُلُوكِ الأَرْضِ طرا من الرُّعب
و صدّتْ عَنِ الْكُهَّانِ بِالْغَيْبِ جنُّهَا ۞ فَلا مخبرُ عَنْهُمْ بحَقٍّ و لا كذب
وَ نَارُ جَمِيعِ الْفُرْسِ بَاخَتْ وَ أَظْلَمَتْ ۞ وَ قَدْ بَاتَ شاهُ الْفُرْسِ فِي أَعْظَمِ الْكَرْبِ

(تاريخ مدينة دمشق ٤٢٤/٣. وهذه القصة مع هذه الأبيات ذكره غير واحد من المصادر: البداية والنهاية ٥١٤/٢. السيرة الحلبية ١١٦/١. سبل الهدى والرشاد ٣١٥/١. الخصائص الكبرى ٨٩/١. وذكر العلامة ابن عساكر هذه القصة في موضعين من تاريخ دمشق بإسناده. (٤٢٤/٣، ٣٣٧/٣٨).

(٣) عن أسماء بنت أبي بكر قالت: كان زيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل يذكران أنهما أتيا النجاشي بعد رجوع أبرهة من مكة، قالا: فلما دخلنا عليه قال لنا أصدقائي: أيها القرشيان هل ولد فيكم مولود؟ فذكر له ورقة بن نوفل القصة المذكورة. ثم قال زيد بن عمرو بن نفيل: كنت في مثل هذه الليلة على جبل أبي قيس إذ رأيت رجلا نزل من السماء له جناحان أخضران، فوقف على أبي قبيس ثم أشرف على مكة فقال: ذل الشيطان وبطلت الأوثان ولد الأمين... الخ. ثم قال النجاشي: ويحكما أخبركما عما أصابني، إني لنائم في الليلة التي ذكرتما في قبة وقت خلوتي، إذ خرج عليَّ من الأرض عنق ورأس، وهو يقول: حل الويل بأصحاب الفيل، رمتهم طير أبابيل، بحجارة من سجيل، هلك الأشرم المعتدي المجرم، وولد النبي الأمي، المكي الحرمي، من أجابه سعد، ومن أباه **عتد)**.(البداية والنهاية٤٢٣/٢. سبل الهدى والرشاد ٣٥١/١. إمتاع الأسماع للمقريزي، المؤرخ المشهور٣٠/٤.

الخصائص الكبرى١/٩٠)

وعلى كل كانت الجن يخبر بمجيء النبي صلى الله عليه وسلم بصوت جهوري، وذلك لأنهم:

(١) فرحوا بمقدمه السعيد، فتباشروا به.

(٢) فسد أمر بعض الجن فصاحوا غضبا. وتوضيحه بإيجاز أن كثيرا من الناس في الجاهلية كانوا يستعينون بالجن، وخاصة إذا نزلوا واديًا من الأودية، استعاذوا بالجن، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ (الجن: ٦). ذكر عدد من المفسرين في تفسير هذه الآية قصة سفر أبي السائب الأنصاري رضي الله عنه، وفيه ذكر الاستعاذة بالجن.

عن كردم بن أبي السائب، قال: خرجت مع أبي لحاجة من المدينة نريد مكة، وذلك أول ما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم بمكة، فأتى بنا إلى صاحب غنم، فلما انتصف الليل جاء الذئب فأخذ حملا من غنمه، فوثب الراعي، فقال: يا عامر الوادي جارك، قال: فسمعنا صوتا لا نرى صاحبه: يا سرحان أرسله، قال: فجاء الحمل يشتد ما به كدمة حتى دخل في الغنم، قال: وأنزل على النبي صلى الله عليه وسلم وهو بالمدينة: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾(الجن:٦). (المعجم الكبير للطبراني ١٩١/١٩، وذكره الهيثمي ثم قال: رواه الطبراني، و فيه عبد الرحمن بن إسحاق، وهو ضعيف. مجمع الزوائد ٢٧٢/٧)

كان الناس في الجاهلية يعتقدون في الجن خيرا بمثل هذه الوقائع، وكان للجن سطوة وغلبة، وحيث إن الشريعة المحمدية جاءت بالتحذير الشديد من الاستعاذة بغير الله تعالى، وبالتأكيد الشديد على الاستعانة بالله تعالى، فكان مقدمه صلى الله عليه وسلم مثار غضب لبعض الجن، حيث رأوا أن سطوتهم قد تلاشت وذهبت أدراج الرياح.

ويتوهم بعض الناس أنه لا يجوز الاستعانة والاستعاذة بالأصنام، ويجوز ذلك بأولياء الله، و هذا باطل، فإنه يحرم الاستعانة بغير الله تعالى فيما يفوق الأسباب.

تنبيه:

والمراد بـــ (والجن تهتف) في البيت تباشر الجن بعضهم بعضا، ونداء بعضهم بعضا، لا إخبار الكهنة؛ لأنه سيأتي ذكره لاحقا.

الأنوار ساطعة:

البيت يشير إلى أن نورا خرج من جسد آمنة حين مولد النبي صلى الله عليه وسلم، أضاءت له قصور الشام. وهذا حديث صحيح. قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «وشاهده حديث العرباض بن سارية قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:... إني دعوة إبراهيم، وبشارة عيسى بي، ورؤيا أمي التي رأت، وكذلك أمهات النبيين يرين، وأن أم رسول الله صلى الله عليه وسلم رأت حين وضعته نورا أضاءت له قصور الشام».

وأخرجه أحمد، وصححه ابن حبان والحاكم، وفي حديث أبي أمامة عند أحمد نحوه. وأخرج ابن إسحاق... قالت: «أضاءت له بصرى من أرض الشام». (فتح الباري ٥٨٣/٦؛ و الحديث في مسند أحمد ١٧١٥/٣٨٢/٢٨، و ١٧١٦٣/٣٩٥/٢٨، وفي مواضع أخرى . قال الشيخ شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح لغيره. صحيح ابن حبان ٣١٢/١٤)

سجود النجوم ليلة مولده صلى الله عليه وسلم:

روي أن النجوم سجدت تلك الليلة (أي تلألأت كثيرا).

عن عثمان بن أبي العاص، يقول: أخبرتني أمي، قالت: شهدت آمنة لما ولدت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما ضربها المخاض نظرت إلى النجوم تدلى، حتى إني أقول لتقعن علي».(المعجم الكبير ١٨٦/٢٥. دلائل النبوة لأبي نعيم، ص٧٦)

وفي إسناده يعقوب بن محمد الزهري، وعبد العزيز بن عمران، وهما ضعيفان. قال الحافظ ابن حجر: «يعقوب بن محمد...صدوق كثير الوهم والرواية عن الضعفاء». و «عبد العزيز بن عمران... يعرف بابن أبي ثابت، متروك، احترقت كتبه فحدث من حفظه، فاشتد غلطه، وكان عارفا بالأنساب».(تقريب التهذيب، ص ٤٢٠)، فالرواية عنه ضعيفة.

يقول أهل العلم: هذا النور إشارة إلى أن نور الإسلام سيصل إلى الشام، وتقوم للمسلمين بها حكومة. قال المناوي: «وذلك النور إشارة لظهور نبوته ما بين المشرق والمغرب».(التيسير بشرح الجامع الصغير ٤٤/٢)

من معنى ومن كلم:

(١) كان الحق يتجلى من معاني القرآن الكريم ونظمه.

(٢) كان الحق يتجلى من نور وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن كلمات الجن.

(٣) كان الحق يتجلى من الدلائل العقلية والدلائل الحسية، فالمراد بـــ(معنى) الأمور المعقولة، منها: أن النبي صلى الله عليه وسلم جاء بالقرآن العظيم وهو أمي، أو أنه صلى الله عليه وسلم جاء بنظام الحياة، الذي يتكفل حل المشاكل التي تواجه البشرية إلى يوم القيامة.

والمراد بـــ(من كلم) الأدلة الحسية، منها شق القمر وتكثير الطعام، وغيرهما من المعجزات.

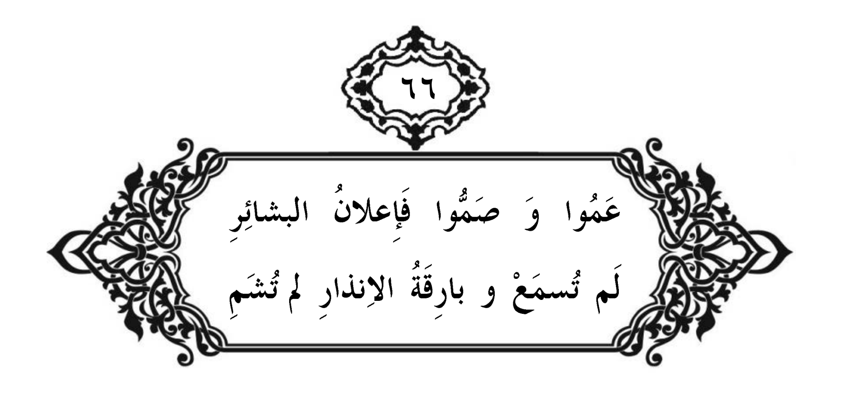
البلاغة:

في (من معنى ومن كلم) لف ونشر غير مرتب، ويقال له: مشوش.

أي أن (من معنى) يتعلق بالأخير: الأنوار ساطعة. وأما (من كلم) فيتعلق بـــ(والجن تهتف).

انتهى، ولله الحمد أولا وآخرا.

****



اللغة:

عموا: عمِيَ (س): ذهب بصره، ابيضت عيناه. أعمى، ج: عُميٌ، وعُميانٌ، عمياء.

عمي عليه شيء: اختفى عنه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ يَوۡمَئِذٖ﴾ (القصص: ٦٦)

عَمَى (ض) عَمْيًا: نزل الماء، وأمطر السحاب.

صَمُّوا: صَمَّ (س) صَمَمًا، وصَمًّا: ذهب سمعه.

صمم: أصله اتصال الأجزاء، والصمام: السداد الذي يسد به الزجاجة. (يقول بعض الأطباء: إذا فقِدَت ثقبة الأذن لم يدخل الصوت).

فإعلان: علَن (ض) عُلُونا، وعلِنَ (س) عَلَنًا، وعَلانية: ظهر، وانتشر. أعلن: أظهره، ونشره، وجهر به. عالَنَ عِلانا: تحدث لأحد بصراحة.

البشائر: سبق تحقيق كلمة (بشر).

بشائر: يحتمل وجهين:

(١) جمع بشارة،أي لم يُسمع إعلان البشارات.

(٢) جمع بشير، أي لم يسمع إعلان البشير.

بارقة: سبق تحقيق كلمة (برق) في البيت رقم: ٢.

برَق (ن) بَرقًا، وبَريقا: لمع البرق. بَرِقَ (س) بَرَقًا: شخص بصرَه فلم يطرف دهشا.

التاء في بارقة تحتمل وجهين:

(١) للمبالغة، أي لمع لمعانا شديدا.

(٢) للتانيث، يقال: الصاعقة البارقة. ويطلق البارقة على السيف اللامع، ويقال:

بيده بارقة.

الإنذار: سبق تحقيقه في البيت رقم: ١٣، و٦٠.

نذِرَ (س) نَذْرًا: علم بما يُحذر. فإذا دخلت عليه همزة التعدية أفاد معنى إخبار أحد بما فيه خطر. وكان الأنبياء عليهم السلام منذرين، يخبرون الأمة بما فيه خطر.

تُشَم: شام السيف (ض) شَيْمًا: أدخل السيف في غمده، وأخرجه منه. وهو من الأضداد. (٢) رؤية الشيء بعد الانتظار.

شام البرق: نظر إلى حيث يلمع البرق. تشيَّم: تشبَّه. شيمة: عادة، طبيعة. ج: شِيَمٌ.

رؤية عامة الأشياء يطلق عليه (نظر)، ورؤية السحاب يطلق عليها (شيم)، يقال: شِمت السحاب.

الإعراب:

عموا: المراد بهم الكفار، عمى جميع الكفار، وصح إعادة الضمير إليهم وإن لم يصرح بهم؛ لأنهم معهودون في الذهن.

لم تسمع: فعل. إعلان البشائر: فاعله.

إيراد: كيف أنث الفعل (لم تسمع) مع أن (إعلان) مذكر؟

الجواب: (إعلان) مذكر، ولكنه أضيف إلى مؤنث، فتأثر المضاف بتأنيث المضاف إليه. والضابط يقول: إذا كان المضاف إليه من جنس المضاف، أو كانا بمعنى واحد، جاز تانيث المضاف نظرا إلى تانيث المضاف إليه. وله أمثلة عدة، منها:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ ﴾ (لقمان: ١٦)

الشرح:

في البيت إجابة عن سؤال، واستكمال لما ذكر في السابق.

لِمَ لَمْ يقبل الكفار الحق مع أنه صلى الله عليه وسلم أعطي من المعجزات والأدلة الواضحة الكثيرة؟

فأجاب عنه بأنهم عمي وصم، أي لم يعملوا بما سمعوا ورأوا، فإن من واجب المرء أن يقبل الحق بعد ما يسمعه ويراه، وهؤلاء لم يقبلوا الحق، فهم: ﴿ صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡىٌ ﴾ (البقرة:

١٨)،و ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞ﴾ (البقرة: ٧)؛ لأن الله تعالى قد هيأ لهم من الفرص ما هيأ لغيرهم من البشر، وفتح عليهم أبواب الخير، إلا أنهم أفسدوا بقدرتهم وصلاحيتهم، فختم الله على قلوبهم، فلا يدخل إليه شيء من الخير.

البيت متعلق بما قبله، وفيه لف ونشر مشوش:

(١) عموا عن الأنوار، وصموا عن هتف الجن. فهو لف ونشر مشوش.

(٢) عموا عن الكلام وصموا عن المعنى، فهو لف ونشر مرتب.

قصة فيها عبرة:

أشار الناظم رحمه الله إشارة لطيفة، فيها عبرة أي عبرة لنا عامة ولأهل العلم خاصة. وذلك أن من لم يسلك وفق إدراك حواسه، و لم يعمل بمقتضاه، فكأنه مشلول الحواس، ومن لم يأخذ بالقول بعد أن أدركه جيدا، كأنه جاهل. ومن لم يعمل بمقتضى شيء من الأشياء بعد أن رآه بأم عينيه، فكأنه لم يره، ولذا وصف المنافقون بـــ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ﴾.

وقال أبو الطيب الحكيم:

وما انتفاع أخي الدنيا بناظره ۞ إذا استوت عنده الأنوار والظلَمُ

(ديوان المتنبئ)

البلاغة:

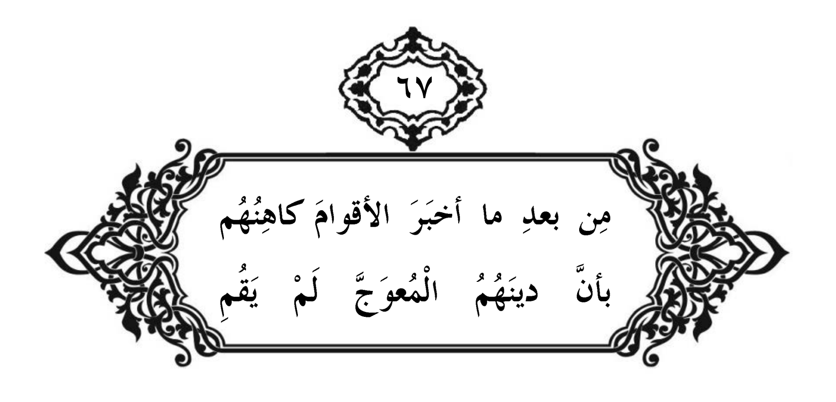
لم تُسمع، لم تُشم: فيه لف ونشرمشوش.

عموا: متعلق بقوله: بارقة الأنوار.

صموا: متعلق بقوله: إعلان البشائر. ومثاله من القرآن الكريم قوله قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ١٠٦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١٠٧﴾ (آل عمران)

فإن أخر في التفصيل ما قدمه في الإجمال، أو إن أخر في الإجمال ما قدمه في التفصيل كان لفا ونشرا مشوشا. ويطلق عليه: المعكوس. وتدريبات اللف والنشر وأقسامه وأمثلته سبقت في البيت رقم: ٧.

انتهى، ولله الحمد.



اللغة:

أخبر: خبَر (ن) خُبرًا وخِبرة، ومَخبَرةً: ابتلاه، وجربه.

خبِرَ (س) خَبَرًا: كثر خبارها. خبُرَ (ك) خُبُورا: كان ذا تجربة.

أخبر: أطلعه. الاطلاع بعد الخُبرة.

تفيد كلمة الخبر أنه يجب أن تتأكد من الشيء قبل إخبارك به غيرك. خابر: (١) زارعه. (٢) تحادثا.

كاهنهم: كهن (ف) كَهانة: أخبر بالغيب، كهُنَ (ك) عمل بالكهانة.

الكاهن: المخبر عن المغيبات بأخبار الجن، أو بحساب النجوم، أو بالفراسة الموهوبة.

الفرق بين الكاهن والعراف:

(١) الكاهن والعراف: المخبر عن المغيبات، فهما مترادفان.

(٢) الكاهن: من يخبر عن الأمور المستقبلة. والعراف: من يخبر عن مكان المسروق والضالة.

(٣) الكاهن أعم من العراف. فالكاهن يخبر عن الغيب سواء يجمع المقدمات أم لا، والعراف يجمع بعض المقدمات والأحوال بعضها إلى بعض ويخبر بالنتائج. ويعمل بعمل الكاهن أيضا. فالكاهن والعراف بينهما عموم وخصوص مطلق. فكل عراف كاهن، وليس كل كاهن عراف حيث يجمع العراف المقدمات والمتعلقات بعضها إلى بعض ويخبر بما وصل إليه.

(٤) الكاهن: يخبر عن المستقبل. والعراف: يتفحص اليد أو الوجه ويخبر بما في القلب.

وخلاصة القول أن العراف يخص خبره بالماضي والكاهن يخص خبره بالمستقبل.

ثم الكهنة على أقسام وأنواع عدة: منهم من يدعي أن جنيا يخبره به. ومنهم من يقول: أطلع على الغيب بما عندي من الفهم والفطنة. و وجداهم قوي جدا.

يقول المؤرخ الشهير العلامة المسعودي (ت:٣٤٦هــ) في مروج الذهب: «وأما العراف وهو دون الكاهن». (مروج الذهب ١٥٤/٢)

وفي الحديث: «من أتى عرافا أو كاهنا فصدقه فيما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم».(المستدرك، رقم:١٥)

يقول أهل العلم: قد يطلق «الكاهن» على المنجم —الذي يستفيد العلم من النجوم.(راجع : شرح النووي على مسلم٢٠٣/١. فتح الباري ٦١٦/١٠. تهذيب الأسماء واللغات للنووي ٢٥٤/٢. النهاية في غريب الحديث ٢١٥/٤).

للاستزادة من تفاصيل الكهانة وما يتعلق به راجع: مروج الذهب ١٥١/٢-١٧٦.

دينهم: دانَ (ض) دينا وديانة: طاع. قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ ﴾ (التوبة:٢٩)

دان يدين: اعتنق دينا. دان (ض) فلانا ودينا: (١) تبعه. (٢) حاسبه. (٣) جازاه. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ (الواقعة: ٨٦) أي فلولا ترجعون أرواحكم إلى أجسادكم إن لم تكونوا في سيطرة الله، بل أنتم في رقابة أنفسكم فلم لا ترجعونها.

دان فلانا دينا: أقرضه.

الدين: (١) الدّيانَة، وَهو اسم لِجَمِيع مَا يعبد بِهِ الله. (٢) السلوك. (٣) العادة. الحكم والقضاء. ج: أديان وأدين.

وأيسر تعريف للدين: ما شرعه الله تعالى لنفع العباد بواسطة الأنبياء. وسيأتي من تفاصيله وما يرادفه لاحقا.

الدَّين: ما يلزم في الذمة لأجل المبايعة، أو استهلاك شيء. والقرض: إعطاء المثلي ليؤخذ مثله بعده بمدة كإعطاء الدراهم أو الحنطة مثلا.

المعوج: عوِج (س) عَوَجًا: انحنى ومال. عوِج الإنسان: ساء خلقه.

العِوَج: عدم الاستقامة.

الفرق بين العِوَج والعَوج:

والعَوج –بفتح العين– يستعمل في الأعيان كالعصا والجدار. والعِوج بكسر العين: لغير الأعيان. يقال: في رأيه عِوج. وفي عصاه عَوج. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ (الزمر: ٢٨)

وفي الصحاح: «قال ابن السكيت: وكل ما كان ينتصب كالحائط والعود قيل فيه: عَوج بالفتح، والعِوج بالكسر ما كان في أرض أو دين أو معاش. يقال: في دينه عِوج». (الصحاح ١/٣٣١)

عَوَّجَ: جعله أعوج. اعوَجَّ الشيء: انحنى، فهو مُعْوَجٌّ.

لم يقم: قام الأمر، أي دام الأمر. (ومن معاني «قام» الدوام والبقاء). قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ (المائدة: ٥٥)، أي يديمون عليها مع مراعاة الشرائط والأركان والآداب.

الإعراب:

بعد ما أخبر: ما: مصدرية. والتقدير: بعد إخبار الكهنة أقوامهم.

أخبر الأقوام: أخبر: فعل، والأقوام: مفعول، وكاهنهم: فاعل.

بأن دينهم المعوج: الباء للجر، ودينهم المعوج: الموصوف مع صفته اسم (أن). لم يقم: جملة فعلية خبر أن. و(أن) مع اسمها وخبرها مجرورا متعلق بـــ (أخبر).

من بعد: الظرف متعلق بـــ (صَمُّوا).

لم يقم: أصله (لن يقوم)، وصار (لم يقم) لضرورة الشعر.

وتقدير البيت: صمَّ الأقوام بعد إخبار كهنتهم إياهم بعدم قيام دينهم.

الشرح:

سبق في البيت الماضي: (عموا وصموا)، يشرحهما الناظم، فهذا البيت شرح لقوله: (صموا) والبيت التالي شرح لقوله: (عموا).

بمَ يتعلق قوله: من بعد ؟

(١) متعلق بـــ (صموا): ذهب سمعه بعد أن أخبرهم كهنتهم بمجيء النبي المرسل.

(٢) متعلق بـــ (لم تسمع): أي لم تُسمع البشارات، رغم أن كهنتهم أخبروهم بها.

(٣) متعلق بهما جميعا.

من بعد ما أخبر:

إيراد: أخبر الكهنة الناس، ثم إنهم لم يذعنوا لهم، فكأن قول الكاهن مما يقبل ويؤخذ، في حين ورد الحديث النبوي بأن من أتى كاهنا وصدقه فقد كفر.

الجواب: للتشنيع عليهم بحسب عقيدتهم. أي أن خبر الكاهن موكَّد في زعمهم، و يأخذون برأيهم في الأمور كلها، و لم يولوا أهمية له في هذا الصدد، فكأن هذا جواب إلزامي. أي أنه يجب أن تقبلوا في زعمكم.

حكم سؤال الكاهن والساحر والمنجم:

في الحديث: «من أتى عرافا أو كاهنا فصدقه فيما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم». (المستدرك، رقم:١٥)

وفي حديث آخر: «عن بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من أتى عرافان فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة». (صحيح مسلم، رقم:٢٢٢٣)

(١) لا يحل لأحد أن يسأل كاهنا عن شيء أو يعتبره عالما للغيب، أو يجزم بخبره، وهو كفر.

(٢) فإن اعتقد أن هذا الخبر استرقه الجن من الملائكة وأطلع عليه الكاهن، وصدقه فيه، لم يكن كفرا، وإن كان حرامًا.

(٣) إن سأل الكاهن استهزاءً ليتبين كذبه، لم يكن كفرا، ولا بأس به.

(٤) إن سأل الكاهن امتحانا واختبارًا، أي لا يصدقه، ولايكذبه، والسائل له قدرة للفهم والإدراك، لم يكن كفرا. ويجوز عند الحافظ ابن تيمية.

الأدلة:

(١) وردت عدة أحاديث بألفاظ مختلفة في إتيان الكاهن إلا أن الكفر فيها جميعا مقيد بتصديقه.

(٢) ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية ذلك في فتاواه مفصلا، يقول الشيخ: «وأما إن كان يسأل المسؤول ليمتحن حاله ويختبر باطن أمره وعنده ما يميز به صدقه من كذبه،

فهذا جائز، كما ثبت في الصحيحين: أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل ابن صياد فقال: ما يأتيك؟ فقال: يأتيني صادق وكاذب قال: ما ترى؟ قال: أرى عرشا على الماء، قال: فإني قد خبأت لك خبيئا قال: الدخ الدخ، قال: اخسأ فلن تعدو قدرك فإنما أنت من إخوان الكهان...، وقد روي عن أبي موسى الأشعري أنه أبطأ عليه خبر عمر وكان هناك امرأة لها قرين من الجن فسأله عنه فأخبره أنه ترك عمر يسم إبل الصدقة».

وأضاف الشيخ قائلا: «وفي خبر آخر أن عمر أرسل جيشا فقدم شخص إلى المدينة فأخبر أنهم انتصروا على عدوهم وشاع الخبر فسأل عمر عن ذلك فذكر له، فقال: هذا أبو الهيثم بريد المسلمين من الجن وسيأتي بريد الإنس، فجاء بعد ذلك بعدة أيام».(مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية١٩/٦٢-٦٣)

أخرج الإمام أحمد أحد الحديثين السابقين، فقال: ثنا عبد الله... عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: أبطأ عليه خبر عمر رضي الله عنه، فكلم امرأة في بطنها شيطان، فقالت: حتى يجيء شيطاني فأسأله، قال: رأيت عمر متزرا بكساء يهنأ إبل الصدقة». (فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل١/٢٤٦/٣٠٤)

وأخرج الحديث الآخر الحافظ ابن حجر والحافظ الطبري، قال في الإصابة: «عثيم الجنّي : له ذكر في «الفتوح»، قال: بينما رجل باليمامة في الليلة الثالثة من فتح نهاوند مرّ به راكب، فقال: من أين؟ قال: من نهاوند، وقد فتح الله على النعمان، واستشهد، فأتى عمر فأخبره، فقال: صدق وصدقت. هذا عثيم بريد الجن رأى بريد الإنس ثم ورد الخبر بذلك بعد أيام، وسمي فتح نهاوند فتح الفتوح».(الإصابة في تمييز الصحابة٤/٤٦٤. تاريخ الطبري٢/٥٢٨)

وذكر المحدث الفقيه الشهير محمد بن عبد الله الشبلي رحمه الله (ت:٧٦٩هـ) عدة قصص تفيد إخبار الجن الإنس بعدة أمور، منها: أن عمر بلغه استشهاد أبي عبيدة بن مسعود وأصحابه عن طريق الجن. (آكام المرجان في أحكام الجان، ص ١٣٨-١٥١. هواتف الجن لابن أبي الدنيا).

(٣) يقول العلامة عبد اللطيف بن عبد العزيز (ت:٨٠١هـ) المعروف بابن فرشته، وله منْزلة عالية في فقهاء الأحناف-: «قلت: اللائح لي في التوفيق أن يقال: مصدِّق الكاهن يكون كافرا إذا اعتقد أنه عالم بالغيب، وأما إذا اعتقد أنه ملهم من الله تعالى أو

أن الجن يلقون مما يسمعون من الملائكة فصدَّقه من هذا فلا يكون كافرا».

أورد نص العلامة ابن الملك السابق، العلامةُ حقي الحنفي في تفسير «روح البيان» (١٨٤/٩). وأورد معناه الملا علي القاري في «مرقاة المفاتيح» ٩٩/٢.

والعلامة ابن فرشته رحمه الله له عدد من المؤلفات، منها: «مبارق الأزهار في شرح مشارق الأنوار». وهو شرح للحديث الشريف، والظاهر أن هذا النص من هذا الكتاب، وهو مطبوع، وإن لم يتوفر لنا.

(٤) ونص العلامة المناوي واضح في أن الكفر إنما يثبت إذا عدَّ المرء الكاهنَ عالما بالغيب... إلى آخر ما قال.(فيض القدير ٢٣/٦)

(٥) واشترط العلامة الشامي رحمه الله أيضا للحكم بالكفر تصديق الكاهن في قوله،: «إن الكاهن... انقسم إلى أنواع متعددة كالعراف والرمال والمنجم...، والكل مذموم شرعا، ومحكوم عليهم وعلى مصدقهم بالكفر...». (رد المحتار٢٤٢/٤. للاستزادة منه راجع: شرح النووي على صحيح مسلم ٢٠٣/١. والفتاوى البزازية على هامش الهندية ٣٢٦/٦)

إخبار الكهنة أتباعهم بمولد النبي صلى الله عليه وسلم:

نبَّه الكهنة أتباعهم عند مولد النبي صلى الله عليه وسلم أن دينهم سيزول، ويقوم الدين الحق. وتشير كتب السيرة والتاريخ إلى غير واحد من القصص في هذا الصدد، نكتفي بذكر أربع منها نظرا للاختصار:

(١) عن بعض الصحابة أنه قال: حضرت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت عنده الكهانة فقلت: بأبي أنت وأمي نحن أول من عرف حراسة السماء وزجر الشياطين ومنعهم من استراق السمع عند قذف النجوم. وذلك أننا اجتمعنا إلى كاهن لنا يقال له خطر بن مالك وكان شيخا كبيرا قد أتت عليه مئتان وثمانون سنة وكان من أعلم كهاننا فقلنا: يا خطر هل عندك علم من هذه النحوم التي يرمى بها؛ فإنا قد فزعنا لها وخشينا سوء عاقبتها فقال:... عودوا إلى السحر أخبركم الخبر. قال: فانصرفنا عنه يومنا فلما كان من غد وقت السحر أتيناه. فقال:

يَا معشر بَنِي قحطان ۞ أخْبرِكُم بِالْحَقِّ وَ الْبَيَان

أَقْسَمت بِالْكَعْبَةِ و الأركان ۞ و البلد الْمُؤتَمَنِ السَّدانِ

قد منع السّمع عُناة الجان ۞ بثاقب بكف ذِي سُلْطَان

من أجل مَبْعُوث عَظِيم الشَّأْن ۞ يبْعَث بالتنْزيل وَالْقرْآن

و بالهدى و فَاضل الْقُرْآن ۞ يبطل بِهِ عبَادَة الأَوْثَان

وللرجز بقية يتضمن تأكيده على أمته بطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم أقر بالشهادة. وتوفي بعده بقليل. (الروض الأنف٣٦٩/١. الإصابة في تمييز الصحابة ٦٩٠/٥. فتح الباري ٦٧٣/٨. آكام المرجان، ص ١٢٧). اعلم أن هذه الأبيات رُوِيت بألفاظ مختلفة. واللفظ الذي ذكرنا أورده في آكام المرجان.

(٢) قصة عمر رضي الله عنه: أنه كان جالسا، إذ مر به رجل جميل، فقال: لقد أخطأ ظني، أو إن هذا على دينه في الجاهلية، أو: لقد كان كاهنهم، علي الرجل، فدعي له، فقال له ذلك، فقال: ما رأيت كاليوم استقبل به رجل مسلم، قال: فإني أعزم عليك إلا ما أخبرتني، قال: كنت كاهنهم في الجاهلية، قال: فما أعجب ما جاءتك به جنيتك، قال: بينما أنا يوما في السوق، جاءتني أعرف فيها الفزع، فقالت:

ألم تر الجن و إبلاسها؟ ۞ و يأسها من بعد إنكاسها

ولحوقها بالقلاص، وأحلاسها

قال عمر: صدق، بينما أنا نائم عند آلهتهم إذ جاء رجل بعجل فذبحه، فصرخ به صارخ، لم أسمع صارخا قط أشد صوتا منه يقول: يا جليح، أمر نجيح، رجل فصيح، يقول: لا إله إلا الله، ثم نادى: يا جليح، أمر نجيح، رجل فصيح، يقول لا إله إلا الله، فقمت، فما نَشِبْنا أن قيل: هذا نبيٌّ».(صحيح البخاري، رقم:٣٨٦٦)

هذا لفظ البخاري، وروى غيره بتفصيل أكثر منه. جاء فيه أن سواد بن قارب ذكر عند عمر أنه قال: جاءني جني ثلاث ليال تباعا، وأنشد ثلاثة أبيات كل ليلة. ثم ذكر الأبيات، في معناه، إلا أن القوافي مختلفة.

وروي أن سواد بن قارب ذكر قصته في مجلس النبي صلى الله عليه وسلم، وأنشد أبياتا. فأعجب به النبي صلى الله عليه وسلم كثيرا، وقال: «أفلحت يا سَوادُ». (للاستزادة من القصة راجع: تفسير ابن كثير١٧٦/٤-١٧٨. دلائل النبوة ٢٤٨/٢-٢٥٤. السيرة النبوية لابن كثير٣٤٩/١. آكام المرجان، ص ١٢٨)

(٣) قصة إسلام عباس بن مرداس الشهيرة وهي أنه سمع صائحا يصيح من جوف

صنم يقال له الضمار:

قُلْ لِلْقَبَائِلِ مِنْ قُرَيْشٍ كُلِّهَا ۞ هَلَكَ الضِّمَارُ وَفَازَ أَهْلُ الْمَسْجِد

هَلَكَ الضِّمَارُ وَكَانَ يُعْبَدُ مُدَّةً ۞ قَبْلَ الصَّلاةِ عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدِ

إنّ الّذِي وَرِثَ النُّبُوَّةَ وَالْهُدَى ۞ بَعْدَ ابْنِ مَرْيَمَ مِنْ قُرَيْشٍ مُهْتَدِي

فخرج بثلاث مئة من أصحابه إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأسلموا. (راجع: كنز العمال١٢ /٤٧٢. الروض الأنف ١٩٣/٤. السيرة النبوية لابن كثير٣٥٨/١. هواتف الجن لابن أبي الدنيا ٩٦/٧٤/١. آكام المرجان في غرائب الأخبار وأحكام الجان، ص ١٣٠)

للاستزادة من القصة راجع: كتب السيرة. وذكر العلامة ابن أبي الدنيا في كتابه «هواتف الجن» عددا من مثل هذه القصص.

دينهم المعوج لم يقم:

كان يهودي قد سكن مكة وعلم أن الليلة يولد فيها خاتم النبيين، وبين كتفيه خاتم النبوة. فتثبت من هذا الأمر، فأخذ به إلى بيته صلى الله عليه وسلم، وعرضوا محمدا صلى الله عليه وسلم، فلما رأى خاتم النبوة وقع مغشيا عليه، ثم قال: لقد ذهبت النبوة من بني إسحاق إلى بني إسماعيل.(سيرة ابن كثير ٢١١/١. دلائل النبوة ١٠٨/١. المستدرك للحاكم،٤١٧٧)

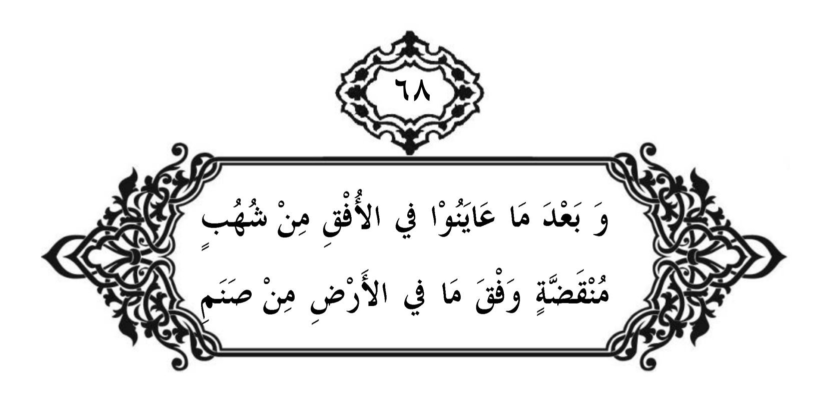
ذهبت الأديان الباطلة كلها بعد ظهور النبي صلى الله عليه وسلم. وكانت المدينة المنورة مركزا لليهودية يومئذ.

للاستزادة من تاريخ اليهود، واتخاذهم المدينة مركزا لهم، ثم زوالها: راجع: تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، للدكتور/ إسرائيل ولفنسون، أبو ذؤيب. والسيرة النبوية للشيخ أبي الحسن الندوي، الفصل الخامس، العهد المدني. اليهود وموسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، للدكتور عبد الوهاب المسيري، الجزء الثاني. تواريخ الجماعات اليهودية في العالم الإسلامي.

وكانت الشام مركزا للنصرانية، وبدورها زالت. كما كانت روما مركزا للنصرانية، وزالت. وكانت إيران والعراق مركزا للمجوسية وقد زالتا.

فصَّلت كتب التاريخ كيف أن الصحابة أحرزوا النجاح على كافة الجبهات، واستولى المسلمون على هذه المناطق.

****



اللغة:

عاينوا: عان الدمع (ض) الدمع: جرى من العين. عان فلانا: أصابه بالعين. عاين: نظر بالعين.

وسبق تحقيقه.

الأفق: أفق (ض) أفَقا: تجول في العالم، انتهى إلى أطرافها. أفق فلانا: فاقه، وفضله.

الأُفُق: -بضم الفاء وسكونها- نحو: عشر. والأفق -بضم الفاء- مفرد وجمع، مثل: الفلك.

أفق: أطراف السماء التي تُرى. ج: آفاق. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ (فصلت: ٥٣)

فَرْسٌ أفق: جيد الإبل. يذكر ويؤنث. أفيق: الجلد. ج: أفق.

شُهُب: شَهَبَ فلانا: أحرقه، تغير لونه للحر أو البرد.

شَهِبَ (س) شَهَبًا: مال بياضه إلى السود، أشْهَبَ: أشعله.

الشِّهاب: (١) شعلة النار المتوقدة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ (النمل: ٧)

(٢) النجم المضيء اللامع، وجرم سماوي يسبح في الفضاء فإذا دخل في جو الأَرض اشتعل و صار رمادا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ (الصافات: ١٠)

شهاب ثاقب: فيه أمران:

(١) البياض/ اللمعان. (٢) الإحراق.

معنى ثالث للشهاب: يُقَال للماضي الماهر في الأُمور أو الْحَرْب هو شهَاب علم أو شهَاب حَرْب ونحوهما. ج: شهب. قَالَ تَعَالَى: ﴿فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ (الجن:٨)

المنع في الحديث من التسمية بالشهاب:

منع النبي صلى الله عليه وسلم من التسمية بالشهاب. عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلا يقال له: شهاب، قال: «بل هشام. إن شهابا اسم شيطان».(شعب الإيمان٤/٣١٣)

هذا المنع خاص بما إذا لم يقترن بالشهاب كلمةٌ أخرى، فإن سمي: شهاب الدين، أو نحوه، ساغت التسمية لأن معناه حينئذ: منير الدين.

أضف إلى ذلك أن هذه الرواية فيها كلام كثير. قال الشيخ الألباني: «منكر».(سلسلة الأحاديث الضعيفة،رقم:٧١١٢)

ساق أبونعيم في معرفة الصحابة تراجم كثير من الصحابة أسماؤهم شهاب. و لم يرد إلا في صحابي واحد أن النبي صلى الله غير اسمه إلى هشام. وأبقى على أسماء غيره، فالمنع كان على سبيل الإرشاد، والنهي منسوخ، فكأنه جائز. ومن خير معناه أن صاحبه يكون نجما منيرا للدين. كما ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم غير بعض الأسماء. وأبقاه أحيانا، نحو: رباح وغيره. أي إذا كان الذهن ينتقل إلى معنى لا يليق، ناسب تغييره، وإن بادر إلى معنى حسن جازت التسمية به.

مُنقضَّة: نقض الشيءَ (ن): كسره. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ (النحل: ٩١)

انقض، انتقض: انكسر. تناقض: تضاد.

وفق: وفِقَ (س) وَفقًا: وافق هواه، وحسن. وافق فلانا: اتفق معه.

وفّقَ: اتفق معه، وصالحه. وفق الله فلانا: (١) ألهمه الله الخير. (٢) جعل الأسباب موافقة للمطلوب الخير. وضِده الخذلان: فهو جعل الأسباب موافقة للمطلوب الشر.

وَفق: (١) التطابق. (٢) المطابق. (٣) على قدر الكفاية. (٤) متفقون مع بعض.

الأرض: أرَضت الأرضةُ (ن) أرضا: أكلته.

أرِض (س) أَرَضًا، و(ك) أراضةً: اخضر، وراق.

أرِضة: ما أكلته الدودة. أرَّضَ الكلام: زينه.

الأرض: (١) قطعة الأرض. (٢) جزء من الأرض. قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ (يوسف: ٥٥) (٣) الجزء الأسفل من الأرض. ج: أرضون، أراضٍ.

صَنَم: صَنِمَ (س) فسدت ريحه. صَنَّمَ: عمل الصنم. صَنَّمَ الشيءَ: صاغه على هيئة الصنم.

الصَّنَم: التمثال، والحجر، والتمثال المنحوت من الخشب أو المعدن. ج: أصنام، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ (إبراهيم: ٣٥)

الفرق بين الوثن والصنم:

فصل علماء اللغة الكلام على ذلك كثيرا، أيسره بإيجاز:

الصنم: الوثن على صورة الإنسان.

الوثن: نحت من حجر أو ذهب أو فضة، أقام بمكانه.

التمثال: شبيه الإنسان أو الحيوان أوغيرهما من الأشياء.

الصورة ما تكون قائمة بالغير، أو ما ليس له ظل. ويطلق على القائم بذاته والتمثال، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فِيٓ أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ (الانفطار: ٨)

النَّصْب -بفتح النون وضمه-: حجر العبادة/حجر أقيم لعبادة غير الله تعالى. كان يذبح عليه الحيوان على عهد الجاهلية، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ (المائدة: ٣)

لننظر كلام أهل اللغة:

(١) الصنم والوثن هما مترادفان.

(٢) الوثن: نحت من حجر. والصنم: نحت من خشب أو ذهب أوفضة. هذا رأي هشام بن محمد. وقال العلامة ابن الكلبي في كتابه «الأصنام»: ثنا الحسن بن عليل، قال: ثنا علي بن الصباح، قال: قال لنا أبو المنذر هشام بن محمد: إذا كان معمولا من خشب أو ذهب أو فضة على صورة إنسان فهو صنم، وإذا كان من حجارة فهو وثن». (الأصنام، ص ٩)؛ لأن(وَثَنَ بالمكان) معناه: أقام به أي كان ثقيلا.

وذكر صاحب تاج العروس أقوالا أخرى، فليراجع ثمة.(تاج العروس ٣٢/٥٢٥، ٣٦/٢٣٩)

الإعراب:

بعد ما عاينوا:

عطف على محل (من بعد) في البيت السابق، وهو مجرور فيما يبدو، لكنه منصوب في الواقع.

أي في محل النصب. والتقدير: عموا وصموا بعد ما أخبر الأقوام وبعد ما عاينوا.

ما عاينوا: الميم مصدرية، والتقدير: بعد مُعاينتهم شُهبا.

في الأفق: متعلق بـــ (عاينوا).

في الأفق: بيان لـــ (ما).

منقضة:

(١) مجرور صفة (شهب) وهو الأظهر.

(٢) منصوب، حال من (شهب)، والتقدير: عاينوا من شهب حال كونها منقضة.

ويرد عليه أن النكرة إذا وقعت حالا وجب تقديمها على صاحبها. اللهم إلا أن يقال: أن (ما) موصولة، و(شهب) بيان له، فينصب (شهب) والعامل فيه (ما عاينوا).

(٣) مرفوع، خبر مبتدإ محذوف. والتقدير: وهي منقضة.

وفق ما:

صفة، لـــ(انقضاضا) مصدر لقوله: (منقضة)، والتقدير: وهي منقضة انقضاضا موافقا لانقضاض ما في الأرض.

في الأرض: جار ومجرور، متعلق بالصلة المحذوفة لقوله: (ما) في الشطر الثاني، والتقدير: وفق ما (انقض) في الأرض من صنم.

وتقدير البيت بأقرب صورة: عموا بعد معاينة تساقط الشهب، وتساقط الشهب مثل تساقط الأصنام في الأرض.

الشرح:

هذا البيت شرح لقوله: عموا في قوله: (عموا وصموا). وإشارة إلى حدث من الأحداث التي وقعت عند مولد النبي صلى الله عليه وسلم، وهو أن الأصنام تساقطت

كثيرا، فكأن التغيرات العلوية والسفلية حصلت عند ظهور النبي صلى الله عليه وسلم.

التغير العلوي: رمي الشياطين بالشهب.

التغير السفلي: تساقط الأصنام في غير واحد من معابدها.

في الأفق من شهب (إليكم قصتين في هذا الصدد).

(١) ورد أن أول مَن فزع من العرب للرمي بالنجوم حين رمُيَ بها -هذا الحي من ثقيف- فجاءوا إلى رجل منهم يقال له: عمرو بن أمية أحد بني علاج، وكان أدهى العرب وأنكرها، فقالوا له: يا عمرو ألم تر ما حدث في السماء من القذف بهذه النجوم؟ قال: بلى، فانظروا فإن كانت معالم النجوم التي يهتدى بها في البر والبحر، ويعرف بها الأنواء من الصيف والشتاء، لما يصلح الناس في معايشهم هي التي يرمى بها، فهو والله طي الدنيا، وهلاك هذا الخلق، وإن كانت نجوما غيرها وهي ثابتة على حالها فهذا لأمر أراد الله به هذا الخلق فما هو؟ (ينظر: السيرة النبوية لابن كثير١/٢٩٠. الروض الأنف ١/٣٥٧. عيون الأثر١/٨٠)

(٢) سبق بيان قصة خطر بن مالك في شرح البيت السابق أن قومه سألوه عن النجوم الساقطة، فقال: هي إشارة إلى ظهور شخصية عظيمة.

قد منع السّمع عُناة الجان ۞ بثاقب بكف ذِي سُلْطَان

من أجل مَبْعُوث عَظِيم الشَّأْن ۞ يبْعَث بالتنْزيل وَالْقُرْآن

(إلى آخر ما قال. سبق ذكر المصادر ثمة فراجعها).

هاتان القصتان وأمثالهما المذكورة في كتب السيرة مفادها أن قريشا فزعت لتساقط النجوم، وعلموا أن ذلك لظهور النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم، ثم أعرضوا. وبعد ما عاينوا في الأفق من شهب.

ذكر إسقاط النجوم في الأحاديث النبوية:

ورد ذلك في عدة أحاديث، نكتفي بذكر اثنين منها:

(١) ورد في الحديث مفصلا ومجملا أن الناس في الجاهلية كانوا يعتقدون أن النجوم لا تسقط إلا لموت عظيم من العظماء أو حياته. فرد عليه النبي صلى الله عليه وسلم وخَطّأه. والحق أن الله تعالى إذا قضى أمرا، أخبر الملائكةُ بعضهم بعضا، وحين يبلغ الخبر إلى السماء الدنيا، يسترق الجن شيئا منه، ويقذفونه إلى أوليائهم، فما حكوه بنصه فهو

صواب، ولكنهم يخلطون فيه مئة كذبة.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، قال: أخبرني رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من الأنصار، أنهم بينما هم جلوس ليلة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم رمي بنجم فاستنار، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ماذا كنتم تقولون في الجاهلية، إذا رمي بمثل هذا؟». قالوا: الله ورسوله أعلم، كنا نقول: ولد الليلة رجل عظيم، ومات رجل عظيم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فإنها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربنا تبارك وتعالى اسمه، إذا قضى أمرا سبح حملة العرش، ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم، حتى يبلغ التسبيح أهل هذه السماء الدنيا». ثم قال: «الذين يلون حملة العرش لحملة العرش: ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم ماذا قال. قال: فيستخبر بعض أهل السماوات بعضا، حتى يبلغ الخبر هذه السماء الدنيا، فتخطف الجن السمع فيقذفون إلى أوليائهم، ويرمون به، فما جاءوا به على وجهه فهو حق، ولكنهم يقرفون فيه ويزيدون».(صحيح مسلم، رقم:٢٢٢٩)

وفي حديث آخر: عن أبي هريرة، يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله، كالسلسلة على صفوان ...، فإذا فزع عن قلوبهم، قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحق، وهو العلي الكبير، فيسمعها مسترقو السمع، ومسترقو السمع هكذا واحد فوق آخر- ووصف سفيان بيده...-، فربما أدرك الشهاب المستمع قبل أن يرمي بها إلى صاحبه فيحرقه، وربما لم يدركه حتى يرمي بها إلى الذي يليه، إلى الذي هو أسفل منه، حتى يلقوها إلى الأرض ...، فيلقي على فم الساحر، فيكذب معها مئة كذبة، فيصدق، فيقولون: ألم يخبرنا يوم كذا وكذا يكون كذا وكذا فوجدنا حقا، للكلمة التي سُمعت من السماء»[1]. (صحيح البخاري، رقم:٤٧٠١)

---

(١) للاستزادة من الأحاديث الخاصة به، وتفاصيل فزع الكفار بسقوط النجوم راجع: (١) الخصائص الكبرى ١٨٢/١، باب حراسة السماء من استراق السمع بالمبعث. (٢) سبل الهدى والرشاد ١٩٥/٢-٢٠٦، حدوث الرجم وحجب الشياطين. (٣) الاكتفاء في مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم والثلاثة الخلفاء، للعلامة سليمان بن موسى الفقيه الحنفي المعروف بابن الجون، (ت٦٥٢هـ) ١٢٣/١-١٣٠، ذكر ما حفظ عن الأحبار والرهبان.

عاينوا في الأفق من شهب:

كانت الشياطين تسترق السمع في السماء قبل مولد النبي صلى الله عليه وسلم،ثم حجزوا عنه بعد مولده بالشهاب الثاقب.

رمي الشياطين بالشهاب الثاقب يخص مولد الرسول صلى الله عليه وسلم أو مبعثه؟ تذكر المصادر أحاديث تؤيد الأمرين، وتفيد كتب التفاسير والأحاديث أن رمي الشياطين بالشهاب الثاقب كان مبدأه في عهد البعثة؛ لأن الجن خرجوا يبحثون عن سبب ذلك بعد البعثة النبوية، حتى وصلوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وسمعوا القرآن الكريم في الصلاة. وقالوا في التوفيق بين هذين النوعين من الأحاديث ثلاثة أقوال:

(١) إما أن نرجح أحداث زمن البعثة.

(٢) أو أن الرمي بالشهاب الثاقب كان قليلا عند مولده صلى الله عليه وسلم، واشتد ذلك بعد بعثته صلى الله عليه وسلم.

(٣) أو توقف رمي الشياطين عند مولده صلى الله عليه وسلم، ثم ابتدأ بعد البعثة مرة أخرى، ويستمر ليومنا هذا؛ بل إلى أن تقوم الساعة.

للاستزادة منه راجع: روح المعاني تفسير سورة الحجر، وسورة الجن. تفسير ابن كثير، تفسير سورة الجن. التفسير المظهري. معارف القرآن، تفسير سورة الجن وسورة الحجر. السيرة الحلبية١ /١٦٨. المواهب اللدنية.

إيراد: (١) الرمي بالشهاب الثاقب كان مستمرا قبل مولد النبي صلى الله عليه وسلم، كما يشير إليه أبيات الجاهلية؟

الجواب: كان يرمى به ولكن ليس لهذا الهدف، ثم رمي به بعد المولد لتحقيق هذا الهدف، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ (الجن: ٩)

ظاهر الآية يدل على ذلك أيضا. وذلك مثل العذرة تستخدم اليوم سمادا، و لم يكن كذلك من قبل أو كما نبني حجرة في المسجد لنُزول جماعة الدعوة والتبليغ، ثم أقيم فيه كُتَّاب، فاستخدموها لهذا الهدف.

(٢) كان يرمى بالشهاب ولكن من غير كثرة، ثم كثر ذلك بعد مولد النبي صلى

الله عليه وسلم، ويؤيده قوله تَعَالَىٰ:﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ (الجن: ٨)

ورد هذا الجواب في حديث للزهري أيضا، نقله غير واحد من الأئمة.

قال العلامة عبد الرزاق الصنعاني: قال معمر: فقلت للزهري: أو كان يرمى بها في الجاهلية؟ قال: نعم، قلت: أفرأيت قوله تَعَالَىٰ:﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾ (الجن: ٩) قال: غلظت وشدد أمرها حين بعث النبي صلى الله عليه وسلم. (تفسير الصنعاني ٣٢٢/٣. مسند أحمد ٣١٤/٤)

واستحسن الحافظ ابن حجر هذا الجواب، وقال: هذا جمع حسن.(فتح الباري ٦٧٢/٨)

(٣) وقال الحافظ ابن حجر في توجيهه: «ليس المراد بقوله: «ماذا كنتم تقولون في الجاهلية إذا رمي بمثل هذا» عهد الجاهلية، وإنما المراد العهد السابق على إسلام مخاطبيه وهم الأنصار. ويحتمل أن يكون المراد بقوله: «إذا رمي بها في الجاهلية» أي جاهلية المخاطبين، ولا يلزم أن يكون ذلك قبل المبعث، فإن المخاطب بذلك الأنصار، وكانوا قبل إسلامهم في جاهلية، فإنهم لم يسلموا إلا بعد المبعث بثلاث عشرة سنة. (فتح الباري ٨٧٢/٨.
وعقد الإمام الطحاوي باب مستقلا في هذا المعنى، راجع: شرح مشكل الآثار٦/١٤٠-١١١، باب مشكل ما وري في الشهب التي أرسلت على مستمعي أخبار السماء الدنيا. وينظر: فتح الباري لابن رجب ٤٦١/٤)

لا تسمع الشياطين إلا الوحي الخاص بالتكوين:

كانت الشياطين تصعد إلى السماء لاستماع كلام الملائكة، فاعلم أن المراد به الوحي الخاص بالتكوين، لا التشريع. وبتعبير آخر: الوحي الخاص بالوقائع، لا القرآن الكريم وأمور الدين. فمثلا يتحدث الملائكة فيما بينهم أن فلانا من الناس يتزوج في غرة يوليه، فيسترق الشياطن ويخلط به الكذبة، ويقذفه إلى أوليائه.

وذلك لأن وحي القرآن والحديث مصون محفوظ، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴾ (الجن: ٢٧) وقال تعالى: قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ (فصلت: ٤٢)، وغيرها من الآيات.

وحين يصعدون لسماع الوقائع صبت عليهم الشهب من النار من الله تعالى.

ما تأثير الشهاب الثاقب على الشيطان ؟ :

خلاصة القول في ذلك فيما يلي:

(١) يموت الشيطان.

(٢) يخبل الشيطان، ويعود غولا يزعج الناس في الغابات والصحاري.

(٣) قد ينجو [ونفى الحافظ ابن حجر أن يخطئه الشهاب.(فتح الباري٦٧٣/٨]. فإن نجا أو قذفه قبل موته، فإن الشيطان تحته يتلقاه. وهلم جرا حتى يصل إلى الأرض. ثم يخلط فيه مئة كذبة، ويقذفه إلى أوليائه (الكهنة والسحرة). وعليه يرضي الكهنة والسحرة الشياطين، فيعيشون في الخبث، وينطقون بكلمة الكفر، ويستعينون بهم، ويعبدونهم، ويسيئون إلى القرآن والسنة ابتغاء مرضاهم، فيقذفون إليهم هذه الأخبار جزاءً لهم.

ماذا يرسل على الشياطين ؟ :

ظاهر الكتاب والسنة يفيد أن النجوم ترسل عليهم، ويقول المحققون من أهل العلم: إن النجوم قائمة على مكانها، فعلم أنها لا ترمى بنفسها، وإنما تخرج منها شعلة من النار، وأما النصوص التي تفيد إرسال النجوم نفسها عليهم، مثل: «رمي بنجم فاستنار»(صحيح مسلم)، و «الرمي بالنجم هل كان في الجاهلية».(مصنف عبد الرزاق) وغيرها، فالجواب عنه من وجهين:

(١) هذا على حذف المضاف، رمي بنجم أي: بنار نجم. ألا ترى أن القرآن الكريم ينص على ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ (الحجر: ١٨)، وقوله: ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ (الصافات: ١٠). والشهاب هو شعلة النار.

(٢) هذا تجوز، إنما سمي بالنجم لشبهه بالنجم والكوكب، وإلا فهو شعلة يرمى بها، وليس كوكبا.

وفي تفسير القرطبي: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ (الملك: ٥) أي جعلنا شهبها، فحذف المضاف.(٢١٠/١٨)، وفيه أيضا: « ويجوز أن يقال: يُرمون بشعلة من نار من الهوى، فيخيل إلينا أنه نجم سرى».(١٢/١٠)، (وهذا البحث ملخص من سبل الهدى والرشاد ٢٠٢/٢-٢٠٣)

ما هو الشهاب ؟ :

يقول الفلاسفة القدماء: يصعد الدخان إلى الطبقة النارية ويتحول نارا، ويشتعل، فهو الشهاب، و اعلم أن الفلاسفة القدماء يقولون بالطبقة النارية تحت السماء.

ففي هداية الحكمة: «وأما الرعد والبرق فسببهما أن الدخان إذا ارتفع واحتبس فيما بين السحاب، فما صعد من الدخان إلى العلو مزق السحاب تمزيقا عنيفا فيحصل صوت هائل وهو الرعد بتمزقه، وإن اشتعل الدخان بحركته كان برقا وصاعقة». (هداية الحكمة مع الميبذي، ص ٣٧).

وأما الفلاسفة الجدد فيقولون: الشهب أجسام صغار لا تحصى، لا يعدو حجمه حبة الحمص أو الجوز في الغالب، تدور في الفضاء الواسع بسرعة شديدة ٢٠ ميلا في كل ثانية أو ٢٥ ميلا في كل ثانية، بل بعضها يتحرك ٤٠ ميلا فصاعدا في الثانية. وحين تدخل في كرة الهواء تحترق وتتحول رمادا. وبعض الأحجار الشهابية كبيرة جدا، يبلغ وزنها أطنانا، تصل بعض قطعها إلى الأرض سالمة. وهي محفوظة في بعض المتاحف. (ملخص من الهيئة الصغرى للشيخ موسى الروحاني البازي، ص ١٧٥-١٧٩)

إيراد: لِمَ سمي هذا الكوكب نجما ؟ :

الجواب: سمي نجمًا لشبهه بالكوكب في الضوء، ويقول الشيخ المفتي محمد شفيع: «حاصل القول أن ما قاله الفلاسفة فيما يخص الشهاب الثاقب لا ينافي دلالة القرآن الكريم، ولا يبعد أن تنقض هذه الشعل من بعض النجوم. ويتحقق مراد القرآن في الصورتين». (معارف القرآن ٥/٢٧٧، تفسير سورة الحجرات، ١٧-١٨)

وفق ما في الأرض من صنم:

قصص سقوط الأصنام:

هذا الشطر من البيت يشير إلى سقوط كثير من الأصنام على وجهها عند مولد النبي صلى الله عليه وسلم، والتفاصيل في كتب السيرة، نوجزها بهذه المناسبة فيما يلي:

(١) سبق مفصلا في البيت رقم (٦٥) نقلا عن عروة بن الزبير رضي الله عنه أن ناسا من قريش كانوا بجوار بعض أصنامهم ليلا، إذ وقع على وجهه، وفي المرة الثالثة سأل عثمان بن الحويرث رضي الله عنه الصنمَ: ما لك؟ فسمع صوتا من داخل الصنم، و أنشد

الجن بعض الأبيات منها:

و خَرَّت له الأوثان طُرًّا و ارعدت ۞ جميع فجاج الأرض بالشرق والغرب

(٢) دخل ورقة بن نوفل النجاشي ذات مرة، فما إن دخل عليه حتى سأله النجاشي عن المولود الجديد في قريش، فقال ورقة: كنت نائما بجوار الوثن ذات ليلة، فسمعت صوتا يخرج منه:

ولد النبي فذلت الأملاك ۞ ونآي الضلال وأدبر الإشراك

ثم سقط الوثن على وجهه، ثم قص عليه النجاشي قصته. (راجع: الخصائص الكبرى ٩٠/١؛ السيرة النبوية لابن كثير ٣٦٨/١؛ سبل الهدى والرشاد ٣٥١/١)

أضف إلى ذلك أن بعض الروايات تقول: هوت الأوثان كلها عند بعثته صلى الله عليه وسلم.

روى أبو نعيم عن أبي هريرة رضي الله عنه: « لَمّا بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أصبح كل صنم منكسا، فأتت الشياطين إبليس، فقالت له: ما على وجه الأض صنم إلا وقد أصبح منكسا. قال: هذا نبي قد بعث...». (دلائل النبوة لأبي نعيم، ص ١٨١)

عدد السماء والأرض:

تُفرَد الأرض غالبا؛ لأنها واحدة في الواقع، وبداخلها أراضٍ متعددة. وأما ما ورد ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ (الطلاق: ١٢)، فالحاصل فيه أن السماوات سبع في الواقع. وأما سبع أرضين، ففيه أقوال:

(١) هي سبع قارات: ١- آسيا. ٢- أستراليا. ٣- أوربا. ٤- إفريقية. ٥- أمريكا الشمالية. ٦- أمريكا الجنوبية. ٧- أطلانتيكا.

(٢) المراد به أرض القمر والمريخ والمشتري وزهرة وعطارد وزحل. فكل ما تحته أرض لما فوقه. وهذا ليس بشيء.

(٣) نؤمن به وإن لم ندركه.

(٤) ليس المراد بـــ (من الأرض مثلهن) التساوي في العدد، بل الأرض مثل العلويات في الاستدارة/ والنفع، والدلالة على قدرة الله تعالى، ووحدانيته.

(٥) وأرى أن أحسن الأجوبة أن نقول: إن المراد بالسبع: الكثرة والطبقات

المختلفة في العمق. فالأرض الواحدة تشتمل على أراض كثيرة. وكل أرض منفردة عن غيرها. والقرينة على ذلك رواية سعيد بن زيد: «من أخذ شبرا من أرض ظلما، فإنه يطوقه يوم القيامة من سبع أرضين».(صحيح البخاري، رقم:٣١٩٨) فلو حملنا (سبع أرضين) على الظاهر، لزم أن نقول: إنه يطوق من الأرض الغائبة الخفية عنا، وهذا لا يستقيم. وإنما المعنى: يطوق من عمق سبع أرضين من هذه الأرض.

إيراد: نصت بعض الأحاديث على سبع أرضين، فقد روى الحاكم فقال: أنا أحمد بن يعقوب الثقفي، ثنا عبيد بن غنام النخعي، أنبأنا علي بن حكيم، ثنا شريك، عن عطاء بن السائب عن أبي الضحى عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾قال: سبع أرضين، في كل أرض نبي كنبيكم، وآدم كآدمكم، ونوح كنوح، وإبراهيم كإبراهيم، وعيسى كعيسى». (المستدرك ٣٨٢٢/٦١٥/٢، قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي)

فهذا الحديث صححه الحاكم، ثم صححه الذهبي الناقد المحقق، وفيه ذكر سبع أرضين؟

الجواب: ما سِيق الكلام لبيان هذا المعنى هنا، وإنما جاء عرضا، فأكتفي بقدر الحاجة إليه، واعلم أن الحديث فيه كلام طويل سندا ومتنا، والحاصل أن المحققين من العلماء على فئتين في هذا الصدد:

(١) **الفئة الأولى:** هذا الحديث وإن صح سندا –كما قال بعض أهل العلم– إلا أنه من الإسرائيليات، وليس مرفوعا، ومن القرائن على أنه من الإسرائيليات:

– لم يرد ذكر موسى عليه السلام في شيء منه، فعُلِمَ أنه من صنع بني إسرائيل؛ لأن اليهود لا يعدلون بموسى أحدا.

– أن المراد بقوله صلى الله عليه وسلم في إبراهيم: «أول من يكسى يوم القيامة». (صحيح البخاري، رقم: ٣٣٤٩): هو الشخص الواحد، وهذا الحديث يثبت مثيلا له.

– قوله: نبيكم: فيه شمة الغرابة، فكأن القائل ليس من أفراد هذه الأمة.

– في إسناده كلام، حاصله: أخرج الحاكم حديثين مثله:

أولهما: الحديث الذي ذكِرَ في الإيراد، وهو طويل، وفي إسناده: شريك عن عطاء

بن السائب. وعطاء ممن اختلط. وروى عنه الشريك بعد الاختلاط. (راجع: تهذيب التهذيب، ففيه: عطاء بن السائب بن مالك ... عنه ابن معين.. وجميع مَن سمع من عطاء منه في الاختلاط إلا شعبة والثوري. (١٤٧/٧).

وثانيهما: حديث مختصر: ثنا عبد الرحمن بن الحسن القاضي، ثنا إبراهيم بن الحسين، ثنا آدم بن أبي إياس، ثنا شعبة، عن عمرو بن مرة، عن أبي الضحى، عن ابن عباس رضي الله عنهما، في قوله عز وجل: ﴿سَبْعَ سَمَوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ قال: في كل أرض نحو إبراهيم». (المستدرك ٣٨٢٣/٦١٥/٢، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي)

في إسناده: عمرو بن مرة، وهو –رغم علمه الواسع– يعد من المرجئة. جاء في ميزان الاعتدال: «عمرو بن مرة الجملي، الإمام الحجة... قال أبوحاتم: ثقة يرى الإرجاء ... وعن مغيرة بن مقسم قال: لم يزل في الناس بقية حتى دخل عمرو بن مرة في الإرجاء، فتهافتوا عليه». (ميزان الاعتدال ٢٨٨/٣)

قال البيهقي: «وهو شاذ بمرة، لا أعلم لأبي الضحى عليه متابعا». (الأسماء والصفات ٢٦٨/٢)

ولو سلمنا صحته سندا، فإنه موقوف على ابن عباس رضي الله، وهو من الإسرائيليات. قال الحافظ ابن كثير بعد نقل الرواية عن البيهقي: «وهو محمول –إن صح نقله عنه – على أنه أخذه ابن عباس رضي الله عنه من الإسرائيليات، والله أعلم». (البداية والنهاية ٢٣/١)، واعلم أن الحافظ ابن كثير لم يتكلم كثيرا في تفسيره على (سبع أرضين)، وأشار إلى «البداية والنهاية».

ولا يأخذ ابن عباس رضي الله عنه الإسرائيليات في الأحكام، وإنما يأخذها في القصص والروايات، كما قال شيخنا عبد الفتاح أبو غدة في تعليقاته على «ظفر الأماني» (ص٥٧١)، وعد الشيخ أبو غدة أيضًا هذه الرواية من الإسرائيليات. (تعليقات ظفر الأماني، ص٥٦٣-٥٧٣)

الفئة الثانية: يصحح بعض أهل العلم هذه الرواية، ويؤولونها، وعمل الشيخ عبد الحيي اللكنوي ثلاث رسائل في إثبات هذه الرواية: (١) زجر الناس على إنكار أثر ابن عباس، باللغة العربية، مطبوعة في نهاية مجموعة رسائل اللكنوي. (٢) دافع الوسواس في

أثر ابن عباس. (٣) الآيات البينات على وجود الأنبياء في الطبقات. وهاتان الرسالتان في الأردية.

حقق الشيخ هذا المعنى في هذه الرسائل بالأدلة والبراهين، وعد الحديث صحيحا، وأورد تصحيح الأئمة العظام وسكوتهم. و ردّ على أكثر من عشرين إيرادا، وقال في النهاية وهو يفسره: يحتمل ثلاثة وجوه: (١) محمول على العالم المثالي الذي هو برزخ بين عالمي الغيب وعالم الشهادة ففيه صور مثالية لهؤلاء الأنبياء عليهم السلام. (٢) سلوك مسلك التأويل بأن المراد بآدم ونوح وأبراهيم الخ الداعون والهداة يسمون بآدم ونوح وإبراهيم الخ، وهم ليسوا بأنبياء نعم هم يدعون الناس إلى الخير. (٣) سلوك مسلك التحقيق.

وقال: مسلك التحقيق مختار ولا غبار عليه، وحاصله أن هذه الأراضي فيها أنبياء من جانب الحق إلى الخلق، منهم من شبه بآدم، ومنهم من شبه بنوح، ومنهم من هو مشابه بمحمد صلى الله عليه وسلم، أرسِل قبله لا بعده؛ لأنه خاتم النبيين، ويوجد فيه بعض خصوصيات محمد صلى الله عليه وسلم لا كلها.

قال الشيخ: «فإن قال قائل: فيلزم حينئذ وجود أمثال نبينا صلى الله عليه وسلم وقد تقرر في كتب أهل السنة مثله في صفاته المختصة به ممتنع بالغير بالجزم؟ قلنا له: كلا! لا يلزم ذلك، وإنما يلزم إن كان التشبيه في جميع الأوصاف الكمالية أو جميع الصفات المختصة... فالتشبيه ههنا إنما هو في مجرد الختم والآخرية، لا في غيره من الصفات الكمالية». (زجر الناس، ص ٢٧).

- كما عمل الشيخ حجة الإسلام محمد قاسم النانوتوي رحمه الله رسالة: «تحذير الناس من إنكار أثر ابن عباس»، وهي رسالة دقيقة، وكتاب محقق في موضوع ختم النبوة وفضل محمد صلى الله عليه وسلم.

وللشيخ محمد قاسم النانوتوي رسالتان أخريان في هذا الموضوع: (١) «تنوير النبراس على من أنكر تحذير الناس»، وتسمى أيضا: «رد قول فصيح». (٢) «أجوبة أربعين». هذه الكتب الثلاثة في الأردية.

طبع بتكملة الشيخ محمد إدريس الكاندهلوي، وعليه هوامش للعلامة الدكتور خالد

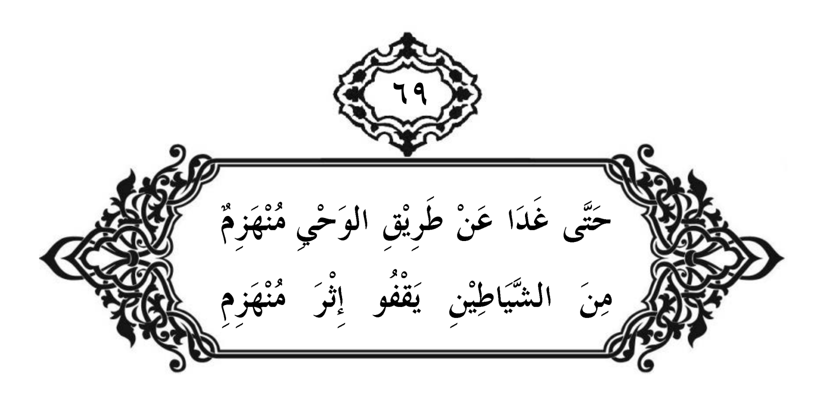
محمود.

ومن حسن المصادفة أن تقريظ الشيخ اللكنوي مضموم إلى رسالة الشيخ النانوتوي رحمه الله في نهايتها. وكلم الشيخ اللكنوي كلاما وجيزا ثم أيد ما ذهب إليه النانوتوي.

وسرد هذا المعنى في «الإسرائيليات في التفسير والحديث» للدكتور محمد حسن الذهبي، أستاذ بالأزهر. وقال فيه: «فابن عباس وغيره من الصحابة كما قلت آنفا كانوا يسألون علماء اليهود الذين اعتنقوا الإسلام، و لم يكن سؤالهم عن شيء يتحصل بالعقيدة أو بأصل من أصول الدين أوبفرع من فروعه، وإنما كانوا يسألونهم عن تفاصيل بعض القصص والأخبار الماضية... فما اتفق مع الدين والعقل صدَّقوه، وما خالف ذلك نبذوه، وما سكت عنه القرآن و لم يرد فيه نص عن الرسول صلى الله عليه وسلم واحتمل الصدق والكذب توقفوا فيه».(ص ٦٠- ٦٤، وفيه تفصيل أكثر)

والحق عند المحققين أن هذه الرواية إسرائيلية فلا ينبغي البحث في تأويله وتصححيحه.

انتهى، ولله الحمد.



اللغة:

حتى: حرف يدل على انتهاء الغاية، أي للدلالة على أن هذا الأمر نهايته كذا، وإذا دلت على ذلك فإن ما بعدها لا يدخل فيما قبلها، وعليه أمثلة كثيرة، منها:

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ (البقرة: ١٠٩)، وقَالَ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ﴾ (البقرة: ١٨٧)

وفي الحديث: «ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله».(صحيح البخاري، رقم:٧١). قال العلامة العيني: «قوله: حتى غاية لقوله: لن تزال».(عمدة القاري ٢/٧٠)

وفي حديث: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته.. فإذا رأيتموهما فادعوا الله وصلوا حتى ينجلي».(صحيح البخاري، رقم:١٠٦٠)

وفي حديث آخر: «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي... يقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة». (صحيح البخاري، رقم:١٣٧٩)

قال الفقهاء: حتى للغاية، قال في الهداية: «ومن حلف لا تخرج امرأته إلا بإذنه... ولوقال: إلا أن آذن لك، فأذن لها مرة واحدة، فخرجت، ثم خرجت بعدها بغير إذنه لم يحنث؛ لأن هذه الكلمة غاية، فتنتهي اليمين به، كما إذا قال: حتى آذن لك». (الهداية، ص٤٨٦)، وفي «تبيين الحقائق» في هذه المسألة: «فلأن كلمة حتى للغاية فتنتهي اليمين بها».(تبيين الحقائق٣/١٢٢)

غدا: غدا (ن): غدوا: خرج صباحا، غدا عليه: خرج مبكرا.

وقد تأتي غدا بمعنى صار، وإذا عديت بـــ (عن) أفادت معنى الإعراض، كما تفيد نحو: صار، ذهب، رغب معنى الإعراض إذا عديت بـــ(عن).

طريق: طرق (ن): برز النجم. طرق الباب: قرعه.

سمي الطريق به؛ لأنه يطرق بالأحذية.

الطارق: (١) النجم البازر في الليل، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴾ (الطارق: ١) (٢) الضيف القادم ليلا. (فإنه يطرق الباب).

أرق هارون الرشيد ليلة، فتجول في قصره حتى بلغ إحدى جواريه، وقال:

قلت: ضيف طارق في أرضكم ۞ هل تضيفوه إلى وقت السحر

فأجابت بسرور سيدي ۞ أخدم الضيف بسمعي والبصر

(مرآة الجنان١/٣٤٧سنة ١٩٦؛ وإعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص ٤٢)

(٣) الطارق: ما يقع من الحوادث ليلا، وفي الأدعية المأثورة: «أعوذ... ومن طوارق الليل إلا طارقا يطرق بخير يا رحمن». (موطأ مالك، رقم:٣٥٠٠)

ج: طرَّاق (لذوي العقول)، وطوارق لغيرهم.

طريق: سبيل، يذكر ويؤنث، قال الشاعر:

ليس الطريق سوى طريق محمد ۞ فهو الطريق المستقيم لمن سلَك

مَن يمشِ في طرقاته فقد اهتدى ۞ سبل الرشاد ومن يزع عنها هلك

ورد في أكثر الكتب في البيت الأول: فهي الطريق. وفي بعضها: فهو: مذكرا. وهذا البيت للعلامة سليمان بن يوسف بن ملح الياسوفي الشافعي (ت:٧٨٩هـــ). (إنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ ٢/٢٦٥. شذرات الذهب ٦/٣٠٨).

الوحي: وحي (ض) يحي إليه وحيا: (١) أشار إليه، (٢) أسر الحديث إليه.

الوحي: الإشارة السريعة الخفية.

قال الشاعر:

نظرت إليها نظرة فتحيرتْ ۞ دقائق فكري في بديع صفاتها

فأوحى إليها الطرف أني أحبها ۞ فأثر ذاك الوحي في وجناتها

(تزيين الأشواق في أخبار العشاق، ص ١٨٤)

وحَّى، أوحى العمل: أسرع فيه، (وسيأتي ذكر أقسام الوحي إن شاء الله).

منهزم: هزم (ض) هزما: صَوَّتَ.

هزم فلانا: كسر شوكته، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ٢٥١)

هزم: كسره وشققه، هزَّم العدو: كسر شوكته كسرا. انهزم: انكسرت شوكته وخاب.

منهزم: متضمن لمعنى (فار)، لأن المنهزم يفر غالبا.

الشياطين: سبق تحقيقه، واشتقاق كلمة (شيطان) وثلاثة أقوال في وجه تسميته، سبق بيانه ضمن البيت رقم: ٢٤.

يقفو: قفا (ن،س) قَفوا وقَفيا: ضربه على قفاه.

قفا الشيء: تبعه، وتجسس عليه، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ (الإسراء: ٣٦)

قفا الأثر: سلك مسلكه.

واسم كتاب العلامة رضي الله محمد بن إبراهيم الحلبي (ت:٩٧١هـ): «قفو الأثر في صفوة علوم الأثر»، طبع بتحقيقات الشيخ عبد الفتاح أبو غدة.

قفى (ض) قَفيا: بمعنى: قفا (ن). قفَّى الشعر: عمل قافية له.

قفَّى: أتى واحد إثر واحد، قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ (الحديد: ٢٧)

اقتفا: تبع أثره.

إثر: أثر (ن) أَثَرًا، وأَثارة: تبعه، ورجحه، أثرَ الحديث: نقله.

أَثِرَ (س) أثَرًا: آثر نفسه على أحد، يقال: خرجت في إثره/ وفي أثَره: تبعته.

الأَثَر: (١)بقية الشيء. (٢) الموت. (٣) الخبر. (٤) البناء القديم، الذكرى القديمة (٥) الحديث الموقوف، ج: آثار.

أَثْرٌ: مصدر أَثَرَ: بمعنى: نقل.

الإعراب:

حتى غدا:

غدا: فعل، منهزم: فاعل. عن طريق الوحي: متعلق بـــ (منهزم).

منهزم من الشياطين: بيان لشخص أو شيء منهزم. يقفو: حال من (منهزم).

يقفو إثر:

يقفو: فعل. (هو) فاعل. يعود على (منهزم)، إثر منهزم: مفعول.

وأيسر التلخيص للبيت: (رمى الملائكةُ الشيطان بالشهب) حتى هرب الشيطان من السماء وهو يتبع شيطانا آخر منهزما مثله.

الشرح:

بيَّن البيت السابق أن الشياطين يقذفون بالشهاب الثاقب، وفي هذا البيت يذكر النتيجة، وهي: إلى متى ترمى بهذه الشهب الثاقبة وما أثرها في الشياطين؟

سبق ذكر حديث صحيح البخاري في البيت السابق بالتفصيل، يتحدث عن قيام الشياطين: «وفرَّج بين أصابع يده اليمنى، ونصب بعضها فوق بعض». أي أن الشياطين يكونون بعضهم فوق بعض مثل تراكم أصابع اليد أو مثل الدرج بعضها فوق بعض، وبهذا الترتيب يقومون، فإذا رمي الشيطان الذي فوقهم بالشهاب، فرَّ، فيفر الشياطين تحته.

يقفو إثر منهزم: يفر بعض الشياطين وراء بعض.

طريق الوحي: المراد به السماء الدنيا وما تحتها، فإن الملائكة يلقى عليهم الأحداث في هذا الطريق.

الوحي: لغة: الإشارة، واصطلاحا: إلقاء الكلام إلى نبي من الأنبياء.

تقسيمات الوحي:

التقسيم الأول: للوحي أربعة أقسام:

(١) الوحي الفطري: إلقاء الله تعالى في فطرة الحيوانات بأن تفعل كذا وكذا، منها قوله قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ (النحل: ٦٨)، أي علم النحل

كيف تصنع العسل. وكذا أوحى إلى النمل بأن تجمع قوتها، لتستفيد منها في موسم آخر.

يقال: إن السنجاب (SQUIRREL)،وكذا نوع منه (CHIPMUNK) يجمعان قوتهما في الصيف، ليستفيدا منه في موسم الشتاء، وبلغ من إحكام عمل هذا الحيوان أن الناس يقيسون بمقدار قوته الذي جمعه مدى درجة الشتاء، فإذا خرج تبين الناس أن الشتاء أوشك على الرحيل، وكان ذلك أول يوم من أيام الربيع. سبحان الله!.

وهذا النوع من الوحي لا يخص الإنسان؛ بل يعم الحيوانات كلها.

(٢) وحي الإيجاد: ألقى الله تعالى في قلب الإنسان بأن الشيء الفلاني يصنع كذا وكذا، وعلَّم الإنسان الوجه المناسب للصنع في كل زمان. وهذا الوحي في حاجة إلى العقل، فكان خاصا بالإنسان، نعم يستوي فيه الكافر والمؤمن، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ﴾ (الإسراء: ٢٠)؛ بل يحظى الكفار بهذا العقل الإيجادي أكثر، وسبقونا في هذا المجال.

(٣) الوحي العرفاني: وهذا النوع يختص بأولياء الله تعالى وخاصة عباده من ذوي العقول، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ (العنكبوت: ٦٩)

ألقى الله تعالى في القلوب بأن يتولوا الدعوة والتبليغ،أو ينشؤوا المدارس الدينية، وقِس عليه غيرها من النشاطات التي تؤدي إلى الله تعالى. قد ألقى الله تعالى ذلك. ومن الأمثلة على الوحي العرفاني، قوله تَعَالَىٰ:﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾ (القصص: ٧)، وإنما أوحى الله تعالى ذلك ليقيه عاديات الطريق.

(٤) وحي النبوة: هذا خاص بالأنبياء.

ويطلق الوحي اصطلاحا على ثلاثة معانٍ:

١- إلقاء الكلام في قلب النبي صلى الله عليه وسلم.

٢- الكلام الذي يلقى في قلب النبي صلى الله عليه وسلم.

٣- السفارة بين رب العباد وبين الأنبياء.

التقسيم الثاني للوحي:

وهذا التقسيم يحصل في ضوء قوله تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولًا﴾ (الشورى: ٥١)

تتحدث الآية الكريمة عن ثلاثة أقسام للوحي، وكل واحد منها على قسمين:

(١) إِلَّا وَحۡيًا: تتعطل فيه الحواس كلها، ويلقى على القلب فقط، وهذا إما في اليقظة وإما في المنام.

في اليقظة: مثل الوحي إلى أم موسى، وفي المنام: مثل: رؤيا إبراهيم عليه السلام.

(٢) أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ: تتعطل فيه العين، وتنشط الأذن، وهو على قسمين:

١- في السماء: كما وقع للنبي صلى الله عليه وسلم في ليلة المعراج. ٢- على الأرض: كما وقع لموسى عليه السلام على الطور.

وليس المراد بقوله: (مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ) أن الله تعالى بين يديه حجاب، وإنما المراد أنه سبحانه لا يُرى.

(٣) أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولًا: تعمل فيه الحواس كلها، تسمع وترى.

وهو على قسمين: الأول: أن ينْزل الرسول في هيئته الأصلية، كما نزل جبرئيل مرتين على هيئته الأصلية على النبي صلى الله عليه وسلم.

الثاني: أن يأتي في صورة بشر، كما كان جبرئيل عليه السلام يأتي النبي صلى الله عليه وسلم في صورة دحية الكلبي رضي الله عنه غالبا.

مزيد من الأقوال:

هذه الأقسام المذكورة هي أهم وأكبر الأقسام، وما عداها من الأقسام يأتي في ضمنها، وحكى الحافظ ابن حجر عن العلامة الحليمي(٤٦) قسما للوحي.(فتح الباري ١/٢٠)

وذكر الشيخ أحمد علي السهارن فوري في حاشيته على صحيح البخاري (ص٢) سبعة أقسام للوحي. جمعتُها في كلمة، مناسبة للوحي: كان صوتا.

ك: كلام من وراء الحجاب.

ألف: إشارة إلى إسرافيل، روي أن الوحي حين توقف لثلاث سنوات كان إسرافيل

ينْزِل. (فتح الباري١/٢٧ و ٩/٤. دلائل النبوة للبيهقي٢/١٣٢)

ن: نفث في روعه: وكذا إشارة إلى الوحي في النوم، وهي الرؤيا الصادقة.

ص: إشارة إلى صلصلة الجرس.

صو: نزول الملك على صورته الأصلية.

ت: تمثل جبرئيل بصورة الغير.

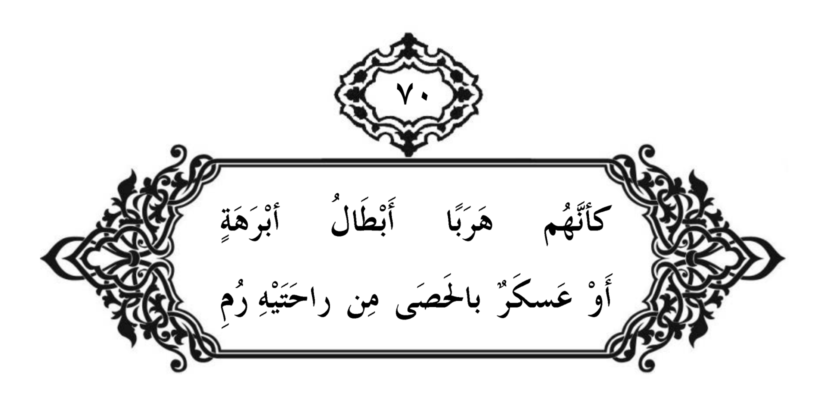
ذكر شيخ الحديث محمد زكريا رحمه الله أقسام الوحي ثم قال: أرى أن هذه الأقسام ترجع إلى أربعة أقسام، وما عداها تبع لها. (لامع الدراري، ص ٣-٤)

الله تعالى خالق هذا الكون ومالكه، أنزل على أشرف مخلوقاته كيف يعيش الحياة، وهذا القانون هو الذي أوحاه إلى الأنبياء عليهم السلام، ثم هذا الوحي على قسمين: ١- متلو. ٢- غير متلو. الوحي المتلو: ما يقرأ في الصلوات، وهو محفوظ عندنا في صورة القرآن الكريم. وأما غير المتلو: فهو الحديث النبوي، نزل معانيه من الله تعالى، واللفظ للنبي صلى الله عليه وسلم.

ثم الفرق بين الوحي والإلهام والكشف أن الوحي مختص بالأنبياء عليهم السلام، وهوقطعي ويقيني، وأما الإلهام فقد يحظى به غير نبي، وليس قطعيا. والفرق بين الكشف والإلهام أن الكشف يتعلق بالمحسوسات، وأما الإلهام فيتعلق بغير المحسوسات والوجدانيات.

لمزيد من التفاصيل راجع: علوم القرآن، للقاضي مظهر الدين أحمد البلغرامي، وعلوم القرآن للمفتي محمد تقي العثماني، وعلوم القرآن للصبحي صالح، وعلوم القرآن للشيخ شمس الحق الأفغاني.

****



اللغة:

هرَبا: هرب (ن) هربا وهروبا: فر، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾ (الجن: ١٢)

هرِبَ (س) هَرَبا: هرم، وأسنَّ. أهرب فلان: أسرع الفرار خوفًا.

التهرُّب: الإعراض، والتهريب:(SMUGGLING).

المهرِّب: الذي يصدر الأمتعة إلى الخارج بصورة غير قانونية.

أبطال: بطل (ن) بُطلا وبُطلانا: (١) ضاع، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (الأعراف: ١٣٩)

(٢) ذهب استعماله.

بطل (س) بَطالةً: استهزأ به. بطل (ك) بُطولة: شجع.

البطل: (١) المصارع. (٢) الفارس. (٣) اللاعب البارز، ج: أبطال.

وإنما سمي المصارع بطلا لأن: (١) دم الناس يضيع عنده. (٢) تتلاشى همم الناس عنده.

الأبطولة: الأسطورة.

أبرهة: لا ينصرف لأجل: ١-العلمية، والتأنيث اللفظي. ٢-العلمية والعجمة. وانصرف في البيت لأجل الضرورة.

ووزنه:

كأَنَّهُم هَرَبًا أبطالُ أبْ رَهَـــةٍ
مَفاعِلُنْ فَعِلُنْ مُسْتَفْعِلُنْ فَعِلُنْ

بما أن وزن (فعلن) أربعة حروف فيجب أن تكون في (رهة) أيضا أربعة حروف،

والتنوين في علم العروض لا يكتب ولكن ينطق.

أبرهة: لقب ملك اليمن، ومعناه لغة: أبيض الوجه. والمراد بأبرهة في البيت هو ابن الصباح، الذي خرج ليهدم الكعبة، يذكر أنه كان يكنى بأبي يكسوم. ويقال له: الأشرم أيضا؛ لأنه كان في أنفه ثقب/جرح. ويروى أن أنفه جرح لإصابته بحجر. (راجع: تاج العروس ٤٦١/٣٢، ٣٤٠/٣٦)

سبق ذكر ألقاب مختلف الملوك في البيت رقم:٦٢ مفصلا.

عسكر: سبق تفصيله في البيت رقم: ٥٧.

بالحصى: حصا (ن) حَصَوًا: منعه. حصى (ض): حصبه/ رمى الحصباء.

حصيت الأرض (س) حصى: كانت ذات حصباء.

حصَى الشيءَ: عده/حفظه. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ (إبراهيم: ٣٤)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ (يس: ١٢)

كلمة إحصاء تشير إلى السبحة السائدة:

وردت كلمة الإحصاء في الأحاديث في باب الذكر، واعلم أن الإحصاء أصله (الذي يستفاد من الكلمة، لأنه مأخوذ من الحصى) هو عد الحصيات. وهذه الكلمة تشير إلى المسبحات السائدة اليوم، فاعتباره بدعة خروج عن المعنى الأصلي. وقد ظهرت بعض الرسائل في هذا الموضوع.

ثم إن البدعة هي اعتبار ما ليس من الدين دينا، ولا يعد أحد السبحة سنة، وإنما هي وسيلة إلى ذكر الله تعالى. كما أن مكبرات الصوت ليست سنة، وإنما يباح استعمالها. أضف إلى ذلك أنه ورد في التسبيح عدة أحاديث:

روى الترمذي في سننه (رقم:٣٥٦٨): أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على امرأة وبين يديها نواة، أو قال: حصاة تسبح بها، فقال: «ألا أخبرك بما هو أفضل؟». ثم علمها كلمات.

في إسناده: خزيمة، وهو مجهول. وأما إسناد ابن حبان والحاكم فليس في إسنادهما خزيمة. وهو سند متصل؛ لأن الراوي عن عائشة بنت سعد وهو سعيد بن أبي هلال قد

أدركها، فإن عائشة توفيت عام ١١٧هـ، وولد سعيد بن أبي هلال عام ٧٠هـ، وتوفي عام ١٣٥هـ، أو عام ١٣٣هـ، وتربى في المدينة المنورة، ولذا قال الحاكم والذهبي والشيخ شعيب الأرنؤوط (في تعليقه على صحيح ابن حبان): إسناده متصل. وصححوه. (راجع: صحيح ابن حبان، رقم:٨٣٧. المستدرك للحاكم ٥٤٨/١)

ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على صفية وبين يديها أربعة آلاف نواة تسبح بها، قال: ألا أعلمك بأكثر مما سبحت؟ فقلت: بلى علمني. فقال: «قولي: سبحان الله عدد خلقه». في إسناده هاشم بن سعيد وهو ضعيف، وأورد ابن حجر في نتائج الأفكار(٨٣/١) إسنادا آخر لهذا الحديث، وحسّنه. وفي إسناده حديج بن معاوية –بدلا من هاشم–، قال الحافظ ابن حجر فيه في التقريب: «صدوق يخطئ». وروي هذا الحديث بطرق متعددة أخرى.

وجاء في فاطمة بنت حسين: «تسبح بخيوط معقود فيها».(طبقات ابن سعد٥٥٦/٩، وكان شيخ ابن سعد: عبد الله بن موسى الشيعي).

وكان عند أبي هريرة خيط، فيه ألفا عقدة. (حلية الأولياء٣٨٣/١)

وذكر يحي بن معين سبحة يحيى بن سعيد.(سير أعلام النبلاء ١٨٠/٩)

وذكر العلامة السخاوي سبحة الحافظ ابن حجر. (الجواهر والدرر١١١/١)

وذكر الإمام النووي في''تهذيب الأسماء واللغات'' إباحة السبحة.(١٤٣/٣).

وفي رواية: «نعم المذكر السبحة».(الغرائب الملتقطة من مسند الفردوس لابن حجر، رقم: ٢٦٥٤، وفي إسناده محمد بن هارون وعبد الصمد بن موسى، ضعيفان)

ولمزيد من التفاصيل راجع إلى الرسائل المكتوبة في هذا الصدد.

(١) ولعل أول رسالة في موضوع مشروعية السبحة وإباحة استعمالها عملها العلامة السيوطي سماها: «المِنحة في السبحة». وهي رسالة وجيزة، جمع فيها الآثار المتعلقة بها، و نشرت الرسالة في نهاية المجلد الثاني من كتاب الحاوي للفتاوي.

(٢) وللشيخ عبد الحيي اللكنوي رسالة محققة جامعة سماها: «نزهة الفكر في سبحة الذكر مع حاشية النفحة». وهي مطبوعة مع مجموعة رسائل اللكنوي المجلد الأول. فصّل الشيخ الكلام على مشروعية السبحة في ضوء الأحاديث والآثار وكلام المحدثين و

الفقهاء، مشفوعا بالأدلة والبراهين. وذكر فوائد اتخاذ السبحة وكشف الشبهات المتعلقة بها، ثم أورد بعض المسائل الفقهية الخاصة بالسبحة.

وعلاوة على هاتين الرسالتين عملت رسائل عدة في الموضوع، منها ما عملها الذين ذهبوا إلى المنع، غير أن جمهور العلماء قالوا بجوازها، من أبرز هذه الرسائل:

١- «الملحة فيما ورد في أصل السبحة» لمحمد بن علي المعروف بابن طولون تلميذ السيوطي، ت:٩٥٣هـ.

٢- «إيقاد المصابيح لمشروعية المسابيح» لمحمد بن علي بن محمد المعروف بابن علان، ت:١٠٥٧هـ.

٣- «تحفة أهل الفتوحات والأذواق في اتخاذ السبح وجعلها في الأعناق»، لمحمد عبد السلام بن حمدون المعروف بالبناني، المكي، ت: ١١٦٣هـ.

٤- وفصل الشيخ محمد بن ناصر الدين بن الحاج الألباني (ت: ١٤١٠هـ) الكلام على الموضوع بالتفصيل في «نعم المذكر السبحة».(سلسلة الأحاديث الصحيحة١/١٨٤-١٩٣، رقم: ٨٣)

٥- وصول التهاني بإثبات سنية السبحة والرد على الألباني للشيخ محمود سعيد ممدوح.

٦- السبحة تاريخها وحكمها للشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد من كبار علماء نجد.

٧- رسالة إلى المنصفين، ردا على كتاب السبحة والمنكرين المعاصرين، وهي رد على رسالة الشيخ بكر بن عبد الله المذكورة.

وعمل الشيخ عبد الله الهرري الحبشي أيضا رسالة في الرد على الألباني، كما نشرت وتنشر في العصر الحاضر مقالات في المجلات حول الموضوع.

وأخيرًا نلخص الكلام ونسوق نصين:

(١) بما أن كثيرا من المانعين يعتبرون العلامة ابن تيمية قدوة لهم، فيحسن بنا أن نسوق نصه: قال الشيخ: « أما التسبيح بما يجعل في نظام من الخرز ونحوه فمن الناس من كرهه، ومنهم من لم يكرهه، وإذا أحسنت فيه النية فهو حسن غير مكروه». (مجموع الفتاوى٢٢/٥٠٦)

(٢) يقول العلامة السيوطي رحمه الله(ت:٩١١هـ): ولم يُنقل عن أحد من السلف ولا من الخلف المنع من جواز عد الذكر بالسبحة، بل كان أكثرهم يعدونه بها، ولا يرون ذلك مكروهًا». (الحاوي للفتاوى٢/٧)

الحصاة: الحصباء. حصاة بولية: الحصاة التي تخرج من القبل.

راحتيه: راح (ن) رَواحا: جاء أو ذهب مساء

قال الشاعر:

تروح إلى العطار تبغي شبابها ۞ ولن يصلح العطار ما أفسده الدهر

أي أن هذه العجوز تروح إلى محلات التجميل(Beauty parlour) ليعود إليها شبابها.

أنشد بعض الأعراب أبياتا في زوجته بعد الزواج، ومنها هذا البيت الذي سبق. (راجع: بلغة السالك لأحمد الصاوي٢/٢٧٣. موارد الظمآن لدروس الزمان ٤/٢٤٥)

معنى آخر لـ راح: المجيء والذهاب مطلقا من غير تحديده بوقت من الأوقات.

الروحة: الذهاب أو المجيء ما بين وقت الزوال إلى الغروب.

وفي الحديث: «الغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها». (صحيح البخاري، رقم:٢٧٩٢، باب الغدوة والروحة في سبيل الله)

راح (ن) رَواحا وراحة وراحا: فرح بالشيء، وهش له.

راح (ض) الشيء ريحا: وجد ريحه.

راح (س) يراح ريحا: اشتدت الريح، رَوِحَ (س) رَوحا: توسع وامتد.

راح بين العملين: استبدل بعضهما بعضا.

رَوَّح بالمروحة: حرك المروحة، وأصابه بالريح.

الراحة: الكف،ج: راحٍ. وإنما سمي الكف راحة لأن معناها الفرح والاستقرار، وإذا وضعت شيئا على الراحة استقر، وصين، وليس كذلك إذا وضعت على الأنامل.

الراحة: ١- الكف. ٢- الفرح والاطمينان. ٣- الفناء.

رُم: رَمى (ض) رَماء: نما. رمى (ض) رميا ورمية : ١- قذف. ٢- قصد.

أرمى الشيءُ: نما. رامى مراماة: سابقه في الرمي.

الرماية: مهنة الرمي. ارتمى: ١- سابقه. ٢- نما.

الإعراب:

هم: الضمير يعود على الشياطين في البيت السابق.

هَرَبا: (١) حال أي كأن الشياطين وهم يهربون مثل جيش أبرهة. (٢) تمييز: إن الشياطين كانوا مثل جيش أبرهة هربًا.

أو عسكر: عطف على (أبطال). بالحصى من راحتيه: متعلق بـــ (رمى).

والتقدير: ١- رمى من راحتيه بالحصى. ٢- رمى بالحصى مقذوفا براحتيه.

عسكر بالحصى:

عسكر: موصوف. رمى بالحصى: صفته.

الشرح:

بين الناظم رحمه الله في البيت هروب الشياطين بمثالين وتشبيهين، ويتضمن ذلك معجزتين من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم.

مثال: (١) حين يقذف الشياطين بالشهب من الله تعالى يهربون كما هرب جيش أبرهة، حين أرسل الله عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من السجيل.

مثال: (٢) رمى النبي صلى الله عليه وسلم كفار قريش بالحصباء يوم بدر، وهرب الشياطين هروبَ كفار مكة يومئذ.

وإليكم القصتين باختصار:

أصحاب الفيل:

يعد هذا من إرهاصات النبي صلى الله عليه وسلم. والإرهاص ما يظهر من الأحداث أو العلامات يشبه المعجزة في خرقه العادات. والرهص: حجر الزاوية. وهذه الآيات تشكل مقدمة لإثبات نبوة الأنبياء عليهم السلام، وتمهيدا لها، فيطلق عليها الإرهاصات في الاصطلاح.

حدثت قصة أصحاب الفيل قبل مولد النبي صلى الله عليه وسلم بخمسين أو خمس و خمسين يوما، وهي قصة مشهورة في كتب السيرة. ونزل القرآن الكريم بسورة خاصة بذلك، والقصة باختصار فيما يلي:

إن أبرهة — عامل ملك الحبشة في اليمن- أراد أن يبني كنيسة لم ير مثلها في زمانها في الأرض، وأراد أن ينصرف العرب من الحج إلى مكة المكرمة إلى الكنيسة التي بناها. فعمل كنيسة بلغ من ارتفاعه أن الواقف لا يصل بصره إلى أعلاه، وزينه بالذهب والفضة و الجواهر. و أعلن في حكومته كلها أنه لن يحج الكعبة أحد من اليمن بعد اليوم، وليعبد في هذه الكنيسة. فوقع حدثان بعد هذا الإعلان:

(١) أن رجلا من كنانة أحدث في الكنيسة ليلا.

(٢) أن رجلا من العرب مسافرا أوقد النار بالقرب من الكنيسة لبعض حاجته، فأصابت لفحة من النار الكنيسة، فاحرقتها، وأصابتها بأضرار فادحة. وقيل: احترقت الكنيسة كلها وعادت رمادا.

ولا منافاة بين القصتين، وبلغ أبرهة ذلك فغضب غضبا شديدا، وعزم ألا يقعد حتى يخرب الكعبة. فجهز للسفر، واستأذن ملكه النجاشي بذلك، فأرسل إليه فيله الخاص به، اسمه «محمود» بالإضافة إلى أفيال أخرى عدة. اختلف في عددها. وقال له: اربطوا أعمدة الكعبة بسلاسل متينة طويلة، واجعلوا طرفها الآخر في أعناق الأفيال،وسوقوها فإن بيت الله —والعياذ بالله- سيقع على الأرض مرة واحدة.

فخرج بجيش عظيم وعدد من الأفيال... فما مر بقبيلة من قبائل العرب في طريقه وقفت في وجهه إلا هزمه شر هزيمة، وورد أن ذا نفر عرض له بجماعة، كما عرض له نفيل بن حبيب بقبيلته، فلم يقم أحد منهم في وجه أبرهة؛ لأن الله تعالى أراد أن تتجلى هزيمة أبرهة وفضيحته على مرأى من الناس، ويعرفه القريب والبعيد. وأرسلت قبيلة ثقيف رجلا منها وهو أبو رغال لينصر أبرهة ويدله على الطريق. ويروى أن قبر أبي رغال يرميه الناس بالحجارة بعد ما مات؛ لأنه دل أبرهة على الطريق.

فلما بلغوا المغمس قريبا من مكة، حيث كانت قريش ترعى إبلها، هجم جيش أبرهة عليها، واستولوا عليها، منها مئتا إبل كانت لعبد المطلب —جد رسول الله صلى الله عليه وسلم-، وبعث أبرهة حناطة الحميري إلى مكة وقال له: سل عن سيد أهل هذا البلد وشريفهم، ثم قل له: إن الملك يقول: إني لم آت لحربكم إنما جئت لهدم هذا البيت فإن لم تعرضوا لنا دونه بحرب فلا حاجة لي بدمائكم. فلما دخل حناطة مكة سأل عن سيد

قريش وشريفها فقيل له عبد المطلب بن هاشم. فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة.

قال ابن إسحاق: فقال له عبد المطلب: والله ما نريد حربه ومالنا بذلك من طاقة، هذا بيت الله الحرام. فقال له حناطة: فانطلق معي إليه، فإنه قد أمرني أن آتيه بك.

وقد مَنَّ الله تعالى على عبد المطلب بفاقد الحسن والجمال، والهيبة العظيمة، والوقار، لا يراه أحد إلا هابه. فلما رآه أبرهة هابه، ونزل من سريره، وجلس وأجلس عبد المطلب بجواره، ثم قال لترجمانه: قل له حاجتك؟ فقال له ذلك الترجمان، فقال: حاجتي أن يرد علي الملك مئتي بعير أصابها لي. فلما قال له ذلك، قال أبرهة لترجمانه: قل له لقد كنت أعجبتني حين رأيتك ثم قد زهدت فيك حين كلمتني. أتكلمني في مئتي بعير أصبتها لك وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئتُ لأهدمه لا تكلمني فيه؟ فقال له عبد المطلب إني أنا رب الإبل، وإن للبيت ربا سيمنعه. فسكت أبرهة هنيهة ثم رد على عبد المطلب إبله.

وعاد عبد المطلب وأقبل على الدعاء، وخرج معه جماعة كبيرة من قريش يدعون و يستنصرون الله على أبرهة وجيشه.

لاهُمَّ إنَّ الْمَرْءَ يَمْـ ۞ ـنَعُ رَحْلَهُ فَامْنَعْ رِحَالَكْ

وَانْصُرْ عَلَى آلِ الصَّلِيبِ ۞ وَ عَابدِيهِ الْيَوْمَ آلَكْ

لا يَغْلِبَنَّ صَلِيبُهُمْ ۞ وَ مِحَالُهُمْ غَدْوًا مِحَالَكْ

جَرُّوا جُمُوعَ بلادهم ۞ وَ الفيلَ كي يَسْبُوا عِيَالَكَ

عَمَدُوا حِمَاكَ بِكَيْدِهِمْ ۞ جَهْلاً وَمَا رقَبُوا جَلالَكَ

إن كُنْتَ تَارِكَهُمْ وَكَعْـ ۞ ـبَتَنَا فأمرٌ مَا بَدا لَكَ

بجانب أبيات أخرى كثيرة يذكرها كتب التاريخ، إلا أن ما ذكره عدد من كتب التفاسير ذكرناه آنفا، ومنها:

ياربِّ لا أرجو لهم سِواكا ۞ يا رب فامنع منهم حماك

إن عدو البيت من عاداكا ۞ فامنعهم أن يخرِّبوا قُراكا

(وللاستزادة مما روي عن عبد المطلب بهذه المناسبة من الأبيات راجع: تاريخ الطبري٤٤٢/١. الكامل لابن الأثير٣٤٣/١. إعلام النبوة للماوردي ٢٤٠/١)

صعد عبد المطلب بالناس –بعد ما تضرع إلى الله تعالى– إلى الجبال، فلما أصبح أبرهة استعد للهجوم على الكعبة، وقدَّم فيلَه المسمى بــ محمود، وأقبل نفيل بن حبيب– الذي أسره أبرهة في الطريق– حتى قام إلى جنب الفيل، ثم أخذ بأذنه، فقال: ابرك محمود، أو ارجع راشدًا من حيث جئت، فإنك في بلد الله الحرام، ثم أرسل أذنه. فبرك الفيل. وضربوه ليقوم فأبى، فضربوا في رأسه بالطبرزين ليقوم فأبى، فأدخلوا محاجن لهم في مراقه فبزغوه بها ليقوم فأبى، فوجهوه راجعا إلى اليمن، فقام يهرول، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى مكة فبرك.

وكان الشيخ المفتي محمود الكنكوهي يقول: إن محمودا احترم اسمه، فلم يتقدم، فكان فعله أيضا محمودا.

وفي جانب آخر ظهر طير أبابيل من البحر مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها: حجر في منقاره، وحجران في رجليه، أمثال الحمص والعدس، ويذكر عن هذه الطيور قصص غريبة، فبدأت ترمي بها جيش أبرهة، وكان كل حجر يعمل عمل البندقة، ولا يصيب أحدا منهم إلا نفذ فيه حتى يخرج من أسفله، وفرت الأفيال إلا فيلا واحدا، ولم يهلك الجيش كله في مكان واحد وإنما تفرقت مصارعهم في الطريق، وجرِح أبرهة، ولم يمت على الفور، وسرى السم في جسده، ووصل إلى صنعاء وهو على ذلك، وتفرقت جسده بها ومات. (مقتبس من: معارف القرآن ٨/٨١٨–٨٢٠. سيرت مصطفى١/٤٢–٤٤٤. تفسير ابن كثير٤/٥٨٤–٥٨٧. للاستزادة منه راجع: التحرير و التنوير٣٠/٤٧٩–٤٨١؛ روح المعاني٣٠/٢٣٣–٢٣٦؛ السيرة النبوية لابن كثير١/٣٠–٣٦. الروض الأنف١/١١١–١٢٩. شرح الزرقاني على المواهب. سبل الهدى والرشاد ١/٢١٤–٢٢٢؛ دلائل النبوة للبيهقي ١/١١٥–١٢٥)

مكانة قريش في أعقاب قصة أصحاب الفيل هذه:

(١) كان من آثار هذه القصة العجيبة أن عظمت مكانة قريش في عيون العرب كلهم، و قالوا: هؤلاء أهل الله، وقد تولى الله تعالى الانتقام لهم من عدوهم.

(٢) ولم تكن قريش تحظى بهذا النصر الغيبي إلا لأنه قد تقرر خروج نبي آخر الزمان في هذه القبيلة، وإلا فإن ملك حبشة واليمن كانا خيرا من قريش دينا؛ لأن قريشا كانوا مشركين، وأما أهل اليمن والحبشة فكانوا نصارى، كما أراد الله تعالى بذلك

الحفاظ على بيته سبحانه وتعالى.

وصول الحصباء التي رمى بها النبي صلى الله عليه وسلم إلى عيونهم جميعا:

يشير البيت إلى قصة أخرى، وهي أن النبيّ صلى الله عليه وسلم رمى بالحصباء إلى الكفار فأصابت عين كل واحد منهم، وذلك يوم بدر وحنين.

حديث يوم بدر:

جاء في سيرة ابن هشام: «إن رسول الله صلى الله عليه وسلم عدل صفوف أصحابه يوم بدر...، ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ حفنة من الحصباء فاستقبل قريشا بها، ثم قال: شاهت الوجوه، ثم نفحهم بها». (سيرة ابن هشام ١٧٦/٣، غزوة بدر الكبرى)

وفي دلائل النبوة: «فجعل الله تبارك وتعالى تلك الحصباء عظيما شأنها، لم تترك رجلا من المشركين إلا ملأت عينيه...، كل رجل منهم منكبا على وجهه، لا يدري أين يتوجه؟ يعالج التراب ينْزعه من عينيه». (دلائل النبوة ١١٣/٣)

وقال ابن كثير: «وأنزل الله في ذلك ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ (الأنفال: ١٧)، وهكذا قال عروة وعكرمة ومجاهد ومحمد بن كعب ومحمد بن قيس وقتادة وابن زيد وغيرهم: إن هذه الآية نزلت في ذلك يوم بدر». (السيرة النبوية لابن كثير ٤٣٥/٤)

روى العلامة السيوطي في قوله تعالى ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ عددا من الأحاديث في هذا المعنى. (الدر المنثور٤/٤٢٩. وينظر: الخصائص الكبرى١/٣٤٤. سبل الهدى والرشاد ٤٨/٤. روح المعاني١٨٤/٩. تفسير الرازي ٤٦٧/١٥. تفسير ابن كثير ٣٢٧/٢)

رمي الحصباء يوم حنين:

في حديث طويل عن ابن عباس رضي الله عنه: « ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم حصيات فرمى بهن وجوه الكفار، ثم قال: « انهزموا ورب محمد». قال: فذهبت أنظر فإذا القتال على هيئته فيما أرى، قال: فوالله، ما هو إلا أن رماهم بحصياته فما زلت أرى حدهم كليلا، وأمرهم مدبرا».(صحيح مسلم، رقم:١٧٧٥)

وفي رواية لمسلم: فلما غشوا رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل عن البغلة، ثم قبض قبضة من تراب من الأرض، ثم استقبل به وجوههم، فقال: «شاهت الوجوه»، فما خلق الله منهم إنسانا إلا ملأ عينيه ترابا بتلك القبضة، فولوا مدبرين».(صحيح مسلم، رقم:١٧٧٧. وينظر: السيرة النبوية لابن كثير ٦٢٨/٣. سبل الهدى والرشاد ٣٢٣/٥-٣٢٦)

رمي الحصيات وقع يوم بدر ويوم حنين كليهما:

ذهب العلامة الطيبي ومن تبعه إلى أن رمي النبي صلى الله عليه وسلم بالحصيات لم يقع إلا يوم حنين، ورد تفصيله في صحيح مسلم وغيره من كتب الحديث، و لم ينقل مثل هذه القصة يوم بدر في كتب الحديث، و لم يختلف جمهور المحدثين وأصحاب السير والتاريخ في أن هذه القصة وقعت مرتين: يوم بدر ويوم حنين.

ويقول العلامة ابن القيم –وهو يتحدث عن غزوات النبي صلى الله عليه وسلم بصورة عابرة-: «ورمى فيها الحصباء في وجوه المشركين، فهربوا وكان الفتح، في غزوتين: بدر وحنين». (زاد المعاد ١٣٢/١)

ويقول العلامة السيوطي: تفرد العلامة الطيبي بإنكاره هذه القصة، و لم ينظر في الروايات الكثيرة التي ورد فيها وقوع هذه القصة يوم بدر. ونبه الحافظ ابن حجر على أن هذه القصة رويت بطرق عدة، ذكرها الطبري والواقدي. كما سبق أن الحافظ ابن كثير ذكر هاتين القصتين، وأعرضنا عن كلام المحدثين خشية الطول. (للاستزادة من هذا البحث راجع: الفتح السماوي بتخريج أحاديث القاضي البيضاوي للعلامة المناوي ٦٥١/٢. وتخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري للزيلعي ١٨/٢-٢٠. وروح المعاني١٨٥/٩)

رُمي: رُم: صدر الرميُ في الواقع والظاهر من النبي صلى الله عليه وسلم إلا أنه لم يُنسب إليه صلى الله عليه وسلم؛ لأن التأثير من الله تعالى. وإلى هذا المعنى يشير القرآن الكريم: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ (الأنفال: ١٧)

تطرق المفسرون في تفسير هذه الأية إلى أن الأمور العادية إذا كانت بحيث لا عمل للعبد فيه إلا ظاهرا، وأن التأثير فيها ليس إلا بأمر الله تعالى، فما وجه تخصيص هذه القصة؛ حيث نسب الرمي إلى الله تعالى؟

وأيسر الأجوبة عنه أن إصابة قبضة من الحصى عيون الأعداء كلهم، وبالتالي

انهزامهم يفوق الطاقة البشرية، فكأنه لم يكن له صلى الله عليه وسلم دخل فيها، وإنما كان يتجلى فيها نعمة من الله تعالى وفضل منه، فنسب إليه سبحانه .(راجع: روح المعاني ١٨٦/٩. وقد استنبط المفسرون أحكاما أخرى من هذه الآية)

أبطال أبرهة:

(١) وصف أفراد جيش أبرهة بالأبطال استهزاء بهم، وإلا فإنهم ليسوا أبطالاً حيث فروا وهربوا.

(٢) كانوا أبطالا في أول الأمر، ثم ضعفوا أمام قدرة الله تعالى.

من راحتيه:

سؤال: ما سبب تثنية (راحتيه) مع أنه رمى بالحصيات بيد واحدة، فكان اللازم إفرادها: راحة ؟

الجواب عنه:

(١) لضرورة الشعر.

(٢) وقعت قصة رمي الحصى مرتين، كما ذكرنا مفصلا، فالمقصود في البيت الإشارة إلى هاتين القصتين، ولذا قال: راحتيه بالتثنية.

البلاغة:

كأنهم هربا: ساق الناظم قصة أصحاب الفيل على أنه تفريع –لا على أنها معجزة برأسها/ إرهاص–. والتفريع: أن يتبع الشاعر وصف شيء بوصف آخر له، مما يؤكد الموصوف.

قال الشاعر:

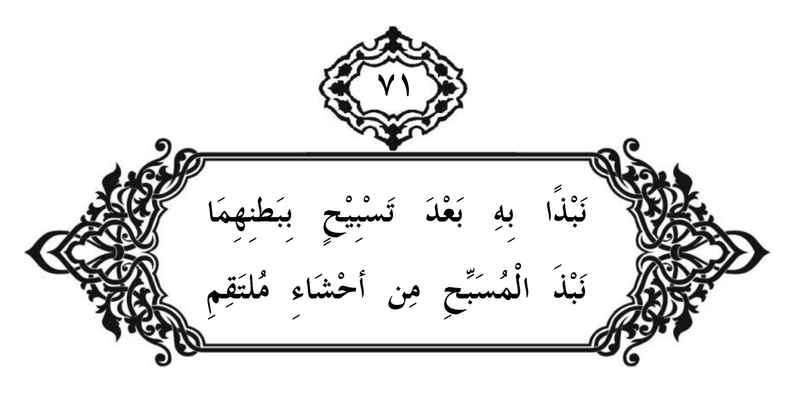
أحلامهم لسقام الجهل شافية ۞ كما دماؤكم يشفي بها الكَلِبُ

الكلِب: إنسان عضه الكلب.

ذكر في الشطر الأول الشفاء من مرض الجهل، وذكر في الشطر الثاني الشفاء من عض الكلب. (مختصر المعاني، ص٢٨٣)

وقيل: الشطران تشبيه تمثيل. فشبه هيئة فرار الشياطين بفرار جيش أبرهة في الشطر الأول، وشبه صورة فرار الشياطين بصورة فرار الكفار عند الحرب.

****



حاصل المعنى: الحجر المنبوذ المسبح من بطن كفي رسول الله صلى الله عليه وسلم كيونس عليه السلام المسبِّح من بطن الحوت.

اللغة:

نَبْذًا: نبذ (ض) نَبَذَانا: خفق، تحرك النبض.

نبذ الشيءَ: رماه وقذفه، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَنَبَذْنَهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ (الصافات: ١٤٥)

النبذ: رمي الشيء باليد، واللفظ: رمي الشيء بالفم، أكلت التمرة ولفظت النواة.

نبذ العهدَ: نقضه، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ (الأنفال: ٥٨)

نَبَّذَ: عمل النبيذ، النبيذ: الخمر المتخذة من العنب والتمر ونحوهما، تترك أياما فتقذف بالزبد.

أنواع الخمر المختلفة وحكمها:

خلاصة كلام فقهاء الأحناف فيما يلي:

١- الخمر حقيقة: نيء من ماء العنب إذا غلا واشتد وقذف بالزبد. يكفَّر جاحد حرمتها، ويحد شاربه، أسكرت أم لا.

٢- عصير التمر والزبيب: ما أسكر. وعصير العنب ما ذهب أقل من ثلثيه بالطبخ لا يكفر جاحد حرمته ولا يحد إذا شرب ما لم يسكر، وإن لم يجز شربه.

٣- يسع استعمال ما اتخذ من غير العنب والتمر والزبيب إذا لم يسكر، في التداوي أو مزجه بالأدوية.

النبذة: قطعة من الشيء وجزء منه.

به: زيادة الباء بعد الفعل (نبذ)؛ لأنه يتعدى بغيرها- للتأكيد. نبذًا به: أي ألقى الحصى بقوة.

تسبيح: سبح (ف) سَبْحا وسَباحة: عامَ. سبح الفرس: جرى سريعا.

سبح فلان: ١- جرى. ٢- حفر. ٣- استراح. أبعد في السير، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلًا﴾ (المزمل: ٧) عبّرَ عن سعيه صلى الله عليه وسلم في الدعوة والإرشاد بـــ (سبح)، لأن:

(١) ينتشر رذاذ الماء حين يسبح الإنسان، كذلك ينتشر رذاذ النور حين يقوم النبي صلى الله عليه وسلم بالجولات الدعوية.

(٢) يغمر الماء جسد السابح كذلك يستخدم الداعي جسده كله حين يدعو الناس إلى الحق. فرأسه وقلبه يتفكر في دعوة الدين، وجسده يمشي، وعيناه تنظران، وهكذا جميع أعضائه تشتغل في أمر الدين.

سبَّح الله: نزّهه، وعظّمه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ (الصف: ١)

السابح: العائم. السابحات: (١) السفن. (٢) النجوم. (٣) الملائكة التي تسرع بالأرواح. وأطلق السباحة على الملائكة لأن الرذاذات فيها نور، والملائكة يشع منهم النور.

السبّوح: من صفات الله تعالى: المنَزه من كل عيب. وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في ركوعه وسجوده: سبوح قدوس رب الملائكة والروح.(صحيح مسلم، رقم:٤٨٧)

بطنهما: بطن (س) بَطَنا: ١- أصابه مرض البطن. ٢- بطر. ٣- زاد غناه.

بطِنٌ: المعاني الثلاثة السابقة. بطن (ك) بَطانة: ١- عظم بطنه. ٢- أصيب بوجع الكبد.

أبطن: الثّوْب جعل له بطانة.

الباطن: ١-الداخل من الشيء، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ (الأنعام: ١٢٠)

٢- اسم من أسماء الله تعالى، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُ﴾ (الحديد: ٣)، المعنى: اختفى الله تعالى بالنظر إلى كنه ذاته اختفاءً لا يدركه الخلق.

البطن: ١- الجوف، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ﴾ (النور: ٤٥)

٢- داخل كل شيء، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ﴾ (الفتح:٢٤)

٣- المرة الْوَاحِدَة من النِّتَاج وَالزَّرْع، يقال: ولدت ثلاثة في بطن واحد، ج: بطون، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾ (النحل: ٦٦)

أحشاء: حشا (ن) حَشوا: ملأ اللحاف وغيره قطنا.

الحشا: الأمعاء، ج: أحشاء. والأمعاء ملآنة أيضًا، فسميت بها.

المراد بالأحشاء في البيت الجوف، وسبق تحقيقه في البيت رقم: ٣٠.

ملتقم:

لقم (ن) لَقْمًا: منعه، وسده. لقم (س) لَقَمًا: أكل سريعا.

ألقمه الطعام: جعله يلقم.

ألقمه الحجر: أفحمه عند البحث، وأسكته.

التقم الشيء: ابتلعه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ﴾ (الصافات: ١٤٢)

الإعراب:

نبذًا: نَبذ: (١) مصدر (رُميَ) من غير لفظه، وأصله: رميا. فإنه ورد في البيت السابق (رُميَ). ومن أمثلته: قعدتُ جلوسًا.

وفي القرآن الكريم والسنة النبوية عدد من الأمثلة على المصدر من غير لفظه، منها قوله تَعَالَىٰ: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗ﴾ (الأنبياء: ٣٥)، وقوله تَعَالَىٰ: ﴿وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا﴾ (الإسراء: ٤٦)، وقوله تَعَالَىٰ: ﴿أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدًا﴾ (الإسراء: ٤٩)

وفي الحديث: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد». (صحيح البخاري، رقم: ١٠٠)

(٢) نبذها نبذا بعد تسبيح: فهو مفعول مطلق لفعل مقدر.

به: ١- أي بالحصا. به: متعلق بـــ (نبذا)، ٢- صفة (نبذا).

بعد تسبيح: التنوين عوض عن المضاف إليه. أصله: بعد تسبيح الحصى. حذف (الحصى) فعوض عنه التنوين.

ببطنهما: المراد بـــ (هما) راحتان.

نبذ المسبح: منصوب بنَزع الخافض. والتقدير: كنبذ المسبح. فحدف الحرف (ك).

من أحشاء: الجار والمجرور متعلق بـــ (نبذا).

نبذ المسبح:

(١) نبذ: أي كنبذ المسبح، مصدر مبني للمفعول، ككون (النبي) المسبح منبوذا.

(٢) نبذ: مضاف. المسبح: مضاف إليه مفعول، فاعله محذوف: كنبذ الله المسبحَ.

من أحشاء (حوت) ملتقم: الموصوف محذوف.

الشرح:

شبه نبذ النبي صلى الله عليه وسلم الحصى بنبذ يونس عليه السلام من بطن الحوت حيًّا. ووجه الشبه بين الأمرين ما يلي:

(١) كلاهما أمر خارق للعادة. فوصول قبضة من الحصى إلى عيون الكفار كلهم على خلاف العادة، ويفوق القدرة البشرية. وكذلك نبذ يونس عليه السلام سالما من بطن الحوت خلاف العادة، فشبه ما كان على خلاف العادة بما هو على خلاف العادة.

(٢) سبحت الحصى كما سبح يونس عليه السلام.

(٣) يجمع بين القصتين النجاة. فقصة يونس عليه السلام فيها نجاته، وقصة الحصى فيها نجاة المسلمين.

بعد تسبيح: أي بعد تسبيح مسموع: والمراد بالتسيح التسبيح الذي سمعه الحاضرون، وإلا فإن تسبيح كل شيء في ذاته من المسلمات، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ (الإسراء: ٤٤)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ

صَٰٓفَّٰتٍۖ﴾ (النور: ٤١)

قصص تسبيح الحصى:

(١) عن أبي ذر رضي الله عنه قال: إني لشاهد عند النبي صلى الله عليه وسلم في حلقة، وفي يده حصى، فسبحن في يده، وفينا أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، فسمع تسبيحهن من في الحلقة، ثم دفعهن النبي صلى الله عليه وسلم إلى أبي بكر، فسبحن مع أبي بكر، سمع تسبيحهن من في الحلقة، ثم دفعهن إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسبحن في يده، ثم دفعهن النبي صلى الله عليه وسلم إلى عمر، فسبحن في يده، وسمع تسبيحهن من في الحلقة، ثم دفعهن النبي صلى الله عليه وسلم إلى عثمان بن عفان، فسبحن في يده، ثم دفعهن إلينا، فلم يسبحن مع أحد منا. (المعجم الأوسط للطبراني٥٩/٢، و٢٤٥/٤)

وأخرجه البزار مطولا بقصة، وفيه: «فتناول النبي صلى الله عليه وسلم سبع حصيات أو تسع حصيات، فسبحن في يده حتى سمعت لهن حنينا كحنين النحل».(وذكر مثله في أبي بكر وعمر وعثمان. (مسند البزار، رقم:٤٠٤٠-٤٠٤٤)

سرد هذه الرواية عدد من المحدثين والمحققين وأيدوها أو سكتوا عليها، ولا يمكن إحصاؤهم جميعا، و لم نتوخ ذلك، نذكر أسماء بعضهم:

الحافظ ابن حجر العسقلان: فتح الباري (٥٩٢/٦)، و الحافظ ابن كثير الدمشقي: البداية النهاية (١٤٧/٦). العلامة شمس الدين الذهبي: تاريخ الإسلام (٤٧٣/٣). والمحدث الكبير الإمام الطبراني: المعجم الأوسط (٥٩/٢). وجلال الدين السيوطي: جامع الأحاديث (رقم: ٣٦٠٤٩). و المحدث ابن أبي عاصم: السنة (رقم:٩٥٠). والعلامة أبو بكر الهيثمي: مجمع الزوائد (٥٢٧/٨). وقال: رواه البزار بإسنادين. ورجال أحدهما ثقات. وفي بعضهم ضعف). و المحدث المتقي الهندي: كنْز العمال (٣٨٧/١٢)، والحافظ ابن حجر الهيتمي: الصواعق المحرقة (ص ٢٣٢)، و الشيخ ناصر الدين الألباني: ظلال الجنة في تخريج أحاديث السنة لابن أبي عاصم (٣٠٨/٢).

وكتب السيرة كلها تقريبا تذكر هذه القصة، ولذا أعرضنا عن سردها. وبعد هذه

البينة الواضحة لا يبقى من شك في ذلك ومجال للإنكار.

ملحوظة: وذكر الحصى هذا باجتماعها، وفيه عبرة لمن ينكر إباحة الاجتماع على الذكر جهرًا.

(٢) روي مثله عن أنس رضي الله عنه: روى ابن عساكر بسنده عن ثابت البناني عن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ حصيات في يده، فسبحن، حتى سمعنا التسبيح... (وذكر مثله في أبي بكر وعمر وعثمان) وفي آخره: ثم صيرهن في أيدينا رجلا رجلا فما سبحت حصاة منهن. (تاريخ مدينة دمشق ١٢٠/٣٩. وكنْز العمال٤٠٧/١٢. وأعلام النبوة للماوردي ١٦٣/١. و الخصائص الكبرى ١١٦/٢. والشفا ص ٢٢٩. مرقاة المفاتيح ١١، باب المعجزات).

(٣) وقدم وفد من رؤساء حضرموت على النبي صلى الله عليه وسلم، ذكرت كتب السيرة تفاصيله، وطلب الوفد من النبي صلى الله عليه وسلم آية على نبوته، فأخذ قبضة من الحصى، فسبحن في يده، فأسلم الوفد.

قال أبو نعيم: ثنا أبو محمد...عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قدم ملوك حضرموت على رسول الله صلى الله عليه وسلم... قالوا: كيف نعلم أنك رسول الله؟ فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم كفا من حصى، فقال: هذا يشهد أني رسول الله. فسبح الحصى في يده. فقالوا: نشهد أنك رسول الله...».(دلائل النبوة لأبي نعيم، ص ١٩٠-١٩١)

وهذا أيضا اجتماع على الذكر.

ولفظ حديث نوادر الأصول في هذه القصة — الذي أخرجه العلامة السيوطي-:

«قال: فضرب بيده إلى حفنة حصباء، فأخذها فقال: هذا يشهد أني رسول الله، قال: فسبحن في يده، وقلن: نشهد أنك رسول الله». (نوادر الأصول ٢١٧/٢. الدر المنثور٣٣٤/٥، و٧٧/٧. وعلاوة على هذه المصادر الثلاثة جاءت هذه القصة في الكتب التالية: الخصائص الكبرى ١١٦/٢. السيرة الحلبية ٢٦٠/٣. سبل الهدى والرشاد٥٠٣/٩. الطيوريات، رقم:١٢٤٦)

وحاصل التفاصيل السابقة أن الحصى سبحت في يد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسمعه من حضره.

إيراد: يفيد سياق البيت وسباقه أن الحصيات التي رمى بها النبي صلى الله عليه

وسلم إلى الكفار هي اللاتي سبحن في يده قبل أن يرمي بها، مع أن الحديث لا يفيد ذلك.

تفيد القصص المذكورة أعلاه أن الحصيات سبحن في الجملة في يده الشريفة، لا أنها سبحن عند الرمي بهذه المناسبة خاصة ؟

والجواب عنه من وجهين:

(١) لم نعثر على هذه الرواية، وربما عثر الناظم على رواية تاريخية في ذلك، تفيد بأن الحصيات سبحن قبل رميه بهن.

(٢) أيسر الأجوبة عنه: أن معجزة الرمي كانت بعد معجزة التسبيح.

أي معنى قوله: (بعد تسبيح) حصلت معجزة تسبيح الحصى قبل معجزة الرمي، ثم حصلت معجزة رمي الحصيات إلى الكفار. ولا يلزم أن تتابع المعجزات على الفور. ثم علم أن معجزة تسبيح الحصى من دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، حصلت بعد البعثة، ومعجزة رمي الحصيات حصلت بعدها في بدر وحنين.

انتهى الفصل الرابع، ولله الحمد.

أبيات قصيدة البردة من الفصل الأول إلى الفصل الرابع

الفصل الأول في ذكر عشق رسول الله صلى الله عليه وسلم

(بيت ملحق)

الحَمْدُ للهِ مُنْشِي الْخَلْقِ مِنَ عَدَمِ ۞ ثُمَّ الصَّلاةُ عَلَى الْمُخْتَارِ فِي القِدَمِ

....

١ أمِنْ تَذَكُّرِ جيرانٍ بذي سَلَمِ ۞ مَزَجْتَ دَمعًا جرى مِن مُقلَةٍ بِدَمِ

٢ أَم هَبَّتِ الريحُ مِن تلقاءِ كاظِمَةٍ ۞ أو أومَضَ البرقُ في الظَّلماءِ مِن إضَمِ

٣ فما لِعَينيك اِن قُلتَ اكْفُفَا هَمَتَا ۞ وَمَا لِقَلْبِكَ إِنْ قُلْتَ استَفِقْ يَهِمِ

٤ أَيَحْسَبُ الصَبُّ أَنَّ الحُبَّ مُنكَتِمٌ ۞ مَا بَيْنَ مُنْسَجِمٍ مِنْهُ وَ مُضْطَرِمِ

٥ لَوْلا الْهَوَى لَمْ تُرِقْ دَمعًا عَلَى طَلَلٍ ۞ وَلا أَرِقْتَ لِذِكْرِ البَانِ وَ العَلَمِ

(بيت ملحق)

وَ لا أَعَارَتْكَ لَوْنَي عَبْرَةً وَضَنى ۞ وَلا أَرِقْتَ لِذِكْرِ الْبَانِ وَ الْعَلَمِ

....

٦ فَكَيْفَ تُنْكِرُ حُبًّا بَعْدَ مَا شَهِدَت ۞ به عَلَيْكُ عُدولُ الدَمعِ وَ السَّقَمِ

٧ وَ أثْبتَ الوَجْدُ خطَّي عَبْرَةٍ وَ ضَنَى ۞ مثلَ البَهَارِ عَلَى خَدَّيْكَ وَ العَنَمِ

٨ نَعَم سَرَى طَيْفُ مَنْ أَهْوَى فَأَرَّقَنِي ۞ وَ الْحُبُّ يَعْتَرِضُ اللَّذَّاتِ بِالأَلَمِ

٩ يَا لائِمِي فِي الهَوَى العُذْرِيِّ مَعْذِرَةً ۞ مِنِّي إِلَيْكَ وَ لَو أَنْصَفْتَ لَم تَلُمِ

١٠ عَدَتْكَ حَالِي لا سِرِّي بِمُسْتَتِرٍ ۞ عَنِ الوُشَاةِ وَ لا دَائِي بِمُنْحَسِمِ

١١ مَحَّضْتَنِي النُّصْحَ لكِنْ لَستُ أَسْمَعُهُ ۞ إنَّ المُحِبَّ عَنِ العُذَّالِ فِي صَمَمِ

١٢ إِنِي اتَّهَمْتُ نصيحَ الشَّيْبِ فِي عَذَلِي ۞ وَ الشَّيْبُ أبعَدُ فِي نُصْحٍ عَنِ التُّهَمِ

الفصل الثاني في منع هوى النفس

١٣ فإنَّ أمَّارَتِي بالسُّوءِ ما اتَّعَظَتْ ۞ مِن جَهْلِهَا بنَذِيرِ الشَّيْبِ وَ الْهَرَمِ
١٤ وَ لا أعَدَّتْ مِنَ الفِعلِ الجميلِ قِرَى ۞ ضَيفٍ أَلَمَّ برَأسِي غَيْرَ مُحْتَشِمِ
١٥ لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنِّي مَا أُوَقِّرُهُ ۞ كَتَمْتُ سِرًّا بَدَا لِي مِنْهُ بِالْكَتَمِ
١٦ مَن لِي بِرَدِّ جَمَاحٍ مِن غَوَايتِهَا ۞ كَمَا يُرَدُّ جِمَاحُ الْخَيْلِ بِاللُّجُمِ
١٧ فَلا تَرُمْ بِالْمَعَاصِي كَسْرَ شَهْوَتِهَا ۞ إنَّ الطَّعامَ يُقوِّي شَهْوَةَ النَّهِمِ
١٨ وَالنَّفْسُ كَالطِّفلِ إنْ تُهمِلْه شَبَّ عَلَى ۞ حُبِّ الرِّضَاعِ وَ إنْ تَفْطِمْهُ يَنفَطِمِ
١٩ فاصْرِفْ هَوَاهَا وَ حَاذِرْ أَن تُوَلِّيَهُ ۞ إنَّ الْهَوَى مَا تَوَلَّى يُصْمِ أو يَصِمِ
٢٠ وَ رَاعِهَا وَهْيَ فِي الأعْمَالِ سَائِمَةٌ ۞ وإنْ هِيَ استَحْلَتِ الْمَرْعَى فَلا تُسِمِ
٢١ كَمْ حَسَّنَتْ لَذَّةً لِلْمَرْءِ قَاتِلَةً ۞ مِن حَيْثُ لم يَدْرِ أَنَّ السُّمَّ فِي الدَّسَمِ
٢٢ وَاخْشَ الدَّسَائِسَ مِن جوعٍ وَمِن شِبَعٍ ۞ فَرُبَّ مَخْمَصَةٍ شَرٌّ مِنَ التُّخَمِ
٢٣ وَاسْتَفْرِغِ الدَّمْعَ مِن عَيْنٍ قَدِ امْتَلأتْ ۞ مِنَ الْمَحَارِمِ وَالْزَمْ حِمْيَةَ النَّدَمِ
٢٤ وَخَالِفِ النَّفْسَ وَالشَّيْطانَ وَاعْصِهِمَا ۞ وإنْ هُمَا مَحَّضَاكَ النُّصْحَ فاتَّهِمِ
٢٥ وَ لا تُطِعْ مِنْهُمَا خَصْمًا وَ لا حَكَمًا ۞ فَأَنْتَ تَعْرِفُ كَيْدَ الخَصْمِ وَ الحَكَمِ
٢٦ أَسْتَغْفِرُ اللهَ مِنْ قَوْلٍ بلا عَمَلٍ ۞ لَقَدْ نَسَبْتُ بِهِ نَسْلاً لِذِي عُقَمِ
٢٧ أَمَرْتُكَ الْخَيْرَ لكِنْ مَا ائْتَمَرْتُ بِهِ ۞ وَمَا اسْتَقَمْتُ فَمَا قَوْلِي لَكَ اسْتَقِمِ
٢٨ وَ لا تَزَوَّدْتُ قَبْلَ الْمَوْتِ نَافِلَةً ۞ وَ لَمْ أُصَلِّ سِوَى فَرْضٍ وَ لَمْ أَصُمِ

الفصل الثالث في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم

٢٩ ظَلَمْتُ سُنَّةَ مَن أَحْيَا الظَّلامَ ۞ إلى أَنِ اشْتَكَتْ قَدَمَاهُ الضُّرَّ مِن وَرَمِ
٣٠ وَ شَدَّ مِن سَغَبٍ أَحْشَاءَهُ وَ طَوَى ۞ تَحْتَ الحِجَارَةِ كَشْحًا مُتْرَفَ الأَدَمِ
٣١ وَ رَاوَدَتْهُ الْجِبَالُ الشُّمُّ مِن ذَهَبٍ ۞ عَنْ نَفْسِهِ فَأَرَاهَا أَيَّمَا شَمَمِ
٣٢ وَ أَكَّدَتْ زُهْدَهُ فِيْهَا ضَرُوْرَتُهُ ۞ إِنَّ الضَّرُوْرَةَ لا تَعْدُو عَلَى العِصَمِ

٣٣ وَكَيْفَ تَدْعُو إلى الدُّنْيَا ضَرُوْرَةُ مَنْ ۞ لَوْلاهُ لَمْ تُخْرَجِ الدُّنْيَا مِنَ الْعَدَمِ

٣٤ مُحَمَّدٌ سَيِّدُ الكَوْنَيْنِ وَ الثَّقَلَيْنِ ۞ وَ الفَرِيقَيْنِ مِنْ عُربٍ وَ مِنْ عَجَمِ

٣٥ نَبِيُّنَا الآمِرُ النَّاهِي فَلا أَحَدٌ ۞ أَبَرَّ فِي قَوْلِ لا مِنْهُ وَ لا نَعَمِ

٣٦ هُو الحَبِيْبُ الَّذِي تُرْجَى شَفَاعَتُهُ ۞ لِكُلِّ هَوْلٍ مِنَ الأَهْوَالِ مُقْتَحَمِ

٣٧ دَعَا إلى اللهِ فَالْمُسْتَمْسكُوْنَ بهِ ۞ مُسْتَمْسكُوْنَ بحَبْلٍ غَيْرِ مُنفَصِمِ

٣٨ فَاقَ النَّبِيِّيْنَ فِي خَلْقٍ وَ فِي خُلُقٍ ۞ وَلَمْ يُدَانُوْهُ فِي عِلْمٍ وَ لا كَرَمِ

٣٩ وَ كُلُّهُمْ مِن رَسُوْلِ اللهِ مُلتَمِسٌ ۞ غَرْفًا مِنَ البَحْرِ أَوْ رَشْفًا مِنَ الدِّيَمِ

٤٠ وَ وَاقِفُوْنَ لَدَيْهِ عِنْدَ حَدِّهِمِ ۞ مِن نُقطَةِ العِلْمِ أو مِن شَكْلَةِ الحِكَمِ

٤١ فَهْوَ الَّذِي تَمَّ مَعْنَاهُ وَ صُوْرَتُهُ ۞ ثُمَّ اصْطَفَاهُ حَبِيْبًا بَارِئُ النَّسَمِ

٤٢ مُنَزَّهٌ عَنْ شَرِيْكٍ فِي مَحَاسِنِهِ ۞ فَجَوْهَرُ الْحُسْنِ فِيْهِ غَيْرُ مُنقَسِمِ

٤٣ دَعْ مَا ادَّعَتْهُ النَّصَارَى فِي نَبِيِّهِمِ ۞ وَاحْكُمْ بِمَا شِئْتَ مَدْحًا فِيْهِ وَاحْتَكِمِ

٤٤ وَانْسُبْ إلى ذَاتِهِ مَا شِئْتَ مِنْ شَرَفٍ ۞ وَانْسُبْ إلى قَدْرِهِ مَا شِئْتَ مِنْ عِظَمِ

٤٥ فَإِنَّ فَضْلَ رَسُوْلِ اللهِ لَيْسَ لَهُ ۞ حَدٌّ فَيُعْرِب عَنْهُ نَاطِقٌ بِفَمِ

٤٦ لَوْ نَاسَبَتْ قَدْرَهُ آيَاتُهُ عِظَمًا ۞ أَحْيَا اسْمُهُ حِيْنَ يُدْعَى دَارِسَ الرِّمَمِ

٤٧ لَمْ يَمْتَحِنَّا بِمَا تَعِيَا العُقُوْلُ بِهِ ۞ حِرْصًا عَلَيْنَا فَلَمْ نَرْتَبْ وَ لَمْ نَهِمِ

٤٨ أَعْيَا الوَرَى فَهْمُ مَعْنَاهُ فَلَيْسَ يُرَى ۞ فِي القُرْبِ وَ البُعْدِ فِيْهِ غَيْرُ مُنفَحِمِ

٤٩ كَالشَّمْسِ تَظْهَرُ لِلْعَيْنَيْنِ مِنْ بُعُدٍ ۞ صَغِيْرَةً وَ تُكِلُّ الطَّرْفَ مِن أَمَمِ

٥٠ وَكَيْفَ يُدْرِكُ فِي الدُّنْيَا حَقِيْقَتَهُ ۞ قَوْمٌ نِيَامٌ تَسَلَّوا عَنْهُ بِالْحُلُمِ

٥١ فَمَبْلَغُ العِلْمِ فِيْهِ أَنَّهُ بَشَرٌ ۞ وَ أَنَّهُ خَيْرُ خَلْقِ اللهِ كُلِّهِمِ

٥٢ وَ كُلُّ آيٍ أَتَى الرُّسْلُ الكِرَامُ بِهَا ۞ فَإِنَّمَا اتَّصَلَتْ مِن نورِهِ بِهِمِ

٥٣ فَإِنَّهُ شَمْسُ فَضْلٍ هُمْ كَوَاكِبُهَا ۞ يُظهِرْنَ أَنْوَارَهَا لِلنَّاسِ فِي الظُّلَمِ

(بيت ملحق)

حَتَّى إِذَا طَلَعَتْ فِي الْكَوْنِ عَمَّ هُدَا ۞ هَا الْعَالَمِيْنَ وَ أَحْيَتْ سَائِرَ الأُمَمِ

....

٥٤ أَكْرِمْ بِخَلْقِ نَبِيٍّ زَانَهُ خُلُقٌ ۞ بالْحُسْنِ مُشْتَمِلٍ بالبِشْرِ مُتَّسِمِ
٥٥ كَالزَّهْرِ فِي تَرَفٍ وَالبَدْرِ فِي شَرَفٍ ۞ وَ الْبَحْرِ فِي كَرَمٍ وَ الدَّهْرِ فِي هِمَمِ
٥٦ كَأَنَّهُ وَ هْوَ فَرْدٌ مِن جَلالَتِهِ ۞ فِي عَسْكَرٍ حِيْنَ تَلْقَاهُ وَ فِي حَشَمِ
٥٧ كَأَنَّمَا اللُّؤْلُؤُ الْمَكْنُوْنُ فِي صَدَفٍ ۞ مِنْ مَعْدِنَيْ مَنْطِقٍ مِنْه وَ مُبْتَسَمِ
٥٨ لا طِيْبَ يَعدِلُ تُرْبًا ضَمَّ أَعْظُمَهُ ۞ طُوبَى لِمُنتَشِقٍ مِنْهُ وَ مُلْتَثِمِ

الفصل الرابع في مولد النبي صلى الله عليه وسلم

٥٩ أَبَانَ مَوْلِدُهُ عَنْ طِيْبِ عُنْصُرِهِ ۞ يَا طِيْبَ مُبتَدَإٍ مِنْهُ وَ مُخْتَتَمِ
٦٠ يَوْمٌ تَفَرَّسَ فِيْهِ الفُرْسُ أَنَّهُمُ ۞ قَدْ أُنْذِرُوا بِحُلُولِ البُؤْسِ وَ النِّقَمِ
٦١ وَ بَاتَ إِيوَانُ كِسْرَى وَ هْوَ مُنْصَدِعٌ ۞ كَشَمْلِ أَصْحَابِ كِسْرَى غَيْرَ مُلتَئِمِ
٦٢ وَ النَّارُ خَامِدَةُ الأَنْفَاسِ مِنْ أَسَفٍ ۞ عَلَيْهِ وَ النَّهْرُ سَاهِي الْعَيْنِ مِنْ سَدَمِ
٦٣ وَ سَاءَ سَاوَةَ أَنْ غَاضَتْ بُحَيرَتُهَا ۞ وَرُدَّ وارِدُهَا بالغَيْظِ حِيْنَ ظَمِي
٦٤ كَأَنَّ بِالنَّارِ مَا بِالْمَاءِ مِنْ بَلَلٍ ۞ حُزْنًا وَ بِالْمَاءِ مَا بِالنَّارِ مِنْ ضَرَمِ
٦٥ وَ الْجِنُّ تَهْتِفُ وَ الأَنْوَارُ سَاطِعَةٌ ۞ وَ الْحَقُّ يَظْهَرُ مِن مَعْنًى وَ مِن كَلِمِ
٦٦ عَمُوا وَ صَمُّوا فَإِعْلانُ البَشَائِرِ لَمْ ۞ تُسْمَعْ وَ بَارِقَةُ الإِنْذَارِ لَمْ تُشَمِ
٦٧ مِنْ بَعْدِ مَا أَخْبَرَ الأَقْوَامَ كَاهِنُهُم ۞ بِأَنَّ دِيْنَهُمُ الْمُعْوَجَّ لَمْ يَقُمِ
٦٨ وَ بَعْدَ مَا عَايَنُوا فِي الأُفْقِ مِنْ شُهُبٍ ۞ مُنْقَضَّةٍ وَفْقَ مَا فِي الأَرْضِ مِنْ صَنَمِ
٦٩ حَتَّى غَدَا عَنْ طَرِيْقِ الوَحْيِ مُنهَزِمٌ ۞ مِنَ الشَّيَاطِينِ يَقْفُو إِثْرَ مُنهَزِمِ
٧٠ كَأَنَّهُمْ هَرَبًا أَبْطَالُ أَبْرَهَةٍ ۞ أَوْ عَسْكَرٌ بِالْحَصَى مِن راحَتَيْهِ رُمِ
٧١ نَبْذًا بِهِ بَعْدَ تَسْبِيْحٍ بِبَطْنِهِمَا ۞ نَبْذَ الْمُسَبِّحِ مِنْ أَحْشَاءِ مُلْتَقِمِ

انتهى الفصل الرابع

فهرس الموضوعات

****